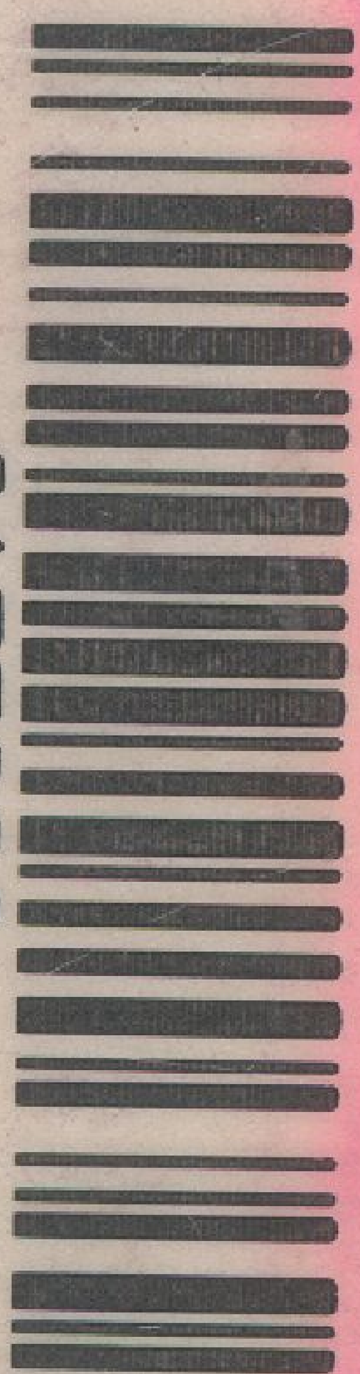









اقرأ

سلة ثقافية شهرية
صدر عن دار المعارف

دكتور ناجي محمد هلال

إدمان المخدرات
رؤية علمية واجتماعية



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٦]

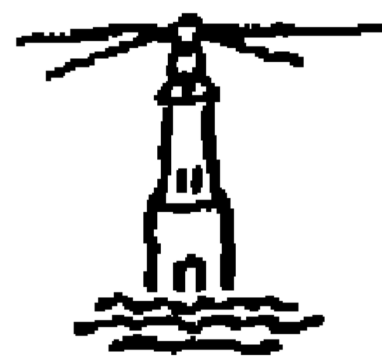
تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

دكتور ناجى محمد هلال

إدمان المخدرات

رؤية علمية واجتماعية



دار المعارف

إن الذيـن عنـوا بإنشـاء هـذه السلسـلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فـى شـىء واحـد ، هو نشر الثقـافة مـن حيـث هـى ثقافـة ، لا يريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشـعوب العربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تدعوهـم هذه القـراءة إلى الاستـزادة مـن الثقافـة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقـى وأخصـب من الحياة العقليـة التـى نحياها .

طه حسين

مقدمة

تعود مشكلة تعاطى المخدرات إلى فجر الحياة الاجتماعية الإنسانية، إلا أنها فى كل الأحوال كانت مشكلة محصورة فى نطاق محدود، ومن السهل السيطرة عليها من خلال ما يطرح من حلول.

أما الآن فمن الملاحظ أن مشكلة تعاطى المخدرات تعتبر سمة من سمات هذا العصر ومن أخطر المشكلات الاجتماعية التى تجتاح أغلب مجتمعات العالم بصفة عامة ومجتمعنا العربى بصفة خاصة ومجتمعنا المصرى على الأخص.

ولعل من أهم المؤشرات التى تعكس لنا مدى خطورة هذه المشكلة ما يلى:

- تكتسب هذه المشكلة طابعا عالميا واسع النطاق. فأخطارها لا تهدد المجتمع العربى فحسب وإنما تهدد أيضا الكثير من المجتمعات سواء المتقدمة أو النامية.

- تشيع المشكلة فى مختلف الطبقات الاجتماعية. فمن المتعاطين من ينتمون إلى أسر ذات مستويات اقتصادية واجتماعية مرتفعة ومنهم أيضا من ينتمون إلى مستويات اقتصادية واجتماعية منخفضة ومتوسطة.

● تهدد هذه المشكلة الأفراد في مختلف مراحلهم العمرية، غير أنها أكثر شيوعا لدى قطاعات الشباب وهم ذخيرة المجتمع وعدته للمستقبل.

● تزايد الإقبال فى السنوات الأخيرة على تعاطى مواد مخدرة أشد خطورة مقارنة بالمواد التى كانت منتشرة فيما قبل، حيث شهدت الثمانينات ظهور الهيروين والكوكايين وانتشارهما على نطاق واسع.

● تقترن مشكلة تعاطى المخدرات بوقوع العديد من المشكلات والأمراض الاجتماعية الأخرى ومنها على سبيل المثال تدهور الصحة الجسمية والنفسية وسوء التوافق الاجتماعى وتفاقم السلوك الإجرامى مما يهدد سلامة المجتمع وأمنه.

● تتكلف الدول مئات المليارات سواء بسبب المخدرات والاتجار فيها أو بسبب ما يُنفق فى سبيل إعداد الخطط والحملات التى تستهدف مكافحة مهربى المخدرات وموزعيها وعلاج المدمنين ورعايتهم وتأهيلهم وكان من الأجدى أن توجهَ هذه الموارد إلى برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

والواقع إنه إذا كانت كل هذه المخاطر الناجمة عن تعاطى المخدرات قد جسدت خطورة هذه المشكلة ودفعت فى نفس الوقت العديد من المتخصصين إلى الاهتمام بها، إلا أنه من المُلاحَظ أن هذا الاهتمام يكاد ينحصر فى النظرة الطبية والنفسية والأمنية. أما التفسير الاجتماعى لهذه المشكلة فهو محدود للغاية، فضلا عن أنه يستند إلى النظريات الغربية فى

التحليل متجاهلا فى ذلك خصوصية مجتمعنا العربى كما لم يتخذ من سياقه الاجتماعي والثقافى إطارًا مرجعيا فى التحليل.

لذلك جاءت هذه الدراسة كمحاولة متواضعة للتغلب على هذا القصور من جانب والإسهام فى تشكيل رأى عام مستنيرحول هذا الموضوع لدى الشباب العربى من جانب آخر مندفعين فى سبيل تحقيق ذلك من واقع إحساس عميق بمسئولية الأمانة العلمية.. وبدافع من الانتماء القومى والوطنى.

دكتور/ ناجى محمد هلال

مدرس علم الاجتماع

بجامعة قناة السويس

تمهيد

يتعاطى أغلب المدمنين المخدرات بحثا عن المتعة واللذة أو أملا في التخفيف من الضغوط والتوترات التي يتعرضون لها في حياتهم أو على الأقل تحقيق الهروب المؤقت من مشاكلهم.

ولقد كانت مشكلة تعاطي المخدرات معروفة دائما في كثير من المجتمعات ومنذ فترات زمنية بعيدة. ولقد أخذت هذه المشكلة تتراوح بين الاحتدام والخفوت وظلت تتغير في طبيعتها. ولكنها دأبت على البقاء في إطار معين لا تتعداه.

إلا أن العقود الأخيرة شهدت تفاقما لمشكلة المخدرات. فمن الملاحظ أن أعداد المدمنين في تزايد مستمر في مختلف مناطق العالم. بحيث يمكن القول أن هذه الزيادة العالمية تشكل نوعا من الانفجار الهائل. كما تغيرت الصورة بسرعة مذهلة. فبعد أن كان الإدمان في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن قاصرا على الشرائح الاجتماعية وسكان المناطق المتخلفة والمجرمين. أصبح الإدمان منتشرا في كافة الشرائح الاجتماعية والمهنية المختلفة.

ومما يعكس خطورة مشكلة إدمان المخدرات بشكل أكثر وضوحا. ما يترتب عليها من مشكلات اجتماعية عديدة. تعوق تقدم المجتمع. كانتشار الجريمة والزنى واللواط. وكافة الممارسات الجنسية من الاعتداء على المحارم من الأمهات والأخوات وما يصحب ذلك من تفكك للبناء الاجتماعي. فضلا عن انتشار الأمراض المزمنة والأوبئة وموجات القلق

والاكتئاب والانتحار على نطاق واسع. أضف إلى ذلك ضعف الإنتاجية وهدر موارد المجتمع.

ويعتبر التفجر المفاجئ فى تعاطى الهيروين وزيادة أعداد متعاطية فى معظم أجزاء العالم مسئولا إلى حد كبير عن ظهور هذه المجموعة الضخمة والمدمرة من المشكلات الاجتماعية والصحية. حيث أنه فى رأى العلماء والمتخصصين من أخطر أنواع المخدرات وأكثرها تدميرا.

والواقع أن الدول العربية على وجه الخصوص، ومع ما شهدته من تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة فى الآونة الأخيرة، تعتبر من أكثر مناطق العالم التى تعانى من تزايد أعداد مدمنى الهيروين، وإذا لم تكن لدينا إحصاءات رسمية دقيقة متاحة تعكس حجم انتشار ظاهرة تعاطى الهيروين فى الدول العربية. إلا أن هناك دراسة أجراها المكتب العربى لشئون المخدرات وشاركت فيها ثلاثة عشر دولة عربية عن مدى خطورة كل نوع من أنواع المخدرات فى كل دولة عربية على حدة، تبين أن الهيروين يأتى فى المرتبة الأولى للبحرين، والثانية بالنسبة لتونس والثالثة للسعودية والرابعة لقطر ومصر، والخامسة بالنسبة للمغرب. ويرى البعض أن وراء ذلك مخططات أجنبية وعلى رأسها إسرائيل، وذلك بهدف تخريب المنطقة اجتماعيا وأخلاقيا واقتصاديا.

أهمية الدراسة:

لما كانت الدراسة الراهنة تركز على دراسة ظاهرة إدمان الهيروين فإنه يمكن تحديد أهميتها من خلال الاعتبارات الآتية:

١ – أن معظم الدراسات التى حاولت دراسة وتحليل ظاهرة إدمان الهيروويين دراسات غربية تعكس أحوال الإنسان الغربى فى ظل ظروف معينة. ومن ثم فإن استخلاصاتها يمكن تعميمها على الإنسان الغربى. فى حين أن مجتمعاتنا العربية لها خصوصية تميزها. وبالتالى فإننا بحاجة إلى دراسات تستند إلى الأصول المنهجية التى تساعدنا فى تحليل وتفسير مشكلة إدمان الهيروويين فى ضوء ظروف ومعطيات مجتمعنا العربى.

٢ – ندرة الدراسات المهتمة بعلاقة تعاطى المخدرات – ومن بينها الهيروويين – بطبيعة السياق الاجتماعى والثقافى. وحتى القليل من الدراسات التى أجريت فى هذا الشأن لا تسلم من عيوب منهجية تقلل من درجة الثقة فيما تنتهى إليه من نتائج.

٣ – إن الهيروويين من أكثر أنواع المخدرات إحداثا للإدمان. حيث تكفى حقنتان أو ثلاث بشكل متتالى لإدخال متعاطية إلى عالم الإدمان، وذلك لأنه يصل إلى الحاجز الدموى الدماغى بسهولة وسرعة شديدة. مما يؤدى إلى تغيير الوظائف الحيوية للمخ ويخضعها لتأثيره المدمر. فضلا عن إحداثه للمتعاطى نوعا من الاعتماد النفسى والجسمى أضف إلى ذلك أن المشكلات الصحية والاجتماعية المقترنة بتعاطيه، تفوق المشكلات المقترنة بتعاطى أى نوع آخر من أنواع المخدرات.

٤ – تشير بعض التقارير والإحصاءات المتاحة. وكذلك ما ينشر فى الصحف ووسائل الإعلام، فضلا عما لاحظه الباحث سواء فى المجتمع السعودى أو المجتمع المصرى ومراكز علاج الإدمان بهما – خاصة وأن

الباحث كان يعمل لمدة عامين كمسئول عن قسم الخدمة الاجتماعية بمستشفى الأمل بجده - أن الهيروويين من أكثر أنواع المخدرات التى ينتشر تعاطيها فى الآونة الأخيرة بصورة ملموسة نسبيا.

٥ - هذا بالإضافة إلى الأهمية المجتمعية التى يمكن أن تتضح فى إمكان الاسترشاد بما جاء فى الدراسة الراهنة لرسم سياسات ووضع برامج وقائية وعلاجية للتغلب على مشكلة إدمان الهيروويين والحد من انتشارها.

أهداف الدراسة:

فى ضوء تلك الأهمية تسعى الدراسة الراهنة إلى تحقيق هدفا أساسيا عاما يتمثل فى الآتى:

● الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف فيما يتعلق بظاهرة إدمان الهيروويين فى كل من المجتمع السعودى والمجتمع المصرى وذلك لتعميق فهمنا للظاهرة من أجل علاجها وقبل ذلك الوقاية منها.

وينبثق عن هذا الهدف الأساسى أهداف فرعية أهمها:

١ - التعرف على الخصائص الاجتماعية لمدمنى الهيروويين فى مجتمعى الدراسة «السعودى والمصرى».

٢ - الكشف عن أكثر المتغيرات الاجتماعية ارتباطا بإدمان الهيروويين فى مجتمعى الدراسة.

٣ - الكشف عن طبيعة السياق الاجتماعى الذى يحدث فيه إدمان الهيروويين فى مجتمعى الدراسة.

٤ - تحديد نمط وطبيعة سلوكيات تعاطى الهيروويين فى مجتمعى الدراسة. هى إذن دراسة وصفية استطلاعية تهدف إلى تحديد أهم ملامح ظاهرة إدمان الهيروويين فى المجتمع السعودى والمصرى، سواء من حيث الخصائص الاجتماعية للمدمنيين وطبيعة ونمط تعاطى الهيروويين. فضلا عن أنها دراسة تحليلية تحاول تفسير هذه الظاهرة والكشف عن العوامل الاجتماعية التى تدفع إلى إدمان هذا المخدر.

الإطار التصورى للدراسة:

باعتبار إن إدمان الهيروويين أحد صور السلوك الاجتماعى المنحرف. فإنه يمكن القول أن الدراسة الراهنة ستنطلق فى دراسة هذه الظاهرة من تراث علم اجتماع الانحراف. ومما يجدر الإشارة إليه أن الانحراف كظاهرة اجتماعية، كانت محور اهتمام اتجاهات نظرية عدية لعل أهمها:

١ - اتجاه اللامعيارية Anomie.

٢ - اتجاه الثقافة الفرعية Subculture.

٣ - اتجاه رد الفعل الاجتماعى Social reaction.

٤ - اتجاه التفاعلية الرمزية Symbolic inter actionism.

وفيما يتعلق بالاتجاه الأول - اللامعيارية - فى تفسير الانحراف. فلقد ارتبط استخدام اللامعيارية فى تفسير الظواهر الاجتماعية «دور كايم». وفى رأيه أن الانحراف وانعدام المعايير ينجم عن أى خلل فى

التوازن سواء كان هذا الخلل مؤديا إلى نتائج إيجابية أو نتائج سلبية، فأى تغيرات مفاجئة فى النظام الاجتماعى، تؤدى إلى حالة من اللامعيارية أو التفكك الاجتماعي فمثلا الكساد الاقتصادى أو الرخاء الاقتصادى حالتان تمثلان تغيرا مفاجئا فى النظام الاجتماعى يترتب عليه درجة من اللامعيارية والانحراف.

وإذا كان «دور كايم» قد فسر الانحراف فى ضوء ما يشهده النظام الاجتماعى من تغيرات مفاجئة. فإن «روبرت ميرتون» طور فكرة اللامعيارية وربط الانحراف بالقصور الذى يعترى البناء الاجتماعى. ففى رأيه أن البناء الاجتماعي يمارس ضغوطا على بعض الأفراد تدفعهم إلى الانحراف. وذلك بسبب تأكيده على نفس الأهداف للجميع، ولكن فى نفس الوقت يحرم البعض من الوسائل الشرعية لتحقيق هذه الأهداف. وبذلك يأتى السلوك المنحرف كانعكاس لظاهرة الانفصام بين الأهداف والوسائل فى البناء الاجتماعى.

وأما **الاتجاه الثانى - الثقافة الفرعية** - فيعزى الانحراف إلى انتشار أنماط السلوك المنحرف فى بعض الثقافات الفرعية داخل المجتمع، ومن ثم يأتى الانحراف نتيجة تعرض بعض الأفراد لهذه الثقافة وما تنطوى عليه من أنماط سلوكية منحرفة.

ويأتى بعد ذلك **الاتجاه الثالث - رد الفعل الاجتماعى** - حيث يرى أن الانحراف يأتى بسبب تطبيق المجتمع للقواعد والجزاءات على أولئك الذين يخرجون عن الموافقات الاجتماعية. فالمريض العقلى لا يكتسب هذه الصفة: إلا إذا أقر الطبيب النفسى أنه كذلك، والمنحرف

لا يوصف بهذا اللقب إلا إذا نعته المجتمع بذلك أو أقرت المحكمة أنه مدان. وبذلك يكون المنحرف هو أحد الأشخاص الذين تطبق عليهم هذه الصفة، والسلوك الانحرافى هو السلوك الذى يرتكبه هؤلاء الأفراد.

وأخيرا يأتى **اتجاه التفاعلية الرمزية**. الذى يرد الانحراف إلى سوء عملية التنشئة الاجتماعية نتيجة غياب أو فشل الجماعات الأولية فى أداء دورها فى حياة الفرد. والواقع أنه إذا كان كل مدخل من هذه المداخل قد قدم منظورا مفيدا أسهم فى تحليل وتفسير السلوك المنحرف. إلا أنه يمكن القول إن أكثر هذه الاتجاهات شمولا وعمقا فى التحليل هو اللامعيارية، وذلك مقارنة بالاتجاهات الأخرى التى تتسم بنظرتها الجزئية الضيقة فى التفسير. ولذلك فإن الدراسة الراهنة فى معالجتها لإدمان الهيروويين فى مجتمعى الدراسة ستنطلق من اتجاه اللامعيارية للاعتبارات الآتية:

١ – إن اللامعيارية هى أكثر الاتجاهات المفسرة للانحراف اتساما بالشمول النسبى حيث أنها تفسر الانحراف فى إطار البناء الاجتماعى كله وما يشهده من تغيرات. ومما لا شك فيه أنه لا يمكن دراسة أى ظاهرة اجتماعية دون النظر إلى البناء الاجتماعى ككيان ديناميكى. فظاهرة إدمان الهيروويين والكشف عن أكثر المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بها من الصعب تناولها بمعزل عن البناء الاجتماعى فى مجتمعى الدراسة.

٢ – تقدم اللامعيارية نموذجا تفسيريا للسلوك المنحرف داخل العديد من السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة فى حين أن الاتجاهات الأخرى تفسر الانحراف فى إطار محدود كجماعة معينة أو ثقافة معينة.

٣ - تكشف اللامعيارية عن كافة صور الانحراف التي تنتشر داخل البناء الاجتماعي ككل. في حين أن الاتجاهات الأخرى تكشف عن صور محدودة للانحراف وفي إطار سياقات اجتماعية محدودة أو معينة.

٤ - تتسم اللامعيارية بقدرتها على الكشف عن مدى ارتباط الانحراف بكافة التغيرات الاجتماعية السريعة التي تحدث في البناء الاجتماعي، وهذه نقطة هامة ترتبط بمجتمعي الدراسة. فالمجتمع السعودي شهد طفرة بترولية مفاجئة اقترن بها تغيرات اجتماعية وثقافية عديدة. وكذلك تحول المجتمع المصري من التوجه الاشتراكي إلى الاقتصاد الحر والارتباط بالرأسمالية بشكل سريع ومفاجئ.

تساؤلات الدراسة:

تسعى الدراسة الراهنة في ضوء هذا التصور النظري إلى الإجابة على تساؤلين رئيسيين ينبثق عن كل منهما تساؤلات فرعية:

• التساؤل الأول:

ما هي أكثر المتغيرات الاجتماعية ارتباطا بإدمان الهيرويين في مجتمعي الدراسة؟

وينبثق عن هذا التساؤل عدد من الأسئلة الفرعية هي:

١ - هل يتأثر إدمان الهيرويين بطبيعة وظروف البيئة الأسرية التي ينحدر منها المدمن؟

٢ - هل يرتبط إدمان الهيرويين بنمط معين من العلاقات والأوضاع الاجتماعية؟

٣ - هل هناك علاقة بين إدمان الهيروين وطبيعة الأوضاع الاقتصادية والسكنية؟

٤ - هل هناك ارتباطا بين إدمان الهيروين وضعف ممارسة الهوايات والأنشطة الاجتماعية؟

• التساؤل الثاني:

ما هي أهم السلوكيات التي ترتبط بتعاطي الهيروين في مجتمعي الدراسة وينبثق عن هذا التساؤل المحوري الثاني مجموعة من الأسئلة الفرعية هي:

١ - ما هي مدة تعاطي الهيروين وعدد مرات تعاطيه لدى المدمنين في مجتمعي الدراسة؟

٢ - ما هي الطريقة الأكثر شيوعا لتعاطي الهيروين في مجتمعي الدراسة؟

٣ - ما هي أكثر الأماكن المفضلة التي يتم فيها تعاطي الهيروين لدى المدمنين في مجتمعي الدراسة؟

٤ - هل يتعاطى المدمنون الهيروين على انفراد أم في جماعة؟

٥ - هل سبق لمدمني الهيروين تعاطي مخدرات قبل الهيروين في مجتمعي الدراسة؟

٦ - هل هناك ارتباط بين إدمان الهيروين وارتكاب الجريمة ومخالفة القانون؟

المفهومات الأساسية للدراسة:

تنطوى الدراسة الراهنة على ثلاثة مفهومات أساسية هي:

١ - الإدمان:

اختلفت تعريفات الإدمان على المخدرات حسب نظرة الباحثين لأسباب المشكلة. فهناك تعريفات ترتكز فى مضمونها على العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية وأخرى وصفية تستخدم التأثيرات الاجتماعية إطارا مرجعيا لها وثالثة تجمع بين المحاولتين السابقتين. ومن أهم هذه التعريفات. إن الإدمان شكل من أشكال تدمير الذات يلجأ إليه المدمن للوقاية من تدمير أكبر شأنا في حياته مشتقا من عناصر عدوانية يثيرها الإحباط. كما يستخلص شافيتز وزملاؤه. من دراساتهم أن الإدمان اضطراب سلوكى مزمن يظهره الاهتمام المسبق بالمخدر. مما يؤدى إلى ضرر صحى وجسمى وعقلى. فى حين يرى آخرون أن الإدمان سلوك هروبى وعملية توافقية فاشلة وله دوافع نفسية تدفع المدمن إلى تلمس التخدير والبهجة حتى تقف حائلا بينه وبين همومه ومنغصاته، ثم بعد ذلك تطورت هذه التعريفات وأخذت تتشكل فى صياغتها باصطلاحات اجتماعية.

إلا أنه حسما لهذه الاختلافات جاءت منظمة الصحة العالمية عام ١٩٥٠ بتعريف للإدمان. يقول أنه حالة تسمم دورية أو مزمنة تلحق الضرر بالفرد والمجتمع وتنتج من تكرار تعاطى مخدر أو عقار طبيعى أو مصنوع.

ومن أهم خصائص الإدمان استنادا لهذا التعريف ما يأتي:

١ - رغبة غلابة وحاجة قهرية للاستمرار في تعاطي العقار والحصول عليه بأية طريقة.

٢ - ميل إلى زيادة الجرعة المتعاطاه من العقار.

٣ - اعتماد نفسي وجسمي بوجه عام على آثار العقار.

٤ - تأثير ضار ومؤذ للفرد والمجتمع.

إلا أنه في عام ١٩٦٤ دعت المنظمة إلى ضرورة التمييز بين ظاهرة الاعتياد بالنسبة للمواد المسببة للإدمان. وذلك لأن طبيعة الاعتياد على تعاطي مادة مخدرة معينة تختلف عن طبيعة الاعتياد على مادة أخرى. نظرا لاختلاف الخصائص التي تتضمنها كل مادة سواء من حيث درجة تخديرها وطبيعتها المنبهة أو المسكنة أو الآثار المترتبة على استعمالها. ولهذا يلاحظ أنه منذ عام ١٩٧٧ بدأ يقل استخدام مصطلح الإدمان Addiction والاعتياد Habituation وأصبح المصطلح الشائع هو سوء استخدام العقار Substance Abuse ومن مضامين المصطلح الجديد مايلي:

١ - العقار عبارة عن أية مادة يؤدى تعاطيها إلى تغير بعض أو كل وظائف الكائن الحي.

٢ - سوء استعمال العقار هو عبارة عن مغالاة مؤقتة أو مزمنة في تعاطي عقار أو أكثر وتتعارض مع ما هو مقبول طبيا.

٣ - الاعتماد على عقار أو أكثر من عقار. هو عبارة عن حالة نفسية وأحيانا جسمية تنجم عن تفاعل بين الكائن الحي والعقار وتتسم بأنماط

سلوك واستجابات تشمل دائما ميلا قاهرا لتعاطى العقار باستمرار أو فى فترات منتظمة من أجل تأثيراته النفسية المضادة لآلام الحرمان منه.

واستنادا إلى ذلك، وكما جاء فى نشرة عام ١٩٨٨ لشعبة الصحة العقلية التابعة لمنظمة الصحة العالمية، فإنه يوجد نوعين من الاعتماد هما الاعتماد النفسي والاعتماد الجسدى، ويقصد بهما :

١ - الاعتماد النفسي :

وهو حالة تتسم باستحواذ العقار على انفعالات وتفكير المتعاطى، مما يؤدى إلى فقدان السيطرة على الذات، بحيث يصبح العقار وتأثيره والبحث عنه والاشتياق الدائم إليه هدفه الأساسى والمسيطر على جميع عملياته العقلية، ويعتبر الاشتياق للمخدر من أهم الأعراض الانسحابية النفسية، إذا ما تم الانقطاع أو التوقف عن تعاطى العقار. ويعتقد البعض أنه العامل الأساسى للاستمرار فى التعاطى، ومن الأعراض النفسية الأخرى المترتبة عن الانقطاع - وإن كانت ليست بنفس القوة - اضطراب النوم والأرق. والاعتماد النفسي قد لا يكون مصحوبا بأى اعتماد جسدى فى بعض العقاقير كالحشيش والإمفيتامين، بحيث أن الشخص لو ترك هذا العقار لا تظهر عليه آثار بدنية حادة كالإسهال والصرع.

٢ - الاعتماد الجسدى :

وهو يشير إلى تكيف الجسم فسيولوجيا على الاستخدام المزمن للعقار أو بمعنى آخر هو حالة يتعود فيها الجسم أو ينضبط على وجود العقار مع

ميل إلى زيادة الجرعة المتعاطاه. ولهذا إذا ما تم الانقطاع أو التوقف عن تعاطى العقار تظهر مجموعة من الأعراض نتيجة هذا الانقطاع بشكل سريع وتتطور نحو الشدة. وبصفة عامة هناك مؤشران أساسيان للاعتماد الجسدى هما:

(أ) الأعراض الانسحابية:

وهى تشكل مظهرا للأعراض الفسيولوجية إذا ما تم التوقف عن تعاطى العقار بشكل مفاجئ. وترتبط هذه الظاهرة بصورة أوضح بالمورفين والهيروين وبعض العقاقير التى تبطئ نشاط الجهاز العصبى المركزى. وتظهر أعراض الامتناع أو سحب العقار بعد بضع ساعات من التوقف عن آخر جرعة تناولها المتعاطى، ومن أهمها نزول سائل من الأنف والعينين. وارتجاف فى الجفون وحركات عضلية اهتزازية غير إرادية وتعرق وارتفاع فى درجة الحرارة وضغط الدم. ونزوع إلى التقيؤ وضعف مقدار الماء فى الجسم. وحين تكون الأعراض شديدة. فمن المرجح أن تشكل خطرا على حياة المدمن.

(ب) الاحتمال:

وهو يعنى حاجة المتعاطى إلى زيادة كمية أكبر من العقار المسبب للإدمان بشكل متصاعد. ليحقق نفس الأثر الذى كان يحصل عليه من قبل. وتحدث هذه الظاهرة نظرا لأن الجسم يقوم بتدمير هذا العقار بسرعة كبيرة بسبب نشاط كبير للأنزيمات المحطمة لهذا العقار بالكبد. أضف إلى ذلك أيضا أن خلايا الجهاز العصبى تتعود على هذه الكمية من

العقار. مما يؤدى إلى ضعف تفاعل الأنسجة معه. فأصبح لا يؤثر فيها التأثير السابق.

مما سبق يتضح أن تعاطى المواد المخدرة يختلف من مخدر لآخر تبعا للخصائص التى تترتب عليه والتى تقوم على ظواهر أساسية هى الاعتماد النفسي والاعتماد الجسدى والاحتمال. فهذه الظواهر الثلاث هى المحك الأساسي في تحديد درجة التعاطى ومعنى الإدمان، بحيث لا نستطيع الحكم على المتعاطي بأنه مدمن. إلا إذا توفرت فيه تلك الظواهر مجتمعة. فالفرق بين التعاطى والإدمان. أن التعاطى لا يعنى الالتزام بكميات أو مدد معينة يتم فيها استخدام المخدر، وإن كان هو المدخل الرئيسى للإدمان الذى يفرض فى فترة معينة نوعا من الحاجة إلى استخدام المخدر بنسب متزايدة، وبشكل معتاد ليتحول التعاطى إلى إدمان مستمر.

التعريف الإجرائى للإدمان:

الإدمان هو استخدام المخدر باستمرار بنسب متصاعدة وبشكل معتاد، ولا يمكن الاستغناء عنه لأنه أحدث لدى المتعاطى نوعا من الارتباط النفسى والجسدى به.

٢ – المدمن:

المدمن هو الشخص الذى يستخدم مخدر أو عقار معين بنسب متزايدة وبشكل منتظم. ولا يستطيع أن يعيش إلا وهو تحت تأثير المخدر وإذا ما توقف عن تعاطى هذا المخدر أو العقار يشعر بأعراض نفسية وجسمية

مقلقة ومؤلمة تدفعه إلى السلوك الإدمــانى والاســتمرار فــى التعــاطى. وفــى النهاية يتدهور هذا المدمن عضويا ونفسيا.

والمدمن أيضا غالبا ما يكون شخص لديه باستمرار أعراض القلق والتوتر قبل الإدمان. وحين يندفع بتأثير الإدمان إلى السعى وراء المخدر قد يـأتى ببعض أنماط السلوك اللااجتماعي.

ويقسم أغلب المتخصصين متعاطى ومدمنى المخــدرات والعقاقير الذيـن يسيئون استخدامها إلى ثلاثة أنماط هى:

١ - المتعاطى المجرب، وهو الشخص الذى يتنـاول المـادة المخـدرة أو العقار على سبيل التجريب مـرة واحـدة أو حتـى أكـثر مـن مـرة. ولكنـه لا يواصل تناولها وهو لا يختلف كثيرا عن الفرد الممتنع عن تعاطى المـواد المخدرة فيما يتعلق بالمتغيرات النفسية والاجتماعية.

٢ - المتعاطى العارض - وهو الشخص الـذى يسـتعمل المـادة المخـدرة على سبيل الترويح واللهو من حين لآخر فى المناسبات الاجتماعية.

٣ - المدمن أو المتعاطى القهرى - وهو الـذى يسـتعمل المـادة المخـدرة بصفة منتظمة ويعتمد عليها بدنيا ونفسيا باستمرار وبشكل قهرى. وغـالبـا ما يرتبط الاعتماد البدنى بتعاطى مشـتقات الأفيـون. ويوصـف المتعـاطون القهريون فى رأى البعض بأنهم غير ناضجين ويعانون من أمـراض نفسـية مختلفة وبدرجــات متباينـة ويرفضـون مواجهـة مشـكلاتهم أو السـعى إلى حلها كغيرهم من النــاس. وبأنـهم لديـهم اختـلال عقلـى واضطـراب فـى شخصياتهم، فى حين أن البعض الآخر يعتبرهم أشخاص منحرفين.

التعريف الإجرائى للمدمن:

المدمن هو الشخص الذى يستخدم مخدر الهيروين بصفة منتظمة وبشكل قهرى. بحيث إذا ما توقف عن تعاطيه لسبب ما. يشعر بأعراض نفسية وجسمية مؤلمة.

٣ - المخدر:

المخدر فى اللغة اسم فاعل من الفعل خدر. ويدور لفظ الخدر حول معانى الضعف والكسل والفتور أو الستر. وإذا ما نظرنا إلى هذه المعانى نجدها تنطبق على الشخص المخدر. حيث يبدأ التأثير عنده بالفتور فى أطرافه وتكاسل عند القيام بأعماله ثم يعترى عقله الظلمة التى تعوقه عن معرفة حقائق الأشياء.

أما مصطلح المخدرات فى الشرع فيقصد بها المرقدات وهى كل ما غيب العقل والحواس دون أن يعقب ذلك نشوة وسرور: فى حين أنه إذا ما صاحب ذلك نشوة وسرور فهو المسكر.

أما فى مجال العلوم الطبية والدوائية، فإن لفظ مخدر يستخدم بصورة محدودة حيث لا يشمل سوى الأفيون ومشتقاته فقط وهى من المواد المثبطة للجهاز العصبى.

فى حين أن اسم المخدرات لدى أجهزة الأمن والقانون والإعلام يطلق على مجموعة من المواد التى تسبب الإدمان ويحظر تداولها أو زراعتها أو صنعها. إلا لأغراض يحددها القانون ولا تستعمل إلا بواسطة من يرخص له بذلك. فضلا عن ذلك فهى مجموعة متباينة من المواد التى تختلف فى

تأثيراتها الدوائية والنفسية والجسدية. ومن أمثلة ذلك الأفيون ومشتقاته ويقصد بها في الطب والصيدلة لفظ مخدرات. وكذلك المنومات والمهدئات التي تبطئ الجهاز العصبي كالكحول والباربيتورات. كما تطلق أيضا على مجموعة واسعة من العقاقير المنبهة كالكوكايين ونبات القات والأمفيتامينات وكذلك تشمل عقاقير الهلوسة والحشيش.

ولعل ذلك يعكس مدى الخلط الذى تقع فيه أجهزة القانون والإعلام وغيرها حيث يستخدم لفظ المخدرات بطريقة فضفاضة، يشمل مجموعة كبيرة من العقاقير. التي يختلف تأثيرها ويتباين مفعولها من عقار لآخر. ومن مجموعة عقاقير لأخرى، بل أنها أيضا قد تختلف في اعتبارها مخالفة للقانون. فهناك بعض البلاد تعتبر هذه المواد قانونية مثال ذلك القات في اليمن. حيث يعتبر مادة شعبية اجتماعية كما لا يوضع في قائمة المخدرات في معظم الدول الغربية لعدم وجوده لديها. كذلك ما يدخل ضمن قائمة العقاقير المؤدية للإدمان أو سوء الاستخدام في المجال الطبى، قد لا يدخل دائرة القانون كمزيل البوية والبنزين. وهكذا يتضح مما سبق أن التعريف اللغوى والطبى للفظ مخدرات يتطابقان، في حين يختلفان مع التعريف القانونى أو الشائع للمصطلح. حيث يجعل رجال القانون والجمهور لفظ مخدرات. يتضمن مواد منبهة، والمنبه على نقيض المخدر من ناحية اللغة ومن ناحية المفعول والتأثير الدوائى أيضا. ولهذا اتجه البعض إلى أن يستبدل هذا التعبير الشائع لدى الجمهور ورجال القانون بمصطلح سوء استخدام العقاقير. فضلا عن ذلك ونتيجة هذا التضارب رأت منظمة الصحة العالمية عدم استخدام لفظ المخدرات بهذا

المعنى الشمولى. ففى عام ١٩٦٩م عرفت المخدر بأنه كل مادة تدخل جسم الكائن الحى وتعمل على تعطيل واحدة أو أكثر من وظائفه. وهذا ما حددته أيضا الاتفاقية الدولية عام ١٩٧١.

التعريف الإجرائى للمخدر:

هو مخدر الهيروين الذى يؤثر بدخوله جسم الإنسان على وظيفة أو أكثر من وظائفه بشكل سلبى. فضلا عما يحدثه من خلل فى كيمياء الجسم.

مناهج وأدوات الدراسة:

استندت الدراسة الراهنة إلى مجموعة المناهج والأدوات التى تتلاءم مع طبيعة الموضوع وأهدافه وتساؤلاته وتتمثل فى الآتى:

١ - المناهج:

(أ) منهج المسح الاجتماعى بالعينة - ومن خلاله سيتم التعرف على الخصائص الاجتماعية لمدمنى الهيروين وأهم المتغيرات الاجتماعية الفاعلة فى دخول مدمنى هذا المخدر فى دائرة إدمانه.

(ب) المنهج المقارن ومن خلاله سيتم مقارنة ظاهرة إدمان الهيروين فى المجتمع السعودى والمجتمع المصرى سواء من حيث خصائص المدمنين أو العوامل الاجتماعية الدافعة للتعاطى أو نمط وطبيعة تعاطى هذا المخدر.

(جـ) منهج دراسة الحالة - ومن خلاله سيتم جمع البيانات بطريقة منظمة عن كافة الظروف التى شكلت تكوين المدمن وكذلك الظروف والعوامل التى كان لها دور فى تعاطيه المخدر. ولقد اختارت الدراسة الراهنة حالة من العينة السعودية وحالة من العينة المصرية واستند الاختيار إلى طول فترة الإدمان على المخدر. فضلا عن تعدد وتنوع الأحداث فى حياة الحالة. وسيرمز لكل حالة بالحرف الأول من اسم المدمن حفاظا على السرية فى المعلومات عن الشخص.

٢ - أدوات الدراسة:

(أ) الملاحظة. حيث تم من خلالها التعرف على سلوك المدمنين وأسلوب حياتهم وعاداتهم وأبرز خصائصهم. كما أفادت الملاحظة فى التحقق من مدى صدق البيانات التى يدلى بها المدمن وإدراك الكثير من الحقائق التى ألقت الضوء على مشكلة الدراسة.

(ب) استمارة المقابلة وتضمنت عددا من الأسئلة. سيتم من خلالها الإجابة على تساؤلات الدراسة.

(جـ) الإحصاء تم الاستعانة بها فى التحليل الكمى والكيفى للبيانات التى جمعتها الدراسة من خلال استمارة المقابلة. ولقد استندت الدراسة إلى الأسلوب الإحصائى كا[٢] بهدف معرفة الفروق ذات الدلالة الإحصائية بين المجموعتين. وذلك من خلال المعادلة التالية:

$$\text{كا}^2 = \frac{\text{مجموع (التكرار الواقعى - التكرار المتوقع)}^2}{\text{التكرار المتوقع}}$$

$$\text{التكرار المتوقع} = \frac{\text{عدد الأفراد فى المجموعتين}}{\text{عدد الخلايا}}$$

مجالات الدراسة:

١ - المجال المكانى:

تم إجراء الدراسة الراهنة على اثنين من المصحات المتخصصة فى علاج الإدمان.

(أ) مستشفى الأمل بجدة بالمملكة العربية السعودية، وهو مستشفى تابع لوزارة الصحة. وأحد المراكز المتخصصة فى علاج الإدمان فقط.

(ب) قسم علاج الإدمان بمستشفى العباسية للأمراض النفسية والعصبية بالقاهرة وهذا المستشفى تابع أيضا لوزارة الصحة بجمهورية مصر العربية.

٢ - المجال البشرى:

تم إجراء الدراسة على ثلاثين من مدمنى الهيروين بمستشفى الأمل بجدة. وكذلك نفس العدد من مدمنى الهيروين بقسم علاج الإدمان بمستشفى العباسية.

٣ - المجال الزمنى:

فقد امتد من بداية أغسطس عام ١٩٩٥ حتى منتصف عام ١٩٩٨. أنفقت فى الإطلاع المكتبى والمعالجة الميدانية لمشكلة الدراسة. والتفريغ اليدوى للبيانات وكتابة التقرير النهائى.

تقسيم الدراسة:

تنقسم هذه الدراسة فى معالجة موضوعها ومحاولتها البحث والإجابة عن تساؤلاتها إلى الفصول التالية بالإضافة إلى هذا الفصل التمهيدى.

الفصل الأول - ويتولى عرض التفسيرات العلمية لإدمان المخدرات والتى تتمثل فى التفسيرات البيولوجية الوراثية، والتفسيرات النفسية والتفسيرات الاجتماعية.

الفصل الثانى - ويتولى تناول الهيروبين والمواد المخدرة من خلال نقاط عديدة كالتعرف على تصنيفه بين هذه المواد وكيفية اكتشافه وأنواعه وطرق تعاطيه ومناطق إنتاجه وحجم انتشاره فى مختلف مناطق العالم فضلا عن إبراز أهم أضراره الصحية والاجتماعية.

الفصل الثالث - ويعرض الدراسة الميدانية التى تبدأ بوصف مجتمعى الدراسة والعينة وأسلوب اختيارها، ثم عرض للمتغيرات الاجتماعية المرتبطة بتعاطى الهيروبين والسلوكيات الخاصة بتعاطيه، واثنين من دراسة لحالة واحدة من العينة السعودية والأخرى من العينة المصرية.

ثم خاتمة الدراسة التى تتضمن رصدا لنتائجها ومحاولة تفسير عددا من المتغيرات ذات الأهمية، بالإضافة إلى تقديم رؤية تحليلية لها.

الفصل الأول

التفسيرات العلمية لإدمان المخدرات

لقد كان إدمان المخدرات من الظواهر الاجتماعية المعقدة التى يجد الباحثون صعوبة فى تقديم تفسير علمى دقيق لها، لكن منذ أكثر من مائة عام، أصبح مفهوم الإدمان أكثر وضوحا. والواقع أن ذلك تحقق من خلال العديد من الدراسات والبحوث العلمية التى تم إنجازها فى هذا المجال.

وقديما كان تفسير الإدمان ينحصر فى النظرة الأحادية، ففى رأى البعض يعزى إلى وجود اضطرابات فى شخصية المتعاطى، وفى رأى البعض الآخر يفسر على أنه مرض وراثى، لكن من الملاحظ أن النظرة الحديثة لهذه الظاهرة أصبحت تستند إلى العوامل المتعددة فى تفسيرها، ومن هنا برزت أهمية العوامل الاجتماعية والبيئية مؤكدة استعداد الفرد للإصابة بالإدمان. فجميع هذه العوامل على جانب كبير من الأهمية ومن الصعب تجاهل واحد منها فى تفسير هذه الظاهرة المعقدة.

واستنادا إلى ذلك التصور سنحاول فى إطار هذا الفصل تناول كافة الاتجاهات العلمية المفسرة للإدمان والمتمثلة فى التفسيرات البيولوجية والوراثية والنفسية والاجتماعية.

أولا: التفسيرات البيولوجية والوراثية:

أوضحت الدراسات والبحوث العلمية أن النتائج والاكتشافات الأخيرة فى المجال البيولوجى والوراثى يمكن أن تساهم إلى حد كبير فى تفسير ظاهرة إدمان المخدرات. وفى هذا الصدد ظهرت عدة تفسيرات.

ونأتى أولا إلى التفسيرات البيولوجية حيث يستند بعضها إلى التغيرات العضوية ووجهة نظر هذا الاتجاه أن المدمن شخصا يعانى من وجود تلف بالمخ نتيجة تعرضه لإصابات دماغية أو إهماله الدائم للتغذية، وهذا التلف هو المسئول عن اندفاعه الدائم نحو استعمال المخدرات أو عدم قدرته للتوقف عن التعاطى.

وهناك تفسيرات أخرى تستند إلى النظريات الفسيولوجية والكيمياء الحيوية وأغلب هذه التفسيرات ترتبط بإدمان الكحول. فالبعض يرى أن الإدمان يرجع إلى نقص فيتامين «أ» الثيامين، فى حين يرى آخرون أنه يرجع إلى خلل هرمونى مع نقص فى إفرازات الغدة الإدرينالية أو اضطراب جهاز الغدد الصماء.

وحديثا يعتنق الجيل الحالى فكرة تتعلق بالسكر. وهذه الفكرة تستند إلى أن الانفعالات النفسية تؤدى إلى حدوث هبوط فى السكر بالدم، ومن ثم يأتى تعاطى الكحول ليعوض نقص السكر لدى هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من ذلك.

وفى نطاق التفسيرات البيولوجية للإدمان، ظهر مؤخرا تفسير يستند إلى الآثار الفارماكولوجية «الدوائية» للمخدر، والذى ارتبط بالمواد

الأفيونيـة. حيـث يـرى أن بداخـل جسـم الكـائن الحـى نظـام اتصـال فسيولوجى يقوم بتوليد مـواد أفيونيـة طبيعيـة يحتـاج إليها الجسم فـى مواجهة الآلام الجسدية والنفسية بما فى ذلك الاكتئاب. وهذه المواد التى تسمى بالمواد الأفيونية الأصلية هى عبارة عن بروتينات قصـيرة تفرز فـى المخ أو الـدورة الدمويـة لتتفـاعل مـع جزيئيـة بروتـين كبـيرة أو مسـتقبلة موجـودة فـى الجـدار الخـارجى لخليـة أخـرى، وبمجـرد التحـام المـادة الأفيونية مع الجزيئية المستقبلة تنتهى مهمة المادة الأفيونية. ويبدأ عمـل الجزيئية بأحداث تغـيرات مختلفـة داخـل الخليـة. ومحصلـة نشـاطات الجزيئية المستقبلة وتفاعلها مع الجزيئيات الموجودة قرب الجدار الداخلى للخلية. هى التحكم فـى أحاسيس الألم والضغـوط وعمـل الغـدد الصمـاء والتنسيق الحركـى والتعلم والذاكـرة. ولكـن تجـدر الإشـارة إلى أن كفـاءة النظام الأفيونى الطبيعى تقل تدريجيا مع الاستهلاك المـتزايد فـى الكميـة لمواد الأفيون غير الطبيعى «الأفيون والهيروين والمورفين» بحيـث يتعطـل فى النهاية عمل النظام. ويصبح الجسم معتمدا على جرعات الأفيون غير الطبيعى. ولذلك يؤدى الانقطاع المتزايد عـن التعـاطى إلى ظـهور أعـراض الانسحاب واستمرار ظهورها حتى يحدث توازن كيمو حيوى جديد.

وعلـى الرغـم مـن أن التقريـر الصـادر عـن شـعبة الصحـة والخدمـات الإنسانية فى أمريكا اعتبر اكتشاف ذلك النظام الأفيونى الطبيعـى خطـوة مهمـة فـى سـبيل معرفـة الأسـس الفسـيولوجية لظاهرة الاعتمـاد علـى المخدرات وإساءة استعمالها. إلا أنه فى نفس الوقت يؤكد هذا التقريـر أن الفهم العلمى للنظام ما يزال فى بدايته حيث أن هناك جوانـب كثـيرة لم

تتكشف بعد لعل أهمها مسألة الفروق. الفردية فى الاعتماد. بمعنى هل يدمن البعض نتيجة لاختلاف بنيوى فى التكوين الفسيولوجى للمستقبلات؟ أم أن الاستجابة فسيولوجيا للألم والضغوط تختلف من فرد إلى آخر؟.. الخ.

ثم نأتى بعد ذلك إلى التفسيرات الوراثية. فمن الملاحظ أنه خلال العقدين الآخرين بدأ الاهتمام يتركز حول معرفة دور الوراثة والجينات الوراثية فى إدمان المخدرات وفى هذا الصدد أوضحت العديد من البحوث أن الشخص الذى ينتمى إلى أسرة يدمن بعض أفرادها يكون أكثر عرضة للإدمان بشكل مضاعف عن الشخص الذى ينتمى إلى أسرة لا يدمن أحد أفرادها.

والواقع أن هذه المقولة تعرضت للنقد من جانب البعض باعتبارها لا تعكس حقيقة البيانات المتاحة. ومن ثم فإن النتائج الدقيقة لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال وجود دراسات تتبعية للجينات والصفات الوراثية. ولهذا أجريت العديد من الدراسات عن الأسرة والتوائم. ثم ظهرت حديثا دراسات التبنى. وإن كان أغلبها تركز فى إدمان الكحوليات.

(أ) الدراسات الأسرية:

إن الهدف الأساسى من الدراسات الأسرية عن إدمان المخدرات يتمثل فى مقارنة معدل ظهور هذا المرض بين أسر الأفراد المدمنين وذلك بمعدل أسر المجموعة الضابطة أو إجمالى عدد السكان.

وفى هذا الصدد أظهرت العديد من الدراسات أن معدلات الإدمان وخاصة إدمان الكحول كانت عالية بين أسر المدمنين مقارنة بأسر غير المدمنين. كما أظهرت أيضا أن معدلات خطورة إصابة أطفال المدمنين بالإدمان تتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة أضعاف، ولكن على الرغم من أن الدلائل الأولية للدراسات الأسرية قد أوضحت أن الإدمان يمكن أن يورث، إلا أن ذلك غير مؤكد، نظرا لأن التجمع الأسرى قد يعكس أيضا دور التأثيرات الاجتماعية والتنشئة فى ذات البيئة من خلال آبائهم الحقيقيين.

(ب) دراسات التوائم:

فى البداية يمكن القول بأن هناك نوعان من التوائم وهما التوائم المتماثلة والتوائم غير المتماثلة. ويقصد بالتوائم المتماثلة. اللذين ينموان من بويضة واحدة ملقحة تنقسم لتكون جنينين متشابهين ومتطابقين من الناحية الوراثية تماما ومن نفس النوع أيضا، وأما التوائم غير المتماثلة فهما اللذين ينموان من بويضتين تم تلقيحهما بواسطة حيوانيين منويين أبو بويضة واحدة لقحها حيوانان منويان ثم انقسمت بعد ذلك.

والواقع أن هناك دراسات أجريت حديثا على التوائم المتماثلة وغير المتماثلة وذلك للتعرف على مدى تأثير العوامل الوراثية والبيئية فى حدوث الإدمان على المخدرات. ولقد استندت هذه الدراسات فى ذلك إلى اعتبارين أساسين هما:

أولا: أن التوائم المتماثلة تشترك فى كل الجينات الوراثية ولديهم استعداد كبيرا لظهور الأمراض التى يمكن وراثتها جينيا، وذلك إذا

ما تمت مقارنتهم بالتوائم غير المتماثلة التى تشترك فقط فى نصف الجينات.

ثانيا: عدم ظهور فروق بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة من حيث تأثير الاضطرابات البيئية إذ أن المجموعتين تم تعرضهما لنفس البيئة فى مرحلة الطفولة وتعتبر دراسة «كايج» Kaig من الدراسات التى تعكس وجود علاقة بين الجينات الوراثية والإدمان. فمن خلال دراسته للتوائم اتضح أن الإدمان أكثر انتشارا بين التوائم المتماثلة عن التوائم غير المتماثلة، إلا أن الفروق كانت بسيطة. كما أعطت دراسة «هروبيك وأومين» Hrubec Omenn دورا أكبر لأهمية العامل الوراثى فى حدوث الإدمان. فلقد أظهرت النتائج أن الإدمان أكثر حدوثا بين التوائم المتماثلة عن التوائم غير المتماثلة وفى هذا الصدد أيضا كشفت دراسات التوائم الهامة التى أجريت فى السويد عن ارتفاع معدلات انتشار إدمان الكحول بين التوائم المتماثلة بشكل ملحوظ وذلك مقارنة بالتوائم غير المتماثلة. فلقد كان معدل انتشار الإدمان بين التوائم المتماثلة ضعف معدل انتشاره بين التوائم غير المتماثلة ففى الأولى بلغت النسبة ٥٨٪ وفى الثانية ٢٨٪.

إلا أن هناك بعض الدراسات جاءت بنتائج تتضارب مع ما سبق، فلقد أوضحت دراسة موراى Murray وزملائه عدم وجود فروق بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة فى حدوث الإدمان.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه إذا كانت بعض الدراسات قد أوضحت وجود درجة عالية للقابلية الوراثية فى تفسير الإدمان، فى حين أن هناك دراسات أخرى أوضحت نتائجها عكس ذلك، فإنه من الملاحظ أن معظم

دراسات التوائم دعمت فكرة أن الإدمان يتأثر بالعوامل الوراثية، بل أنها ذهبت أبعد من ذلك، وهو أن هذه العوامل تلعب أيضا دورا واضحا بالنسبة لكمية المواد المخدرة التى يتم تعاطيها.

والواقع أن ما يمكن التأكيد عليه فى هذا الصدد، هو أن تضارب نتائج هذه الدراسات وعدم اتفاقها، إن دل على شيء، فإنما يدل على درجة تعقد ظاهرة الإدمان، فضلا عن وجود تفاعل بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية.

(جـ) دراسات التبني:

ربما كانت الطريقة الموضوعية التى تمكننا من المقارنة بين التأثيرات الوراثية والبيئية فى حدوث الإدمان تتمثل فى دراسة الأبناء بعد عزلهم عن آبائهم الأصليين بمجرد ولادتهم وتنشئتهم وتربيتهم بواسطة أباء بالتبني. والواقع أن ذلك تحقق من خلال دراسات التبنى الكلاسيكية والتى أثبتت أن الإدمان له بعد وراثي ولو بشكل جزئي.

ففى دراسة اسككت Schuckit وزملائه والتى أجريت على مجموعة من الأبناء الذين تم تنشئتهم بعيدا عن آبائهم الأصليين. كانت عينة الدراسة تضم بعض الأبناء الذين كان آباؤهم الأصليون مدمنين، والبعض الآخر آباؤهم بالتبنى مدمنين أيضا. ولقد كشفت نتائج الدراسة، أن الأبناء الذين كان آباؤهم الأصليون مدمنين أكثر عرضة لظهور مشاكل الإدمان عن المجموعة الثانية الذين تم تنشئتهم بواسطة أباء التبنى مدمنين.

وخلال العقدين الأخيرين أجريت العديد من دراسات التبنى فى الدانمارك والسويد والولايات المتحدة، وأسفرت عن نتائج مماثلة. ففى

الدانمارك وجد جودوين Goodwin وزملاؤه أن معدل انتشار الإدمان بين أبناء المدمنين يبلغ أربعة أضعاف مقارنة بأبناء غير المدمنين. على الرغم من تربيتهم في أسر بالتبنى لا ينتشر فيها الإدمان. وكذلك أجريت في استوكهلم بالسويد دراسات أخرى بواسطة كلونينجر وزملاؤه وانتهت إلى نتائج مماثلة.

لكن من الملاحظ أن هناك بعض الدراسات التى جاءت بنتائج متناقضة مع نتائج الدراسات السالفة وتعتبر دراسة روى Roe من أبرزها، كما جاءت أيضا دراسة دانيش Danish على نساء أسر التبنى بنتائج محيرة. فعلى الرغم من أن المعلومات السويدية أوضحت انخفاض معدلات الإدمان بين الفتيات المدمنات فى أسر التبنى، إلا أن التحليل النهائى للمعلومات أوضح وجود ارتباط بين الإدمان لدى الأمهات الأصلية والإدمان لدى الفتيات فى أسر التبنى.

والواقع أن بعض الباحثين يعزى اختلاف النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسات إلى تباين الطرق المستخدمة فى مناهج البحث كصغر حجم العينة واختلاف معايير تقييم درجة الإدمان من مجتمع إلى آخر.. الخ.

وأخيرا ظهر حديثا ما يسمى ببحوث العلامات الوراثية وهى تهدف إلى الكشف عن مدى العلاقة بين الإدمان «الكحولية» والصفات الوراثية كفصائل الدم وعنصر البروتين وعمى الألوان. ولقد جاءت هذه البحوث والدراسات بنتائج مدهشة وأسفرت عن اتجاهين حديثين فى التحليل، ولقد تبلور الاتجاه الأول من خلال دراسة إسككت Schuckit عام ١٩٨٨، فلقد تبين من نتائجها وجود آثار واضحة للإدمان على أبناء

المدمنين وذلك بالمقارنة بالمجموعة الضابطة من الذكور الشباب، كما تبين أيضا أن أبناء المدمنيين يعتبر تاريخهم إيجابى للإصابة بالإدمان، فى حين كانت المجموعة الضابطة ذات تاريخ أسرى سلبى، إذ تم قياس ذلك من خلال تقاريرهم الذاتية وتغييرات هرمونية متعددة بعد التعاطى، فضلا عن التغيرات التى ظهرت على المقاييس الفسيولوجية.

وأما الاتجاه الثانى فكان يركز على مدى الاستجابة الكهربائية للمثيرات الحسية الخارجية للمخ ولقد أجريت هذه الدراسة بواسطة بيجلينز وبورجيز Begleiter Porjerz عام ١٩٨٨ على ٢٥ من الذكور من أبناء مدمنى الكحول وعلى ٢٥ من الذكور الذين ليس لآبائهم تاريخ أدمانى . ولقد انتهت نتائج الدراسة إلى أن أبناء المدمنين قد أظهروا انخفاضا واضحا للاستجابة الكهربائية للمثيرات الحسية الخارجية للمخ. والواقع أن كلتا هاتين الدراستين كانتا تسعى إلى الكشف عن مدى دور العلامات أو الخصائص الوراثية فى حدوث الإدمان.

ثانيا: التفسيرات النفسية للإدمان:

اختلفت أراء علماء النفس حول تفسير الإدمان، فيرى هارمس Harms أن الاكتئاب هو العامل الأساسى للإدمان سواء عند الخبرة الأولى أم عند العودة إليه بعد الانقطاع، ويتفق معه سميث Smith فى ذلك، حيث يرى أن المدمن شخص لديه اكتئاب مزمن قبل استخدام المخدر مع عدم القدرة على إرجاء الإشباع وتحمل الضغوط فضلا عن عدم النضج.

أما كولمان Coleman فيعزى الإدمان إلى ثلاثة أسباب هى المرض فبعض المرضى يتحولوا إلى مدمنين لارتباط الإدمان بالتخلص من الألم،

أو قد تكون اضطرابات الشخصية واتسام المدمنين بخصائص سيكوباتية كالتوتر وعدم الأمن والشعور بعدم الكفاءة والفشل فى إقامة العلاقات مع الآخرين. الخ هي المسئولة عن حدوث الإدمان وأخيرا قد تكون العوامل الاجتماعية والثقافية هى الدافع للإدمان.

إلا أنه يمكن القول أيا كانت الاختلافات فى تفسير الإدمان من وجهة نظر علم النفس، فإنه يمكن بلورة أهم الاتجاهات النفسية المفسرة له فى اتجاهين رئيسيين هما:

١ - اتجاه التحليل النفسي. ٢ - الاتجاه السلوكى.

وسنحاول أن نتناول هذين الاتجاهين بقدر من التفصيل فيما يلى:

١ - اتجاه التحليل النفسى:

يرى هذا الاتجاه أن سيكولوجية الإدمان تقوم على أساسين، الأول صراعات نفسية ترجع إلى (أ) الحاجة إلى الإشباع الجنسي والنرجسى الذى يرجع أساسا إلى اضطراب علاقات الحب والإشباع. (ب) الحاجة إلى الأمن. (جـ) الحاجة إلى إثبات الذات وتأكيدها.

وأما الأساس الثانى فيتمثل فى الآثار الكيميائية للمخدر، وهذا الأساس هو الذى يميز مدمنى المخدرات عن غيرهم من مدمنى غير المخدرات مثل مدمنى السرقة أو مدمنى الطعام.. الخ. والواقع أن الآثار الكيميائية هى التى تجعل حالات مدمنى المخدرات على جانب كبير من التعقيد وخطورة أثر المخدر ترجع إلى أن المخدر يصبح كالأمر المطاع بالنسبة للمتعاطى حتى ينتهى به الأمر إلى إلغاء وقهر جميع اهتماماته.

وعلى ذلك فإن الأصل فى الإدمان وطبيعته يرجعان إلى التركيب النفسى للمريض الذى يحدث حالة الاستعداد، ومن ثم يأتى دور الآثار الكيميائية للمخدر. وبهذا فإن آثار المخدر والتعلق به، دلالة على حالة الاضطراب الذى يعنى إشباعا أو أملا فى الإشباع لرغبة عميقة بدائية أو غير جنسية أكثر إلحاحا عند المدمنين منها عند العاديين. ويعمق «فينكل» هذا التفسير، فيقرر أن التحليل النفسى يفسر ظاهرة إدمان المخدرات في ضوء الاضطرابات التى تعترى المدمن فى طفولته المبكرة والتى لا تتجاوز السنوات الثلاث أو الأربع الأولى. ويشمل هذا الاضطراب عمليات الإشباع العضوية فى المرحلة الفمية وكذلك عمليات النمو الجنسى ابتداء من المرحلة الفمية حتى المرحلة القضيبية والتى يختل فيها نضج الأنا اختلالا شديدا، ويرجع إلى الخوف من عدم الإشباع.

٢ - الاتجاه السلوكى:

هو اتجاه يستمد مفاهيمه من نظرية التعلم الشرطى. ولكنه يختلف عن النموذج التقليدى لهذه النظرية فى أنه أشمل وينطوى على متغيرات أخرى عدية تتمثل فى تفاوت القدرات العقلية وقدرة السيطرة على النفس بين الأفراد وكذلك العامل الوراثى حيث يصعب عزلة نظرا لوجود تأثير وتأثر متبادل.

ومضمون هذا الاتجاه حسب وجهة نظر ناثان Nathan أن تعاطى المخدرات سلوك مكتسب من البيئة عن طريق التعلم، ويستمد هذا السلوك استمراريته من خلال التفاعل الرمزى مع الأشياء والتعلم الشرطى والقدرات العقلية.. الخ.

والواقع أن المحاولات الأولى لتفسير ظاهرة تعاطى وإدمان المخدرات فى إطار هذا الاتجاه اتسمت بالقصور لأنها كانت تستند إلى نظرية التعلم البدائية والخاصة بالحيوانات. إلا أن باندورا Bandura جاء ووسع من نطاق تطبيق هذه النظرية فى تفسير الإدمان بحيث تشمل تطبيقات عملية وطبية. ودعا الباحثين إلى الأخذ بنظرية التعلم والارتباط الشرطى بطريقة عكسية والاستفادة منها بطريقة عملية فى علاج بعض الحالات من الانتكاسة والعودة إلى تعاطى المخدرات ويوضح من يشايع هذا الاتجاه ذلك. بأنه كما هو معروف أن أكثر صور الإدمان تكمن تحت تأثير الانتشاء الذى هو نوع من الإثابة المدعمة والمرتبطة باستخدام العقار. وأن هذا التدعيم الإيجابى قادر على خلق عادة قوية. هى عادة اشتهاء المخدر. إلا أنه فى حالة الأفيون ومشتقاته كالهيرويين. يوجد عامل قوى آخر هو الخوف الفعلى من الانقطاع عن المخدر أو ما يتوقعه الفرد من آثار سيئة تنتج عن الامتناع، بحيث أن الفرد إذا تعرض للامتناع عدة مرات، نشأ عنده نمط من استجابة التجنب الشرطية. وبذلك يمكن الاستفادة من هذه الطريقة فى العلاج.

إلا أن البعض ينتقد ذلك ويقرر أن التجارب التى أجريت على الحيوان والإنسان أثبتت أن الحصول على النشوة كدافع للإدمان أقوى من الخوف من أعراض الامتناع. لذا فإنهم يقررون أن نظرية التعلم تصلح لتفسير حالات الإدمان المبكر. وخاصة الحالات التى يصاحبها مشاكل طبية أقل. فضلا عن عدم وجود تاريخ أسرى للإدمان.

ثالثا: التفسيرات الاجتماعية:

يرجع اهتمام العلماء بالبحث عن دور العوامل الاجتماعية في تعاطي وإدمان المخدرات إلى حقيقة أثبتتها العلوم الإنسانية الحديثة مؤداها أن الفرد نتاج الظروف الاجتماعية التي يولد وينشأ فيها، فليس هناك كائن إنساني واحد ينشأ بمعزل عن المجتمع الذي يوجد فيه أو يستطيع أن يهرب من تأثيرات هذا المجتمع على تكوينه وعلى نموه الشخصي وعلى أفكاره وقدراته العقلية واتجاهاته وخصائصه الانفعالية وسلوكه، ولذلك فإنه لكي نفهم شخصيات مدمني المخدرات ودوافع سلوكهم الإدماني، فإنه يجب تحديد البيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها وتحليل ما فيها من ظروف وأوضاع اجتماعية والواقع أن المقصود بالبيئة الاجتماعية بالمعنى الواسع للمصطلح في هذا السياق، عناصر عديدة تشمل الأسرة والأصدقاء ووسائل الاتصال العامة والبيئة الفيزيقية التي يحيا فيها الإنسان والأوضاع الاقتصادية والإطار الثقافي للمجتمع، وسنحاول فيما يلي البحث عن المشكلات والاضطرابات التي تعتور هذه العناصر المحيطة بالأفراد المتعاطين:

١ - الأسرة:

الأسرة وحدة اجتماعية مهمة لها أثرها في حياة الفرد وفي تقويم سلوكه. ولهذا حظيت الأسرة بقدر كبير من الاهتمام، لمعرفة مدى إسهامها في إقبال الشباب على تعاطي المخدرات أو ابتعاده عنها. وفي هذا الصدد كشفت العديد من البحوث عن ارتباط تعاطي المخدرات

وإدمانها بالمشاكل الأسرية كانفصال الوالدين عن طريق الهجر أو الطلاق. أو وجود خلافات زوجية واضطرابات عاطفية أو غياب دور الأباء وعدم إحساسهم بالمسئولية تجاه أطفالهم. أو نبذ الأسرة للمدمن منذ طفولته وإحساسه بذلك. أضف إلى هذا انتشار التعاطى بين أحد الوالدين. وتعتبر العلاقة بين التعاطى والتصدع الأسرى المتمثل فى غياب أحد الوالدين من أكثر الاضطرابات الأسرية التى حظيت باهتمام كثير من الدراسات. فلقد ثبت أن حرمان الطفل من أحد الأبوين أو كليهما خاصة بين الإناث وقبل سن السادسة قد يؤدى إلى الإدمان. فلقد أفادت إحدى الدراسات أن ٥٠٪ من الأفراد الذين يسيئون استعمال المنشطات، قد فقدوا أحد الأبوين أو كليهما قبل سن السادسة عشر، كما انتهت الدراسة إلى نفس النتيجة بالنسبة لمدمنى الهيروييين وفى دراسة سامى عبد القوى وإيمان صبرى عن سوء استخدام المواد المتطايرة لدى الأطفال. أشارت النتائج إلى أن ٤٨٪ من أفراد العينة يعيشون فى أسر غير متكاملة، أى أسر تفتقد الأب أو الأم أو الاثنين معا.

ومن ناحية أخرى كشفت العديد من الدراسات أن الأسرة المضطربة بسبب المشاكل المستمرة بين الزوجين والشجار الدائم. يجعل الفرد يشعر بعدم الاطمئنان، مما يولد القلق والسلوك العدوانى، الذى يؤدى إلى الانحراف والإدمان وتكوين جماعات فرعية من سماتها تعاطى المخدرات ولعل من أبرز الدراسات التى أوضحت ذلك دراسة «ناجانو» عن سوء استخدام المذيبات، حيث تبين أن الضغوط والمشاكل الأسرية والخلافات المستمرة لها أهمية عالية فى إحداث سلوك سوء استخدام المذيبات. وعن

مدى ارتباط طبيعة التنشئة من جانب الأسرة وخاصة الأباء بتعاطى الأبناء المخدرات. انتهى «هنت» إلى نتائج هامة من خلال الدراسة التى قام بها عن تعاطى القنب، لعل من أهمها، أنه إذا كانت العلاقة بين الأباء والأبناء يسودها التسيب أو التفكك ازداد احتمال إقبال الأبناء على التعاطى. وإذا كانت العلاقة يغلب عليها روح التسلط من جانب الأباء، فالاحتمال أن يكون إقبال الأبناء على التعاطى متوسطا. أما إذا كانت العلاقة ديمقراطية أى يسودها الحب والتفاهم جنبا إلى جنب مع التوجيه والحزم فإن احتمالات إقبال أبناء على التعاطى تكون ضئيلة.

وفى البحوث المصرية تم الكشف عن وجود عدة جوانب للعلاقة بين الأسرة واحتمالات تعاطى الأبناء المخدرات، من أهمها مستوى تعليم الأب والمرتبة الاجتماعية لمهنته وكذلك مستوى تعليم الأم ومرتبتها المهنية، ففى بحث أجرى على تلاميذ المدارس الثانوية لم يظهر ارتباطا مستقرا بين مستوى تعليم الأباء واحتمالات تعاطى الأبناء، إلا فى حالة شرب الكحوليات، فمع ارتفاع المستوى التعليمى للأباء. وكذلك ارتفاع مستواهم المهنى ترتفع احتمالات إقبال الأبناء على شرب الكحوليات، وكذلك الحال بالنسبة للمستويين التعليمى والمهنى للأمهات، وكذلك اتضح أن الصورة تسير فى اتجاه مشابه فى حالة طلاب الجامعات. ولكنها لم تكن بدرجة الوضوح فى حالة تلاميذ المدارس الثانوية.

ومن ناحية أخرى يشير بعض الباحثين إلى أن أكثر الاضطرابات الأسرية خطورة وذات علاقة قوية بالتعاطى، هى تلك التى تنشأ نتيجة

تعاطى الأبـاء أنفسـهم للمخـدرات نظـرا لتأثـير ذلـك علـى الأبنـاء. فلقـد أوضحت دراسة سامي عبد القوى وإيمان صبرى عن سوء اسـتخدام المـواد المتطايرة أن ٥٤٪ من أفراد العينة كان آبـاؤهم متعـاطين للمخـدرات. مـن بينـهم ٤٧٪ يتعـاطون الخمـور، ٣٤٪ يتعـاطون الحشـيش، وتشـير هــذه النتيجة إلى أن قيم واتجاهات الأسرة نحو تعاطى المخدرات تتسم بـالقبول لهذا السلوك. ومن الدراسات الكاشفة أيضا عن التأثيرات السلبية لتعاطى الأباء المخدرات على الأبناء، دراسة «ماوس وبيلنجر» فلقد قاما بدراسـة على عينة من أبناء بعـض المدمنـين الذيـن تم علاجـهم وتمـاثلوا للشـفاء. وعينة أخرى من أبناء المدمنين الذين لازلوا منغمسين فـى الإدمـان، ولقـد كشفت نتائج الدراسة أن إنجاز الأبنـاء فـى المجموعـة الأولى يقـترب مـن إنجاز أبناء الأشخاص الأسوياء. فـى حـين كـان إنجـاز أبنـاء المجموعـة الثانية متدني بشكل ملحوظ.

إلا أنـه ممـا تجـدر الإشـارة إليـه فـى نطـاق هـذه التحليـلات المعنيـة بالكشف عن وجود علاقة بين الاضطرابات الأسـرية وتعـاطى المخـدرات، أنه قد ظهر مؤخرا اتجاه حديث يتسـم بـالنظرة الشـمولية فـى التفسـير. وهذا الاتجاه يرى أن مفهوم الأسرة ليس مجرد تحليـل سـلوك كـل عضـو من أعضاء الأسرة على حدة. ولقد وضع «ستيجلانس وزمـلاؤه» فـى هـذا الصدد ثلاث مراحل تطورية للأسرة تتمثل فى المرحلـة المبكـرة، والمرحلـة المتوسطة والمرحلة المتأخرة، وكان هدفـهم مـن هـذا البحـث معرفـة مـدى إمكانية تطبيق هذا النموذج على الأسرة التى تتعـاطى المخـدرات، حيـث

أن هذه الدراسة تدعم الفكرة التى تنظر إلى الإدمان باعتباره مرض أسرى يمر بهذه المراحل.

وبصفة عامة نخلص من العرض السابق إلى أن طبيعة الأسرة تلعب دورا هاما فى تيسير إقدام الشباب على تعاطى المخدرات أو الحفاظ عليه من ذلك حيث تبين ذلك من خلال إبراز أكثر العوامل الأسرية ذات الفاعلية فى حدوث هذا السلوك.

٢ - جماعة الأصدقاء والأقران:

تعتبر جماعة الرفاق من أهم الجماعات التى لها تأثيرها البالغ فى توجيه سلوك الفرد، فهى تؤثر فى معاييره الاجتماعية ويتوقف مدى تأثيرها على درجة ولائه لها، ومدى تقبله لمعاييرها وقيمها واتجاهاتها وعلى نوع التفاعل القائم بين أعضائها، وهى تؤثر تأثيرا واضحا فى كثير من النواحى أهمها تكوين معايير اجتماعية جديدة وتنمية الحساسية والنقد نحو بعض المعايير الاجتماعية للسلوك القائم فى المجتمع. كما أنها تساعد على تحقيق أهم مطلب للنمو الاجتماعى، وهو الاستقلال والاعتماد على النفس، وتعمل كذلك على إتاحة فرصة التجريب والتدريب على الجديد والمستحدث من معايير السلوك، وتتيح فرصة ممارسة بعض الأنماط السلوكية بعيدا عن رقابة الأسرة.

واستنادا إلى هذا التصور عن أهمية جماعة الرفاق وتأثيرها فى السلوك، فلقد أثبتت أبحاث كثيرة فى العصر الحاضر، دور العصبة السيئة كعامل أساسي في الانحراف وإدمان المخدرات، فمما لاشك فيه

أن سلوك الفرد يتأثر تبعا لسلوك من يخالطهم من أفراد آخرين، فإذا كان سلوكهم منحرفا كان الإحتمال قويا فى انقياده لهم. وتعتبر نظرية المخالطة المتفاوتة «لسذر لاند» من أكثر النظريات التى تؤيد ذلك الرأى وتتلخص هذه النظرية فى أن السلوك المنحرف ينتج عن مخالطة الفرد لأصدقاء أو أقران منحرفين، مخالطة أطول مدة وأكثر استدامة وأشد أثرا من مخالطته لأصدقاء أو أقران أسوياء. فيكون للمجموعة المنحرفة فى نفسه الغلبة على المجموعة السوية. ونظرا لأن تعاطى المخدرات يعتبر أحد أنماط السلوك المنحرف. فقد كشفت كثير من البحوث الميدانية عن أهمية الأقران والأصدقاء فى إقدام المراهق على تعاطى المواد المخدرة. فلقد أوضحت اللجنة القومية لبحث تعاطى القنب فى الولايات المتحدة الأمريكية. أن من أهم العوامل المؤثرة فى تحديد سلوكيات تعاطى المراهقين وصغار الراشدين لهذا المخدر فى الوقت الحاضر تأثير جماعة الأقران. وفى محاولة إضافية لهذا البحث من جانب «كاندل» قارن بين قوة تأثير الأقران المتعاطين وقوة تأثير الأباء المتعاطين فى الشباب الذى يتعاطى المارجوانا، أوضحت النتائج الميدانية أن تأثير الأقران هو الأقوى. كما كشفت أيضا نتائج دراسة أخرى على مدمنى الأفيون والهيروين بمستشفى رانجون ببورما، أن ٥٣٪ من مدمنى الأفيون، و٦٩٪ من مدمنى الهيروين قد تعلموا كل شىء عن المخدر عن طريق أصدقائهم. وكذلك تشير دراسات أجريت فى المجتمعات العربية إلى أن مجاراة الأصدقاء، كانت سببا من الأسباب الرئيسية فى تعاطى المخدرات، ففى دراسة قام بها «العقبارى وآخرون» بدولة قطر عن تعاطى وإدمان المخدرات، اتضح أن ٨٣٪ من حالات المتعاطين. تم فيها التعاطى لأول مرة بتشجيع من

صديق متعاطي. كما أوضحت الدراسة أيضا أن ٩٢٪ من المدمنين لهم أصدقاء مدمنون.

وفي دراسة بالأردن أشار ٣١٪ من متعاطي المخدرات أن سبب تعاطيهم يعود إلى مجاراة الأصدقاء. كما وجد أن هناك فئة من المتعاطين تتناول المخدرات مرة في الأسبوع بهدف مشاركة الآخرين وتقليدهم، وفي مصر أجريت دراسة عن تعاطي الحشيش. ومن نتائجها الهامة، أن أشار أغلب المتعاطين أن مجاراة الأصدقاء من أهم الأسباب التي أدت بهم إلى التعاطي. والواقع أن نتائج هذه الدراسات تعكس حقيقة هامة وهي أن طبيعة الصحبة لها تأثيرها الإيجابي أو السلبي في أوقات كثيرة على الأنماط السلوكية للأفراد.

٣ – وسائل الاتصال العامة:

نقصد بوسائل الاتصال العامة. تلك الوسائل التي تساعد على إتصال الإنسان بالعالم الخارجي المحيط به سواء كان هذا العالم محليا أو قوميا أو عالميا. والواقع أنه مع تطور المجتمع البشري وزيادة الرقي الفني والصناعي وتطور التكنولوجيا المستخدمة تعددت وسائل الاتصال بين الإنسان وبين العالم الذي يعيش فيه ولعل أهم هذه الوسائل هي المطبوعات بشكل عام وتتضمن المجلات والكتب، ثم وسائل الإعلام المسموعة والمرئية كالإذاعة والتليفزيون والسينما والفيديو.

ونحن لا ننكر أهمية الوسائل السابقة في توسيع آفاق الإدراك عند الفرد وفي شغل أوقات فراغه وتسليته. لكننا في نفس الوقت نرى أن

الاستخدام السيء لهذه الوسائل يؤدى إلى نتائج غير مرضية. ويدفع فى اتجاه تكوين أنماط من السلوك المنحرف لعل أهمها تعاطى المخدرات.

وفى هذا الصدد يرى العديد من الباحثين أن بعض وسائل الإعلام كالإذاعة والتليفزيون والسينما، قد تؤدى أحيانا من خلال ما تقدم أو تعرض من أفلام ومسلسلات إلى الانخراط فى دائرة الإدمان، وخاصة تلك الأفلام التى يركز مضمونها على تعاطى المخدرات أو على الاتجار فيها أكثر من التركيز على إبراز الجوانب السلبية أو الأفلام التى غالبا ما يقوم بها شخصية أو شخصيات لها جماهيرية لدى المشاهد، بدور تاجر المخدرات أو المدمن، كما أن هناك نوعية من الأفلام والمسلسلات التى تسرف فى إظهار حياة الرفاهية والبذخ والمغالاة والاهتمام الزائد بالماديات على حساب القيم والأخلاق مما يخلق تناقضا بين تطلعات الشباب وعدم توفر الوسائل التى تمكنهم من تحقيق هذه التطلعات. وبالتالى يؤدى ذلك إلى تمرد الشباب وميلهم إلى العدوانية والعنف وأخيرا الإدمان.

ولقد أجريت العديد من البحوث والدراسات للتحقق من مدى دور وسائل الاتصال العامة فى تعاطى المخدرات. وجاءت نتائج بعضها يؤيد دورها فى هذا الصدد. ففى دراسة قامت بها سلوى سليم على مجموعة من متعاطى المخدرات بمستشفى العباسية، أفاد ٥١,٢٪ من إجمالى العينة أنهم تأثروا بأفلام المخدرات وكانت سببا من أسباب تعاطيهم.

وفى مجموعة أخرى من البحوث الميدانية التى أجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية من خلال البرنامج الدائم لبحوث تعاطى المخدرات فى الأعوام ١٩٧٨، ١٩٧٩، ١٩٨٣، وذلك على عينات من

تلاميذ المدارس الثانوية بالقاهرة (٥٥٣٠ تلميذا) ومدارس الثانوية الفنية (٣٦٨٦ تلميذا) وطلاب الجامعة (٢٧١١ طالبا) أتضح من نتائج هذه البحوث الارتباط الإيجابى بين تعرض الشباب لثقافة المخدرات والإقبال عليها. ولقد كانت وسائل الأعلام أهم القنوات الاجتماعية التى تنشر ثقافة التعاطى.

وفى دراسة أيضا عن العقاقير المخلقة وتعاطيها بين طلبة وطالبات الجامعات المصرية أتضح أن من أهم مصادر السماع والرؤية لهذه المواد كانت وسائل الأعلام والكتب والمجلات والصحف حيث أفاد بتأثير هذه الوسائل مجتمعة ٣٢.٥٪ من الطلبة المتعاطين، وذلك بعد الأصدقاء والزملاء. فى حين بلغت نسبة من أفاد بذلك من الطالبات المتعاطيات ٤٠.٦٤٪ من العينة. حيث تأتى وسائل الإعلام والصحف والمجلات عندهن فى مرتبة أهم قبل الأصدقاء.

ولعل مما يدعم نتائج هذه البحوث. ما أشارت إليه هيئة الصحة العالمية فى تقاريرها العلمية إلى ضرورة الامتناع عن استخدام أدوات الإعلام الجماهيرى فى مكافحة المخدرات بقصد إعطاء معلومات للجمهور حيث غالبا ما تكون هذه المجهودات مثالا للتبسيط المخل فى تناول مشكلات هى بطبيعتها معقدة. ومن ثم يأتى التناول بعكس المطلوب خصوصا أنه اتضح أن ذلك غالبا ما يتم بأسلوب يضفى من الجاذبية الإعلامية والدعائية ما يشجع قطاعات كبيرة من غير المدمنين أصلا على التقليد.

العوامل الأيكولوجية:

تعنى العوامل الأيكولوجية تلك العوامل المتعلقة بعلاقات الناس ببيئتهم المكانية واستجابتهم المختلفة للأزمات البيئية في المكان الذي يعيشون فيه. ويهتم أنصار هذا الاتجاه بالربط بين تعاطى المخدرات وانحرافات السلوك المختلفة وبين البيئة المكانية التي يعيش فيها المتعاطى أو المنحرف والتي قد تساعده على اكتساب أنواع شتى من السلوك المنحرف. وتتسم هذه المناطق كما أوضحت الدراسات الاجتماعية المختلفة بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتدنية وانتشار مظاهر التخلف كازدحام السكان وسوء الأحوال السكنية وتدنى القيم وانتشار التفكك الأسرى الناجم عن وفاة أحد الوالدين أو الطلاق والهجر، وقلة الرعاية الأسرية للأطفال أو انعدامها، وسيادة نظام الضبط الاجتماعي المنحرف؛ أضف إلى ذلك ارتفاع نسبة البطالة بها وانتماء سكانها إلى أنماط ثقافية مختلفة، فمنهم النازحون إلى المدينة من الريف، ومنهم المهاجرون الذين أغراهم رخص إيجارات المساكن في هذه المناطق.

ويعتبر البحث الذي أجراه «ايزيدور تشاين» على مدمنى المخدرات بالولايات المتحدة الأمريكية في مدينة نيويورك من أبرز البحوث التي تعكس وجود علاقة بين طبيعة البيئة المكانية وانتشار تعاطى المخدرات. فمن خلال الحصول على قوائم بأسماء وعناوين الأفراد الذين يتراوح أعمارهم بين ١٦ سنة و٢١ سنة والذين عرفوا للجهات الرسمية بأنهم من المدمنين والمقدر عددهم ١٨٤٤ من مدمنى المخدرات والمتجرين فيها، قام «ايزيدور تشاين» برسم خريطة لتوزيع هؤلاء على مناطق المدينة بحسب

محال إقامتهم حتى يمكن تحديد المناطق التى ينتشر فيها المخدرات. ولقد تبين من نتائج الدراسة أن المناطق التي يتركز فيها تعاطي المخدرات هي أكثر مناطق المدينة حرمانا وفقرا وتخلفا وازدحاما، وحتى داخل هذه المناطق السيئة. وجد أن المخدرات تكون أكثر انتشارا فى تلك الأجزاء منها التي يكون الدخل فيها شديد الانخفاض فضلا عن انخفاض المستوى التعليمي وانتشار التفكك الأسرى. ثم اتضح بعد ذلك «لتشاين» من دراسته للظروف الأسرية للشباب المدمن للمخدرات، أن الحرمان والبطالة وانخفاض المستوى التعليمي للأسرة والمسكن السيء المزدحم من العوامل التى ترتبط بإدمان هؤلاء الشباب وفى هذا الصدد أيضا يعزى عالم الاجتماع الأمريكى «داى» ظاهرة انتشار المخدرات فى هذه المناطق إلى اكتساب المعرفة بالمخدرات عن طريق الاختلاط بالذين يتعاطون المخدرات والمتجرين فيها والمتركزين بأعداد كبيرة بها.

والواقع أن هذه النوعية من الدراسات الأيكولوجية قد تعرضت لنقد كثير من جانب علماء الاجتماع ولعل أهم هذه الانتقادات أن الإحصاءات الرسمية التي تم الاستناد إليها فى قياس مدى الانحراف وانتشار التعاطى فى المناطق المتخلفة. إحصاءات متحيزة. ولا تظهر الحقيقة نظرا لوقوع سكان المناطق المتخلفة في قبضة الشرطة أكثر من سكان المناطق الغنية بسبب تحيز الجهات الرسمية. وهناك نقد آخر لهذه الدراسات مؤداه أن المناطق الفقيرة التى ينتشر فيها أعلى معدلات للتعاطي والانحراف. يوجد بها عدد كبير جدا من الأشخاص الذين لا يرتكبون هذا السلوك.

لكن مما تجدر الإشارة إليه لأنه على الرغم من هذه الانتقادات فإن هذه الدراسات كانت على جانب كبير من الأهمية لتوجيهها الأنظار إلى

الارتباط بين سوء الأحوال لمعيشية لسكان المناطق المتخلفة وتعاطى المخدرات وأنماط السلوك المنحرف المختلفة

الأوضاع الاقتصادية:

لقد كانت العلاقة بين العوامل الاقتصادية وانتشار المخدرات مثار اهتمام العديد من الدراسات والبحوث والتى تبلور اهتمامها فى اتجاهين أساسين، أولهما انطلق من تأكيد العلاقة بين الفقر وتعاطى المخدرات والإدمان عليها، والثانى نظر إلى سلوك التعاطى على أنه إفراز لانحرافات وخلل فى البناء الاقتصادى للمجتمع. والواقع أن محاولة الكشف عن طبيعة هذه العلاقة لم تحظ سوى باهتمام عدد قليل من الدراسات، لكن على الرغم من قلتها فإن معظمها أكد على وجود علاقة بين سوء الأوضاع الاقتصادية وانتشار تعاطى المخدرات فلقد تبين من نتائج بحث تعاطى الحشيش فى مصر بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، أن تعاطى المخدرات أكثر انتشارا بين الأشخاص المنتمين إلى الطبقات الفقيرة، ثم تأتى الطبقات المتوسطة والغنية بعد ذلك فى الترتيب. كما أسفرت دراسة «فاروق عبد السلام» على مدمنى الأفيون إلى نتيجة مماثلة، فلقد تبين انتماء المدمنين إلى مستويات اجتماعية دنيا، حيث تشيع الأمية بينهم وأغلبهم يعمل فى مهن يدوية غير فنية وهامشية ودخولهم ضئيلة وأخيرا معدل التزاحم عندهم عال نسبيا.

وعلى المستوى العالمى أشارت منظمة اليونسكو الدولية إلى أن من أهم الأسباب المسئولة عن الزيادة الرهيبة فى معدلات التعاطى هو التفاوت

بين الطبقات، كما أوضحت نتائج البحوث التى أجريت فى الولايات المتحدة إلى أن المخدرات تنتشر بين الطبقات الاجتماعية ذات المستوى الاقتصادى الاجتماعى المنخفض. حيث توصل عالم الاجتماع الأمريكى «داى» Dai فى بحثه عن أدمان الأفيون فى مدينة شيكاغو إلى هذه النتيجة، كما توصل «هربرت بلومر» فى دراسته عن تعاطى المخدرات بمدينة «أوكلاند» إلى نفس النتيجة.

لكن من الملاحظ أنه إذا كانت الإحصاءات والدراسات تشير إلى انتشار تعاطى المخدرات بين الشرائح الاجتماعية الدنيا، فإن هذه الظاهرة شهدت تحولا ملموسا فى الأونة الأخيرة. فلقد بدأت هذه الظاهرة تزحف إلى قطاعات الشباب الجامعى المتعلم وأفراد الشرائح الاجتماعية الغنية. فلقد تبين من بحث «أنجرليدر» على متعاطى الكوكايين، انتشار تعاطيه بين رجال الأعمال الأغنياء. كما كشفت الاحصاءات فى نفس الوقت عن انتشار إدمان الهيروين بين الشباب المتيسر ماديا فى بريطانيا فى فترة الستينيات والسبعينيات.

والواقع أنه إذا كان هناك من حاول أن يكشف عن العلاقة بين الأوضاع الاقتصادية الجزئية السلبية والإدمان على المخدرات، فإن هناك البعض الآخر من حاول أن يركز على التنظيم الاقتصادى الكلى للمجتمع وما يتبناه من سياسات. ويعتبره مسئولا عن انتشار تعاطى المخدرات بمعدلات كبيرة. فعلى سبيل المثال يذهب العديد من الباحثين إلى أن التغير الاقتصادى السريع الذى يشهده المجتمع سواء كان إلى الرخاء او الكساد يؤدى إلى زيادة حجم ظاهرة التعاطى. ويعللوا ذلك أن الرخاء

المفاجئ يؤدى إلى وفرة المال التى قد تؤدى إلى الإقبال على تعاطى المخدرات، كما أن هذه الثروات تصبح هدفا لمهربى المخدرات والمتجرين فيها، الذين يحاولون فتح سوق جديد لها فى الدول الغنية. ولعل أبرز نموذج على ذلك دول الخليج التى ينتشر فيها تعاطى المخدرات فى الآونة الأخيرة بمعدلات كبيرة بسبب تدفق الثروة من عائدات البترول.

ومن ناحية أخرى قد يؤدى الكساد المفاجئ إلى التفكك الأسرى والبطالة بما تعنيه من إحباط والشعور بالفشل خصوصا بين الشباب الذين يواجهون الصعوبات في البحث عن عمل مناسب، ومن ثم يأتى تعاطى المخدرات لانغلاق سبل النجاح.

وأخيرا هناك من يحاول الربط بين ظاهرة تعاطى المخدرات وما يتبناه المجتمع من توجه أيديولوجى سواء كان هذا التوجه رأسمالى أو شيوعى وفى هذا الصدد يرى البعض - مستندا فى ذلك إلى وثائق الأمم المتحدة - أن الدول الرأسمالية تعانى من انتشار تعاطى المخدرات والاتجار فيها بصورة أكبر من الدول الشيوعية. وذلك لأن النظام الرأسمالى قائم على وفرة المال وزيادة الاستهلاك والكسب السريع والمنافسة الشديدة. وفى سبيل تحقيق ذلك يفعل ما يشاء، ومن ثم فإن المجتمع الرأسمالى يخلق الإشباعات الإدمانية لدى قطاع كبير من سكان المجتمع لحل التناقضات بين الأهداف الشخصية وسلم التدرج والحراك الاجتماعى.

وأما فى المجتمعات الشيوعية فإن عدم وفرة المال مع الأفراد لا يشجع المهربين على المخاطرة بتهريب المخدرات لأنها لن تحقق العائد المادى من وراء تجارتها، إلا أن هناك من يتحفظ على هذا الرأى، ويذهب إلى القول

بانتشار المخدرات فى المجتمعات الشيوعية على نطاق واسع أيضا. ولكن نظرا لأن طبيعة هذه المجتمعات تفرض على نفسها سياجا حديديا من الانغلاق. ومن ثم لا تسمح بنشر البحوث والإحصاءات التى تعكس مدى انتشار تعاطى المخدرات ومعدلاتها.

الإطار الثقافى للمجتمع:

لقد أوضحت العديد من الدراسات الثقافية الحديثة بأن هناك بعض الثقافات التى لها تأثير كبير على معدلات وأنماط تعاطى وإدمان المخدرات والخمور. وتعتبر دراسة «ماكندرو وادجيرتون» مساهمة كبرى فى مجال التفسيرات الثقافية للتعاطى. فلقد انتهيا إلى أن التعاطى هو سلوك مكتسب من الثقافة السائدة. والواقع أن هذا الرأى قد تدعم من خلال استقراء ثقافات بعض المجتمعات. فلقد تبين أن هناك ثقافة عامة تحبذ التعاطى وأخرى لا تحبذه بل تحرمه. وأحيانا قد تحتوى ثقافة تستهجن سلوك التعاطى. على ثقافة فرعية خاصة تشجع وتدعم هذا السلوك.

وفى ضوء هذا التصور. ظهرت تفسيرات عديدة للإدمان والتعاطى متخذة من ثقافة المجتمع إطارا لها فى التفسير. فالبعض يرى أن ثقافة كل مجتمع هى المناخ الذى يشكل للأفراد والجماعات الاتجاهات نحو التعاطى ووجهة نظرهم فى الإدمان. وتنمو هذه الاتجاهات خلال المراحل المبكرة فى حياة الأفراد. أى من خلال أهم مراحل التنشئة الاجتماعية. فإذا كان التعاطى جزءا يتكامل فى سياق عملية التنشئة الاجتماعية

ويمارس تكرارا في طقوس الجماعة وتقاليدها ولا يتعارض مع معتقداتها الدينية فإن عملية الصراع الثقافي لا تجد لها مجالا، حيث لا توجد قيم ومعايير مستهجنة مقابل قيم ومعايير محبذة لهذا السلوك. في حين على العكس من ذلك. توجد عملية الصراع الثقافي لدى الأفراد والجماعات عندما لا يكون التعاطى جزءا من السياق المتكامل في إطار عملية التنشئة الاجتماعية نظرا لأن التعاطى سلوك مستهجن وترفضه الثقافة السائدة.

وفي تفسير ثقافي آخر لعملية التعاطى يذهب بعض الباحثين إلى أن درجة القلق والتوتر فى مجتمع ما، ترتبط بمعدلات المشكلات التى تظهر فيه، ولذلك أحيانا ما تروج ثقافة بعض المجتمعات التى تعانى من وجود مشكلات ضخمة بها، إلى أهمية المواد المخدرة فى حياة المتعاطين كبدائل للتغلب على الضغوط التى تواجههم.

وهناك أيضا بعض التفسيرات الثقافية التى تنظر إلى إدمان المخدرات باعتباره مرض، وتميز بين نوعين من العوامل فى تفسير هذا السلوك المرضى هما:

١ - العوامل المهيئة للمرض وهى قد تكون بيولوجية أو جينية فى طبيعتها.

٢ - العوامل المعجلة بظهور المرض وهى قد تكون بيئية أو ثقافية، وفى عام ١٩٨٨ أشار «هيلث» إلى أن هناك العديد من النماذج الثقافية التى لها دور بارز فى الإصابة بهذا المرض ومن أهمها النموذج المعيارى ودرجة القلق وطبيعة النظام الاجتماعى وما يتبناه من سياسات ونمط الصراع.. الخ.

على أن أكثر التفسيرات الثقافية جاذبية وراديكالية. تفسير عالم الاجتماع الأمريكي «روبرت ميرتون» حيث يرى أن تعاطى المخدرات هو استجابة انسحابية من جانب المتعاطى الذى يجد سبل النجاح مغلقة أمامه. كما أنه انعكاس للموقف الذى تمجد فيه ثقافة المجتمع هدف النجاح الفردى مثل تجميع الثروة والممتلكات، ولكنها فى نفس الوقت توصد أمام جزء من أفراد هذا المجتمع أبواب تحقيق هذا الهدف، وفى هذا الموقف يخالف هذا الجزء من الأفراد معايير هذا المجتمع، ويأتى تعاطى المخدرات كأحد صور هذه المخالفة.

كما تذهب بعض التفسيرات الثقافية إلى أن تعاطى مخدر معين واختياره والإقبال عليه، يرتبط بخصائص ثقافات شعوب معينة، ففى الشرق عموما حيث تشجع السلبية والخضوع للسلطة؛ نجد استخدام الأفيون، وفى اليابان، حيث أن زيادة الإنتاج وكثرة ساعات العمل من العوامل التى تؤكدها تلك الثقافة نجد أن المنبهات وعلى رأسها الأمفيتامينات هى عقار الإدمان المفضل، وفى الثقافة الغربية بصفة عامة حيث تشجع العدوانية والمبادأة. نجد عقار الإدمان المفضل هو الكحوليات.

والواقع أن الدراسات التى تستند إلى مثل هذه التفسيرات الثقافية لتعاطى الخمور والمخدرات عديدة. لعل أبرزها دراسة «بيتمان» والتى قام فيها بتقسيم اتجاهات الثقافات المختلفة تجاه شرب الخمر على النحو الآتى:

١ - ثقافات ممتنعة وهى التى تحرم شرب الخمر كلية وتتصف بسيادة مشاعر سلبية قوية نحو المسكرات ومن يتعاطونها. وهذا النوع موجود في بعض الجماعات الحضارية فى السويد وفنلندا والنرويج وكندا والولايات المتحدة. أما الجماعات الدينية التى تحرم الخمر فتشمل المسلمين وبعض الطوائف المسيحية.

٢ - الثقافات الازدواجية، وتختص هذه الثقافات باتجاهات متناقضة نحو الخمر حيث أن هناك بعض الثقافات التى تسمح بالتعاطى وتشجع عليه كوسيلة للحصول على اللذة دون ضوابط. وتميل فى نفس الوقت إلى عدم تشجيع التعاطى واستنكار الإسراف فيه. فيصبح الفرد فى حيرة بين الاتجاهين، ومن ثم يجنح نحو الإدمان. وهو ما يحدث فى بريطانيا وبعض المجتمعات الأفريقية والهنود الحمر والأسكيمو.

٣ - الثقافات المتساهلة. وهى ثقافات تشجع على تعاطى الخمر. ولكنها تستنكر بشدة السكر والتعاطى بإسراف. وهذا النمط هو السائد فى أسبانيا والبرتغال وبعض الجماعات الدينية اليهودية.

٤ - ثقافات مفرطة فى التساهل. وتتجه هذه الثقافات إلى تشجيع شرب الخمر ولا تستنكر السكر أو انحراف السلوك نتيجة شرب الخمر، ومن البلدان التي تنتمى إلى هذه البيئة فرنسا واليابان.

لكن إذا كانت دراسة «بيتمان» قد كشفت عن وجود اتجاهات ثقافية متباينة نحو التعاطى فإنه من الملاحظ أن هناك دراسات أخرى كشفت عن حقيقة هامة وهى أنه قد تستهجن الثقافة العامة لمجتمع معين

سلوك التعاطى، فى حين أننا نجد وجود ثقافة فرعية منبثقة عن هذه الثقافة العامة لذلك المجتمع. تحبذ هذا السلوك ويمارسه أعضاؤها.

وتعتبر دراسة «كوديرى» على تعاطى القنب فى رواندا بأفريقيا من أبرز الدراسات التى تؤيد ذلك. ففى حين لا ينتشر تعاطى القنب بين قبائل المجتمع الرواندى، نجد أن تعاطيه هناك يكاد يقتصر على الرجال من أبناء جماعة عرقية صغيرة ذات مكانة اجتماعية شديدة الانخفاض تسمى «توا» وفى هذا الإطار يسود التوقع بأن القنب يسبب لمتعاطيه إندفاعات شديدة عند الغضب لا تليق إلا بأبناء هذه الجماعة ذات المكانة الاجتماعية المتدنية. وهكذا يوصف أفراد هذه الجماعة بالسلوكيات المتدنية، ويأتى تعاطى الحشيش ليزيد من تأكيدها ومن ثم تساعد هذه التوقعات سواء عند المتعاطين أو المحيطين بهم على حصر تعاطى الحشيش فى أبناء «التوا» وعدم انتشاره بين الأغلبية المحيطة بهم والتى ليست من «التوا».

الفصل الثانى

الهيروييين والمواد المخدرة

فى الواقع أنه إذا ما أردنا التعرف على الهـيروييين كمخـدر ومـن أيـن يستخرج لابد أولا مـن التعـرف علـى التصنيفـات الفارماكولوجيـة للمـواد المخدرة حتى نتبين وضع الهيروييين بينها، حيـث أن ذلـك فيـه تحديـدا للخصائص المختلفة التى يتضمنها المخدر. والتى تقوم بدور أساسـى فيمـا يتعلق بالآثار المترتبة على استعماله. كمـا قـد تفيـد هـذه التصنيفـات مـن ناحية أخرى فى الربط بين المخدر وأسباب تعاطيه.

تصنيف المواد المخدرة:

حتى الآن لا يوجد تصنيف حاسم متفق عليه بالنسبة للمـواد المخـدرة في ميادين العلوم المختلفـة، والتـى يدخـل فـى إختصاصـها بحـث هـذه المواد. إلا أنه بصفة عامة هناك تصنيف شائع ومعروف بين العلماء يستند إلى ثلاث معايير أساسية هـى أولا - معيـار أصـل المـواد المخـدرة ثانيـا - معيار تأثير المواد المخدرة ثالثا - معيار لون المواد المخدرة.

أولا - معيار أصل المواد المخدرة:

طبقا لأصل المادة تنقسم المخدرات إلى:

(أ) مخدرات طبيعية: وهى المواد التى من أصل نباتى مثل الأفيون المستخرج من نبات الخشخاش والكوكايين المستخرج من شجرة الكوكا والحشيش المستخرج من نبات القنب.

(ب) مخدرات تخليقية: وهى المواد التى تصنع فى المعامل والمصانع كيميائيا مثل الإمفيتامينات والباربيتورات والهيروين وداى آثيل آمين.

ثانيا - معيار تأثير المواد المخدرة:

إما من ناحية تأثير المواد المخدرة على النشاط العقلى والحالة النفسية فإنها تنقسم إلى: (أ) مهبطات الجهاز العصبى المركزى. (ب) منشطات الجهاز العصبى المركزى. (جـ) المهلوسات.

(أ) مهبطات الجهاز العصبى المركزى:

من أهم هذه المواد الأفيون ومشتقاته كالمورفين والهيروين، وهى مواد مخدرة تترك أثرها بتخميد الجهاز العصبى المركزى. وعلى الأخص فى مناطق الحس وقشرة المخ، وتعمل هذه الفاعلية المخمدة لتخفيف الألم وللتنويم إذا أخذت بجرعات كبيرة وتولد هذه المواد تأثيرها المخمد عن طريق منع أجهزة اليقظة فى الجهاز العصبى المركزى من العمل، أى أنها تخمد التكوين الشبكى عن طريق إعاقة استهلاك الأوكسجين. وأجهزة توليد الطاقة، فالتخميد هنا يخفض إشارات الأعصاب التى تصل إلى قشرة المخ وبالتالى تؤدى إلى النوم.

والانقطاع عن الاستعمال المكثف والمزمن لهذه المواد يؤدى إلى ظهور بعض الأعراض وتتمثل فى القلق والأرق وتقلص العضلات والوهن والدوار والغثيان والقىء وتشوه الإدراك البصرى وتشنجات صرعية.

(ب) منشطات الجهاز العصبى المركزى:

وهى مواد تؤثر فى النشاط العقلى بالإثارة والتنبيه. كما أنها قادرة على إنعاش المزاج وتبديد التعب والإحساس بالجوع. فضلا عن أنها ذات قدرة كبيرة على إحداث الإدمان النفسى بسرعة. وقد تحدث ذهانا تسمميا بعد أسابيع من الاستعمال المستمر. وتتميز أعراض التسمم بهذه المواد بتغييرات عميقة فى السلوك وبحالات ذهان مع هلوسة سمعية وبصرية ولمسية قد تصحبها مشاعر الخوف والعدوانية وإرتكاب أعمال خطرة ضد المجتمع، وبعض مستعملى الامفيتامينات كسائقى السيارات عرضة للحوادث بسبب مشاعر التهيج والنوبات المفاجئة من التعب المفرط التى تحدثها هذه العقاقير. ومن أهم هذه المواد الامفيتامينات والكوكايين.

(جـ) المهلوسات:

وهى المواد التى تسبب الهلوسة والأوهام والتخيلات مثل الميسكالين (L.S.D) وكلها عقاقير ومواد تحدث تغيرات ذهنية عميقة كتشوه الإدراك والحس والهلوسة البصرية والسمعية الشديدة والأوهام وانفعالات تتسم بجنون الارتياب. وإذا أخذت جرعات كبيرة من هذه المواد، فإن من يتناولها يبدأ فى فقدان الاتصال مع العالم الخارجى، ويبدأ الشعور بأنه جزء من كون أكبر تختفى فيه حدود الذات، ويقول من يتعاطون هذه

المواد بشكل دائم ومستمر أنهم يشاهدون شخصيات إلهية وأماكن ساحرة وخيالات دينية أخرى.

ثالثا - معيار لون المواد المخدرة:

يقسم البعض المخدرات حسب لونها إلى مخدرات بيضاء مثل الكوكايين والهيروين ومخدرات سوداء مثل الحشيش والأفيون. والواقع أن هذا التقسيم يفتقر إلى الدقة نسبيا. وذلك لأن لون المادة المخدرة يتوقف على درجة نقائها. فالهيروين النقى وإن كان أبيض اللون، إلا أن الهيروين غير النقى يكون أسمر اللون كما أن هناك أنواع من الهيروين تتراوح ألوانها بين البنى الفاتح والغامق.

وبعد هذا العرض يمكن القول إن جميع أنواع المخدرات سواء كانت طبيعية أو مخلقة، وسواء كانت مهبطة أو منشطة أو مهلوسة أو بيضاء أو سوداء، فهى تشكل خطرا كبيرا نظرا لأضرارها الصحية والعقلية والاجتماعية العديدة. إلا أن الهيروين - موضوع الدراسة الراهنة - يعتبر من أخطر هذه الأنواع حيث أنه من أكثر المواد المخدرة إحداثا للإدمان. فضلا عن انتشاره على نطاق واسع فى الآونة الأخيرة.

وتجدر الإشارة إلى أن الهيروين هو أحد مشتقات الأفيون، ولكى نتعرف على خصائصه لابد أن يكون لدينا بعض المعلومات عن نبات الخشخاش الذى يستخرج منه الأفيون ثم المورفين. والذى يصنع منه الهيروين، وكلها تسمى مشتقات الأفيون.

نبات الخشخاش:

لقد عرفت البشرية منذ أزمنة سحيقة نبات الخشخاش، ويسمى الخشخاش فى كثير من المناطق «أبو النوم» نتيجة لما يحدثه من خدر ونوم، وتعتبر آسيا الصغرى الموطن الأصلى لشجرة الخشخاش، ولكن هذه الشجرة انتشرت منذ أزمنة سحيقة فى العراق ومصر وإيران، وانتقلت بعد ذلك إلى أفغانستان وشبه القارة الهندية، ومن ثم انتقلت إلى بقاع مختلفة من العالم. ويعتبر المثلث الذهبى: لاوس وتايلند وبورما، والهلال الذهبى: باكستان وأفغانستان وتركيا من أكبر مصادر نمو هذه الشجرة فى العالم فى الوقت الراهن.

والخشخاش نبات عشبى حولى، يبلغ ارتفاعه من قدمين إلى أربعة أقدام وينتج أزهارا ذات أربعة بتلات، قد تكون بيضاء أو حمراء أو بنفسجية أو قرمزية، ولكن اللون الأكثر شيوعا هو اللون الأبيض، وأوراق النبات طويلة ناعمة خضراء ذات عنق فضى، وللنبات رأس أو كبسولة ذات إستدارة غير منتظمة، تبدو بيضاوية الشكل من قمتها إلى قاعها ويصل حجمها عند النضج كحجم البرتقالة الصغيرة وتحتوى هذه الكبسولة على بذور النبات.

الأفيون:

تزرع حقول الخشخاش فى الخريف وأوائل الربيع، وبعد ثلاثة أشهر تزهر هذه النباتات وعندما تتساقط الأوراق تنكشف كبسولة نبتة الخشخاش، وفى هذا الوقت بالذات يخدش العمال الكبسولات بطريقة

طولية ونتيجة لهذه العملية يسيل إفراز أبيض كالحليب يتجمد عند تعرضه للهواء ويتحول إلى مادة صلبة رمادية أو سوداء. ثم يكشط من على الكبسولات ويجمع فى أوعية خاصة ويعتبر هذا هو الأفيون الخام. ويكون له رائحة نفاذة لزجة كرائحة النشادر أو البول المختزن. كما أن طعمه شديد المرارة. وحتى يكون الأفيون صالحا لتناوله عن طريق الأكل أو التدخين يجهز بخلطه بالماء ثم تسخينه وتنفيته لإزالة الشوائب. ثم يعاد تسخينه من جديد لتبخير الماء حتى يتم التوصل إلى درجة الصلابة المطلوبة ويسمى هذا بالأفيون المجهز حيث يتم تشكيله على هيئة عصيان أو كتل أو ألواح أو يعبأ داخل صفائح أو أوعية. وعادة ما تكون العصيان رفيعة طولها حوالى ٢٠سم ناعمة وطرية وذات ملمس زيتى ولون بنى أو ذهبى.

وتشير بعض المراجع إلى أن الأفيون كان له استخدام طبى منذ ما يقرب من سبعة آلاف سنة قبل الميلاد. فلقد أوضحت بردية «إيبرز» وهى بردية فرعونية أنه كان يستخدم فى علاج المغص عند الأطفال. وكذلك الأرق والاستثارة العصبية والتهاب الأعصاب والآلام الروماتيزمية. ومن الخصائص التى تذكر للأفيون أنه منوم مسكن للأوجاع ومخثر للدم وممسك.

ويحتوى الأفيون الخام على مجموعة من القلويدات Alkaloids التى تشكل ٢٥٪ من وزن الأفيون ويبلغ عددها ٢٥ قلويدا. ومعظم هذه المواد ليست لها تأثيرات فعالة على الإنسان. لكن يعتبر المورفين من أهم المواد المستخرجة من الأفيون نظرا لأنه المادة الأساسية الفعالة فى الأفيون فضلا

عن أنه أقوى مسكن للألم عرفه الإنسان، ويشكل المورفين ١٠٪ تقريبا من وزن الأفيون الخام.

المورفين:

فى عام ١٨٠٣ تمكن الصيدلانى الألمانى الشاب سيرتونر Sertuner من عزل العنصر الفعال فى الأفيون، وهو المورفين، وهو العنصر المسئوول عن معظم الآثار الفسيولوجية والسيكولوجية المترتبة على تناول الأفيون. وكان لهذا الاكتشاف أهمية كبرى حيث استخدم المورفين فى تخفيف الآلام المبرحة الناجمة عن عمليات جراحية أو كسور وكذلك فى المرحلة الأخيرة للأمراض التى لا يرجى شفاؤها.

ويقال أنه سمى بالمورفين إلى مورفيوس إله الأحلام فى أساطير الإغريق. وتستخلص قاعدة المورفين من الأفيون باستعمال المواد التى تحتوى على الجير الحى «أدوركسيد الكالسيوم» مع الماء والتسخين وكلوريد الأمونيا، ثم جهاز للترشيح. ويمكن استخدام المورفين مباشرة من الجزء العلوى من ساق نبات الخشخاش وكذلك من ثماره قبل استخراج الأفيون منها. وقاعدة المورفين تكون على شكل مسحوق ناعم الملمس، تشبه البن المدقوق دقا ناعما. ونسبة المورفين فى قاعدة المورفين تتراوح بين ٦٠٪ - ٧٠٪ وقد تكون القاعدة على شكل مكعبات متباينة الأوزان تتراوح ألوانها بين الأسمر والبنى الغامق. كما قد يوجد المورفين على شكل أملاح مثل سلفات المورفين وكلوريدات المورفين وترترات المورفين، والأملاح الثلاثة ليس لها رائحة، وتكون على شكل مسحوق أبيض

متبلور، كما يمكن أن تكون على شكل أقراص أو تذاب تلك الأملاح في الماء وتعبأ في الحقن.

ويحدث المورفين عادة تأثيرات مخدرة تؤدى إلى عدم الإحساس بالألم والخمول وتغيرات في المزاج. ولقد كان للاستخدام الطبى الواسع للمورفين أثر كبير في ظاهرة الإدمان وسوء الاستخدام، كما عجل اختراع الإبرة الوريدية بسوء استخدام المورفين وتناوله بأسلوب آخر غير طريق القناة الهضمية، فالأثر الذاتى القوى الذى يعقب الحقن به يحدث استخداما قهريا له.

الهيروبين:

الاسم العلمي للهيروبين هو داى اسيتايل مورفين Daicetyl morphine أو داى مورفين، وهو مخلق جزئيا من المورفين. ويعتبر من المواد المخدرة أو المثبطة للألم، وله قدرة كبيرة على إحداث الإدمان إذا ما قورن بالمخدرات الأخرى، وذلك لفاعليته في تسكين الألم وإحداثه الشعور بالنشوة. وتبلغ قوة الهيروبين ثلاثة أضعاف قوة المورفين حيث أنه يستطيع الوصول أسرع إلى الحاجز الدموى الدماغي، ويعبر إليه بسهولة، فيعمل على قتل الألم مركزيا بنشاط فائق، فضلا عن تأثيره على المزاج الشخصى.

وكان أول من حضر مادة الهيروبين هو الدكتور «رايت» Wright من مستشفى سانت مارى في لندن وذلك عام ١٨٧٤ وقد تمكن الكيميائى «رايت» من استخلاص مادة ثنائى خلين المورفين «داى اتسيل مورفين»

بخلطه بحامض الخليك. ولكن الأوساط العلمية لم تنتبه لهذا الاكتشاف. وفى عام ١٨٩٠م تمكن العالم الألمانى «دانك وارت» Danke wort من أن يحصل على ثنائى خلين مورفين بعد تسخين المورفين اللامائى مع كمية كبيرة من كلوريد الأستيل ثم قام بعد ذلك «هنريس دريسر» Dreser بالعديد من الدراسات الفسيولوجية لهذا العقار ونشر أبحاثه عنه وأسماه الهيروبين، وهى كلمة يونانية مشتقة من البطولة. ولقد كان من نتائج ذلك أن قامت شركة باير الألمانية بشراء حق إنتاج هذا المستحضر الجديد وذلك عام ١٨٩٨ وسرعان ما انتشر استخدام الهيروبين كمسكن لجميع الآلام وأثبت فى هذا الصدد فاعليته عن المورفين، إلا أنه لم يمض سوى فترة قصيرة على طرح الهيروبين فى الأسواق حتى اكتشف الأطباء المهتمون بالصناعات الدوائية أنه من أكثر العقاقير إحداثا للإدمان. ولقد دفع ذلك الدول إلى عقد الاتفاقيات الدولية التى تحرم صناعته إلا لأغراض محدودة جدا فى علاج مرضى السرطان الميئوس من شفائهم حيث أنه ليس للهيروبين أى فوائد طبية تذكر كما يرى المتخصصون.

أنواع الهيروبين:

يقوم تجار المخدرات باستخراج الهيروبين من قاعدة المورفين بطرق كيماوية مختلفة ويؤدى ذلك إلى وجود أنواع متباينة من الهيروبين ومن أهم هذه الأنواع ما يلى:

الهيروبين الأسمر وينتج بطريقة لا تتضمن تنقيته من الشوائب ويتكون من قطع صلبة كبيرة يغلب عليها رائحة الخل القوية الذى استخدم فى تحضيرها.

الهيرويين رقم (٢) وهو قاعدة الهيروين الجافة لأن المادة تكون صلبة ويمكن تحويلها إلى مسحوق بتفتيتها بين الأصابع ويتراوح لونها بين البنى والرمادى الشاحب.

والهيروين رقم (٣) يوجد على شكل حبيبات، وقد يدق على شكل مسحوق تتراوح ألوانه بين البنى الفاتح والغامق، والكافيين هو المخفف الرئيسى الذى يضاف إلى قاعدة الهيروين. وتتراوح درجة الهيروين بين ٢٥٪ - ٤٥٪ من داى استيل المورفين وقد يخلط المسحوق بمواد أخرى مثل الكينين وشوائب أخرى ويطلق على الهيروين رقم (٣) اسماء عامية مثل حجارة هونج كونج والهيروين الصينى ولؤلؤة التنين الأبيض.

الهيروين رقم (٤) مسحوق دقيق أبيض منقى بدرجة كبيرة لا يحتوى عادة إلا على القليل من الشوائب عند بيعه لتجار المخدرات، ولكنه غالبا ما يخفف بدرجة كبيرة بإضافة مواد مثل اللاكتوز وذلك عند بيعه للمدمنين.

وبصفة عامة يقوم أغلب تجار المخدرات بخلط الهيروين بمواد كثيرة مثل السكر والكينين، كما تم اكتشاف إضافة مسحوق جماجم بشرية للهيروين فى مصر. بالإضافة إلى مادة سيانور البوتاسيوم الشديدة السمية والتى تسببت فى العديد من حالات الوفاة. وتعتبر مشكلة غش الهيروين ذات خطورة صحية كبيرة، حيث أن هذه المواد غير معقمة وبعضها سام جدا.

طرق تعاطى الهيروويين:

مما لا شك فيه أن تأثير المخدر يختلف باختلاف الكمية المتعاطاه، كما أنه يختلف باختلاف الطرق التى يتم من خلالها تناوله. والواقع أن هناك طرق مختلفة لتعاطى الهيروويين. ويعتبر الحقن الطريقة الأكثر شيوعا سواء تحت الجلد أو فى الوريد، إلا أن المتعاطين يفضلون الحقن فى الوريد لأنه يحدث نشوة وإحساس سريع بالسعادة بمجرد دخول الهيروويين نظرا لاختراقه الحاجز الدموى الدماغى بسرعة كبيرة. وعندما تتلف الأوردة أو تسد بحيث تكون غير صالحة للاستعمال، فقد يتم الحقن فى أوردة الساقين أو وريد الفخذ «الأربية» ويكون ذلك شاهدا على طول فترة التعاطى. وبصفة عامة يسبب الحقن أضرارا كبيرة، خاصة إذا كان الهيروويين يحتوى على شوائب كثيرة ومواد سامة أو كانت طريقة الحقن غير سليمة وغالبا ما تصاب تلك المناطق بالخراريج والعدوى.

وقد يؤخذ الهيروويين عن طريق البلع، حيث غالبا ما يكون مجهز على هيئة أقراص صغيرة، إلا أن هذه الطريقة غير مفضلة بين المتعاطين، كما أن هناك طريقة الشم حيث يكون الهيروويين على هيئة مسحوق يستنشق عن طريق الأنف وذلك بوضع هذا المسحوق على سطح أملس مثل قطعة زجاجية، ثم يقسم المسحوق على شكل صفوف يطلق عليها المتعاطون «أسطرا» ويقوم المتعاطى باستنشاقه بواسطة أنبوبة أسطوانية الشكل أو بواسطة عملة ورقية جديدة ملفوفة ويقوم باستنشاق السطر تلو الآخر.

وهناك طريقة الاستنشاق، وتتم بأسلوبين، الأسلوب الأول ويسمى بلغة المدمنيين «إطلاق المدفع المضاد للطائرات» ويتم ذلك بوضع طرف سيجارة مشتعل فى مسحوق الهيروويين ثم تدخن السيجارة وطرفها مرفوع إلى أعلى فى وضع يشبه وضع المدفع المضاد للطائرات والأسلوب الثانى أكثر تعقيدا ويسمى «مطاردة التنين»، حيث يمزج الهيروويين بأجزاء صغيرة من الباربيتورات ويوضع على شريحة من الصفيح ويسخن المزيج بلطف ثم يطارد المدمن البخار ويستنشقه، وهذا الأسلوب منتشر فى الشرق الأقصى. ويعتبر التدخين أيضا أحد طرق تعاطى الهيروويين، فلقد كانت هذه الطريقة منتشرة بين الجنود الأمريكيين فى فيتنام، حيث أن المخدر متاح ورخيص، وكان يوضع فى السجائر أو يخلط بالماريجوانا ثم يدخن.

مناطق إنتاج الهيروويين:

تنقسم دول العالم إزاء مشكلة المخدرات إلى دول منتجة وأخرى مستهلكة للمواد المخدرة والواقع أن الوضع الحالى فى العالم يؤكد أن جميع الدول سواء المنتجة أو المستهلكة تعانى من مشكلة إساءة استخدام المخدرات، وهذا الوضع فرض قدرا من التعاون بين بعض الدول لمواجهة هذه المشكلة.

ونظرا لأن الهيروويين أحد مشتقات الأفيون، فيتم استخلاصه من معامل ومختبرات سرية، وهذا يرتبط بالإنتاج غير المشروع لذلك المخدر، ولقد كان فى بداية الأمر إنتاج الهيروويين محصورا فى أوربا والولايات المتحدة، حيث تستورد هذه الدول المواد الخام، ثم تقوم بتصنيعها وتعيد

تصدير جزءا كبيرا منها إلى العالم الثالث. ولكن بعد إن ازدادت الحملات تصعيدا ضد تجارة الهيروين في الولايات المتحدة وأوربا. رأى المسئولون عن تجارة المخدرات أنه من الأنسب لهم أن ييسروا عملية تصنيع الهيروين محليا. أى في مناطق إنتاج الأفيون الذى يخلق منه الهيروين.

وبصفة عامة يمكن تقسيم مناطق الهيروين إلى ثلاث مناطق رئيسية:

(أ) إقليم الهلال الذهبى:

ويشمل إيران وأفغانستان وباكستان وتركيا ويقدر الإنتاج السنوى لهذه الدول بنحو ٦٠٪ من الإنتاج العالمى حسب تقدير إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية عام ١٩٨٢.

(ب) إقليم المثلث الذهبى:

ويشمل دول تايلند ولاوس وبورما ويقدر إنتاجها بنحو ١٥٪ من إنتاج العالم.

(جـ) المكسيك:

وتعتبر من الدول حديثة العهد بزراعة وإنتاج الأفيون والهيروين ووصل معدل إنتاجها نحو ٢٥٪ من إنتاج العالم تقريبا.

ومن هذه المناطق يتسرب الهيروين إلى مناطق العالم المختلفة، حيث أن طرق تهريبه متعددة ولا يمكن حصرها وتستخدم عصابات التهريب أساليب جديدة ومبتكرة.

حجم انتشار ظاهرة تعاطى الهيروين عالميا :

لم يمض على طرح الهيروين فى التداول التجارى فترة طويلة، حتى أصبح أكثر أنواع المخدرات انتشارا فى كثير من دول العالم، وتعتبر الولايات المتحدة أول دولة ظهر فيها مشكلة تعاطى الهيروين بصورة خطيرة لأول مرة وذلك فى عامى ١٩١٣ - ١٩١٤ وخاصة فى مدينة نيويورك حيث تبين من التقديرات أن ٩٨٪ من المدمنين يتعاطون الهيروين.

ولقد دفع ذلك السلطات الأمريكية إلى منع إنتاجه واستيراده واستعماله عام ١٩٢٥، كما شددت أيضا على تجريم الهيروين فى قانون التحكم فى المخدرات لعام ١٩٥٦، ووضعت سياسة تتعلق بالأحكام المشددة بصدد هؤلاء المتهمين بحيازته أو تناوله.

إلا أنه غلى الرغم من هذه الإجراءات المشددة، فإن عدد المتعاطين للهيروين استمر فى التزايد عبر العقود التالية؛ ففى عام ١٩٦٠ بدأ انتشار تعاطى الهيروين بصورة وبائية خاصة بين البيض، ثم امتد بعد ذلك إلى الطبقات المتوسطة والفقيرة والأقليات المختلفة. وفى هذا الصدد تشير نتائج بحث مسحى أجراه معهد نيدا عام ١٩٨٨، أن ١.٩ مليون فى أمريكا قد جربوا تعاطى الهيروين، وأن أكثر المتعاطين كانوا من الذكور السود ولعل أيضا مما يعكس حجم وخطورة انتشار تعاطى الهيروين فى الولايات المتحدة ما كشفت عنه التقارير الصادرة عن هيئة دون Down والتى أوضحت أن أعداد ونزلاء غرف الطوارئ فى مستشفيات المدن بأمريكا قد تضاعف خمس مرات فى الفترة من عام

١٩٨٤ إلى عام ١٩٨٨، ومعظم هذه الحالات بسبب تعاطى الهيروين. وفى نفس الوقت شكلت حالات الوفاة الناجمة عن تعاطيه ٣٧٪.

وتأتى بعد ذلك الصين حيث أصبحت مركزا هاما لإنتاج الهيروين وأنتشر فيها تعاطيه بشكل وبائى. وذلك بسبب رخص أسعاره وقوة تأثيره مقارنة بالأفيون، بالإضافة إلى ذلك، أن تدخين الأفيون كان محرما، بينما كان تعاطى الهيروين مباحا، وكان الهيروين يباع على شكل أقراص سهلة التناول، كما كان يخلط بالدخان فى السجائر.

ويعزى البعض انتشار الهيروين فى كثير من دول العالم إلى الجيوش اليابانية التى كانت تشجع صناعة وتجارة الهيروين فى الأقاليم التى تحتلها قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية وتأكد ذلك بعد الحرب عندما اكتشف الحلفاء مصانع كبيرة للهيروين.

وفى سنغافورة يقدر عدد مسيئ استعمال الهيروين عام ١٩٨٨ بنحو ٩٠٠٠ آلاف وفى سرى لانكا وفى نفس العام قدر عدد متعاطى الهيروين بحوالى ٣٥ ألف شخص داخل فئة الأعمار من ١٥ - ٣٥ سنة. فى حين بلغ عدد مدمنى الهيروين فى تايلند نصف مليون، والمشكلة فى باكستان مماثلة إذا يوجد فيها ٤٥٠ ألف مدمن هيروين، وفى هونج كونج هناك أربعون ألف مدمن، بينما تشير الإحصاءات فى الهند إلى أن هناك أكثر من نصف مليون مدمن للهيروين، وأما فى أوربا، فتشير البيانات والإحصاءات المتاحة أن ظاهرة انتشار تعاطى الهيروين لا تقل خطورة عما هو سائد فى الولايات المتحدة وشرق آسيا. ففى المملكة المتحدة عام ١٩٨٤ سجلت النشرة الإحصائية لوزارة الداخلية ٧٤١٠ متعاطيا

للهيروبين، إلا أن هناك مصادر أخرى تشير إلى زيادة هـذا الرقـم إلى حـد بعيد حيث قدرت عدد للهيروبين عام ١٩٨٦ إلى مائة ألف متعاطى. وفـى هولندا قدر عدد متعاطى الهيروبين فى عام ١٩٨٩ يوميا بما يتراوح ما بين ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ ألف شـخص. وبلـغ انتشـار التعـاطى أقصاه بـين أفراد الفئة العمرية مـن ٢٥ إلى ٣٥ سـنة، وكـان ٢٥٪ مـن المتعـاطين مـن النساء، وكثيرا ما يقترن تعاطيه بتعاطى الميثـادون أو الكوكـايين أو المـواد الكحولية، بينما فى سويسرا بلغ عدد متعـاطى الهـيروبين نحـو ١٧,٩٠٠ ألف على أساس يومى فى عام ١٩٨٩.

وفى إيطاليا أخذ تعاطى الهيروبين بـالحقن فـى الزيـادة، وقـدر عـدد المتعاطين خلال عام ١٩٨٩ ما بـين ١٠٠,٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ ألـف شـخص يوميا. ولقد كان تعاطى الهيروبين يتركز فى الفئة العمرية من ٢٥ إلى ٣٥ سنة، وكان ١٢٪ من المتعاطين من النسـاء كمـا تسـبب تعاطيـه بجرعـات مفرطة فى وفاة ٩٦٥ شخص.

كما دلت دراسة استقصائية بالعينة أجريت فى استراليا عام ١٩٨٨ أن النسبة المقدرة لمتعاطى الهيروبين هنـاك تبلـغ ٠,٠٤٪ مـن السـكان الذيـن يبلغون من العمر أكثر من ١٤ عاما.

وفيما يتعلق بالدول العربية، فلقد كانت الحرب الأهلية فى لبنان سببا رئيسيا فى انتشار تعاطى المخـدرات، وخاصـة الهـيروبين بـين الشـباب، فقبل نشوب الحرب لم تكن لبنان دولة مستهلكة للمخدرات، بـل كـانت دولة منتجة لها ومركزا لعقد الصفقـات وتهريبـها إلى دول المنطقـة، لكـن

بعد حدوث الحرب انتشر إدمان الهيروين بصورة وبائية بين طلبة الجامعة والمدارس الثانوية.

وأما دول الخليج، فلم تكن ثمة شكوى في هذه المنطقة من ظاهرة تعاطي المخدرات حتى أوائل الستينيات، لكن مع ظهور البترول واستقدام العمالة من جميع دول العالم فضلا عن إمكانية سفر أبناء هذه المنطقة إلى الخارج نتيجة للطفرة المادية التي شهدتها، وجد الهيروين سوقا رائجا له فيها. وعلى الرغم من عدم توفر بيانات دقيقة عن تعاطي المخدرات في هذه المنطقة، إلا أن المعلومات المتاحة أوضحت أن الأيدي الخفية التي تتحكم في تجارة المخدرات - خاصة اليهود - رأت أن توسع مجال تجارتها في هذه المنطقة، ومن أهم العوامل التي ساعدت على ذلك وفرة المال، وفي هذا الصدد يذكر «حمد المرزوقي» مدير مركز أبحاث الجريمة في المملكة العربية السعودية أن الهيروين والحشيش هما من أكثر أنواع المخدرات انتشارا في المملكة العربية السعودية.

وأما مصر، فلقد كانت ثاني أكبر دولة ظهر فيها إدمان الهيروين بصورة وبائية بعد الولايات المتحدة، ففي عام ١٩٢٨ بلغ عدد مدمني الهيروين في مصر نصف مليون شخص، من بين ١٤ مليون نسمة، كانوا سكان مصر آنذاك، ولقد أدى انتشار الهيروين إلى آلاف الوفيات نظرا لعدم تعقيم الحقن، وحدوث الانتانات المتعددة. إلا أن مصر استطاعت من خلال اتخاذها العديد من الإجراءات المتشددة، القضاء على انتشار الهيروين حيث اختفى تماما لفترة طويلة. لكنه عاد إلى الظهور مع نهاية

السبعينيات ومطلع الثمانينيات، مصاحبا لسياسة الانفتاح. ولعل من المؤشرات التى تعكس انتشار الهيرويين فى مصر فى الفترة الأخيرة بصورة كبيرة زيادة الكميات المضبوطة من هذا المخدر، وكذلك الزيادة فى عدد قضاياه. فلقد كشف تقرير الإدارة العامة لمكافحة المخدرات بوزارة الداخلية المصرية الصادرة ١٩٩٠ أنه تم ضبط ٢٦س، ٦٢١جـ، ٦٧ك هيرويين فى عام ١٩٩٠ فى حين زادت الكمية المضبوطة من هذا المخدر عام ١٩٩١ إلى ٧٣س، ١٢٩جـ ٨٦ك حيث بلغت نسبة الزيادة ٢٧.٣٧٪ عن عام ١٩٩٠ وأما فيما يتعلق بإجمالى عدد قضايا الهيرويين عام ١٩٩٠ كما جاء فى التقرير السابق أيضا، فلقد بلغت ٨٦٢ قضية، وفى نفس الوقت بلغ عدد المتهمين ٩٩١ متهما. بينما بلغ عدد القضايا عن عام ١٩٩١ لنفس المخدر ١٠١٣ قضية. وعدد المتهمين ١١٨٧ متهما، وهذا يعني زيادة عدد القضايا عن عام ١٩٩٠ بمقدار «١٥١» قضية مما يشير إلى زيادة إقبال الشباب المصرى على تعاطى الهيرويين وانتشاره بشكل يثيرا الاهتمام.

الأضرار الصحية والاجتماعية لإدمان الهيرويين:

تعكس الإحصاءات السابقة انتشار ظاهرة إدمان الهيرويين على نطاق واسع فى معظم دول العالم خاصة خلال العقود الأخيرة، فضلا عن ذلك فقد كشفت العديد من البحوث والدراسات أن إدمان هذا المخدر له أضرار صحية واجتماعية خطيرة ولذلك سنحاول فيما يلى أن نتعرض لكل منها بشىء من التفصيل:

أولا: الأضرار الصحية لإدمان الهيروويين:

على الرغم من اختلاف الباحثين حول تفاصيل الأعراض الجسمية والمضاعفات الناتجة عن تعاطي الهيروويين. إلا أن المتخصصين يتفقون على أن له تأثيرا مشتركا بين جميع متعاطيه بغض النظر عن الفروق الفردية بين المتعاطين. ولكن تجدر الإشارة إلى أن الأعراض والمضاعفات المشتركة لا تظهر في نفس الوقت وبنفس الشدة عند جميع الحالات، حيث يتوقف ظهورها وشدتها وكثرتها وقلتها وتتابع ظهورها بالنسبة للبعض والبعض الآخر على عدة عوامل أهمها:

١ - الحالة الصحية والتكوين البدني للمتعاطي، فالأصحاء ذو البنية القوية أكثر احتمالا للمخدر.

٢ - درجة التعب السابقة للمتعاطي. فالمتعب أكثر تأثرا بالمخدر من غير المتعب.

٣ - درجة التعود على المخدر فالمبتدأون أكثر تأثرا من المتعودين.

٤ - كمية المخدر المتعاطاة، حيث تزيد الأعراض والمضاعفات وتشتد حدتها كلما زادت كمية المخدر.

وفي ضوء ذلك التصور أوضحت العديد من المجلات الطبية كثيرا من التأثيرات الفسيولوجية السيئة والأضرار الصحية الناجمة عن تعاطي الهيروويين والتي يتمثل أهمها في الآتي:

١ - الإدمان على المخدر:

يعتبر الهيروين من أكثر أنواع المخدرات التى تسبب الإدمان بسرعة كبيرة، إذ يؤدى تعاطيه المنتظم لمدة أسبوع واحد فقط إلى الإدمان عليه. مما يترتب على ذلك نوع من الإعتماد النفسى والجسدى. والاعتماد النفسى بالنسبة للهيروين هو بمثابة رغبة نفسية قاهرة وغلابة بحيث تفرض على المتعاطى البحث عن العقار قبل البحث عن الطعام أو أى مطلب آخر. فالمتعاطى نتيجة هذا النوع من الاعتماد يهمل نفسه وبيته، وأما الاعتماد الجسدى فهو أشد خطورة من الاعتماد النفسى، إذ أن إهمال جرعة واحدة من العقار، يؤدى إلى ظهور أعراض جسمية خطيرة كالقيء المتكرر واضطراب فى التنفس.

ويرتبط بظاهرة الاعتماد الجسدى للهيروين ما يسمى بظاهرة الاحتمال، والتى تعنى أن الشخص المتعاطى يحتاج إلى تعاطى كمية أكبر من المخدر للحصول على نفس الأثر وذلك بسبب تعود الخلايا العصبية على الكمية المتعاطاه من العقار، فيصبح تأثيرها أقل من التأثير السابق. ولقد سجل الأطباء وجود حالات إدمان للهيروين يتعاطى فيها المدمن خمسة آلاف مليجرام من الهيروين النقى يوميا، فى حين تكفى فى العادة عشرون مليجرام لقتل إنسان غير مدمن فورا.

أضف إلى ذلك أن كلا من «سيمور وسميث» يشيران إلى أن من أبرز أضرار الإدمان على الهيروين أنه يمثل مشكلة طويلة المدى، نظرا لأنه يترتب على إدمانه حدوث انتكاسات متكررة إذا ما توقف المدمن فترة عن

هذا التعاطي، وذلك لأن أى محاولة للتعاطى مرة أخرى بعد التوقف ستؤدى حتما إلى الدخول فى دائرة الإدمان من جديد وبشكل كامل.

٢ - نوبات الانقطاع عن المخدر:

قد لا يستطيع مدمن الهيروين لأى سبب من الأسباب الحصول على جرعته المتزايدة من المخدر. فيؤدى ذلك إلى نوبة سحب المخدر. وتعتبر نوبات الانقطاع عن الهيروين من أقسى أنواع الآلام التى يمكن أن يعانيها شخص فى حياته، فإذا تلاشت آثار الحقن بالهيروين، يتوفر أمام المدمن بصفة عامة زمن يتراوح ما بين أربع أو ست ساعات للعثور على الجرعة التالية، فإذا لم تؤخذ تبدأ أعراض الامتناع فى الظهور. ومن بينها الإفرازات من كل مخارج الجسم كالأنف والعين والفم والشرج والجلد.حيث تزداد إفرازات الدموع لا إراديا ويحدث القىء والإسهال فضلا عن الضعف والوهن الشديد وتشنج العضلات وانعدام النشاط والتملل وتوسع حدقة العين والقشعريرة.

أما الأعراض النفسية للانقطاع عن تعاطى الهيروين، فإنها تتمثل فى نوبة حادة من الاكتئاب، فلقد أتضح من خلال بحوث عديدة أجريت على بعض مدمنى الهيروين المتقدمين للعلاج من إدمانهم. أن هناك ارتباطا جوهريا بين الاكتئاب وأعراض الانسحاب التى تبدأ مع التوقف عن تعاطى جرعة الهيروين فى موعدها. أضف إلى ذلك أن المدمن يسيطر عليه حالة شديدة من القلق والتوتر النفسى.

٣ - التسمم الحاد:

غالبا ما يصاب مدمنو الهيروويين بالتسمم نتيجة تناول جرعة من الهيروويين تحتوى على الشوائب السامة التي يخلطها التاجر بالهيروويين مثل الأستركفين والكينين.. الخ، وتسبب هذه المركبات، هبوط التنفس. ثم فشل الدورة الدموية، وتبدو على المتسمم علامات النعاس أو الغيبوبة وبطيء التنفس. أضف إلى ذلك فقد أسفرت دراسة على مجموعة من مدمنى الهيروويين قام بها «والترز» عام ١٩٨٢، أنه بسبب وجود مواد مغشوشة بالمخدر، حدث تحلل إسفنجي في المادة البيضاء في الدماغ وتؤدى هذه الظاهرة إلى تحلل فى شخصية المدمن وانعدام الذاكرة وفقدان المعرفة وتسطح العاطفة، كما تؤدى إلى أنواع من الشلل ونوبات دماغية. ومن ناحية أخرى يقرر البعض أن زيادة الجرعة من الهيروويين لمتعاطى هذا المخدر تؤدى أيضا إلى تسمم حاد ومن ثم الوفاة، وذلك لأن زيادة الجرعة تحدث هبوط بآلية مركز المخ الذى ينشط التنفس. وهذا غالبا سرعان ما يحدث الاختناق والموت. ولعل ما يؤكد ذلك ما قررته دراسة قام بها «بيولى» لسجلات وزارة الداخلية البريطانية والتى أوضحت أن تعاطى جرعة زائدة من المخدر بطريق الخطأ مسئول عن ٢٩٪ من حالات الوفاة بين متعاطى الهيروويين. ولقد لوحظ نمط مماثل فى دراسة أمريكية كبيرة قام بها «جر وليشمان» عام ١٩٨٢، حيث أوضحت دراستهم التتبعية للمرضى لأربع سنوات بعد العلاج أن ٤٤٪ من الوفيات كانت بسبب تناول جرعات زائدة من الهيروويين.

٤ - الأوبئة والأمراض المتعلقة بالعدوى:

ان وجود مواد مغشوشة فى الهيروبين مثل بودرة التلك والدقيق والإستريكنين والكينين - وجميعها مواد غير معقمة - فضلا عن تعاطيه بالحقن عن طريق الوريد من خلال حقن غير معقمة أو تكرار استخدامها دون إعادة تعقيمها، وأيضا استخدام بعض المدمنيين ماء المرحاض لإذابة مسحوق الهيروبين، ومن ثم القيام بزرقة فى الوريد، كل هذا من شأنه أن يؤدى إلى الغزو الميكروبى وإدخال أنواعا مختلفة من الفيروسات والبكتريا والعوامل المعدية فى دم المتعاطى، وبالتالى ظهور أمراض خطيرة وكثيرة منها الالتهابات والانتانات فى جسم المدمن.

وفى هذا الصدد أوضحت العديد من البحوث انتشار الإيدز أو فيروس Hiv بين مدمنى الهيروبين بصورة وبائية خلال فترة الثمانينيات فى نيويورك. وهذا الفيروس يحدث مرضا معينا يصيب نظام المناعة والذى يعتبر الآلية الدفاعية التى تقاوم العدوى والعدوان. كما أسفرت أيضا بحوث أخرى عن انتشار التهاب الكبد الفيروسى من نوع C,B والذى يؤدى إلى تليف الكبد ثم سرطان الكبد وذلك فى نطاق المجموعات التى كانت تتعاطى الهيروبين بالحقن بنسبة ٢١٪ فى إنجلترا وويلز وأيرلندة وذلك من واقع السجلات الطبية عام ١٩٧٦. كما وجد أيضا انتشار التهاب الكبد الوبائى بصورة ملحوظة فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ بين متعاطى الهيروبين وذلك بسبب استخدام الإبر المشتركة.

وكذلك من أكثر الأضرار التى تترتب على تعاطى الهيروبين بواسطة الحقن، حدوث التهابات كثيرة ومتكررة تحت الجلد. فضلا عن وجود

خراريج وقروح، فالارتشاح بالأنسجة المحيطة بالوريد، يؤدى إلى إحداث تهيج موضعي وخاصة إذا كان المخدر يحتوى على بودرة تلك. فالعدوى التى تحدث بهذه الطريقة تتسبب فى ظهور الخراريج فى مكان الحقن أو قد تعمل على انتشار العدوى التى تسمى بالتهاب النسيج الخلوى بدءا من تلك النقطة أو خارجها وقد تتفاقم هذه الأمراض إلى حد أنها تحدث أمراضا مثل الحمى والتصبب عرقا والقشعريرة.

٥ - الاضطرابات الهرمونية الجنسية:

يسبب إدمان الهيروين ضعفا جنسيا لدى المتعاطين وذلك لتثبيطه نشاط الغدد الجنسية، نظرا لأن المورفين وهو المادة الفعالة فى الأفيون وفى نفس الوقت أحد المكونات الأساسية للهيروين يسبب نقصا فى إفراز الهرمونات المنمية للغدد التناسلية والتى تفرزها الغدة النخامية. أما بالنسبة للمرأة فإن إدمان الهيروين يؤدى إلى اضطراب الدورة الشهرية وضعف الرغبة الجنسية وإصابة نسبة كبيرة من أجنة الحوامل المدمنات وولادتهم قبل تمام الحمل وإصابتهم بنقص الوزن وضعف المناعة ووفاتهم بعد الولادة بنسبة تتراوح بين ٣٠ - ٩٠٪ إذا لم يعالج الوليد فورا.

وبوجه عام يكون انتقال التأثيرات من الأم إلى الجنين عبر المشيمة ولعل ما يؤكد ذلك ما كشفت عنه نتائج العديد من البحوث التى أجريت فى هذا الصدد والتى من أهمها ما يلى:

أولا: إن إدمان النساء للهيروين يؤدى إلى زيادة نسبة المضاعفات التى تصاحب الولادة من ذلك زيادة حالات الإجهاض والاحتياج إلى

التدخل بالعملية القيصرية والولادات المبتسرة، وقد أمكن رصد ما بين ١٠ و١٥٪ من الحوامل المدمنات يصبن بما يعرف بالتسمم الحملي. كما أن حوالى ٥٠٪ من الحوامل مدمنات الهيروويين، يفاجأن بالولادات المبتسرة. كما تشير أيضا كثير من الدراسات إلي تأخر نمو الأجنة عند الحوامل مدمنات الهيروويين.

ثانيا: تشير الدراسات التى أجريت على كروموسومات الدم المحيطى لدى الأطفال حديثى الولادة لأمهات مدمنات للهيروويين فى مقابل أطفال حديثى الولادة لأمهات غير مدمنات، أن هناك زيادة جوهرية لمقدار التشوهات الحادثة فى كروموسومات المجموعة الأولى للأطفال.

ثالثا: تشير البحوث كذلك إلى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال المولودين لأمهات مدمنات للهيروويين عن النسبة المناظرة بين أطفال لأمهات غير مدمنات، حيث بلغت النسبة فى المجموعة الأولى ٥,٤٪ في مقابل ١,٦٪ فى المجموعة الثانية. وهم أطفال الأمهات غير المدمنات.

رابعا: تبين من الدراسات أن ٨٠٪ من أبناء مدمنات الهيروويين كانوا يعانون من أعراض انسحابية عند ولادتهم. كما أن ٦٠٪ استمرت لديهم هذه الأعراض ولكن بصورة أقل حدة لمدد تراوحت بين ثلاثة وستة شهور.

والواقع أن طائفة الأضرار الصحية الأخرى لأدمان الهيروويين كثيرة منها ما يتعلق بالجهاز الهضمي والجهاز البولى.. الخ ولعل هذه الأضرار تعكس مدى خطورة إدمان الهيروويين على الصحة العقلية والجسمية لأفراد المجتمع.

الأضرار الاجتماعية لإدمان الهيروبين:

لقد كشفت العديد من الدراسات المعنية بتعاطى وإدمان المخدرات عن تعدد الإضرار الاجتماعية الناجمة عن تعاطيها بصفة عامة وإدمان الهيروبين بصفة خاصة ويصنف «مصطفى سويف» النتائج الاجتماعية السيئة الناجمة عن الإدمان إلى ثلاث فئات أساسية تتمثل فى ١ - الخسائر البشرية ٢ - الخسائر الاقتصادية ٣ - الجريمة. وسنحاول فيما يلى تناول كلا منها بشيء من التفصيل مع ربط هذه النتائج السيئة بإدمان الهيروبين، بقدر ما تسمح به الدراسات المتاحة فى هذه الجزئية، حيث أن هناك ندرة فى الدراسات المعنية بالأضرار الاجتماعية لإدمان الهيروبين.

أولا: الخسائر البشرية:

يقصد بمفهوم الخسائر البشرية هنا الإشارة إلى مجموعة الأفراد الذين يخرجون كليا أو جزئيا من حساب القوة العاملة فى المجتمع كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لمشكلة المخدرات. وأول مجموعة بشرية تحسب على هذه الخسائر هى بطبيعة الحال المتعاطون والمدمنون أنفسهم. وهؤلاء يحسبون تحت بند الخسائر بقدر ارتباطهم بعالم المخدرات، وما يعنيه هذا من استحواذ على جزء متنام من اهتماماتهم وأوقاتهم، وما يعنيه كذلك من تدهور تدريجى فى طاقة العمل لديهم وفى ارتباطاتهم أو التزاماتهم الاجتماعية.

في ضوء هذا التصور لمفهوم الخسائر البشرية يقدر عدد مدمنى الأفيون والهيروويين فى العالم بحوالى عشرين مليون مدمن. وذلك طبقا لإحصائيات منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٨٧. وتكمن خطورة هذا الرقم فى انتشار هذه السموم بين قطاع الشباب، عماد التنمية وأساس التقدم فى المجتمع. فلقد أوضحت نتائج العديد من البحوث، أن الهيروويين يعتبر من أكثر أنواع المخدرات التى تؤثر بصورة سلبية على الأشخاص الذين يتعاطونه ويشوه شخصياتهم بدرجة كبيرة، حيث أنهم يصبحون أشخاصا كسالى سطحيين غير موثوق بهم، ذوى اتجاهات خشنة فى حالة عجزهم فى الحصول على المخدر، كما تنحرف مشاعرهم العادية ومداركهم الأخلاقية، أضف إلى ذلك تأثر إنتاجيتهم كما وكيفا نظرا لما يحدثه من أضرار نفسية وصحية خطيرة.

ولعل من أهم الدراسات التى تعكس ذلك دراسة «توردا» والتى أجراها على ثلاثين مدمن هيروويين، وثلاثين آخرين فى فترة الامتناع، ولقد تبين بعد تطبيق العديد من الاختبارات عليهم، أن الهيروويين يخلق لدى المدمنين إحساسا بأن كل احتياجاتهم قد قضيت وأن لا حاجة لهم بكل موضوعات البيئة المحيطة. والواقع أنه إذا كان هؤلاء المدمنون، يشكلون خسارة بقدر انسحابهم من العالم الاجتماعى السوى سواء من حيث الاهتمامات والعمل والالتزام، فإنهم من ناحية أخرى يصبحون بؤرا غير صحية، ومصدرا لنشر الفساد وانحراف السلوك فى نطاق المحيطين بهم. ففى دراسة «محمد غبارى» على مجموعة من المدمنين المترددين على

مستشفيات وعيادات الإدمان بالإسكندرية أفاد ٤٩٪ منهم بأن الذى سهل لهم الحصول على المخدر والمشاركة فى تعاطيه هم الأصدقاء. كما أوضحت أيضا دراسة أخرى للسمات الشخصية لمجموعة من المعتمدين على الأفيون، أن ٨٤,٤٪ من الحالات بدأوا مزاولة التعاطى عن طريق أحد الأصدقاء. ويأتى أيضا فى حساب الخسائر البشرية جميع العاملين فى حقل التهريب والإنتاج والاتجار غير المشروع فى المخدرات، إذ أن هؤلاء جميعا كان يمكن أن يكونوا ضمن طاقة العمل السوى فى المجتمع، لكن بانحرافهم واشتغالهم فى مجال جلب المخدرات والاتجار فيها يخصمون من طاقة العمل المشروع فى المجتمع.

وأخيرا يأتى فى حساب الخسائر البشرية للمخدرات بوجه عام والهيروييين على وجه الخصوص، مجموع الضحايا والأبرياء الذين أوقعتهم الظروف والمصادفات فى مجال عمل أو نفوذ المتعاطين أو المدمنين، وفى مقدمة هؤلاء ضحايا الارتباطات الاجتماعية التى لا مفر منها، كارتباطات الزواج والبنوة والأخوة. فمما لاشك فيه أن انغماس الزوج أو الزوجة فى التعاطى، يؤدى إلى فقدان المشاركة الاجتماعية فى تربية الأطفال والإشراف عليهم وهذا من شأنه أن يسهم فى انهيار نظام الأسرة أو على الأقل تفككها. ثم هناك ضحايا حوادث الطريق وركاب المركبات والطائرات التى يتصادف أن يكون قائدها من المتعاطين. فلقد أسفرت نتائج دراسة أجريت فى كندا عن مدى إسهام المخدرات فى وقوع الحوادث لقائدى السيارات، عن وجود كحول فى ٤١٪ من الحالات،

ومشتقات الأفيون فى ١٢٪ من الحالات. ولقد كانت عينة الدراسة تضم ٤٨٣ حالة إصابة أدت إلى الوفاة، ٤٠١ منهم من قائدى السيارات، و٨١ من المشاة.

ثانيا: الخسائر الاقتصادية:

من أخطر أضرار المخدرات تأثيرها السلبى على اقتصاديات المجتمع، نظرا لتكلفتها الباهظة التى تقع على موارد المجتمع، فضلا عن إعاقتها نموه وتقليلها من فاعلية التوجهات الكبرى التي ينبغى أن تستحوذ على مسيرته. وباعتبار أن الهيروويين من أخطر أنواع المخدرات، فمما لاشك فيه أن أضراره الاقتصادية غالبا ما تكون أكثر جسامة. والواقع أن البحوث والإحصاءات عن هذا الموضوع قليلة جدا، فضلا عن افتقار أغلبها إلى الدقة والشمول. إلا أنه يمكن القول بصفة عامة، إن أهم مظاهر الخسائر الاقتصادية للمخدرات هى تلك المبالغ التى تنفق عليها ذاتها، فإذا كانت المخدرات تزرع فى المجتمع الذى تستهلك فيه، فإن معنى ذلك إضاعة جزءا من الثروة القومية المتمثلة فى الأرض التى كان من الممكن استغلالها فى زراعة ما هو أنفع للمجتمع من المخدرات، وفى الجهد البشرى الذى يستهلك فى زراعتها وتصنيعها.

فعلى سبيل المثال بلغت المساحة المخصصة لزراعة الخشخاش الذى يستخرج منه الأفيون وبالتالى الهيروويين فى لبنان أربعة آلاف هكتار فى عام ١٩٨٥. فلقد قام الزارعون فى منطقة بعلبك بنزع شجيرات التفاح وغيرها وبادرا بزرعها خشخاشا. فأصبحت المساحة المزروعة خشخاش

٣٨٥٠ فدان، أغلبها في الصعيد، وذلك سنة ١٩٨٧، حيث أن زراعة الخشخاش هناك تعتبر مجزية لصلاحية التربة الزراعية. هذا فضلا عن الأرباح الطائلة التى تحققها هذه الزراعة، فعائد الفدان المزروع بالحاصلات التقليدية يصل إلى نحو مائتى جنيه، فى حين أن الفدان الذى يزرع بالخشخاش ينتج حوالى ٥ كيلو جرام هيرويين. ويقدر سعر الكيلو الواحد بمبلغ خمسون ألف جنيه.

ومن المظاهر الأخرى للخسائر الاقتصادية للمخدرات، ما ينفق على تجارتها وتهريبها أو جلبها إلى المجتمع من مصادر خارجية، حيث أن ذلك يستهلك مبالغ كبيرة تخرج من المجتمع مما يشكل خسائر للاقتصاد القومي المشروع لأنها تظل خارج قنواته. فلقد أجريت دراسة فى مصر فى فترة الثمانينيات، وتبين أن ما يدفع ثمنا للمخدرات يساوى كل عائدات مصر المالية من قناة السويس، أو كل دخل مصر من السياحة أو ثلث ما تدفعه الدولة من دعم لبعض السلع الغذائية. أو مجموع مرتبات العاملين فى القطاع العام.

ثم يأتى بند آخر للخسائر الاقتصادية للمخدرات، وهو ما تنفقه الدولة رسميا لمكافحة كل ما من شأنه أن يعمل على توافر المواد الإدمانية فى السوق غير المشروعة. وأخيرا يأتى بند رئيسى آخر للخسائر الاقتصادية، وهو ما يتمثل فى المبالغ التى تنفقها الدولة والمؤسسات المختلفة على مجموعة الخدمات الطبية والنفسية والاجتماعية التى تقدم لعلاج الإدمان

وإجراءات التأهيل والاستيعاب الاجتماعى وبرامج التوعية بجميع مستوياتها، ومما لاشك فيه أن هذه المبالغ التى تنفق فى تلك النواحى غير الإنتاجية، كان يمكن أن توجه للاستثمار فى عمليات الإنتاج لتعود على المجتمع بالفائدة بدلا من أن تضيع بهذه الكيفية وبسبب المخدرات والتى يعتبر الهيروبين من أخطر أنواعها وأكثرها تكلفة لارتفاع ثمنه.

ثالثا: المخدرات والجريمة:

تتضارب نتائج البحوث والدراسات حول علاقة التعاطى والإدمان بالجريمة، حيث لم تحسم العلاقة السببية بينهما، إلا أنه أيا كان هذا التضارب، فإنه يمكن القول أن إدمان المخدرات من الموضوعات التى ترتبط بالسلوك الإجرامى، وذلك من ناحيتين، الناحية الأولى، أنه جريمة فى حد ذاته يعاقب عليها القانون، ومن ناحية أخرى أوضح عددا لا بأس به من البحوث والإحصاءات أن هناك علاقة بين تعاطى المخدرات والأفعال التى يجرمها القانون، كجرائم القتل والاغتصاب والسرقة والتشرد والزنى واللواط وكافة المارسات الجنسية من الاعتداء على المحارم. وبذلك يمكن القول إن الجرائم الناجمة عن المخدرات هى جرائم مركبة تنشئ مضاعفات إجرامية خطيرة على المجتمع. والواقع أنه إذا كانت هذه الحقائق ترتبط بتعاطى المخدرات بصفة عامة، فإنها أكثر ارتباطا بإدمان الهيروبين، فعلى الرغم من أن الأفيون ومشتقاته كالهيروبين والمورفين، يؤدى لإدمانهم إلى الانطواء والانعزال وسلوكا

نكوصيا، إلا أن متعاطى هذه المواد يصبح أسيرا لها ومن أجل الحصول عليها، يقدم على ارتكاب كثيرا من الجرائم بدءا من السرقة والتربح للحصول على مكاسب مادية، وانتهاء بالقتل، وبالنسبة للنساء المدمنات فإن العهر وترويج المخدرات والسرقة هى الطرق المتبعة للحصول على المال الضرورى لا نفاقه على هذا المخدر. ويعتبر من أبرز البحوث الميدانية الكاشفة عن وجود علاقة بين إدمان الهيروين والجريمة، ذلك البحث الذى أجرى فى بلتيمور بالولايات المتحدة على عينة تضم ٣٥٤ مدمنا للهيروين، وهى عينة ممثلة من بين ٧٥٠٠ مدمن للأفيونات سبق إلقاء القبض عليهم بواسطة شرطة بلتيمور خلال الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٧٦ ولقد خرج الباحثون بعدد من النتائج أهمها:

- ارتفاع معدلات الجرائم التى كانوا يرتكبونها يوميا مع بدء إدمانهم للهيروين.

- نبين أنهم يمرون بفترات إدمان واضح للمخدر كما أنهم يمرون بفترات أخرى يقلعون فيها عن التعاطى.

- وبحساب هذه الفترات تبين أنهم فى المتوسط مروا بـ ١٤ فترة إدمان، و ٨ فترات إقلاع عن التعاطى.

- وعندما حسبت لهم معدلات ارتكاب الجرائم فى كل من الفترتين، تبين أن المعدل فى فترات الإدمان يبلغ أربعة أمثال المعدل فى فترات الإقلاع عن التعاطى.

- ونظرا لأن هذا الارتفاع والانخفاض فى معدلات ارتكاب الجريمة قد صدر عن العينة نفسها من الأشخاص، وجاء هذا الارتفاع مقترنا بالإدمان، كما جاء الانخفاض مقترنا بالإقلاع عن التعاطى، فقد رأى الباحثون أن أفضل تفسير لهذه النتيجة هو القول بأن إدمان الهيروين يسبب هذه الزيادة المشار إليها أو على الأقل يسهم فى ظهورها.

وتمشيا مع هذا السياق أيضا أوضحت الإحصاءات فى الولايات المتحدة، ارتباط إدمان الهيروين بمجموعة من الجرائم بنيويورك منها الكذب والتزوير والسرقة وجرائم العنف والجنس، فى حين أن المناطق الساحلية الشرقية بالولايات المتحدة، كان الهيروين له تأثير سلبى كبير على الإنتاج والعمل، فضلا عما يسببه من حوادث مروعة.

ومن الدراسات العربية فى هذا الصدد أيضا، دراسة قام بها «عبد الكريم عثمان» على مجموعة من مدمنى المخدرات المترددين على مستشفى الصحة النفسية بجدة على مدى سنة، ولقد كان من أبرز نتائجها أن ٣٥٪ من مدمنى الهيروين مدانون فى ارتكاب أفعال إجرامية مختلفة. وفى دراسة أخرى قام بها «الحسين عبد المنعم» على طلبة وطالبات الجامعات المصرية والمتعاطين للعقاقير المختلفة، أسفرت نتائجها عن أن أكثر الانحرافات السلوكية بين المتعاطين فى مجال

الحياة الجامعية هى المشادة مع الأساتذة، ثم ضرب الزملاء، ثـم الشـجار مع الزملاء، بينما اقتصرت فى حالة الإناث على المشادة مع الأساتذة ثـم الشجار مع الزملاء، وأما فـى مجـال الحيـاة الأسـرية، فقـد كـانت أكـثر الانحرافات السلوكية بين المتعاطين من الجنسين هى الشجار مع الوالدين ثم الهروب من المنزل، وأخيرا فى مجال الحياة الاجتماعية العامة، كانت المتاعب مع الشرطة هى الأكثر تمييزا بين المتعاطين من الجنسين.

الفصل الثالث

الدراسة الميدانية

لقد أجريت الدراسة الراهنة على مجموعة من مدمنى الهيروويين فى كلا من مستشفى الأمل بجدة بالمملكة العربية السعودية، ومستشفى العباسية للأمراض النفسية والعصبية بالقاهرة بجمهورية مصر العربية. ويقدم هذا الفصل وصفا لمجتمعى الدراسة ثم عرضا لخصائص العينة وأسلوب اختيارها وبعد ذلك يأتى تناول المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بتعاطى الهيروويين والسلوكيات الخاصة بتعاطيه وأخيرا نعرض دراسة حالة لاثنين من المبحوثين عينة الدراسة.

أولا – وصف مجتمعى الدراسة:

(أ) مستشفى الأمل بجدة:

هو مستشفى حديث ومتخصص فى علاج مدمنى المخدرات وأحد المراكز التى أنشأتها المملكة العربية السعودية تحت مسمى مستشفيات الأمل، حيث يوجد مستشفى يحمل نفس الاسم بالرياض والدمام والقصيم، فضلا عن مستشفى الأمل بجدة، الذى أجريت فيه الدراسة الراهنة. وتجدر الإشارة إلى أن الباحث كان يعمل كمسئول عن قسم الخدمة الاجتماعية بالمستشفى لمدة عامين تقريبا.

ومستشفى الأمل بجدة، هو مستشفى تابع لوزارة الصحة ويقع في حي النعيم، وتم افتتاحه عام ١٩٩١، وسعته ٢٧٦ سرير، وهو يعالج المرضى السعوديين فقط من الذكور الذين يعانون من الإدمان، وهو يعمل على مدار ٢٤ ساعة يوميا، ويوجد بالمستشفى مجموعة من المباني تتمثل فى الآتى:

١ - **مبنى العيادات الخارجية**، حيث يقوم الطبيب من خلال هذه العيادات بإجراء مقابلة شخصية مع المريض وأسرته لجمع المعلومات الكافية عن تاريخ إدمانه، كما يتم فحصه طبيا لمعرفة نوع وكمية المخدرات التي يتعاطها واستنادا لهذا الفحص والتشخيص، الذى يقوم به الطبيب، بمشاركة الأخصائي الاجتماعي والنفسى، يتقرر عما إذا كان سيتم علاج المريض فى العيادة الخارجية من خلال التردد عليها، أو يتم حجزه لعلاجه بالقسم الداخلي.

٢ - **مبنى جناح «أ»**، وهو جناح يتولى إدارته، إدارة المخدرات بوزارة الداخلية، وذلك بالاشتراك مع وزارة الصحة، والمتمثلة فى إدارة المستشفى. ويضم هذا الجناح المرضى، المحولين من إدارة المخدرات على ذمة قضايا جنائية، أو المبلغ عنهم من ذويهم وأسرهم، وكذلك المرضى المحولين من جناح «ب» لاستنفاذهم أربع مرات فى العلاج التطوعى وذلك بسبب عدم انتظامهم فى البرنامج العلاجى حتى نهايته فى كل مرة من هذه المرات الأربع.

والبرنامج العلاجى فى هذا الجناح مكثف ولمدة شهر ويتضمن إزالة السموم، فضلا عن العلاج النفسى والاجتماعى ثم يرحل بعد ذلك المريض إلى السجن لقضاء فترة العقوبة.

٣ – جناح «ب» ويضم هذا الجناح المرضى الذين يرغبون فى العلاج بشكل تطوعى. ويركز البرنامج العلاجى فى هذا الجناح على تنقية الجسم من السموم من خلال العزل وعدم الخروج من المستشفى لمدة تتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥ يوما. ويتخلل هذه الفترة تقديم بعض المجموعات العلاجية النفسية والاجتماعية. ولكن على نطاق ضيق. نظرا لأن المريض يعانى من آلام الانقطاع عن المخدر خلال هذه الفترة.

٤ – جناح «س» ويضم هذا الجناح المرضى الذين اجتازوا المستوى الأول من البرنامج العلاجى والذى تحقق فى جناح «ب» وفترة العلاج فى هذا الجناح شهر على الأقل. تتخلله إجازة منزلية كل أسبوع. ونادرا ما يتم تقديم علاج دوائى للمريض فى هذا الجناح. حيث يركز البرنامج العلاجى فقط على العلاج النفسى الفردى والجماعى وكذلك بعض المجموعات الاجتماعية التعليمية.

٥ – جناح «د» ويضم هذا الجناح المرضى الذين اجتازوا البرنامج العلاجى فى جناح س بنجاح. ويعتبر هذا الجناح. تأهيلى يركز على الجانب الدينى والإرشاد المهنى والعلاج الأسرى، وإعادة تنظيم وترتيب العلاقة بين المريض وأسرته، أو بينه وبين بعض مؤسسات المجتمع الخارجى، كمكتب العمل أو مؤسسات التدريب المهنى أو الجمعيات الخيرية.. الخ هذا فضلا عن الرعاية اللاحقة.

٦ – مبنى الإدارة، ويضم عددا من المكاتب الخاصة بالمسئولين بوزارة الصحة المشرفين على المستشفى. وكذلك موظفين الشركة القائمة على إدارة وتشغيل المستشفى.

٧ - مسجد كبير.

٨ - قاعة اجتماعات.

٩ - مكتبة.

١٠ - صالة رياضية.

١١ - مطعم.

١٢ - ورش فنية للصيانة والتدريب.

١٣ - مغسلة.

هذا وتتوسط كل هذه المباني مسطحات خضراء، ويقوم بتنفيذ البرنامج العلاجي للمرضى مجموعة كبيرة من المعالجين المتخصصين سواء الأطباء النفسيين والأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين والممرضين وفريق العلاج بالعمل.

(ب) مستشفى العباسية للأمراض النفسية بالقاهرة:

وهو تابع لوزارة الصحة، ويقع في حي العباسية بالقاهرة، وهو مستشفى متخصص في علاج المرضى الذين يعانون من أمراض نفسية وعصبية من الرجال والنساء والأطفال.

ويعود إنشاء هذا المستشفى إلى عام ١٨٨٠م، عندما شب حريق في أحد قصور العائلة المالكة بالعباسية وهو مقر المستشفى الحالي - وكان

اسمه السراية الحمراء. وعندما أعيد بناؤه وترميمه. دهن باللون الأصفر، وتم تسميته بالسراية الصفراء.

وفي هذه الفترة فكر «كلوت بك» - الذى كان يعمل مديرا للخدمات الطبية آنذاك - فى نقل المرضى الذين يعانون من أمراض عقلية ونفسية من مستشفى الأزبكية العام والذى كان يعالج كافة الأمراض، إلى هذه السراية الصفراء.

وبذلك يكون مستشفى العباسية «السراية الصفراء» أول مستشفى متخصص فى علاج الأمراض النفسية والعقلية سواء التى يعانى-منها الرجال والنساء والأطفال المتخلفين عقليا.

وفي إطار تطوير الخدمة الطبية فى هذا المستشفى، قامت إدارة المستشفى بإنشاء قسم علاج اقتصادى للإدمان فى بداية الثمانينيات من هذا القرن لمعالجة المدمنيين، مقابل تحمل ذويهم جزءا من نفقات العلاج، حيث يتم فحصهم طبيا وإعطائهم العقاقير الطبية التى تمكنهم من التغلب على آلام الامتناع عن المخدر ثم يلى ذلك فحصهم نفسيا واجتماعيا للتعرف على أسباب انغماسهم فى تعاطى المخدرات وذلك تمهيدا لإخضاعهم للعلاج النفسى والاجتماعي.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه من خلال ملاحظة الباحث لمجتمعى الدراسة، يمكن القول إن البرنامج العلاجي فى مستشفى الأمل بجدة، يعتبر برنامجا متطورا وثريا فى محتواه، وذلك مقارنة ببرنامج علاج الإدمان بمستشفى العباسية والواقع أن ذلك قد يعود إلى اعتبارين، الأول

أن مستشفى الأمل، مستشفى متخصص في علاج الإدمان فقط، في حين أن مستشفى العباسية، متخصص في جميع الأمراض النفسية والعقلية، ويعتبر قسم الإدمان أحد الأقسام الملحقة بالمستشفى.

أما الاعتبار الثاني فيتمثل في توافر الإمكانات المادية المخصصة لعلاج الإدمان بمستشفيات الأمل بالسعودية، حيث يعالج المدمنيين بالمجان، في حين أن قسم الإدمان بمستشفى العباسية يعاني نقصا في الموارد والإمكانات، لذلك يتحمل المتقدمون للعلاج بهذا القسم جزءا من نفقات العلاج. وغنى عن البيان أن السبب في ذلك يرجع إلى التفاوت الواضح في الأوضاع الاقتصادية بين المملكة العربية السعودية، وجمهورية مصر العربية.

ثانيا - عينة الدراسة وأسلوب اختيارها وخصائصها:

تكونت عينة الدراسة من مجموعتين من مدمنى الهيروييين الذكور، وقد ضمت كل مجموعة ثلاثين من مدمنى هذا المخدر.

أ - طريقة اختيار عينة المجموعة الأولى «الأمل»:

نظرا لتوفر عدد كبير من مدمنى الهيروييين والمواد المخدرة الأخرى بمستشفى الأمل بجدة في التوقيت الذى أجريت فيه الدراسة الراهنة، فقد تم اختيارهم دفعة واحدة. فلقد بلغ إجمالى عدد المرضى بالقسم الداخلى بالمستشفى في يوم ١٩٩٥/٨/٥ بكافة الأجنحة ١٢١ مريض. ووفقا للتشخيص الطبى لنوع المخدر الذى يدمن عليه كافة المرضى بالقسم

الداخلى والـذى أظهرتـه التحـاليل والفحـوص الطبيـة للبـول والـدم عنـد دخولهم المستشفى اتضح الآتى:

الهيروين	٦١ مريض	مواد متطايرة	١١ مريض
الكحول	٢٢ مريض	الحشيش	٧ مرضى
الأمفيتامينات	١٥ مريض	مواد عديدة	٥ مرضى

وبـالنظر إلى هـذه البيانـات الإحصائيـة السـالفة، يتضـح أن مدمنـى الهيروين قد بلغ عددهم ٦١ مدمن فى هـذا التـاريخ، وهـم يمثلـون أكـبر نسبة، مقارنة بمدمنى الأنواع الأخـرى مـن المخـدرات. ولقـد كـان أغلـب مدمنى الهيروين مركزين فى جنـاح أ . ب حيـث أن هذيـن الجنـاحين يضمان نسبة كبيرة من النزلاء، لأنـه مـن خلالهمـا يتـم اسـتقبال المرضـى للعلاج سواء التطوعـى أو الإجبـارى، والتـى تبـدأ أولى خطواتـه بتنظيـف الجسم مـن السـموم، ثـم يتـم نقـل مـن يرغـب فـى اسـتكمال العـلاج إلى الأجنحة الأخرى لتلقى العلاج النفسى والاجتماعى والتأهيلى.

ولقد كان مدمنى الهيروين موزعين على الأجنحة كالآتى:

الجناح	مدمنى الهيروين	مدمنى أنواع المخدرات الأخرى	إجمالى مدمنى الجناح
أ	٢٠	٢٣	٤٣
ب	٢٢	١٦	٣٨
س	١٠	١٥	٢٥ .
د	٩	٦	١٥

ولقد تم تطبيق الدراسة الراهنة على ٥٠٪ من مدمنى الهيروويين تقريبا والذين بلغ عددهم ٣٠ مدمن، ولقد تم اختيارهم من خلال كتابة أرقام الملفات الطبية لكافة المرضى مدمنى الهيروويين بكل الأجنحة على أوراق متشابهة، ثم تم التقاط ٥٠٪ من هذه الأوراق بالطريقة العشوائية، والتى مثلت العينة.

(ب) طريقة اختيار عينة المجموعة الثانية «العباسية»

لقد تم تطبيق الدراسة على ثلاثين من مدمنى الهيروويين بمستشفى العباسية والذين يتم علاجهم بقسم الإدمان بالمستشفى، ولكن نظرا لعدم توفر عدد كاف من مدمنى هذا المخدر فى وقت واحد، كما كان الحال فى مستشفى الأمل، فقد شملت عينة الدراسة فى المجموعة الثانية، جميع مدمنى الهيروويين الذين تقدموا طواعية للعلاج الداخلى بقسم علاج الإدمان بمستشفى العباسية فى الفترة من بداية يونية عام ١٩٩٦ حتى ١٨ ديسمبر عام ١٩٩٦.

ويمكن النظر إلى عينة مستشفى العباسية على أنها حصر شامل لمن تقدم فى هذه الفترة، ولكنها من زاوية أخرى تعد عينة عشوائية، إذا أخذنا فى الاعتبار أنها عينة لقطاع زمنى، أى هؤلاء الذين تقدموا للعلاج بقسم الإدمان بمستشفى العباسية خلال فترة البحث.

خصائص العينة:

يمكن توضيح خصائص عينة الدراسة من خلال العناصر الآتية:

١ – السن. ٢ – الحالة الاجتماعية.

٣ – الحالة التعليمية. ٤ – الحالة المهنية.

جدول رقم ١ يوضح توزيع أفراد العينة طبقا لأعمارهم

	مستشفى الأمل		مستشفى العباسية	
المتغيرات	التكرار	النسبة ٪	التكرار	النسبة ٪
– ٢٠	٤	١٣.٣٣٪	١	٣,٣٣٪
٢٠ – ٣٠	٢١	٧٠٪	١٥	٥٠٪
٣٠ – ٤٠	٥	١٦,٦٧٪	٦	٢٠٪
٤٠ – ٥٠ فأكثر	–	–	٨	٢٦,٦٧٪
المجموع	٣٠	١٠٠٪	٣٠	١٠٠٪

باستقراء البيانات الإحصائية بهذا الجدول يتضح الآتي:

أفاد ١٣.٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل أنهم يقعون في الفئة العمرية أقل من ٢٠ سنة. في حين أفاد بذلك ٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

ذكر ٧٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يقعون في الفئة العمرية من ٢٠ – ٣٠ سنة. بينما أفاد بذلك ٥٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

أفاد ١٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يقعون في الفئة العمرية من ٣٠ – ٤٠ سنة، في حين أفاد بذلك ٢٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

وأخيرا أفاد ٢٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأنهم يقعون فى الفئة العمرية من ٤٠ – ٥٠ سنة.

كا^{٢} = ٤٠,٢٢ مستوى الدلالة = ٠,٠٠١

بالنظر إلى قيمة كا^{٢}، نجد أنها دالة عند ٠,٠٠١، أى أن مستوى الثقة ٩٩,٩٪ والشك ٠,١٪ مما يعكس وجود فروق واضحة بين المجموعتين.

جدول رقم ٢ يوضح الحالة الاجتماعية لأفراد العينة

المتغيرات	مستشفى الأمل		مستشفى العباسية	
	التكرار	النسبة ٪	التكرار	النسبة ٪
لم يسبق له الزواج	١٣	٤٣.٣٣٪	١٦	٥٣,٣٣٪
متزوج	٧	٢٣.٣٣٪	٩	٣٠٪
مطلق	٩	٣٠٪	٥	١٦,٦٧٪
أرمل	١	٣,٣٤٪	–	–
المجموع	٣٠	١٠٠٪	٣٠	١٠٠٪

باستقراء البيانات الإحصائية بهذا الجدول تبين الآتى:

أفاد ٤٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم لم يسبق لهم الزواج فى حين أفاد بذلك ٥٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

أجاب ٢٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم متزوجون في حين أفاد بذلك ٣٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

أفاد ٣٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم مطلقون، في حين أفاد بذلك ١٦.٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

وأخيرا أفاد ٣,٣٤٪ من مدمني مستشفى الأمل وهو مدمن واحد بأنه أرمل.

كا٢ = ١٩,٠٥ مستوى الدلالة = ٠.٠٠١

جدول رقم ٣ يوضح الحالة التعليمية لأفراد العينة

	مستشفى الأمل		مستشفى العباسية	
المتغيرات	التكرار	النسبة ٪	التكرار	النسبة ٪
أمي	٩	٣٠٪	٣	١٠٪
تعليم ابتدائي	١١	٣٦,٦٧٪	٥	١٦,٦٧٪
إعدادي «متوسط»	٦	٢٠٪	٤	١٣,٣٣٪
ثانوي	٣	١٠٪	٧	٢٣,٣٣٪
جامعي	١	٣,٣٣٪	١١	٣٦,٦٧٪
المجموع	٣٠	١٠٠٪	٣٠	١٠٠٪

باستقراء البيانات الإحصائية بهذا الجدول تبين الآتى:

● أفاد ٣٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل أنهم أميون، بينما أفاد بذلك ١٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٣٦,٦٧٪ من مدمنى مستنشفى الأمل بأن مستوى تعليمهم لا يتعدى المرحلة الابتدائية، فى حين أفاد بذلك ١٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● ذكر ٢٠٪ من مدمنى مستشفي الأمل بأن مستوى تعليمهم هو الإعدادى «المتوسط»، فى حين أفاد بذلك ١٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ١٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مستوى تعليمهم هو الثانوى، فى حين أفاد بذلك ٢٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● وأخيرا ذكر ٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل أنهم جامعيون، فى حين أفاد بذلك ٣٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

كا^{٢} = ٢٦,٨١

مستوى الدلالة = ٠,٠٠١

جدول رقم ٤ يوضح الحالة المهنية لأفراد العينة

المتغيرات	مستشفى الأمل		مستشفى العباسية	
	التكرار	النسبة ٪	التكرار	النسبة ٪
موظف حكومة	٣	٪١٠	٧	٪٢٣٫٣٣
عامل فني وحرفي	–	–	١٠	٪٣٣٫٣٣
مهني طبيب مهندس، محاسب	–	–	٢	٪٦٫٦٧
رجل أعمال أو صاحب مشروع	١	٪٣٫٣٣	٥	١٦٫٦٧
عسكرى	٥	٪١٦٫٦٧	–	–
مزارع	–	–	–	–
أعمال تجارية «كالبيع والشراء»	٢	٪٦٫٦٧	–	–
طالب	١	٪٣٫٣٣	–	–
عاطل	١٨	٪٦٠	٦	٪٢٠
أخرى تذكر	–	–	–	–
المجموع	٣٠	٪١٠٠	٣٠	٪١٠٠

باستقراء البيانات الإحصائية بهذا الجدول تبين الآتى:

● أفاد ١٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يعملون موظفين فى الحكومة فى حين أفاد بذلك ٢٣٫٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

- أجاب ٣٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية بأنهم يعملون حرفيون وفنيون، كجزار ونقاش وكهربائي، وسباك.
- ذكر ٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية بأنهم مهنيون «محاسب» ومهندس.
- أفاد ٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل وهو مدمن واحد بأنه صاحب مشروع ومن رجال الأعمال، في حين أفاد بذلك ١٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- ذكر ١٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يعملون في وظيفة عسكرى.
- أفاد ٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يعملون في أعمال البيع والشراء وهي مهن هامشية يطلقون عليها في المجتمع السعودى «متسبب».
- أفاد ٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل وهو مدمن واحد بأنه طالب.
- وأخيرا أفاد ٦٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم عاطلون في حين أفاد بذلك ٢٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

كا٢ = ١٠٥,٦٤ مستوى الدلالة = ٠,٠٠١

الأوضاع الأسرية التي نشأ فيها المدمن:

حدد الباحث مجموعة من الأبعاد للكشف عن خصائص الأسرة التي ينحدر منها مدمن الهيروييين وتتمثل في الآتى:

١ - الكشف عن وجود تصدع أسرى مادى سواء بوفاة أحد الوالدين أو حدوث الطلاق.

٢ - الكشف عن وجود تصدع أسرى معنوى من خلال معرفة مدى وجود خلافات حادة بين الوالدين.

٣ - الكشف عن تعدد مرات الزواج لدى الوالدين.

٤ - الكشف عن أسلوب التنشئة المتبع من جانب الأسرة مع المبحوث.

٥ - الكشف عن المستوى التعليمى والمهنى للوالدين.

٦ - الكشف عن مدى انتشار تعاطى المخدرات بين أفراد أسرة المبحوث.

بيانات إحصائية مستندة
إلى إجابات عينات من المدمنين

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بوجود آباء وأمهات العينة على قيد الحياة:

- أفاد ٨٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن آباؤهم مازلوا على قيد الحياة، في حين أفاد بذلك ٩٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- أجاب ٩٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن أمهاتهم على قيد الحياة، في حين ذكر ذلك ٩٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- أفاد ١٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل بوفاة آبائهم في حين أجاب بذلك ٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- أشار ١٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بوفاة أمهاتهم، في حين أجاب بذلك ٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بوجود حالات طلاق بين والد ووالدة أفراد العينة:

- أفاد ٣٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بحدوث الطلاق بين الوالدين، في حين أجاب بذلك ١٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- أجاب ٦٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل بعدم حدوث الطلاق بين والديهم، في حين أفاد بذلك ٨٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بزواج والد أو والده أفراد العينة من آخرين:

● أفاد ٦٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بزواج آبائهم أو أمهاتهم بأخرى أو بآخر. فى حين أجاب بذلك ٢٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٣٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بعدم زواج آبائهم أو أمهاتهم بأخرى أو بآخر، فى حين أجاب بذلك ٧٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بوجود مشاكل بين الوالدين فى أفراد العينة:

● أجاب ٢٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بوجود مشاكل كثيرة بين الوالدين فى حين أفاد بذلك ٤٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٧٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بعدم وجود مشاكل كثيرة بين الوالدين، فى حين أفاد بذلك ٦٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بأسلوب المعاملة فى أسرة أفراد العينة:

● أفاد ٣٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن معاملة الأسرة التى انحدروا منها كانت طبيعية. فى حين أجاب بذلك ٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٦,٦٧٪ من مدمني مستشفي الأمل بـأن معاملـة الأسـرة كـانت تتسم بالقسوة الشديدة، في حين أجاب بذلك ١٠٪ من مدمنـي مستشـفى العباسية.

● أجاب ٢٦.٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن معاملة الأسـرة لهـم تتسم بالإهمـال الشـديد، فـى حـين أجـاب بنفس النسبة أيضـا مدمنوا مستشفى العباسية.

● أفاد ٣٦,٦٦٪ من مدمني مستشفي الأمـل بـأن معاملـة الأسـرة لهـم كانت تتسم بالتدليل الزائد، في حين أجاب بذلك ٥٦,٦٦٪ مـن مدمنـى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات إحصائيـة خاصـة بالمستوى التعليمـى لأسـرة أفراد العينة:

● أفاد ٥٦,٦٧٪ من مدمني مستشفي الأمل بـأن آبـاؤهم أميـون، فـى حين أفاد بذلك ١٠٪ من مدمنى مستشفي العباسية.

● أجـاب ١٣,٣٣٪ مـن مدمنـى مستشـفى الأمـل بـأن مسـتوى تعليـم آبائهم لا يتعدى القراءة والكتابة، في حـين ذكـر ذلـك ٢٠٪ مـن مدمنـى مستشفى العباسية.

● أفاد ١٦,٦٧٪ من مدمني مستشفي الأمل بأن مستوى تعليـم آبائـهم لا يتعدى المرحلة الابتدائية، فـى حـين أشـار بذلـك ٦,٦٧٪ مـن مدمنـى مستشفى العباسية.

● ذكر ١٠٪ من مدمنـى مستشـفى الأمـل بـأن مسـتوى تعليم آبائـهم لا يتعدى المرحلة الإعدادية .

● أفاد ٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مستوى تعليم آبائهم هو المرحلة الثانوية فى حين أفاد بذلك ٤٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٢٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأن مستوى تعليم آبائهم هو المرحلة الجامعية.

● أما فيما يتعلق بالمستوى التعليمى لأمهات المبحوثين. فلقد أفاد ٩٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن أمهاتهم أميات وغير متعلمات بينما أفاد بذلك ٦٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية، وأيضا أفاد ٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مستوى تعليم أمهاتهم لا يتعدى المرحلة الابتدائية، كما أجاب أيضا مدمنى مستشفى العباسية بنفس النسبة. أما من ذكر من مدمنى مستشفى العباسية بأن مستوى تعليم والدتهم هو التعليم الإعدادى فقد بلغت نسبتهم ٣.٣٣٪ وأخيرا أفاد ١٦.٦٧٪، ١٠٪ منهم بأن مستوى تعليم والدتهم هو التعليم الثانوى والجامعي وذلك على التوالى.

استقراء بيانات إحصائية خاصة بمهنة آباء أفراد العينة:

● أفاد ٣٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن آباءهم يعملون موظفين فى الحكومة فى حين أفاد بذلك ٣٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأن والدهم يعمل فى أعمال مهنية.

● أفاد ٦.٦٧٪ من مدمنـي مستشـفى الأمـل بـأن آبـاءهم يعملـون فـي أعمـال حرفيـة فـي حـين أفـاد بذلـك ٢٣.٣٣٪ مـن مدمنـي مستشـفى العباسية.

● أفـاد ١٣,٣٣٪ مـن مدمنـي مستشـفى الأمـل بـأن آبـاءهم أصحـاب مشاريع في حين أفاد بذلك ٤٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● وأخيرا أفاد ١٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن آباءهم يعملون في العسكرية بينما أفاد ٣٣,٣٣٪ منـهم بـأن آبـاءهم يعملـون فـي أعمـال البيع والشراء وهي مـهن هامشية تعـرف فـي المجتمـع السـعودى باسـم «متسبب».

نتائج استقراء بيانـات إحصائيـة خاصـة بالحالـة العمليـة لأمـهات أفراد العينة:

● أفاد جميع مدمنى مستشفى الأمل: أن أمهاتهم غير عاملات، بينما أفاد بذلك ٩٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية، وأخيرا أفاد ١٠٪ فقط من مدمنى مستشفى العباسية بأن أمهاتهم لا تعملن.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بتعاطي المخدرات فـي عائلـة أفراد العينة ودرجة القرابة بهم:

● أفاد ٣٦.٦٧٪ من مدمنى مستشـفى الأمـل بـأن أحـد أفـراد الأسـرة يتعاطى المخدرات، في حـين ذكـر ذلـك ٤٣.٣٣٪ مـن مدمنـى مستشـفى العباسية.

● أفاد ٦٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنه لا يوجد أحد من أفراد الأسرة يتعاطى المخدرات. بينما أفاد بذلك ٥٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

كا^{2} = ٣,٨٦ مستوى الدلالة = ٠,٠٥

بالنظر إلى قيمة كا^{2} نجد أنها دالة عند ٠.٠٥، أى أن مستوى الثقة ٩٥٪ والشك ٥٪، مما يعكس وجود فروق ملحوظة بين المجموعتين.

● أفاد ٣٦.٣٦٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين أجابوا بأن أحد أفراد الأسرة يتعاطى المخدرات بأن هذا الشخص هو الأب، فى حين أفاد بذلك ٧٦,٩٢٪ من مدمنى مستشفى العباسية الذين قالوا بذلك.

● أفاد ٦٣.٦٤٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين أجابوا بأن أحد أفراد الأسرة يتعاطى المخدرات بأن هذا الشخص هو أحد الأخوه، فى حين أفاد بذلك ٢٣.٠٨٪ من مدمنى مستشفى العباسية الذين قالوا بذلك.

العلاقات الاجتماعية للمدمن:

حدد الباحث مجموعة من الأبعاد للكشف عن نمط العلاقات والأحوال الاجتماعية للمدمن وتتمثل فى الآتى:

١ – معرفة طبيعة علاقة المبحوث بالوالدين والأخوة.

٢ – الكشف عن مدى انتشار تعدد مرات الزواج لدى المبحوثين.

٣ – معرفة طبيعة علاقة المدمنيين بأبنائهم.

٤ – الكشف عن طبيعة علاقة المبحوثين بالرؤساء والزملاء فى العمل.

نتائج استقراء بيانات إحصائية بشأن طبيعة علاقة أفراد العينة بالوالدين والأخوة:

- أفاد ٦٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن علاقتهم طيبة مع الوالدين، في حين أفاد بذلك ٤٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- أفاد ١٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يفضلون أحد الوالدين عن الآخر، بينما أفاد بذلك نفس النسبة من مدمني مستشفى العباسية.
- أجاب ٣٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بوجود مشاكل حادة بينهم وبين الوالدين، في حين أفاد بذلك ٤٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- **وفيما يتعلق بعلاقة المبحوثين بالأشقاء**، فلقد أفاد ٤٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن علاقتهم طيبة مع أشقائهم في حين أفاد بذلك ٥٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- أجاب ١٦.٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يفضلون أحد الأشقاء عن الآخر، في حين أفاد بذلك ٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.
- وأخيرا ذكر ٤٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بوجود مشاكل بينهم وبين الأشقاء كما أفاد مدمني مستشفى العباسية بنفس النسبة أيضا.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بالتعدد الزواجي لأفراد العينة:

● أفاد ٤٧.٠٦٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين سبق لهم الزواج بأنهم تزوجوا أكثر من مرة، فى حين أفاد بذلك ١٤,٢٩٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٥٢,٩٤٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم لم يتزوجوا سوى مرة واحدة، فى حين أفاد بذلك ٨٥.٧١٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات إحصائية خاصة بوجود أبناء لدى أفراد العينة الذين سبق لهم الزواج:

● أفاد ٨٢,٣٥٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين سبق لهم الزواج بأن لديهم أبناء، فى حين أفاد بذلك ٩٢.٨٦٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ١٧.٦٥٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين سبق لهم الزواج بأنهم ليس لديهم أبناء فى حين أفاد بذلك ٧,١٤٪ من مدمنى مستشفى العباسية الذين سبق لهم الزواج.

نتائج استقراء بيانات احصائية خاصة بطبيعة علاقة أفراد العينة الذين لديهم أبناء بأبنائهم:

● أفاد جميع مدمنى مستشفى الأمل الذين لديهم أبناء بأن علاقتهم بهؤلاء الأبناء تتسم بالإهمال الشديد، فى حين أفاد بذلك ٨٥,٦٢٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● وأخيرا أفاد ١٥.٣٨٪ من مدمنى مستشفى العباسية الذين لديهم أبناء بأن علاقتهم بهؤلاء الأبناء تتسم بالاهتمام والرعاية.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح طبيعة علاقة أفراد العينة الذين يعملون بالرؤساء والزملاء في العمل:

● أفاد ٨,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل الذين يعملون وهو مدمن واحد بأن علاقته جيدة مع الرؤساء والزملاء في العمل، في حين أفاد بذلك ١٢,٥٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أجاب ٢٥٪ من مدمني مستشفى الأمل الذين يعملون بأن علاقتهم بالرؤساء والزملاء سطحية، في حين أفاد بذلك ٣٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● ذكر ٦٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل الذين يعملون بسوء علاقتهم بالرؤساء والزملاء، في حين أفاد بذلك ٥٤,١٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

الأوضاع الاقتصادية والسكنية للمدمن:

حدد الباحث مجموعة من الأبعاد للكشف عن الأوضاع الاقتصادية والسكنية للمدمنيين وتتمثل في الآتي:

١ - معرفة مصدر دخل المدمن.

٢ - وصف البيئة السكنية.

٣ - الكشف عن ملكية المسكن.

٤ - الكشف عن مدى وجود التزاحم السكني من خلال معرفة عدد الحجرات. وعدد الأفراد المقيمون في المسكن.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح مصدر دخل الأسرة:

• أفاد ٢٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مصدر دخلهم راتب الوظيفة. فى حين أفاد بذلك ٢٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

• ذكر ٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل وهو مدمن واحد. بأن مصدر دخله هو ملكية مشروع. بينما أفاد بذلك ٢٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

• أفاد ٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية وهو مدمن واحد بأن مصدر دخله هو العائد من ملكية عقار.

• ذكر ١٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مصدر دخلهم هو التجارة والأعمال الحرة. وهى مهن هامشية تتعلق بأعمال البيع والشراء ويطلقون عليها فى المجتمع السعودى اسم «متسبب».

• أفاد ٦٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مصدر دخلهم هو مساعدات الأهل ويرجع ذلك إلى أن نسبة كبيرة من المبحوثين عاطلين. بينما أفاد بذلك ١٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

• أجاب ٤٣,٣٤٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مصدر دخلهم يتحقق من الأجر الذى يحصلون عليه من ممارسة بعض الحرف. حيث أن هناك نسبة ملحوظة من مدمنى مستشفى العباسية يعملون فى بعض الحرف كالنقاشة والسباكة والجزارة والكهرباء.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح نوع محل الإقامة التى يقع فيها مساكن أفراد العينة:

● أفاد ٢٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يسكنون في حي راق. في حين أفاد بذلك ٥٣.٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أجاب ٤٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يسكنون حي وسط. في حين ذكر ذلك ٢٦.٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أفاد ٣٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يسكنون حي شعبي. في حين أفاد بذلك ٢٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● وأخيرا أفاد ١٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يسكنون في البادية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح ملكية أفراد العينة لمساكنهم:

● أفاد ٨٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن مسكنهم ملك. بينما أفاد بذلك ١٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أجاب ٢٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن مسكنهم إيجار. في حين أفاد بذلك ٩٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح عدد حجرات مسكن أفراد العينة:

● أفاد ١٠٪ من مدمني مستشفى الأمل بأن حجرات مساكنهم ثلاث حجرات فقط. بينما أفاد بذلك ١٦.٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أجاب ٩٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن مساكنهم تتكون من أربع حجرات فأكثر. فى حين أفاد بذلك ٨٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح عدد أفراد الأسرة الذين يقيمون مع أفراد العينة إقامة كاملة:

● أفاد ٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن هناك ثلاث أفراد يقيمون معهم فى المسكن. فى حين أفاد بذلك ١٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ١٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن هناك أربعة أفراد يقيمون معهم فى المسكن. فى حين أفاد بذلك ٥٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٢٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأن هناك ستة أفراد يقيمون معهم فى المسكن.

● وأخيرا أفاد ٧٦.٦٦٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن هناك ثمانية أفراد فأكثر يقيمون معهم فى المسكن. فى حين أفاد بذلك ١٣،٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

الأنشطة الاجتماعية وهوايات المدمن:

حدد الباحث مجموعة من الأبعاد للكشف عن الهوايات والأنشطة الاجتماعية التي يمارسها المدمن لملىء أوقات الفراغ وتتمثل فى الآتى:

١ - معرفة نوعية الأماكن التى يقضى فيها المدمن أوقات فراغه.

٢ - معرفة مدى ممارسة المدمن للأنشطة والهوايات وأنواعها.

٣ - معرفة مدى اشتراك المدمن في الأندية الاجتماعية والرياضية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح أماكن قضاء وقت الفراغ لأفراد العينة:

● أفاد ٥٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يقضون وقت الفراغ في المقاهى والأسواق، فى حين أفاد بذلك ٥٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● ذكر ٣٣ ٢٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يقضون وقت الفراغ في المنزل. فى حين أفاد بذلك ١٣.٣٣٪ دن مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يقضون وقت الفراغ فى المنتزهات فى حين أفاد بذلك ٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية وهو مدمن واحد.

● وأخيرا ذكر ١٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يقضون أوقات فراغهم في الأندية. فى حين أفاد بذلك ٣٣.٣٤٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح ممارسة أفراد العينة للأنشطة والهوايات:

● أفـاد ٦٠٪ مـن مدمنـى مستشـفى الأمـل بأنـهم يمارسـون أنشـطة وهوايات. فى حين أفاد بذلك ٧٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجـاب ٤٠٪ مـن مدمنـى مستشـفى الأمـل بأنـهم لا يمارسـون أية هوايـات أو أنشـطة. فـي حـين ذكـر ذلـك ٣٠٪ مـن مدمنـى مستشـفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات احصائيـة توضـح أنـواع الأنشطة والهوايـات التى يمارسها بعض أفراد العينة:

● أفـاد ٥٠٪ مـن مدمنـى مستشـفى الأمـل. ممـن يمارسـون الأنشـطة والهوايات بأن الهواية المفضلة هى الرياضة ككرة القـدم، فـى حـين أفـا بذلك ٥٢.٣٨٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● ذكر ٥.٥٦٪ ممن يمارسون هوايات من مدمنى مستشفى الأمـل وهـو مدمن واحد بأن هوايته هى الموسيقى وخاصـة العـزف علـى الكمـان، فـى حين أفاد بذلـك ١٤.٢٨٪ ممـن يمارسـون هوايـات مـن مدمنـى مستشـفى العباسية.

● أفاد ٣٣.٣٣٪ ممن يمارسون هوايات من مدمنى مستشفى الأمل بأن هواياتهم المفضلة هى السفر والرحلات سـواء خـارج المدينـة التـى يقيمـون فيها أو خارج المملكة.

● ذكر ١١.١١٪ من مدمنى مستشفى الأمـل الذيـن يمارسون هوايـات بـأن هواياتـهم الأساسـية هـى القـراءة والاطـلاع، فـى حـين أفـاد بذلـك ٢٣.٨١٪ ممن يمارسون هوايات من مدمنى مستشفى العباسية.

● وأخيرا أفاد ٩.٥٣٪ ممن يمارسون هوايات من مدمنى مستشفى العباسية، بأنهم يمارسون هواية كتابة الشعر والقصص والرسم والنحت.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح اشتراك أفراد العينة فى نادى رياضى أو اجتماعى:

● أفاد ٣٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يشتركون فى نادى رياضى أو اجتماعى، فى حين أفاد بذلك ٤٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٧٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بعدم اشتراكهم فى أية أندية رياضية أو اجتماعية، فى حين أفاد بذلك ٥٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

سلوكيات تعاطى الهيروبين

حدد الباحث مجموعة من الأبعاد للكشف عن السلوكيات المرتبطة بتعاطى الهيروبين تتمثل فى الآتى:

١ - معرفة مدة تعاطى الهيروبين وعدد مرات تعاطيه.

٢ - معرفة طريقة تعاطى الهيروبين وأكثر الأماكن التى يتم فيها التعاطى وطقوس تعاطيه هل تتم فى جماعة أم على انفراد.

٣ - معرفة مدى صلة المدمن بأول شخص قدم له الهيروبين.

٤ - الكشف عن مدى تعاطى المدمن مخدرات أخرى قبل الهيروبين ونوعها.

٥ - معرفة أهم أسباب انحراف المدمن نحو الهيروويين والمخدرات وكذلك مدى مخالفته للقانون وارتكابه الجرائم.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح الفترة الزمنية لتعاطى الهيروويين لدى أفراد العينة:

- أفاد ١٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروويين منذ عدة شهور، فى حين أفاد بذلك ١٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.
- أجاب ١٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأنهم يتعاطون الهيروويين منذ عام.
- ذكر ٣٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروويين منذ عامين، فى حين أفاد بذلك ٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.
- أفاد ١٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروويين منذ أربعة أعوام. كما أجاب بنفس النسبة مدمنى مستشفى العباسية.
- أجاب ٦٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروويين منذ خمسة أعوام، فى حين أجاب بذلك ٣٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.
- وأخيرا ذكر ٢٠٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأنهم يتعاطون الهيروويين منذ عشرة أعوام فأكثر.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح عدد مرات تعاطى الهيروويين لدى أفراد العينة:

● أفاد ٩٣،٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروين أكثر من مرة يوميا. في حين أفاد بذلك ٧٣،٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أجاب ٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروين عدد من المرات أسبوعيا. في حين أفاد بذلك ٢٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح طريقة تعاطي الهيروين لدى أفراد العينة:

● أفاد ٩٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروين عن طريق الحقن، في حين أفاد بذلك ٦٣،٣٣٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أفاد ٣،٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل وهو مدمن واحد بأنه يتعاطى الهيروين عن طريق الشم. بينما أفاد بذلك ٣٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات توضح الأماكن المفضلة لتعاطي الهيروين لأفراد العينة:

● أفاد ٧٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروين في المنزل. في حين أفاد بذلك ٥٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● ذكر ٦،٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروين في النوادي أو المقاهي، في حين أجاب بذلك ١٠٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أفاد ١٦.٦٦٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروبين خارج المدينة فى السيارات ويطلقون على هذه الأماكن فى المجتمع السعودى «البر».

● وأخيرا أجاب ٣٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية بأنهم يتعاطون الهيروبين فى أماكن عديدة، فمنهم من أفاد بأنه يتعاطاه فى المقابر والخرابات، ومنهم من أوضح أنه يتعاطاه فى السيارة مع الأصدقاء كما أفاد آخرون أنهم يتعاطونه فى أماكن البيع.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح التعاطى الفردى أو الجماعى عند أفراد العينة:

● أفاد ٥٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروبين على انفراد، فى حين أفاد بذلك ٦٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٤٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم يتعاطون الهيروبين مع جماعة من الزملاء، فى حين أفاد بذلك ٣٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

نتائج استقراء بيانات احصائية توضح صلة أول شخص قدم الهيروبين لأفراد العينة:

● أفاد ٧٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن أول شخص قدم لهم الهيروبين هو أحد الأصدقاء، فى حين أفاد بذلك ٨٦.٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ١٠٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن أول شخص قدم لهم الهيروويين هو أحد أفراد الأسرة وخاصة أخيه، بينما أفاد ٢٠٪ منهم بأن أول شخص قدم لهم المخدر هو أحد الأقارب.

● أفاد ١٣.٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية، بأن هناك مصادر أخرى هى التى قدمت لهم هذا المخدر أول مرة، فمنهم من أفاد بأنه تعاطى الهيروويين أول مرة أثناء السفر عن طرق أحد المعارف، ومنهم من أجاب بأنه تعاطى هذا المخدر بسبب قراءته عنه فى مجلة ثقافية. ومنهم من قال بأنه هو الذى اكتشف الطريق إلى هذا المخدر بنفسه لأنه سمع عنه فأراد أن يجربه.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح تعاطى أفراد العينة لمخدرات أخرى قبل الهيروويين:

● أفاد ٧٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم تعاطوا مخدرات أخرى قبل تعاطيهم الهيروويين، فى حين أفاد بذلك ٩٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أجاب ٢٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم لم يسبق لهم تعاطى مخدرات أخرى قبل الهيروويين. فى حين أفاد بذلك ٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية وهو مدمن واحد.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح نوع المخدر الذى تعاطاه أفراد العينة قبل الهيروويين:

● أفاد ١٣,٠٥ من مدمنى مستشفى الأمل الذين تعاطوا مخدرات قبل الهيروبين بأن الحشيش هو المخدر الذى تعاطوه، فى حين أفاد بذلك ٧٢,٤١٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٧٨,٢٦٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين تعاطوا مخدرات أخرى قبل تعاطيهم الهيروبين بأن الخمر أو «الشراب» كان هو المخدر الذى يتم تعاطيه باستمرار قبل الهيروبين، فى حين أفاد بذلك ٦,٩١٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● أفاد ٨,٦٩٪ من مدمنى مستشفى الأمل الذين تعاطوا مخدرات أخرى قبل الهيروبين، بأن الحبوب هى المخدر الذى كانوا يتعاطوه.

● وأخيرا أجاب ٢٠,٦٨٪ من مدمنى مستشفى العباسية الذين كانوا يتعاطوا مخدرات أخرى قبل تعاطيهم الهيروبين باستجابات متعددة، فمنهم من أفاد أن بداية التعاطى بدأت بدواء الكودايين، فى حين ذكر آخر بأن البانجو هو المخدر الذى تعاطاه قبل الهيروبين بينما أجاب آخر بأن البيرة هى أول عقار بدأ تعاطيه.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح دخول أفراد العينة للسجن أو مخالفتهم للقانون:

● أفاد ٣٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأنهم وقعوا فى متاعب مع الشرطة والقى القبض عليهم نتيجة الاشتباه فيهم أو على ذمة قضايا ولم

تثبت إدانتهم، في حين أفاد بذلك ١٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● أجاب ٦٣,٣٣٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم دخلوا السجن في قضايا عديدة حيث تم إدانتهم، وأهم هذه القضايا هي المخدرات والترويج لها، في حين أفاد بذلك ٥٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية وكانت أهم القضايا التي دخلوا بسببها السجن هي تعاطي المخدرات وقضايا النصب وتحرير شيكات بدون رصيد.

● وأخيرا أفاد ٢٦,٦٦٪ من مدمني مستشفى العباسية بأنهم لم يقعوا في مشاكل مع الشرطة أو سبق دخولهم السجن.

نتائج استقراء بيانات إحصائية توضح الأسباب المسئولة عن تعاطي أفراد العينة للهيروين:

● أفاد ٢٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى الأمل بأنهم تعاطوا الهيروين والمخدرات بتشجيع من أصدقاء السوء، في حين أفاد بذلك ٥٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية.

● ذكر ٢٠٪ من مدمني مستشفى الأمل أنهم تعاطوا الهيروين والمخدرات بسبب سفرهم خارج المملكة خاصة لدول شرق آسيا، في حين أفاد بذلك أيضا ٦,٦٧٪ من مدمني مستشفى العباسية، ولكن بسبب سفرهم إلى دول الخليج.

● أجاب ٤٦,٦٦٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن الفراغ والبطالة كان دورهما كبير فى دفعهم إلى عالم المخدرات، بينما أفاد بذلك ١٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

● وأخيرا ذكر ٦,٦٧٪ من مدمنى مستشفى الأمل بأن المشكلات الأسرية والدراسية كانت سبب تعاطيهم المخدرات، فى حين أفاد بذلك ٢٣,٣٣٪ من مدمنى مستشفى العباسية.

ومما تجدر الإشارة إليه بعد عرض البيانات الإحصائية السابقة ستقوم الدراسة الراهنة بتحليل وتفسير البيانات ذات الدلالة، وذلك فى خاتمة الدراسة المعنية بتفسير النتائج.

دراسة حالة لاثنين من المبحوثين عينة الدراسة:

حاولت الدراسة الراهنة من خلال المعالجات الإحصائية للبيانات فى المبحث السالف والتى جمعت من المبحوثين، الإجابة على التساؤلات التى طرحتها، والتى تسعى من خلالها إلى التعرف على أهم المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بإدمان الهيروين أو تلعب دورا فى تيسير ادمانه والأقدام على تعاطيه.

لكن مما تجدر الإشارة إليه، أنه على الرغم من أهمية هذه المعالجات الإحصائية فى تحليل الظاهرة وتفسيرها، إلا أنها ليست كافية فى شرح العوامل الديناميكية المؤثرة فيها. ومن هنا جاءت الحاجة إلى منهج دراسة الحالة، نظرا لأنه يعتبر ضروريا لتقديم فهم أعمق للظاهرة، فضلا عن

تحديد ومعرفة كافة الظروف والعمليات التى تؤدى إلى الانغماس فى الإدمان.

واستنادا إلى هذا التصور، تتناول الدراسة الراهنة تاريخ الحياة لحالتين من المدمنين، حالة من العينة السعودية والأخرى من العينة المصرية. ولقد راعى الباحث فى اختياره لهاتين الحالتين، طول مدة التعاطى وتنوع الأحداث فى حياة كل حالة.

ولقد قام الباحث بإجراء لقاءات دورية مع كل حالة للحصول على كافة المعطيات والبيانات الحاسمة فى تاريخ الحالة، كالظروف الأسرية التى نشأت فيها الحالة وطبيعة العلاقات الاجتماعية، فضلا عن الأوضاع الاقتصادية والمهنية والتعليمية والتاريخ الإدمانى والظروف والملابسات التى أحاطت بدخول الحالة فى دائرة الإدمان والانغماس فيها.

ولم اكتف بالحصول على البيانات من الحالة فقط، وإنما عقدت لقاءات مع بعض أفراد أسرة الحالة، فضلا عن الاستعانة بما هو متاح من بيانات رسمية عن الحالة فى سجلات المستشفى. ومما لاشك فيه أن هذا الأسلوب الذى اتبعته فى تعدد مصادر البيانات، من شأنه أن يساعد على صدق المعطيات التى نجمعها عن الحالة، فضلا عن تقديم صورة واقعية لتاريخ الحالة.

وانطلاقا من مبدأ الحفاظ على السرية، سترمز الدراسة الراهنة لكل حالة بالحرف الأول من الاسم. ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد، أن ما سوف تصل إليه الدراسة من حقائق وتفسيرات لكل حالة - التى سيتم عرضها فى فصل النتائج وتفسيرها - يمكن انطباقها وانسحابها فقط

على حالات أخرى مماثلة لها فى أوضاعها المكانية والزمانية والاجتماعية والاقتصادية، وتعذر تعميمها على حالات أخرى مختلفة الأوضاع وذلك لاختلاف طبيعة السياق الاجتماعي والثقافي لكل من المجتمع السعودى والمصرى نسبيا.

الحالة السعودية:

«م» عمره ٣٣ سنة حاصل على كلية تقنية سنتين بعد الثانوية الصناعية، التحق بأكثر من وظيفة، لكنه حاليا عاطل ومطلق وله طفل واحد. ولديه من الأخوة سبعة، اثنين من الذكور وخمسة من الإناث، ترتيبه بينهم الثاني، كل أخوته غير أشقاء، باستثناء شقيقته الكبرى التى تعانى من شلل أطفال، عندما كان عمرها ثلاث سنوات. والده صاحب مؤسسة تجارية، وهو رجل ميسور الحال. ولقد طلق والد «م» والدته وهو صغير لا يتجاوز الحادية عشر عاما. وتزوج بسيدة أخرى كانت صديقة لها تتردد عليها وتزورها باستمرار.

ويقول «م» أن والده قد أعاد والدته بعد سبعة عشر عاما لإحساسه بالندم تجاههم ورغبته فى تعويضهم عن فترة الحرمان التى عاشوها فى الماضي. ويذكر أن والده أثناء انفصاله عنهم، كان ملتزم بواجباته المادية فقط، أما الاهتمام المعنوى فنادرا ما كان يسأل عنهم أو يزورهم، ولذلك فإن علاقته به يغلب عليها الفتور، وعدم وجود عاطفة تجاهه. وهو حاليا مرتبط به، لكنه ارتباط عمل حيث يساعده فى إدارة أعماله ومشروعاته فقط. أما علاقته بوالدته، فتتسم بالحب والحنان الزائد، وهى دائما ما

كانت تبالغ فى حرصها عليه والاهتمام به، ووضع قيود على خروجه وعلاقاته بالآخرين، لهذا اتسمت شخصيته بالانطواء نسبيا.

ويقرر «م» أنه لم يرسب طوال حياته الدراسية، حيث كان طالبا مجتهدا ومنتظما فى المدرسة، وفى نهاية المرحلة الثانوية، حاول أحد زملائه فى المدرسة إقامة علاقة صداقه معه، إلا أنه لم يتقبله لشكه فى سلوكه، كما لاحظ من تصرفاته أنه يستغله ماديا ويطلب منه توصيله يوميا إلى منزلة بالسيارة. ولكن بعد فترة استطاع ذلك الزميل أن يفرض نفسه عليه ويقيم أيضا صداقة مع سائقه الخاص، وذلك لاشتراكهما فى تعاطى الحشيش، حيث اتضح بعد ذلك من خلال الأحاديث العديدة التى كانت تدور بينهما أثناء توصيله إلى منزله بالسيارة.

وفى أحد المرات كان «م» فى زيارة لهذا الزميل، فعرض عليه أن يجرب الحشيش، وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عاما، ولقد استمر بعد ذلك فى تعاطيه لمدة سنتين تقريبا. وكانت معظم جلسات التعاطى فى منزل زميله حتى لا تراه والدته أو تشك فى سلوكه. وفى أحد هذه الجلسات دخل عليهم شقيق زميله ومعه هيروبين ووضعه لهم فى السجائر، وقاموا جميعا بتدخينه وتجريبه، شعر بعد تعاطيه بنشوة لم يعهدها من قبل، ثم تعاطاه بعد ذلك عن طريق القصديرة والحقن، وإن كان فى أول الأمر يخشى تعاطيه عن طريق الإبر، لاشمئزازه من منظر الدم السائل من يد شقيق زميله، حينما كان يتعاطاه بهذه الطريقة.

ويقول «م» أنه مع بداية تعاطيه الهيروبين، كان قد تخرج من الكلية التقنية وتم توظيفه بقسم الهندسة الجوية فى الخطوط السعودية براتب شهرى أربعة آلاف وخمسمائة ريال. وأثناء هذه الفترة كان مرتبطا عاطفيا بشقيقة زوجة ابن عمه، وأتفق مع والدها على الزواج، وتم تحديد ميعاد الفرح. إلا أنه قبل إتمام الزواج بيوم واحد، فوجئ بأن والد العروس يتصل به ويبلغه أن ابنته لن تتزوج قبل أربع سنوات، حيث أنه يفضل استكمال تعليمها ويذكر «م» ان هذا التحول من أهل العروس كان بسبب إبلاغ عمه لهم أنه يتعاطى المخدرات لرغبته فى تزويجه ابنته.

ويقول «م» أنه إذا كانت هذه الأزمة العاطفية ساعدت على زيادة إدمانه للهيروبين وانغماسه فيه، فجاء الزواج والفشل فيه ليزيد من استخدامه لهذا المخدر. فبعد عدم توفيقه فى الخطوبة، ألحت والدته عليه، للزواج، وتم بالفعل زواجه عن طريق أحد قريباته، من فتاة بخارية، لكن والدتها سعودية وأنجب منها طفل فى العام الأول من الزواج.

ويذكر «م» أن الخلافات والمشاكل كانت حادة منذ البداية، حيث أن الزوجة نظرتها للحياة مادية كثيرة المطالب، فضلا عن رغبتها فى الحصول على الجنسية من خلال زواجها منه، ولقد تم خلال فترة الزواج التى استمرت ثلاث سنوات، الطلاق ثلاث مرات، وانتهى الأمر بالتفريق بينه وبين زوجته، والاتفاق على رعاية الطفل وبقائه مع الزوجة، على أن يزوره بانتظام فى مواعيد متفق عليها.

ويذكر «م» أنه استمر فى تعاطى الهيروين لعدة سنوات بعد طلاقه، وفى نفس الوقت، تم علاجه أكثر من مرة، ولكن بدون جدوى. ولكنه فى أحد مرات التعاطى، كان يتعاطى الهيروين فى مدخل أحد العمارات السكنية، فتم ضبطه من قبل صاحب العمارة، فقام بإبلاغ الشرطة، ودخل بسبب هذه الواقعة السجن لمدة ستة شهور. وخلال فترة السجن، تم فصله من الخطوط السعودية ولكن بعد خروجه من السجن بفترة وجيزة، تم توظيفه بشركة بترومين عن طريق أحد أقاربه، وظل فى هذه الوظيفة لمدة عام ونصف، لكنه بسبب إدمان الهيروين، تكرر غيابه باستمرار عن العمل، مما أدى إلى فصله أيضا من هذه الوظيفة.

ويقول «م» أخيرا، أقنعته والدته بالحضور للعلاج هذه المرة، وهو لا يريد أن يغضبها ويتمنى أن يتخلص من هذا المخدر اللعين.

الحالة المصرية:

«س» عمره ٣٧ سنة، يدير أحد محلات والده لتجارة البلاستيك، حيث أن والده من أكبر تجار البلاستيك فى شبرا، له اثنين من الأخوة الذكور وترتيبه بالنسبة لهم الأكبر وعلاقته بهما طيبة، ومتزوج للمرة الثالثة وله طفل واحد من زوجته الأولى.

ويذكر «س» أن والده لم يتزوج سوى والدته، ولكن على الرغم من ذلك كان دائم الشجار معها وإثارة جو التوتر فى المنزل لكل صغيرة أو كبيرة بسبب عصبيته الشديدة، ولقد انعكست طبيعة هذه العلاقة السيئة بين الوالدين على «س» حيث يقول أن والده كان يعامله بقسوة لارتكابه أى

تصرف مهما كان تافه، مما كان يدفعه إلى ترك المنزل فى حالة وجوده. أما فيما يتعلق بوالدته، فكانت دائمة العطف عليه والاستجابة لكل رغباته.

ويقول «س» أنه فى تعليمه كان متوسط المستوى، فلقد حصل على المعهد التجارى المتوسط بعد الثانوية العامة، وإثناء دراسته فى المرحلة الثانوية عرف تدخين السجائر من خلال زملائه، حيث كانوا يدخنون سويا ويهربون من المدرسة للتسكع فى الشوارع وأحيانا دخول السينما. ولقد عرف «س» بعد تدخين السجائر تعاطى الحشيش أثناء دراسته بالمعهد التجارى المتوسط. حيث عرض عليه أحد أصدقائه، تناول سيجارة «مغمسة حشيش» على حد تعبيره، شعر بعد تعاطيها بحالة من هدوء الأعصاب.

ويذكر «س» أنه بعد حصوله على المعهد التجارى الحقه والده بأحد محلات تجارته ليديرها، وكان يعطيه ألف جنيه شهريا، وبدأت العلاقة منذ ذلك التاريخ تتحسن نسبيا مع والده، وقام بعد فترة بتزويجه بنت أحد الجيران التى أحبها ورفع راتبه إلى ألفين جنيه، ولقد أنجب بعد زواجه بعام واحد طفله الوحيد. إلا أنه بعد ميلاد طفلة بفترة وجيزة بدأت الخلافات الزوجية تشتد بسبب تأخيره والسهر خارج المنزل، فقام والده بالتدخل لحل هذه الخلافات، ولقد عرف الوالد أثناء هذه الفترة، أن ابنه «س» يتعاطى الحشيش مع مجموعة من الزملاء وهذا هو السبب فى التأخير والسهر خارج المنزل.

ويقول «س» أن والده طلب منه عدم التأخير خارج المنزل، وأنه يمكنه أن يتعاطى الحشيش معه. لأنه يتعاطى هذا المخدر هو الآخر، ومن ثم بدأ «س» يتعاطى الحشيش معه عن طريق الشيشة أو لف السجائر.

ويقرر «س» أنه بعد فترة، تعرف على فتاة تعمل في أحد الكباريهات. ونشأت بينهما علاقة عاطفية. تم تطورت هذه العلاقة بعد ذلك إلى علاقة جنسية. وفى أحد المرات التى كانت تسهر معه هذه الفتاة. أحضرت له «تذكرة هيرويين» وقالت له لو تناولتها ستعيش فى عالم خيالى أفضل من عالم الحشيش. وبعد فترة من تعاطى «س» الهيرويين شعر الوالد أن حسابات المحل الذى يديره ابنه، بدأت تحقق خسائر ملحوظة، فضلا عن غيابه باستمرار عن العمل. وفى نفس الوقت تصاعدت خلافاته مع زوجته من جديد وانتهى الأمر بالطلاق.

ويقول «س» أن والده بعد علمه بتعاطيه الهيرويين، قام بعلاجه بأحد المصحات الخاصة، وبعد خروجه من العلاج. أبعده عن إدارة محلاته حيث اكتفى والده بجلوسه معه فى المحل الرئيسى بمساعدته، وأثناء هذه الفترة تزوج فتاة الكبارية، التى كان على علاقة بها، لكن هذا الزواج لم يستمر إلا عدة شهور، لأن والده ضغط عليه وطلقها منه لسمعتها السيئة.

ويقول «س» «إن وضعى بدون زواج، بعد طلاقى الزوجة الثانية، استمر لمدة عامين، وفى نفس الوقت ظللت منغمسا فى تعاطى الهيرويين. لكن منذ عام ونصف تقريبا تدخل أحد أصدقاء الوالد بإصلاح العلاقة بيننا، وطلب منه أن يزوجنى، وبالفعل استجاب والدى لذلك وتزوجت

منذ عام للمرة الثالثة وعشت لمدة ستة شهور فـي استقرار نسـبى. لكنـى عاودت تعاطى الهيروييين مرة أخرى من خـلال أحـد أصدقـائى لمحاولـة النسيان والهروب من الزواج لأننى أصبـت بحالـة مـن الضعـف الجنسـى بسبب تعاطى الهيروييين.

وأخيرا أحضرنى الوالد هنا للعلاج ووعدنى بعـد اسـتكمال العـلاج مـن إدمان الهيروييين أنه سيقوم بعلاجى عند أطباء متخصصـين فـى النواحـى الجنسية. وأما عن طفلي الصغير، فهو مع أمه تقوم على رعايته ونادرا ما أراه لأنني لا أفضل أن يراني في مثل هذه الحالة».

ومما تجـدر الإشـارة إليـه بعـد عـرض هـاتين الحـالتين، أن الدراسـة الراهنة ستقوم بتقديم تحليل كيفى لكل حالة فـى خاتمـة الدراسـة وذلـك للوقوف على أهم ملامح ظـاهرة إدمـان الهـيروييين فـى مجتمعـى الدراسـة والإحاطة بكافة الظروف والعمليات التـى تيسـر الطريـق لاكتسـاب خـبرة الادمان.

خاتمة: تفسير النتائج ورؤية تحليلية

يتضمن هذا الجزء الأخير من الدراسة نقطتين أساسيتين: - -

أولا: نتائج الدراسة فى ضوء الإجابة على التساؤلات وكذلك تقديم تحليل كيفى لتاريخ حياة حالتين (واحدة سعودية والأخرى مصرية).

ثانيا: رؤية تحليلية لظاهرة إدمان الهيروويين فى إطار البناء الاجتماعى لمجتمعى الدراسة.

أولا: النتائج وتفسيرها فى ضوء الإجابة على التساؤلات وتاريخ الحياة لحالتين:

١ - هناك ملاحظة مبدئية، اتضحت من خلال معايشة الباحث لمجتمعى الدراسة وهى أن ظاهرة إدمان الهيروويين أكثر انتشارا فى المجتمع السعودى، مقارنة بالمجتمع المصرى، وذلك خلال الفترة الزمنية التى أجريت فيها الدراسة. ولعل ما يؤيد ذلك أنه عند إجراء الدراسة فى جانبها الميدانى فى مجتمع الدراسة السعودى، كان هناك عددا كبيرا من مدمنى الهيروويين متاح ومتوفر. فى حين أنه عند أجرائها فى مجتمع الدراسة بمصر، لم يكن متوفر لدينا العينة اللازمة لإجرائها دفعة واحدة. مما دفعنا إلى اختيارها على مدى زمنى يتجاوز الخمسة شهور. والواقع أن الدراسة الراهنة تعزى انتشار ظاهرة إدمان الهيروويين فى المجتمع السعودى على نطاق واسع، وانكماشها نسبيا فى المجتمع المصرى إلى ما يتمتع به المجتمع السعودى من توفر ثروة مادية كبيرة، نتيجة تدفق عائدات النفط، حيث شجع ذلك المنظمين لتجارة المخدرات على تركيز

نشاط تجارة الهيروين في هذه المنطقة، في حين أنه من ناحية أخرى تحول أغلب المدمنين في مصر إلى أنواع أخرى من المخدرات الأقل ثمنا كالبانجو، نتيجة تدني الأوضاع الاقتصادية نسبيا في المجتمع المصري.

٢ - خصائص العينة:

● تبين من نتائج الدراسة أن أغلب مدمني الهيروين في المجموعة السعودية يتركزون في الفئتين العمريتين، أقل من ٢٠ سنة، ومن ٢٠ – ٣٠ سنة، في حين أن أغلب مدمني الهيروين في مصر يتركزون في الفئتين العمريتين من ٢٠ – ٣٠ سنة و ٣٠ – ٤٠ سنة، كما لوحظ أيضا أن هناك نسبة تصل إلى ٢٦,٦٧٪ من المبحوثين المصريين تتركز في المرحلة العمرية ٤٠ – ٥٠ سنة فأكثر، في حين أنه لا يوجد مدمن واحد في المجموعة السعودية يقع في هذه الفئة العمرية. ولعل ذلك يكشف لنا أن الدخول في دائرة إدمان الهيروين في المجتمع السعودي يبدأ في سن مبكر نسبيا عن المجتمع المصري، مما يعكس خطورة هذه الظاهرة في المجتمع السعودي.

وتجدر الإشارة أنه بالنظر إلى هذا التوزيع العمري في المجموعة السعودية والمصرية، يلاحظ أن نسبة الشباب التي تقع في الفئة العمرية من ٢٠ – ٤٠ سنة تمثل نسبة كبيرة وخطيرة، ولعل هذه النتيجة تتفق مع ما أسفرت عنه دراسة «بول» على مجموعة من مدمني الهيروين، والتي كشفت عن أن أغلب مدمني هذا المخدر من الشباب كما تتقارب هذه النتيجة أيضا مع دراسة أجريت بالمعهد القومي لإدمان المخدرات

بولاية نورث كارولينا على مجموعة من مدمنى المخدرات الراشدين والتى كشفت عن أن أغلب مدمنى الهيروبيين يقعون فى الفئة العمرية كم ٢٦ - ٣٤ سنة. والواقع أن انخفاض مستوى السن يعكس دلالات هامة تتعلق بمدى تدهور المؤسسات التربوية والأوضاع الأسرية وكذلك نسق القيم السائد.

● تبين من نتائج الدراسة الراهنة انخفاض المستوى التعليمى لدى غالبية المبحوثين السعوديين مقارنة بالمبحوثين المصريين. حيث أن أغلبهم أمى أو مستوى تعليمه لا يتعدى التعليم الإعدادى «المتوسط»، وفى نفس الوقت هناك انخفاضا كبيرا فى مستوى تعليمهم الثانوى أو الجامعى. فى حين أنه قد لوحظ فى المجموعة المصرية أن أكثر من نصفهم يتراوح مستواه ما بين التعليم الثانوى والجامعى. ولعل ذلك يرجع إلى ارتفاع المستوى التعليمى ومعدلاته فى المجتمع المصرى بشكل عام، وفى نفس الوقت حداثة العهد بالنهضة التعليمية فى المجتمع السعودى.

والواقع أن هذه النتيجة الخاصة بالمستوى التعليمى فى مجتمعى الدراسة، تتمشى مع ما أسفرت عنه نتائج بعض الدراسات فى كلا من المجتمعين، فعلى حين كشفت دراسة أجراها مركز أبحاث مكافحة الجريمة فى السعودية عام ١٩٩٢ على نزلاء المصحات والسجون ومجموعة من الطلبة والعوام، أن نسبة كبيرة ممن يتعاطون المخدرات لا يتعدى مستوى تعليمه المرحلة الإعدادية. ولقد كان الهيروبيين هو المخدر الذى يتعاطاه أغلب المبحوثين موضوع الدراسة. وفى مقابل ذلك أظهرت دراسة مصرية أجراها محمد غبارى على مجموعة من المدمنين المترددين

على مستشفيات وعيادات الإدمان بالإسكندرية، أن أغلبهم يتعاطى الهيروين وأن نسبة كبيرة من مدمنى هذا المخدر من المتعلمين والطلبة.

● تبين من نتائج الدراسة الراهنة ارتفاع نسبة من سبق لهم الزواج فى المجموعة السعودية. فضلا عن ارتفاع نسبة المطلقين داخل هذه المجموعة أيضا. وذلك مقارنة بالمجموعة المصرية، ولعل ذلك يعزى إلى ارتفاع متوسط دخل الفرد فى المجتمع السعودى إذا ما قورن بمتوسط دخل الفرد فى المجتمع المصرى، حيث أن ذلك يمكنه من أداء مستلزمات الزواج.

● أظهرت نتائج هذه الدراسة ارتفاع نسبة العاطلين بين المبحوثين السعوديين حيث بلغت ٦٠٪ فى حين بلغت نسبة العاطلين فى المجموعة المصرية ٢٠٪ فقط. والواقع أن ارتفاع نسبة البطالة بين المبحوثين السعوديين قد يرجع إلى انخفاض المستوى التعليمى لأغلبهم بشكل عام، وبالتالى افتقارهم إلى المهارات والقدرات التى تمكنهم من الالتحاق بسوق العمل. أضف إلى ذلك أن انغماسهم فى تعاطى الهيروين له تأثير سلبى كبير على أوضاعهم المهنية. حيث أن الهيروين من أكثر أنواع المخدرات إحداثا لتغيرات فسيولوجية خطيرة تؤثر سلبيا على الحالة الجسمية والصحية للمتعاطى وبالتالى ينعكس ذلك على إنتاجيته. ولعل من أبرز الدراسات التى أجريت فى المجتمع السعودى وتنفق مع هذه النتيجة التى أسفرت عنها الدراسة الراهنة من ارتفاع نسبة العاطلين فى المجموعة السعودية، دراسة «عبد الحكيم عثمان» على مجموعة من مدمنى الهيروين بمستشفى الصحة النفسية بجدة. فلقد تبين أن ٤٧.٥٪

من مدمنى هذا المخدر عاطلون. كذلك أظهرت أيضا دراسة أجراها معهد الإدمان القومى بنورث كارولينا على مجموعة من مدمنى المخدرات الراشدين، أن أكثر الفئات الاجتماعية تعاطيا للهيروين هم العاطلون.

٣ - المتغيرات الاجتماعية وإدمان الهيروين:

● أظهرت نتائج الدراسة الراهنة أن هناك ارتباطا بين إدمان الهيروين وتدهور واضطراب البيئة الأسرية التى ينحدر منها المدمن، وإن كانت مؤشرات هذا التدهور والاضطراب الأسرى أكثر وضوحا فى المجموعة السعودية، مقارنة بالمجموعة المصرية، حيث ترتفع معدلات التصدع المادى والسيكولوجى وتعدد مرات الزواج لدى الوالدين. فضلا عن انخفاض المستوى التعليمى والمهنى لهم، وانتشار تعاطى المخدرات بين بعض أفراد الأسرة فى أغلب أسر المبحوثين السعوديين. وإن كان قد لوحظ أن هناك نسبة تصل إلى ٣٠٪ فى المجموعة السعودية، أظهرت رضا عن معاملة الأسرة لهم ، فى حين أفاد بذلك ٦,٦٧٪ من المجموعة المصرية.

والواقع أن ما انتهت إليه الدراسة الراهنة من وجود مشكلات واضطرابات فى البيئة الأسرية للمدمن. جاء متفقا مع نتائج دراسات أخرى عديدة لعل أبرزها دراسة «توردا» على مجموعة من مدمنى الهيروين والتى كشفت عن اضطراب البيئة الأسرية والعلاقات بين الوالدين، فضلا عن أن الإهمال الشديد للمدمن كان هو أسلوب التنشئة المتبع من جانب أغلب الأسر. وتتفق أيضا نتيجة الدراسة الراهنة فى هذا الصدد مع ما كشفت عنه الدراسة التى أجرتها الجمعية المركزية لمنع

المسكرات ومكافحة المخدرات على مجموعة من مدمنى الأفيون ومشتقاته من المصريين. فلقد أظهرت نتائجها وجود تصدع مادى فى الأسرة سواء بالطلاق أو بالوفاة لأحد الوالدين. حيث أفاد بذلك ٦١.٧٤٪ من المبحوثين كذلك أفاد ٣٥٪ منهم بوجود تصدع معنوى والمتمثل فى وجود خلافات مستمرة بين الوالدين. وأخيرا ذكر نسبة كبيرة منهم بتعاطى الوالد أو أحد الأخوة المخدرات.

● أظهرت نتائج الدراسة ارتباط إدمان الهيروييين باضطراب العلاقات الاجتماعية سواء مع الوالدين والأخوة والزوجات والرؤساء والزملاء فى العمل. وإن كان قد لوحظ أن اضطراب العلاقات مع الوالدين أكثر وضوحا فى المجموعة المصرية. فى حين أن اضطراب العلاقات مع الزوجين أكثر وضوحا فى المجموعة السعودية. ويبدو أن ذلك يرجع إلى ارتفاع نسبة الذين لم يسبق لهم الزواج فى المجموعة المصرية وفى نفس الوقت ارتفاع نسبة المتزوجين فى المجموعة السعودية. وبالتالى يؤدى إدمان هذا المخدر إلى اضطراب العلاقات الاجتماعية مع الأشخاص الذين يكون لهم احتكاك بشكل مباشر وكبير مع المدمن، فالهيروييين كما سبق أن أوضحنا، يحدث تغيرات فسيولوجية سيئة. تؤثر سلبيا على الحالة الجسمية والنفسية ومما لا شك فيه أن هذا له انعكاساته على اضطراب السلوك الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية للمدمن مع الأشخاص المحيطين به والمقربين إليه. والواقع أن هذه النتيجة التى كشفت عنها الدراسة، تتمشى مع ما أسفرت عنه دراسة محمد غبارى على مجموعة من المدمنين المترددين على عيادات الإدمان بالإسكندرية، وكان أغلبهم من مدمنى الهيروييين. فلقد

أظهرت الدراسة أن هذا المخدر يؤدى إلى مشكلات كثيرة مع أفراد الأسرة سواء فى صورة خلاف أو هجر أو طلاق أو إهمال للأبناء، كما أشار نسبة ملحوظة منهم أن الإدمان أدى بهم إلى الفصل من العمل وفقد الرؤساء الثقة فيهم.

● أظهرت نتائج الدراسة الراهنة أن ظاهرة إدمان الهيروويين، ظاهرة، حضرية، حيث أن جميع مدمنى الهيروويين من المدينة فى المجموعتين. باستثناء ١٠٪ فقط فى المجموعة السعودية، كانوا من سكان البادية. كما أظهرت نتائج الدراسة أيضا ارتباط ظاهرة إدمان الهيروويين بطبيعة الأوضاع الاقتصادية والسكنية، ففى حين يتركز أغلب مدمنى الهيروويين فى المجموعة السعودية فى الشرائح الاجتماعية الدنيا والمتوسطة، نجد أنهم فى المجموعة المصرية قد تركزوا فى الشرائح الاجتماعية المتوسطة والعليا. حيث ظهر ذلك من خلال عدة مؤشرات تتمثل فى ارتفاع نسبة من يسكنون الأحياء الراقية والمتوسطة وكذلك انخفاض حدة التزاحم السكنى وذلك فى المجموعة المصرية مقارنة بالمجموعة السعودية – أضف إلى ذلك أن مصدر الدخل لدى نسبة ملحوظة فى المجموعة المصرية، هو ملكية مشروع تجارى أو صناعى حيث أفاد ٢٠٪ بذلك فى حين من ذكر ذلك فى المجموعة السعودية ٣.٣٣٪ وهو مدمن واحد. إلا أنه من الملاحظ أن غالبية المبحوثين السعوديين يملكون مساكنهم فى حين أن غالبية المبحوثين المصريين يسكنون فى وحدات سكنية مستأجرة. والواقع أن انتشار إدمان الهيروويين فى الشرائح الاجتماعية الدنيا والمتوسطة بالمجموعة السعودية، لا يعنى ذلك عدم انتشاره فى الشرائح الاجتماعية

العليا، بل على العكس قد يكون انتشاره أوسع وأكبر فى هذه الشـريحة، ولكن غالبا ما يلجأ أبناء الشريحة العليا فى هـذا المجتمـع إلى المؤسسات العلاجيـة الخاصـة سـواء داخـل المملكـة أو خارجـها فـى مصـر والـدول الأوربية.

وبصفة عامة هناك العديد من الدراسـات التـى أجريـت فـى مجتمعـى الدراسة والتى جاءت نتائجها تتمشى مع نتيجة هذه الدراسـة بخصوص الأوضاع الاقتصادية فلقد أوضحت دراسة أجراها مركـز أبحـاث مكافحـة الجريمة فى السعودية عن ظاهرة إدمان المخدرات فى المجتمع السـعودى على نزلاء المصحات والسجون وبعض الطلبة والعوام، أن غالبية المبحوثين ينحـدرون مـن الطبقـات المتوسـطة. وفـى مقـابل ذلـك أوضحـت دراسـة «غبارى» أن نسبة ملحوظة من المبحوثين عينة الدراسة يقيمون فى أحياء راقية وأقل ازدحاما، وأن هذه النسبة من مدمنى الهيروين.

● تبين من نتـائج الدراسـة الراهنـة ارتبـاط ظـاهرة إدمـان الهـيروين بضعف ممارسة الأنشطة والهوايات لملء أوقات الفـراغ لـدى المبحوثـين، ولقد اتضح ذلك من خلال عدة مؤشرات لعل أهمها جلوس نسبة كبيرة من المبحوثين فى المجموعتين على المقاهى لقضاء أوقات الفراغ، حيـث أفـاد بذلك ٥٦,٦٧٪ فى المجموعة السعودية و ٥٠٪ فـى المجموعـة المصريـة، كذلـك ذكـر ٧٠٪ فـى المجموعـة السـعودية، ٥٦,٦٧٪ فـى المجموعـة السعودية عدم اشتراكهم فى أية أنديـة رياضيـة أو اجتماعيـة، أضـف إلى هذا أظهرت الدراسة أيضا عدم ممارسة نسبة ملحوظة فى المجموعتين أية أنشطة أو هوايات، ولقد كـانت أهـم الهوايـات والأنشـطة التـى يمارسـها

بعض المبحوثين السعوديين هى الرياضة والسفر والرحلات. فى حين كانت أهم الهوايات التى يمارسها بعض المبحوثين المصريين الرياضة والقراءة والإطلاع. والواقع أن ما كشفت عنه نتائج هذه الدراسة من ارتباط إدمان الهيروين بضعف الهوايات والأنشطة الاجتماعية، جاء متمشيا مع نتائج بعض الدراسات الأخرى. لعل أهمها دراسات «العقباوى وآخرون» عن مشكلة التعاطى والإدمان بدولة قطر. فلقد تبين من نتائج الدراسة أن غالبية المتعاطين ليس لهم هوايات أو أنشطة اجتماعية، وأن وقت فراغهم المتاح لا يتجاوز ساعات قليلة جدا يوميا، نظرا لأنهم يقضون معظم أوقاتهم مع أقرانهم المدمنين منغمسين فى التعاطى.

٤ – سلوكيات تعاطى الهيروين:

● أظهرت نتائج الدراسة أن نسبة كبيرة من مدمنى الهيروين فى المجموعة المصرية والسعودية. قد بدأوا التعاطى منذ أكثر من خمس سنوات، وأن كان قد لوحظ أن نسبة تصل إلى ٢٠٪ فى المجموعة المصرية تتعاطى الهيروين منذ أكثر من عشر سنوات. بينما لا يوجد مدمن واحد فى المجموعة السعودية تعاطى المخدر هذه المدة الطويلة. والواقع أن ذلك قد يعزى إلى وجود نسبة ملحوظة فى المجموعة المصرية تقع فى الفئة العمرية من ٤٠ – ٥٠ سنة، وهذا يعنى أنهم بدأوا التعاطى منذ فترة طويلة.

● أظهرت نتائج الدراسة الراهنة، أن أغلب المبحوثين فى المجموعتين يتعاطون الهيروين أكثر من مرة فى اليوم، وأن كانت هناك

فروق ملحوظة لصالح المبحوثين السعوديين، مما يعنى أنهم أكثر إدمانا وتعاطيا لهذا المخدر. فلقد ذكر ٢٦.٦٧٪ من المبحوثين المصريين أنهم يتعاطون المخدر عدد من المرات فى الأسبوع، فى حين من أفاد بذلك فى المجموعة السعودية لا تتجاوز نسبتهم ٦,٦٧٪ فقط.

● يتبين من نتائج الدراسة أن ٦٣,٣٣٪ من المجموعة المصرية يتعاطون الهيروين عن طريق الحقن، و ٣٦.٦٧٪ منهم يتعاطاه عن طريق الشم؛ وفى مقابل ذلك أفاد جميع المبحوثين السعوديين تقريبا أنهم يتعاطون الهيروين عن طريق الحقن. ولعل هذه النتيجة تتمشى نسبيا مع ما أسفرت عنه دراسة «عبد الكريم عثمان» على مجموعة من مدمنى الهيروين بمستشفى الصحة النفسية بجدة فلقد أظهرت الدراسة أن نسبة كبيرة من مدمنى هذا المخدر يتعاطونه عن طريق الحقن.

● أظهرت نتائج الدراسة أن أغلب المبحوثين فى المجموعتين تتعاطى الهيروين فى المنزل. وأن كانت هذه النتيجة أكثر وضوحا فى المجموعة السعودية، كما تبين أن هناك نسبة تصل إلى ٢٣,٣٣٪ فى المجموعة السعودية يتعاطى المخدر فى المقاهى أو فى سيارتهم خارج المدينة؛ فى حين أفاد ٤٣,٣٣٪ من المبحوثين المصريين أنهم يتعاطون الهيروين فى أماكن أخرى بعيدا عن المنزل، كالأندية وأماكن البيع والمقابر.

● أظهرت الدراسة أن نسبة كبيرة من مدمنى الهيروين فى المجموعتين قد تعاطوا مخدرات أخرى قبل الهيروين، وأن كان قد لوحظ أن هناك نسبة تصل إلى ٢٣,٣٣٪ فى المجموعة السعودية لم

تتعاطى مخدرات أخرى قبل الهيروين، في حين أفاد بذلك في المجموعة المصرية ٣,٣٣٪ وهو مدمن واحد. كما أوضحت نتائج الدراسة أيضا. أنه إذا كان الحشيش هو أكثر أنواع المخدرات الذى تعاطاه بعض المدمنيين في المجموعة المصرية قبل الهيروين. فقد كان الخمر «العرق أو الشراب» هو أكثر أنواع العقاقير الذى تعاطاه بعض المبحوثين السعوديين قبل إدمانهم الهيروين. ولعل هذه النتيجة تتفق مع ما أسفرت عنه دراسة جاكسون ورتشمان على مجموعة من مدمني الهيروين فلقد تبين من النتائج أن ٥٣٪ من مدمني الهيروين استخدموا أكثر من عقار، ولقد كان الكحول هو أكثر العقاقير التى سبق لهم استخدامها.

● أظهرت نتائج الدراسة أن نسبة كبيرة من المبحوثين في المجموعتين يتعاطون الهيروين على انفراد، وأن كانت هذه النتيجة أوضح في المجموعة المصرية، حيث أن نسبة من يتعاطاه مع جماعة في المجموعة السعودية ٤٣.٣٣٪. في حين أفاد بذلك ٣٦,٦٧٪ من المبحوثين المصريين.

● أوضحت نتائج الدراسة أن أول شخص قدم الهيروين لأغلب المبحوثين في المجموعتين هو صديق السوء، وأن كانت هناك نسبة ملحوظة تصل إلى ٣٠٪ في المجموعة السعودية قد أظهرت أن أحد أفراد الأسرة أو أحد الأقارب هو أول شخص قدم لهم الهيروين، ولعل هذه النتيجة تتقارب إلى حد ما مع ما أسفرت عنه دراسة عبد الكريم عثمان على مدمني الهيروين المترددين على مستشفى الصحة النفسية بجدة، فلقد أتضح أن ٥٨٪ من مدمني هذا المخدر قد تعاطوه أول مرة تحت تأثير

الأصدقاء، فى حين أفاد ٣٥٪ منهم أن تعاطيهم للمخدر جاء بسبب السفر خارج المملكة خاصة دول شرق آسيا.

● أظهرت الدراسة أن أهم الأسباب المسئولة عن تعاطى الهيروبين والمخدرات الأخرى فى المجموعة المصرية هم أصدقاء السوء والمشكلات الأسرية والدراسية وذلك على التوالى، فى حين أن أهم هذه الأسباب فى المجموعة السعودية هو الفراغ والبطالة والسفر إلى الخارج وأصدقاء السوء وذلك على التوالى.

● وأخيرا كشفت نتائج الدراسة عن وجود ارتباط بين إدمان الهيروبين ومخالفة القانون وارتكاب الجريمة، وإن كانت هذه النتيجة أوضح فى المجموعة السعودية، حيث أفاد بذلك ٦٣,٣٣٪ من المبحوثين السعوديين، فى حين أفاد بذلك ٥٦,٦٧٪ من المبحوثين المصريين، ولقد كانت أهم القضايا التى سجن بسببها بعض المبحوثين السعوديين هى تعاطى المخدرات والترويج لها، فى حين كانت أهم القضايا التى سجن بسببها بعض المبحوثين المصريين هى تعاطى المخدرات والنصب وتحرير شيكات بدون رصيد. ولعل هذه النتيجة تتمشى مع ما انتهت إليه الدراسة التى أجريت فى بلتيمور فى الولايات المتحدة على مجموعة من مدمنى الهيروبين. فلقد تبين من الدراسة أن الارتفاع فى معدلات ارتكاب الجرائم جاء مقترنا بتعاطى الهيروبين، فى حين أن انخفاض معدلات ارتكاب الجرائم كان مقترنا بالإقلاع عن تعاطى هذا المخدر، كما تتسق هذه النتيجة أيضا مع دراسة «عبد الكريم عثمان» على مجموعة من مدمنى الهيروبين المترددين على مستشفى الصحة النفسية بجدة، حيث

تبين أن ٣٥.٥ من مدمني هذا المخدر مدانون في ارتكاب أفعـال إجرامية مختلفة.

٥ - تحليل كيفي لتاريخ حياة حالة سعودية وأخـرى مصريـة من المبحوثين:

إذا كانت الدراسـة الراهنـة استندت إلى التحليـل الكمـى فـى تفسير الظاهرة، فإنها أيضا استندت إلى التحليل الكيفـى فـى التفسير كمستوى آخر من مستويات التحليل حيث أن ذلك من شـأنه أن يقدم فـهم أعمق لظاهرة إدمان الهيرويين في مجتمعى الدراسة، فضلا عن الإحاطـة بكافـة العمليات والظروف التى يتم مـن خلالهـا اكتسـاب خـبرة الإدمـان. ولقد تحقق ذلك من خلال دراسة تاريخ الحياة لحالة سعودية وأخرى مصرية.

● وفيما يتعلق بالحالة السعودية التى سيرمز لها بالحرف «م» فلقد اتضح من خلال تتبعنا لتـاريخ حياتـها. أن الأسـرة التـى كـانت تنحـدر منها. كانت تعاني من تصدع أسـرى مـادى تمثـل فـى طـلاق الأب لـلأم وزواجه بأخرى وإهماله للأسرة، ولعـل ذلـك يتسـق مـع نتـائج البيانـات الإحصائية للدراسة والتى كشفت عن انتشار التصدع الأسـرى المـادى فـى أغلب أسر المبحوثين السعوديين.

والواقع أنه بقدر ما أدى هذا التصدع المـادى الـذى أصـاب الأسـرة إلى غياب وظيفة الأب وعدم رعايته للحالة. فإنه من ناحية أخرى ساهم فى تبنى الأم. أسلوب تربوى خاطئ مع الحالة، تمثل فـى الحمايـة الزائـدة له. فضلا عن التدليل المرتبط بتلبية كافة رغباته. ولقد كان هذا الأسـلوب

التربوى الخاطئ من جانب الأم متفاعلا مع غياب دور الأب ورعايته، سببا فى جعل شخصية «م» تتسم بالضعف الشديد، وعدم النضج الانفعالى، فضلا عن أنه أصبح من السهل استهوائه واستقطابه من جانب الآخرين. نظرا لضعف خبراته حيث أن أغلبها محصور فى معاملاته مع والدته.

ولعل ذلك يتضح من خلال ما كشف عنه تتبعنا لتاريخ الحالة، حيث أنه كان فريسة سهلة للإيقاع والتقرير به من جانب أحد الأصدقاء، واستقطابه إلى تعاطى المخدرات، ثم جاء الفشل فى الزواج ليزيد من انغماسه فى تعاطى الهيروبين.

واستنادا إلى هذا التحليل لتاريخ الحالة «م» يمكن القول إذا جاز لنا أن نستعير رأى بنيامين وماسترز فى تفسير الانحراف، أن انغماس «م» فى إدمان الهيروبين وانحرافه يرجع إلى ثلاث عوامل هى العوامل المهيئة، وتتمثل فى التصدع الأسرى بحدوث الطلاق بين الوالدين، فضلا عن أسلوب التربية الخاطئ من جانب الأم والمتمثل فى الحماية الزائدة، والعوامل الدافعة وتتمثل فى الفشل فى الزواج والاختلاط المستمر بالمدمنين ومجتمع الإدمان وأخيرا ينطوى فى فئة العوامل الجاذبة المتعةِ والنشوة التى يحدثها المخدر.

● أما الحالة المصرية والتى يرمز لها بالحرف «س» فلقد اتضح من خلال تتبع تاريخ حياتها، أنها تنحدر من أسرة تعانى من التصدع المعنوى، المتمثل فى تسلط الأب وشجاره الدائم، حيث كان لذلك تأثيره السيئ على النمو النفسى والاجتماعى للأبناء، فضلا عن اضطراب

العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة. والواقع أن هذه النتيجة التى كشفت عنها تاريخ حياة الحالة تتفق أيضا مع ما أسفرت عنه نتائج البيانات الإحصائية، والتى أظهرت أن أغلب المبحوثين المصريين ينحدرون من أسر تعانى من تصدع معنوى أو سيكولوجى.

ونتيجة هذا الأسلوب التسلطى من جانب الأب، جاءت شخصية الحالة تتسم بفقدان الثقة فى الذات، فضلا عن عدم شعوره بالأمن النفسى داخل المنزل، ومن ثم بدأ يبحث عنه خارجه، من خلال زملاء الدراسة، والذين كان يهرب معهم من المدرسة للتسكع فى الشوارع ودخول السينما.

ويعتبر هذا التصدع الأسرى المعنوى، وتأثيره السلبى على السمات الشخصية للحالة، بمثابة الثغرة التى ساهمت فى دخول الحالة إلى عالم المخدرات من خلال الأصدقاء، ثم جاء تعاطى المخدرات وخاصة الهيروين، ليصيب شخصية الحالة باضطراب فى السلوك، مما أدى إلى سلسلة من الفشل فى الزواج، فكان ذلك دافعا إلى مزيد من التعاطى، كمحاولة للتغلب على الاحباطات الناتجة عن الفشل فى الزواج، ويسمى هذا بالتفسير الدائرى.

وأخيرا يأتى أخطر وأهم العوامل المؤثرة فى تمادى الحالة فى الإدمان واعطائها الشرعية لممارسة هذا السلوك، ويتمثل ذلك فى تدعيم الأب للسلوك الإدمانى، حيث تحقق هذا من خلال تشجيعه على تعاطى الحشيش معه، وبذلك فتح الطريق أمامه لدخول عالم إدمان الهيروين «أخطر أنواع المخدرات من خلال أحد الأصدقاء».

على أنه مما يلفت النظر من خلال تتبع تاريخ الحياة للحالة المصرية، ما أشارت إليه الحالة عن مسئولية الهيروييين عن إصابتها بحالة من الضعف الجنسي، وهذه نتيجة هامة تعكس مدى خطورة الأضرار التى تنجم عن تعاطي هذا المخدر، ولعل ذلك يتفق مع العديد من الدراسات الطبية التى كشفت عن أن المورفين وهو أحد المكونات الأساسية للهيروييين يسبب نقصا فى إفراز الهومونات المنمية للغدد التناسلية والتى تفرزها الغدة النخامية.

والواقع أنه إذا ما حاولنا فى ضوء التحليل الكيفى لهاتين الحالتين اللتين تم عرضهما، التعرف على أكثر المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بإدمان الهيروييين في المجتمع السعودى والمجتمع المصرى، فضلا عن كيفية اكتساب سلوك التعاطى، فسنلاحظ أنه فى حين كان التصدع الأسرى المادى المتمثل فى الطلاق والهجر وتعدد مرات زواج أحد الوالدين، فضلا عن الرعاية والاهتمام الزائد كأسلوب تربوى خاطئ، تعتبر من أكثر المتغيرات الاجتماعية ارتباطا بإدمان الهيروييين فى المجتمع السعودى، بينما نجد أن التصدع الأسرى المعنوى المتمثل فى اضطراب العلاقات الاجتماعية، وكثرة الخلافات والمشاحنات داخل الأسرة، فضلا عن التسلط والقسوة كأسلوب تربوى خاطئ من جانب أحد الوالدين وخاصة الأب، تعتبر من أكثر المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بإدمان الهيروييين فى المجتمع المصرى.

كما يشير التحليل الكيفى لهاتين الحالتين، أن كلا من المجتمع السعودى والمصرى يشتركان فى خاصية هامة وهى أن اكتساب المبحوثين

لعملية تعاطى وإدمان المخدرات وكافة الخبرات المرتبطة بهذه العملية كانت تتم من خلال الأصدقاء.

ثانيا: رؤية تحليلية:

هناك حقيقة هامة وأساسية ومستقرة في تراث علم الاجتماع المعاصر. وهي أنه لا يستطيع أى إنسان أن يفلت من تأثير المجتمع الذى ينشأ فيه سواء على تكوينه أو نموه أو أفكاره أو اتجاهاته أو خصائصه أو سلوكه.

واستنادا إلى هذه الحقيقة يمكن القول إن إدمان أى مخدر في أى مجتمع حين يأتيه عدد قليل من أفراده، يختلف من الناحية الاجتماعية، عما يكون منتشرا بين طبقات أو قطاعات عريضة في المجتمع. ففي الحالة الأولى يمكن فهم هذا السلوك عن طريق البحث عن الظروف النفسية والاجتماعية المباشرة لمجموعة الأفراد الذين يقترفون هذا السلوك. أما في الحالة الثانية، فإن فهم هذه الظاهرة لا يتأتى إلا بتحليل البناء الاجتماعى بأسره للتعرف على ما به من خصائص نوعية تشجع على انتشار هذه الظاهرة أو تخلق الظروف المشجعة على انتشارها.

والواقع أنه إذا ما حاولت الدراسة الراهنة التعرف على مدى انطباق هذه الرؤية على ظاهرة إدمان الهيروبيين في المجتمع السعودى والمصرى، لأمكن القول أن هذه الظاهرة تنتشر بين قطاعات عريضة من الشباب في المجتمعين، وذلك استنادا إلى العديد من الإحصاءات والبحوث التى

تعكس ذلك. هذا فضلا عن ملاحظة الباحث لانتشار هذه الظاهرة من خلال معايشته لمجتمعى الدراسة.

ففيما يتعلق بالمجتمع السعودى، كان هذا المجتمع مغلقا حتى وقت قريب نسبيا، وفى فترة وجيزة ومع ظهور البترول، أصبح منفتحا على العالم بصورة لا سوابق كثيرة لها فى تاريخ المجتمعات النامية، كما شهد طفرة سريعة فى النمو، وذلك على عكس كثير من المجتمعات الأخرى التى تتخذ المسار النمائى المتدرج.

ولقد صاحب هذا التغير السريع وفرة الأموال لدى أبناء هذا المجتمع بشكل ملحوظ، وسيادة نزعات واتجاهات مادية واستهلاكية جديدة، فضلا عن ظهور أفكار وقيم اجتماعية مستحدثة مرتبطة بهذا التغير. وذلك بفعل ما تعرض له هذا المجتمع من ثقافات عالمية مختلفة سواء من خلال إسراف أبنائه فى السفر إلى خارج المملكة، أو من خلال وسائل الإعلام والفيديو والدش ومشاهدة الأفلام الأجنبية المليئة بالإثارة والعنف والإدمان أو نتيجة موجات هجرة العمالة الأجنبية لهذا المجتمع من مختلف مناطق العالم للمساهمة فى تحديثه، خاصة مجتمعات شرق آسيا وأوربا بالغربية وأمريكا، حيث ترتب على ذلك غزو ثقافات هذه المجتمعات وعاداتها وتقاليدها وقيمها للمجتمع السعودى، والتى قد يتنافى بعضها مع القيم الأخلاقية والدينية لهذا المجتمع.

والواقع أن تلك التغيرات المفاجئة التى تعرض لها النظام الاجتماعى فى المجتمع السعودى، أدت إلى حالة من اللامعيارية كما يقرر «دور

كايم» وهذه الحالة من الاضطراب المعيارى تنجم عن أى خلل فى التوازن سواء كان هذا الخلل مؤديا إلى نتائج إيجابية أو نتائج سلبية.

وعلى ذلك فالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المفاجئة والسريعة التى شهدها المجتمع السعودى نتيجة ظهور البترول والطفرة المادية، لم يكن أبناء هذا المجتمع مهيئين لاستيعابها. حيث كان رصيدها من التعليم والوعى الثقافى بسيط. وذلك كما أوضحت نتائج الدراسة – ومن ثم حدث لهم نوع من الاضطراب الاجتماعى والتفكك فى العلاقات وعدم التوافق الذى يؤدى إلى اللامعيارية، والتى يعتبر إدمان المخدرات أحد مظاهرها وخاصة إدمان الهيروين.

والواقع أنه إذا كان المجتمع السعودى من خلال التحليل السالف لبنائه الاجتماعى وما شهده من تغيرات، مهيأ لانتشار ظاهرة إدمان المخدرات، فإن هناك اعتبارات خارجية ساهمت فى تصعيد هذه الظاهرة، وهى أن هذا المجتمع نظرا لما فيه من ثروة مادية ونفطية، فهو مستهدف من العصابات المنظمة لتجارة المخدرات وإسرائيل لابتزاز هذه الثروة من ناحية، وتعويق تنمية وتقدم هذا المجتمع، وتدمير شبابه من ناحية أخرى.

وأما الوضع فى مصر: فلم يختلف كثيرا عما حدث فى المجتمع السعودى من حيث المضمون. فالمجتمع المصرى، انتشر فيه إدمان الهيروين بصورة وباثية فى العشرينات من هذا القرن، تحت وطأة الاحتلال الإنجليزى، لكن بسبب القوانين المغلظة للعقوبة، وجهود

المكافحة، اختفى تعاطى الهيروبين وإن كان قد ظهر، تعاطى أنواع أخرى من المخدرات أقل خطر كالحشيش.

إلا أن تعاطى الهيروبين عاود الانتشار مرة أخرى فى أواخر السبعينيات وبلغ أقصاه فى نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات. وإذا ما حاولنا تفسير ذلك فى إطار البناء الاجتماعى العام للمجتمع المصرى، يمكن القول إن مصر عاشت خلال حقبة الستينيات فترة من الانغلاق، وكان التوجه الأيديولوجي للدولة فى ذلك الوقت هو التوجه الاشتراكى وهيمنة الدولة على قدرات الاقتصادية، ومن ثم سيادة القيم الاشتراكية، إلا أنه مع حدوث نكسة ١٩٦٧، وبداية تولى الرئيس السادات عام ١٩٧١، وتبنيه ما يسمى بسياسة الانفتاح وتدفق رؤوس الأموال من عائدات البترول وتحويلات العاملين فى الخارج، حدث تحول مفاجئ من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فتحول المجتمع من القيم الاشتراكية إلى القيم الرأسمالية، ولكل بشكل مشوه، حيث ظهرت شرائح اجتماعية جديدة نتيجة المضاربات فى السوق والأراضى العقارية والرشوة والاختلاسات والبيروقراطية، وحققت ثروات كبيرة من هذه الأنشطة الاقتصادية التى نتجت عن التطبيق الخاطئ لسياسة الانفتاح.

وبذلك يمكن القول أن هذه التغيرات المفاجئة التى شهدها المجتمع المصرى والتحول من النقيض إلى النقيض، خلق حالة من لامعيارية «دور كايم»، فما كان من قيم ومفاهيم وشعارات محل تقدير بالأمس، أصبح لا يحظى بذلك اليوم، بل أحيانا ما يجرم. أضف إلى ذلك أنه إذا كان معظم فئات المجتمع المصرى فى ظل حقبة التوجه الأيديولوجى

الاشتراكي، تعيش في مستوى متجانس من الناحية الاقتصادية والاجتماعية. فمن الملاحظ أنه مع التحول الرأسمالي المفاجئ والطفرة المادية، ظهرت شرائح اجتماعية جديدة تمتلك جزءا كبيرا من الثروة. وفي نفس الوقت حاولت تبني القيم الرأسمالية ولكن بشكل مشوه. ودون أن تمتلك من المهارات والقدرات التعليمية والثقافية ما يؤهلها لذلك كالحرفين وبعض التجار - خاصة أن الدراسة الراهنة أظهرت أن هناك نسبة ملحوظة من المبحوثين من هذه الفئات - فلم تعد قيم التعلم والإجادة في العمل هي القيم التي على أساسها يحتل الفرد المكانة المتقدمة في المجتمع. بل أصبحت قيم الكسب السريع والمظهرية هي القيم التي تحدد مكانة الفرد في المجتمع. لذلك حدث نوع من التفكك في العلاقات واللامعيارية في القيم. والتي تجسدت في صور مختلفة من السلوك الانحرافي ويعتبر إدمان الهيروبين أحد صورها.

وأيضا إذا كانت هذه التغيرات السريعة التي أصابت البناء الاجتماعي للمجتمع المصري. كان لها دورها في انتشار ظاهرة إدمان المخدرات. وخاصة أخطرها المتمثل في الهيروبين. فإن هناك اعتبارات خارجية أيضا. فنظرا لأهمية مصر الاستراتيجية وثقلها الحضاري والسياسي الإقليمي، فهي مستهدفة من بعض القوى الاستعمارية الرأسمالية وإسرائيل، لتعويق تقدمها وتعطيل مسيرة تنميتها، وتعتبر المخدرات - خاصة الهيروبين أخطر أنواعها - أحد أدوات وأسلحة هذه الدول في تحقيق ذلك الهدف.

المراجع

١ - زين العابدين درويش وآخرون، علم النفس الاجتماعى، أسسه وتطبيقاته قسم علم النفس، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

٢ - روى روبرتسون، الهيروويين والإيدز وأثرهما فى المجتمع، ترجمة يوسف ميخائيل أسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩. ص ٥.

٣ - فاروق عبد السلام، سيكولوجية الإدمان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٠.

٤ - محمد على البار، المخدرات، الخطر الداهم، الأفيون ومشتقاته، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠، ص ١٢.

٥ - أنواع المخدرات وخطورتها فى الدول العربية، دراسة أجراها المكتب العربى لشئون المخدرات - جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٩٤، ص ١٥.

٦ - سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.

٧ - سامية محمد جابر، القانون والضوابط الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٣٩٨.

٨ - مصطفى عبد المجيد كاره. مقدمة فى الانحراف الاجتماعى. معهد الإنماء العربى. بيروت. ١٩٨٥. ص ٨٣ - ٨٤.

٩ - سعد الدين إبراهيم. علم الاجتماع الأمريكى بين التواطؤ والثورة. مركز التخطيط الفلسطيني. بيروت. ١٩٨٣، ص ٢٢.

١٠ - صلاح عبد المتعال. التغير الاجتماعى والجريمة فى المجتمعات العربية. مكتبة وهبة. القاهرة. ١٩٨٨، ص ١٧٥.

١١ - عبد الرؤوف ثابت. مفهوم الطب النفسى، مطابع الأهرام، القاهرة، ١٩٩٣. ص ٣٥٣.

١٢ - صلاح عبد المتعال، التغير الاجتماعى والجريمة فى المجتمعات العربية، مرجع سابق، ص ١٧٥.

١٣ - سعد المغربى، ظاهرة تعاطي الحشيش، دراسة نفسية اجتماعية، دار الراتب الجامعية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٠٦.

١٤ - حمد المرزوقى وآخرون، إدمان المخدرات فى المجتمع العربى السعودى، البحث الميدانى الثاني. المجلس الدولى لشئون الكحول والإدمان، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١١.

١٥ - نعيم الرفاعى، الصحة النفسية، دراسة فى سيكولوجية التكيف. جامعة دمشق، ١٩٩٠، ص ٣٤٤.

١٦ - محمد شكرى عبود، تفاقم مشكلة المخدرات فى مصر، مجلة منبر الشرق، العدد ١٤، المركز العربى للدراسات، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٢٢.

١٧ - فكرى أحمد عكاز، الخمر فى الفقه الإسلامى، مكتبات عكاز للنشر، جدة، ١٩٩٢، ص ١٧٢.

١٨ - محمد عبد المقصود، المخدرات بين الوهم والتدمير، الهيئة المصرية العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٢.

١٩ - عادل الدمرداش، الإدمان، مظاهره وعلاجه، كتاب عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٢، ص١٠.

٢٠ - فؤاد البسيونى، ظاهرة انتشار وإدمان المخدرات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٦.

٢١ - محمود السيد أبو النيل، الإحصاء النفسى والاجتماعى، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٩٠ - ١٩٤.

٢٢ - سمير نعيم، الدراسة العلمية للسلوك الإجرامى، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣١٧.

٢٣ - مصطفى سويف، المخدرات والمجتمع، نظرة تكاملية، كتاب عالم المعرفة. المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٦،ص ٨٣.

٢٤ - محمد عارف، الجريمة في المجتمع، نقد منهجي لتفسير السلوك الإجرامى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٥٤.

٢٥ - سامى عبد القوى، وإيمان صبرى. سوء استخدام المواد المتطايرة لدى الأطفال، دراسة نفسية اجتماعية استطلاعية، مجلة علم

النفس العدد ٤٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧. ص ١١٢ - ١١٣.

٢٦ - سلوى على سليم. الإسلام والمخدرات. دراسة سيكولوجية لأثر التغير الاجتماعى على تعاطى الشباب للمخدرات. مكتبة وهبة. القاهرة، ١٩٩٠. ص ١٥٧ - ١٥٨.

٢٧ - سامية حسن الساعاتى، الجريمة والمجتمع. بحوث فى عالم الاجتماع الجنائى. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، ١٩٨٢. ص١٣٢.

٢٨ - فريال الشهاوى، ظاهرة انتشار الإدمان فى المجتمع المصرى ودور الإذاعة والتليفزيون فى التصدى لهذه الظاهرة، مجلة الفن الإذاعى العدد ١٤٨، معهد الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، ١٩٩٧، ص-٨٤.

٢٩ - صلاح عبد المتعال، مستقبل التنمية، نحو بديل حضارى إسلامى. دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

٣٠ - مصطفى سويف وآخرون. تعاطى المواد المؤثرة فى الأعصاب بين طلاب الجامعات المصرية دراسات ميدانية فى الواقع المصرى، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٩٥. ص٢١٩.

٣١ - تقرير إساءة استعمال العقاقير المخدرة، مداها وأنماطها واتجاهاتها، الأمم المتحدة، المجلس الاقتصادى الاجتماعى، لجنة المخدرات،

الـدورة الرابعـة والثلاثـــون، فينـــا ، ٣٠ ينـــاير – ٨ فـــبراير، ١٩٩١ . ص٢٤ – ٢٥.

٣٢ – عبد الوهاب العشـماوى، نحـو القضـاء علـى المخـدرات وإدمانـها ، مجلـة تنميـة المجتمـع ، دار نوبـــار للطباعـــة ، القـاهرة، ١٩٨٨ ، ص ٢٣٩.

٣٣ – البرنامج العلاجى بمستشفى الأمل بجـدة مـن منشـورات مستشـفى الأمل عام ١٩٩٤، ص ١ – ٢.

٣٤ – دار الاستشـفاء للصحـة النفسـية – حقـائق وأرقـام عـام ١٩٧٥ – ١٩٧٦ ، من منشورات وزارة الصحة ، محافظة القاهرة عـام ١٩٧٦ ، ص ١١.

1 - Rebecca S-chilit, drugs and Behaviour, sage publications, London, 1991. P. 10-11.

2 - Robert Merton, Social theory x social structure, free press glencoe, 1967, p. 131.

3 - Michael R. Jacobs and Others, Drugs and drug A-buse, Toronto, 1989, pp. 30-31.

4 - Marce A. Schuckit, Drug and Alcohol Abuse, plenum medical book company, New York, 1990, p. 4.

5 - Marce A. Schuckit, op. cit., p. 4.

6 - Joce H. Lowinson and Others, substance abuse, A comprehensive textbook, Williams X wilkings, London, 1992, p. 39.

7 - Rebecca S-chilit, op.cit., pp. 123-124.

8 - Joce H. Lowinson and Others, op. - cit., p. 39.

9 - Ibid., p. 40.

10 - Rebecca S-chilit, op. cit., p. 125.

11 - Ibid., p. 127.

12 - Rebecca S-chilit, op. cit., p. 136.

العدد القادم	الوطنية فى مواجهة العولمة دكتور محمد رؤف حامد

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٣٣٣٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5884-9

١/٩٩/٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



تعتبر مشكلة تعاطى المخدرات من أخطر المشكلات التى تجتاح أغلب مجتمعات العالم، خاصة مجتمعنا العربى. وتكمن خطورة هذه المشكلة فى أنها الأكثر شيوعاً بين قطاعات الشباب والمراهقين وهم ذخيرة الأمة وأمل المستقبل.

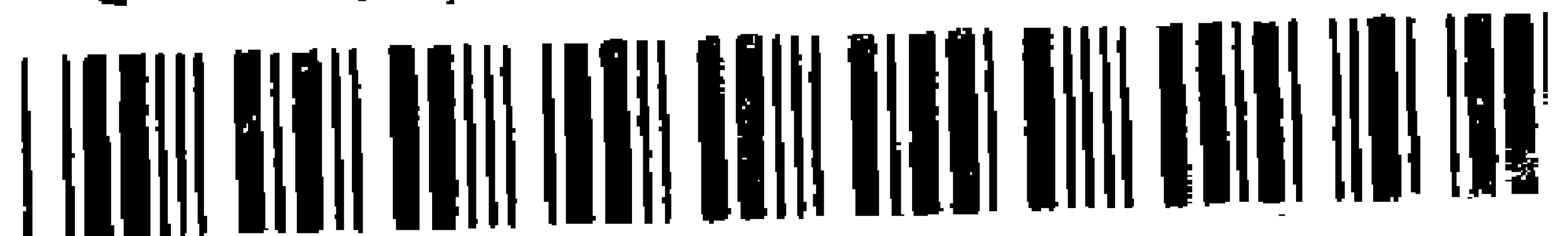
وبسبب مشكلة تعاطى المخدرات تتكلف الدولة المليارات لمواجهة مهربى المخدرات ومروجيها من جهة، ولعلاج المدمنين ورعايتهم الصحية من جهة أخرى.

وبدافع من الانتماء الوطنى والقومى ومن أجل تكوين رأى عام مستنير حول هذا الموضوع، تنشر اقرأ هذه الدراسة الجادة التى توضح فى جلاء كل أبعاد هذه الكارثة.



دار المعارف

٤٠٧٠٤٥/٠١

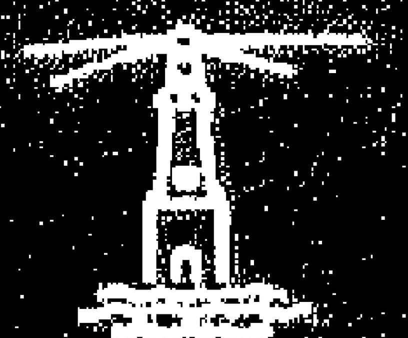


اقرأ

لسلة ثقافية شهرية
صدر عن دار المعارف

دكتور محمد رؤوف حامد

الوطنية فى مواجهة العولمة



دارالمعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
صدر عن دار المعارف

[٦٤٧]

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

دكتور محمد رؤوف حامد

الوطنية
فى مواجهة العولمة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الإهداء

- إلى ذكرى شـهداء الوطن فى حـروب ٤٨ و ٥٦ و٦٧ والاسـتنزاف و١٩٧٣ .. ،
- وإلى المؤمنين فكرا وفعلا بأن فى عظـم شأن وهيبـة الوطـن المدخـل الرئيسـى للتفـاعل الأمثل مع المتغـيرات العالميـة ، فى كل وقت وفى أى مجال .. ،
- إلى أمـــى . . .
- وإلى «سلوى» .. زوجتى .

مُقَدِّمَة

يعتمد علـو أى بناء على قدر قوة ومتانة الأساس تحت الأرض . وبالمثل، إذا كان لشئون بعض الدول والمؤسسات ازدهار على المستوى العالمى، فإن هذا الازدهار لم يكن ليقوم ويتزايد، ولا يمكن أن يستمر ويتواصل دون أساس متين يتمثل فى قوة الوطن (أو فى القوة التى فى الوطن) .

ما نود أن نقول إذن هو أن ازدهار الدول والمؤسسات فى زمن العولمة هو امتداد لتقدم منظومة الوطن، وبالتالى فإن قدر الإنجاز فى التنافسية العالمية ، وقدر التواصل الإيجابى مع الآخرين على المستوى العالمى، يعتمدا على مدى وجود ركيزة صحيحة يستندا عليها عند ممارسة القفز إلى الهدف المطلوب (أو الممكن) فى البيئة العالمية . وبدون الركيزة المناسبة من قوة الوطن فإن التفاعل على المستوى العالمى (سواء فى أطر العولمة أو من منظور العالمية) لا يكون صحيحا ، ولا يتم بالأبعاد المناسبة .

وهكذا، يمكن القول أن نجاح مصر الدولة والشعب والمؤسسات (وكذلك نجاح الدول النامية بوجه عام) فى التفاعل مع المتغيرات العالمية (والتى توصف بعض أوجهها الحالية بالعولمة) يعتمد على صحة وقوة منظومة الوطن . إن هذا الاعتبار هو الذى قادنا إلى طرح مفهوم (الوطننة) كمدخل لمصر وللدول النامية للقرن الـ ٢١ (الباب

الأول) ، مؤكدين الحاجة إلى فكر عالم - ثالثى يبزغ من خلال خصوصياتنا فى الخلفيات والحاجات والإمكانيات والأهداف .

هذا ، ويتطلب البناء الوطنى الصحيح فى ظل تحديات البيئة العالمية المحيطة الانتباه إلى إدارة الإبداع الوطنى (الباب الثانى)، وكذلك الوعى النقدى بدور النخبة (الباب الثالث). وإذا كان الوطن هو أساس لقوة تفاعل الدولة ومؤسساتها فى البيئة العالمية، فإن القوة الوطنية فى العلم والتكنولوجيا هى الأساس فى قوة وتقدم الوطن (الباب الرابع) .

إن للتقدم متطلبات ومقتضيات منظومية تتضح أسسها فى إدارة الإبداع الوطنى، وفى نقد النخبة، وفى العلم والتكنولوجيا، وهو الأمر الذى ينعكس استيعابه على تقدم الوطن ككل، وتقدم كل منظوماته (أو مؤسساته ووحداته). إنها أمور تنطبق على كل أنماط ومجالات الحياة الإنسانية داخل الوطن، وعلى امتداداتها وتفاعلاتها على المستوى العالمى، وهذا هو ما يمكن ملاحظته فى الباب الخامس والأخير من هذا الكتاب، والذى قصدنا فيه أن نشير إلى نموذج وطنى (س) ونناقش أوضاعه وتفاعلاته مع المتغيرات العالمية .

وجدير بالذكر أن فصول الكتاب ترتكز على رؤى وأطروحات أساسية قدمناها فى محاضرات أو دراسات أو مقالات من خلال منابر مصرية عديدة .

وهنا ننهى هذه المقدمة ونترك القارئ للتفاعل مع «الوطننة» عبر الأبواب الخمسة حيث لنا لقاء بعد ذلك فى «الخاتمة» ، إن شاء الله .

م . س . حامد

الباب الأول

«الوطننة» .. مدخلنا للقرن الـ ٢١

فى تقديرنا المسافة شاسعة بين «العولمة» و «الكوكبية» ، ففى الإطار العولى يجرى تشبيك العالم وتحويله إلى قرية صغيرة بفعل وزن كبير لأصحاب القوة والسيطرة العالمية (الدول الكبرى والشركات متعددة أو متعدية الجنسية) ، ومن أجل مصالحهم هم على وجه الخصوص. وأما فى الإطار الكوكبى تكون الجماعية الدولية متأثرة (بـ) وموجهة (لـ) شعوب الكوكب فى أجزائه المختلفة ، من منظور فيه مساواة وعدل ونفس الاعتبارات القيمية للجميع ، أكثر مما فيه من سيطرة وهيمنة وممارسات غير شرعية للأقوى . إن العولمة جنوح إلى أفعال وافتعالات ناتجة عن مصالح لفئات عالمية محدودة ، وأما الكوكبة فهى التوجه إلى أخلاقيات عالمية ترتبط بمصالح البشر والأرض ككل، ومن منظور إنسانى محض . وهكذا تكون المسافة شاسعة بين العولمة والكوكبية، ويظل هناك الكثير عما يمكن وينبغى تحقيقه فكريا وسياسيا واقتصاديا وتكنولوجيا لعبور هذه المسافة . وهذا هو ما تقصد إليه الأجزاء التالية :

١ - الإنسان المصرى .

٢ - قوة دفع وطنى .. للتعامل مع العولمة .

٣ - «الوطننة» طريق رئيس للتفاعل مع العولمة .

(١)
الإنسان المصرى

فى مصر ميزة نسبية عظيمة هى الناس ، البشر بما لديهم من خبرات وقدرات ذاتية وبعد حضارى ، هذه الميزة النسبية هى السبب الكامن وراء ظاهرة تفوق الإنسان المصرى فى الخارج ، وهى السبب وراء الإعجاز المصرى فى مواجهة التحديات الحادة، مثلما حدث فى بناء السد العالى وفى انتصار أكتوبر العظيم .. وهى أيضا السبب فى استمرارية تقدم الحياة على أرض مصر عبر آلاف السنين فى استيعاب وتكيف إيجابيين رغم تبدلات الزمن . كان ذلك كله فى الماضى قبل قدوم الكوكبية (العولمة) والتى صارت فيها الكرة الأرضية . بفعل العلم والتكنولوجيا – قرية صغيرة تتلاشى فيها المسافات وتنعدم آثار فروق التوقيت وتتحرر التجارة وتتوحد البيئة . الآن فى مناخ العولمة هذا ، لم يعد وجود ميزة نسبية أمرا كافيا ، فالعالم قد صار صغيرا .. وسيكون أصغر وأصغر بفعل تطورات الاتصال والمنافسة الناجمين عن العلم والتكنولوجيا . وكلما انكمش العالم ازدادت التنافسية ، وبالتالى تظل الميزات النسبية بدون قيمة إن لم تتحول إلى ميزات تنافسية .

وهكذا ، نحن بحاجة إلى تعظيم فاعلية المخزون الوطنى من الميزة النسبية البشرية بحيث يتحول هذا المخزون إلى (قدرات) تنافسية متمكنة . باستمرار – من التعامل مع متطلبات وتحديات التقدم فى إطار العولمة .

نحن إذن بحاجة إلى عمليات استكشاف وتفعيل وتطوير أمثل فى الميزة النسبية البشرية فى مصر ، وهناك – فى تقديرنا – شروط رئيسية لهذه العمليات يمكن إيجازها فيما يلى :

١ – الاعتماد على طبيعة العصر وهى (المعرفة) بحيث تقوم عمليات الاستكشاف والتفعيل والتطوير على الآليات الجديدة التى توصلت إليها المعرفة الإنسانية بشأن التغيير. ومن أهم هذه الآليات (التعامل المنظومى) القائم على المنهج العلمى وبحوث العمليات وأساليب الإدارة الحديثة (الإدارة الإستراتيجية – إدارة الجودة الكلية – إدارة الإبداع المجتمعى) .

٢ – أن تتم عمليات الاستكشاف والتفعيل والتطوير من خلال احلال قيم أصيلة (مثل احترام الآخر واستحسان التنوع والالتزام بالموضوعية .. الخ) مكان قيم مرضية (مثل التملق والواسطة والشللية والعنف .. الخ) .

٣ – أن تعتنى هذه العمليات بأن يحدث التطوير أو التغيير إلى الأفضل من (داخل) الإنسان (موضوع الميزة النسبية) وليس من خلال مجرد المحاكاة أو التبعية فى الأداء والتفكير لجديد يحدث على مستوى العالم . هنا يحتاج الأمر لجهود إبداعية مكثفة من الباحثين والقيادات فى علوم ومجالات النفس والاجتماع والإدارة والسلوكيات والتربية والفنون واللغات .

٤ - أن يكون هدف هذه العمليات هو إحداث (تقدم أسى)[1] وذلك بمعنى أن تتصاعد الانجازات أسيا بالنسبة لمرور الزمن أو بالنسبة لحجم المدخلات من جهد وتكلفة . ولابد من إدراك أن (التقدم الأسى) هو السبيل الوحيد لتخطى الفجوة المتزايدة بمرور الزمن بين المتقدمين والمتأخرين عنهم .

إن تحويل الفجوة البشرية فى مصر من ميزة نسبية إلى ميزة تنافسية هو عمل إبداعى قومى يمثل الطريق إلى تحولات نوعية فى حياتنا .. تحولات ضرورية لا غنى عنها ، تماما كتحول المغناطيسية إلى حركة أو تحول الكهرباء إلى ضوء .

---

(١) عن (التقدم الأسى) يمكن للقارىء الرجوع إلى تفاصيل مذكورة فى كتابات نشرت لنا فى وقت سابق ، وهى كالتالى :

– (التقدم الأسى) ، الفصل (٨) فى كتاب : (الثورة التكنولوجية وخيارات مصر فى القرن الـ ٢١) – تحرير : د . محمد السيد سعيد – مركز الدراسات السياسية والاستيراتيجية – الأهرام – ١٩٩٦ .

– إدارة المعرفة : رؤية مستقبلية – سلسلة اقرأ – كتاب رقم ٦٣٧ – ١٩٩٨ .

– التقدم الأسى : إدارة العبور من التخلف إلى التقدم – سلسلة كراسات مستقبلية – المكتبة الأكاديمية ، القاهرة – ١٩٩٨ .

(٢)

قـوة دفـع وطـنى .. للتعامل مع «العولمة»

نشر الأهرام دراسة على حلقات بعنوان «الشرق الأوسط فى عالم اليوم» للدكتور حازم الببلاوى (١٦ و ٢٣ و ٣٠ أغسطس ١٩٩٥)، وقد لاحظنا أن بعض المفاهيم التى باتت ذائعة الاستعمال ووردت فى الدراسة في حاجة إلى تدقيق، ومنها مفهوم (ترابط واندماج) العالم حاليا .. وفي هذا الخصوص نشر لنا (قوة دفع وطنى .. للتعامل مع العولمة) في أهرام ٢٠ سبتمبر ١٩٩٥، حيث ركزنا على مسألة التناقض بين السياسات الوطنية وطبيعة (العولمة) وهو الأمر الذى يستوجب - في رأينا - تجنب محاولات إزالة التناقض على حساب مواءمة وأقلمة الكيانات الوطنية ، وهو خلل هناك حاجة للتوصل إلى آليات لتصحيحه . ومؤخرا بدأت بعض القيادات السياسية والفكرية فى البلدان النامية الإشارة إلى التناقضات بين المصالح الوطنية والعولمة ، وهو الأمر الذى يدفع إلى إعادة عرض هذا المقال .

الدراسة المهمة (حول الشرق الأوسط فى عالم اليوم) للدكتور حازم الببلاوى، تمثل رؤية تاريخية ومستقبلية شاملة للمتغيرات العالمية وانعكاساتها على التنمية (وخاصة فى المنطقة العربية) وفى تقديرى أن ارتفاع شأن هذه الدراسة والأهمية القصوى لموضوعها يحثان على تقديم

رؤى نقدية بشأن الموضوع المثار، وفى هذا الخصوص أعرض بإيجاز شديد لما يلى :

١ - أن هناك عددا من المفاهيم عن الأوضاع العالمية تبث وتنشر بتلقائية وبسرعة تحتاج إلى تدقيق كبير يسهم فى توعية الدول الصغرى والشعوب الأفقر فى هذا العالم . ومن هذه المفاهيم ما ورد فى الدراسة من الاقرار بأن (العالم حاليا أكثر ترابطا واندماجا) وفى تقديرنا أن الترابط والاندماج كصفتين ، هما أبعد ما يمكن أن يوصف بهما العالم فى الوقت الحالى ، ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار المعنى الوظيفى للصفتين .. أما ما يبدو على السطح من ترابط واندماج ، فهو أمر شكلى قصرى حيث يقوم على أساسين رئيسيين :

أولهما تقنى، ونعنى به تطور الاتصالات، وثانيهما ممارسات تسلطية حاكمة فاعلة من الأقوياء فى هذا العالم (دول أو مؤسسات أوشركات). وإذا كانت ثورة الاتصالات قد أدت – كما يشير د . الببلاوى وغيره من المفكرين – إلى ثورة مالية تقفز فيها الأموال عبر الحدود السياسية، فإن ذلك يتم فى إطار توجهات ومصالح القوى العالمية الكبرى، وليس فى اتجاه دمج أو ترابط وظيفى عالمى يرعى مصالح الجميع ومنهم الأصغر والأفقر فى هذا العالم[١]. وهنا يجب ألا ننسى أن قفز الأموال عبر الحدود السياسية عن طريق ثورة الاتصالات لا يصاحبه استخدام آليات هذه الثورة فى نقل المعارف التكنولوجية إلى الدول الصغرى.

---

(١) ربما يؤكد صحة هذا الرأى حدوث الأزمة المالية فى جنوب شرق آسيا، والتى بزغت بعد عامين من كتابة هذا المقال.

ويجب أيضا ألا ننسى أن جزءا كبيرا من التباين الشاذ فى موقف قوى العولمة والمنظمات الدولية من حربى الخليج والبوسنة ، يعود إلى المصالح المباشرة لهذه القوى دون الاعتبار المناسب لأبعاد الترابط العالمى . ناهيك عن آليات ذات أبعاد ضمنية انقضاضية حادة مثل التشاركية وبنوك التنمية الاقليمية .. الخ .

٢ - إن ما ألح إليه د . الببلاوى من (تناقض بين السياسات الوطنية من جهة وطبيعة العولمة من جهة أخرى) هو أمر فى غاية الأهمية والحرج يستوجب في تقديرنا التوسع والتعميق فى مناقشته مع الأخذ فى الاعتبار لما يلى :

(أ) تجنب محاولات إزالة التناقض - فقط - على حساب التواؤم والتأقلم من جانب الكيانات الوطنية تجاه طبيعة العولمة حيث يمثل ذلك تطبيقا شرسا لسلوكيات تسلطية من الأقوى تجاه الأضعف .

(ب) الانتباه لما يمكن وصفه بظاهرة تردى وضعف التوجهات الدولية (من خلال الأمم المتحدة ومنظماتها والمنظمات الأخرى) فى تنمية شعوب العالم الثالث مع ضرورة التحديد الفكرى الموضوعى لمسئولية جميع الأطراف في هذا الخصوص . وفى المقابل من المطلوب التوصل إلى توصيف فكرى علمى برجماتى للآليات الممكنة لتصحيح هذا الخلل عن طريق كل من دول العالم الثالث والمنظمات الدولية ووسائل العولمة ذاتها .

(جـ) ضرورة التوقف فكريا وفلسفيا أمام ظاهرة التقلص المتدرج لدور الدولة فى الدول النامية . حيث يصعب (بل يستحيل) على توابع العولمة من مؤسسات وأشخاص وعلاقات ومصالح، أن تقدر على توجيه دفة التنمية الوطنية بغير (ضبط) وطنى يقوم على سياسات وطنية ترعاها

الدولة. وإلا تركت شعوب الدول النامية تحت رحمة ظاهرة لم تكتمل وهي العولمة (ولم تثبت إيجابياتها الكوكبية بعد). وأيضا تحت رحمة المحللين من أصحاب المصالح في العولمة .

٣ - إن شعوب الدول النامية تفتقد في تقديرنا (قوة دفع فكرية) لإحداث توازن وطني (من حيث المصالح والأهداف والآليات والقيم) مع المتغيرات العالمية . ذلك بمعنى أن المفكرين الوطنيين في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا مطالبين بتقديم قوة دفع وطني في التعامل مع ظاهرة العولمة . قوة تتأسس على منظور فكرى وطني استراتيجي ، وليس على أى ملابسات سياسية أو توجهات قصيرة المدى، بحيث أن قوة الدفع الفكرى الوطني هذه تكون هاديا استراتيجيا للرأى العام وللقوى السياسية في تلمس الطريق برشد عند اختيار السياسات وعند التطبيق. ولا يخفى على أحد في غيبة عند قوة الدفع المذكورة فإن ردود الفعل الوطنية لتوجهات (عولمية) تبدو لنا طارئة أو ضاغطة منها فى رأيى بنك التنمية الشرق أوسطية، والتشاركية الأوروبية.. الخ تأتى فى إطار اجتهادات عاجلة.. أكثر مما ترتكز على فكر متكامل أو بصيرة استراتيجية محددة المعالم .

وختاما نشدد على الاعتبارين التاليين :

إن النماذج الحية للنجاحات في التنمية سواء على المستوى الدولى (بعض دول آسيا) أو على مستوى المؤسسات الوطنية (بعض المؤسسات في مصر أو في دول نامية أخرى) ، تشهد بأن العناصر الرئيسية في التنمية هى الرغبة والإرادة والهندسة الأمثل للإمكانيات والمناخ وبعد ذلك فقط

يأتى دور المنظمات الدولية وآليات العولمة والتى ينبغى فهمهما واستيعابها إلى الحد الذى يكفل حسن استخدامها. بمعنى استعمالها والتناغم معها فى إطار التكامل مع الاستراتيجيات الوطنية ، وليس مجرد التأقلم والمواءمة من خلال ردود الفعل .

إن ما يجرى من إعادة تشكيل (كوكبى أو دولى إو إقليمى) للعلاقات الاقتصادية والسياسية لابد وأن يحفز الدول النامية (حفاظا على وجودها) على إعادة تشكيل (أو إعادة بناء) لإمكاناتها الوطنية ولقدرتها على التفاعل الإيجابى مع آليات العولمة . وهنا تظهر الحاجة الأساسية مرة أخرى للفكر الوطنى المحض القادر على استيعاب المتغيرات العالمية والاستفادة منها فى إطار دفع حركة التنمية الوطنية .

(٣)
«الوطننة» طريق رئيسى للتفاعل مع العولمـــة

فى عالم اليوم تبزغ إيجابية كبرى تختص بـ «المعرفـة». لكـن هـذه الإيجابية تكاد تكون مشلولة من حيـث الانعكاسـات الحميـدة الممكنـة لها على المستوى العالمى (وليس مسـتوى الشـمال فقـط). إن هـذا الشـلل يجىء بفعـل أنـواع جديـدة مـن القصـور العولـمى تمـيز ما يطلـق عليـه «العولمة».. وهنا يجدر بنا أن ننتبه إلى أنه فى الوقت الذى تفرض فيه آليات العولمــة (مـن دول كـبرى ومنظمـات وعلاقـات دوليـة) مسـارات عولميـة خاصـة علـى الـدول الناميـة (مثـل التفتيتيـة والفرديـة)، فـإن متعددات (أو متعديات) الجنسية فى الدول الكبرى تـأخذ الاتجاهـات المضادة لذلك (مثل التحالفية والتكتلية والجماعية.. الخ).

«العولمة» إذن تعنى للشـمال شـىء، وتعنـى للجنـوب شـىء آخـر.. وهى - فى كل الأحوال - ليست «العالمية».. إنـها تباينـات وتناقضـات متسارعة وعميقة و .. شرسة. إن الأمر يخـرج عـن إطـار أن نكـون مـع أو ضد العولمة، حيث يظل علينا فى الجنوب واجب homework كبير، وهو أن نفهم جيدا «العولمة» و «بيئة العولمة».. وأن نتعرف جيدًا على النهج الذى من شأنه أن يحصر العولمة فى خصوصيتها «المرحلية»، وأن يساعد الشعوب، شعوب الجنوب بالذات، والعالم كلـه بوجـه عـام، أن تتجاوز العولمة إلى «العالمية».

إن الجزء التالى يعرض للعولمة ولمنهج التعامل معها من منظور منظومي، وهو منظور يقود إلى الاقتراب من «الوطننة» كحاجة ومفهوم وسلوك.. وكوسيلة لتجاوز سلبيات العولمة من أجل تحقيق العالمية بإيجابياتها الممكنة.

ترى لو أن اليابان كانت قد انصاعت لنصائح الاقتصاديين الأمريكيين من أعضاء فريق الجنرال ماك آرثر (والذى أوفدته أمريكا للمساعدة على إحياء اليابان بعد الحرب العالمية الثانية)، هل كان لها أن تصبح كما هى اليوم قوة اقتصادية عظمى ند لمجموعة الدول الأوربية وللولايات المتحدة؟. لقد نصح الخبراء الأمريكيون المسئولين اليابانيين بأن تركز اليابان على الصناعات كثيفة العمالة، إلا أن اليابانيين بقيادة ميوهى شينوهارا مهندس تنمية اليابان بعد الحرب قد فعلوا العكس، وكانت المعجزة اليابانية التى فاقت كل التوقعات.

إن تجربة اليابان فى تتابعاتها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن (خاصة عند الأخذ فى الاعتبار لتجارب اللحاق بالتقدم فى جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية) لهى جديرة بأن تكون فى الخلفية الفكرية عند مناقشة أوضاع ومستقبليات العولمة، وكذلك مستقبل شعوب ودول العالم الثالث مع العولمة كمصالح وكسلوكيات وكفكر، وذلك كما سيأتى ذكره فيما بعد.

ولأن هذا الفصل يهدف إلى معالجة تفاعل شعوب الدول النامية مع العولمة، فإن هذه المعالجة قد تكون أوفق ما يمكن عند الأخذ فى الاعتبار

للعولمة كمنظومة وذلك من حيث معالمها وآلياتـها وحركياتـها وتفاعلاتـها (بالفعل ورد الفعل) مع البيئة العالمية.

الملمح الإيجابى الرئيسى في العولمة:

إذا كانت قوى الدفع الرئيسية للعولمة تكمن فى سببين أساسيين وهما تسارع التغييرات التكنولوجية، والحركية المتسارعة لرأس المال، فإن من المهم الانتباه إلى أن الملمح الإيجابى الرئيسى للعولمة هو بزوغ المعرفة كمكوّن رئيسى فى أنشطة الإنتاج (والخدمات). لقد كان من الممكن لهذا الملمح الإيجابى أن يجعل من العولمة حركية إنسانية عظيمة قادرة على اختراق مستمر ومتواصل لظلمات الجهل والفقر والاستبداد فى كل أنحاء المعمورة، أى حركية عالمية بحق، لولا ارتباطها (أى العولمة) فى بزوغها ونموها بالحركية المتسارعة لرأس المال. حيث رأس المال يتمتع دائما بحب الذات self love ، وهو الأمر الذى يعوق توظيف المعارف العلمية والتكنولوجيا فى إطار عالمى من أجل رفاهية العالم ككل (وحل مشاكله)، حيث على النقيض من ذلك يجرى الحفاظ وبشراسة على حصر استخدام هذه المعارف فى دوائر خاصة من أجل زيادة قدرة القادرين على احتكار التقدم (من خلال – فى الأساس – اتفاقيات التجارة العالمية).

قيادات كبرى تئن من العولمة:

ليس من قبيل الصدفة أن الولايات المتحدة الأمريكية – والتى هى القطب الأوحد الآن فى العالم – تكاد تكون الشريك الدائم فى النزاعات الثنائية بين الدول بخصوص حقوق الملكية الفكرية منذ تطبيق اتفاقيات

الجات عام ١٩٩٥، وهو الأمر الذى قد يحمل دلالة على قدر هيمنة الولايات المتحدة (كطابع رئيسى للعولمة). إن هذه الهيمنة قد امتدت إلى منع التجديد للدكتور بطرس غالى فى منصب سكرتير عام الأمم المتحدة. وهو الذى كان قد أوضح أن «الولايات المتحدة ليست هى الأمم المتحدة». كما أن هذه الهيمنة قد عبر عنها وبوضوح «ناكامورا» وزير خارجية اليابان فى قوله «إن ما تطلق عليه الولايات المتحدة تسمية اقتصاد السوق الحرة ليس حرية بحال من الأحوال، إنه نوع من الحرية يدفع بالقنابل والصواريخ كلما يظهر أن بلدا آخر يحقق تفوقا..»، ذلك فضلا عن الاتهامات المباشرة التى وجهها ويوجهها مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا (وغيره) للعولمة (وللولايات المتحدة) بخصوص الأزمة المالية التى تعرضت لها نمور جنوب شرق آسيا منذ نحو عامين.

أنواع جديدة من القصور العالمى:

إن أنين بعض القيادات العالمية أو الوطنية تجاه العولمة يأتى لاحقا وموازيا لأنواع جديدة من القصور العولمى عبرت (وتعبر) عنها العديد من الكتابات المتخصصة فى الاقتصاد والمالية والسياسة والاجتماع والجغرافيا، ومن أهم أنواع هذا القصور نذكر ما يلى:

١ - خلو نشاطات وأجندات المؤسسات الدولية (خاصة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية) من أعمال جوهرية تختص بنقل المعرفة (المعنية بالتقدم) إلى الجنوب، اللهم فيما عدا المعرفة الخاصة بإنفاذ اتفاقيات الجات.

٢ – ازدياد تركيز الثروة على المستوى الدولى، وكذلك داخل كل دولة على حدة، مع نشوء تحالفات رأسمالية بالقدر الذى صار يشكل ما قد يمكن وصفه بأهمية رأس المال وهو الأمر الذى يصاحبه تعاظم في تأثير تحالفات وقوى رأس المال على الجماعات والأوطان، وهى تأثيرات وتحالفات تنذر بوجود دكتاتورية صاعدة لرأس المال. وهنا لاتنسى – بشأن هذا الاتجاه – الإشارة إلى التسارع المشاهد فى عملقة رأس المال من خلال اتحاد الشركات الكبرى وشراءها لبعضها البعض. وإذا كان العالم قد صار بالفعل على شفا أن يكون رهينة فى قبضة كبار المضاربين، فإن ما يستحق الحذر هو أن الخوصصة الجارية يستفيد منها عدد قليل من الرأسماليين داخل البلدان النامية وخارجها.

٣ – تراجع سلطة الدولة، خاصة فى مجالات حماية المجتمع من العنف، وضبط التنمية الاقتصادية، وتحقيق الرفاهية المجتمعية. ذلك مع تزايد تدريجى فى الخوصصة وفى احتواء الشركات الكبرى لمصير المجتمعات، وكذلك تزايد في العجز التجارى فى الدول النامية.

٤ – تواؤم الظاهرة السابقة (تراجع سلطة الدولة فى مقابل هيمنة الشركات الكبرى) مع ظاهرة أخرى وهى هيمنة متزايدة لسلوكيات الغاب في الشارع الدولى (مثل: تجسس أمريكا على أوربا – تباين الالتزام باتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية – وجود صريح لأجندات خفية فى الساحة الدولية)، وقد يكون من الطريف هنا أن ثقافة ومصالح بيئة العولمة تتجلى حتى فى الحروب حيث يشير كتاب أمريكى[1] إلى أن الولايات

---

(١) اقرأ : «محمد رؤوف حامد – إدارة العولمة – سلسلة كراسات عروض– المكتبة الاكاديمية –القاهرة –١٩٩٩.

المتحدة الأمريكية قد كسبت حوالى ١٤ مليار دولار من حرب الخليج الثانية، بالإضافة إلى خلق فرص عمل للأمريكيين.

٥ – تفاقم متزايد فى المشكلات الاجتماعية، والتى من أبرزها البطالة المتزايدة، وانخفاض الأجور، وتقلص الخدمات الاجتماعية. والجدير بالانتباه هنا هو أن التطور السلبى لهذه المشكلات يتوافق مع سلبيات إنسانية خطيرة تتمثل على وجه الخصوص فى حدة التقسيم الطبقى، مع تآكل الطبقة الوسطى، وتهميش الانتماءات الوطنية.

٦ – انحسار كبير فى قدرة الجنوب على الاتجاه إلى حل مشاكله، حيث تحاول كيانات الجنوب لاهثة ملاحقة منتجات وخدمات بيئة العولمة فى علاقة تبعية وعبودية (وربما إكراه)، وذلك على حساب الانتباه للمصلحة المجتمعية الجنوبية (والتى يمكن تمثلها فى معادلة تربط بين القيمة والجودة والسعر). ذلك فى الوقت الذى يُتوقع فيه – مع استمرار سياسات العولمة – أن يتساقط ثلاثة أرباع سكان الجنوب فى غياهب العوز والفاقة.

ردود الفعل تجاه العولمة:

مع التسليم بعدم إمكانية خروج أى دولة رشيدة عن بيئة التجارة العالمية (واتفاقياتها)، فإنه يمكن التمييز بين الملامح التالية فى ردود الأفعال تجاه العولمة.

(أ) قدر من الكراهية البازغة من الحماس الوطنى والمرتكزة على العاطفة والخيال، ومن أمثلة ذلك قرار منظمة «أسيان» فى ١٩٩٨/١١/٢٤ منح الجائزة الأولى فى مسابقة فنية إلى مصور ماليزى تقديرا لصورة رسمها

بعنوان «أيها المضارب المالى الأجنبى قف عن تدمير بلادنا، وداعا سوروس والصهاينة، أهلا وسهلا باليابان».

(ب) تفكير مثالى يتجه إلى اقتراح وسائل تساعد فى الإنقاذ، وذلك على غرار إنشاء جامعات كبرى تختص بالبحث العلمى والتكنولوجيا فى مصر والمنطقة العربية، أو استصدار وثيقة أو إعلان عالمى للتعامل بين دول الشمال ودول الجنوب. ذلك بالإضافة إلى مناشدات من قيادات الجنوب بشأن تعاون الشمال فى نقل التكنولوجيا والمعرفة وتنمية رأس المال البشرى.

(جـ) الدعوة لإحياء المجتمع المدنى وتنشيط المنظمات غير الحكومية.

(د) إتباع وابتداع ميكانيزمات جديدة لضمان المصالح الوطنية فى المجابهة مع اتفاقيات التجارة العالمية. والجدير بالذكر (وربما الاندهاش) أن الغرب الصناعى هو الذى يحاول فى هذا الاتجاه، ومن هذه الميكانيزمات نذكر إقامة ضريبة القيمة المضافة على السلع المستوردة، وكذلك التخطيط التأشيرى.

(هـ) بزوغ توجهات وممارسات سياسية تهدف إلى تهذيب وتشذيب العولمة (مثل: المناداة بعولمة مسئولة - الطريق الثالث - البحث عن خيارات بديلة).

النموذج اليابانى فى رد الفعل:

والآن، مع وضوح قدر وأبعاد المعاناة الجارية والقادمة عند القيادات والشعوب والعالم بأسره بشأن العولمة وتبعيات هيمنة القطب الأوحد والشركات الكبرى، ومع ما يمكن أن يلاحظ من تقزم فى ردود الأفعال

فى الشارع الدولى تجاه العولمة، بالمقارنة بعمق متغيرات العولمة وشدة تسارع إيقاعها، فإنه تجدر بنا الإشارة إلى معالم النموذج اليابانى بالمقارنة ببقية النماذج. يهمنا هنا أن نتذكر أن اليابان قد بزغت - فى تقدمها - من حالة محطمة بعد الحرب، وأنها تقدمت بسرعة ونافست، وهو الأمر الذى لم يكن متوقعا، وأنها مازالت متقدمة وتمارس التقدم رغم الأزمة المالية فى جنوب شرق آسيا، ورغم تحديات أخرى هامة.

لقد بزغ وتقدم النموذج اليابانى بالاعتماد على توجهات خاصة وهامة ومنفردة كانت تركز على المصلحة الوطنية من منظور جماعى مجتمعى communitarian وليس من منظور رأس مالى فردى individual. لقد التصق اليابانيون بالمصلحة الوطنية وحافظوا عليها فى كل مراحل مواجهتهم لتحديات التنمية. ففى مواجهة الاستثمار الأجنبى المباشر (أو كبديل عنه) كانت لهم استراتيجيتهم والتى تضمنت ما يلى:

- معدلات عالية من الادخار والاستثمار.

- تخصيص الموارد للقطاعات راقية التكنولوجيا من خلال خطة سياسية.

- تعليم وتدريب درجة أولى.

- سياسات وأسواق من شأنها تشجيع المصانع اليابانية على أن تفكر من منظور طويل المدى (صحة طويلة المدى).

- إدارة الاستثمار الأجنبى المباشر على أرض الوطن بواسطة «بيروقراطيين مهرة» يعملون من أجل خدمة المصلحة القومية (كما هى مُعرَّفة وطنيا وكما هى محمية بواسطة إجماع قومى).

– احترام أقل من الكامل للأسواق الحرة والتجارة الحرة.

وفى إطار شحذ طاقات كل الأفراد والمؤسسات (لشعب يبلغ تعداده عشرات الملايين) من أجل تنمية الوطن نجد المؤسسات اليابانية تعمل وفق الأسس التالية:

– المساهمة في احتياجات المجتمع اليابانى وتحقيق هيبة وعظمة أكبر لليابان.

– أن يكون السبيل لتحقيق ربح للشركة هو تشجيع وتحقيق الرفاهية والسعادة للعاملين (وذلك من خلال: توظيف طويل المدى–مشاركة فى صنع القرار–فروق ضئيلة بين رواتب القمة والقاع–رغبة عامة فى اقتسام الآلام والمكاسب).

– اعتبار مهمة «البيزنس» هى الحفاظ على الصحة طويلة المدى للمؤسسة ككل.

– الانتباه إلى أن العلاقة بين المديرين والمدارين (العاملين) يجب أن تكون توافقية وتناغمية لأن لكلاهما نفس المصلحة فى إنعاش الشركة، وأما أصحاب الأسهم فإن عائداتهم تتواجد طالما هناك فوائد وعائدات للآخرين (فى المؤسسة والمجتمع).

ولمواجهة تحديات التنافسية الدولية بخصوص قضايا صعبة مثل التكنولوجيا والبحث والتطوير، نجد اليابانيين قد ابتكروا (من خلال التوجه الجماعى الأصيل لديهم) ما يعرف بالكونسورتيا، وهو التكتل بين الشركات التى تعمل فى نفس المجال بحيث تتعاون هذه الشركات مع بعضها البعض ومع الحكومة من أجل تحقيق الريادة فى البحث والتطوير

والتغيير التكنولوجى، وبالتالى القدرة على المنافسة الدولية. وفى الخلاصة بالنسبة لهذا النموذج يمكن القول أن التوجهات اليابانية كانت جماعية وطنية أصيلة مرنة.

النماذج غير اليابانية:

لقد صعدت دول النمور من خلال الكثير من المبادئ التى اعتمدت عليها اليابان (مثل: الجماعية – التكتلات – التعليم والتدريب – التكنولوجيا الراقية). لكن دول النمور–وبالمثل الدول التى كانت تحاول اللحاق فى أمريكا اللاتينية–كانت أقل اعتمادا على الذات الوطنية فى توليد الأموال اللازمة للاستثمار وأقل حذرا تجاه الاستثمار الأجنبى المباشر والقروض الأجنبية، فكانت جميع هذه الدول عرضة للتقلبات المالية الحادة مقارنة باليابان التى كانت أكثر حذرًا وأسبق فى المسيرة والأكثر تقدما.

أمريكا تقلد اليابان:

لقد حققت اليابان من خلال نموذجها الوطنى نجاحات مبهرة وصلت – على سبيل المثال – إلى حد امتلاك نصيب ٨٠٪ من السوق العالمى لرقائق ذاكرة الكمبيوتر عام ١٩٨٦، وذلك على حساب الولايات المتحدة التى انخفض نصيبها فى السوق العالمى من الاستحواذ المطلق (١٠٠٪) عام ١٩٧٤ إلى حوالى ٢٠٪ فقط عام ١٩٨٦. وحتى تستعيد الولايات المتحدة ريادتها العالمية كان على الصناعة الأمريكية أن تتبع الأسلوب اليابانى الخاص بالتكتلات (الكونسورتيا). وبالفعل تم عام١٩٩٤ تكوين كونسورتيوم من١٤شركة أمريكية باسم سيماتيك. ليس ذلك فقط،

بل إن شركات أمريكية كبرى(مثل نوميNUMMI، وفورد، وكريسلر) قد أحدثت تغييرات جذرية فى مصادر السلطة الإدارية بها، حيث أتاحت الفرصة لممثلى اتحاد العمال للتواجد فى مجلس الإدارة، وحيث يأتى حق الإدارة فى هذه الشركات بازدياد تدريجي من المدارين (العاملين).

إن الملفت للانتباه بشكل صارخ هنا هو أن القطب المهيمن على العالم، والذى تقوم سياساته على مذهب «الفردية» يتحول إلى مناهج «الجماعية» استجابة للضرورة، ذلك فى الوقت الذى تسارع فيه بلدان الجنوب بالالتزام بمناهج الفردية وتطبيقها حتى بدون تطويع وطنى – كنوع من التوافق الأصم مع العولمة، بينما هى الأشد احتياجا للجماعية (وللوطننة)، وبدلا من التكتل فى الجنوب، نجد الجنوب يتفتت كدولة وكمجتمع وكوطن بحيث تضيع فرص وإمكانات التكتل الجنوبى، الأفقى والرأسى، على المستويات المحلية وعلى المستوى العالم ثالثى. ومن الغريب أن المؤسسات الدولية الناصحة والراعية والمقرضة لعمليات التنمية فى الدول النامية (وبالذات صندوق النقد الدولى والبنك الدولى) لم تُضمِّن فى وصفاتها وروشتاتها لهذه البلدان شيئا عن الخبرات والنتائج المترتبة على الجماعية كمنهج فى اليابان وفى دول أخرى.

هناك إذن حاجة إلى «الجماعية»، وهناك حاجة ماسة إلى ما يمكن أن يطلق عليه «الوطننة».

الوطننـــــة:

المقصود بالوطننة هنا ليس بالذات نقض العولمة أو شن حرب عليها، وإنما تحفيز، وتنظيم، وتعضيد، وتعظيم القدرات الوطنية فى استيعاب

وإعمال كل من المعارف والإمكانات المحلية (والعالمية الممكنة) بالكيفية التى تجعل من هذه «القدرات الوطنية» سندا لبعضها البعض وللوطن وللمواطنين فى التنمية، وفى الاستفادة من إيجابيات العولمة، وأيضا فى تجنب سلبياتها وانحيازاتها.

الحاجة إلى الوطننة:

تنطلق الحاجة إلى الوطننة من عدد من الاعتبارات نشير فيما يلى إلى أمثلة عليها:

١ – اعتبارات خاصة بالسياسات العالمية:

- تحول الشمال من السعى إلى تطبيق مفهوم التنمية فى إطار عالمى (كوكبى) إلى الاهتمام شبه الكلى بتنمية ذاته.
- حقيقة أن العولمة تمثل بيئة وظروف، ولا تمثل قاطرة للتقدم، وذلك حيث تظل القاطرة الأساسية للتقدم رهينة صلاح.وفلاح المنظومة الوطنية.
- اتجاه الشركات العالمية الكبرى إلى العملقة والاستحواز، مع تجنبها إقامة منشآت بحث وتطوير فى البلدان النامية أو نقل التكنولوجيا إلى هذه البلدان ما لم تكن هناك قدرات محلية تنافسية (خاصة فى مجالات البحث والتطوير والتغيير التكنولوجى).
- تحول متوقع في الاقتصاد السياسى الدولى فحواه الانتقال إلى مرحلة ما بعد التقلبات الاقتصادية after the business cycle حيث ستتمكن

الشركات متعدية الجنسية وكذلك الكيانات الوطنية الكبرى من «امتصاص» و «تحمل» أية متغيرات اقتصادية ومالية سلبية، وذلك من خلال تعدد أنواع ومستويات الأنشطة، وفى المقابل يزداد الضعف في قدرة الكيانات الصغيرة (شركات وبلدان) على امتصاص هذه الأزمات.

٢ – اعتبارات معرفية وإدارية وثقافية:

- ارتقاء الاستيعابات والابتكارات المعرفية إلى مستويات لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال جهد منظومى جماعي وهو ما يعرف بالطبيعة المنظومية للابتكار (والمعرفة)، والتى يجب أن يمتد إطارها المنظومى فى الدول النامية ليشمل الوطن ككل (السياسة – التخطيط – التعليم – التشغيل – التشييد – الرعاية.. الخ).

- ثبوت الحاجة إلى «التكتلات» و «الاقترابات» بين الكيانات فى جهات الإنتاج والخدمات على المستوى الوطنى وذلك من أجل إحداث قفزات فى القدرات الخاصة بالتدريب والتسويق والتطوير والتنافسية، وكذلك فى ترشيد التفاعل (والتعاون) مع الحكومة ومع الرأى العام، وأيضا مع العلاقات الدولية والأسواق العالمية.

- التحول من مرحلة تأثير كبير للثقافة على صنع التكنولوجيا إلى مرحلة تأثير كبير للتكنولوجيا على صنع الثقافة، وهو الأمر الذى يستلزم استحداث «طفرة وطنية الأبعاد» فى التغيير التكنولوجى بحيث يمكن أن نصل كمصريين (وكبلدان نامية عربية وغيرها) إلى القدرة على

استخدام التكنولوجيا لتطوير ثقافتنا بأنفسنا بدلا من ترك الغير يقوم بهذه المهمة من أجل (وفي إطار) أهداف تختص بسياساته هو، فضلا عن وجوب المساهمة الإيجابية في تنمية الثقافة العالمية من خلال المكون الثقافي المحلي، وكذلك منع تشويه الغير للصورة الذهنية عن شعوبنا وتاريخنا من خلال استخدام التكنولوجيا في نشر منتجات ثقافية مغرضة.

٣ - اعتبارات وعوامل داخلية:

- صعوبة ترك التنمية الوطنية بالكامل لسياسات السوق، حيث العولمة لا تسمح لسياسات السوق في الدول النامية بتحقيق جهد تنموى وطني، وحيث تؤدى الحرية المطلقة لسياسات السوق إلى تحول تدريجي لقوى الإنتاج والخدمات الوطنية إلى أعمال «وكالة» وإلى ملكيات يمكن أن تكون أجنبية صرفة (؟!)
- مساهمة أوجه سلبية للعولمة في تفتيت الانتماءات الأسرية والاجتماعية والوطنية.

المحددات المنظومية للوطننة:

تحتاج الوطننة إلى حسن استخدام وتطبيق المعارف المنظومية العالمية في كل مستويات العمل المنظومي الوطني (عمليات تحديد الأهداف - التشغيل - التنسيق - متابعة وتطوير وتوليد المنظومات الوطنية على اختلاف مستوياتها)، وفي هذا الإطار توجد محددات يتطلب الأمر الالتزام بها وعدم الحيود عنها، وذلك من خلال اتفاق وطني عام، ومن أمثلة هذه المحددات ما يلي:

١ - تجنب إزالة التناقض بين المصالح الوطنية والتوجهات العولمية على حساب الكيانات الوطنية.

٢ - ممارسة العمل العام والخاص من خلال مجموعة من الأطر المرجعية الوطنية والتى تتكون مما يلى:

(أ) أطر مرجعية مستقبلية خاصة بما نريد الوصول إليه (الدخل - التغيير التكنولوجى - التعليم - الصحة - التصدير.. إلخ).

(ب) أطر مرجعية حياتية خاصة بالممارسات الأفضل التى نرتضيها - قوميا - بخصوص أداء كافة شئون الحياة اليومية للوطن (مثل: المرور - العلاج - الإعلام - البيئة - تعيين القيادات - العلاقة بين أفراد الأسرة - العلاقة بين الكبير والصغير - العمل الحكومى - استخدام المنشآت العامة.. إلخ.. إلخ).

(جـ) قياس مستويات الأداء وقدر التحولات طبقا لأطر مرجعية وبواسطة «مسطرة التغيير» والتى تقوم على حسابات تدخل فيها مؤشرات الإبداع والزمن والعائدات الخاصة والمجتمعية.. الخ، ولا يدخل فيها أبدا أعمال «البروباجندا» ولا تشدق كل مسئول بتوجيهات رئيسه.

٣ - تقوية الانضباط الوطنى من خلال ما يلى:

(أ) تقليل الفاقد الوطنى العام، وذلك بتجنب العشوائية والمجاملات فى وضع الأهداف وفى الإدارة وفى السلوكيات وفى تعيين القيادات.

(ب) تعظيم أداء المصريين لأعمالهم، وتقوية قدراتهم على العمل الجماعي وعلى الابتكارات وذلك باستخدام رشيد لأساليب الإدارة الحديثة.

(جـ) جعل «المعرفة» جزء من نسيج البنية الأساسية للوطن ولمستقبله، وذلك بتغلغل البحث العلمي بأدواته (في العلوم الطبيعية والإنسانية وفي الرياضيات) في كافة مجالات العمل (في الحكومة والقطاعين العام والخاص وفي كل مجالات الإنتاج والخدمات)، وهو أمر يحتاج إلى تغييرات جذرية في الرسالة والسياسات والدور القومي لوزارة البحث العلمي (أنظر: البحث العلمي في مصر. البناء الوطني قبل العولمة - أحوال مصرية - العدد ٣ - ١٩٩٩).

فكر الوطننة:

إن إدارة مسيرة البلدان النامية في زمن العولمة تكون من خلال أحد أمرين، إما الانصياع الجبري (أو الإكراهي) لسياسات وأدوات العولمة من خلال إجراءات لا تخرج عن حد ردود الفعل المباشر والقاصر أمام عولمة تعتمد خطواتها على سياسة «كش ملك»؛ وإما من خلال فكر وطني.. فكر عالم ثالثي.. فكر يرتكز على استيعاب معرفي عالمي وعلى حس وطني قوي (كما فعل اليابانيين). هناك حاجة إذن من مفكري وخبراء الدول النامية (في العلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ.. الخ) إلى تعضيد قوة الدفع الوطني (والجنوبي) في التفاعل مع العولمة (انظر: قوة دفع وطني للتعامل مع العولمة - الفصل الثاني من الباب الأول)، وفي هذا الإطار نشير إلى بعض الحاجات و/أو التوجهات:

- حاجة مجتمعات الدول النامية إلى تقوية الإبداع المجتمعي وإلى الإبداع في إدارة المجتمع (أنظر الفصلين الثالث والرابع من الباب الثاني).
- الانتباه إلى منطقية «التقدم الأسى» كمنهج لعبور الفجوة بين المتخلفين والمتقدمين (أنظر: إدارة المعرفة - سلسلة اقرأ - العدد ٦٣٧ دار المعارف).
- الحاجة إلى غرس ثقافات وأخلاقيات التقدم في شعوب الدول النامية (مثل: التواصل في الجهود - العمل الجماعي - إعطاء كل فرد أو مجموعة أحسن ماالديه من عمل لغيره - التحالف والتعاون كوسيلة للتقدم - التفاوض الإيجابي - التكامل وعدم التجزئة - القضاء على التلكوء - الحب والتعاضدية بين الأفراد والمنظومات كوسيلة للارتقاء - القفز فوق عقبات مجتمعية تقليدية أو تراثية).
- الانتباه إلى أن احتياجات معظم سكان دول الجنوب في حاجة إلى صياغة جنوبية تختص بالعلاقة بين القيمة (قيمة السلعة سواء هي منتج أو خدمة) من ناحية، والسعر والجودة من ناحية أخرى، وذلك حيث أن دول الجنوب قد وقعت أسيرة (بسبب الخداع أو الإكراه أو عدم المعرفة) لسباق التوافق في المواصفات في إطار العولمة، وهو سباق توضع شروطه بواسطة الشمال المحتكر، والذى يهيمن على جنى ثماره بشكل يكاد يكون مطلق. إن الصياغة الجنوبية التى نشير إليها يجب أن تتأسس على معايير الاحتياجات والظروف الخاصة بشعوب الجنوب.

الوطننة تصحيح للعولمة:

وبعد، إذا كـان التغيـير فـى زمـن العولـة هـو شـرط للاسـتقرار، فـإن «الوطننة» فى دول العالم الثالث هى – في تقديرنا – نموذج استرشـادى يرشّد عمليات التوصل إلى ممارسات صحية، سواء فى التغيير داخل هـذه الدول، أو فى استجابة هذه الـدول لمتغيرات العولـة. وإذا كـانت الـدول المتقدمة وشركاتها متعديات الجنسية تحاول محاصرة العالم فـى «عولـة» تفيـد الشـمال أكـثر مـن الجنـوب، فـإن علـى دول الجنـوب بسياسـييها ومفكريـها النضـال مـن أجـل تحويـل «العولـة» إلى «عالميـة أو كوكبيـة» بمعنى عالمية المصـالح، أى أن تعـود المصـالح علـى كـل أعضـاء الكوكـب بشماله وجنوبه وشرقه وغربه. وهكذا، «الوطننة أداة تصحيح للعولمة».

الباب الثانى

إدارة الإبداع الوطنى

«الإبداع الجماعى الوطنى» ضرورة فى كل وقت وخاصة فى ظروف وتحديات العولمة. إن الطريق إلى هذا المستوى من الإبداع يقوم على خليط متوافق من الإدارة والتعليم والبحث والثقافة والتراث والاتفاق الوطنى العام، وذلك كما يمكن أن يتضح من التناولات التالية:

١ – البحث العلمى ورسوب اينشتاين.

٢ – لماذا يبدع المصرى بالخارج.. لا فى الداخل .؟!

٣ – من الإبداع الفردى إلى إبداع إدارة المجتمع..

٤ – الإبداع المجتمعى وضرورة الإدارة المبدعة.

٥ – التوظيف الاجتماعى للعلم والعلماء..

٦ – من هو العالم فى بلداننا النامية ؟ !

٧ – الثقافة العلمية من منظور منظومى..

٨ – ما بعد كتاب د. أسامة الباز:

« الإبداع مشروعنا للقرن الـ ٢١» . .

٩ – طريق إلى مصر الأفضل..

١٠ – نحو حركية فكرية وطنية جديدة..

(١)

البحث العلمى ورسوب اينشتاين

إلى أى حد تلعب البيئة التعليمية فى بلداننا - النامية - دور «عشماوى» الإبداع؟.. هذا أمر يمكن إدراكه عندما نعرف أن التلميذ البرت اينشتاين رسب في الامتحان نتيجة نظام تعليمى قبيح، وأنه تحول إلى قمة الإبداع العلمي فى القرن الـ ٢٠ نتيجة نظام تعليمى آخر جميل، وعقلانى، ومحترم.

فى إحدى أمسيات يناير ١٩٨٤.. وبينما الجو شديد البرودة فى مدينة زيوريخ بسويسرا كان المئات من المشتغلين بالعلم يتوافدون على مبنى قديم ضخم فوق ربوة عالية فى قلب المدينة الجميلة.. كان المبنى هو المركز الرئيسى لمعهد البوليتكنيك بسويسرا.. وكانت القاعة هى القاعة الرئيسية للمحاضرات.. وأما عن المناسبة فقد كانت محاضرة يلقيها الحائز على جائزة نوبل فى الطبيعة لعام ١٩٨٣ والذى منح الجائزة لاكتشافاته التى أعتبرت امتدادا لنظرية النسبية.. كان الرجل هندى الأصل أمريكى الجنسية متخصصا فى الفيزياء الفلكية.. وكانت محاضرته بعنوان «نظرية النسبية.. لماذا هى أجمل النظريات الموجودة»..

كنت وقتها فى زيارة علمية لجامعة زيوريخ.. ذهبت إلى مكان المحاضرة مع الجموع الوافدة..

الحقيقة.. والجمال:

استمرت المحاضرة ستين دقيقة.. تحدث الرجل بحب واقتدار عن وجهة نظره بخصوص مواطن الضعف والقوة في عدد من النظريات الأساسية المعروفة.. كان لديه معياران يكشف بهما على كل نظرية.. معيار الحقيقة.. ومعيار الجمال.. وكانت الفكرة الأساسية التي توصل إليها هي أن نظرية اينشتاين تتميز على النظريات الأخرى بأنها تتصف بالشيئين معا.. الحقيقة.. والجمال..

استطاع المحاضر أن ينبه الحاضرين إلى الحقيقة والجمال في السيمفونية المتواصلة للبحث العلمي.. وبعد المحاضرة كان الناس يغادرون القاعة وهم يتحدثون بلغة الرموز والمعادلات عن الحقيقة والجمال في الأعمال العلمية المختلفة..

هل كان غبيا؟!

أما أنا فقد كنت أجول بخاطرى حول سر عبقرية اينشتاين.. وحول الخلفية التاريخية للمكان الذى كنا نجلس فيه، ففى معهد البوليتكنيك هذا كان اينشتاين طالبا ثم أستاذا.. ومن المفارقات التى تستدعى الانتباه أن اينشتاين كان قد رسب فى امتحان الدخول إلى هذا المعهد.. وكان عليه أن يجهز نفسه للتقدم مرة ثانية عن طريق الانتظام فى دروس للتقوية فى مدرسة أخرى.. ترى هل كان اينشتاين طالبا غبيا فرسب ثم تحول إلى طالب ذكى فنجح.. أم أن هناك ظروفا أخرى؟..

الحقيقة أن البرت اينشتاين لم يكن فى صباه غير طالب عادى فى إحدى مدارس مدينة ميونيخ بألمانيا.. وكأى مدرسة فى ذلك الوقت كان

النظام بها صارما.. والواجبات المدرسية كثيرة.. وكان على اينشتاين وزملائه أن يكونوا دائما جاهزين لإجابة أسئلة المدرسين وللنجاح فيما تفرضه عليهم المدرسة من امتحانات.. كانت الدراسة شيئا مملا حتى أن سعادة اينشتاين بالانتهاء من الامتحان النهائى فى هذه المدرسة كانت ممزوجة بحالة قرف من العلم جعله – ولمدة عام بعد ذلك – غير قادر على الإطلاع بهمة على أية موضوعات علمية..

سر العبقرية:

كلن من المكن بعد رسوب اينشتاين فى امتحان التقدم إلى البوليتكنيك أن يتحول إلى عمل آخر غير العلم، غير أن إرادة الله شاءت أن يجد اينشتاين نفسه وأن يتعرف على ذاته الحقيقية فى هذه المدرسة السويسرية والتى دخلها بقصد الانتظام فى مقررات للتقوية استعدادا لدخول الامتحان مرة أخرى..

عن هذه الفترة يقول أستاذ علم النفس هولتون فى مقال له بعنوان «محاولة لفهم العبقرية العلمية»: «تمثل هذه الفترة نقطة تحول في حياة اينشتاين وكذلك نقطة تحول في طريقة تفكيره.. فعلى العكس تماما من خبرته السابقة بالمدرسة الألمانية كان للمدرسة الجديدة في سويسرا توجها عقلانيا يأخذ فى الاعتبار قدرات الفرد في البحث عن المعرفة. كان هناك القليل جدا من الحفظ والاستذكار في مقابل اهتمام كبير بالعمل البحثى الذى يبدأه الطالب بنفسه.. كذلك كان هناك التركيز على تنمية تفاعل مرن وديمقراطى بين التلاميذ والمدرسين»..

يقول اينشتاين عن هذه المدرسة: «شكرا للروح العقلانية لهذه المدرسة.. كان المدرسون لا يعتمدون في علاقاتهم بالطلاب على نفوذ أو سلطات غير قدراتهم على التفاعل معهم..»..

الحقيقة والجمال إذن في حياة اينشتاين أنه «استطاع أن يتعرف على ذاته» ولربما كان ذلك هو سر عبقريته، تؤكد هذا الأستاذة الأمريكية الشابة تيريزا مابيل في مؤلفها عن علم نفس الإبداع والذى صدر عام ١٩٨٣..

تقول مابيل: «في هذه المدرسة التي كف اينشتاين فيها عن دور الطالب المطيع وتعداه إلى الطالب الإيجابي الذى يفكر بصوت عال مع أساتذته، كان اينشتاين قد بدأ أولى التجارب العلمية بطريقة حركت عقله ووجهته إلى نظرية النسبية»..

لو لم يتح لاينشتاين أن يهرب بسلامة من زنزانة الطالب المطيع لما استطاع بعد ذلك أن يتعرف على قدراته وأن يتوصل إلى نظرية النسبية..

استفسارات

كاد اينشتاين أن يتحول إلى ضحية للطرق الجامدة للتدريس والتي أبعدته عن الاهتمام بالموضوعات العلمية لمدة عام كامل، وكادت أن تبعده عن طريق التوصل إلى نظريته لولا أن أكتشف ذاته من خلال نظام تعليمي يقوم على تفاعل ديمقراطي بين الأساتذة والطلاب وعلى التعامل مع المفاهيم والنظريات بأسلوب الفهم والبحث وليس بالحفظ والتكرار.

كـاد البحـث العلمـي إذن أن يفقـد اينشـتاين..، والســؤال الآن: كم مـن اينشـتاين ضـاع وتـاه فـي إطـار أسـاليب التعليـم والبحـث العلمـي عندنـا؟.. وكـم مـن اينشـتاين سـيضيع ويتـوه إذا اسـتمر الحـال كمـا هـو؟.. إن محاولـة الاجابـة تضعنـا أمـام الاستفسـارات التاليـة:

- هل يجرى تدريب الطلاب في مصر على كيفية الحصول على المعلومـة أم على مجرد تلقيها؟..
- هل يؤخذ في الاعتبار تدريـب الطـلاب علـى التفكـير المنـهجي المنظـم أم مجرد حفظ المعلومات واستظهارها ساعة الامتحان؟..
- هـل يـدرب طـلاب الماجسـتير والدكتـوراه علـى اكتشـاف المشـكلات وصياغتـها ووضـع الفـروض لحلـها وإختيـار صحـة هـذه الفـروض، أم مازالوا يقومون بمجرد تدريبات بحثية لا تؤخر ولا تقدم؟..
- هـل وصـل تفـاعل الأسـتاذ والطـالب فـي بلادنـا إلى درجـة النقـاش الديمقراطى وتبادل الحجج والإقناع، أم ما زال قصارى جـهد الطـالب أن يعيد تكرار ما حفظه عن أستاذه؟
- وعن علاقة طالب العلم بالعلم والبحث العلمـي هـل هـي علاقـة تبعيـة تهدف إلى الحصول علـى تراخيـص الماجسـتير والدكتـوراه تمامـا كمـا حصل اينشتاين علـى رخصـة المدرسـة الأولى فـي ميونيـخ وفشـل فـي دخول معهد البوليتكنيك في سويسرا.. أم هي علاقـة إيجابيـة يمكـن من خلالها التوصل إلى معرفة جديدة تقود إلى حياة أحسـن كمـا فعـل أينشتاين عندما تعرف على إمكانياته؟

إذا كانت الاستفسارات السابقة تحمل فى طياتها بعض الآراء فإنه يجدر بنا أن نتذكر معها الرأى التالى والذى ضمنه أينشتاين كتابة عن حياته، كتب أينشتاين يقول: «إنها لمعجزة حقا أن القوة الخفية التى تدفع الطلاب إلى حب الاستطلاع وتوجيه الأسئلة ما زالت موجودة ولم تخنق بعد بفعل الطرق الجامدة للتدريس.. إن هذه القوة الخفية تحتاج أساسا إلى الحرية بالإضافة إلى التحفيز وإلا فإنها ستموت بكل تأكيد. إنه لخطأ بشع أن نظن أن الإجبار أو مجرد الشعور بالواجب ينمى متعة[١] التأمل والبحث» . . .

(٢)

لماذا يبدع المصرى بالخارج
.. لا فى الداخل ؟

لماذا يبدع المصرى بالخارج.. لا فى الداخل؟. إنه سؤال تقليدى، لكنه بحاجة إلى إجابة غير تقليدية. لقد كان الباعث إلى إثارة هذا السؤال ومحاولة التفكير بشأنه مبادرة الرئيس مبارك للحوار الوطنى (عام ١٩٩٤)، وفى هذا الإطار تشكلت دعوتنا إلى «دفع عجلة الإبداع الجماعى فى مصر».. وهكذا..، من دعوة الرئيس للحوار الوطنى، إلى الإبداع الجماعى، إلى رفع قدرات المصريين (أفرادًا وجماعات)، إلى هيبة ومستقبل الوطن، تقفز التناولات،ولا تزال..

تأتى مبادرة الرئيس مبارك للحوار الوطنى فى مرحلة غاية فى الأهمية حيث تواجه فيها مصر تحديات ومتغيرات متعددة شديدة التداخل والتعقيد على المستويات المحلية والإقليمية والعمالية..

وإذا كانت المبادرة تمثل منحى وطنيا جديدا، فإن استثمار هذه المنحى يكون استثمارا معوقا إذا لم يرتكز على فهم واستيعاب الطبيعة الرئيسية للتحديات والمتغيرات الجارية والقادمة. إن التأمل المتأنى لتحديات مثل

العولمة «والجات» والسلام والشرق أوسطية والتنمية الوطنية الشاملة والإرهاب.. الخ يدفع إلى إدراك الطبيعة النوعية الحادة لها..

إن هذا الإدراك يستوجب التعامل مع مبادرة الحوار الوطنى من المنظور النوعي (الكيفي) قبل المنظور الكمي، خاصة وأن كل القوى الوطنية المصرية على كل ساحات العمل الوطنى (معارضة وأغلبية) تعيش أزمة الحاجة إلى نقلة أو طفرة نوعية. وهكذا، من منطلق المنظور النوعي للحوار الوطني وظروفه نرى أن المهمة الأساسية لهذا الحوار هي تحقيق نقلة نوعية للحياة على أرض مصر..

وقبل أن نعرض لتحديد وصياغة هذه النقلة النوعية ينبغي أولا أن ندرك شروطها التي يمكن صياغتها في المتطلبات الثلاثة التالية:

أولا: أن تستنهض القدرات الكامنة في المصريين جميعا بالقدر الذى يكفل مجابهة التحديات الجارية والمقبلة.

ثانيا: أن تكون لها انعكاساتها على كل نواحي الحياة في مصر أفقيا ورأسيا (أى كل المجالات وجميع المستويات في كل مجال)..

ثالثا: أن تكون من النوع الذى إذا بدأ فإن آلياته توفر له «الاستمرار» وأن يكون في مجرد استمراره الضمان «للتطوير الذاتي» والهائل له بما يتوافق مع (ويساير ثم ينافس) التطورات العالمية المتسارعة..

مما سبق يتضح أن النقلة النوعية (أو الكيفية) المطلوبة لاتختص بقضية ما مفردة، بل هى العصب المؤثر على كل

القضايا، أو هي الإطار الحاوى لمعالجات كل أنواع المسائل والمشكلات الموجودة والقادمة والمحتملة..

هذه النقلة (أو الطفرة) التي أرى أنها هي «المشروع القومي» الذى ينبغي أن يتمحور حوله الحوار الوطني تختص بـ«دفع عجلة الإبداع الجماعي في مصر»، فإن كان المشروع الياباني المذهل للتقدم في النصف الثاني من القرن العشرين قد قام على قيم كبرى تتركز في حب الشغل والمثابرة والاجتهاد والعمل الجماعي بحيث تغلغلت هذه القيم في الإنسان الياباني فردا وجماعة.. صباحا ومساء.. في الأسرة والمدرسة والمشروع الخاص وديوان الحكومة حتى صارت اليابان هي اليابان، فلماذا لا ننشيء مشروعنا القومي الذى يجعل مصر هي مصر في كل الدوائر المحلية والأقليمية والعالمية؟ ولماذا نظل في مصر حكومة وشعبا على قبول الوضع السائد وهو أن يبدع المصرى عندما يكون خارج مصر (في منظومة الغير)؟ ولماذا لا يكون أيسر للمصرى أن يبدع ويتفوق وهو في مصر؟..

وباختصار شديد فإن المشروع القومي الذى اقترحه كمحور رئيسي للحوار الوطنى يقوم على «دفع عجلة الإبداع الجماعي في مصر» ووسيلته هي «الإدارة الأسية» وهدفه المستمر هو تحقيق «التقدم الأسي». إن المعطيات الأساسية لهذا المشروع تتلخص فيما يلي :

- أن التكامل والتحالف (وهما عكس التجزئة والتفتت) صارا هما الطبيعة الأساسية لأية انجازات على مستوى الأفراد والجماعات والدول والشركات والعالم ككل.

- أن المكون الجماعى للإبداع هو الآلية الرئيسية لإحداث أى تقدم وعلى أى مستوى بدءا من الفصل الدراسى وحتى الشركات عابرة الجنسيات..
- أن الإبداع الجماعى له شروطه ومتطلباته تنظيميا وسياسيا واقتصاديا (فضلا عن الشروط التربوية والاجتماعية والإدارية)..
- أن الفجوة تزداد دائما بين الدول النامية (ومنها مصر) والدول الكبرى (مثل اليابان وألمانيا)، وبالتالى هناك حاجة إلى مخرج من هذه الأزمة يكون بمثابة آلية أو أداة كبرى لتحقيق التوازن بين سرعة التقدم هنا وهناك ثم الوصول إلى المنافسة وتحقيق التفوق.
- المنهج الوحيد لتحقيق هذه الطفرة (الآلية) هو منهج «التقدم الأسى» الذى يوفر مع الوقت وزيادة الجهد، الفرصة للتقدم إلى الحد الذى يؤدى إلى إمكانية المنافسة.
- الوسيلة هى إذن الاستخدام الأمثل للزمن والجهد فى تركيب القدرات البشرية والمادية المتاحة على بعضها البعض بطريقة تجعل الانجاز يتحقق بسرعة أسية، أو بمعنى آخر المطلوب إعادة تنظيم المنظومات والأنساق على مستوياتها المختلفة من حيث الأهداف والبنية والعلاقات بحيث تدار جميعها فى إطار أسى.

وأما القضايا المفردة مثل السياسات العلمية والتكنولوجية أو العلاقات مع إسرائيل أو «الجات» أو الأمن القومى العربى أو الدستور أو السوق الشرق أوسطية أو الشرعية الدولية أو الطوارئ.. الخ فكلها قضايا ذات طبيعة جزئية يمكن تناولها تناولا علميا على أساس من البيانات والدراسات والسيناريوهات وبحوث العمليات..

وفى إطار الحوار حول متطلبات التقدم الأسى (أو دفع عجلة الإبداع الجماعى فى مصر) يمكن التطرق إلى قضايا مثل:

- استخدام المنهج العلمى فى التعامل مع المشكلات والأهداف على كل المستويات وفى كل المجالات..
- إختيار القيادات..
- أثر العلاقات الشخصية (والعوامل الأخرى) على اتخاذ القرارات فى كافة المستويات..
- الحد الأدنى من الحاجات الأساسية المطلوب توفيرها لكل إنسان مصرى حتى يؤهل المصريين للدخول الجماعى «فى عجلة الإبداع القومى»..
- ملامح القدوة المفترض توافرها والالتزام بها بدءا من أدنى المستويات وحتى أعلاها..
- ظروف وآليات التغذية المرتدة فى تقويم مسيرة التقدم على المستويين الصغير (الوحدة أو المشروع) والكبير (الدولة ككل)..

وختاما اقترح أن يكون «الإبداع الجماعى للمصريين» أو «التقدم القومى الأسى» هو المشروع القومى الذى يبدأ بناءه بالحوار الوطنى الذى دعا إليه الرئيس، فهل يمكن أن يدار الحوار الوطنى بطريقة تتيح الإبداع الجماعى للمشتركين فيه ومن ثم كل مصر.

هذا هو ما نتمناه، وهذه هى بداية التقدم الأسى المتسلسل.

(٣)

من الإبــداع الفــردى . .

إلي إبداع إدارة المجتمع..

الإبداع المجتمعي يمثل «حاجــة» وليـس «رغبـة» بالنسـبة للدول النامية، تماما كحاجة الكائن الحــى إلى الماء. مـا هـو الإبداع المجتمعـى؟ ومـا هـى مكوناتـه؟. مـا علاقـة الإبـداع المجتمعـى بـالإبداع الفـردى؟ كيـف يمكـن إنجـاز الإبــداع المجتمعى؟ إن التعامل مع هذه التساؤلات (أو الاشـكاليات) وغيرهـا، كمـا سيتضح فـى الجزئـين التـاليين، هــو أمـر ضـرورى حتـى يمكـن إدراك الداخـل والامكانيـات الخاصـة بحـدوث مـا يمكـن تسميته التوافـق فـى ذبذبــات الإبــداع المجتمعى، مثلما حدث ويحدث فى اليابان وألمانيا.. ومثلمـا يمكن أن يحدث في مصر وفى بلداننا العربيــة.. وفـى سـائر الدول النامية (ولكن بشروط)..

بالرغم من الطول النسبى للرحلة التى قطعها علماء النفس فــى دراسـة الإبداع وأسسه النفسية الا أن المنظور التقليدى للإبداع يظل محصـورا فـى مجال «إبداع الفرد» ولم يصل بعد إلى ما نود جذب الانتبــاه إليـه ونعتقـد أنه آن الآوان لتداركه وهو «الإبداع المجتمعى»..

والمقصود بالإبداع المجتمعى ليس تأثير العوامل الاجتماعية أو المناخ الاجتماعى على إبداع الأفراد، وإنما حدوث نشاط إبداعى جماعى يظهر فى أشكال مثل تطور فى السلوك العام فى المجتمع يحدث على غير المتوقع وفى فترة قصيرة مثلما فى سنغافورة، أو ارتفاع فى مستويات الاداء (كظاهرة عامة) بشكل غير عادى بالمقارنة بالمجتمعات المماثلة التى تعيش ظروف متشابهة مثلما حدث فى الخمسينات والستينات فى اليابان، أو إعادة بناء المجتمع فى وقت قصير وبمعدلات أعلى من المنتظر مثلما حدث فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، أو توصل مجموعات متضافرة من المجتمع إلى إنجاز كان من المستحيل توقعه من وجهة نظر خبراء من خارج المجتمع وذلك مثلما حدث فى تحطيم خط بارليف وعبوره وتحقيق الانتصار العسكرى المصرى فى أكتوبر ١٩٧٣، أو حتى تآلف وتضافر مجموعات متعددة من الأفراد فى التوصل إلى تحقيق إنجاز يعتبر طفرة بالنسبة للأوضاع السائدة وذلك مثل تسيير مركز بحوث الكلى الذى أنشأه د. غنيم فى المنصورة أو مثل توصل جماعة من العلماء مختلفى التخصصات من خلال تبادل الفكر إلى الكشف عن مجال علمى جديد مثلما حدث بخصوص السيبرناطيقا. وبالرغم من أن دور الفرد فى كل الإنجازات السابقة رئيسى ولا يمكن إهماله إلا أن الأمر الحقيقى أن الإبداع المجتمعى فى كل هذه الإنجازات كان أكبر من المحصلة الجبرية لمجموع الإبداعات أو الجهود الفردية للأفراد المشاركين فى الانجاز سواء كان عددهم بالعشرات (مثل حالة مركز الكلى) أو الآلاف مثل نصر أكتوبر أو الملايين مثل الإبداعين الألمانى واليابانى..

نحن إذن أمام إبداع من نوع خاص يمكن أن نطلق عليه «الإبداع المجتمعي» وهكذا، إذا كان الإبداع الفردى يظهر في توصل فرد إلى انجاز غير عادي أو تحقيقه لاستجابة غير عادية تجاه أمر ما (في مجالات علمية أو فنية أو لغوية.. الخ) فإن الإبداع المجتمعي في المقابل يظهر في زيادة الكفاءة العامة للمجتمع (سواء هو مجتمع صغير على مستوى الوحدة أو كبير على مستوى الدولة)، أو في تقليل الفاقد العام أو في تحقيق ما يبدو لغيره من المجتمعات أنه معجزة. وفي إطار الإبداع المجتمعي يجرى التفاعل الجماعي الرشيد مع «عوامل التميز» من أجل توظيفها بأعلى كفاءة ممكنة وكذلك التعامل مع السلبيات بهدف معالجتها وتقليل أو محو انعكاساتها، كما أنه في إطار الإبداع المجتمعي يجرى تسريع اكتشاف وحضانة الإبداعات الفردية حيث يكون لهذه الإبداعات انعكاسات مباشرة وغير مباشرة على الإبداع المجتمعي ذاته كما يكون بين الإبداعين تغذية مرتدة Feed back في غاية الأهمية لكليهما.

مما سبق يتضح أن للإبداع المجتمعي خصوصياته التي تميزه عن الحال في الإبداع الفردى وذلك من حيث المواصفات والمتطلبات والنتائج.

وفي تقديرنا يعتبر الإبداع المجتمعي بالنسبة للبلدان غير المتقدمة«حاجة» وليس رغبة والفارق بين الحاجة والرغبة كبير فبدون سد الحاجة يستحيل استمرار الحياة السليمة (مثل حاجة الإنسان إلى الماء والطعام والملبس والمسكن والعلاج) أما تحقيق أو عدم تحقيق الرغبة فهي

مسألة تؤثر فقط في نوع وشكل الحياة وليس في استمراريتها. مثلا إبداع العسكريين المصريين بشأن عبور خط بارليف كان استجابة إلى حاجة وطنية تتعلق بسلامة الحياة. وليس مجرد رغبة وبالمثل كان الإبداع الألماني بعد الحرب العالمية الثانية استجابة لحاجة قومية وليس مجرد رغبة..

وإذا كان من شأن الإبداع المجتمعي إحداث إنجاز غير عادي في فترة زمنية وجيزة وربما بإمكانيات بشرية ومادية محدودة فإنه يمكن وصف التقدم الذي يحرزه هذا الإنجاز (من حيث أهميته وحجمه وعمق قيمته بالنسبة لتكاليفه الزمنية والمادية والبشرية) بالتقدم الأسي والتقدم الأسي في رأينا منهج يمكن من خلال التطبيق الجيد لهَ أن تتمكن مجتمعات العالم الثالث من اجتياز الفجوة بين الشمال والجنوب والوصول إلى مكانة مناسبة في استيعاب التقدم العالمي واللحاق به ثم المشاركة في إحداثه. الإبداع المجتمعي إذن بالنسبة لمجتمعات العالم الثالث وفي إطار ظروف ومستقبل المتغيرات العالمية الجارية حاجة أساسية (مثل الحاجة إلى الماء والهواء) وليس مجرد رغبة يمكن الاستغناء عنها. هذا، ويمكن تصنيف مكونات الإبداع المجتمعي إلى ثلاثة أنواع رئيسية كما يلي:

١ - التزام الأفراد والجماعات بالعمل كل في تخصصه وتعميق وتجويد مهارات الاداء ونظم التأهيل والتطوير في التخصصات المختلفة، وهكذا في ضوء هذا التوجه يكون شيوع انشغال معظم الأفراد بالارتزاق من عملين مختلفين (أحدهما في الغالب بعيد عن التخصص) هو نوع من الفاقد الاجتماعي العام (أمثلة أستاذ الجامعة الذي يعمل بالتجارة

أو الموظف صاحب السوبر ماركت أو الكيميائى المقاول أو الباحث العلمى الذى يفنى وقته فى أعطاء دروس خصوصية.. الخ.. الخ)..

٢ - سيادة التفكير السليم والمنهج العلمى على كافة المعايير والقيم والممارسات فى المجتمع بمعنى إعمالها باستمرار بحيث يكون من شأن ذلك تصحيح الفكر الشائع أو المشوه تلقائيا ومتى كان ذلك ضروريا. ويتطلب هذا النوع من مكونات الإبداع المجتمعى التنمية التربوية والتعليمية والإعلامية السليمة غير المختلة كما يتطلب ثقافة علمية متطورة باستمرار..

٣ - التحفيز والتنظيم المجتمعى للإبداع الجماعى ولهذا النوع من المكونات آلياته والتى تتناول الإدارة والتخطيط والتقييم والتشريع والترفيه.. الخ. وتجدر الإشارة بشأن هذه الآليات إلى ضرورة أن تكون على الدوام جديدة ومتجددة (حسب ما تقتضيه ظروف التطور والتغيير) وإلا تحولت هذه الآليات من آليات للتحفيز إلى قيود لاحكام الجمود.

هذا وتتدرج الأنواع الرئيسية الثلاثة السابق الإشارة إليها (بشأن مكونات الإبداع) حجما وعمقا وخطورة طبقا للمستوى المجتمعى المنوط به إحداث الإبداع بدءا من مستوى الوحدة (المصنع او المدرسة الخ) مرورا بمستوى المشروع الكبير مثل حرب أكتوبر والسد العالى ومحو الأمية والحفاظ على البيئة.. الخ وحتى مستوى الدولة ككل..

وبشأن الآثار المترتبة على الإبداع المجتمعى فإنها تتضمن بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه فى بداية الفصل حسن استغلال الوقت والإمكانات – التكامل بين الأجزاء التى تصنع الكل – الاعتماد على الدراسات العلمية فى اتخاذ القرار – الحد من صدى الرؤى والعلاقات الشخصية فى تسيير الأمور الاحترام العام لقيم التطوير والرقى – غربلة القيم الجديدة وتحجيم المعاكس منها للإبداع المجتمعى – التخطيط بعيد المدى وحسن توظيف الأفكار الطيبة والتصحيح التلقائى والمستمر للمفاهيم الخاطئة..

(٤)

الإبداع المجتمعى . .
وضرورة الإدارة « المبدعة »

إذا كان الإبداع الفردى ينبع أساسا من الفرد ذاته ويتأثر مباشرة بالحوافز الداخلية فيه فإن المؤثر الحيوى الرئيسى فى الإبداع المجتمعى هو الإدارة.. إدارة الإبداع المجتمعى، فالمسألة لا تتعلق بفرد ما، إنما بمجموعة أو مجموعات كبيرة من الأفراد. هذا النوع من الإدارة «إدارة الإبداع» يختص باكتشاف الإمكانيات الكامنة فى الجماعة وبتسريع الإنجازات المجتمعية سواء فى السلوك أو فى التذوق الفنى أو فى العلم والتكنولوجيا.. الخ.. بحيث يصل المجتمع المعنى (صغيرا أو كبيرا) من خلال تضافر مكوناته وحسن التنظيم والأداء إلى إنجازات كبيرة غير متوقعة فى وقت أقل وبتكلفة مناسبة لا تسبب إرباكا للموارد سواء هى الزمن أو الثروات المادية أو الإمكانات البشرية.. وهكذا يكون من المهام الرئيسية لإدارة الإبداع كشف القيمة الفاعلة للموارد وتحريكها فى منظومة إيجابية تجعل الفاقد فى الموارد أقرب إلى الصفر. إدارة الإبداع إذن تبدأ من «فوق».. من القيادات على أى مستوى وفى أى مجال. وأمام القيادات كل فى مجاله مهام رئيسية تختص بتحديد ما يلى:

أولا: الأهداف الجزئية للإبداع المجتمعى:

بمعنى الإنجازات التى يمكن أو يفضل أو ينبغى التوصل إليها من خلال الإبداع المجتمعى.

ثانيا: آليات الإبداع المجتمعى:

وهنا ينبغى الإشارة إلى أن منهج إدارة الجودة الشاملة total quality management والذى يقضى بأن كل فرد أو مجموعة يعطي لبقية الأفراد أو المجموعات أحسن ما لديه من إمكانيات وأداء هو منهج ملائم تماما كركيزة أولية في طريق التوصل إلى الإبداع المجتمعى، كما أن آليات الإبداعىالمجتمعى ينبغى أن تأخذ فى الاعتبار (من خلال منهج علمى) اكتشاف عوامل التميز المجتمعى واستخدامها.. وكذلك تحديد العوائق الاجتماعية والتغلب عليها، مع ضرورة الالتفات إلى التكوين الثقافى التراثى للمجتمع ككل، وتحديد سلبيات التكوين الثقافى السائد، ثم وضع خطط لمعالجتها، والتوصل إلى تكوين ثقافى حيوى ومتقدم..

ثالثا: تقويم الإبداع المجتمعى:

الإبداع المجتمعى أمر ينبغى إخضاعه للقياس الكمى من خلال معايير موضوعية، فهناك درجة ما من الإبداع المجتمعى سائدة (سواء بالموجب أو السالب) ينبغى قياسها وتحديدها حتى يمكن متابعة وترشيد حركية التحول الإبداعى المجتمعى.. وبدون المتابعة والترشيد القائمين على أسس علمية يتعذر تحويل مخرجات عمليات التقييم إلى مدخلات (كتغذية مرتدة) بالنسبة لتحديد وتطوير كل من أهداف وآليات الإبداع المجتمعى..

رابعا: تحديد فترة العمر النصفى للتحول الإبداعى المجتمعى:

بمعنى تحديد الزمن اللازم لوصول إبداع مجتمعي ما إلى ٥٠٪ من إنجازاته ومعالمه في أى فترة من حياته والمعنى الذى نقصد إليه هنا أن الإبداع المجتمعي ليس كمشروع تجارى نقول مثلا سنكسب منه كذا في خلال كذا.. لكنه حركة مجتمعية مستمرة ومتواصلة تتطور مع الزمن وتستمر دوما في الرقي.. ولا تنتهي، ومن شأن تحديد فترة العمر النصفي التنبؤ بمستقبل الإبداع المجتمعي (مساره وآثاره) وبالتالى مستقبل تفاعله مع المناخ المحيط وخاصة تلاقيه مع الإبداعات المجتمعية الأخرى الموجودة أو المحتملة..

الفائدة المركبة للإبداع المجتمعي:

ومن أعظم خصائص الإبداع أن أبعاده الإيجابية تنتشر سريعا في تفاعل نفسي اجتماعي متسلسل حتى ليخيل للمشاهد من الخارج أن الجميع مشتركون تماما في نفس الفهم والاستيعاب ومتفقين على كافة المبادئ.. مثلا نحن نقول أن خصائص الإبداع اليابانى أو الألمانى كذا.. وكذا أو أن المنتجات اليابانية أو الألمانية تتصف بكذا.. وكذا.. وحقيقة الأمر أن ملايين الشعب اليابانى أو الألمانى لم تجتمع في ساحة للاتفاق على شيء، الا أن تفاعلا اجتماعيا متسلسلا ومحدد الهدف قد بدأ في وقت ما في مجال ما واتسع أفقيا ورأسيا بحيث كان في كل لحظة ينتشر ويطور نفسه إلى أن وصل الأمر إلى إبداع مجتمعي على مستوى الكل.. ألم يحدث نفس الشيء بشأن تحطيم خط بارليف؟؟ لقد انتقل حماس وفكر القادة إلى رغبة وإمكانات الأفراد (والعكس أيضا) على كافة

مستويات الجيش بحيث حدثـت طفـرة مجتمعيـة مركبـة أدت إلى إبـداع الانتصار العظيم فى أكتوبر .

ويـهمنا بخصـوص منـاخ التفــاعل الإبداعــى المتسلســل ذى الفــائدة الاجتماعية المركبة التحذير من أن التنظيم والتنسيق لا يعنيا المركزيـة بـل يقتضيان إتاحة درجات حرية degrees of freedom علـى المستويين الجماعى والفردى بحيث تكون هناك مساحة جيدة (فرصة) لحـدوث مـا يمكن تسميته بالتوافق فى ذبذبات الإبداع المجتمعى resonance of social creativity والذى معه تتسق دوافـع تحقيـق الـذات الفرديـة مـع متطلبات وأهداف تحقيق الذات المجتمعية.. بل وأكثر من ذلك فإن رنين الإبداع المجتمعى هذا يسمح بـ (ويساعد على) استيعاب الـدروس والعـبر من إبداعات المجتمعات الأخرى ويحد من فـرص تكويـن أيـة توجـهات تعصبية محدودة الأفق..

(٥)

التوظيف الاجتماعى للعلم والعلماء

التوظيف الاجتماعى للعلم والعلماء فى أى مجتمع هو أساس للنجاح فى نسج التنمية بنسيج المعرفة، وهو الأمر الذى يكفل تحقيق المجتمع للإبداع وللتقدم وللتنافسية. إن هذا الاعتبار (أو هذا الشأن) بالنسبة للدور المجتمعى (أو الوطنى) للعلم والعلماء يجذب الانتباه إلى أهمية التعرف على خصوصية ومهام العلماء فى بلداننا النامية. فهل الاشتغال بالعلم فى المجتمعات النامية يتطلب من المشتغلين بالعلم مهام خاصة قد لها تكون من متطلبات الاشتغال بالعلم فى البلدان المتقدمة؟ إنه موضوع هام وحرج، ليس فقط بالنسبة لمنظومات البحث العلمى فى المجتمعات النامية، وإنما أيضا بالنسبة لعمليات تسيير وإدارة الإبداع الوطنى بوجه عام فى هذه البلدان، وهنا قد تظهر اختلافات جوهرية فى مسئوليات العلماء فى «الجنوب» عنها فى «الشمال»

تتحدد وظائف العلم ومهام العلماء بوضوح فى مجتمعات البلدان المتقدمة حيث أن البحث العلمى نشاط اجتماعى حيوى له عائد إنتاجى عال سواء فى مجال تقديم معرفة جديدة أو فى مجال تطوير الحياة إلى الأحسن والاستفادة من الطبيعة والتحكم فيها وكذلك فى الحفاظ على

المصالح الأمنية للدولة. لكن الأمر يختلف فى كثير من البلدان النامية ومنها مصر حيث لم يتوحد العلم بعد كقوة إنتاجية مع باقى عناصر القوة (خاصة في الإنتاج والتنمية) ولأن العالم (المشتغل بالعلم) هو العصب الرئيسى للبحث العلمى.. ولأن البحث العلمى متخلف عن دوره فى تقدم أوجه الحياة في معظم بلدان العالم الثالث ومنها مصر فإن هناك حاجة وضرورة إلى تحديد من هو العالم.. وهل مواصفات العالم ومهامه فى بلد كمصر تختلف عنها في بلد متقدم كألمانيا أو أمريكا مثلا؟

من هو العالم

تعبيرات أدبية رصينة كثيرة ظهرت فى وصف العالم وتعريفه.. منها أنه شخص ذو مقدرة عالية على عمل التجارب للتحقق من صحة فروضه العلمية.. ومنها أنه ذلك الشخص الذى لا يتلف الحقيقة مهما بلغت أزماته المعيشية ومهما بلغ ضعفه الإنساني.

وعن سلوكيات العالم فإن المتخصصين فى شئون العلم يعددونها فيما يلى:

- أنه مستعد دائما أن يجعل معرفته الجديدة متاحة لزملائه وفى نفس الوقت يتجنب العجلة فى إذاعة نتائج ما يقوم به من بحوث.
- أنه لا يسمح لنفسه أن يكون ضحية للولع الذهنى بأفكار مزاجية طارئة غير أصيلة وفي نفس الوقت بظل مرنا يحسن استقبال الأفكار الجديدة الواعدة ويتجنب التعصب لأفكار تقليدية.

- أنه يعمل من أجل تحقيق القناعة العلمية وليس من أجل تثبيت أو تغيير قناعات الآخرين.
- أنه لا يتمادى في استناده للمعارف الجديدة إلا بعد أن ترقى فوق مستوى الشك والجدل، لكنه في نفس الوقت يدافع عن أفكاره ونتائج أبحاثه مهما كانت الاعتراضات الموجهة ضده.
- أنه يبذل كل جهد ممكن لمعرفة أعمال من سبقوه ومن يعاصرونه في مجال تخصصه، لكن مداومة القراءة والتوسع في التعرف على أعمال الآخرين لا تصل إلى درجة تعطيله عن القيام بعمل خلاق.
- أنه يدقق بانتباه في التفاصيل. لكنه أيضا لا يهمل العلاقة بين التفاصيل وبين «الكل» الذى تنتمي التفاصيل إليه ويجمعها في إطاره.
- أنه يدرك واجبه الأصيل في تدريب أجيال جديدة من العلماء لكنه لا يسمح لمهام التدريس والتدريب أن تستولى على كل طاقته على حساب مساهمته في تقدم المعرفة.

وبعد.. في الدول المتقدمة نجد أن التزام العالم بما أشرنا إليه من تعريف وسلوكيات يمكنه من المشاركة بفاعلية في تقدم بلده. فهل يكفي التزام العلماء في الدول النامية ومنها مصر بهذا التعريف وهذه السلوكيات حتى يكونوا بحق علماء قادرين على المشاركة الفعالة في حياة بلادهم؟ أم أن الظروف في الدول النامية تستلزم تعديلات جوهرية على تعريف العالم وعلى خصائصه وسلوكياته؟

عند الإجابة عن هذا السؤال – إذا أعتبرنا مصر أنموذجا لنا – فإن هناك موضوعين ينبغي التطرق إليهما:

أولا : الظروف العامة التى تتداخل مع (وتؤثر فى) عمل ومهام العلماء فى مصر.

ثانيا: الظروف الذاتية الخاصة بالعلماء فى مصر.

الظروف العامة التى تتداخل مع مهام العلماء:

- يوجد المشتغلون بالعلم فى مصر فى ثلاث جهات رئيسية ليس هناك تنظيم للتوفيق والتكامل بينها.

(أ) الجامعات (تابعة لوزارة التعليم) وفيها ٧٥٪ من المشتغلين بالعلم.

(ب) مراكز ومعاهد بحوث (تابعة لوزارة البحث العلمى) وفيها ٧٪ من المشتغلين بالعلم.

(جـ) وحدات وهيئات بحوث (تابعة للوزارات المختلفة) وفيها ١٨٪ من المشتغلين بالعلم.

- ليس هناك - بوجه عام - خطة عامة لا بخصوص توزيع المشكلات البحثية ولا بخصوص طبيعة البحوث من حيث هى بحوث أساسية من أجل زيادة الحصيلة المعرفية الأكاديمية أو بحوث أساسية موجهة لحل مشكلات معينة أو بحوث تطبيقية موجهة مباشرة لخدمة عمليات صناعية وإنتاجية محددة.

- عدم خضوع الانفاق على البحث العلمى - رغم ضعفه - لترشيد معقول. على سبيل المثال قد نجد أكثر من نسخة من جهاز غالى الثمن

فى معهد واحد أو فى جامعة واحدة.. أو فى نفس المدينة.. وفى نفس الوقت تنقص أجهزة أخرى هامة كان من المكن توفيرها إذا وجد ترشيد فى الحصول على الأجهزة وفى العمل عليها. نفس القصور نجده بالنسبة للدوريات العلمية والاتصال والتدريب.. وتنظيم استخدام المعلومات.. وتنظيم وإدارة المهام والمشروعات البحثية.. الخ..

- بيروقراطية عتيقة فى الأداء الوظيفى بوجه عام داخل دور ومراكز العلم والبحث.

- تواضع إحساسنا فى مصر بدور العلم والتكنولوجيا فى التقدم وفى التنمية إذ ينبغى أن تكون هناك سياسة علمية تكنولوجية واضحة ومكتوبة تتكامل مع السياسة العامة للتنمية على المدى الزمنى القريب والبعيد. كما ينبغى أن يجرى تحضير وتجهيز القرارات العليا فى الدولة استنادا على مفاهيم ودراسات علمية.

- عدم وجود نظام واضح وثابت ومعقول لتقييم أنشطة البحث العلمى.

الظروف الذاتية الخاصة بالعلماء

- نسبة عالية من المشتغلين بالعلم فى مصر هم نتاج نظام جامد للامتحانات فى مرحلة البكالوريوس وفى الدراسات العليا.. نظام يعتمد على الحفظ والاستظهار والتبعية للأستاذ أكثر مما يعتمد على تحريك العقل وحرية الفكر وتشغيل المنهج العلمى. وإلى حد ما يعاد إنتاج العلميين فى مصر على هذا الأساس فى صورة باحثين وأساتذة

جدد. يحدث ذلك في دائرة شبه مغلقة يصعب في ظل الأنظمة الحالية الفكاك منها.

- غيبة المنهج العلمي وعدم الالتزام به في التعليم والبحث أسقط عن البعض من المشتغلين بالعلم القيم العلمية الأصيلة الثابتة للعلم مثل الموضوعية والنزاهة والأمانة العلمية معا قد أثر في النهاية على الأخلاق العلمية والعلاقات بين العلميين (ساعد على ذلك أيضا ظروف اقتصادية واجتماعية أخرى) مما أنتج ظواهر غير مستحبة في الوسط العلمي تطفو آثارها على السطح من وقت لآخر.
- استمرار غياب سياسة علمية أسهم في تحويل اهتمام الباحثين والعلماء من العلم كوظيفة إنسانية اجتماعية إلى اعتبارات شكلية مثل التسابق في نشر الأبحاث من أجل الترقية.. وكذلك التسابق من أجل المشاريع أو السفر للخارج أو تبادل المنفعة المادية أساسا كأساتذة زائرين ومستشارين.. أو .. أو . كل ذلك – بالطبع – بعيدا عن أي فائدة جوهرية «تراكمية» سواء للعالم نفسه أو للمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها.
- تلاشي خصوصيات البحث العلمي في مراكز البحوث التابعة للوزارات وللأكاديمية وذلك بفعل تبعية هذه المراكز لنظم العمل في الجامعات.. وكذلك بفعل سيطرة الجامعات على منح الشهادات والترقي للعلماء العاملين في هذه المراكز.
- مازالت علاقة العالم بالبحث العلمي كموضوع أو مشروع تقع إلى حد كبير تحت سيطرة العلاقات الشخصية والمجاملات أكثر منها علاقة موضوعية مع أهداف البحث أو المشروع ومع المواد المالية المتاحة.

(٦)

من هو العالم فى بلداننا النامية ؟

أوضحنا فى الفصل السابق وجهة نظرنا فى الظروف العامة والخاصة التى تؤثر على العالم وعلى ضوء تلك الظروف، يمكن الزعم بأن البحث العلمى فى مصر فى معظمه بعيد عن وظيفته الخاصة بتقدم المعرفة أو تقدم مجالات الحياة، وأن نسبة غير قليلة من العلماء فى مصر بعيدون عن وظيفتهم تجاه العلم وتجاه الوطن.

وبذلك يبرز سؤال أساسى لابد من طرحه ومواجهته هو: من هو العالم المصرى.. وماذا يفعل؟

أو بصياغة أخرى هل يمكن القول بأن الخصائص التى من المفروض أن يتصف بها العالم فى مصر هى نفس الخصائص التى يتصف بها العالم فى المجتمعات المتقدمة؟

الخصوصيات القائمة فى الحياة العلمية فى مصر.. وكذلك خصوصيات العلاقة بين المؤسسات العلمية من جانب والدولة والتنمية من جانب آخر تفرض على العالم المصرى (من خلال مسئوليته الاجتماعية كعالم) خصائص إضافية جديدة ومختلفة تماما عن تلك الموجودة فى البلدان المتقدمة.. فالعالم فى مصر مطلوب منه فوق أن يكون منهجيا وموضوعيا ونزيها ومبدعا وملتزما الخ.. أن يكون أيضا «مناضلا».

وليس النضال هو أن يمسك ببندقية أو يساهم فى أعمال سياسية صرفة.. بل النضال هو فى أن يحاول أن يقوم بوظيفته من خلال «مسئوليته الاجتماعية».. وهى مسئولية مختلفة كثيرا عن مسئولية العالم فى البلدان المتقدمة.

فالعالم هنا ينبغى:

- أن يشارك فى صياغة أهداف جديدة محددة للبحث العلمى.. وهى مختلفة عن الأهداف فى فترة ماضية.. فهناك على سبيل المثال تخصصات جديدة ينبغى الاهتمام بها.. وهناك مزج جديد للخبرات الموجودة ينبغى أحداثه.
- أن يساهم فى الاستفادة العظمى من المخزون العالمى للمعرفة العلمية ومن التقدم الجديد الحادث فيه بمعنى أن يقوم العالم المصرى باستيعاب التقدم العلمى العالمى (فهمه وهضمه) ثم باختيار المناسب منه لاحتياجات مصر، وتطويع المعرفة المناسبة لتسهيل الاستفادة منها (سواء فى الإنتاج أو الخدمات).
- أن يعمل بدون كلل على استحضار العلم والتكنولوجيا إلى مجالات التأثير فى السياسة العامة للدولة.. ويتطلب هذا التوجه صبرا ومثابرة وقدرة فى الإقناع والمصارحة وضرب الأمثلة وتقديم الدراسات المناسبة.
- أن يستعين بالمنهج العلمى عند تعظيم استخدامات العلم من أجل التنمية.. إن العالم الأصيل الذى يعى ما قدمه الاعتماد المكثف على المنهج العلمى والقدرات العلمية والتقنية أثناء الأزمات (مثلما حدث

أثناء الحرب العالمية الثانية وفى عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف) يمكنه أيضا أن يساعد مصر فى عبور أزماتها بواسطة تعظيم استخدام الإمكانات العلمية والتقنية المصرية.

• أن يدرك أن البحث العلمى الحقيقى المطلوب فى مصر لا يحتاج فى المقام الأول إلى النقود أو الإمكانيات البشرية أو المعملية أوالشهادات.. الخ، إنما الحاجة الحقيقية هى إلى تخطيط سليم لمنظومة البحث العلمى فى مصر وكذلك إدارة فعالة لكل مستويات هذه المنظومة.

• أن يدرك أن المسئولية الاجتماعية له فى ضوء ظروف مصر تستلزم مساهمته فى «رفع كفاءة الحياة فى مصر».. وهذا بدوره يستلزم درجة عالية من المزج والتوحد فى العلم والتكنولوجيا.. فالمعرفة فى مصر يجب أن تكون من أجل حسن استخدام المعرفة العالمية (علمية وتقنية) من أجل تطوير وجه الحياة على أرض مصر.. وفى هذا الإطار من المتوقع بعد هضم واستيعاب المعرفة العالمية التوصل إلى معرفة محلية علمية وتقنية جديدة هناك حاجة مصرية إليها.

• أن يدرك حاجته وحاجة مصر إلى حسن استخدام الإمكانيات العلمية الوطنية فالمعامل والدوريات والخبرات كلها مصرية وطنية ينبغى تعظيم الفائدة منها بفتحها - بنظام - على بعضها البعض.

• أن يثق بكفاءته وبدوره التاريخى الذى لا يقل فى تقديرى عن دور «المقاتل المصرى فى حرب أكتوبر».. وليدرك العالم المصرى أنه هو الشخصية المنوط بها - تاريخيا - رفع قدرة الإنسان المصرى على

«التنمية الذاتية للوطن» وليس الاعتماد الأساسى على الديون أو على الخبرة الأجنبية.. بمعنى أنه منوط إليه الاستخدام المعرفى الخلاق للإمكانيات المصرية (بحيث تتعظم القدرة الذاتية على حل المشكلات والتنمية) وتنمية ثقة المصرى بنفسه وبمعنى وجوده وبالتزامه بقيم خلقية وسلوكية عليا.

ونلاحظ أن كل إشاراتنا السابقة تنطلق من خاصية رئيسية هى «النضال» وهى خاصية ربما ليست مطلوبة على الإطلاق عند علماء البلدان المتقدمة..

مما سبق نستنتج أن هناك حاجة إلى إحدث توجه «علمى» «نضالى» «جماعى» من العلماء المصريين بشأن مسئوليتهم الاجتماعية تجاه التنمية.. وهو أمر جدير بأن يكون موضوعا للنقاش وتبادل وجهات النظر والاقتراحات حتى يحدث التوجه الجماعى للعلماء المصريين على أحسن وجه ممكن.

(٧)

الثقافة العلمية من منظور منظومى

المنظور المنظومى للأشياء يكفل إمكانيـة التعرف ليس فقط على المدخلات والمخرجات الخاصة بهذه الأشياء، وإنما أيضا على حركيتها الداخليـة. إن تطبيق المنظـور المنظومـى علـى «الثقافـة العلميـة» يكشـف لنـا أهميتـها الحركيـة كمفـهوم وكممارسة ويكشـف عـن التقاطعـات والعلاقـات مـع ثقافـات ومنظومات أخرى، منها ما يختص بـ «الانضبـاط»، ومنـها أيضا ما يختص بـ «التقدم».

إننا نظلم أنفسنا كمجتمع ونظلم الثقافة العلمية ما لم نتعامل معها مـن المنظور المنظومى. إن حصر التعامل مع الثقافـة العلميـة فـى كونـها شيئا أقرب لأن يكون قائما بذاته (تبسـيط العلـوم - المنـهج العلمـى - الفكـر العلمى.. الخ) أمر يؤدى إلى اعتبار الثقافة العلمية جزيرة منعزلـة لا تتـأثر بالبيئة الخارجية من حولها ولا تؤثر فيها، وهذا محال. وأما التعامل مع الثقافة العلمية من منظور منظومى فإنه يساعد على الاقتراب الموضوعى من وضعيتـها.. العوامـل المؤثـرة فيـها.. الإيجابيـات والسـلبيات فـى المنـاخ المحيط بها.. التحديات التى تواجهها.. الانعكاسـات المكنـة لهـا علـى المجتمع ككل.. الخ..

المسألة إذن أكبر من مجرد أن نهتم بتعريف الثقافة العلمية وأن ندلل على أهميتها. إن المنظور المنظومى يتطلب أن نتعامل مع الثقافة العلمية باعتبارها منظومة صغرى داخل المنظومة الثقافية العامة والتى هى جزء من حياة المجتمع ككل.. جزء له أبعاده المنظومية المتداخلة أفقيا ورأسيا مع بقية المنظومات (منظومة السياسات العامة.. منظومة الإنتاج.. منظومة التعليم.. منظومة الفنون.. منظومة الاقتصاد.. منظومة الصحة.. منظومة القيم.. الخ.. الخ).

وفى الوقت نفسه فإن الثقافة العلمية كمنظومة تتضمن داخلها منظومات أصغر منها (منظومة تبسيط العلوم.. منظومة الإعلام العلمى.. منظومة النشر العلمى.. منظومة الرحلات العلمية.. منظومة القيم العلمية.. الخ.. الخ)

ولأن هدفنا الحالى ليس التناول المنظومى المتكامل للثقافة العلمية (وهو أمر يستحق تناولا خاصا)، حيث نهدف - فى إطار المناقشات الجارية - فقط إلى جذب الانتباه لأهمية التناول المنظومى للثقافة العلمية وخطورة تجنب هذا التناول، فإننا نكتفى هنا بالإشارة، وباختصار شديد، إلى «ملمح» منظومى واحد وهو أن الثقافة العلمية نتاج مباشر لعدة مدخلات من أهمها «ثقافة الانضباط»، وأنها ذاتها (أى الثقافة العلمية) مدخل إلى «ثقافة التقدم».

إن اقتراب الإنسان العادى منذ طفولته من الاعتبارات والمفاهيم التى تتضمنها الثقافة العلمية (مثل: المنهج - الشك - الموضوعية - النزاهة - الملاحظة العلمية - الفروض النظرية الخ.. الخ) يتأثر إلى حد كبير بالمسار

المجتمعى حوله. فى هذا الخصوص نلحظ أنه كلما كان هناك انضباط مجتمعى فى القيم المعلنة وفى الأداء، نشأ الفرد على ثقافة الانضباط، وبازدهار ثقافة الانضباط يستطيع الفرد بدون ألم أو خسارة التمييز بين الصحيح والخطأ فى الممارسات الحياتية (مثل: اتباع إشارات المرور، ومتطلبات التعيين والترقى، واحترام الوقت، والتزام أساتذة الجامعات بمواعيد المحاضرات.. الخ.. الخ)، وبالتالى تزداد قدراته على استيعاب وتجسيم الحاجة إلى مفاهيم واعتبارات الثقافة العلمية (مثل: المنهج السليم فى التفكير)، وتزداد قناعته بارتباط هذه المفاهيم والاعتبارات برقية ورقى مجتمعه.

وهكذا، بقدر وجود وانتشار ثقافة الانضباط ينمو أدراك الحاجة إلى الثقافة العلمية. وبمعنى آخر يمكن القول أن المنشطات والمثبطات الخاصة بالثقافة العلمية تنشأ من خلال ما يتم تراكمه يوما بعد يوم داخل الإنسان العادى من أفكار وأحاسيس والتزامات بخصوص انضباطات الشارع والتعليم والإعلام والصحة والرياضة.. الخ. وفى غيبة ثقافة الانضباط تتضاءل الحاجة إلى الثقافة العلمية حيث على الفرد أن يبحث «براجماتيا» عن ثقافة أخرى تؤدى إلى تسهيل أمور حياته (ثقافة العلاقات الخاصة والسمسرة والخرافة والبلطجة وشيلنى وأشيلك.. الخ.. الخ).

وفى الجانب الآخر يلاحظ أنه فى ازدهار الثقافة العلمية تنشيط لتوجهات وآليات ثقافة التقدم والتى يمكن أن تتضمن القدرة على اكتشاف الذات – إمكانية استيعاب الجديد المتقدم عند الآخرين والبدء

من حيث انتهى من هم أكثر تقدما - الأفضليـة للمصلحـة العامـة وتقليـل الفـاقد العـام فـى الوقـت والجـهد - نبـذ الفئويـة والطائفيـة - التنـوع - استحسان التغيير - الكرامة لكل نبى فى وطنه - ارتفـاع القيمـة المضافـة للعمل العلمى.. الخ.

وختاما نود التأكيد على أمرين هامين من الناحية المنظومية بخصوص ما تناولناه عن الثقافة العلمية. أولا، أن العلاقة بين الثقافة العلميـة وكـل من ثقافة الانضباط وثقافة التقـدم هـى علاقـة تبادليـة التأثـير. ثانيـا، أن متطلبات التطور المجتمعي تفـرض أولويـة تعميـق ونشـر ثقافـة الانضبـاط والثقافة العلمية عند الأطفال وكذلك عند القيادات فى وحدات العمل.

(٨)

ما بعد كتاب د. أسامة الباز

الإبداع مشروعنا للقرن الـ٢١

رغم أن لكتاب «مصر فى القرن ٢١ : الآمال والتحديات» أهمية كبيرة بالنظر إلى موضوعه وبالنظر إلى شخصية محرره (د. أسامة البان) وبالنظر إلى الرصيد المعرفى للمشاركين فى تأليف الكتاب وبينهم أقطاب فى الفكر والتخطيط والسياسة والتعليم الجامعى.. إلا أن الأهمية الحقيقية لهذا الكتاب تعود – من وجهة نظرنا – إلى ثلاث نقاط رئيسية :

١ – قضايا استراتيجية وردت بشكل غير مباشر فى ثنايا الكتاب.

٢ – قضايا لم يتطرق إليها الكتاب بينما يدفع عنوان الكتاب لضرورة معالجتها.

٣ – مخرجات للكتاب فى حاجة للاستكمال.

وفيما يلى سنعرض لهذه النقاط فى إيجاز.

أولاً : ست قضايا هامة جدًا وردت فى ثنايا الكتاب – بشكل غير مباشر فى الأغلب – ونعتقد أنها ذوات وزن وحرج استراتيجيين بحيث أن درجة النجاح فى إدارة كل منها وعلاقاته ببقية القضايا تنعكس مباشرة على قدرة ومستقبل مصر فى القرن القادم.

هذه القضايا الاستراتيجية فى حاجة إلى معالجات سياسية من الضرورى أن تكون طويلة المدى وأن ترتكز على مناهج وآليات البحث العلمى.. ويمكن الإشارة إلى هذه القضايا كما يلى:

١ - خصوصية الموارد البشرية فى مصر:

تتصف الموارد البشرية فى مصر بخصوصيات هامة من أمثلتها:

- تركز نسبة كبيرة من السكان فى فئة صغار السن حيث يبلغ من تقل أعمارهم عن ١٥ عامًا حوالى ٤٠٪ من السكان، ومن تقل أعمارهم عن ٣٠ عامًا حوالى ٦٧٪ من السكان.
- ارتفاع معدل الأمية عند النساء إلى حوالى ضعف المعدل عند الرجال.
- عظم المعاناة النفسية والجسدية التى تعيشها المرأة المصرية من خلال محاولتها التوفيق والتوازن بين أدوارها المتعددة خارج وداخل البيت.
- هبوط متوسط دخل الفرد فى مصر عنه فى معظم الدول العربية.
- وجود قوة ضاربة من المتعلمين (مليون من الجامعيين وأكثر من مليونين من الفنيين والإدارة المتوسطة).

ومن الواضح أن كل هذه الخصوصيات تحتاج إلى انتباه سياسى شديد وإلى معالجات استراتيجية خاصة جدًا.

٢ - ضعف الأداء الإدارى والقيادى في المؤسسات العامة والخاصة:

ويربط الكتاب بين هذا الضعف من جهة وسلبيات أخرى مثل التسيب فى معالجة المشكلات وهدر الأموال وتعطيل المصالح فضلاً عن الانحرافات المالية والإدارية من جهة أخرى (وهى أمور أقرّ بها وبسطوتها د. عاطف عبيد وزير التنمية الإدارية فى أهرام ١٩٩٤/٩/٩). ويعزى هذا الضعف إلى أسباب منها - كما جاء فى الكتاب - «اتباع الدولة لسياسة عامة توازن بدقة بين السلبيات والإيجابيات بتحيز واضح لاعتبارات الأمن والاستقرار».

والسؤال الهام هنا إلى أى حد ترتكز مثل هذه السياسة العامة على أسس علمية؟، وهل هذا هو الاختيار الوحيد رغم الإمكانيات البشرية العظيمة الكامنة في مصر والتي تجعل من أبنائها (بدءًا من كبار الأساتذة والعلماء والمهندسين وحتى صغار العمال والفلاحين) وقودًا للتنمية فى بلدان أخرى كثيرة؟!!

٣ - الديمقراطية؛ وضعيتها ومستقبلها:

لقد عرض الكتاب لكثير من الخصوصيات السلبية والإيجابية بشأن الرأى الشعبى العام وتقاليد وتطورات العمل السياسى الوطنى وقوة المجتمع المدنى ومفهوم الشرعية الناقصة، وطرح الكتاب السؤال القضية (أو المعضلة) بإيجاز وبلاغة شديدين، والسؤال هو «هل يسمح النظام الديمقراطى بأن تستخدم الديمقراطية وإجراءاتها لتقويض هذا النظام من أساسه؟».

وفى تقديرنا يعتبر إبراز هذا السؤال على السطح بشأن التأمل الفكرى لمسيرة مصر إلى القرن الواحد والعشرين أمرًا حميدًا.. وفى تقديرنا أيضًا أن مصر بثقلها التاريخى وعمقها الحضارى تختلف بخصوص محاذير الديمقراطية عن النماذج الحرجة الموجودة فى دول العالم الثالث حيث نعتقد أن مشكلات الديمقراطية فى مصر تتجه لأن تتمركز ليس حول القوى السياسية أو النزعات الأيديولوجية ولكن حول ما يمكن تسميته «الكفاءة النسبية للديمقراطية بين أفراد المجتمع».. إذ رغم إتاحة الديمقراطية فإن اختلاف الأوزان النسبية للأفراد والجماعات يؤثر فى كفاءة ومخرجات القدر المتاح لهم من الديمقراطية.. فيمكن مثلاً أن ينال فرد واحد من ممارسة الديمقراطية ما يعجز فى المقابل أن يناله ألف فرد آخرين نتيجة للاختلاف في الوزن النسبى لهذا الشخص الواحد عن الوزن النسبى للألف مجتمعين.. ما هى العوامل المؤثرة فى اختلاف الكفاءة النسبية للديمقراطية بين الأفراد والجماعات فى مصر؟.. ما هى الآثار والانعكاسات الإيجابية والسلبية لهذه الاختلافات؟.. وكيف يمكن (أو كيف يجب) ترشيد هذه المسألة من منظور تحديات وآمال مصر فى القرن الواحد والعشرين؟.

٤ - الإعلام المصرى كدور وقضية:

ورغم أن الكتاب لم يفرد للإعلام تناولاً خاصًا إلا أن من يقرأ الكتاب بذهن نشط يستكشف مواجهة بين دور «الإعلام كجهاز لضخ المديح والإعجاب» ودوره فى «مساعدة أصحاب القرار على إدراك حقيقة

المشاكل القائمة والمسارات والحلول الممكنة»، وتتبلور المسألة أكثر إذا ما وصل التساؤل بخصوص الإعلام إلى دوره وقدرته بشأن مساعدة الرأى العام الشعبى على الاستيعاب والفهم والتعامل مع أنماط الصراعات الراهنة فى المجتمع المصرى - كما عرضها الكتاب - وهى الصراع الثقافى (بين أنصار فصل الدين عن الدولة وأنصار تيار الإسلام السياسى)، والصراع السياسى (بين أنصار سيطرة الدولة وأنصار التعددية الديمقراطية)، والصراع الاقتصادى (مع وضد حرية السوق). إن علاقة الإعلام بهذه الصراعات علاقة مباشرة فما هو التوصيف الإيجابى الممكن لهذه العلاقة؟.. وما هو حال الممارسة القائمة؟..

٥ - تنبؤات هامة:

يحتوى الكتاب فى طياته عددًا من التوقعات التى طرحت بشكل مباشر وتشكل فى تقديرنا موضوعات جديرة بالبحث، وذلك مثل:

- «توقع حركات احتجاجية متعددة يقوم بها الشباب نتيجة شعوره بجمود الأجيال القديمة وتشبثها بالسلطة»..
- «تقادم مهارات الإنسان مع الزمن واحتمال أن يغير الإنسان عمله أكثر من خمس مرات فى خلال عمره».. الخ.

إن أهمية هذه التوقعات تعود إلى مفهوم «التغيير كأداة استقرار» فى هذا العالم، أكثر مما تعود إلى التوقعات فى حد ذاتها.

٦ - مصر «النموذج»:

وإذا كـان الكتـاب قـد أشـار إلى أن العـرب يتطلعـون إلى مصـر القويـة عسكريًا واقتصاديًا وثقافيًا، وأن قيادة مصر تبدو فـى قدرتـها علـى «بنـاء النموذج» الذى يستقطب سواه؛ فإن النموذج الجدير بأن تنطلـع مصـر إلى بنائه (طبقًا لمعايير تاريخية ومتطلبات موضوعية) يرتبط ليس فقط بالعرب وإنما أيضًا بالعمق الأفريقي وبدول الجـوار. وفـى تقديرنـا هنـاك «لحظـة تاريخية» تنتظرها مصـر ويجـب أن «تسـعى» إليـها وهـى بـزوغ مشروع حضارى خلاق خاص بها - أشار إليه الكتاب - ومرتبط بثقلـها كنمـوذج إقليمى تـاريخى. وربمـا تمثـل هـذه اللحظـة التاريخيـة الربـط الموضوعـى والطبيعى بين مصر والكوكبية.

ثانيا: قضايا لم يتطرق إليها الكتاب:

ولأن الكتاب هام جدًا فإن التفاعل الإيجابى معه يكشـف الحاجـة إلى ضرورة تناول قضايا هامـة أخـرى كنـا نـأمل أن يعالجـها الكتـاب نسـرد بعضـها فيما يلى:

١ - دور الدولة ومدى أهمية الأداء الحكومى

فى استكشاف التحديات والتعامل معها وفى تنظيـم الأفعـال الخاصـة بالآمال وهل تقتضى ظروف مصر خصوصية ما فى هذا الصدد تميز مسارها فى إجراءات وتفاعلات العولمة؟ وإذا كان لنا من ملاحظات أولية هنا فـإن التراث التاريخى الوطنى الطويل لمصر عنصر يجـب اسـتيعابه واسـتغلاله بكفاءة فتكون الوطنية المصرية عامل قوة فى تفاعل مصر مع العولمة بحيث

ننتبه إلى أن «الوطنى» فى حالة مصر بالذات يتوافق ولا يتناقض مع «العالمى» وأن هناك حاجة إلى حركية فكرية وطنية جديدة (العربى - ١٣ مارس ١٩٩٥) (أنظر الفصل العاشر فى هذا الكتاب).

٢ - القيم والمعايير والمؤشرات:

فى عصر المعلومات والتحولات الكيفية والمؤشرات الكمية تكون هناك ضرورة لتناول كيفى وكمى خاص بالقيم والمعايير والمؤشرات الحياتية كما يأملها المصريون أن تكون فى القرن الحادى والعشرين، وهذا أمر لم يتطرق إليه الكتاب.. فعلى سبيل المثال ما هو المستوى المأمول لمتوسط دخل الفرد فى مصر عام٢٠٢٠؟. هل يمكن تحديد هدف قومى فى هذا الخصوص؟ وهل سنختار له أن يطاول نظيره فى سويسرا (مثلاً) كما فعلت سنغافورة من قبل؟.. وهل؟.. وهل؟.. وباختصار هل من معايير متطورة محددة - كمًا وكيفًا - يجب أن يطمح إليها المصريون فى مدى زمنى منظور؟

٣ - الطريق إلى التقدم التكنولوجى المصرى:

لأن التكنولوجيا هى الآلية الرئيسية للتقدم، ولأن التطور التكنولوجى يتسارع بعجلة متزايدة، ولأن آليات العولمة تقود إلى تهميش غير القادرين تكنولوجيا فإنه من الخطورة الإبطاء فى اعتبار «التقدم الأسى» exponential growth هو المنهاج الضرورى للتواصل مع المستقبل (راجع دراستنا بعنوان التقدم الأسى فى كتاب الثورة التكنولوجية الطريق إلى مصر القرن ٢١ - تحرير د. محمد السيد سعيد،

وكذلك «التقدم الاسى» فى سلسلة كراسات مستقبلية – المكتبة الأكاديمية – ١٩٩٨). ويبقى فى هذا الخصوص أن التقدم الأسى المصرى فى مجال التكنولوجيا مسألة مصيرية تستحق الانتباه والإسراع إلى معالجات خاصة.

ثالثًا: مخرجات فى حاجة للاستكمال (أو آليات للوصل بين الفكر والممارسة):

يكمن سر التقدم فى أى مجال فى العلاقة التبادلية بين الفكر النظرى والممارسة فكلاهما يقوى الآخر ويطوره.. وبدون هذا الوصل ثنائى الاتجاه بين الفكر والممارسة يضعف كل منهما ويصل إلى طريق مسدود، وخلاصة ما نود طرحه فى هذا الشأن بخصوص كتاب «مصر فى القرن ٢١» أن هناك حاجة إلى أمرين رئيسيين كمخرجات لهذا الكتاب.

الأمر الأول هو الانتباه إلى أن مناهج اكتشاف التحديات والتغلب عليها وتحقيق الآمال فى القرن ٢١ لا يمكن أن ترتكز على الطرق العادية الجارية فى الفهم والعمل والتقييم فهناك حاجة أساسية وتاريخية إلى اللجوء إلى طرق غير عادية تقوم على فكر غير عادى وممارسات غير عادية (ولنقتد بأصالة وعمق اجتهادات وممارسات حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ١٩٧٣)، ولنتذكر دائمًا أن الزمن القادم زمن غير عادى (وذلك بحكم تسارع تطورات العلم والتكنولوجيا وعجلة انعكاساتهما الاقتصادية والسياسية).

وأما الأمر الثانى فهو أن أهمية الكتاب المذكور تبلغ الحد الذى ينبغى معه أن تهتم دور التعليم ووسائل الإعلام والاتحادات والنقابات..

الخ.. الخ بمناقشته والاهتمام بالقضايا التى طرحها والتى لم يطرحها بخصوص كفاءة مصر فى القرن ٢١ بحيث يؤدى ذلك إلى:

(أ) رفع إمكانيات الحس الوطنى national sense فى معالجة التحديات والآمال.

(ب) التوصل إلى رأى عام مستنير من أجل «برمجة» مواجهة التحديات وتحقيق الآمال.

(جـ) التمهيد لمشروع قومى يكون هو (أو يرتكز على) تحريك الإبداع المجتمعى المصرى.

وختامًا، كل التقدير لمحرر الكتاب (د. أسامة الباز) ولمؤلفى فصوله (الأساتذة والدكاترة إبراهيم حلمى - السيد يس - على الدين هلال - وليم قلادة - مصطفى الفقى - عبد الرازق عبد الفتاح - محمد غلاب حسن حنفى - أحمد فخر - مديحة الصفتى - أشرف غربال - محمود توفيق) وللناشر (الأهرام).

(٩)

طريق إلى مصر الأفضل

رغم أن البحث عن الأفضل هدف إنساني عام يستمر ويتواصل على الدوام .. إلا أن سؤال البحث عن الأفضل بالنسبة لمصر يتعدى ذلك التناول التقليدى ويمثل فى حد ذاته مشكلة استراتيجية مصيرية بالنسبة لمصر والمصريين .

لماذا رقم ١١٢ ؟

والأسباب كثيرة .. منها :

١ – ان مصر جديرة بأن تكون أفضل كثيرا جدا عما هى عليه .. ليس فقط لمكانتها التاريخية والحضارية ، وإنما ببساطة جدا لأن دولا أخرى أقل منها حظا فى (المعطيات) تقدمت وصارت نمورا .

٢ – أن الأفضلية معناها التطور النوعي .. والمتنبهين فى العالم كله وفى بعض دول الجوار يعرفون أن التطور النوعى يعتبر تقدما رأسيا ، وأنه يحدث فقط بضمان استيفاء التقدم الأفقى لاحتياجاته .. ويعرفون أيضا أن الذى سيتخلف عن التطور النوعى فى القرن الحادى والعشرين (التسارع العلمى والصراع التكنولوجى) سيفقد امكانية الاستمرار . ونحن فى مصر – وللأسف – ندرك بعض الأهمية للتقدم الأفقى فقط كردود

أفعـال للكـوارث مثـل التعليـم وتنميـة الصعيـد (فـى مقـابل الإرهـاب) ، ومثل أهمية التخطيط العمرانى (فى مقابل السيول) .. الخ . لكننا عمليـا لا ندرك التقدم الرأسى، لا ضرورته .. ولا الطريق المستقيم إليـه .. وإلا ، فمن يستطيع (شخص أو جهة) أن يحدثنا بطريقـة كميـة - مثـلا - عـن تطور المحتوى التكنولوجى للصناعة المصرية منـذ عشـرين عامـا .. مـرورا بالحاضر .. ووصولا إلى ما سيكون بعد عشرة أعـوام. ذلـك إذا كنـا نعيـش من خـلال اسـتراتيجيات وخطـط حيـة .. نفس السـؤال يمكـن توجيهـه بالنسبة لمجالات أخرى .

٣ - أنه بالرغم من بعض الإنجازات هنا أو هناك (فى أمور اقتصاديـة أو فى التعليم أو فى بعض الخدمات مثل التليفونات والصـرف الصحـى.. الخ) : إلا أن المستوى النسـبى لقـدر وسـرعة تحقيـق هـذه الإنجـازات وتكلفتها بالمقارنة بالإمكانيات الكامنة وبسرعة التقدم من حولنا، كل ذلك يجعل من القناعة بالأداء العام فى مصر خطر هائل على حياتنا ومستقبلنا وتأخر كبير فى الإدراك ، فترتيب مصر فـى التنميـة البشـرية يـأتى رقـم ١١٢ على مستوى العالم .. بينما تأتى إسرائيل رقم ١٩ وإيران رقـم ٧٣ ، بل إن مصر تأتى بعد ١٤ دولة عربية ولا تسبق من العرب غير ست دول هى جزر القمر وموريتانيا وجيبوتى والصومـال واليمن والسـودان . وطالمـا نعيش محاولة إرسـاء السـلام فـى المنطقـة تجـدر بنـا الإشـارة إلى تقـارير اقتصادية سويسرية تتوقع أن يكون لإسرائيل فى المستقبل المرتبـة الثالثـة على مستوى العالم بالنسبة لمعامل القـدرة التنافسـية بعـد كوريـا والصـين

وقبل اليابان وأمريكا وألمانيا وغيرهم ..، ولنتذكر إذن أن السلام يحتاج لتقدم اقتصادى تقنى تنافسى رادع .

٤ – وأما السبب الرابع فإنه يكمن فى حقيقة مزعجة جدا وهى أنه بالرغم من أن أبناء مصر فى كل مكان فى العالم يساهمون فى جعله أفضل جدا عما هو عليه ويفعلون ما كانوا يتمنون فعله لبلدهم مصر ، إلا أن إمكانيات المصريين على أرض مصر لا تستغل الاستغلال المناسب .. ، فإلى متى يستمر هدر وتغريب واحباط وسوء (أو عدم) استغلال الامكانات البشرية العظيمة لأبناء مصر ؟

ملامح التقاعس

وبالإضافة لبعض الملامح والآليات المتضمنة فى الأسباب السابق ذكرها ، فإننى أود جذب الانتباه لبعض الملامح والسلبيات الأخرى :

١ – الأحزاب السياسية وعلى رأسها حزب الأغلبية ، هل يشغل بالها (مثلا) قضية مثل استراتيجيات العلم والتكنولوجيا أو قدرات البحوث والتطوير على أرض مصر ، وهل حدث مثلا إجراء مجسم وفعال فى مثل هذه القضايا داخل البرلمان المصرى (مجلس الشعب) ؟ . للعلم جميع الأحزاب والبرلمانات فى الدول المتقدمة أو التى تسعى للتقدم لديها استراتيجيات وخطط ومتابعات متواصلة بشأن مثل هذه المجالات .

٢ – القضايا العالمية ذات الأهمية الاستراتيجية المصيرية على التنمية أو الأمن القومى فى مصر (مثل الجات) ، لماذا تظل معالجاتها فى نطاق حجرات بيروقراطية حكومية ضيقة ولا تتحول إلى قضايا قومية أو قضايا

رأى عام إلا فى وقت متأخر جدًا (وأحيانا بعد فوات الأوان) ! .. ففى حالة الجات - على سبيل المثال - بدأت المسيرة العالمية فى الأربعينات ، وكانت تتشكل مساراتها علنا فى دورات متتالية حتى وصلت فى النهاية إلى دورة أورجواى . ولم نتنبه نحن أثناء ذلك أن العالم (ودورة أورجواى شاهد) يتحول إلى استراتيجيات «التقدم الصناعى النوعى والتصدير» وليس التقدم الأفقى وسد الاحتياجات المحلية ..

٣ - بينما نلحظ أن اهتماما وجهدا كبيرين للعديد من الوزراء وكبار المسئولين موجه للأعمال ذات الصفة الإعلامية مثل افتتاح الندوات والمؤتمرات والمقابلات التليفزيونية فإن الاهتمام متدن بالأمور الأهم والأكثر قيمة وخاصة الفكر الاستراتيجى لهؤلاء المتخصصين فى مجالات تخصصاتهم وكذلك الاهتمام بقضايا (الأطراف) الجغرافية والاجتماعية فى مصر (نقصد بالأطراف أعماق الريف والصعيد .. وكذلك الطبقات المهمشة بالنسبة للاحتياجات الأساسية كالصحة والطعام والسكن والتعليم .. والاستحمام ، حيث لا يفوتنا الإشارة بدون حرج إلى ما امتلأت به الشوارع مؤخرا بما يمكن تسميته (الإنسان الضال) .

٤ - وأما عن المجاملات والمظهرية وسوء استخدام العلاقات الشخصية ، فلقد تفشت هذه السلوكيات وتداخلت مع الإدارة واختيار القيادات واتخاذ القرارات وأدت إلى الانعكاسات السلبية التالية :

(أ) انقلاب هرم القيادات التنفيذية فى مصر بحيث يمكن الإشارة إلى ظاهرة وهى أن العديد من القيادات التنفيذية ليسوا هم الأكفأ والأجدر بالقيادة .

(ب) اجهاض أو تشويه النماذج الوطنية المشرفة (أفرادا ومؤسسات) .

(جـ) حجب الحقيقة أو بعضها عن القيادة السياسية من ناحية ، وعن الشارع المصرى من ناحية أخرى .

والسؤال أليس من الطبيعى أن تقهر هذه السلبيات إمكانية عظيمة بأن تكون مصر أفضل ؟

طريق التحول

من الضرورى عند محاولة الإجابة عن هذا السؤال إدراك ما يلى :

(أ) أن لا فرد بشخصه مهما بلغت عبقريته يستطيع وحده رسم هذا الطريق .

(ب) أن هذا التحول ينبغى أن يكون منظوميا .. بمعنى أنه ليس مجرد خطة على ورق أو دفعة عاطفية ، وإنما (منظومة) مجسمة لها أهداف ومستويات وآليات وفاعليات .. الخ .

(جـ) وأن هذه المنظومة لن تكون فعالة دون أن تكون واضحة وعادلة ، فقد ثبت فى داخل مصر وفى كل مكان من العالم إن الإنسان المصرى – كفرد أو فريق – يكون عبقرى الأداء إذا كان جزءا من منظومة واضحة وعادلة .

وهكذا ، فإن جملة ما نستطيع طرحه هنا هو فقط توجهات تساهم (مع توجهات آخرين) فى اكتشاف الطريق إلى (كيف تكون مصر أفضل جدا ؟) .

التوجه الأول : تكوين رأى عام وطني ضاغط ضد الفساد ، وذلك عن طريق متابعة الفساد وكشفه ودعم القيم الوطنية والأخلاقية الأصيلة ، وكذلك دعم الجهود والنماذج المناهضة للفساد على كل المستويات . والأمر يحتاج فى تقديرى إلى (ترابط) بين الوطنيين المستنيرين في مقابل (تواطؤ) القلة من المنافقين وذوى الفاعلية الكبيرة بسبب مناصبهم وحمية ترابطات المصالح الفردية (راجع - التعامل المنهجى مع ظاهرة الفساد - الأهرام ٩٤/١١/١١) وربما يبدأ هذا الترابط من خلال جهود وأنشطة للأحزاب والجمعيات الأهلية وصالونات الفكر . وفي ظني أن نشأة جمعيات أهلية لمحاربة الفساد ليس بأمر غريب ، بل نحن في مصر في أشد ما نكون حاجة إلى مؤتمر وطني (علمي) عن محاربة الفساد (ملحوظة : صار لمحاربة الفساد مؤتمرات دولية) .

التوجه الثاني : بناء تراكم معلوماتي فكرى عن كل الآراء التي ظهرت وتظهر في شكل مقالات رأى أو دراسات وتقارير خبراء أو توصيات مؤتمرات بشأن الإصلاح والبناء وحل المشكلات في مصر .. وهناك حاجة في هذا الخصوص للتعاون بين مؤسسات مثل جهاز التعبئة والإحصاء وجهاز دعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء وكذلك مراكز البحوث الاستراتيجية .

التوجه الثالث : الحاجة إلى الاستفادة المنظمة ببصيرة خلاصة مصر من جهابذة الفكر والعلم وذلك عن طريق إقامة تنظيم أمثل لاستيعاب التفاعل الجماعى الممكن لرؤاهم وأفكارهم وآرائهم وقدراتهم بشأن (تحدى) تحول مصر إلى الأفضل جدا في السباق العالمي للتقدم . ولقد اقترحت

طريقة للاستفادة المنظمة بامكانات العلماء والمفكرين(طريقة ٥ × ٥ × ٥) ، (أنظر الفصل التالى).

وتتلخص الطريقة فى تشكيل منظومى من حوالى ١٥٠ عالما ومفكرا مصريا يعملون جماعيا فى أطر علمية معرفية محددة بهدف تقديم استراتيجية علمية لتطوير مصر تكون بمثابة العون والوعاء الاستشارى لرئيس الجمهورية فى (معركة) التوصل إلى القدرة الفذة على صنع مصر كنمر كبير ومنافس قوى دوليا وإقليميا .

وختاما ، أعتقد أن العتب الحقيقى يكون دائما على الأكبر والأعرف .. والأكبر مؤسسيا (فى تقديرى) هو رئيس الجمهورية، والأعرف هم جهابذة الفكر والعلم، وفيهما (الرئيس وجهابذة الفكر والعلم) أمل كبير ، وإليهما وإلى كل مصرى تواق لأن تكون مصر أفضل جدا نتوجه بالأمل .

(١٠)

نحو حركية فكرية وطنية جديدة

يُعد الأستاذ محمد حسنين هيكل ككاتب وصحفى مصرى شخصية وظاهرة متميزة على المستويات المحلية والعربية والعالمية ، وهو بين الحين والآخر يطرح بعض الرؤى التى تجذب الانتباه العام فى مجالات القضايا الوطنية والإقليمية ، وفى عام ١٩٩٤ على وجه الخصوص (وربما لأنه العام الخاص بمتغيرات دولية عولمية قاسية على رأسها توقيع اتفاقيات التجارة العالمية «الجات») صدر عن الأستاذ هيكل أربع وثائق رأى بخصوص مصر والأوضاع المحيطة بها إقليميا ودوليا ، تبعها بوثيقة خامسة فى يناير ١٩٩٥ . لقد أطلقنا على هذه الكتابات (أو الوثائق) الخمس ظاهرة هيكل ٩٥ ، وعقبنا عليها برؤية نشرت عام ١٩٩٥ تحت عنوان «نحو حركية فكرية وطنية» ،وقد تضمنت هذه الرؤية اقتراح محدد لكيفية الاستفادة القصوى من كبار نخبة المفكرين والعلماء وأصحاب الرأى فى إطار التواصل العميق مع إمكانيات وطموحات الوطن والمواطنين، وذلك تحت الرعاية المباشرة لرئيس الجمهورية . وفيما يلى هذه الرؤية أو هذا الرأى .

من الضرورى الانتباه إلى أن محاضرة الأستاذ هيكل عن (الأحوال فى بر مصر) - يناير ٩٥ - تمثل الوثيقة الخامسة على مدى الشهور العشرة

بخصوص نفس الموضوع (مصر والأوضاع المحيطة بها اقليميا ودوليا) وقد كانت الوثائق الأربع الأولى كالتالى :

١ - أقباط مصر ليسوا أقلية وإنما جزء من الكتلة الإنسانية الحضارية للشعب المصرى (الأهرام ٩٤/٥/٢٢).

٢ - حوار كتبه الأستاذ محمود المراغى (العربى ٩٤/٧/٢٥) .

٣ - نص محاضرة فى افتتاح مؤتمر الإدارة العليا فى الإسكندرية (الأهرام ٩٤/١٠/٢٩) .

٤ - حوار فى تليفزيون لبنانى (العربى ٩٤/١٢/١٢) .

مفترق طرق

وتمثل الرؤى المطروحة فى الوثائق الخمس ما يمكن أن نطلق عليه (ظاهرة هيكل ٩٥) حيث يطرح فى نهايتها أهمية خاصة بعام ١٩٩٥ كمفترق طرق فى العمل الوطنى . والحقيقة أن ظاهرة هيكل ٩٥ ملحة وحادة وتستحق التفاعل المنهجى معها وهو أمر يضيق حيز المقال الحالى عن تناوله ، لكننا هنا سنكتفى فقط بعنونة الخصائص والملامح والتوجهات الرئيسية التى تميزت بها رؤى الأستاذ هيكل من خلال الوثائق الخمس وبعدها نعرض لما نتصوره اقتراحا مكملا لرؤى الأستاذ هيكل فى إطار العمل الوطنى الممكن .

أولا : الخصائص والملامح والتوجهات الرئيسية لظاهرة هيكل ٩٥ :

لقد تميزت هذه الظاهرة بالخصائص التالية :

١ - الموقف الأيديولوجى الواضح والبسيط.

٢ - الكشف عن عيوب وتناقضات رئيسية فى الأوضاع على المستويات المصرية والعربية والدولية .

٣ - الالتزام بالتعامل المنهجى المؤسس على أبعاد علمية فى فهم التناقضات والقضايا (مثل السلام الاجتماعى - ظاهرة الإرهاب - مراكز القوى - متطلبات إدارة السياسة) .

٤ - القدرة على رؤية الجزء المملوء من الكوب (ونعنى بذلك الإمكانات والتوجهات التى تصنع الأمل وتدفع إلى العمل) .

٥ - القدرة على طرح مسار بديل .

٦ - تقديم تعبيرات ذات مدلولات فكرية قاسية الجمال والمعنى (مثل قوله حتى لا يكون التعاقب فى رئاسة الجمهورية بين رجل واحد ورجل واحد آخر يختاره هذا الرجل الواحد) وقوله (أى محاولة للسباق مع الأيام لابد أن تبدأ من تغيير واسع فى قيادة السلطة التنفيذية) .

ثانيا : الانعكاسات الممكنة والتوجهات المكملة للعمل الوطنى :

فى هذا الخصوص أود جذب الانتباه إلى ما يلى :

١ - أن (ظاهرة هيكل ٩٥) تمثل تجسيدا ملتزما لتوجه عام فى شعور الناس وفكر المثقفين .

٢ - أنها قد جاءت - إلى حد ما - فى الوقت المناسب حيث مصر على أبواب (بل بدأت تعيش) تحديات إقليمية ودولية تستلزم تفعيل أمثل لإمكانيات العمل الوطنى بحيث ترتفع كفاءته إلى أعلى حد ممكن .

٣ - أن قول هيكل (الرئيس هو الرئيس) يعكس ليس فقط شفافية وبصيرة وحكمة وإنما أيضا الأهمية التاريخية للدور الملقى من الشعب ومثقفيه على عاتق الرئيس مبارك .

٤ - أنه من الخطأ تصور أن التفاعل المنهجي مع «ظاهرة هيكل ٩٥» يكون مجرد مزيد من المقالات والحوارات ، فالمقالات والحوارات موجودة من قبل ولن تتوقف أبدا ، لكن الجديد في هذه الظاهرة هو أنها تشير إلى الأزمة باعتبارها مرحلة واجبة الانتهاء ، وأنها تلقى الضوء على توقيت وآليات الخروج من الأزمة بل وتبحث فى توزيع الأدوار والواجبات .. وفى تقديرى أن هذه الظاهرة تضع المفكرين أمام مسئولية الانتقال من الفكر المجرد سواء هو معاناة أو رؤية أو رفاهية ذهنية إلى ما يمكن تسميته (حركية الفكر) .

وحركية الفكر تعنى العلاقة المتبادلة بين مدخلاته ومخرجاته.. بين أسبابه ونتائجه.. بين حجمه وفاعليته ، فبدون علاقة حية بين هذه الثنائيات يظل الفكر في إطار وصفى أو تجريدى أو تنفيسى وبالتالى يكون علميا مجرد ترف أو جلد للذات أو فى أحسن الأحوال يزيد من الاستيعاب الأكاديمى لأمر ما . وأما الإلتزام بحركية الفكر فإنه يضع المفكرين أمام مسئولية أخلاقية واقتصادية كبيرة . يتمثل الجانب الأخلاقى من المسئولية فى الرسالة والجدوى التى يحملها ويحققها فكرهم ، بينما يتمثل الجانب الاقتصادى فى كفاءة العمليات التفكيرية بحيث يكون الفكر منتجا (بكسر التاء) وليس مجرد استعمال للطاقات الذهنية .

تضامن فكرى

والحقيقة أن الرسالة الموجزة لظاهرة هيكل ٩٥ يمكن تمثلها فى العبارة التالية : (نحن المصريين نعيش فترة حرجة من تاريخنا فالبحر وراءنا والعدو أمامنا ، والبحر هو تخلف الأداء العام وأما العدو فهو التحديات والمتغيرات الإقليمية والدولية إضافة إلى التناقضات المحلية). هناك إذن حاجة لطفرة فى العمل الوطنى .. طفرة تتلاءم مع التحديات والمتغيرات .. طفرة نوعية تحول الأمة إلى (نمر) عل غرار ما حدث لليابان وللنمور الآسيوية وغيرها .. وإذا كان هذا التحول «فعلا» فإن الشعور به واستكشافه ووضع أبعاده وتنفيذه ومتابعته يلزمه «فكر» ..

نحن إذن فى حاجة إلى (حركة فكرية جديدة) تتمثل فى تضامن فكرى وعملى بين كبار المفكرين والمثقفين والخبراء يكون بمثابة (حركية فكرية وطنية) تعلو على مجرد الاهتمام والرؤى الفردية والجزئيات الأيديولوجية وتمثل التواصل والتجانس الممكن بين أعضائها على اختلاف انتماءاتهم الفكرية وتنوع تخصصاتهم ، وذلك بهدف تحقيق «أمثل تفعيل ممكن» يهدف إلى تقدم مصر وتغلبها على مشكلاتها .

والمطلوب من هذه الحركة الفكرية ليس الاحتجاج وليس المقالات والمحاضرات والندوات وليس إصدار بيانات ..

المطلوب فى تقديرى هو الاجتماع بالأسلوب العلمى على استيعاب ورؤية جماعيين بشأن :

(أ) تناقضات الواقع الوطنى .

(ب) تحديات الوضع الراهن محليا وإقليميا ودوليا .

(جـ) تحديات العلم والتكنولوجيا والتجارة والسياسة على المستوى العالمى فى القرن الحادى والعشرين .

(د) الإمكانيات الكامنة والممكنة فى مصر .

(هـ) المنهج الرئيسى للعمل الوطنى (استراتيجيته وأبعاده – أهدافه – مراحله – وسائل تحقيقه وسبل مراجعة تقدمه وحل مشاكله) .

وبالإضافة للآليات والأطر والمحددات التى على أعضاء الحركة الفكرية الوطنية الاتفاق عليها بشأن حركتهم ، هناك فى تقديرى محددات أتصور أنها حرجة فى ضرورة استيعابها والأخذ بها من أجل توفير الفاعلية والأمان بشأن هذه الحركة وبشأن العمل الوطنى ككل ومنها ما يلى :

١ – استيعاب كل التيارات الفكرية الرئيسية على ساحة العمل الوطنى وذلك من خلال الأفراد كشخصيات وطنية وليس كممثلين لمؤسسات حكومية أو غير حكومية (مثل الأحزاب والجمعيات والنقابات.. الخ) وذلك حتى تتوافر لهم آلية التعامل الفكرى المباشر ولتجنب أية بيروقراطيات أو حساسيات تختص بنظم ومناخ العمل فى مؤسسات أم أو أى أطروحات مسبقة .

٢ – البدء بتحديد للسبل المقبولة لاعمال وتفاعل الفكر واستجلاب المعلومات وقبولها ووسائل تعبير الحركية الفكرية عن نفسها .

٣ – التواصل المباشر مع رئيس الجمهورية .

طريقة ٥ × ٥ × ٥

لكن كيف تتشكل هذه الحركية الفكرية الوطنية ..؟ انه سؤال إجرائي صعب ينبغي ألا ننسى عند محاولة الإجابة عليه أن الشعور المباشر بالحاجة إلى حركية فكرية وطنية جاء في إطار استعراض فكر مفكر ومفكرين .. هناك عشرات بل مئات وآلاف من المفكرين والخبراء الوطنيين المشغولين بوضع مصر ومستقبلها، فأي هؤلاء يمكن أن تبدأ به هذه الحركية الفكرية وعلى أي أساس .. ؟

في تقديرنا لابد أن تكون هناك بذرة للبداية .. ثم نترك لهذه البذرة أن تنبت إلى شجرة وفروع (فريق عمل) من المفكرين وذلك من خلال إطار يقوم على منطق ما .. أي منطق واضح يرتكز على حيثية محايدة وموضوعية سيقود في النهاية إلى تشكيل أقرب إلى الأمثل لهذه الحركية الفكرية الوطنية الجديدة .

واقتراحي في هذا الصدد أن يبدأ الاختيار بـ ٤ – ٥ أشخاص من المصريين المقيمين في مصر والذين لهم أو كان لهم تميز قيادي وريادي على مستوى مؤسسي عالمي في مجالات العمل الإنساني والتقني على ألا يكونوا حاليا في مسئولية قيادة عمل رسمي في الحكومة أو في إحدى مؤسسات الدولة .

ثم يقوم كل واحد من هؤلاء – على أسس يتفقون عليها – بترشيح أو اختيار خمسة آخرين للانضمام إليهم فيختارون بذلك حوالى ٢٠ – ٢٥ شخصية ، وبعدها يقوم كل شخص من الأعضاء الجدد باختيار أربعة

أو خمسة آخرين .. ، وهكذا يصل العدد الكلى إلى ١٠٠ - ١٢٥ شخصا ويكون هؤلاء جميعا هم أعضاء الحركية الفكرية الوطنية المطلوب منها تحقيق ما سبق الإشارة إليه وفى الأطر التى سبق ذكرها .

وإذا كانت هناك مميزات وعيوب لأية طريقة يمكن اتباعها لتشكيل عضوية هذه الحركية الفكرية الوطنية الجديدة ، فإن الاختيار بمثل الطريقة التى أسلفنا ذكرها له المميزات التالية :

١ - الاعتماد على ركيزة من شخصيات مصرية متميزة بأداء إنسانى تقني مشهود له على مستوى عالى وليس على أساس خاص بانتماءات أيديولوجية أو مؤسسية أو فئوية ، وهو بالتالى أساس يضمن إلى حد كبير تحييد رؤى هذه الشخصيات .

٢ - وباعتبار أنهم نخبة على مستوى عالى لهم خبرات فذة ساهموا بها فى تقدم العالم وحل مشكلاته فانهم بالتأكيد يطمحون إلى تقديم أحسن ما لديهم من أجل وطنهم وحل مشكلاته .

٣ - كما أن أعضاء النخبة الركيزة يتمتعون بالتأكيد بالقدرة على النظرة الشمولية بحيث يوفر لهم ذلك إمكانية تخطى الملابسات الضيقة للجزئيات إلى الأمور الرئيسية والتى فى التوصل إليها ضمان لحل تلقائى لمشكلات الجزئيات .

٤ - إن الاختيار بالطريقة الموضحة والتى يمكن أن نطلق عليها طريقة (٥ × ٥ × ٥) يضمن إلى حد كبير الأداء الديمقراطى وتجنب نشأة مراكز قوى داخل الحركية كما أن من شأنه تمثيل أغلب التيارات الفكرية .

٥ - وربما (بل من المتوقع) أن تستعين الحركية الفكرية في عملها بمفكرين آخرين حسب الحاجة ومن خلال برنامج العمل وفى أطر محددة الهدف .

نقطة البدء

وإذا كان الأستاذ هيكل قد اقترح أن يرعى الرئيس مبارك برنامجا استثنائيا يحقق اندفاعة طموح فى الإنتاج فإننى آمل أن تكون الحركية الوطنية الجديدة تحت الرعاية الفعلية والمباشرة للرئيس مبارك ، وفى تقديرى أن تحقق هذه الرعاية ما من شأنه ما يلى :

١ - تقصير - بل إلغاء - المسافة بين الرئيس والحركية الفكرية للنخبة الوطنية .

٢ - احداث تكامل وتوافق عال بين (اجرائيات) تشكيل الحركية الفكرية و (أدائها) و (فاعليتها) .

٣ - الارتقاء النوعى بالعمل الفكرى الوطنى من حيث الرسالة والجهد المبذول والآثار المترتبة عليه بما يجعله قادرا على تحقيق طفرة أو دفعة نوعية على مستوى انتصار أكتوبر العظيم .

٤ - تحقيق التوافق بين الحركية الفكرية الوطنية وأية اعتبارات استراتيجية قومية عليا .

الباب الثالث

فى نقد النخبة

تطور دور النخبة فى أى مجتمع وفى كل وقت يعد طريق رئيسى للتقدم المجتمعى العام، وهو الأمر الذى يتطلب - وباستمرار - الحوار والمتابعة النقدية لأداء هذا الدور. وإلى حد ما يتصل بهذا الخصوص حوار وطنى دعا إليه الرئيس فى بداية عام ١٩٩٤، حيث يمكن القول أن هذه الدعوة قد ساهمت - فى حد ذاتها - فى دفع الحوار الوطنى بوجه عام إلى درجات أعلا من الشفافية والتغلغل إلى كافة القضايا الوطنية دون حرج. وفى هذا الخصوص كانت لنا بعض الملاحظات بشأن الحوار الوطنى، وكذلك بعض التحليلات والرؤى بخصوص كفائة الأداء المجتمعى العام ومسئولية النخبة تجاهه.

١ - الأبعاد الإحصائية للحوار الوطنى . .

٢ - الحوار الوطنى و«الناس اللى تحت»..

٣ - القهر الإدارى.. إيدز الإبداع المجتمعى..

٤ الإدارة الإستراتيجية فيما بعد الأقصر..

٥ - ماذا بعد «اهتزاز عزم الفساد»..

٦ - معوقات تحولات القيمة..

٧ - ٤ أسس لفكر إدارى وطنى جديد..

(١)

الأبعاد الإحصائية للحوار الوطنى

لكى ينجح الحوار الوطنى ويتخلص تلقائيا من أية سلبيات قد تشوبه، فإنه يجب أن يكون موضوعيا ونزيها، يبتعد عن الممارسات البالية فى الحوارات مثل الخطب الرنانة والآراء التصادمية.. يقوم على الآليات العلمية فى طرح الآراء والتعامل معها بالاختلاف أو التعضيد أو التطوير وبدون قيام الحوار اعتمادا على الآليات العلمية فإنه لن يأتى بأحسن ما يمكن أن يأتى به مهما تكلف من وقت وجهد..

وبمعنى آخر، ينبغى الارتفاع بما يمكن أن نسميه «كفاءة الحوار الوطنى» والتى تتحدد بالقيمة العملية لنتائجه (مقارنة بالجهد المبذول فيه).

كيف إذن يكون الحوار علميا؟..

يكون كذلك إذا عرف الجميع أن ليس هناك رأى مطلق وأن درجة مصداقية أى رأى تتحدد بالأبعاد الاحصائية للمسألة التى يطرحها هذا الرأى، أى ما يحويه من بيانات وما يستند إليه من حقائق أو ظواهر بطريقة مجسمة سهلة واضحة..

إن طرح الآراء وتناول القضايا المختلفة من خلال أبعادها الكمية والكيفية يوفر ويضمن ما يلى:

١ - مساعدة المتحاورين على مواصلة تحاورهم على أساس مساعدة الجماهير ومتخذى القرار على التعامل الموضوعى مع الآراء المطروحة..

٢ - إكتشاف حجم المعرفة المتوافرة بشأن القضايا المختلفة وبالتالى إدراك حجم ونوعية المعارف الناقصة مما يؤدى إلى مساعدة الأمانة الفنية للحوار (والتى أرجو أن يكون تشكيلها أمرا واردا) على استدعاء المعلومات المختلفة بشأن القضايا المطروحة وجزئياتها..

٣ - زيادة كفاءة التحاور الموضوعى وتحجيم التحاور غير الموضوعى.

٤ - سهولة التصنيف الكمى والكيفى للقضايا المطروحة والربط بينها وبين جزئياتها المختلفة واكتشاف مدى اعتماد هذه القضايا على بعضها البعض وكذلك التعرف على درجات الارتباط أو التنافر بين المفاهيم والقضايا المطروحة.

٥ - سهولة التوصل إلى الأولويات والاتفاق حول ترتيبها..

٦ - تحويل القضايا المختلفة إلى أرقام أو رموز وكذلك الحال مع البدائل المطروحة لمجابهة المشكلات، وبالتالى التعامل مع موضوعات الحوار تعاملا مجردا يقوم على الصالح العام فقط.

٧ - سهولة وضع خريطة ذات أبعاد أفقية ورأسية لتعامل كل الجهات(رئاسة الجمهورية - الحكومة - التنظيمات السياسية والتشريعية - الجمعيات الأهلية - الإعلام - الجامعات ومركز البحوث - قطاعات العمل المختلفة.. الخ) مع المشكلات المطروحة..

٨ - التحول بالتدريج إلى القدرة على القيـاس الكمـي لآراء المتحوريـن بـل
وإلى عمل استفتاءات محدودة أو موسعة بشأن بعض القضايا..

وبعد، فإن القدرة على القياس والترتيب والترقيم والربط والتوقع أثنـاء التحاور الوطني تمثل تعميقا حضاريا لأسلوب العمـل السياسـي فـي مصـر وهو أمر ضروري يعيننا على «حسن استخدام الزمن» وقد صرنا في مدخل القرن الحادى والعشرين..

(٢)
الحوار الوطنى و « الناس اللى تحت »

أخشى أن يظل «الخطاب» بشأن الحوار الوطنى محصورا داخل النخبة (القيادات التنفيذية وقيادات الإعلام والفكر والأحزاب والجامعات والنقابات.. الخ) مما يكرس الشعور العام باحتكار مفاتيح العمل الوطنى الرسمى (بمعنى المعلن والموثق والمؤثر) بواسطة «الناس اللى فوق» من قيادات العمل التنفيذى والعمل العام، ذلك فى الوقت الذى تدرك فيه النخبة نفسها – بلا شك – استحالة الحوار الهابط بكامله من فوق أو غير المبالى بالديناميكية الكامنة فى «الناس اللى تحت» والتى إن لم تؤخذ فى الاعتبار فإن الحوار يكون قد شرد عن «البنية الأساسية» اللازمة له وهى «المواطن المصرى .. عقله وإمكاناته ومصالحه وإرادته» وبالتالى يظل الحوار الوطنى من الناحية العملية مباريات ذهنية مجردة أومباريات خطابية راقية لذلك أود جذب الانتباه إلى:

١ – أن الجهود العملية والطموحات الوطنية «للناس اللى تحت» مصدر خصب للحفاظ على القيم الوطنية والمعايير الأخلاقية وتطوير وتطور مدلولاتهما، بالإضافة إلى أن هذه الجهود هى القوة الحقيقية التى حافظت على مصر وتحافظ عليها دوما..

٢ – أن الحوار الوطنى مع ومن خلال «الناس اللى تحت» هو المرشد والضمان لصحة عمليات تقييم وتطوير ومتابعة البناء سواء للكيان السياسى أو للتنمية الوطنية الشاملة.

٣ – أن مساهمة «الناس اللى تحت» في الحوار الوطنى تحفظ وتنشط قدرتهم على الاستمرار في العطاء وقدرة الوطن على الاستفادة بهم، كما أن هذه المساهمة تحجم من طوابير النفاق وممارسات الفساد والإفساد.

فلنبحث إذن عن المنهج العملى الكفيل بتمحور الحوار الوطنى حول ومع المواطن المصرى من حيث إمكاناته ومعاناته وقيمه والتحديات المباشرة وغير المباشرة التى تواجهه محليا وإقليميا وعالميا، بل وسلبياته (المواطن المصرى) كوحدة بنائية للوطن سواء هو هنا من «الناس اللى تحت» أو «الناس اللى فوق»..

وهنا يكون السؤال ما هو السبيل لا شراك «الناس اللى تحت» فى الحوار الوطنى؟ هناك حاجة إلى وجود ما يمكن تسميته الأمانة الفنية للحوار الوطنى.. وقد أشرت إلى ذلك فى جزء سابق، بحيث تتعامل هذه الأمانة مع المعلومات والآليات المطلوبة للحوار وكذلك ضمانات تواصله وتعظيم نتائجه. ومن أهم الآليات المطلوبة إشراك «الناس اللى تحت» فى الحوار وفى هذا الصدد اقترح التوجه إلى قياسات الرأى العام كأحد الأساليب الممكنة، فلتنشط الجهات الوطنية التى يمكن أن تكون معنية بقياسات الرأى العام مثل مراكز البحوث ووسائل الإعلام والجامعات للمساهمة العلمية والميدانية فى نقل وجدان ورؤى وإمكانات «الناس اللى

تحت» إلى «قلب» الحوار الوطنى ولابد في هذا الخصوص من تحرى الدقة والنزاهة والنظام فى أمرين هامين هما:

(أ) أمن وموضوعية وحيادية قياسات الرأى العام..

(ب) اعتبار أمانة الحوار الوطنى «هى الجهة المنظمة» (بكسر الظاء) لتنسيق القياسات وإتاحة نتائجها للتداول في الإطار المنشود. وبعد، أتصور أن من أهم المتغيرات الآخذة في البزوغ الآن على ساحة العمل الوطنى إدراك إستحالة التوصل إلى رؤى قوميةعملية وناضجة ومتكاملة عن غير طريق الحوار الوطنى الخاص «بالناس اللى تحت» والتواصل معهم

(٣)

القهر الإدارى إيدز الإبداع المجتمعى

تلعب الصحافة فى مصر دور كبير فى مجابهة السلبيات وفى التقويم المجتمعى بوجه عام. وهو دور محسوس هناك حاجة بالغة إليه فى مجتمع يطمح إلى تحقيق تحولات كبيرة تؤهله لتنافسية القرن الـ ٢١. إن دور الصحافة المصرية فى هذا الخصوص يجرى فى إطار أمرين هامين. الأمر الأول هو إدراك سياسى قوى أن الجهد الصحفى الرشيد من أجل كشف ومعالجة الثغرات والسلبيات يعد وسيلة أساسية للتقدم المجتمعى، وأما الأمر الثانى فهو توفر مساحة مناسبة من الديمقراطية تكفل معالجة صريحة لأية قضايا مجتمعية حرجة. وأحيانا تكون هناك مشكلات أو قضايا هامة معرقلة للتقدم ومحسوسة تماما على مستوى الإنسان العادى (رجل الشارع)، لكنها مع ذلك لا تناقش فى إطار مجتمعى، وإنما ينحصر التعامل معها فى إطار فردى من خلال إجراءات مثل التظلمات الإدارية (داخل المؤسسات)، أو رفع القضايا أمام المحاكم، أو الجرى بالشكاوى الفردية وراء كبار المسئولين فى الدولة. إن عدم مناقشة مثل هذه المشكلات والقضايا على المستوى المجتمعى ربما يرجع إلى تعود الناس على وجود هذه المشكلات (أى اعتبارها جزء متعارف عليه من النظام البيروقراطى للحياة اليومية)، أو إلى عدم الانتباه إلى العائد المجتمعى السلبى العام، الناتج عن وجود وانتشار نوع معين من المشكلات

التى تحدث، وتتكرر كثيرًا على مستوى فردى. فعلى سبيل المثـال، لمـاذا تصر جـهات الإدارة فـى المؤسـسـات الحكومية وخارجـها علـى عـدم حـل الكثير من المشكلات الإدارية للعـاملين فيـها عندمـا يكـون الحـق القانونى واضح إلى جانبهم؟ لماذا يكـون علـى المظلـوم أن يتجشـم عنـاء ومصروفات الذهاب إلى سـاحات المحاكم، أو أن يلجأ إلى طـرق ملتويـة من أجـل حـل هـذه المشـكلات، أو مـن أجـل تجنـب الوقـوع فيـها مـن الأساس؟.

إن من المعالجـات الصحفيـة الهامـة لمثـل المشـكلات والقضايـا التـى نقصدها تلك التناولات التى قامت بـهـا صفحـة الأسـبوع الاقتصـادى فـى الأهـرام فـى صيـف ١٩٩٥ حـول تحليـل الأبعـاد الحضاريـة والسياسـية والاقتصادية لظاهرة «القهر الإدارى» وتقدير حجم الاستنزاف الاقتصـادى لجهد وعائد المجتمع والدولة والمنظمات والأفـراد نتيجـة هـذا النـوع مـن القـهر، والـذى يخلـق قيـم فاسـدة فـى المعـاملات والعلاقـات الإداريـة، بالإضافـة إلى تسببة فـى تدمير قـدرة المجتمـع علـى الإبـداع والابتكـار والانطلاق..

إن قضية القهر الإدارى فى حاجة باستمرار إلى الانتبـاه العـام. وذلـك حيث أن الانتباه العام لأبعاد وممارسات وانعكاسات هـذا السـلوك المدمـر يمثل فى تقديرنا قوة دفع من أجل أمرين هامين:

الأول هو مثابرة وتفاؤل وترابط المقهورين من أصحاب الطاقات الفكرية والعلمية والإدارية والتنظيمية والتقنية من أبناء مصر، وهم المكبلون إداريـا بالرغم من أنهم القادرون فعليا على دفع عجلـة التنميـة الوطنيـة الشـاملة

بعجلة متسارعة (عندما تتاح لهم الفرصة) مهما بدا من صعوبة فى تخطى الفجوة بيننا والعالم المتقدم.

وأما الثانى، فهو التواصل بين الإمكانات الوطنية الهائلة المعطلة من ناحية، وبصيرة القيادات السياسية والفكرية العليا فى الدولة من ناحية أخرى. إذ أن سوء حال الإدارة يمثل حائلاً كبيرًا دون الاستخدام الوطنى الأمثل للامكانيات البشرية، ويكفى كما جاء فى الدراسة التى نشرها الأسبوع الاقتصادى أن حوالى ٧٨٪ (فى المتوسط) من العاملين يصفون قرارات قياداتهم بالعشوائية والمزاجية..، وأن ٩٥٪ فى المتوسط من العاملين يرون ضرورة تغيير القيادات.

وفى هذا الإطار نود جذب الانتباه إلى ما يلى:

١ - أن القهر الإدارى يؤدى ليس فقط إلى التصفية الوظيفية (على غرار التصفية الجسدية)، بل يؤدى أيضا إلى تصفية الأعمال النموذجية الناجحة مما يُحدث إحباطا وقهرًا متسلسلين طويلى الأجل، وتكون النتيجة العامة تصفية القوة الفاعلة فى الإدارة من المحترمين من أبناء الوطن مع تعلية شأن وتقوية مخالب المنافقين وحوارييهم مما يقضى على القيم الإيجابية ويؤدى إلى تجميل القيم السلبية، وبالتالى إعطاء قوة وجاذبية للفساد.

٢ - بينما تقوم الرقابة الإدارية باقتدار بإحباط سرقة مئات الملايين من الجنيهات سنويا فإن ما تفقده مصر فى حاضرها ومستقبلها من قدرات النابهين والمحترمين من أبنائها نتيجة القهر الإدارى وأثاره أكبر آلاف

بل ملايين المرات من السرقات المالية.. فهل تستطيع الرقابة الإدارية أو أية جهة أخرى تقديم «تقييم كمى للفاقد الوطنى نتيجة القهر الإدارى» ؟ . .

٣ - وتوافقا مع الطبيعة العامة للقهر الإدارى والقيم السلبية المكتسبة فى ظله تتحول سلسلة الرؤساء والمرءوسين - فى أغلب الأحيان - إلى سلسلة من التابعين والمتبوعين.. وتتلاشى التباينات الإيجابية فى الرؤى والأفكار فتضمحل روح المبادرة والابتكار على المستوى الميكرو (الفرد والوحدة الصغيرة) وتنعدم بالتالى القوة الدافعة للبحث والتطوير على المستوى الكبير (المؤسسى والقطاعى)..

٤ - وتبلغ النكبة الناتجة عن القهر الإدارى مداها بالقضاء على ما يمكن أن نطلق عليه الإبداع المجتمعى والذى يعنى حدوث نشاط إبداعى جماعى تكون نتيجته أكبر من المحصلة الجبرية لمجموع الإبداعات أو الجهود الفردية وتتمثل مخرجات الإبداع المجتمعى فى زيادة الكفاءة العامة للمجتمع وتقليل الفاقد العام وتحقيق ما يبدو للمجتمعات الأخرى أنه معجزة ويؤكد ذلك حقيقة لا جدال فيها وهى أن القهر الإدارى هو «إيدز» الإبداع المجتمعى..

وفى الختام يمكن القول، أنه بينما هناك فعلا حاجة إلى إحصاء الفاقد الوطني العام نتيجة القهر الإدارى والعلاقات الناجمة عنه، فإن هناك حاجة أيضًا إلى تصور قدر الانتعاش والتقدم الممكن فى منظومات العمل (حكومى وعام وخاص) عند علاج القهر الإدارى، وإحلاله بعلاقات من نوع جديد.. علاقات التحسين المستمر لجودة العمل وجودة الأداء وجودة

المخرجات. ففى ظل هذه العلاقـات يتحـول المرؤسـين مـن إهـدار الجـهد والوقت فى الجرى وراء حقوقهم أو مجاملة رؤسـائهم (مـن أجـل تجنـب ضياع هذه الحقوق) إلى ممارسة شيء جديد هـام ونـافع علـى الـدوام وهـو علاقات فريق العمل team work ، والتى فيها يتحدى كل فـرد نفسـه هو (وليس زميله أو رئيسه أو مرؤسه) من أجل تقديم الأحسن مـن جـهده وإمكانياته وطموحاته لبقية زملائه ولمؤسسة العمل.

(٤)

الإدارة الاستراتيجية فيما بعد «الأقصر»

مهما بلغت الرؤى والتعقيبات والتحركات والتتابعات بعد حادث الأقصر [1] فإن أهم عنصر يدفع به هذا الحادث إلى رأس مجريات الأمور في مصر هو عنصر «الإدارة» وإذا كان الحادث قد وجد الفرصة ليقع من خلال سوء في إدارة أمن منطقة الدير البحرى فإن الفترة منذ وقوع الحادث مباشرة قد شهدت من القيادة السياسية إدارة نموذجية للأزمة على مختلف الأصعدة خاصة «تقويم ثغرات الشرطة» والسعى للحفاظ على السمعة السياحية لمصر، ووضع حكومات بعض الدول أمام مسئولياتها في منع الإرهاب.

إن البصيرة والسرعة التى عالج بها الرئيس مبارك متتابعات حادث الأقصر كانت ترجمة واستجابة صريحة للدور التاريخى الملقى من الشعب المصرى ومثقفيه على عاتق الرئيس، ومن جانب آخر فإن النموذج القدوة الذى قدمه الرئيس يحث المثقفين والمفكرين والعلماء والخبراء على المزيد من الشفافية والجرأة وتحمل المسئولية فى «إدارة» شئون الوطن. إن الإدارة هى القوة التى تحول الإمكانات البشرية والمادية إلى فاعليات مؤثرة، ومن البديهى عند حدوث ضعف فى الفاعلية والتأثير رغم وجود

(١) حادث إرهابى وقع فى الدير البحرى فى الأقصر شتاء ١٩٩٧..

وفرة فى الإمكانات أن تتجه الأنظار إلى الإدارة، وعند السؤال عن الإدارة فإن التفكير المنظم يقود إلى السؤال عن القيادة، وفى هذا الصدد كان الرئيس فوريا وحاسما فى إحداث تغييرات قيادية فى الشرطة لاقت صدى طيبا لدى الشعب المصرى الذى عرف تاريخيا بنبذه للإرهاب بنفس قدر حبه وتعاونه تجاه القيادة المسئولة الرشيدة.

إن «رب ضارة نافعة» فلا أحد يعرف أى نوع آخر من الكوارث كان يمكن أن يحدث فى وجود سوء إدارة عند بعض قيادات الشرطة لو استمرت فى مواقعها فترة أطول، ولا أحد يستطيع أيضا أن يجزم بما يمكن أن يحدث من كوارث فى مجالات أخرى (غير الشرطة) قد تتضمن أيضا نواحى ضعف وخلل فى الإدارة وفى القيادات، وهذا أمر وارد تذكرنا به من من الحين إلى الآخر أحداث فجائية (مثل السيول وعمارات الموت وتصادم القطارات.. الخ ..الخ)..

وإذا كانت بعض قيادات الشرطة قد أهملت واجباتها أو أسيء إختيارها، رغم حدة مشكلة الإرهاب، ورغم التوجه الحازم للدولة فى رفض الإرهاب وفى السعى لاستئصاله، فماذا يضمن عدم وقوع (أو عدم وجود) قدر من الإهمال ومن سوء فى اختيار قيادات فى مجالات أخرى إنتاجية أو خدمية لا يكون من طبيعة السلبيات الجارية فيها (رغم خطورتها المزمنة) أن تنتج عنها انعكاسات فجائية حادة ذات تأثير مباشر وفورى على الدخل القومى أو على ضيوف مصر أو يكون لها صدى إعلامى عالمى (؟!).

إن الضمان ليس فقط لتجنب حدوث سلبيات غير متوقعة، بل أيضا لتسريع وتكامل التقدم العام فى الدولة بجميع مؤسساتها (الشرطة وغيرها) يكمن فى تقديرنا فى «الإدارة الاستيراتيجية»..

إن الإدارة الاستيراتيجية تعنى تشغيل وتنسيق وتطوير عمليات الأداء والتقييم داخل منظومة العمل (مؤسسة أو وزارة.. الخ) من خلال انشغال كل أعضائها بانجاز أهداف منظومة العمل وتحقيق رسالتها بالشكل الذى يعظم من الفائدة التى تعود على المتلقين والمستفيدين من الخدمة والإنتاج. وفى إطار الإدارة الاستيراتيجية يجرى تقوية وتمكين empowerment كل أعضاء منظومة العمل مهما تباينت أو تدنت مهامهم ومستوياتهم الوظيفية. وفى غياب الإدارة الاستيراتيجية، أى فى الافتقاد إلى توجيه وتقوية كل الإمكانات نحو تحقيق رسالة منظومة العمل، فإن الخلل يعترى أهم عمليات الإدارة وهى اختيار القيادات وتقويمها وتفويضها، فنجد الاعتبارات الشخصية تتغلب على الكفاءة والتنوع، وحسابات تبادل المنفعة تغطى على مهام تطوير الإنجاز ومجابهة التحديات، ذلك بينما تستنسخ بعض القيادات قيادات أخرى أضعف منها فتزداد كثافة التملق ويحدث تغييب للكفاءات وتضمحل روح الفريق وتقهر نماذج طيبة..، ومع الوقت يتحول المرءوسين عن الندية والفهم والتفكير والاجتهاد من أجل رسالة المنظومة إلى أشياء أخرى..

إن الإدارة الاستيراتيجية تدعم دور الفرد فى إطار من دعم العمل الجماعى، وهو أمر من شأنه أن يعطى كل فرد أحسن ما عنده للآخرين، وأن يكسب كل فرد من الآخرين أحسن ما لديهم، ومن شأنه كذلك

القضاء على «فترة التلكؤ» بخصوص إنجاز أى مصلحة مشروعة لأى مواطن أو جهة أو بخصوص المجابهة الناجحة لأى تحد ذى بعد قومى مثل «الجات» ومثل العلم والتكنولوجيا..

وختاما نقول إن «الإدارة الاستراتيجية» تتضمن تلقائيا (وعلى الدوام) تقليص وأختفاء أى فرصة لنمو بذرة إرهاب أو تطرف.

(٥)

ماذا بعد «اهتزاز عزم الفساد»؟

مثلما للقوة عزم يسمى عزم القوة، ويقصد به مقدرة القوة على إحداث حركة، فإن للفساد عزما نقصد به مقدرة الفساد على إحداث تأثير. وبالرغم من أن للفساد حركيات وانعكاسات تؤدى إلى سلسلة من الاتلافات المتتالية واسعة الانتشار على المستويين الفردى والمجتمعى فإن له دورة حياة، أى كما أن له بداية فإن له نهاية. وكلما اشتد عزم الفساد طالت دورة حياته (الفساد)، والعكس.. وبالتالى فإن من المطلوب دائما التدخل الإيجابى النشط من الإنسان كفرد وكمنظومة مجتمعية من أجل خلق وتوفير مناخ يزعزع من عزم الفساد ويساعد على تقصير دورة حياته ومنع تولده ما أمكن ذلك. وفى هذا الخصوص نلمس بزوغ متغير جديد مهم يجرى الآن على أرض مصر، وهو «اهتزاز عزم الفساد»: حيث تشير أربع ظواهر إلى حدوث ذلك الاهتزاز..

الظاهرة الأولى: توجه سلوكى وإدارى طيب ونشيط من رئيس الوزراء (فى إطار توجيهات رئيس الجمهورية) بهدف التخلص من الأداء البيروقراطى وعدم التستر على الفساد.

الظاهرة الثانية: تطور موضوعى فى لغة التعامل مع الفساد سواء بواسطة الحكومة (كما حدث فى موضوع مساكن القطامية) أو بواسطة

الصحافة (كما حدث بخصوص مخالفات تخص التليفزيون أو البنوك أو الجامعات.. الخ)..

الظاهرة الثالثة: ارتقاء نوعي في التنظير الفكرى والأكاديمى بخصوص نشأة ومواجهة الفساد..

الظاهرة الرابعة: تنامى قدرة المجتمع ككل (مؤسسات الدولة ورجل الشارع والجمعيات الأهلية) على التمييز بين الخصخصة كفلسفة إدارة من جهة، وممارسات الإفساد التى تهدف إلى قضاء المصلحة الخاصة على حساب الصالح العام من جهة أخرى.

وإذا كان ما نلمسه من «اهتزاز عزم الفساد» هو أمر حقيقى فإن السؤال يكون: وماذا بعد؟.. هل ينجح أصحاب الفساد وحواريوه فى مقاومة الاهتزاز الجارى أم يفلح المجتمع فى مواصلة الحركة النشيطة من أجل إنها دورة حياة الفساد..؟..

إن «اهتزاز عزم الفساد» يتيح الفرصة من أجل تنظيم حملة مجتمعية رشيدة مضادة للفساد تهدف إلى محاصرته وشل مقدرته على التأثير فى مجريات الأمور، وهو أمر يؤدى حتما إلى تقليص دورة حياة الفساد ويؤدى أيضا من خلال آليات غير مباشرة إلى تسريع عجلة التنمية الوطنية.. وفى تقديرنا من المطلوب أن تقوم الحملة المجتمعية لمجابهة الفساد على استيراتيجية تجمع بين أمرين رئيسيين. الأول هو الاستيعاب المجتمعى (بمعنى الفهم والقدرة على التنبؤ) بشأن طبيعة الفساد والعوامل المؤثرة فيه ومساره كظاهرة اجتماعية وكمنظومة، والثانى هو توافر موقف

مجتمعى ناضج ومنتشر رافض للفساد. إن إنجاز مثـل هـذه الاسـتراتيجية يحتاج الأخذ فى الاعتبار للنقاط التالية..

١ - أن وجود فساد هو أمر وارد باسـتمرار فـى أى مجتمـع، خاصـة فـى الظروف المصاحبة لعمليات التطور والتبدل.

٢ - ان الفساد ليس هو فقط الرشوة والاختـلاس.. ومـا لم ننتبـه إلى ذلـك سنظل نحارب بعض نتائج الفسـاد أو أشـكالا محـدودة منـه وليس الفساد نفسه أو العوامل المؤدية إليه..

٣ - من أشكال الفساد ما هو واضح ومحدد (مثـل الرشـوة والاختـلاس).. ومنها ما هو كامن وضمنى (أى مستتر).. وهـذا الأخـير هـو الأخطـر تأثيرا فى النفوس، والأكـثر هـولا فـى النتـائج، والأطـول أمـدا فـى الانعاكسات.. وأيضا الأصعب فى الاكتشاف والتصدى..

٤ - إن النوع الأخطر مـن الفسـاد وهـو الضمنـى (أى الكـامن أو المسـتتر) ياخذ صورا كثيرة نذكر من أمثلتها ما يلى:

(أ) فساد الإدارة: مثل التراخي في اكتشاف وإيقاف الفســاد. ومثـل وجود آليات وعلاقات عمل تسمح بانحراف قيادات تنفيذية وبتوليد مثل هذه القيادات، ومثل تراخي بعض القيادات عن تحمـل عـبء ومسـئولية اتخاذ القرار مما يؤدى إلى تعطيـل المصـالح وتفشـى السـلوكيات الملتويـة، وتزايد اللجوء إلى القضاء (ملحوظة بلغ عدد القضايا التى نظرتها المحـاكم عام ١٩٩٦ حوالى ١٢ مليون قضية ! !)..

(ب) التهاون الأخلاقي: ومن صور ذلك سرقة جهد الآخرين (مثل سرقة الأبحاث والكتب والأفكار.. بل وقد وصل الأمر إلى قيام مستشارة تربوية بسرقة رسومات تلميذتها). وانحراف الأداء المؤسسي في مسائل تخص المصلحة العامة (مثل سوء نظام الصرف في المقطم مما أدى إلى تهشم جزء من الجبل فوق سكان العشش تحت الجبل. ومثل البالوعات المكشوفة)..

(جـ) التلكؤ في حل المشكلات العامة: مثل التلكؤ في حفر مخرات جديدة للسيول في الصعيد رغم تكرار تحذيرات المتخصصين مما أدى إلى كارثة السيول .

٥ - ولأن للفساد آليات رشيقة وتقاليد وأعرافا وعلاقات ونظما، فإن التوجه المجتمعي لمجابهة الفساد في حاجة لأن تكون عملاً منظوميا قادرا على التواصل المستمر والتطور الذاتي.. وهذا أمر يتطلب التوصل إلى التفاصيل المنظومية التالية:

(أ) تحديد أهداف التوجه المجتمعي لمجابهة الفساد..

(ب) توثيق وفحص المعلومات والأفكار بشأن أشكال وآليات الفساد والعوامل البيئية المساندة له..

(جـ) تنسيق الأدوار التفصيلية للأجهزة المعنية بمجابهة الفساد بشكل مباشر (مثل أجهزة المحاسبات والرقابة الإدارية والشرطة والنيابة.. الخ)، أو بشكل غير مباشر (مثل مؤسسات التربية والتعليم والإعلام والجمعيات الأهلية.. الخ).

٦ - أهمية أن يكون القصد من التوجه المجتمعى لمجابهة الفساد ليس الثأر من المفسدين، بل تجنيد أقصى ما يمكن من علم وجهد من أجل تخليص المنظومة الأعلى (مصر الإنسان والمؤسسات) من أية معوقات تقلل من كفاءتها وتعرقل وصولها إلى المكانة والفاعلية اللائقتين بتاريخها وامكاناتها.

ورغم قناعتنا بأن الفساد موجود بدرجات متفاوتة فى كل مجتمعات الدنيا. وأن الفساد الموجود فى مصر أقل بكثير ويكاد لا يذكر بالنسبة لغيره فى بعض الدول الكبرى، إلا أن من حقنا ومن واجبنا أن نسعى إلى تخليص منظومة الوطنى من أى نوع وأى درجة من أى فساد، وذلك حتى تصل مصر الدولة والشعب إلى ما تستحقه وما تقدر عليه من تقدم ورفاهية..

(٦)

معوقات تحولات القيمة

صارت تحولات القيمة هى الشغل الشاغل للمنتبهين إلى التغيير كسمة رئيسية لحركية الحياة فى عالم العولمة، فقيمة الشىء أو الفرد أو الجماعة أو المؤسسة أو الدولة ليست ثابتة. إنها تكبر أو تنقص مع الزمن طبقا لاتجاه ودرجة التحول الناتج فى (أو عن) الشىء أو الفرد أو المؤسسة.. إلخ. إن قيمة السيليكون - مثلا - تتطور جدا فى حالة تحوله إلى رقائق ذاكرة الكمبيوتر، وكذلك تتطور قيمة العائد الإبداعى للفرد عند إجادة استخدام الانترنيت، وأيضا تتطور قيمة المؤسسة (أى مؤسسة) فى ظل الإدارة القادرة على الدفع المستمر إلى التحول.. إلخ..

إن المضاف فى قيمة الشىء (أو الفرد أو المجتمع) نتيجة تحوله هو قيمة مضافة، وكلما كبرت هذه القيمة كان ذلك دليلا على القدرة، ومنتجا للوفرة ومؤديا إلى التقدم..

لقد شغلت تحولات القيمة الفكر الاستراتيجى فى التنمية بحيث صار التقدم المؤسسى أو المجتمعى يحدث بواسطة (ويقاس من خلال) ثلاثة أنواع رئيسية من سلاسل تحولات القيمة النوع الأول يختص بتحولات القيمة الاقتصادية. والثانى يختص بتحولات القيمة الصناعية، وأما النوع

الثالث فهو سلسلة تحولات القيمة التكنولوجية. من خلال هذه السلاسل يولِّد التغيير التكنولوجى القدرة على تصنيع شىء جديد ذى قيمة صناعية جديدة يضيف فى النهاية قيمة اقتصادية جديدة. إن التقدم سواء على المستوى الصغير أو الجزئى (مستوى وحدة العمل مثلا) أو على المستوى الكبير أو الكلى (الدولة أو العالم) صار فى فترة التحول إلى العولمة يدار من خلال الإدارة الأفضل لتحولات القيمة حيث نجد أن درجة التحولات، وقدر تناغمها وشدة سرعتها وحجم عائداتها.. الخ كلها أمور مرهونة أساسا بكفاءة الإدارة وإذا كانت أهمية ومكانة «تحولات القيمة» فى عالم اليوم بهذا القدر، فما هو يا ترى وضعها فى مجتمعنا؟..

يوجد فى مصر - بلا شك - توجه سائد يدفع إلى إحداث تحولات قيمة. إن هذا التوجه من شأنه أن يحدث التحول، لكن عجلة التحول وشدته يظلا مرهونين بدرجة «القصد» الإدارى فى إحداثه..، وفى تقديرى أن درجة القصد هذه هى المشكلة الرئيسية فى كل البلدان النامية، ومنها مصر. إن ما نحاوله هنا هو الإشارة الموجزة جدا إلى بعض المعوقات التى من شأنها التأثير السلبى فى عمليات تحولات القيمة، وبعد ذلك نحاول جذب الانتباه إلى مزية نعتقد أنها تمثل الركيزة الأساسية لاجتياز هذه المعوقات والتغلب عليها.

• المعوقات:

١ - **مقاومة التنوع**: برغم أن التنوع فى الفكر وفى الإمكانات وفى الوسائل يساعد على الدوام على التأقلم مع المتغيرات وعلى توفير القدرة

على مجابهة التحديات، فإنه يمكن - إلى حد كبير - ملاحظة انتشار موقف عام مضاد للتنوع فى مجتمعنا. هذا الموقف يلاحظ ليس فقط فى العلاقة بين الرؤساء والمرءوسين، بل وفى محدودية أنشطة العمل الجماهيرى، وفى التفاعل مع الجديد أو الآخر فى الفكر والثقافة. إن خطورة الافتقاد إلى التنوع على المستوى المجتمعى تماثل فى تقديرنا خطورة نقص المناعة على مستوى جسم الكائن الحي..

٢ - **الخوف من التغيير:** رغم أن التغيير سمة أساسية للعصر، فإن الإنسان فى مصر بطبيعته يخاف التغيير. قد يرجع ذلك إلى ثقافة محافظة و.. أو إلى ضعف وصورية مشاركة الإنسان العادى (عضو وحدة العمل أو الجمعية الأهلية أو الحزب.. الخ) فى إحداث التغيير..

٣ - **الافتقاد إلى العمل كفريق:** يعد العمل كفريق أعظم إنجاز إدارى فى القرن العشرين،(*) فالفرد يعطي أحسن ما عنده من أداء وفكر للمجموعة، والمجموعة تعطى أحسن ما عندها (من أمان وقوة وعائد ودفع) للفرد، وفى إطار هذا التفاعل الجماعى - الفردى المزدوج تتحقق الكفاءة المثلى Optimal لوحدة العمل. إن العمل كفريق فى مصر لم يبلغ بعد المستوى اللائق بنهاية القرن العشرين، أى المستوى اللائق بالتحولات فى سلاسل القيمة..

٤ - **ضعف الرؤية الكلية:** يؤدى الالتزام بالرؤية الكلية holistic إلى إمكانية استيعاب التباينات والتكاملات داخل وحدة العمل وفى المناخ

(*) ارجع إلى «الإدارة: ايديولوجية القرن الـ ٢١» فى «إدارة المعرفة: رؤية مستقبلية» - سلسلة اقرأ - رقم ٦٣٧ - دار المعارف.

المحيط بها، وكذلك القدرة على ربط المدخلات والمخرجات جميعها ببعضها البعض. وبالتالى فإن الرؤية الكلية تساعد على التفكير الاستراتيجى؛ وعلى تعظيم إمكانية التحول وعلى تجنب الواحدية والتعصب وقصر النظر..

٥ - استرخاء الزمن: تعتبر مشكلة طوال فترة التلكؤ ومرور الزمن بدون استفادة قصوى مشكلة مجتمعية وليست فردية حيث إحساس الفرد بالوقت هو دائما انعكاس للإنتاجية المجتمعية لكل وحدة زمن. الفرد الذى تطول معاناته فى الحصول على حقه فى قضية أو فى علاج عضو من أسرته أو فى ترقى لا ينتظر منه أن يعطى (للتحول) أحسن ما عنده فى أقل زمن ممكن. إن استرخاء الزمن يجعل حياة الأفراد تبدأ وتنتهى دون إنجازات تتفق مع المعنى المطلوب لحياتهم، وفى المقابل فإن الإحساس بتقلص الزمن يحفز على ضرورة الاستفادة بكل لحظة فى عمليات التحول والتقدم، وربما يمكن القول أن الاختلاف فى الشعور بالزمن صار واحدا من أهم التباينات فى صفات الإنسان بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة..

٦ - سلطة الفرد: من الملاحظ فى هذا الشان وجود بعض الظواهر السلبية نذكر منها ما يلى:

* أن معظم المرءوسين يعملون من خلال توجيهات رؤسائهم وليس من خلال استيعابهم لمهام العمل والإبداع فى تنفيذ هذه المهام..

* أن الوضع الشائع - عمليا - فى العلاقة بين المسئول ووحدة العمل هو أن الوظيفة القيادية تضيف أهمية وقيمة للفرد المسئول أكثر مما يعطى هذا الفرد لوحدة العمل من أجل التطوير والتحول الإيجابى..

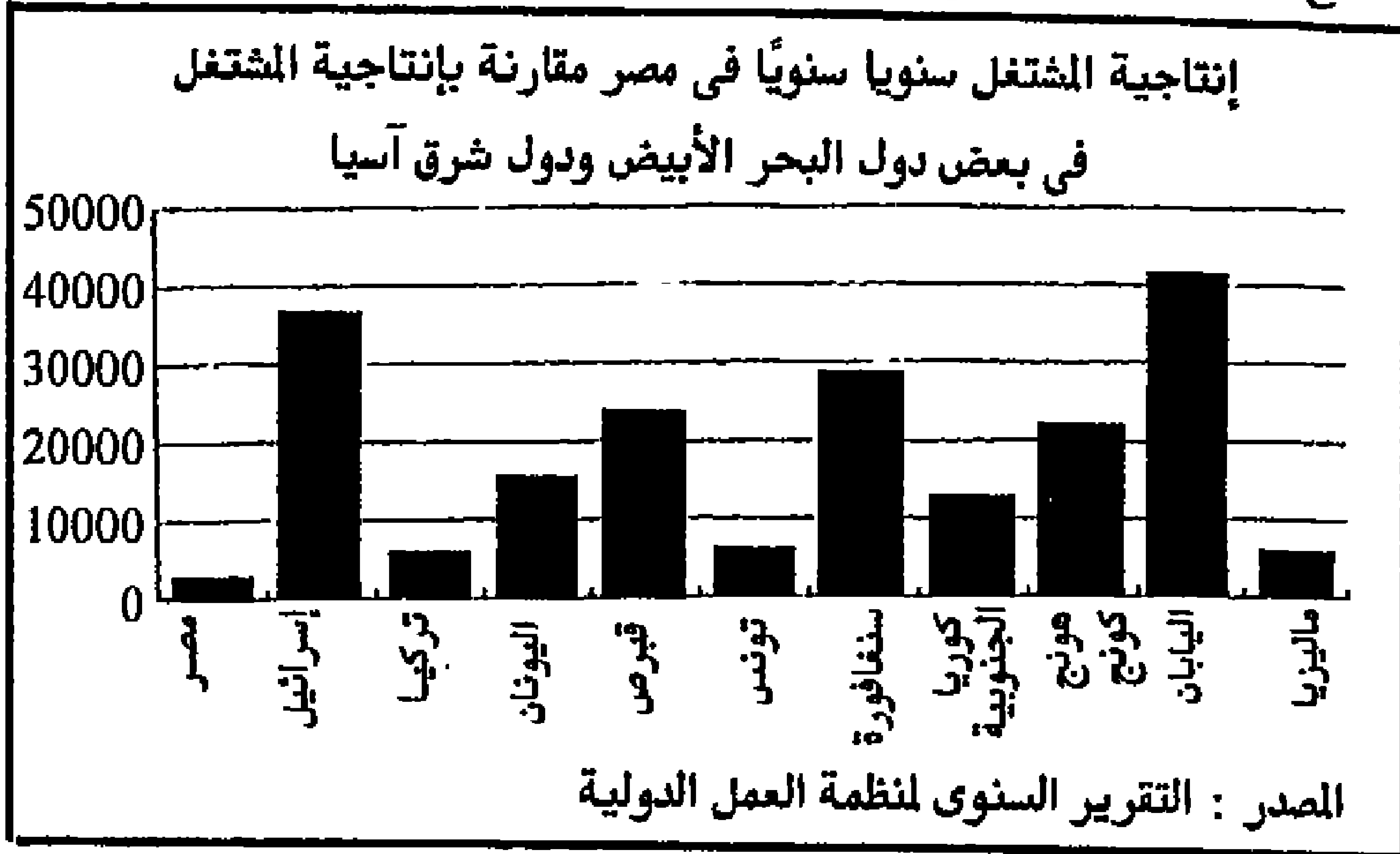
إن ذلك يعني – على المدى الطويل – امتصاص إمكانيات وحدات العمل لصالح الأفراد المسئولين..

ـ أن سلطة الفرد القائد في الكثير من وحدات العمل صارت عند العاملين أهم من ثقافة المؤسسة، بل لقد أصبحت رؤى وعلاقات وقيم رئيس العمل – في هذه الوحدات – هي البديل لثقافة المؤسسة..

٧ – **غيبة الإنسان العادي:** توصلت الإدارة الحديثة إلى أن الإنسان العادي هو الوحدة الأساسية للتقدم. وبقدر ما يتوافر لهذا الإنسان من أمان وعدالة ودرجة حرية في الإبداع بقدر ما تتراكم المساهمات الإيجابية لأفراد المجتمع تراكما نوعيا وكميا يكون هو فعلا الأساس للجودة الكلية وللتغيير والمنافسة. وفي هذا الخصوص يفضل الانتباه إلى الحقيقة مهما كانت موحشة، فالحقيقة تقول أن الإنسان العادي عندنا تائه إلى حد كبير في مناخ علاقات الواسطة وتبادل المنفعة والذكاء الاجتماعي.. وربما يمكن القول أن الفرصة المتاحة بالكامل – بدون واسطة – للإنسان العادي في مجتمعنا تنحصر أساسا في امكانيتين، الأولى هي أن يظهر جودة معدنه في وقت الأزمات الحادة المفاجئة (مثل كوارث الزلازال أوالحرائق)، والثانية هي التعبئة القومية في المعارك التاريخية (مثل حرب أكتوبر). إن الانتباه إلى العطاء الممكن على المستوى اليومي بواسطة الإنسان المصري العادي هو الضمان الحقيقي لتعظيم وتواصل تحولات القيمة..

٨ – **الضعف الإداري:** يتمثل ذلك في اضمحلال الامكانية المنظومية لتحويل الكفاءات والكفايات البشرية والمادية –وهي كثيرة – إلى قوة مؤثرة

فى عمليات تحـول القيمـة، إن هـذا الضعـف نتيجـة طبيعيـة للمعوقـات السبعة السابقة، وهو التفسير الرئيسى (والإجابة) للسـؤال التقليـدى لمـاذا ينجح المصرى فى الخارج أكثر جدا مما ينجح فى الداخل؟!..



المزايا والأمل:

ليست المعوقات المشار إليها معوقات ازليـة. إن علاجـها وارد وممكـن تماما، وذلـك مـن خـلال مزيـة رئيسـية كبيرة، وهـى التحضـر الأصيـل للإنسان المصرى العادى. إن الإنسان المصرى لديه تاريخ طويل فى القابلية للتنظيم والقدرة على الإبداع والرغبة فى إعطـاء كـل مـا يملـك مـن جـهد ووقت من أجل إثبـات ذاتـه وتقـدم وطنـه، إن إدراكـى للتحضـر العظيـم للإنسان المصرى لا ينبع من شوفونية أو رومانتيكية بل لقـد تعـزز عنـدى

هذا الإدراك نتيجة مشاهدات واحتكاكات كثيرة فى العديد من بلدان العالم شرقه وغربه..

وبعد. هناك حاجة كبيرة للتعامل العلمى المنظم مع معوقات تحولات القيمة وهناك حاجة كبيرة كذلك لإدارة الامكانيات الدفينة فى الإنسان المصرى إدارة إبداعية تتناسب مع شدة التحديات، وعمق المتغيرات وسرعة التحولات..

(٧)

وجهـة نظـر

٤ أسس لفكر إدارى وطنى جديد

للفكر الإدارى الوطنى دور رئيسى فى ترشيد التفاعل مع إيجابيات وسلبيات ظاهرة «العولمة». إن من مهام هذا الفكر وضع الإطار المرجعى لتقييم الأداء والتقدم الوطنى فى ظل التغيرات العالميـة..، ومن مهامـه أيضا التعـامل مـع ظـاهرة «التغيـير فـى دور الدولـة»، ومـع متطلبات وآليات «ترشيد الخصخصة»..، وكذلك وضع الأسس الخاصة بالتجديد الدائم للفكر الإدارى الوطنى ذاته.

بعد حوالى عامين من ظهور أزمة جنوب شرق آسيا.. وضح أن التنميـة فى هذه الدول كانت – رغم عناصر إيجابية كثيرة فيها – تفتقد إلى الفكـر الوطنى الذى يهدى إلى (ويصون) التفاعل الرشيد مع العولمة. لقد انزلقت النمور إلى مستنقع الكوارث المالية فجأة وبطريقة فجـة دفعت الغـرب إلى السـخرية والتـى نجـد نموذجـا لهـا فـى مقـال نشـرته النيويـورك تـايمز ٩٧/٩/٢٠ للكاتب توماس فريد مان بعنوان أعذرنى يا محمـد كـان المقال يسخر من انتقاد مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا لشرور العولمة ولمسـاندة القوى الكبرى لدور المضـاربين فـى أسـواق العمـلات والأسـهم فـى تدمـير اقتصاديات النمور وهى انتقادات وجهت أثناء الاجتماع السنوى لمجلس

محافظى البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى فى هونج كونج (سبتمبر ٩٧) وجاء فى المقال المذكور كرد على رئيس وزراء ماليزيا عبارات منها «اعذرنى يا محمد، ولكن على أى كوكب أنت تعيش أهم حقيقة حول العولمة هى أن أحدا لا يسيطر أيها الأبله..» وهكذا..

أطر تقييم الأداء الوطنى

إن العبرة التى يمكن أن تكتسبها شعوب الدول النامية من أحداث جنوب شرق آسيا تكون عبرة صادقة ومفيدة عندما تتخطى مجرد استيعاب الأسباب المباشرة للكارثة مثل القروض والمضاربات والاستهلاك الترفى، إلى إدراك الأهمية العملية لدور الفكر الوطنى فى ترشيد التفاعل مع إيجابيات وسلبيات العولمة. إننا فى هذا الخصوص وبالنظر إلى التفاعلات فى مصر مع العولمة، نحاول أن نجذب الانتباه إلى توجهات إدارية حرجة تتناقض مع متطلبات التعامل مع العولمة، وكذلك مع المسار الأمثل للتنمية، وقبل ذكر هذه التوجهات الحرجة نورد الملاحظات التالية:

١ - أن «العولمة» أمر واقع وهى لم تبدأ الآن فقط ولن تنتهى فى زمن قريب منظور، وبالتالى فإن التفاعل معها فى إطار استشراف وطنى طويل المدى هو الأمر الأكثر جدوى للحاضر والمستقبل من مجرد حصر هذا التفاعل فى إطار ذرائعى نفعى ضيق من منظور الفعل المباشر ورد الفعل المحدود.

٢ - أن دور الدولة فى ظل العولمة فى المدى الزمنى المنظور يتحول ويتبدل، لكنه لا يختفى ولا يتقلص..

٣ - أن الخصخصة وسيلة لتحقيق أداء أفضل، وليست أمرا مقصورا لذاته.

٤ - أن الإدارة الحديثة طريق حقيقى لتعظيم قدرة أى مجتمع على حسن التعامل مع تحديات ومتطلبات العولمة.

٥ - أن الإطار المرجعى لتقييم الأداء والتقدم الوطنى فى ظل العولمة يتشكل من:

(أ) قدر الهدف (أو الطموح) الوطنى كيفا وكما..

(ب) المقارنة باستمرار مع مسارات وخبرات وطموحات الشعوب الأخرى..

(جـ) مستوى الرضا الوطنى العام.

وفى هذا الصدد لا ترقى التقييمات الصادرة عنا بواسطة آخرين (المعاهد والمؤسسات والمكاتب الأجنبية) عن مجرد الأهمية الثانوية وذلك بالمقارنة بالأهمية الأساسية للإطار المرجعى السابق الإشارة إليه. وهنا من المهم أن نأخذ فى الحسبان أن التقييمات التى صدرت عن مؤسسات الغرب بشأن التنمية فى دول جنوب شرق آسيا قبل بدء موجة الكوارث المالية الأخيرة كانت متفائلة، ولم تتطرق إلى ذكر السلبيات الجسيمة أو إلى توقعات لكوارث ما..

توجهات حرجة

وأما عن التوجهات الإدارية الحرجة التى نود طرحها فإنه يمكن تصنيفها إلى ثلاث نقاط رئيسية نذكرها بإيجاز كما يلى:

أولا: شـدة هيمنـة الإدارة المركزيـة للحكومـة: رغـم المتغـيرات والخصائص الجديدة المصاحبة للعولمة مثل سرعة الاتصال وسرعة التغيير في المنتجات والخدمات..، مما يولـد - وبـاطراد - الحاجـة إلى التطوير السريع والمتواصـل، ومـن ثـم الحاجـة إلى اللامركزيـة فـى صنـع واتخـاذ ومتابعـة القـرار، إلا أن المشـاهد أن الإدارة فـى مصـر - رغـم بعـض الإيجابيات - تتعاظم مركزيـة فـى الآونـة الأخـيرة، سـواء علـى مسـتوى مجلس الوزراء أو على مستوى الوزارات، وهو اتجاه عكسى تماما أو هـو عودة للوراء بالنسبة لمستجدات الإدارة فى العالم، ومن الأمثلة على تعاظم مركزية الإدارة نشير إلى ما يلي:

● عقد اجتماع على مسـتوى مجلـس الـوزراء (المجموعـة الاقتصاديـة الوزاريـة) بقيـادة رئيـس المجلـس للمناقشـة واتخـاذ القـرار بشـأن حـل مشكلات إحدى الشركات التابعة للشركة القابضة الخاصة بقطاع النسـيج ذلك بينما مـن المفـترض أن يكـون فـى وسـع الجمعيـة العموميـة للشـركة التابعة أو رئاسة الشركة القابضـة أو جمعيتـها العموميـة حـل المشـكلات سواء بذواتهم أو الاتصال بالوزارات المختلفة (إذا لزم الأمر)..

● ظاهرة استمرار وجود مشكلات فردية أو جماعية لا تجد حلا إلا من خلال سلطة أعلى مسئول فى الحكومة وهى مشكلات تختـص بمجـالات عديدة مثل الضرائب والسفر للعلاج.. الخ، وقد أمتدت مؤخرا إلى النوادى والكرة.

● بلوغ مركزية الإدارة ما قد يعتبر «تطرفا» بالقياس إلى معايير ومواصفات زمن العولة وهو التصرف فى أعمال ومستقبل حجم كبير من الشركات (قطاع الأعمال) من خلال نسيج ومنظور إدارى أحادى من الناحيتين القيادية والفنية، وذلك رغم العدد الهائل لهذه الشركات (فى الأصل أكثر من ثلاثمائة شركة تابعة) ورغم تنوعها إلى ١٦ شركة قابضة متباينة تماما فى أنشطتها الصناعية والتجارية، وكذلك رغم التنوع الداخلى لأعمال كل شركة قابضة على حدة.

ثانيا: ممارسة الخصخصة من منظور مالى صرف. وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن الخصخصة وسيلة لتحقيق أداء أفضل، فإن الخصخصة الجارية فى مصر تقوم فى الأساس وربما بشكل كلى. على الإجراءات المالية الخاصة بالبيع وتغفل أمرين عظيمين هما التطوير الإدارى والتغيير التكنولوجى. لقد بلغ هذا التوجه قمة الصراحة فى قرار اللجنة الوزارية العليا للخصخصة باللجوء إلى «مروجين محترفين» لبيع الشركات العامة (الأهرام ٩٨/٨/٢٠) وليس اللجوء إلى محترفين فى التطوير الإدارى أو التغيير التكنولوجى.

إن تركيز عمليات الخصخصة على الإصلاح المالى - والبيع - فى غيبة توافق استراتيجى مع كل من إصلاح إدارى حقيقى وتطوير تكنولوجى فاعل، هو أمر تصحبه سلبيات لها مخاطرها، وهذه السلبيات لا تتعلق فقط بكفاءة التطوير ومستقبله، أو المسار الاجتماعى الخاص بانتقال الملكية ونشوء القيم وإصابة الطبقة الوسطى بخلل، أو حتى بتجاهل النظريات الاقتصادية الحديثة الخاصة بالنمو، وإنما هى تتعلق - على المدى البعيد - بمتطلبات الأمن القومى.

وليس سرا - كمثال - أن إحدى الشركات الاستثمارية المنشأة كاستثمار مصرى أجنبى مشترك (من خلال القطاع العام) قد تحولت ملكيتها مؤخرا بالكامل إلى شركة أجنبية تماما - كما لم يكن أمرا بسيطا ذلك الاندهاش العام من تصريح وزير المالية والخاص بأن الحكومة تبحث عن شركة أجنبية لإدارة الجمارك المصرية. إن الإصلاح المالى أمر مهم ولازم لكنه ليس الإصلاح كله، وليس أول مراحل الإصلاح. إن الإدارة الحديثة والتحالفات الوطنية - وطنية، والوطنية - أجنبية، ونقل واستيعاب وتطوير التكنولوجيا هى ركائز أساسية للتطوير الحقيقى وللخصخصة الوطنية التى تهدف إلى دفع وتقوية النسيج الوطنى والإمكانات الوطنية فى الإنتاج والخدمات. وربما يمكن إدراك مدى سيطرة المنظور الأحادى المركزى لعملية الخصخصة عند التفحص المتمعن لتصريح مسئول فى وزارة قطاع الأعمال يقول فيه: يتم حاليا دراسة إنشاء شركة جديدة أو كيان لتولى مهمة إعادة هيكلة شركات قطاع الأعمال يبلغ عددها١٣٠شركة تبلغ قيمتها الدفترية٩٠مليار جنيه.(الأهرام٢٢/١٢ ٩٧).

ثالثا: مشكلات فى اختيار القيادات. إن اختيار القيادات فى مصر أمر يستحق الاهتمام البالغ والتفصيلى ويتعدى موضوع وحجم المقال الحالى، لكننا هنا نكتفى بالتنويه إلى بعض الاعتبارات والأفكار والمعالجات الأساسية فى هذا الموضوع.

١ - أن متغيرات العولمة تتطلب تغييرات جذرية فى الإدارة وهذه الأخيرة لا يمكن أن تحدث دون تطوير فى الاعتبارات والطرق الخاصة باختيار القيادات.

٢ - أن المعالجة الفكرية للحاجة والأهمية بخصوص تحديث وتطوير عمليات اختيار القيادات فى مصر قد بلغت الذروة فى كتابات المفكرين بعد حادث الأقصر وقد أوضحت هذه الكتابات الحاجة لأن يمتد التغيير فى اختيار القيادات إلى كافة المجالات وليس فقط الشرطة.

وربما تكون من أهم الإشارات فى هذا الخصوص إشارة الأستاذ السيد يسين إلى أن هناك حاجة شديدة لتغيير دماء النخبة السياسية والإدارية والفنية المصرية ولا ينبغى فى هذا المجال إطلاقا التعلل بأهمية الإبقاء على القيادات القديمة المتجمدة بحجة ضرورة الحفاظ على الاستقرار لأن الإبقاء على القيادات لن يؤدى الا إلى الجمود.

وجدير بالذكر أن الحاجة إلى التغير فى أساليب اختيار القيادات كان قد سبق الإلحاح عليها فى العديد من الكتابات حتى قبل حادث الأقصر (التغيير كأداة استقرار - الأهرام ٩٦/١/٤) وقد تمثل أبلغ وأعمق انتباه فى هذا الشأن فى اطروحات وردت فى الكتاب المهم الذى حرره د. أسامة الباز عام ١٩٩٦. «مصر فى القرن الـ ٢١: الآمال والتحديات»، ومن ذلك توقع حركات احتجاجية متعددة يقوم بها الشباب.. ومن ذلك أيضا تحسب أن تلجأ هذه الحركات لاستخدام العنف، إحساسا منها بأن جمود الأجيال القديمة هو الحاجز الأصم الذى يمنع تحويل المجتمع إلى مجتمع يسوده العدل ويعطى المجال للفرص المتكافئة (صفحة ١١٢).

ويمكن القول بأن الجمود فى اختيار القيادات هو سبب ونتيجة فى نفس الوقت للتوجهين الأول والثانى (مركزية الإدارة - المنظور المالى للخصخصة).

منطلقات التجديد

نعتقد أن الإدارة فى مصر فى حاجة إلى منحى جديد ينطلق من:

١ – إدراك الدور العظيم الذى يمكن أن تلعبه الإدارة كوسيلة عبقرية لاكتشاف وصنع وإنجاز فرص اللحاق بالتنافسية الدولية.

٢ – اعتماد أكبر على المعرفة الحديثة المتجددة فى تطوير كل من الإدارة العامة فى الدولة، وكذلك إدارة الأعمال فى جميع وحدات العمل (عام وخاص).

٣ – درجة أعلى من التوافق والتواصل واللامركزية بين متطلبات وأمور كل من الإدارة العامة وإدارة الأعمال..

٤ – استكشاف واتخاذ كل الوسائل والترتيبات والإصلاحات والتغييرات الإدارية المكنة بهدف دفع وتمكين الإنسان العادى من استخراج وتوظيف أحسن ما لديه من إمكانات ورؤى وطموحات من أجل نفسه ومن أجل مصالح المجتمع.

أن الحاجة إلى فكر إدارى وطنى جديد تقوم على أمرين أساسيين: الأول هو إدراك قدر التطورات الهائلة المكنة فى فاعلية الإمكانات المصرية والبشرية والمادية عند عمل تصحيح أمثل للأداء الإدارى.

والثانى هو القناعة بإمكانية إدخال الإدارة الحديثة إلى مجريات الأمور فى مصر فى إطار من الرعاية والدفع من القيادة السياسية للدولة والإدارة التنفيذية للحكومة.

الباب الرابع

العلم والتكنولوجيا .. وقوة الوطن

ما زلنا نواجه مشكلات وقضايا التغيير والتنمية والتقدم من خلال عمليات ومعاملات خاصة – في الأساس – بالاستثمار المالى ، أكثر من الانتباه للدور المركزى والأصيل للعلم والتكنولوجيا بخصوص هذه المشكلات والقضايا . ما هى أبعاد هذا الدور ؟ . ماذا ينقصنا بخصوصه ؟. كيف يمكن للعلم والتكنولوجيا فى مصر أن يساهما فى التعامل مع العولمة ؟ .. إنها كلها أمور هامة يجرى تناولها من خلال الأجزاء التالية :

١ – الانتباه السياسى لدور مصر تكنولوجيا .

٢ – آمال البحث العلمى من الوزارة الجديدة .

٣ – نحو استراتيجية للبحث العلمى حتى ٢٠٠٥ .

٤ – التغيير المنظومى فى البحث العلمى المصرى .

٥ – نحو ثورة فى إدارة العلم والتكنولوجيا .

٦ – البحث العلمى فى مصر : البناء الوطنى قبل العولمة .

٧ – إشارة بدء للتغيير التكنولوجى .

٨ – العوامل المساعدة الحاكمة للتقدم التكنولوجى .

(١)

الانتباه السياسى لدور مصر «تكنولوجيا»

مع الأخذ فى الاعتبار للعولمة التقنيـة techno - globalism كـأهم عنصر فى مدخلات وحركيات ومخرجات العولمة ، والتى تنعكـس فـى المتغيرات العالمية بما تتضمنه من تحالفات واتفاقيات وأزمات وحـروب .. الخ ؛ فإنه يصير مـن الـمهم الانتبـاه السياسـى لقـوة مصـر فـى العلـم والتكنولوجيا حيث ستتزايد باستمرار أهميتـهما المرجعيـة فـى الـدور الإقليمى والدولى لمصر . وبينما تملك مصر أكبر امكانية نسبية بين دول المنطقة للتعامل القيادى مع ظاهرة العولمة التقنية ، فإننـا نـرى أن هـذا التعامل القيادى مرهون بقدرة منظومة الوطن على القفـز فـوق عـدد مـن العقبات الرئيسية .

من الطبيعى فى إطار المتغيرات العالمية المتسارعة وتداعياتها الإقليميـة أن ينشط الفكر بشأن (دور مصر) فى المنطقة . وفى تقديرنا أن تواصل دور مصرى على المستويين الاقليمي والعالمى ، لابد أن يرتكـز علـى اسـتيعاب للعولـة ليـس فقـط باعتبارهـا ظـاهرة بـل لكونـها حاكمـة إلى حـد كبـير للمتغيرات الجاريـة والمسـتقبلية ، وذلـك حيـث نـرى العلاقـات الدوليـة الحاكمة للنفوذ وتوزيع الثروات . أصبحت تتأثر بآليات رشيقة وسريعة

وجذابة تصنعها وتوجهها الشركات والتحالفات التجارية والتنمية عابرة الجنسيات ، أكثر من تاثرها (أى العلاقات الدولية) بالعلاقات الثنائية بين الدول بما تتضمنه هذه الأخيرة من بيروقراطية ومحدودية فى الأفق والوسائل . هذا التغيير فى حركية العلاقات الدولية أصبح سمة أساسية للعولمة . وأما الوسيلة الرئيسية للعولمة فهى (التكنولوجيا) . فالشركات الكبرى عابرة الجنسيات هى المالكة للقدرات التكنولوجية الرئيسية ولإمكانيات تطويرها ووسائل التحكم فى نقلها . ومن خلال تحكم عابرات الجنسيات فى نقل التكنولوجيا يجرى التحكم فى فرص نمو الثروات المادية أو المعرفية كما يجرى رسم جديد لخرائط النفوذ فى العالم . التكنولوجيا إذن هى القوة الدافعة لظاهرة العولمة ، وهكذا نحن فى عصر يتصف بالعولمة التقنية أو «التكنوجلوباليزم» .

وفى إطار نهج العولمة التقنية نرى أن الشرق أوسطية عندما ترددت بشدة منذ سنوات قليلة كانت تمثل الجملة أو الفكرة التى قد تتمشى مع لغة أو منهج العولمة فى هذه البقعة من العالم . وهذا يفسر طرح الشرق أوسطية عندئذ كسوق وتضمنها لأمور التكنولوجيا والخدمات والتمويل(وخاصة فكرة إنشاء بنك يوجه آليات التنمية التكنولوجية فى المنطقة).

وهنا لابد من جذب الانتباه إلى البعد التكنولوجى فى الوجود الإسرائيلى المكثف عام ١٩٩٤ فى مؤتمر السوق الشرق أوسطية فى المغرب وفى مبادرة المشاركة بين الاتحاد الأوروبى والشرق الأوسط فى القاهرة . وذلك بالإضافة إلى الاهتمام السابق والمتنامى فى إسرائيل بشأن السياسة الإسرائيلية للتنمية التكنولوجية .

إن الراصد المدقق للعلاقات الدولية فى السنوات الأخيرة يلحظ بروز «التكنولوجيا» كعنصر رئيسى فى التحالفات الإقليمية وفى الاتفاقيات والأزمات الدولية .

مما سبق يمكن أن نستنتج ما يلى :

١ - أن مكانة وقوة مصر فى العلم والتكنولوجيا هى العنصر المحدد لدور مصر على أى مستوى جيوبوليتيكى (شرق أوسطى - إسلامى - شمال أفريقى - عربى - بحر متوسط .. الخ) .

٢ - أن مصر تملك بين دول المنطقة أعظم امكانيات نسبية (بشرية ومادية) تكفل لها التعامل القيادى مع العولمة التقنية، غير أن هذه الامكانيات فى حاجة إلى الدراسة والشحذ والإدارة العلمية المنظمة، حيث من الضرورى مواجهة حقيقة مؤداها أن أدوات إدارة وتخطيط ونقل وتطويع وتطوير وإبداع التكنولوجيا على المستويات القومية والقطاعية هى فى الأغلب مشتتة منخفضة الفاعلية وغير متوافقة مع بعضها البعض .

٣ - أن النجاح فى التعامل الإيجابى (بندية) مع العولمة يتطلب القفز بقوة وتقنية عالية فوق بعض العقبات والمعوقات، والتى منها التاريخى مثل التعامل السلبى مع التراث الحضارى ، ومنها النفسى الذى يحجبنا عن الوجود النشيط والمنظم فى ساحات العولمة التقنية التى توجد فيها إسرائيل ، ومنها المنهجى خاصة الافتقاد إلى التخطيط الاستراتيجى بعيد المدى ، حيث لا يوجد مثلا تحديد للصناعات الاستراتيجية فى السياسة المصرية ؛ بينما يمكن الإشارة إلى الالكترونيات كصناعة استراتيجية فى

السياسة الإسرائيلية . ومنها المعرفي والخاص بتطبيق المنهج العلمي في التعليم واختيار مشكلات البحث العلمي . ومنها الإدارى والخاص بإدارة الجودة الكلية في مؤسسات الدولة من حيث مدخلات ومخرجات العمل في القطاعات المختلفة بما يتضمنه ذلك من العلاقات داخل المؤسسات وبينها وبعضها البعض ، وكذلك نظم التقييم والترقي ووسائل شحذ القدرات وتعميق انتماءات العاملين إلى مؤسساتهم وتنظيم عطائهم في إطار نفسي - اجتماعي قومي .

وختاما ، يمكن التوصل إلى استنتاجين :

الأول : هو أن الانتباه السياسي للقدرات العلمية والتكنولوجية في مصر هو المدخل الرئيسي للاستفادة القصوى من شبكات العولمة التقنية حيث لا يمكن أن تنمو علاقة إيجابية مع الشركات عابرات الجنسيات ومع آليات العولمة دون (رفع حاد) لكفاءة الأداء في حياتنا (ولنا في بعض النمور الآسيوية والصين أمثلة حية) .

والثاني : هو أن دور مصر يتوقف على قدراتها التكنولوجية وعلى قدر مكانتها وإنتاجيتها في عالم التكنوجلوباليزم .

(٢)

آمال البحث العلمى من الوزارة الجديدة

(في بلد كبير مثل مصر تكون مسألة ضم وزارتين فـى وزارة واحـدة أمرًا هامًا يستوجب الانتباه والنقاش، خاصـة عندمـا تكـون الوزارتـين همـا (التعليـم العـالى) و (البحـث العلمـى). إن تسـليط الضـوء علـى الخصوصيات والاعتبارات التى تجعل هذا الضـم أمـرا غـير مسـتحب، أو التى تجعل منه ضرورة - فقط - كمرحلة انتقاليـة (فـى إطـار شـروط معينة)، يظل من وجهة نظرنا أمرًا يتصـل بـالمنظور السياسـى للبحـث العلمى ، أكثر منه اتفاق أواختلاف مـع ترتيبـات أو إجـراءات . وهـذا هو ما نحاول توضيحه هنا) .

لقى التعديل الوزارى (الذى جـرى عـام ١٩٩٧) بخصـوص ضـم وزارة الدولة للبحث العلمى إلى التعليم العـالى ارتياحـا وترحيبـا عنـد كثـير مـن المختصين والخبراء ، وكان من أهم الأسباب الظاهرة لهذا الارتيـاح توقـع إحداث تنسيق وتكامل فى جهود البحث العلمى فـى مصـر ، خاصـة أن معظـم علمـاء مصـر موجـودون فـى الجامعـات ، وكذلـك التخلـص مـن المشكلات التى يرى البعض أنها تتصـاعد عـادة مـع وجـود وزيـر متفـرغ للبحث العلمى ، وفى تقديرى أن مـا بـدا مـن ارتيـاح لهـذا التعديـل لـه

أسباب أخرى غير ظاهرة ، من ذلك شعور عام بانخفاض إنتاجية البحث العلمى عن المستوى الممكن وطمأنينة وارتياح إلى شخصية الوزير الجديد بالإضافة إلى قدر كبير من الاتفاق على جدية السيد رئيس الوزراء فى إحداث تعديلات إيجابية باستمرار ورغم ما ظهر وما بطن من أسباب فإن أهمية وخطورة دور البحث العلمى فى تأهيل مصر لمجابهة المتغيرات والتحديات المتسارعة عالميا وإقليميا (فى المعرفة والتكنولوجيا والتجارة والأمن والعلاقات الدولية) تدعو إلى مزيد من الشفافية فى إلقاء الضوء على التعديل الأخير وذلك بهدف تعرف أدق على المحاذير ووعى أكبر فى اكتشاف الإمكانيات وكفاءة أعظم فى تشغيل هذه الإمكانيات وفى إدارة تحقيق الآمال الوطنية .

اعتبارات حاكمة

إن تسليط الضوء على التعديل الأخير يحتاج الأخذ فى الحسبان لثلاثة أنواع من الاعتبارات الحاكمة :

(أ) طبيعة البحث العلمى كآلية إنتاجية .

(ب) خبرات الدول المتقدمة ودول النمور بخصوص الإدارة القومية للبحث العلمى .

(جـ) المتغيرات العالمية المتعلقة بتطوير المعرفة وتعظيم عائد الأسرار التكنولوجية .

ان اعمال الاعتبارات السابق الإشارة إليها يقود إلى جملة من الاستنتاجات والمعايير ذات الصلة المباشرة بموضوع التعديل الأخير نوجزها فيما يلى :

١ – أن أنشطة البحوث والتطوير المؤدية إلى التقدم التكنولوجي تجرى أساسا فى (وتدار من) وحدات الإنتـاج والخدمـات ومراكـز البحـوث فـى الشركات والمصانع والوزارات ، وأما البحث العلمى فى الجامعات فمهمته الأساسية تقدم المعرفة العلمية المحضة والمساهمة عند الضرورة وبنـاء علـى طلب جهات الإنتاج والخدمات فى إجراء البحوث الأساسـية الموجهـة ، وهى البحوث التى وإن كان لها طابع أكاديمى إلا أنها تساهم مباشرة فى إحداث تطور تكنولوجى ما ، خاصة التطور التكنولوجي الجذرى .

٢ – أن التغيـير التكنولوجـى الـذى يمثـل حجـر الزاويـة فـى تحقيـق القيمة المضافة ، يحدث من حيث الموضوع فى منتج أو فى عملية إنتاجية أو فى خدمة ؛ وكلها أمور بعيدة من ناحية الصنعة والبحث والتطوير عـن طبيعة اهتمام الجامعات التـى تختـص أساسـا بالتـأهيل العلمـى وبتطويـر المعرفة العلمية .

٣ – أن النقطتين السابقتين هما السبب المباشر فى أن الوضع الطبيعـى من ناحية توزيع المـوارد الماديـة (المخصصـات) والمـوارد البشـرية (أعـداد الباحثين) فى الدول المتقدمة (ودول النمور) يتميز بوجود ٧٠ إلى ٨٠٪ من هـذه المـوارد فـى الشـركات والـوزارات ومراكـز البحـوث (أى خـارج الجامعات) ، وهنا يجب الانتباه إلى أن الوضـع فـى مصـر مقلـوب وغـير طبيعى ، حيث لا تملك وحدات الإنتاج والخدمات ومراكز البحوث أكثر من ٢٠ – ٣٠٪ من الموارد المادية والبشرية على المسـتوى القومـى ، بينمـا تحصل الجامعات على ٧٠ – ٨٠٪ من هذه الموارد .

٤ - إن الوضع المقلوب الموجود فى مصر يمثل سببا مباشرا وراء ضعف مساهمة البحث العلمى فى إحداث التقدم . إن هذا الوضع يكرس عددا من الظواهر غير الصحية فى إدارة البحث العلمى فى مصر نذكر منها ما يلى :

• هيمنة ظاهرية للجامعات وتقاليدها على أنشطة البحوث والتطوير فى جهات الإنتاج والخدمات (خاصة من خلال موضوعات الأبحاث وطرق الترقى) .

• تخلى أنشطة البحوث والتطوير فى جهات الإنتاج والخدمات عن التوجيهات البحثية الخاصة بخدمة المنتج وتطويره وتطوير العمليات الإنتاجية والخدمية .

• تراجع الجامعات عن دورها الريادى بالنسبة للمعرفة العلمية الأصيلة والتأهيل العلمى الجاد .

• هروب الباحثين (بعد التأهل بالدكتوراه) من وحدات البحوث والتطوير بجهات الإنتاج والخدمات إلى الجامعات وافتقاد الفرصة فى هذه الجهات إلى التكوين التراكمى لكوادر علمية قادرة على إدارة أنشطة البحوث والتطوير وعلى مد جسور التعاون العلمى الاستراتيجى المبرمج مع الباحثين فى الجامعات .

٥ - وبعيدا عن الوضع المقلوب فى مصر فإن طبيعة الأمور ، خاصة اعتماد التنافسية على التغيير التكنولوجى المستمر (فى المنتج والعمليات الإنتاجية والخدمات) قد أدت بالنسبة للبحث العلمى إلى نوعين من الارتباط المزدوج . النوع الأول ارتباط بين البحث العلمى والتكنولوجيا ،

والنوع الثانى ارتباط بين شئون البحث العلمى والتكنولوجيا من جهة والمجتمع ككل (وليس التعليم العالى فقط) من جهة أخرى .

٦ - ومع التصاعد المتسارع لمتغيرات العولمة (خاصة حرية التجارة وحقوق الملكية الفكرية والعجلة المتزايدة فى التطوير التكنولوجى وفى تطوير الاتصالات والإدارة) فإن المبادرة فى البحث العلمى العالمى قد انتقلت-ربما كلية -إلى قلب الشركات العملاقة عابرات القارات، مما أدرى إلى اكتساب البحث العلمى لثلاث خواص فى غاية الأهمية والوضوح بالنسبة لانعكاساتها على الإدارة القومية :

(أ) التغلغل والانتشار ، حيث تبث - بضم التاء - آليات وتفاعلات ومخرجات البحث العلمى والتطوير التكنولوجى فى جميع جوانب ومستويات الحياة فى المجتمع .

(ب) الخصوصية - بمعنى عدم قابلية (أو صعوبة) انضواء (أو انضمام) إدارة تسيير البحث العلمى تحت لواء (أو إلى جانب) نشاط نمطى آخر كالتعليم أو الصناعة أو التجارة .. الخ . حيث صار للبحث العلمى شئونه الخاصة من حيث اقتصادياته واجتماعياته وسياساته .

(جـ) الاستراتيجية - بمعنى ارتباط عمليات الإدارة والاختيار والتخطيط فى البحث العلمى على المستوى القومى بأهداف (أو مسارات) تكنولوجية ينتج عنها تحولات فى أهداف ومسارات أنشطة نمطية أخرى تتعلق بالضرائب والجمارك والتعليم والتجارة والتدريب والاعلام .. الخ . وبمعنى آخر فإن الإدارة الاستراتيجية لأنشطة البحث العلمى

والتكنولوجيا على مستوى الحكومة هى إدارة استراتيجية لجميع أنشطة الدولة .

٧ - لقد أدت النقطتان السابقتان إلى لجوء البلدان المتقدمة (أو التي في سبيلها إلى التقدم) إلى إدارة البحث العلمى والتكنولوجيا على المستوى القومى من خلال منظومة مؤسسية خاصة تأخذ فى الأغلب شكل وزارة للبحث العلمى والتكنولوجيا أو مجلس على مستوى عال تتوافر له آليات تحديد الأهداف والتنسيق والمتابعة والتصحيح ويعمل فى إطار أعلى سلطة تنفيذية فى الدولة .

الحاجة إلى نموذج مصرى

وبعد، إن العرض الاستدلالى السابق يجذب الانتباه إلى أن المسألة بالنسبة لوضعية الإدارة القومية للبحث العلمى والتكنولوجيا تختص ليس فقط بالبحث العلمى ذاته وإنما بمجمل السياسات العامة فى الدولة ، وعليه فإن تناول آفاق ضم وزارة الدولة للبحث العلمى إلى التعليم العالى من المنظور السابق يدفعنا لأن نستنتج أن هذا الضم تكون له مدلولات إيجابية فقط إذا اتجهت الإدارة العليا للحكومة بالتعاون مع العلماء والباحثين إلى بناء نموذج مصرى خالص فى إدارة البحث العلمى والتكنولوجيا .. نموذج خاص بظروف مصر وله أهدافه المرحلية المحددة .

إن أهمية هذا التوجه تقوم فعلا على ظروف أو محددات موضوعية خاصة بمصر ، إن هذه المحددات تتلخص فى تركز ٧٠ - ٨٠٪ من القوة الضاربة للبحث العلمى فى الجامعات وأن التحول إلى الوضع الطبيعى

(المتبع عالميا) وهو وجود ٧٠ - ٨٠٪ من قوة البحث العلمى فى وحدات الإنتاج والخدمات أمر غير وارد فى زمن قصير. مصر إذن فى حاجة إلى التوصل إلى سيناريو يؤدى إلى تحويل الوضع المقلوب إلى ميزة نسبية، وبمعنى آخر فإن الهدف المراد تحقيقه فى إطار الضم يتحدد بإمكانية الإجابة عن السؤال التالى :

كيف يمكن استيعاب الميزة النسبية المصرية والمتمثلة فى كثرة أعداد الباحثين فى الجامعات فى دفع البحوث والتطوير فى قطاعات الإنتاج والخدمات ؟

إن الإجابة المتسرعة بتحويل هؤلاء جميعا إلى ممارسة أنشطة البحوث والتطوير الإنتاجية والخدمية أمر غير حكيم ، حيث يؤدى إلى أن تفقد الجامعة عقلها والمتمثل فى المعرفة المحضة ، وبالتالى فإن المجتمع يفقد عقله (وهو الجامعة) على المدى الطويل .

إن التعظيم المرحلى لفوائد الإدارة الموحدة للبحث العلمى والتعليم العالى يكون من خلال تحقيق الأهداف الجزئية التالية .

١ - وضع تنظيم إدارى واستثمارى يكفل باستمرار وجود قوة ضاربة من الباحثين فى الجامعات والشركات ومراكز البحوث والوزارات ، تقوم بأنشطة بحث وتطوير المنتجات والعمليات الإنتاجية والخدمات .

٢ - أن يكون اشتراك الجامعة فى أنشطة البحث والتطوير الإنتاجى والخدمى بطريقة لا تؤثر على قدرات المؤسسة الجامعية على إجراء البحوث الأكاديمية القادرة على تطوير المعرفة الأساسية .

٣ – أن يؤدى هذا التنظيم إلى انتقال مؤقت لجزء من القوة البحثية فى الجامعات لفترة محدودة من الزمن (مثلا عامين أو ثلاثة) إلى القوة البحثية فى جهات الإنتاج والخدمات، وأن يستمر العمل بذلك النظام إلى أن تصل المؤسسات الإنتاجية والخدمية، إلى بناء المنظومة البحثية الفعالة الخاصة بها ، وذلك فى إطار خطة زمنية ترعاها كل الأطراف، وأقترح أن يكون المدى الزمنى للخطة هو السنوات السبع الباقية من المرحلة الانتقالية لتطبيق حقوق الملكية الفكرية .

٤ – أن يجرى في نفس الوقت تطوير جذرى غير تقليدى لمناخ العمل فى المراكز البحثية القائمة فى الوزارات وفى جهات الإنتاج بحيث تصبح هذه المراكز قوة ضاربة قادرة على عمل اختراقات بحث وتطوير تكنولوجى .

٥ – أن تتوصل الإدارة القومية للبحث العلمى إلى تصور مستقبلى لشكل العلاقة والتعاون بين الجامعة من ناحية ووحدات البحث والتطوير الإنتاجى والخدمى من ناحية أخرى بحيث يكون لكليهما خصوصياته المتميزة والتى تحقق عونا وفاعلية لخصوصيات الآخر .

خطوة تاريخية

إن ما أشرنا ويشير إليه غيرنا من محاذير وآمال بخصوص إدارة البحث العلمى فى مصر يظل مجرد كلام وكتابات ما لم تتخذ الإجراءات العملية لكى ينطلق المارد من القمقم ، المارد هو الباحث العلمى المصرى والقمقم هو المنظومة القائمة . وأما عن الإجراءات التى تقود إلى الانطلاق

فإن هناك حاجة للاقتراب منها والتعرف عليها بأسلوب علمى ، أسلوب يقوم على العصف الذهنى المتتابع والقياس والمقارنة والاستشراف والنمذجة والتقويم والمتابعة ، وإذا كانت الأهداف الجزئية التى ذكرناها تمثل عبئا نوعيا ثقيلا على عاتق وزارة الدولة للبحث العلمى والتعليم العالى فإن النجاح فى تحمل هذا العبء وإنجاز الأهداف هو خطوة تاريخية حان اجتيازها .

(٣)

نحو استراتيجية للبحث العلمى حتى ٢٠٠٥

أشرنا فى الفصل السابق (آمال البحث العلمى من الوزارة الجديدة) إلى أن ضم وزارة الدولة للبحث العلمى إلى التعليم العالى تكون له مدلولات إيجابية فقط إذا اتجهت الإدارة العليا للحكومة إلى بناء نموذج مصرى خالص فى إدارة البحث العلمى والتكنولوجيا.. نموذج له أهدافه المرحلية المحددة..، وفى الفصل الحالى نحاول الاجتهاد فى اقتراح معالم استراتيجية النموذج المصرى المأمول.

الهدف والإطار الزمنى:

توجد - فى تقديرنا - أربعة عوامل رئيسية حاكمة لصياغة هدف الاستراتيجية ولتحديد إطارها الزمنى:

١ - أن تعتمد الاستراتيجية على الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة.

٢ - أن تكون فى حدود المنظور من مدى زمنى.

٣ - أن تقوم على الاستشراف الممكن للمستقبل.

٤ - أن تستخدم الميزة النسبية فى الجامعات ومراكز البحوث (أى وفرة أعداد هائلة من الأساتذة والباحثين وطلاب الدراسات العليا) فى

علاج مشكلة ضعف منظومة البحوث والتطوير فى وحدات الإنتاج والخدمات.

وفى ضوء العوامل السابقة فإنه من المقترح أن يكون المدى الزمنى للاستراتيجية هو الفترة المتبقية من المرحلة الانتقالية فى تطبيق حقوق الملكية الفكرية، أى من الآن وحتى عام ٢٠٠٥. إن هذا الإطار الزمنى يعنى أن يكون الهدف الرئيسى للاستراتيجية هو رفع البنية الأساسية للبحث العلمي والتطوير التكنولوجى فى مصر إلى مستوى القدرة على الالتقاء مع التنافسية العالمية عندما يحل عام ٢٠٠٥، والذى يبدأ بعده تعرض الإنتاج والخدمات فى مصر إلى المنافسة الحرة والكاملة من جميع أنواع المنتجات والخدمات فى العالم.

إن مصداقية الاستراتيجية تأتى أولا من خلال ربطها بالمتغيرات العالمية، وتأتى ثانيا من خلال حيوية أهدافها الجزئية والتى يمكن أن تتضمن ما يلى:

- **أولا**: إحداث تعديلات إدارية وهيكلية فى أنشطة البحث العلمى والتكنولوجيا بحيث تؤدى هذه التعديلات إلى تجانس وتناغم فى أنشطة البحوث والتطوير (من حيث العرض والطلب والآليات والمدخلات والمخرجات) بين وحدات البحث العلمى فى الجامعات ومراكز البحوث ووحدات الإنتاج والخدمات فى الحكومة والقطاعين العام والخاص.

• **ثانيا**: تعديل التشريعات المصاحبة والمشجعة للاستثمار بحيث تتضمن آليات وحوافز تدفع على البحث والتطوير فى إطار محسوب يتوازى مع طموحات التنمية القومية.

• **ثالثا**: وضع خطة قومية لتطوير قدرات البحث العلمى والتغيير التكنولوجى على ثلاثة مستويات:

(أ) المستوى القاعدى: مستوى البحوث الخدمية فى جميع مجالات الإنتاج والخدمات وهى بحوث تختص أساسًا بمواصفات وقياسات الجودة والأمان ويمكن أن يلعب فيها القطاع الخاص «البحثى» دورًا رائدًا.

(ب) المستوى المتوسط: مستوى بحوث تطوير المنتجات والعمليات الإنتاجية والخدمية، وهى بحوث تختص بتحقيق التنافسية فى الأسواق إن هذا النوع من البحوث لا مناص من أجرائه بواسطة جميع الشركات الإنتاجية سواء على مستوى الشركة الواحدة أو مستوى تحالف بين مجموعة من الشركات.

(جـ) المستوى العالى: مستوى بحوث التميز العلمى والتكنولوجى والتى تلعب دورًا رئيسيًا فى التنافسية طويلة المدى وفى توليد واكتساب أسواق جديدة. إن بحوث المستوى العالى تختص بمجالات محددة يتم اختيارها والاتفاق عليها من خلال تناول قومى فى الاستكشاف والتخطيط العلمى والتكنولوجى، وتجرى هذه البحوث عادة فى الجامعات والمراكز البحثية المتميزة ومعامل بحوث الشركات الكبرى. إن عمليات إجراء

ومتابعة واستغلال نتائج هذه النوعية من البحوث تتطلب توجيهها وعونا ورعاية على المستوى القومي باعتبارها بحوثا تهدف إلى (وتساهم في) صنع مقدمة الجبهة التكنولوجية للدولة ككل.

• رابعا: التوصل في نهاية الفترة الانتقالية إلى بناء جديد للبحث العلمي والتكنولوجيا في مصر. بناء تكون له القدرة على التطور الذاتي في مواجهة متغيرات ومتتابعات العولمة، وتكون له إمكانية صنع تنافسية مصرية رائدة على المستوى الدولي في مجالات محددة.

أسلوب العمل (الطريقة)

تضمنت السطور السابقة نظرة سريعة على الهدف والإطار الزمني لما يمكن أن يطلق عليه «استراتيجية البحث العلمي والتطوير التكنولوجي حتى عام ٢٠٠٥». إن التوصل إلى طرق تحقيق هذه الاستراتيجية يحتاج إلى ورش عمل علمية مكثفة وغير عادية تأخذ في الاعتبار ما يلي:

١ - أن القصور القائم في العلاقة بين وحدات الإنتاج والخدمات من ناحية ووحدات البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحوث من ناحية أخرى لم ينشأ عن عيب أصيل في أي منهما بقدر ما هو نتاج خلل في قدرة وسعة المناخ المنظومي المحيط بهما معًا على دفعهما وتوجيههما إلى التضافر والتعاون وتبادل المنفعة.

٢ - أن التغييرات الواجب أحداثها في أسلوب العمل يجب أن تكون تغييرات حقيقية «غير متخيلة» بالقياس إلى الواقع الحالي وفي نفس الوقت تتسم بالبساطة والسهولة.

٣ - أن لمصر ظروفها الخاصة بها (اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وتاريخيا وإقليميا)، وبالتالى لا يمكن لمصر أن تنجح فى استراتيجية استنهاض علمى وتكنولوجى باتباع أسلوب عمل أى دولة أخرى، لكن الأمر يحتاج إلى استيعاب وهضم أساليب عمل الأمم الأخرى التى سبقتنا فى الاستنهاض، ثم اكتشاف الأسلوب الأمثل طبقا لإمكانياتنا ومواصفاتنا وطموحاتنا.

الأمل

الزمن يمر والتطور يتسارع بشدة بحيث لا نستطيع أن نميز ما إذا كان الواقع هو أننا نحن الذين ندخل إلى القرن الحادى والعشرين أم أنه هو الذى يغزونا.. لكن ربما ما نستطيع أن نميزه وأن نتمسك به بقوة هو الأمل. الأمل الموضوعى فى المواطن المصرى العادى، وفى العلماء والخبراء والتكنولوجيين المصريين.

(٤)

التغيير المنظومى فى البحث العلمى المصرى

«التغيير» و «المنظومية» أمران هامان يميزان العصر والعولمة، ويلقيان بانعكاساتهما على المستقبل، وإذا كان الجوهر الناتج عن تلازمهما يشير إلى التجديد والانضباط والكفاءة، فإن القوة الدافعة الرئيسية للعصر والعولمة والمستقبل هى «البحث العلمى». هناك إذن ارتباط كبير بين التغيير والمنظومية من جهة، والبحث العلمى من جهة أخرى، وهو الأمر الذى يدفعنا هنا إلى تناول معالم وشروط إحداث التغييرات الضرورية فى البحث العلمى المصرى، بحيث تحدث هذه التغييرات فى إطار منظومى. أى أن نفكر فيها بطريقة منظومية، وأن نمارسها فى أطر منظومية، وأن يتناسب ناتج التغيير مع الظروف والتحديات الخاصة بالمنظومة الأم «مصر».

الأمر إذن يتطلب الانتباه إلى موقع البحث العلمى كمنظومة فى إطار المنظومة الكلية للدولة، وكذلك الانتباه إلى مكونات ووظائف منظومة البحث العلمى، وبعدها يبدأ التعرف على النهج المنظومى للتغيير.

مكان البحث العلمي في منظومة الوطن

رغم ما لأنشطة البحث العلمى فى مصر من تقدير من قيادة الدولة واحترام من العامة، إلا أنها من الناحية العملية لم تتمحور حول (أو فى

إطار) أهداف وطنية متواصلة إلا فيما نـدر، ومـهما يقال عن أداء طيب للبحث العلمى فى مكان أو آخر، فإن الأداء الطيب ليس ظـاهرة متصلة أو منتشرة، وهو مرتبط فـى حدوثـه بظروف ونضالات فردية أكثر من ارتباطه بسياسة أو استراتيجية أو نسق وطنى معرفى أو إنتاجى أو خدمى. إن التعامل المنظومى للبحث العلمى على المستوى الوطنى يعنى أن يجرى التعامل معه باعتباره منظومة كبرى تعمل فى إطار (وفى خدمة ومن أجل) المنظومة الأم وهى مصر الوطن والدولة حيث تتحدد العلاقة بين منظومة البحث العلمى والمنظومة الأم (الدولة) من خلال المسارات التالية:

• التحديات التى تواجهها المنظومة الأم أو تستشرف قدومها فى المستقبل (نتيجة تفاعلاتها الدولية والإقليمية أو اعتمادا على خططها المستقبلية)، والتى عليها (أى المنظومة الأم) أن تحولها إلى أهداف محددة تضعها أمام منظومة البحث العلمى من أجل تقديم الفهم والحلول المناسبة.

• تحديات قادمة تكتشفها وتتوقعها منظومة البحث العلمى (من خلال استخباراتها) وتحيلها إلى المنظومة الأم (الدولة) من أجل الأخذ فى الاعتبار فى السياسات والاستراتيجيات وآليات التنسيق والتحفيز.

• قيام المنظومة الأم بإدارة دفة التنسيق بين منظومة البحث العلمى والمنظومات الأخرى (منظومات الخدمات والإنتاج والدفاع والمالية والتشريع.. الخ) فى إطار السياسة العامة للدولة ومن منظور مستقبلى.

ومن المهم هنا أن نذكر – كمثال – أن ضعف العلاقة بين منظومتى البحث العلمى والإنتاج لا يعود إلى سلبيات تخص أيا منهما بقدر ما يعود إلى تخلى المنظومة الأكبر عن ممارسة القدر الكافى من آليات دفع وتنسيق تعامل المنظومتين معا.

الصعاب الحرجة فى منظومة البحث العلمي.

يرتهن تقدم أى منظومة بالنجاح فى التغلب على الصعاب التى تواجهها، وبخصوص منظومة البحث العملى فى مصر، فإنها تواجه الصعاب الحرجة التالية:

- قدر كبير من الانقطاع فى الجسور بين منظومة البحث العلمى ومنظومات الحياة فى مصر.
- ضعف تكنولوجيات البحث العلمى الوطنى (الإدارة – التجهيزات – التأهيل.. الخ).
- التقدم المتسارع للبحث العلمى على الساحة العالمية وارتفاع تكلفة تكنولوجياته.
- سيطرة تقاليد وقيم بالية على أنشطة البحث العلمى (الأقدمية – الشهادة – تسخير نقطة البحث للباحث وليس تجنيد الباحث لمصلحة نقطة البحث.. الخ).
- هيمنة تقليدية للجامعات (بطريقة مباشرة أو غير مباشرة) على إدارة ومسارات وقيم البحث العلمى خارج الجامعات.

منظومة البحث العلمي.. مكوناتها ووظائفها

إن الصعاب السابق الإشارة إليها هي صعاب عامة يمكن إدراكها عند التعامل مع البحث العلمي بوجه عام في أى وقت وفي أى مجال وعلى أى مستوى.. وهناك أنواع أخرى من الصعاب يتم إدراكها فقط عند التعامل المباشر مع المنظومات الأدنى المكونة للمنظومة الوطنية للبحث العلمي والتى يمكن أدراجها كما يلى:

(أ) أنشطة البحوث في الجامعات.

(ب) المعاهد القومية للبحوث (مثل المركز القومى للبحوث وهيئة الطاقة الذرية.. الخ).

(جـ) مراكز ومعامل البحوث بالوزارات.

(د) إدارات البحوث فى الشركات والمصانع.

(هـ) مراكز البحوث المملوكة للقطاع الخاص (غير موجودة حاليا وهناك حاجة إليها في ظل مستجدات العولمة). هذا، وتتباين منظومات البحث العلمي من حيث أنواع البحوث التى تتعامل معها، والتى تنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

- بحوث أساسية تخدم المعرفة وتجرى أساسا في الجامعات.
- بحوث أساسية موجهة إلى حل مشكلات تطبيقية معينة وتجرى أساسا في المراكز البحثية الكبرى ومعامل الشركات الكبرى وأيضا فى الجامعات.

• بحوث تطبيقيه مباشرة تتعلق بتطوير وجودة المنتج أو الخدمة أوالعملية الإنتاجية، وتجرى فى معامل الشركات والوزارات والمراكز البحثية.

إن الأخذ في الاعتبار للتنوع فى الأنشطة البحثية من حيث مكان إجرائها، ومن حيث أنواعها وأهدافها، يوضح مدى الخطأ التقليدى الذى نقع فيه باستمرار عندما نصر أن يكون المرادف المباشر لمصطلح البحث العلمى هو الجامعة. لقد كان ذلك يحدث فى القرن التاسع عشر، أما الآن فى نهاية القرن العشرين فعلينا الانتباه إلى اختلافات جذرية فى هذا الخصوص.

إن كل منظومة من منظومات البحث العلمى السابق الإشارة إليها تختلف ليس فقط في المكان وفى نوع البحوث، بل أيضا فى الوظائف العامة والتى تتضمن ما يلى:

١ – وظيفة تحديد الأهداف: بمعنى أى أنشطة بحثية تقوم بها، وأى تطويرات ينبغى أن تحدث فيها.

٢ – وظيفة الاستخبار: بمعنى صنع واكتشاف وتحديد البدائل المختلفة التى تختار منها الأهداف، وكذلك التنبؤ بخصوص التطورات والتحديات المستقبلية..

٣ – وظيفة التشغيل: أى تخصيص الموارد المادية (أموال – أجهزة.. الخ) والموارد البشرية (العلماء والمهندسون والمساعدون الفنيون وطلاب البحث) لأداء الأعمال المختلفة.

٤ – وظيفة التنسيق: أى جعل الوحدات المكونة للمنظومة البحثية تعمل بتناغم فى إطار من التوافق مع المنظومات الأخرى.

إن التباينات الناتجة عن الاختلاف فى تفاصيل الوظائف العامة لكل منظومة تدفع إلى ضرورة الأخذ فى الاعتبار خصوصيات هذه المنظومات وانعكاس هذه الخصوصيات على أهداف وأشكال وآليات التقدم والتغيير فيها.

محددات التغيير الرشيد

إن التناول السابق يقود إلى اعتبار النقاط التالية محددات حاكمة للتغيير الرشيد.

- التعامل مع الصعاب الحرجة الواقعة على منظومة البحث العلمى المصرى.
- إصلاح الأخطاء القائمة على تجاهل التباين فى خصوصيات المنظومات المختلفة للبحث العلمى.
- الانتباه إلى أننا نعيش عالما مختلفا من حيث الآليات والقيم عن وقت سابق، ومن أهم المتغيرات المؤثرة على البحث العلمى نذكر ما يلى:

١ – الخصخصة.

٢ – اتفاقيات التجارة العالمية والتنافسية الدولية.

٣ – التغيير فى دور الحكومة.

إن هذه المتغيرات الثلاثة تعتبر - إلى حد ما - حاكمة للتغيير، الأمر الذى يوضح بجلاء مدى القصور الواقع على البحث العلمى المصرى عندما تقتصر عمليات التغيير على طريقة ترقى الأساتذة (؟!) أو على الربط بين مراكز البحوث والجامعات (؟!).

أهمية وخطورة مهمة التغيير

إن التوصل إلى قيم مضافة عالية وتقدم اقتصادى كبير يحدث فقط عندما نتحول إلى مرحلة «الاستثمار العلمى التكنولوجى»، وهذا - فى تقديرى - هو ما ينقصنا بشأن التصدى الحقيقى والفعال لتحديات ومتغيرات التجارة العالمية والتنافسية الدولية. إن «الاستثمار العلمى التكنولوجى» لا يمكن أن يتم باقتصاديات مربحة دون التغيير المنظومى للبحث العلمى المصرى. إن إدارة هذا التغيير المنظومى مهمة قاسية وخطيرة وذلك للأسباب التالية:

أولا: لأنها مهمة سياسية، نظرًا لظروف ومقتضيات التغيير فى السياسات العامة فى إطار التفاعل مع متغيرات العولمة.

ثانيا: لأنها مهمة وطنية غير عادية، نظرًا للدور الغائب للبحث العلمى فى دفع عجلة التقدم الوطنى.

ثالثا: لأنها مهمة تاريخية، نظرًا للتردى النسبى المتراكم منذ زمن فى أوضاع البحث العلمى المصرى.

هندسة التغيير

التغيير مسألة متواصلة لا تقف عند حد ولا تتوقف، وهنا من المهم الأخذ في الاعتبار أن التغيير يحدث تارة فى إطار الجهد المنظم فى مواجهة التحديات، وتارة فى إطار التداخل العفوى وردود الأفعال، وتارة ثالثة فى إطار الإبداع الناتج عن درجات الحرية المتاحة فى العمل والرؤية. وأيا كان الإطار الدافع للتغيير، وأيا كانت سرعة التغيير وشدته، فإن التعامل المنهجى مع التغيير من حيث فهمه واستيعابه ومتابعته وتطويره يتطلب التمكن على الدوام من هندسة التغيير والتى تصاغ على ثلاثة أبعاد (أو محاور):

- المحور الزمنى (حيث يتراوح التغيير بين قصير المدى وطويل المدى).
- المحور البنائى (ويتعلق بالتغيير فى الأنظمة والهياكل والروابط داخل وخارج المنظومات).
- المحور التسييرى (حيث التغيير يكون إما إجرائيا وتكتيكيا أو هو استراتيجى).

وهكذا، عند الشروع فى أى تغيير ينبغى أن يحدد موقعه من هذه الأبعاد (أو المحاور) حتى لا نفتقد التوافق بين التغييرات وحتى لا نغرق فى التغييرات السطحية غير المؤثرة على حركية البحث العلمى، وأيضا حتى تظل «غرفة عمليات» القيادة التنفيذية العليا للبحث العلمى قادرة دائما على رصد ومتابعة خريطة التغيير فى منظومات البحث العلمى.

وبالإضافة إلى أهمية التبصر بشأن موقع التغيير علـى المحـاور الثلاثـة المذكورة، فإن حيوية التغيير ترتـهن بكفـاءة الأداء الإدارى للتغيير نفسه والتى تتحقق من خلال ما يلى:

١ - تعظيم الديناميكيـة الداخليـة لمنظومـات العمـل علـى اختـلاف مستوياتها (من المعمل إلى المعهد البحثى).

٢ - المقارنـة المستمرة بالمنافسين الأعلى فـى البحـث العلمـى علـى الساحة الدولية.

٣ - الأمثلية المنهجية فى حل المشكلات التنظيمية، وذلك من خـلال الالـتزام بالدراسات والمؤشـرات والقياسـات وبحـوث العمليـات وحسابات التكلفة والعائد.. الخ.

إن التغيير المنظومـى مـن خـلال الأطـر التـى أشـرنا إليـها يتيـح للقيـادات العليـا فـى الدولـة علـى المسـتويين السياسـى والتنفيـذى ثلاثـة معطيـات مهمـة:

أولاً: ممارسة الرؤية الكلية للمنظومة الكبرى للبحث العلمى المصرى، وما يتبع ذلك من تأمل ونقد ودراسة وتوجيه.

ثانيـا: تعظيم إمكانيـة التفعيـل الرشـيد والسـريع والفعـال للعلاقـات البينية بـين منظومـات البحـث العلمـى مـن ناحيـة، ومنظومـات الإنتـاج والخدمات من ناحية أخرى.

ثالثا: تحويل التحديات السياسية والاستراتيجية التي تلقيها علينا المستجدات الدولية والإقليمية إلى أهداف مناسبة كمهام وطنية أمام البحث العلمي المصري.

وبعد، إن ما تناولناه هنا يختص بأطر التغيير المنظومي وأما «الكيفية» بخصوص الشروع العلمي في إجراء وتنفيذ التغيير فإنه أمر يستحق معالجة خاصة. (أنظر الفصلين التاليين).

(٥)

نحو ثورة فى إدارة العلم والتكنولوجيا

عوامل كثيرة هامة تدفع إلى ضرورة أحداث صحوة (أو ثورة) حقيقية في ممارساتنا في البحث العلمي والتغيير التكنولوجي. إن المتغيرات العالمية السريعة في طبيعة وأهداف البحث العلمي والتغيير التكنولوجي، وفي مكانتيهما في التنمية وفي العلاقات الدولية، تجعل المسار البراجماتي «الذرائعي» في تصحيح أوضاع العلم والتكنولوجيا هو السبيل الوحيد إلى حسن إدارتهما، وإلى تسييرهما في الإطار الأمثل طبقا للتحديات والمتطلبات.

إن المسار البراجماتي يتضمن ما يلى:

١ – وضع أهداف عامة لأنشطة البحث العلمي والتغيير التكنولوجي، وفي ظننا أن هذه الأهداف يمكن أن ترتكز على التوجهات التالية:

(أ) الانتباه إلى أن التغييرات التكنولوجية فى المنتجات والخدمات تحدث دائما من خلال مسارين رئيسيين، وهما التغيير البسيط المتصاعد (مثل التغيير فى خواص المنتجات)، التغيير الجذرى والذى يعنى التوصل إلى منتجات أو خدمات لها صفات رئيسية جديدة لم تكن موجودة من قبل.

(ب) وضع استراتيجية وطنية عامة للتغيير التكنولوجي تتضمن ما يلى:

- تنشيط تطوير كل الخدمات.
- تنشيط عمليات إحداث التطويرات البسيطة المتصاعدة في كل الصناعات الوطنية.
- تنشيط التطوير الجذرى (من أجل اللحاق بالتنافسية الدولية) في مجالات محددة يتم اختيارها وتحديدها بعناية طبقا لأولويات قومية يجرى الاتفاق عليها.

(جـ) وباعتبار أن مع نهاية عام ٢٠٠٤ سيشهد العالم نهاية فترة السماح الخاصة بتطبيق حقوق الملكية الفكرية فإن الأمر يتطلب جعل ذلك التاريخ (عام ٢٠٠٤) هو نهاية المرحلة الأولى للاستراتيجية الوطنية للتغيير التكنولوجي. ومن المفروض أن تصل مصر في نهاية هذه المرحلة إلى تحقيق قدر من التنافسية الدولية التكنولوجية في مجالات محددة.

٢ - صياغة الإصلاحات والتطويرات والتغييرات المطلوب إجراؤها (في سياسات وآليات البحث العلمي المصرى وفي بنياته الأساسية وفي إداراته) من خلل ما يسمى بالاعتماد على المقارنة مع الآخرين benchmarking. إن هذا المسار البراجماتي يستوجب استيعابا مقارنا (من خلال دراسات تفصيلية وتحليلات متقدمة) لكل من أحوال البحث العلمي والتغيير التكنولوجي في بلدان العالم المتقدم، وكذلك الخرائط الاستشرافية العالمية للتطورات المستقبلية في العلم والتكنولوجيا.

٣ – دور أكبر لمؤسسة الرئاسة فى دفع مسارات البحث العلمى والتغيير التكنولوجى. إن الحاجة إلى هذا الدور تستند إلى الاعتبارات التالية:

الاعتبار الأول: عظم شأن العلم والتكنولوجيا بالنسبة لتطور الأمم بحيث صار لمؤسسات الرئاسة فى البلدان المتقدمة طاقم استشارى وسكرتارية يختصان بتحضير وصياغة الأبعاد والجوانب الخاصة بالعلم والتكنولوجيا كجزء من النسيج المساعد للفكر الرئاسى فى عمليات صنع واتخاذ القرار.

الاعتبار الثانى: يتمثل فى «كلية» الدور الذى يلعبه البحث العلمى والتكنولوجيا فى توجهات الكونية (أو العولمة) بدءا من نقل التكنولوجيا وتوزيع الثروات وإعادة توزيعها على المستوى الدولى، ومرورًا بالتعامل مع البيئة، وحتى اعتبارات العلاقات الدولية الصرفة ومن أبرزها المخاض الجارى فى شتى مناطق العالم والذى ينذر بصعود وهبوط كيانات وأدوار إقليمية لعديد من الدول.

الاعتبار الثالث: يتمثل فى السمة الرئيسية لأنشطة التنمية فى الزمن الحالى (زمن القرن الحادى والعشرين) وهو اعتمادها اللحظى والاستراتيجى على العلم والتكنولوجيا، بل وامتداد مفهوم الأمن الوطنى فى عصر العولمة ليشمل حجم ونوعية القدرات الوطنية الفاعلة والكامنة فى مجالات العلم والتكنولوجيا.

الاعتبار الرابع: استمرار أنشطة البحث العلمى والتكنولوجى فى مصر فى حالة نسبية من الـ «محلك سر» بحيث يتطلب الأمر دفعا وطنيا سياسيا على مستوى عال.

الاعتبار الخامس: أن مصر مازالت قادرة على (بل ويقع عليها واجب تاريخي بشأن) صياغة النموذج الأمثل للصعود التكنولوجى على المستوى الإقليمى (العربى - الأفريقى - الشرق أوسطى).

٤ - تحديد أوضح لدور الدولة، فرغم ما يتردد عن تقلص دور الدولة بفعل العولمة، إلا أن هذا أمر غير صحيح، وخاصة بالنسبة للتنمية العلمية والتكنولوجية. إن دور الدولة يتغير ولا يتقلص (فدور الدولة فى الولايات المتحدة - على سبيل المثال - يتغير ليكون تعميق وضمان الحماية الخارجية للتكنولوجيات الأمريكية)، وفى مصر هناك حاجة لأن تضع الدولة «**سياسة وطنية للاستثمار التكنولوجى والاستثمار فى البحث العلمى**». إن أركان هذه السياسة يمكن أن تتضمن ما يلى:

- عدم ترك التنمية التكنولوجية وتقدم القدرة العلمية الوطنية تحت رحمة سياسات السوق، حيث يتطلب الأمر من الدولة جرعة كبيرة من الترشيد وضبط «الدفة».
- تحديد الأولويات.
- تطوير البنية الأساسية وتعظيم قدرتها الذاتية على تطوير كفاءتها.
- وضع آليات جديدة للتحفيز والتشجيع والمتابعة، وذلك من خلال أطر مرجعية تأخذ فى الاعتبار أبعاد الإدارة والإبداع والتنافسية الدولية.
- قيام وزارة البحث العلمى بأداء مهام سياسة علمية (وليست تنفيذية)، بحث تنتشر وتتغلغل وتتكامل هذه المهام خلال كافة المؤسسات، وبحيث يكون الهدف العام للوزارة هو «**تعظيم الكفاءة**

المنظومية للنشاط الابتكـارى» فـى العلـم والتكنولوجيـا فـى كافـة مجالات الحياة على أرض مصر.

• ممارسة الأحزاب والمؤسسات غير الحكوميـة لأدوار إيجابيـة بشـأن تسيير وتقييم أوضاع الاستثمار فى العلم والتكنولوجيا، وكذلك قيام هذه الجهات بمتابعة اجتماعيـة اقتصاديـة لقيـم ومسـارات العمـل العلمى والتكنولوجى.

هذا ويجب الانتباه إلى المسارات المساعدة (أو الموازية):

١ - العوامل المؤثرة على التغيير التكنولوجى: إذا كان المتعارف عليـه بخصوص التغيير التكنولوجـى أنـه يحـدث بفعـل قوتـين رئيسـيتين همـا طلبات أو احتياجات السوق، وقوة دفع العلم، فإن هناك قوة ثالثة تتمثل فى عوامل (أو قضايا) يؤثر كل منها بشكل غير مباشر فـى عمـق وسـرعة استقبال وأداء وانتشار التغيـير التكنولوجـى، ويظـهر تأثيرهـا علـى وجـه الخصوص فى بلدان العالم الثالث. إن هذه القـوة الثالثـة يمكـن أن يطلـق عليها «العوامل المساعدة»، والتى تتضمن سبعة عوامل نذكرها فى إيجـاز بالترتيب التالى حسب أولوية التأثير: الثقافة العامة - الرغبة الذاتية فـى التقـدم - قابليـة العمـل الجمـاعى - الأطـر المؤسسـية المحفـزة للأفـراد والجماعات والواعدة بالعدل والأمان - مصالح خاصة لأفراد وجماعـات - الانتباه السياسى لدور التكنولوجيا - الديمقراطية (أنظر الفصل رقـم٨ مـن هذا الباب).

إن تنوع هذه العوامل (أو القضايا) يدل على الاعتماد الكبير للتقدم العلمى والتكنولوجى فى أى مجتمع على المناخ العام، وهو أمر يدفع كافة مؤسسات الدولة على تنوعها (سياسية وإعلامية وثقافية وتعليمية.. الخ) ومنها المؤسسات غير الحكومية، إلى الانتباه إلى أدوارها غير المباشرة تجاه التطوير العلمى والتغيير التكنولوجى.

٢ – تعليم إضافة القيمة: هناك حاجة إلى غرس القدرة على ابتكار قيمة مضافة داخل النسيج الداخلى لشخصية كل إنسان، وفى هذا الخصوص تأتى الحاجة إلى وضع مقررات تعليمية مدرسية (فى الإعدادى والثانوى) تختص بتعلم إضافة القيمة. إن هذه المقررات تختص ببساطة بتعلم الابتكار، وذلك سواء بإضافة قيمة فكرية للمعلومات والمعارف، أو بإضافة قيمة مادية (أى التوصل إلى منتج أحسن أو خدمة أفضل) باستخدام مواد أولية أو منتجات بسيطة.

(٦)
البحث العلمى فى مصر
البناء الوطنى قبل العولمة

إذا كانت «الوطننة» يمكن أن تكون آلية إرشاد وتصحيح فى التعامل مع العولمة، وفى تصحيح وترشيد العولمة ذاتها، فما هى المعالم المكننة للوطننة في منظومة البحث والتطوير فى بلد مثل مصر؟ إنه سؤال مصيرى، أو هكذا يمكن أن يكون..

• بينما تتغلغل وتنتشر موجة العولمة فى معظم بلدان العالم كما يبدو من مظاهر عديدة (مثل سرعة الاتصالات، وتقليص الحدود أمام حرية التجارة، ونشر ودعم الخصخصة.. الخ)، فإنه يمكن الزعم بالظهور الحاد لأمرين هامين على سطح المتغيرات العالمية الجارية، الأمر الأول هو الأهمية القصوى للدور الذى تلعبه قدرات البحث العلمى والتطوير بالنسبة لآليات التفاعل مع العولمة، من حيث هو مشاركة أم تبعية، والأمر الثانى هو تصاعد الإحساس العملى بانحياز العولمة (عمليا عند التطبيق) إلى جانب الرأسمالية العالمية ممثلة فى الازدياد المطرد لحجم أعمال وهيمنة الشركات متعددة الجنسية، وفى تصرفات وسلوكيات للولايات المتحدة الأمريكية من شأنها تهديد وتآكل الشرعية الدولية، وأيضا فى القدرة فائقة الحد لكبار المضاربين فى البورصات على الهز العنيف لاقتصاديات دول جنوب شرق آسيا أو غيرها، وذلك من خلال سلوكيات مصرفية

مباشرة، أو حتى مجرد تصريحات إعلامية. إن الأمرين معا، أهمية قدرات البحث والتطوير من ناحية، وانحياز العولمة للرأسمالية العالمية من ناحية أخرى، يدعوان إلى ضرورة الانتباه إلى الحاجة الأساسية لما يمكن تسميته «وطننة» منظومات البحث والتطوير فى الدول النامية.

إن المقصود بالوطننة هنا ليس مجابهة العولمة، ولكن تحفيز وتعضيد وتعظيم القدرات المحلية فى الاستيعاب المعرفى والتغيير التكنولوجى، بحيث تكون هذه القدرات داخل الوطن الواحد سندا إيجابيا لبعضها البعض وللوطن وللمواطنين فى التنمية. وفى الاستفادة من إيجابيات العولمة، وأيضا فى تجنب سلبياتها وانحيازاتها. وإذا كانت قوة الدفع الرئيسية فى الشركات متعددة الجنسيات ترتكز على مخرجات أنشطة البحث والتطوير، والتى تبلغ ميزانياتها وإمكانياتها فى كل شركة ما يفوق الميزانيات والإمكانيات الموازية على مستوى الدولة ككل فى الكثير من الدول النامية، فإن كل دولة من هذه الدول تكون أحوج ما يكون إلى تكامل وتعظيم الأداء الوطنى فى أنشطة البحث والتطوير فيها حتى تتمكن من ممارسة أكبر رشادة ممكنة فى رفع كفاءة التفاعل مع العولمة وأدواتها.

ورغم أن الإمكانات الوطنية الخاصة بالبحث والتطوير فى مصر كواحدة من أهم وأكبر الدول النامية تتهددها مخاطر وسلبيات، بعضها ذاتى محلى، وبعضها خارجى، إلا أن إمكانية تقويم وتعظيم هذه الإمكانيات الوطنية لا تغيب، على الأقل فى الوقت الحالى. وإذا كان للعولمة أهداف ومسارات ومظاهر، فإن للوطننة أهدافها ومساراتها ومظاهرها.

هذا، وتتضح الحاجة والكيفية بشأن «وطننة» منظومة البحث والتطوير من خلال تناول الجزئيات التالية:

١ - سلبيات الوضع الحالى.

٢ - انعكاسات العولمة فى حالة استمرار جمود الأوضاع الحالية.

٣ - معالم الحاجة إلى الوطننة.

٤ - الوطننة.. كيف؟

أولا: سلبيات الوضع الحالى:

رغم ظهور أمثلة مضيئة من الإيجابيات (من وقت لآخر)، إلا أن هذه الأمثلة لا تعدو كونها حالات فردية يظل بزوغها واستمرارها محكوما بظروف خاصة جدا. وفى المقابل فإن منظومة البحث والتطوير تعتريها سلبيات عامة تدل عليها المؤشرات التالية:

(أ) ضعف الجامعة:

يعترى الجامعة ضعف عام فى قدرتها على أداء مهامها بشأن الارتقاء بالمعارف وتوليدها والحفاظ على القيم والفاعليات الأكاديمية.

ويأخذ ضعف الجامعة مظاهر عديدة نذكر فيما يلى بعضها:

- وهن المساهمة اليومية لعضو هيئة التدريس فى مؤسسته العلمية.
- ضعف مستوى الأبحاث، وقد أصبحت تهدف إلى الترقى غالبا والوجاهة أحيانا.

- تردى كفاءة استخدام الامكانيات المتاحة من طاقات بحثية وأجهزة.
- المعاناة من عادات مرضية صارخة (سرقة أبحاث - نظام «شيلنى وأشيلك» - احتكار بعض الأفراد للإشراف على كليات جامعية جديدة وتعطيل نموها).
- التصور الخاطيء بأن الدور المجتمعى للجامعة عن طريق البحث العلمي ينحصر في دور خدمي.
- تأخر الجامعة عن ملاحقة التطورات المعرفية العالمية، والإضافة الأصيلة إليها، ودفع القدرات الثقافية الوطنية.

ونظرا لأن الجامعة فى مصر تضم ٧٠٪ من الطاقة البحثية الوطنية، فإن لها وزنا كبيرا في تردى حالة المنظومة الوطنية للبحث والتطوير ككل.

(ب) ضعف أوضاع مراكز ومعامل البحوث خارج الجامعة:

من الطبيعى أن ينتقل ضعف الجامعة إلى مراكز ومعامل البحوث خارجها، خاصة وأن للجامعة هيمنة - على الأقل - شكلية، على جميع رسائل الماجستير والدكتوراه التى تجرى فى هذه المراكز والمعامل. كما أنه يحدث أحيانا أن يختار أفراد من الجامعة لقيادة مراكز ومعامل البحوث الأخرى (وليس العكس). والمشاهد أن مراكز البحوث وكذلك معامل البحوث في الوزارات، تفتقد إلى الكثير من الخصوصيات التى يجب أن تتمتع بها، سواء فى أهداف وخطط، أو فى اختيار القيادات، أو فى

آليات الحوافز والترقى. ولأن بعض مراكز ومعامل البحوث خارج الجامعة تتصل من حيث الوظيفة بمهام استراتيجية تخص الإنتاج والخدمات، فإن بعض القيادات التنفيذية فى الحكومة تحرص على مد نفوذها إلى هذه المراكز عن طريق اختيار قيادات تابعة تكون – في أحسن الأحوال – أقل استيعابا لخصوصية المكان وأقل قدرة على فهم وتطوير آليات العمل فيه.

(جـ) تدهور الآليات المجتمعية والسياسات العامة:

فى هذا الخصوص تعانى منظومة البحث والتطوير مما يلى:

١ – عدم وجود آليات مجتمعية (سياسية وتشريعية ومالية) لحفز قطاعات الإنتاج والخدمات على الاستعانة بالإمكانيات الوطنية فى البحث والتطوير.

٢ – غيبة سياسة علمية وطنية حقيقية، والانشغال الرئيسى لوزراء البحث العلمى بتنظيم علاقاتهم الرئاسية بأكاديمية البحث العلمى، مما أدى إلى تخلى وزارة البحث العلمى عن ممارسة مهامها السياسية بخصوص تعظيم الكفاءة المنظومية للنشاط الابتكارى فى العلم والتكنولوجيا فى كافة مجالات الحياة على أرض مصر.

٣ – افتقار تصور قيادة التعليم العالى بالنسبة للإصلاح لآليات الترقى، مما أدى إلى أن ينصب جهد كل وزير فى بداية عهده على قيام المجلس الأعلى فى الجامعات بإحداث تغييرات فى نظم ولجان ترقى أعضاء هيئات التدريس (من حيث طرق العمل وأسماء الأعضاء.. الخ).

٤ - اختيار القيادات من خلال اعتبارات الاستقرار الشكلى وجمود الأوضاع وعدم التغيير، وبالتالى اللجوء فى الاختيار إلى الأقدمية البيروقراطية أو الاعتماد على العلاقات والرؤى الشخصية.

٥ - اختفاء القرارات السياسية والاستراتيجية على مستوى وحدات ومعاهد ومراكز البحث والتطوير نتيجة وجود قيادات لا تملك القدرة على المبادرة والتغيير، وهو أمر مأساوى بالأخذ فى الاعتبار أن التغيير هو موضوع عمل معامل ومراكز البحوث.

٦ - تناول فكرة الحضانات التكنولوجية من منظور مالى عقارى (بيع وتأجير مبان وأرض) وليس من منظور الحاجة إلى التغيير التكنولوجى أو من منظور تنظيم وترشيد وتقوية الإبداع الوطنى فى التكنولوجيا.

٧ - عدم وجود (أو ضعف) المنظور الوطنى بخصوص استغلال التعاقدات هائلة الحجم بين جهات مصرية وأخرى أجنبية (مثل شراء قمر صناعى) فى انعاش وترشيد عمليات نقل التكنولوجيا.

٨ - تركيز الإصلاح الاقتصادى الجارى على العمليات المالية (البيع وخلافه) وليس على الاستثمار التكنولوجى، مما يتسبب فى المزيد من تغييب وإحباط المنظومة الوطنية للبحث والتطوير.

٩ - اكتمال «دورة حياة» الباحث العلمى دون تمكنه من المساهمة فى تطوير حقيقى للمعارف والقدرات العلمية والثقافية، وذلك لأسباب منظومية (وهذا أمر مأساوى).

ثانيا: انعكاسات العولمة فى حالة استمرار جمود الأوضاع الحالية:

نتيجة لما تعنيه العولمة بخصوص التنافسية، وكذلك بخصوص فتح الحدود أمام التجارة والاستثمارات والخدمات المرتبطة بها، بالإضافة إلى الاعتبارات الأخرى مثل تسارع التقدم العلمى التقانى العالمى (وبالتالى تسريع إيقاع تجديد المنتجات وقصر دورة حياتها) وتطبيق اتفاقية حقوق الملكية الفكرية، فإنه يمكن توقع ما يلى، إذا لم تتغير منظومة البحث والتطوير:

١ - تصاعد سريع فى التبعية التكنولوجية.

٢ - تدهور القدرات الوطنية فى الإنتاج والخدمات وتحول الشركات الوطنية إلى أعمال الوكالة أو السمسرة، أو - فى أحسن الظروف - القيام فقط بالأعمال محدودة القيمة المضافة.

٣ - ضياع أى تصور مركزى (سواء كان حكوميا أو أهليا) عن التعامل الوطنى مع التكنولوجيات الحاكمة أو الإستشراف الوطنى للمستقبل بخصوص التغيير التكنولوجى.

إن هذه الانعكاسات يكون لها (فى حالة حدوثها) مردود شديد السلبية على الإمكانيات السياسية للدولة على المستويات الإقليمية والعالمية. ذلك بالإضافة إلى انعكاسات سلبية بخصوص الأمن القومى على المدى الطويل.

ثالثا: معالم الحاجة إلى «الوطننة»:

توجد اعتبارات وعوامل مباشرة تجعل «الوطننة» حاجة طبيعية أساسية ملحة. ويمكن تقسيم هذه الاعتبارات والعوامل إلى نوعين. اعتبارات وعوامل قادمة من الخارج، وأخرى خاصة بنا نحن في الداخل:

اعتبارات خاصة بالسياسات

• اتجاه الشركات الكبرى إلى عدم إقامة منشآت بحث وتطوير خارج البلد الأم، فإن لم تكن هناك قدرات بحث وتطوير محلية - في البلدان النامية - تكون قادرة على المنافسة (ولو بالتقليد)، فإنه لن يكون أمام هذه البلدان أى فرصة لتطوير مؤسسات البحث العلمى بها.

• تحول منتظر فى الاقتصاد السياسى الدولى، وفحواه تنامى قدرة الشركات متعددة الجنسية (وكذلك الكيانات الوطنية الكبرى) بشأن امتصاص أى متغيرات اقتصادية سلبية، وذلك من خلال تعدد أنواع ومستويات وأماكن الأنشطة، وكذلك من خلال القدرة على النقل السريع للأصول والموارد والأنشطة من مكان إلى آخر، وهو تحول يوصف بـ after the business cycle. وفى المقابل، ازدياد الضعف فى قدرة الكيانات الأصغر (شركات وبلدان) على امتصاص الأزمات.

• نمو ظاهرة حب الذات self - love عند الكيانات الكبرى (شركات متعديات الجنسية أو دول) مما قد يدفعها فى ظروف خاصة إلى تدمير الآخرين، وهنا تظهر الضرورات البالغة لاهتمام الكيانات الأصغر بالتنمية

من منظور وطني في الأساس (وجماعي في نفس الوقت) لتسريع التقدم، ولتجنب الانعكاسات السلبية الناتجة عن حب الكبار لذواتهم. هذا، وينبغي الأخذ في الحسبان أن حب الذات قد أدى في مرحلة سابقة إلى تحول الشمال من تطبيق مفهوم التنمية development في إطار عالمي إلى الاهتمام شبه الكلي بتنمية ذاته فقط.

اعتبارات خاصة بتطوير التكنولوجيا

- تعاظمت التطويرات التكنولوجية وبلغت مستويات جديدة في الارتقاء بحيث يلزم للحاق بها catching - up بواسطة الكيانات الأصغر، تجميع وتكامل القوى والإمكانات الوطنية، وليس تفتيتها. ومن الأمثلة الدالة على هذه التطويرات ما يلي:

- ارتقاء المتقدمين إلى مرحلة تكنولوجية جديدة يمكن أن نطلق عليها «التوليف بين التكنولوجيات الراقية»[1].

- ارتقاء الابتكار إلى مستويات لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال جهد منظومي جماعي (يختص بالتوليد – الغربلة – النضج – الإنتاج – التسويق – التطوير.. الخ) وذلك على مستويات رئيسية ثلاثة (وهي الدولة – المجتمع النوعي أو المجال – وحدة العمل)، وهو أمر يشير إلى التطور الهائل في الطبيعة المنظومية للابتكار.

---

(١) أنظر : م . ر . حامد : التوافيقية : منهج علمي تكنولوجي جديد – كراسات علمية – المكتبة الأكاديمية – ١٩٩٨.

• اقتراب التغيير التكنولوجي من البحث العلمي (والعكس)، بحيث أصبح للبحث العلمي دور مباشر وعاجل (وليس آجلا) في إحداث التغيير.

اعتبارات ذات طبيعة إدارية

لقد تصاعدت بشدة رؤى ومساهمات وتأثيرات الإدارة بخصوص عمليات التقدم، وهنا من المهم إدراك أن الاقتراب الجارى بين البحث العلمي والتغيير والتكنولوجي يمثل نتاجا وسببا (في نفس الوقت) لتطورات هائلة في «إدارة المعرفة». كما أن هذا الاقتراب يأتي متمما لـ/ومتفاعلا مع اقترابات أخرى تلعب فيها إمكانات وتطورات الإدارة دورا كبيرا وتؤثر بأشكال مباشرة وغير مباشرة في أنشطة البحث والتطوير (ومن أمثلة الاقترابات الأخرى، الاقترابات بين المستهلكين وبعضهم - المستهلكون والمنتجون - المنتجون وبعضهم - المنتجون والحكومات.. الخ).

إن هذه الاقترابات تشير في مجملها إلى ضرورة إجراء تطويرات وتغييرت عميقة في الإدارة الوطنية بخصوص رفع كفاءة وقدرة أنشطة البحث والتطوير، وكذلك بخصوص إدارة المنظومات والعلاقات الخاصة بالتخديم على هذه الأنشطة وتحفيزها والاستفادة من نتائجها.

اعتبارات ثقافية

بعد أن تحولت بعض أشكال الثقافة حديثا لتكون منتجا من نواتج التكنولوجيا (مثل الحقيقة الوهمية virtual reality وألعاب الكمبيوتر..

الخ)، يستوجب الأمر الانتباه إلى أهميــة إدخـال التكنولوجيـا فـى نسيج الشخصية الوطنية من منظور وطنى متقدم يقوم على امتلاك أنشطة بحـث وتغيير تكنولوجى قوية، وليس من منظور تابع ومفتت يؤدى إلى نقل أصم للمنتجات الثقافية للتكنولوجيا. لقد أصبحت التكنولوجيا، مولدا ومحددا للتغير الثقافى، وبالتالى تصاعدت الحاجة الملحـة لتعظيم المكـون الوطنـى المساهم فى العوامل التكنولوجية المؤثرة والمطورة للثقافة العامة.

اعتبارات وعوامل داخلية

فيما يلى عرض لأهم العوامل والاعتبارات ذات العلاقة المباشرة بالذات الوطنية وإمكاناتها:

١ – صعوبة ترك التنمية العلمية والتكنولوجية لسياسات السـوق فـى زمن العولمة، وذلك حيث أن ما يجرى من عولمة عمليات إضافـة القيمـة، لا يسمح لسياسات السوق فى الدول النامية إلا بـالدخول – علـى أحسـن تقدير – فى شريحة محدودة من عمليات إضافة بسـيطة للقيمـة لا تحقـق تقدما حقيقيا أو منافسة دولية حقيقية، بل تؤصـل تبعيـة طويلـة المـدى. وفى المقابل تحدث عمليات تفتيت وتقزيـم للقـوى والإمكانـات الإبداعيـة الوطنية فى مجالات البحث والتطوير.

٢ – إدراك أن التكامل الوطنى – الوطنى (أى بين المؤسسات الوطنية) فى تنظيم وتنمية قدرات البحث والتطوير، هو الأسـاس الضـرورى لجعـل عمليات التفاعل (أو التكامل) مع العولمة مسألة أكثر جدوى وأقل خطورة.

٣ - أهمية الحفاظ على النسيج الوطنى الخاص بصناعة العلم والتكنولوجيا، وتقويته وتعظيم كفاءته، وذلك حيث أن ضعف أو انهيار هذا النسيج الوطنى يؤدى حتما إلى تحول سلبى شديد فى «الهوية الوطنية» للبنى الأساسية في البحث والتطوير (من أفراد ومؤسسات)، وهو تحول - إن يحدث - تكون له توابعه من سلبيات على مستوى القيم المجتمعية والوطنية، وكذلك على مستوى نظم التعامل مع المنتجات والخدمات القادمة من الخارج (نقصد نظم التعامل الرقابى - الفنى - الأمني - الاقتصادى - المعرفى - الثقافى).

رابعا: «الوطننة».. كيف؟

قبل التطرق إلى «آليات الوطننة» نود لفت الانتباه إلى أمرين: الأمر الأول هو أن القصد من وطننة منظومة البحث والتطوير هو - كما أشرنا من قبل - رفع كفاءة القدرات المحلية فى الاستيعاب المعرفى والتغيير التكنولوجي بحيث تكون هذه القدرات سندا قوميا قويا فى التنمية وفى الاستفادة الأمثل من إيجابيات العولمة مع التجنب الممكن لسلبياتها وانحيازاتها.

وأما الأمر الثانى، فهو أن موضوع الوطننة هنا هو منظومة البحث والتطوير، ذلك بينما تقنيات وطرق تسيير البحث والتطوير خاضعة للتغيير المستمر، كما أن عائد البحث والتطوير هو التغيير. وهكذا نجد أن القصد من الوطننة، وكذلك الموضوع المطروح للوطننة يتعلقان بشكل مباشر بالتغيير كتحد جوهرى، سواء كان التغيير المصاحب للبحوث والتطوير

أو كان التغيير الخاص بالمتغيرات العالمية الحاكمة للعولمة والتنمية. وباعتبار أن التغيير هو فعلا جوهر التحدى القائم، فمن الضرورى قبول إحداث تغييرات حقيقية فى منظومة البحث والتطوير من أجل وطننتها. وهنا يمكن القول أنه إذا كان من الطبيعى أن تمثل الوضعية الحالية لمنظومة البحث والتطوير فى مصر انتصارا لنموذج منظومى جامد قائم، فعلينا أن نطمح وأن نتصور قدرة الكيف والكم المكنين من انتصارات يمكن أن تنتج عن نموذج آخر متغير برشادة، بحيث يكون أكثر قدرة على التعامل مع التغيير المتواصل. وعليه، فمن الطبيعى أن تكون آليات الوطننة ذات خواص تغييرية، كما سيظهر فى العرض الموجز التالى لهذه الآليات.

(أ) السياسات:

١ – تكوين إطار مرجعى وطنى national frame of reference يجرى على أساسه بناء وتقييم أداء «منظومة» البحث والتطوير فى مصر.

إن صياغة الإطار المرجعى الوطنى يمكن أن تعتمد على:

– الأهداف الوطنية المطلوب تحقيقها.

– المقارنة مع تجارب وخبرات وأوضاع الشعوب الأخرى.

– الإمكانات الوطنية الظاهرة والكامنة والممكنة.

٢ – تحديد لمجالات وأولويات أعمال البحث والتطوير فى المسارات الرئيسية الثلاثة التالية:

- بحوث وتطوير «الخدمات».

- بحوث وتطوير «المنتجات».

- بحوث وتطوير «التغييرات الجذرية الأصيلة».

٣ - أن تكون المشروعات القومية سوقا أساسية لأنشطة البحث والتطوير الوطنية (وهو أمر يحتاج لمنظور خاص في ظل اتفاقيات التجارة العالمية).

٤ - صياغة رؤية وطنية بخصوص كيفية التفاعل مع العولمة من منظور المشاركة (وهو أمر يحتاج إلى دراسات علمية وسياسية).

(ب) تغييرات علاجية استراتيجية:

١ - دراسة وترشيد وتقوية ورعاية «الديناميكية الداخلية» للمنظومة الكبرى للبحث والتطوير، وكذلك منظوماتها الفرعية (في الجامعات ومراكز ومعامل البحوث في الوزارات وجهات الإنتاج والخدمات)، وذلك بالأخذ في الاعتبار لأمور منظومية مثل: وسائل تحديد الأهداف - الاستخبارات العلمية والثقافية - العلاقات بين المنظومات - آليات توليد منظومات جديدة.. الخ، حيث ينحصر الاهتمام والتعامل منذ فترة طويلة وبشكل تقليدي في اعتبارات شكلية سطحية (مثل: لوائح الترقي).

٢ - تطوير نوعي في آليات وعمق التماس بين منظومة البحث والتطوير والمنظومة الكبرى للدولة والشاملة للمنظومات الأخرى الأصغر (مثلا: وجود علاقات برجماتية بين موضوعات وأماكن تنفيذ رسائل

الماجستير من ناحية، ومجالات الإنتاج والخدمات وميادين العمل الاجتماعي من ناحية أخرى - تعديل جذرى فى نظام بعثات الدكتوراه وبعثات ما بعد الدكتوراه بما يتفق مع المسارات الوطنية بشكل محدد - التشريعات والنظم بخصوص أنشطة التغيير التكنولوجى داخل وحدات العمل.. الخ).

٣ - كسر الجمود الحالى فى عمليات الابتكار بتحويل الابتكار إلى عملية منظومية من حيث آليات اكتشاف وإنضاج ورعاية وتسويق وتعميم الابتكار، وكذلك من حيث المستويات الرئيسية للتعامل مع الابتكار (الدولة - المجال - وحدة العمل).

٤ - تعظيم التواصل الداخلى بين منظمات البحث والتطوير الوطنى على مستوياتها ومجالاتها المختلفة بعمل ما يشبه intranet بين هذه المنظومات، وكذلك التواصل الداخلى بين منظومات البحث والتطوير ومنظومات الإنتاج والخدمات.

(جـ) التعلم من العولمة

ينتج عن العولمة أو يصاحبها بعض المفاهيم والسياسات التى نظن أن «الوطننة» فى حاجة إلى الانتباه إليها واستيعابها وتوظيفها فى إطار محلى، ومن ذلك:

١ - تجنب التفكيكية، إذ يجب الانتباه إلى أن ما يحدث فى إطار العولمة من تفكيك و/أو تصغير down - sizing لوحدات العمل ومنها منظومات البحث والتطوير على مستوى متعددات الجنسية إنما هو ليس

تفكيكا أو تصغيرا مطلقا، حيث على العكس - يحدث في إطار عمليات تكبير وعملقة mega mergers ، وبالتالى فالغرض ليس التفكيك أبدا، وإنما المسألة تختص بعمليات تحول إدارى ووظيفى اقتصادى فى أطر جديدة لتكبير وعملقة المؤسسات العالمية. وهكذا ينبغى الانتباه إلى ضرورة عدم تفكيك منظومات البحث والتطوير الوطنية إلا فى إطار تحويلات بنائية يكون الغرض منها تكبير البناء على المستوى الوطنى وتعميم أدائه بما يتناسب مع عمليات التغيير على اختلافها (سياسات - تقنيات - الخ).

٢ - قياس صلاحية وكفاءة الأطر المرجعية بمسطرة التغيير، والتى تقوم معاييرها على وحدات «الإبداع» و «الزمن».

٣ - استخدام الإدارة كوسيلة للتغيير، حيث قد ثبت أن الاستخدام العبقرى للإدارة يؤدى إلى تحقيق التنافسية بدرجات تفوق مجرد الاعتماد على العناصر التقليدية المسببة للميزة التنافسية، حتى أنه يمكن اعتبار الإدارة أمرا يمثل ما بعد الميزات التنافسية meta competitve، إذا صح التعبير.

٤ - تعظيم الاستفادة من تكنولوجيات المعلومات فى الأمور التقليدية (مثل البيانات والتخزين والشراء)، وكذلك فى الأمور البحثية المحضة، حيث قد ساهمت المعلوماتية مع تكنولوجيات راقية أخرى (مثل المواد الجديدة والهندسة الوراثية) فى دفع تكنولوجيات جديدة تمثل وسائل بحثية جديدة (مثل الكيمياء التوفيقية فى مجال صناعة الدواء).

(د) ثورة إدارية

١ – تقليص فترة التلكؤ lag period الناتجة عن البيروقراطيات السائدة عند نقاط التنفيذ الإدارى داخل منظومات البحث والتطوير.

٢ – حفز التكامل والتوليف بين إمكانيات وأنشطة البحث والتطوير على المستويات القاعدية بأقل ما يمكن (أو بدون) تدخل إدارى مباشر من البناء المنظومى الهرمى.

٣ – استخدام الإدارة فى اكتشاف (وعمل) تراكم معرفى وطنى وفى توظيف هذا التراكم لدفع وتعضيد مدخلات وحركيات ومخرجات أنشطة البحث والتطوير على المستويات الرئيسية الثلاثة (الدولة – المجال – وحدة العمل).

٤ – ربما يحتاج الأمر إلى وجود مستشارين فى العلم والتكنولوجيا فى السفارات المصرية فى بعض البلدان (مثل الولايات المتحدة – اليابان – ألمانيا).

(هـ) أساسيات لا غنى عنها

هنا نود التأكيد على الأهمية القصوى لبعض المفاهيم والاعتبارات التى قد تخبو أهميتها ولو مرحليا (لأسباب تتعلق بعدم وضوح أو بفوضى منظومية) فيحدث ضرر عميق طويل المدى لمنظومة البحث والتطوير، أو على الأقل تفقد هذه المنظومة إمكانيات ومسارات ذات نفع عظيم، ومن أمثلة هذه المفاهيم والاعتبارات ما يلى:

١ – دور البحوث الأساسية basic research تجاه القدرات الوطنية للبحث والتطوير، وكذلك دور الحكومة في هذا الخصوص، سواء بما ينبغي أن تحمله على كاهلها، أو الدور الذى عليها أن تلعبه في هذا الشأن بالتعاون مع مؤسسات الإنتاج والخدمات والتعليم والبحث العلمي.

٢ – دور بعض الأدوات أو الوظائف ذات الطبيعة الكلية Holistic مثل: دور المايسترو أو ماسك الدفة – القيم العليا – النظرة الشاملة – المركز.

(و) القضاء على الأخطاء الاستراتيجية

توجد مفاهيم واستراتيجيات يمثل استمرارها خطأ مصيريا فادحا، ومن أهمها نذكر ما يلى:

١ – سياسة الإحلال محل الواردات بخصوص المنتجات ذات التكنولوجيات المتقدمة أو شبه المتقدمة (مثل الدواء).

٢ – إعطاء الأولوية في الإصلاح الاقتصادى للاستثمار المالى وليس التكنولوجى.

٣ – استمرار الاعتقاد بأن الاهتمام بالبحث العلمى يأتى فقط فى مرحلة زمنية تالية لنقل التكنولوجيا.

٤ – عدم الانتباه إلى أن تحولات القيمة الاقتصادية تنشأ من تحولات صناعية، وهذه بدورها تنتج من تحولات تكنولوجية تبزغ بالارتكاز على تحولات علمية، وأن المسألة هى سلاسل (مرتبطة) من تحولات القيمة.

(ى) ثقافة البحث والتطوير

١ - نشر ثقافة التعاون داخل منظومة البحث والتطوير سواء على مستوى السياسات والاستراتيجيات، أو على مستوى العلاقات بين الأفراد ووحدات البحث، وهو أمر يحتاج إلى حوافز وآليات مؤسسية ومالية وإعلامية.

٢ - التحول من ثقافة الباحث التابع والمؤسسة البحثية التابعة (فى نقاط البحث والإشراف البحثى.. الخ) إلى ثقافة الباحث المبادر المبتكر، والمؤسسة البحثية التطويرية المبادرة المبتكرة.

وفى الختام، نود الإشارة إلى أن:

(أ) العولمة تمثل بيئة وظروف ولا تمثل قاطرة للتقدم، وأما القاطرة الرئيسية للتقدم فهى المنظومة الوطنية للبحث والتطوير.

(ب) فى التفاعل مع العولمة يجب السعى لأن يكون الإطار الوطنى بقدر الإمكان موظفا «للإطار العولمى»، وليس موظفا فيه.

(جـ) النموذج الوطنى القائم لمنظومة البحث والتطوير ضعيف وغير مجد فى الزمن الحالى، وهناك حاجة لإعادة هيكلته.

(د) التغيير هو الوسيلة الرئيسية للتقدم والثبات الإيجابى فى هذا العالم، تماما كما أن الدراجة لا تكون ثابتة بمن يركبها إلا عندما تتقدم إلى الإمام.

وهكذا، منظومة البحث والتطوير المصرية فى حاجة ماسة إلى التغيير فى إطار «الوطننة» كنموذج إرشادى جديد new paradigm.

(٧)
إشارة بدء للتغيير التكنولوجى

فى مقال للأستاذ محمد حسنين هيكل ذكر (وبحق) أن فى مصر «الرئيس هو الرئيس»، إن هذا الرأى يعكس من وجهة نظرنا ليس فقط شفافية وبصيرة وحكمه، وإنما أيضا الأهمية التاريخية للدور الملقى من الشعب والنخبة فى مصر على عاتق رئيس الجمهورية. إن هذا التوجه (دور الرئيس فى مصر) يقود إلى ضرورة الانتباه إلى منظور هام طرحه الرئيس مبارك عن «التكنولوجيا فى مصر» وذلك فى خطاب له فى نوفمبر ١٩٩٦. لقد أعطى الرئيس فى هذا الخطاب ما يمكن اعتباره «إشارة بدء للتغيير التكنولوجى» تمثل فى تقديرنا مدخلاً هامًا لعمل جاد ونضالى لم يتم بعد وهناك حاجة ملحة إليه فى مجالات العلم والتكنولوجيا فى مصر.

(الابتكار - المبادأة - تجويد الأداء وإتقانه - احترام روح العلم - الالتزام بالدقة والموضوعية - الحساب المتكامل لكل البدائل المتاحة) ستة عوامل أو قيم أشار إليها الرئيس مبارك فى خطابه بمناسبة افتتاح دورة برلمانية جديدة (نوفمبر ١٩٩٦).. وقد حدد الرئيس هذه القيم الست من خلال منظورين مهمين، المنظور الأول هو أن هذه القييم «لا تقل أهمية عن تهيئة مناخ الاستثمار».. وأما المنظور الثانى فهو اعتبار هذه القيم

«منظومة نهضة أو تقدم»، لقد جاء هذا التحديد بخصوص منظومة القيم في إطار التحدث عن التكنولوجيا. وفى تقديرنا أن القيادة السياسية لمصر قد دشنت في هذا الخطاب إشارة البدء للتغيير التكنولوجي القومى، فقد تناول الخطاب المداخل والأطر الرئيسية للتغيير التكنولوجى القومى كما يلى:

١ - المناخ العام: «عالم اقتصادى جديد تأتى الثورة التكنولوجية الهائلة على رأس العوامل المتحكمة فيه».

٢ - هدف قومى عام: «استيعاب التجارب العالمية الناجحة».. و.. «العمل فى اطار مصرى المرتكزات عالى التوجه يتيح تشكيلا أمثل للمنتجات المصرية السلعية الخدمية التى تعتمد على استثمار معرفى وتكنولوجى ورأسمالى رفيع».

٣ - أهداف جزئية ووسائل رئيسية:

(أ) «تغيير فى المسار التعليمى والثقافى والعلمى يتواكب مع متغيرات عالمنا المتطور ويوافق مطالب التقدم المصرى».

(ب) «تطوير الأداء وتوفيق الأوضاع» أثناء فترة السماح المتاحة قبل أن تسرى القواعد الجديدة للتجارة الدولية.

(جـ) تعظيم «الاستفادة من الميزات النسبية».

(د) «أسلوب جديد فى التفكير وقدرة فائقة على الإبتكار والإبداع».

٤ - الإطار المرجعى (أو المعايير التى نقارن بها مسيرتنا التكنولوجية):

(أ) «الأداء العبقرى فى ملحمة العبور».

(ب) إمكانية الوافد الجديد على مجاراة الرواد الأوائل فى أقصر وقت ممكن (أو بمعنى آخر عدم تهيب جسامة التحدى التكنولوجى).

وبعد، لقد حدد الرئيس منظومة القيم الخاصة بالتقدم وحدد لذلك - كما أسلفنا - الأهداف والأبعاد والوسائل الرئيسية لما يمكن أن يطلق عليه التطوير التكنولوجى القومى، وهى تنبيهات تمثل تدشينا سياسيا لاستنهاض تكنولوجى قومى وللتكنولوجيا كقاعدة مهمة للتنمية الوطنية وللدور السياسى المصرى على المستويين الدولى والإقليمى.

ولقد جاءت إشارات الرئيس إلى التغيير التكنولوجى فى وضوح بالغ بدءًا من «الاستثمار المعرفى» والخاص بقوة الدفع العلمى والتكنولوجى، وانتهاء بالتشكيل الأمثل للمنتجات، والذى يتعلق مباشرة بقوة جذب السوق بما فيها من احتياجات ومواصفات ومنافسات.. وقد تناول الرئيس أيضًا الإطار النفسى للاستنهاض التكنولوجى بدءًا بالنموذج الوطنى الفذ (ملحمة العبور)، وانتهاء بالوافدين الجدد (النمور).. وبينما كان الخطاب يشدد على التغيير والتطوير فى الأوعية الرئيسية للتقدم (التعليم - الثقافة - العلم)، كان أيضا يهتم بالخطوات العملية المرحلية (استغلال فترة السماح من تطبيق قواعد التجارة الدولية)..

إن التناول الخاص بالتكنولوجيا فى خطاب الرئيس مبارك يعنى بالنسبة لرجال الفكر والعلم والتعليم والإنتاج والثقافة ضرورة التعامل الجاد والنضالى مع ما يلى:

١ - ثقافة التغيير التكنولوجى.

٢ – التغيرات المؤسسية والسلوكية المطلوبة من أجل التخديم على التغيير التكنولوجى (فى البحث العلمى والإنتاج والخدمات أو التعليم والثقافة).

٣ – الخصوصيات المصرية والوسائل القادرة على تعظيم كفاءة الانتقال من الميزات النسبية إلى الميزات التنافسية.

٤ – اخلاقيات التغيير التكنولوجى.

٥ – الجديد فى دور الدولة بما يتلاءم مع التطورات العالمية والإقليمية والخصوصيات المصرية.

٦ – الإطار المرجعى لمستقبل التقدم التكنولوجى المصرى (بمعنى الأهداف التكنولوجية المطلوبة نوعا وكما وخطة زمنية.. إلخ).

٧ – تحديد معالم المنظومة التكنولوجية المصرية والتوصل إلى وسائل تعميق قدرتها على التطور الذاتى.

٨ – التغييرات المطلوبة فى السياسات العامة والاستيراتيجيات فيما يتعلق بالتغيير التكنولوجى.

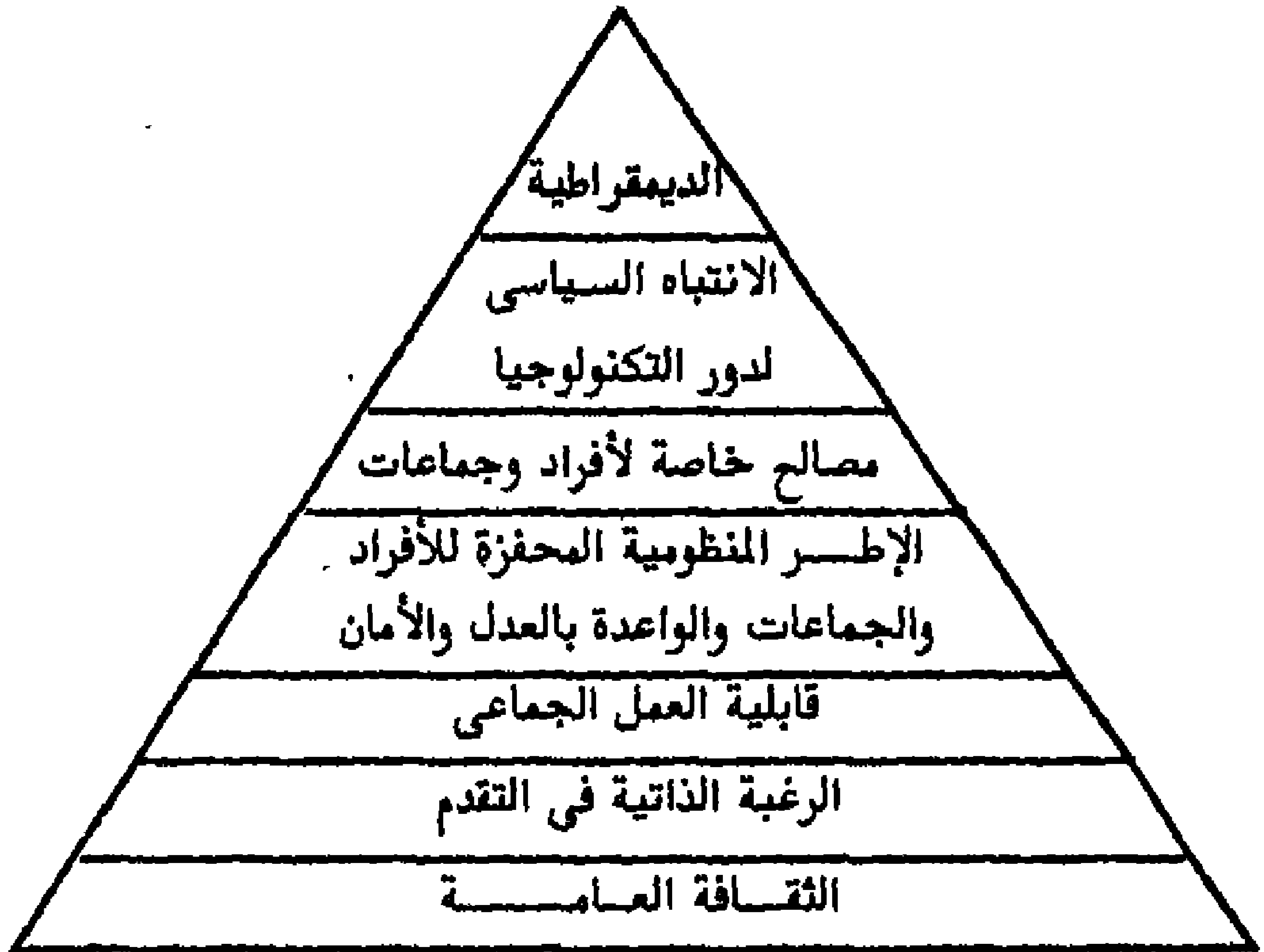
وإذا كان الرئيس قد أعطى إشارات بدء للتغيير التكنولوجى القومى فإن ضخامة الهدف وحيويته وضرورته تتطلب أيضا الرعاية المباشرة من القيادة السياسية، وهو الأمر الذى نعتبره الضمان الاستراتيجى لأن تتحقق ملحمة جديدة عظيمة..

«ملحمة تحول مصر إلى نمر تكنولوجى» يقدر – كما ذكر الرئيس – على منافسة الرواد الأوائل...

(٨)

العوامل المساعدة الحاكمة للتقدم التكنولوجى

وبعد، لابد من الإنتباه إلى أن تقدم العلم والتكنولوجيا فى مجتمع ما ، هو أمر لا يعتمد فقط على منظومة العلم والتكنولوجيا بل وأيضا على مناخ مجتمعى عام. ما هى العوامل الرئيسية التى تصنع المناخ المجتمعى العام الحاكم للتقدم التكنولوجى؟ هذا هو ما يحاول هذا الجزء جذب الإنتباه إليه.



في عام ١٩٥٦ نشر موسس ابراموفيتز بحثا تاريخيا مهما عن تقييم توجهات المدخلات والمخرجات في الاقتصاد الأمريكي منذ عام ١٨٧٠.

لقد كان لابراموفيتز استنتاجا شديد الذكاء في نهاية بحثه، وهو أن جزءا صغيرا فقط من جملة النمو في إنتاجية الولايات المتحدة يمكن ارجاعه إلى العوام المتعارف عليها كمسببات للنمو factor growth والتي تتمثل أساسا في رأس المال وقوة العمل والأرض.

ونتيجة لاستنتاج ابراموفيتز بزغ الاعتقاد بأن هناك سببا أو أسبابا غير مرئية (بالنسبة للمعرفة الاقتصادية وقتها) هي المسئولية عن الفارق residual الناتج عن الزيادة الفعلية في النمو عما كان من المفترض أن يكون طبقا للمعرفة الاقتصادية السائدة. لقد استحث هذا الاعتقاد (أو الاكتشاف) الباحثين في علم الاقتصاد على السعي من أجل التوصل إلى العامل غير المعرف unidentified والمتسبب في النمو الزائد في الإنتاجية وكانت أهم الأطروحات في هذا الخصوص هي تلك التي وضعت بواسطة عالم الاقتصاد الشهير روبرت سولو (٥٦/ ١٩٥٧) والذى حصل على جائزة نوبل فيما بعد لقد عرّف سولو العامل المحدث للفارق residual بأنه «التغيير التكنولوجي».

وإذا كان هذا النهج، نقصد البحث عن العوامل غير المرئية التي جعلت التقدم الحادث أكبر في حجمه من التقدم المتوقع، نهجا مناسبا لأمريكا ١٩٥٦، فإن من المناسب إتباع نفس النهج بالنسبة لمعكوس هذه المشكلة، والذى نعنى به البحث عن الأسباب غير المرئية المتسببة في عدم احراز القدر المناسب من التغيير التكنولوجي في مجتمع ما. وطبقا

للمعرفة السائدة، هناك بوجه عام نوعان من الأسباب الرئيسية المؤدية إلى إحداث تغيير تكنولوجي.

النوع الأول يختص بقوة الدفع الناتجة عن العلم وتطوراته Science Push والنوع الثاني يختص بطلبات أو احتياجات السوق Market Demand ورغم معرفة المسئولين في العديد من البلدان النامية (ومنها بلداننا العربية) بهذه الأسباب، ورغم إدراكهم أهمية التكنولوجيا، وكذلك رغم وجود مؤسسات خاصة بالتنمية التكنولوجية، إلا أن التغيير التكنولوجي لا يحدث في هذه البلدان بالشكل المأمول (ولو نسبيا). هنا يأتي السؤال المهم هل يا ترى هناك أسباب أو عوامل غير مرئية (أو غير مباشرة) تؤثر سلبا على الإمكانية الفعلية في إحداث التغيير التكنولوجي؟

في تقديرنا هناك فعلا عوامل أو قضايا غير مرئية تؤثر بشكل غير مباشر ليس فقط على التغيير التكنولوجي وانتشاره، ولكن أيضا على أوضاع المنظومة العامة للتكنولوجيا ككل بما فيها (أو ما يتداخل معها) من قوة دفع العلم واحتياجات السوق. إن هذه العوامل (أو القضايا) تعتمد إلى حد كبير على بعضها البعض، ويمكن أن نطلق عليها «العوامل المساعدة» Catalysts والتي بدون مردود إيجابي منها فإن أي عوامل أخرى مباشرة (مثل وفرة المال أو عدد العلماء.. الخ) لا تنجح في إحداث التأثير الملائم في الوضعية التكنولوجية للمجتمع. وفيما يلي نصنف هذه العوامل إلى سبعة نشير بإيجاز إلى الدور الذي يلعبه كل منها سواء في التمهيد والسماح والتسهيل والإعداد للتغيير التكنولوجي أو في تأخير وتقليص وهدم ومنع فرص هذا التغيير.

١ - الثقافة العامة:

طبقا لوضعية الثقافة العامة فى مجتمع ما يتحدد ما يلى:

(أ) تقدمية الفكر الشائع Common – sense فى المجتمع من حيث التفسير بالغيبيات والخرافات، أو الاعتماد على المنهج العلمى فى التفكير.

(ب) القدرة على الاستيعاب الإيجابى لمنتجات التقدم فى الفنون والآداب والعلوم فى إطار النسيج الحياتى الوطنى.

(جـ) إمكانية فهم التحديات القادمة على المجتمع، وكذلك إمكانية تنظيم التعامل مع (مواجهة) هذه التحديات.

٢ - الرغبة الذاتية فى التقدم:

من الثابت – بعيدا عن أية أسباب أو خلفيات عنصرية أو شوفونية – أن الصورة الذهنية لشعب ما داخل عقول أفراده تؤثر تأثيرا مباشرا على قوة الدفع الذاتى لهؤلاء الأفراد، كأفراد أو كمجموعات فى حركيتهم تجاه التقدم. ومن هنا تقوى أو تضعف الرغبة الذاتية فى التقدم. فكلما ازداد قدر الرغبة الذاتية فى التقدم عند أفراد المجتمع، تمكنوا من تقوية بعضهم البعض، وكلما تلاشت فرص التفتت المجتمعى social fragmentation، ودائما – فى هذه الحالة – تزداد باضطراد القدرة المجتمعية على استحضار وتوظيف عوامل القوة من الجغرافيا والتاريخ، ومن التراث والقيم، وكذلك من التحديات.

٣ - قابلية العمل الجماعي:

مع ارتفاع مستوى الثقافة العامة، ومع ازدياد قدر الرغبة الذاتية فى التقدم يتوافر تلقائيا الدافع إلى العمل الجماعي team work. إن هذا الدافع يوجد ليس فقط عند الإنسان بل أيضا عند الكثير من أنواع الحيوانات والطيور. وإذا كان العمل الجماعي يحفظ النوع ويساعد فى تحقيق حاجات أساسية (مثل الطعام والشراب والأمن.. إلخ) عند الحيوانات، حيث يفوق نتاج عمل الجماعة المجموع الجبرى لنتائج عمل كل فرد فيها، ففى العمل الجماعي عند الإنسان يتواصل ويتصاعد الناتج التراكمي خاصة الناتج المعرفى (عبر الأفراد والمجموعات والأجيال) إلى حد عمل اختراقات وقفزات تطويرية جذرية.

٤ - الأطر المنظومية المحفزة للأفراد والجماعات والواعدة بالعدل والأمان:

إذ يعتبر الشعور بالانتماء إلى منظومة ما شعورا مهما لأى فرد ولأى جماعة. وتمثل بداية هذا الشعور بداية الحفز على تحقيق الذات.. تحقيق الإنسان الفرد لذاته تجاه نفسه وأمام الآخرين، وكذلك تحقيق الجماعة لذاتها بالتميز بشكل أو بآخر. وبقدر كفاءة المنظومة فى حفز مكوناتها (من أفراد وجماعات) على حسن تحقيق الذات والتميز، بقدر السعى الإيجابى (وليس العدوانى) للأفراد والجماعات من أجل تحقيق الذات والتواصل إلى التميز، ويصل السعى الإيجابى من أجل تحقيق الذات (للأفراد والجماعات)، إلى أقصى درجاته أو إلى درجة مثلى optimum

عندما توفر المنظومة العدل والأمان لمكوناتها. هنا يتحقق أعلى ما يمكن من أنتماء، فكل صاحب حق يحصل على ما يستحق دون عناء أو فاقد فى الطاقة والوقت والكرامة.

عندئذ لا يتعد جزء من المجتمع (سواء كان فردا أو جماعة) على حق جزء آخر (فرد آخر أو جماعة أخرى)، فلا وجود أو سماح للواسطة أو المحسوبية أو النفاق، ولا حائل أمام فرص ومسارات التعليم والتعلم والإبداع والتفوق.

٥ - مصالح خاصة لأفراد وجماعات

إن التعدى على حق الأفراد والجماعات فى الحصول على المستوى الملائم من العدل والأمان ينشأ - عادة - عن مصالح خاصة لأفراد وجماعات أخرى يكون من شأن النجاح فى إحرازها حجب جزء من (أو كل) العدل والأمان عن الآخرين، هنا يتدهور الانتماء، ويتلاشى الحافز ويهرب الطموح، وتتضاءل الثقة فى المستقبل. وقد تنشأ صراعات تفتيتية تشغل الأفراد والجماعات عن العمل الجماعى الإيجابى وعن تحقيق الذات.. وفى النهاية يقل العطاء (أو الاهتمام) المجتمعى بخصوص إحداث تغيير إلى الأحسن، وعندها تنعدم كفاءة إجراء كافة أنواع التغيير التنموى (التكنولوجى - التعليمى- الجمالى.. إلخ).

٦ - الانتباه السياسى لدور التكنولوجيا:

باعتبار أن أى مجتمع يمثل منظومة كبرى، فإن هناك أهدافا لهذه المنظومة هذه الأهداف تتشكل وتتبدل وتتطور طبقا لطموحات

وقدرات المجتمع، وكذلك طبقا للتحديات الخارجية الواقعة عليه، إن عملية تحديد أهداف هذه المنظومة الكبرى (المجتمع أوالدولة) هي عملية سياسية، وبالتالى لاينجح أمر ما في أن يكون هدفا على مستوى الدولة أوالمجتمع دون قناعة وسعى ونضال النخبة السياسية (النخبة التي تصنع وتصوغ الأهداف العامة). وهكذا تظل التكنولوجيا في مجتمع ما مجرد مصطلح تلوكه الأفواه، أو نشاط هامشي، حتى يتم الانتباه السياسي (أي انتباه النخبة السياسية) لدور التكنولوجيا في تطور حال المجتمع.

وغنى عن البيان أن تجسيد هذا الانتباه في أهداف تكنولوجية محددة وواضحة هو أمر كفيل (من الناحية المنظومية) بوضع التكنولوجيا في المسار الملائم من ناحية التطبيق (النقل - الاستيعاب - التطوير - الانتشار.. إلخ).

٧ - الديمقراطية:

إذا كانت العوامل الستة السابقة تتعلق بامكانية أحداث تغيير تكنولوجي، فإن توافر الدرجة المناسبة من الديمقراطية أمر من شأنه إتاحة مساحة مناسبة للحركة الإبدايعة. والإبداع من ناحية أخرى هو الجوهر الرئيسي في عمليات التغيير التكنولوجي. إن وجود نقل تكنولوجي دون وجود إبداع أمر يعني استمرار عمليات النقل من الخارج، وبالتالى استمرار التبعية التكنولوجية.

وهكذا، يمكن القول بأن قدر الوضعية الإيجابية للعوامل السبعة السابقة يتناسب طرديا مع القدرة المجتمعية الخاصة بالتغيير إلى الأحسن في كافة مجالات الحياة وعلى رأسها التكنولوجيا. ويتبين كذلك أن مسألة وجود تغيير تكنولوجي حقيقي هي مسألة منظومية تعتمد على المناخ المجتمعي العام.

الباب الخامس

نموذج لمعضلة التحول إلي العالمية رغم الإمكانات الوطنية

(إشارات إلى صناعة الدواء المصرية)

١ - خلفية ضرورية .

٢ - صناعة الدواء المصرى والضغوط الأجنبية .

(١)

خلفية ضرورية

صناعة الدواء المصرية صناعة رائدة تاريخيا حيث بدأت من خلال بنك مصر عام ١٩٣٩. ورغم تقدم نسبى أحرزته هذه الصناعة خاصة فترة الخمسينات والستينات، ورغم اعتماد هذا النوع من الصناعات على الإمكانيات البشرية (فى البحث والتطوير) وهى إمكانات تزخر بها شركات الدواء وكذلك مؤسسات البحث العلمى (فى مراكز البحوث وكليات الصيدلة والعلوم والطب والزراعة) فى شمال مصر وجنوبها..، رغم كل ذلك فإن هذه الصناعة لم تحدث بعد إختراقا يوصلها إلى المدار العالمى، بل قد لحقت بها صناعات الدواء فى العديد من البلدان الصغيرة والتى بدأت خطواتها الأولى فى السبعينات والثمانينات. ليس ذلك فقط، بل إن بعض هذه الصناعات الناشئة قد سبقت الصناعة المصرية فى حجم التصدير وفى تكنولوجيات البحث والتطوير. ذلك فضلا عن تقدم إنتقائى حققته بلدان مثل الهند والصين وكوريا الجنوبية وإيران والبرتغال وكوبا والأرجنتين والأردن.

لماذا لم تحدث هذه الصناعة المصرية الرائدة التقدم اللائق بها ؟ ! .

السبب الرئيسى يعود فى تقديرنا إلى الافتقاد لـ«الإدارة الوطنية الاستراتيجية»، ويظهر ذلك فى عدم وجود إستجابة فعلية للدعوة إلى التكتل الوطنى، والتى طرحناها فى محاضرات وحوارات مع المسئولين ثم نشرناها فى مقالات (نحو تحالف استراتيجى وطنى فى صناعة الدواء -

الأهرام – الأهرام الاقتصادى – ١٩٩٤/٩٣). كما يظهر ذلك أيضا فى عدم التفاعل المنهجى مع الآليات الوطنية المكنة الخاصة بمجابهة الضغوط الأجنبية، بل والإنتقال إلى المدار العالمى. ذلك فضلا عن عدم التوصل إلى منهاج خاص بتعامل صناعة الدواء مع الجات وهو موضوع طرحنا فيه معالجات خاصة (صناعة الدواء المصرية وحقيقة المواجهة مع الجات) (الدواء المصرى والجات: حسابات إدارة الأزمة – الأهرام – ١٩٩٨/٣/١١) يخرج عرضها عن حجم وغرض الكتاب.

والأكثر إزعاجا ليس فقط أن وحدات صناعة الدواء المصرية لاتتكتل مع بعضها البعض، بل أن بعض هذه الوحدات تسعى منفردة (وربما مضطرة) إلى التعاون مع تكتلات أجنبية (وذلك فى غيبة تكتل وطنى)؟!

هناك إذن حاجة كبيرة لإعمال «الوطننة» فى صناعة الدواء حتى يمكن أن نجابه التحديات وأن نستفيد – بحق – من الامكانيات الأجنبية.

إن التعامل مع التحديات العالمية فى صناعة الدواء (علميا وتقانيا واقتصاديا وسياسيا)، وكذلك التعامل مع المعوقات الذاتية فى تحول هذه الصناعة الوطنية إلى المدار العالمى يقتضى التفاعل الإيجابى الابتكارى الشفاف مع حزمة من الوسائل أو الآليات تظهر فى الفصل التالى والذى نختم به الكتاب حيث يشير إلى «المعضلة» كنمط وإلى مدخلات التوصل إلى حلول استيراتيجية من منطلق «الوطننة»، كل ذلك بإيجاز وأما عن التفاصيل فتوجد إشارات إلى مواضع نشرها.

(٢)

صناعة الدواء المصرى .. والضغوط الأجنبية

تشهد الساحة الوطنيــة فـى الآونـة الأخـيرة ضغوطـا أجنبيـة مـتزايدة تهدف إلى قبول مصر التطبيق الفورى لاتفاقية الملكية الفكرية على صناعة الدواء (أى للتنازل عن الفترة الانتقالية المتاحــة لمصـر) . وإذا كـان رجـال الصناعة الدوائية المصرية ينادون بالاحتفــاظ بحقنـا فـى الفـترة الانتقاليـة تجنبا لارتفاع أسعار الدواء ، فإن هناك أسبابا أخرى أراها أكثر خطورة ، ويهمنى فى هذا الصدد أن أجذب الانتباه إلى ما يلى :

١ - إن نجاح هــذه الضغـوط يعنــى عرقلـة أبديـة لانطـلاق إمكانيـات عظيمة كامنة فى صناعة الدواء المصرية ، ويعنى أيضا التخلى عن فرصـة عظيمة منحتها الجات لمصر من أجل ترشيد صناعتها الدوائية لتكون فـى موقف تنافسى أفضل عنـد نهايـة الفـترة الانتقاليـة (ثمـانى سـنوات مـن الآن) .

٢ - إن انكسار صناعة الدواء المصرية وحجب فرصـة التقـدم الحقيقـى عنـها يعنـى انكسـار فرصـة اسـتنهاض صناعـة الـدواء فـى كـل المنطقــة (العربية) .

٣ - إن صناعة الدواء المصريـة قادرة فعـلا علـى الانتقـال بعـد حـوالى ثمانى سنوات إلى (المدار العالمى) والـذى نقصـد بـه التوصـل إلى انجـازات يمكن احتكارها وأسواق يمكن الاستحواذ عليها وقيم مضافـة عاليـة تفـوق مئات المرات تلـك الناتجـة عـن الوضـع القـائم ، غـير أن الانتقـال بـهذه

الصناعة الوطنية أى المدار العالمى له شرطان أساسيان : الشرط الأول هو الانتفاع الإيجابى بأقصى فترة انتقالية ممكنة بخصوص تطبيق اتفاقية الملكية الفكرية ، وأما الشرط الثانى فهو الانتباه إلى ضرورة تنفيذ (حزمة) من الوسائل الكفيلة بنقل صناعة الدواء الوطنية إلى المدار العالمى .

هذا ونورد فيما يلى - بإيجاز شديد - ١٢ وسيلة (أو آلية) يمكن من خلال الاتزان والتوافق فى تطبيقها إدارة تحول صناعة الدواء فى مصر .

١ - تصحيح معايير تقييم الصناعة الدوائية ، فالمعيار الرسمى السائد وهو نسبة تغطية الاستهلاك المحلى معيار خاطئ تماما (ملحوظة : تصل هذه النسبة فى بعض الدول النامية مثل مصر والمغرب وفلسطين وسوريا إلى ٧٠ - ٩٣٪ بينما هى لا تتعدى ٤٠ - ٦٠٪ فى دول مثل سويسرا وإنجلترا والتى لها فى نفس الوقت أنصبة الأسد فى السوق العالمية) .

٢ - تصنيف الصناعة القائمة إلى مستويين ، أحدهما خاص بصناعة الأدوية التى زالت عنها الحماية بواسطة براءات الاختراع ، والآخر صناعة تقوم على التطوير العلمى والتكنولوجى المباشر .

٣ - استحداث دور إيجابى للحكومة كدفة بشأن تطوير الصناعة الدوائية حيث يحتاج نمو القطاع الخاص الدوائى إلى تشريعات وإجراءات تحفزه وتحميه بخصوص الاستثمار فى البحوث والتطوير والتى هى العصب الرئيسى لهذه الصناعة .

٤ - إدخال إدارة التغيير التكنولوجى إلى الصناعة الدوائية المصرية .

٥ – تطوير إدارة القيمة المضافة فى الصناعة الدوائية من خلال التنسيق بين استراتيجيات البحوث ، وأيضا من خلال تعظيم كفاءة الربط بين سلاسل القيم العلمية والصناعية والاقتصادية .

٦ – استيعاب المتغيرات العالمية فى إدارة واقتصاديات الصناعة الدوائية (مثل العملقة والتحالفات وشبكات البحوث) واستحداث تحويرات موازية أو مناظرة لها .

٧ – الالتفاف الإيجابي حول قانون حماية الملكية الفكرية فى الجهات وذلك بواسطة استراتيجية (التطويرات البسيطة المتصاعدة)، والتى يمكن من خلالها تطوير المنتجات والعمليات الإنتاجية إلى الحد الذى يحدث اختراقات فى الملكية الفكرية ويؤدى إلى المشاركة فى التنافسات الاحتكارية وإلى كسب أسواق جديدة .

٨ – التواصل الأفقى مع الموارد المحلية والإقليمية القائمة (خاصة الصناعات البتروكيميائية والتعدينية والزراعية ، وكذلك المنتجات الطبيعية من نباتات وحيوانات فى البر والبحر) .

٩ – استخدام التعليم كآلية رئيسية فى التغيير التكنولوجى الدوائى وذلك من خلال :

• توجيه إحدى الكليات الجديدة للصيدلة إلى تخريج الباحث التكنولوجى الدوائى (قدمنا هذا الاقتراح إلى جامعة المنوفية منذ ٤ سنوات «عام١٩٩٣») .

• التحالف بين برامج الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه فى بعض كليات الطب والصيدلة والعلوم والزراعة والهندسة من جهة وشركات الدواء من جهة أخرى .

• تحفيز الإعارة المتبادلة بين الكليات العملية من ناحية وشركات الدواء من ناحية أخرى .

١٠ - إنشاء شركة مساهمة مصرية (قطاع خاص) فى شكل مركز بحثى عملاق يتحالف فى إقامته البنوك وشركات الدواء والمستثمرين وتكون مهمته بناء قدرات بحثية تتمكن من اختراق التطورات العلمية والتكنولوجية وتقديم منتجات وعمليات إنتاجية جديدة تحتكرها الشركات المصرية.

١١ - التنسيق مع صناعات الدواء التقليدية فى المنطقة بحيث تستفيد هذه الصناعات من الخبرة المصرية بينما تكرس صناعة الدواء المصرية جهودها النوعية كقاطرة فى اختراق مدار العالمية .

١٢ - إنشاء مجلس أعلى للدواء يجمع بين مسئولى الحكومة وممثلى وخبراء الصناعة وعلماء الدواء والاقتصاد ويكون هدفه إدارة تطوير وتحفيز وتشجيع الصناعة الدوائية على المدى الطويل.

الخاتمة

والآن ، بعد أن تعرف القارئ على الأبعاد الرئيسية للوطننة كما طرحت في الأبواب الأربعة الأولى ، وكذلك على ظروف منظومة وطنية (هي هنا منظومة صناعة الدواء) من حيث قدر وطننتها ، وقدر إيجابياتها وسلبياتها خاصة في التفاعل مع المتغيرات العالمية ، فإننا في هذه الخاتمة نقترح على القارئ أن يعيد تقييم وتقويم الوطننة من حيث درجتها والحاجة إليها في المجال أو القطاع الذي ينتمي إليه، سواء هو مجال أو قطاع إنتاجي (في الصناعة والزراعة..) أو هو خدمي (مثل التعليم أو الصحة ..) . إنه واجب homework وطني تقع أعباءه على أبناء الوطن ، وتتزايد المسئوليات بخصوصه بعلو المرتبة القيادية للقارئ .

محمد رؤوف حامد

١٩٩٩/١٠/١

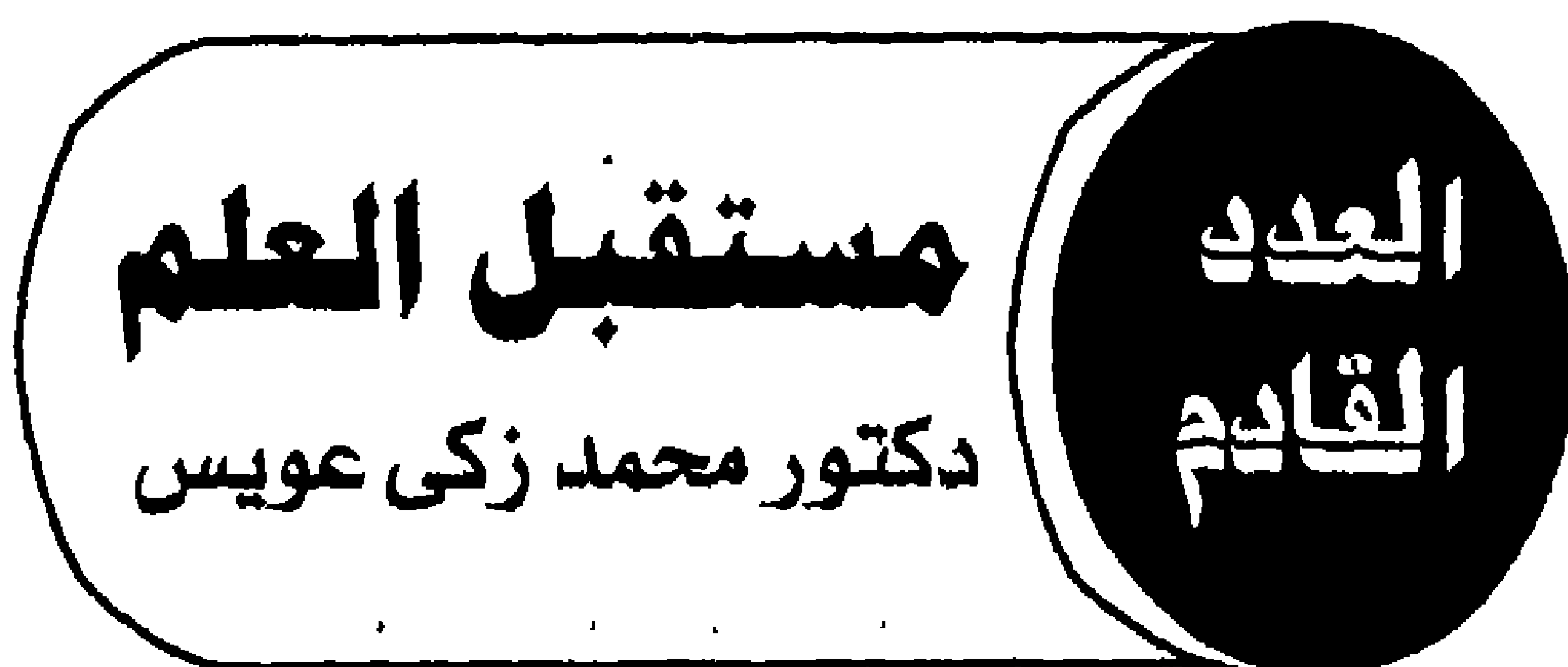
المحتويات

الباب الثالث : فى نقد النخبة

الباب الرابع : العلم والتكنولوجيا .. وقوة الوطن

الباب الخامس : نموذج لمعضلة التحول إلى العالمية رغم الامكانات الوطنية

إشارات إلى صناعة الدواء المصرية



إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

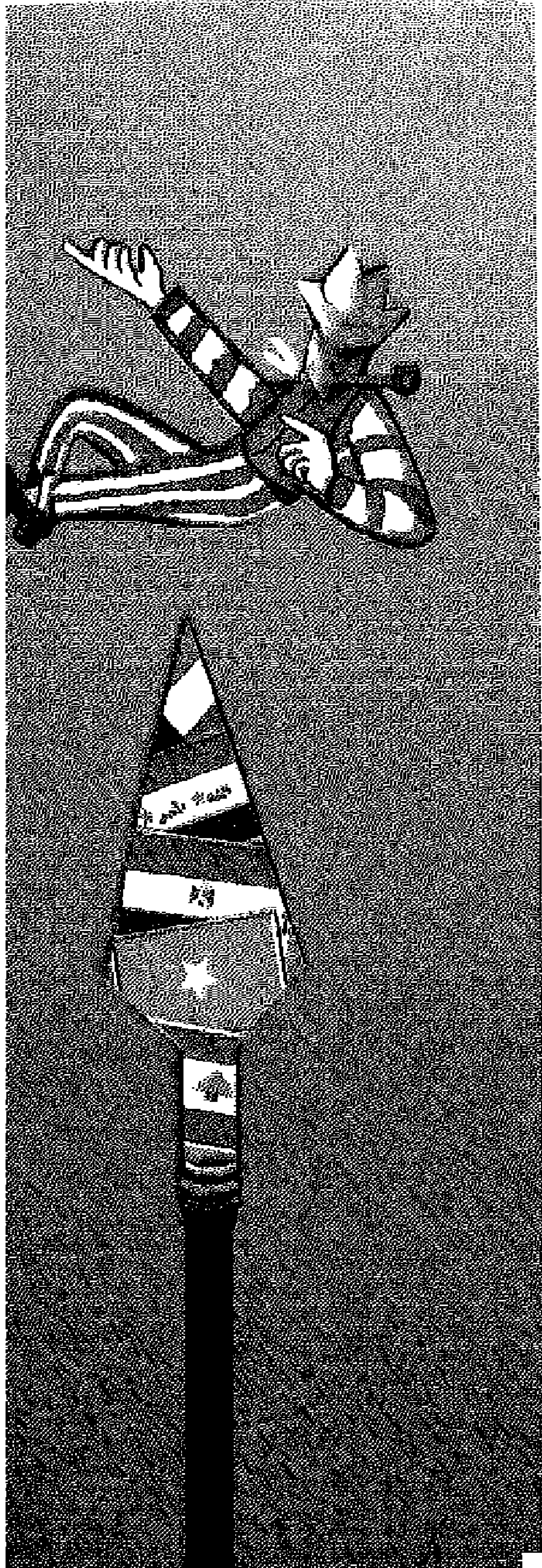
تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع		١٩٩٩/١٤٥٢٨
الترقيم الدولى	977-02-5895-4	ISBN

١/٩٩/٦٨

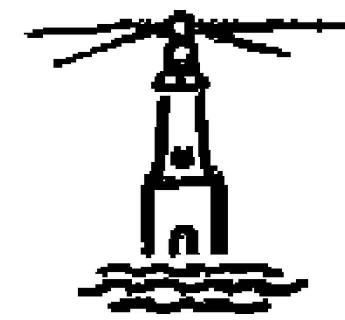
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



بينما كانت الوطنية أساساً لمواجهة الاستعمار فى عصور سابقة فإن هذا الكتاب يطرح «الوطنية» كطريق أساسى للتفاعل الإيجابى مع العولمة.. والمؤلف هنا يعرض لقضايا حرجة وهامة، مثل إدارة الإبداع المجتمعى، وحركية الفكر والقهر الإدارى، وتطوير منظومة البحث العلمى والتغيير التكنولوجى. كل ذلك فى إطار يساعد البلدان النامية على المواجهة الإيجابية للعولمة، وتجعل من الوطنية أداة لتقويمها.

كما يقدم الكتاب مداخلات مع أطروحات سياسية وفكرية هامة للأستاذ محمد حسنين هيكل، والدكتور أسامة الباز، وآخرين.

إنه كتاب مختلف يقدم فكراً تغييرياً «عالم ثالثى» أصيل فى مواجهة ظاهرة عالمية خطيرة، هى «العولمة».



دار المعارف

٤٠٧٠٥٤/٠١

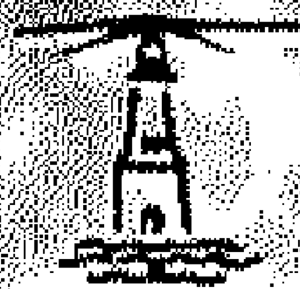


دكتور محمد زكى عويس

اقرأ

مستقبل العلم

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



دار المعارف

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٨]

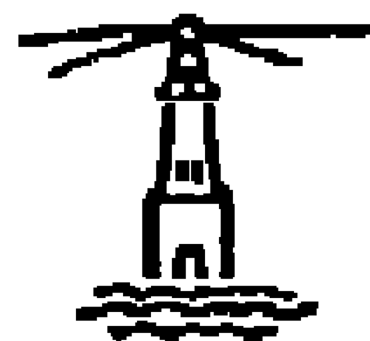
رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

د . محمد زكى عويس

مستقبل العلم



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

إهـــــداء

إلى العلـم الحقيقـى الـذى أتمنـى أن يسـود مراكز البحث العلمى المنتشـرة فـى ربـوع الوطن العربى الكبير

د / محمد زكى عويس

كتب للمؤلف

١ - **(أشعة الليزر والحياة المعاصرة)** الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٩٠م .

٢ - **(الليزر الأشعة الساحرة)** الناشر : دار المعارف سلسلة اقرأ عدد ٦٠٨ مايو ١٩٩٦م .

٣ - **(أسلحة الدمار الشامل)** الناشر : دار المعارف سلسلة اقرأ عدد ٦١١ سبتمبر ١٩٩٦م .

٤ - **(فيزياء وتطبيقات البلورات السائلة)** ضمن سلسلة كراسات علمية . الناشر : مكتبة الأكاديمية - فبراير ١٩٩٨م .

٥ - **(العرب وأسرار الحرب الخفية)** الناشر : دار المعارف المصرية سلسلة اقرأ عدد ٦٢٥ أكتوبر ١٩٩٨م .

٦ - عرض كتاب بعنوان **(فيزياء المواد الرخوة - انطباعات علمية وثقافية)** تأليف الأستاذ الدكتور/ ب . ج . دى جين الحاصل على جائزة نوبل فى الفيزياء ، يناير ١٩٩٩م ، المكتبة الأكاديمية - سلسلة كراسات عروض .

٧ - **(الليزر قوة خارقة من شعاع ساحر)** الناشر : دار المعارف المصرية سلسلة حكايات علمية فبراير ١٩٩٩م .

٨ - **(دنيا الفيزياء)** ، المكتبة الأكاديمية - سلسلة كراسات علمية ١٩٩٩م (تحت الطبع) .

نداء العلم

العلم هو القدرة علـى ملاحظـة وتحديـد ووصـف واستكشـاف الظواهـر المحيطة بنا بالدراسات العملية والنظرية علـى حـدٍ سـواء. فـالعلم منـهج متكامل فعال يستخدم طرق دراسية منضبطة قائمة على الاختبار التجريبى للتدليل على صحة أو خطأ الفروض والنظريات فى تيار مستمر مـن النقـد والتدقيـق للوصـول إلى مـا هـو أصـح دون ادعـاء امتـلاك الحقيقـة المطلقـة وتوظف نتائجه لفهم عالمنا وجعله مكان أفضل لنا إذا ما أحسنا استـخدام هذه النتائج، كما إننا ندفع ثمن التوظيف السيئ وهذه هى مسئوليتنا.

إن العلـم ينادينـا باعتبـاره أهـم مـا أنجـزه العقـل البشـرى لنتحمـل المسئولية: مسـئولية المعرفـة وتبعـات توظيفـها. فـى الكتـاب العديـد مـن الأمثلة الناتجة عـن جـهود البشـر اللذيـن اسـتجابوا لنـداء العلـم نقدمـها كحافز لنا حتى نبدى نفس الاستجابة.

فمنذ القدم يحاول الإنسان فهم الكون المحيط به. وعبر العصور اختلـط مفهومه عن الكون بالخيال والخرافة، حتـى جـاء العلـم ليقـدم لـه صـورة أوضح عن نشأة الكون وأبعاده المترامية. وبـدأ التفكـير فـى تعـدد الأبعـاد الكونيـة واختلافـها عـن الأبعـاد التقليديـة المعروفـة والمرتبطـة بـالفراغ - الزمنى والتى تحدد لنا موقع الأجسام بدقة متناهية. إى أن هناك الكثـير من الظواهر والمفـاهيم الغريبـة والمثـيرة التـى تحـدث من حولنـا متحديـة لإدراكنا البشرى مثل فكرة وجود الثقوب السـوداء وتمـدد الكـون وخطـوط

الكم الشبحية ونظريات الفوضى ووجود الجسيمات الأولية حاملة القوة. هذا الموضوع بالإضافة إلى موضوعات أخرى سوف نتناولها فى الفصل الأول تحت عنوان «صورة الكون بين الواقع والخيال».

وبما أن نسيج الكون يتكون من جسيمات ما دون الذرة، فإن فهم المادة التى قدمها لنا العلم مكننا من التفكير فى البحث عن أشكال جديدة للمادة فى حالاتها المختلفة الغازية والسائلية والصلبة والبلازمية وفى حالتها البلورية السائلة. وحاليًا يقوم الإنسان بنفسه بصياغة مواد جديدة لم يعهدها من قبل لتوظيفها فى مجالات تكنولوجية متقدمة. الجديد فى علوم المواد سوف نتناوله فى الفصل الثانى. والدور المحورى للعلم فى حل مشاكل البشر لم يتجه إلى الفضاء لاكتشاف أغواره فقط بل اتجه إلى أعماق المحيطات يدرس إمكانياتها فى توفير الغذاء وتوليد الطاقة واستثمار ثرواتها، كما أن التقدم لا يتم بدون طاقة. والطاقة فى الوقت الحالى لها آثارها الجانبية المضرة على البيئة مع تعرضها للنضوب. لذلك يعمل العلماء على توفير الطاقة النظيفة غير المحدودة باستخدام الهيدروجين. نتناول هذا الموضوع فى الفصل الثالث تحت عنوان «آفاق مستقبلية للعلم». ويتعلق الفصل الرابع والأخير بتوظيف التقدم العلمى لاستكشاف المجهول عن طريق قرون استشعار علمية عبارة عن مجسات تكنولوجية وضعت فى الفضاء أو على الأرض أو فى أعماق المحيطات وتعتمد فى تشغيلها على التطور المتسارع فى تطبيقات أشعة الليزر. قرون الاستشعار تلك تعمل كنظم إنذار توفر المعلومات لكافة الأغراض المدنية والعسكرية على حد سواء.

إن الوطن عندما تعرض لخطر العدوان رفع أبناؤه الشعار الرائع «خللى السلاح صاحى» واستطاع أن يرد العدوان ويحقق الانتصار. ولأن الخطر الأكبر على المستقبل هو التخلف العلمى فدعنا عزيزى القارئ أن نجعل شعارنا اليوم والغد «خللى العلم صاحى». من أجل ذلك وبكل الأمل فى مستقبل مشرق دعنا نلبى النداء: نداء العلم والوطن.

وإنى إذ أتقدم بالشكر الجزيل لأسرة دار المعارف الغراء تحت قيادة صديقى الكبير الأستاذ/ رجب البنا على فتحها المجال لنشر الموضوعات العلمية فى سلسلة اقرأ أود أن أنوه أن بعض مما جاء فى الكتاب من موضوعات علمية قد سبق نشرها فى جريدة الأهرام المصرية وكذلك فى مجلة علوم وتكنولوجيا التى يصدرها معهد الكويت للأبحاث العلمية ، ولكنى رأيت أن هذه الموضوعات من الأهمية أن يقرأها أكبر عدد من القراء .

دكتور / محمد زكى عويس

أستاذ الفيزياء

بكلية العلوم – جامعة القاهرة

الفصل الأول

صورة الكون بين الواقع والخيال

- الكون وأبعـــاده الأخرى
- فيزياء ما وراء المستقبل

الأبعاد الأخرى للكون

من المعروف أن نوى الذرات تتكـون مـن بروتونـات مشـحونة بشـحنة موجبة مقدار كل منها ١,٦ × ١٠ ^-١٩^ كولوم ونيوترونات غير مشـحونة، إلا أن هناك مشاهدات تشير إلى انبعاث جسيمات أولية أخرى من النـوى تحت ظروف خاصـة. وخـلال العقـود الثلاثـة الماضيـة تم اكتشـاف هـذه الجسيمات وأصبح عددها المستقرة أكثر من ثلاثين جسيما.

ففى عام ١٩٢٨م وضع العالم الإنجليزى ب. ديـراك نظريـة متكاملـة للإلكترون وأعطانا معادلة موجية له فى مجال كهرومغناطيسى أخـذا فـى الاعتبار النظرية النسبية للعالم «أليرت أينشتين». وتنبـأت هـذه النظريـة بوجود إلكـترون ذو شـحنة موجبـة بالإضافـة إلى الإلكـترون ذى الشـحنة السالبة. وأطلق العلماء على الإلكترون الموجب اسم «البوزيـترون»، حيـث أتتضح بعد ذلك أن زوج من الإلكترون والبوزيترون يتولد مـن فوتـون ذات طاقة مناسبة لا تقل عن مقدار ١,٠٢ ميجا إلكترون فولت (واحد إلكـترون فولت يساوى ١,٦ × ١٠ ^-١٩^ جول). وكذلك عندما يلتقى الإلكـترون مـع بوزيترون يفنى بعضهما الآخر. من هنا يعتبر البوزيترون ضديد الإلكترون. وببساطة فإن ضديد الجسم يكون له نفـس الكتلـة والـبرم والعمـر النصفـى للجسم ذاته لكن شحنته (إن وجدت) تكون عكس شحنة الجسم.

وعلى الرغم من تعدد الجسيمات الأولية واختلاف صفاتها فمن الممكـن تمييز بعض التناسق بين هـذه الجسـيمات. وتصنـف الجسـيمات الأوليـة المستقرة نسبيا حسب تسلسل كتلتها السكونية.

وتقسم الجسيمات الأولية إلى أربعة مجاميع هى:

١ - الفوتون ٢ - اللبتونات ٣ - الميزونات ٤ - الباريونات

ويمثل الفوتون مجموعة بحد ذاته، فهو يمثل كونتا المجال الكهرومغناطيسى وكتلته السكونية تساوى صفر وبرمه يساوى واحد. ومجموعة اللبتونات يمثلها جسيمات النيوترينوات والميونيوترينوات والإلكترون - نيوترينوات والميونات والإلكترونات التى لها جميعا برم يساوى (١/٢). أما المجموعة الثالثة تسمى الميزونات ويمثلها جسيمات البايونات والكايونات الإيتات وبرمها يساوى صفر. أما المجموعة الرابعة والأخيرة وتسمى مجموعة الباريونات يمثلها جسيمات النويات (البروتونات والنيوترونات) والهايبرونات التى تمتاز بكبر كتلتها.

ومن خلال النظرية المجالية الكمية تعرف العلماء على وجود أربعة قوى كونية فى الطبيعة هى:

١ - القوة الجاذبية ٢ - القوة الكهرومغناطيسية

٣ - القوة النووية الضعيفة ٤ - القوة النووية الشديدة

ووجد أن ثلاثة من تلك القوى يمكن وصفها بواسطة النظرية المجالية الكمية ماعدا القوة الجاذبية. فالنسبية العامة تربط قوة الجاذبية برباط وثيق بهندسة الزمان (الزمن والأبعاد الفراغية الثلاثة الطول والعرض والارتفاع). وحتى الآن لم يتم التزاوج بين نظريتى الكم والنسبية من أجل توحيد هذه القوى الكونية. وقد طرح العلماء أسلوب جديد من أجل توحيد هذه القوى يعتمد على قبول أن للكون أبعاد أخرى إضافية.

وفيما يلى سوف نوضح أوجه القصور فى النظريات السابقة التى فشلت فى هذا التوحيد.

لقد وجد العلماء أن ما نظنه فراغا ساكنا فى الفضاء هو فى الواقع خضم مزدحم بجسيمات عديدة أخرى تتناقل بلا كلل. ودرجة نشاط هذا التزاحم تعتمد على القوة محل الاعتبار. وإن لم تكن هناك هذه الجسيمات المتناقلة لما أحس جسم من المادة بالجسم الآخر ولما تم أى تفاعل على الإطلاق. وتسمى هذه الجسيمات بالوسطاء مثل الفوتون الحامل للقوة الكهرومغناطيسية. وفى عام ١٩٨٣م تم اكتشاف الجسيمات الوسيطة للقوة النووية الضعيفة ويرمز لها بالرمز W, Z . وجسيمات النواة من بروتونات ونيوترونات تعرف الآن أنها جسيمات مركبة كل منها من ثلاثة جسيمات تسمى كواركات. والكواركات مترابطة بقوة لا يتوصل إليها إلا بثمانية جسيمات وسيطة على الأقل، أطلق عليها اسم «جلونات». وقد اهتم العلماء بتوحيد القوى الثلاث الكهرومغناطيسية والنوويتين الضعيفة والشديدة عن طريق تبادل هذه الجسيمات الوسيطة. ووجد أن توحيد القوتين الكهرومغناطيسية والنووية الضعيفة ينتج عنهما القوة الكهروضعيفة ``ELECTROWEAKFORCE``.

هذه القوة تتحد بدورها مع القوة النووية الشديدة وتتولد عنهما القوة الموحدة العظمى. وقد ظهرت نظريات عديدة لصهر هذه القوى الثلاث فى بوتقة واحدة.

وحتى الآن يبذل العلماء الجهود المضنية من أجل توحيد قوة الجاذبية مع القوة الموحدة العظمى وتوليد القوة الفائقة، إلا أن ذلك يتطلب معالجة

رياضية بالغة التعقيد يتطلب حلها أن يكون للفضاء أبعاد أخرى إضافية عديدة. فالنظرية الكمية ظهرت حين اكتشف أن الموجات الكهرومغناطيسية تنطلق على هيئة كمات محددة وهى الفوتونات، ومن ثم كان من المتصور أن تكون لموجات الجاذبية كمات. وأطلق العلماء على هذه الكمات اسم «الجرافيتون» التى مازالت افتراضية حتى الآن. ويتشابه الجرافيتون مع الفوتون بأن كل منهما ينتقل بسرعة الضوء، والفرق الجوهرى بينهما يكمن فى ضعف تفاعل الجرافيتون مع المادة.

ولنا أن نتصور صعوبة تطبيق مبادئ نظرية الكم ومبدأ اللايقين على الجاذبية، حيث تظهر من خلال المعالجة النظرية اللانهائية مع كل عملية مجالية تتضمن حلقة مغلقة. ونظرا لأن الجرافيتونات تتفاعل مع بعضها، فإن الحلقات المغلقة ذات صفة أكثر شمولية. ويمكننا أن نفترض أن كل جسيم محاط بعدد لا نهائى من الحلقات المعقدة. وكل مستوى من الحلقات يضيف لا نهائية جديدة للحسابات. وبذلك تتراكم اللانهائيات وتزداد المشكلة صعوبة. وفى محاولة رائدة لحل هذه المشكلة فى الجاذبية الكمية، وضع الفيزيائيون برنامج لاستغلال أقوى تناظر تم اكتشافه فى الطبيعة ويعرف الآن «بالتناظر الفائق». هذا التناظر يكمن فى فكرة البرم الذاتي، فجميع الجسيمات الأولية فى الطبيعة لها خاصية كم معينة للدوران حول نفسها تسمى البرم، وتأتى دائما على صورة مضاعفات القيمة الأساسية. ولأسباب تاريخية اتخذت القيمة الأساسية مساوية للنصف. فالإلكترون والنيوترينو مثلا لهما قيمة برم ذاتي تساوى نصف. والفوتون له قيمة برم تساوى واحد. والجرافيتون له قيمة برم تساوى اثنين. ولم يعرف بعد جسيم فى الطبيعة له برم يزيد عن اثنين.

والجدير بالذكر أن قبل ظهور التناظر الفائق عوملت الجسيمات المنتمية إلى قيم مختلفة من البرم على إنها تنتمي لأسر مختلفة تماما. فكل الجسيمات التي معامل برمها عدد صحيح أتتضح أنها حاملة للقوى، أي أنها جسيمات لمجالات كم كالفوتونات والجرافيتونات. أما الجسيمات ذات معامل البرم الكسرى كالإلكترون فهي جسيمات مادية. وللتمييز بين الطائفتين تسمى المجموعة الأولى «بوزونات» وتسمى الثانية «فرميونات»، ولا يوجد وجه للتناظر معروف بين خواص البوزونات والفرميونات. ويتطلب التناظر الفائق أن يكون لكل نوع من الجسيمات نظير ذو برم معاكس. وكان اكتشاف البوزيترون كضديد للإلكترون مدعاة للافتراض ضديد للنيوترون وضديد للبروتون للحفاظ على التناظر.

والسؤال المطروح هو كيف يمكن حل مشكلة اللانهائيات في النظرية الجاذبية الكمية؟

إن الجرافيتون الذى افترض أنه يحمل قوة الجاذبية يتطلب له من وجهة نظر التناظر الفائق وجود جسيمات حاملة للجاذبية تسمى «جرافيتينو» لكل منها برم ذاتي مقداره واحد ونصف. وبالطبع وجود الجرافيتينو سيكون بالغ الأثر على مشكلة النهايات. وتأثير الجرافيتينو يسمى عادة «الجاذبية الفائقة». وخلال حقبة الثمانينات بدأ التناظر الفائق يمهد الطريق لظهور نظرية متناسقة عن الجاذبية في إطار ميكانيكا الكم. ولكن اكتشف أن هذه النظرية تفشل أيضا مع زيادة عدد اللانهائيات.

حاليًا يطرح العلماء أسلوبًا جديدًا لحل المشكلة يرتكز على بحث إمكانية توحيد قوة الجاذبية مع قوى الطبيعة الأخرى فى نظرية متناسقة رياضيًا إذا ما اعترف «بوجود أبعاد إضافية للكون».

وفيما يلي سوف نتناول قصة وجود الأبعاد الأخرى للكون.

وقصة وجود أبعاد أكثر من ثلاثة للكون لها تاريخ طويل. فبعد طرح النظرية النسبية العامة بوقت طويل لم يكن معروفًا سوى قوتين فقط فى الطبيعة هما الجاذبية والكهرومغناطيسية، واستطاع العالم الألمانى «تيودور كالوزا» وصف القوة الكهرومغناطيسية بطريقة هندسية. وبيّن أن المجال الكهرومغناطيسى يمكن النظر إليه كالتواء فى الفضاء. ولكن ليس الفضاء العادى ثلاثي الأبعاد الذى تدركه أحاسيسنا، بل فضاء ذو بعد رابع، لسبب ما لا ندركه. ولو صح ذلك، لأمكننا تصور الموجات الكهرومغناطيسية والضوئية كاهتزازات فى البعد الرابع للفضاء. ولو أننا أعدنا صياغة نظرية الجاذبية لأينشتين ذات الأبعاد الأربعة لنضم هذا البعد الرابع ليصبح المجموع خمسة أبعاد. وعلى ذلك فإن الجاذبية والكهرومغناطيسية منظورًا إليهما من البعد الرابع، سيكونان أشبه بجاذبية ذات خمسة أبعاد. بعد ذلك تمكن العالم السويدى «أوسكار كلاين» أن يبين لماذا لا يمكننا إدراك البعد الرابع للفضاء. وتوصل إلى أن البعد الرابع للفضاء «مطوى» بصورة ما فلا نشعر به، بالضبط كما تظهر لنا أنبوبة على البعد كخيط وحيد البعد على الرغم من أنها فى الحقيقة أسطوانية الشكل.

وقد حازت نظرية كالوزا – كلاين شيئا من الفضول العلمى لعدة عقود. ومع اكتشاف القوتين النوويتين الضعيفة والقوية عادت فكرة وجود أبعاد إضافية للكون. فى هذه النظرية الجديدة أعطيت كل قوى الطبيعة منشأ هندسيا بغرض تعميم نظرية كالوزا – كلاين، والسبب فى ذلك هو أن القوة الكهرومغناطيسية تحتاج لبعد واحد إضافى لاحتوائها فى ذلك التصور. بينما احتاجت كل من القوتين الآخرين لعدد من الأبعاد أكثر بسبب تعقدهما. ووجد أننا نحتاج ما يقرب من عشرة أبعاد كونية إضافية لاحتواء كافة الخصائص للقوى الأربعة بالإضافة للبعد الزمنى.

وتسبب هذا التزايد فى الأبعاد الكونية فى صعوبة المسألة، فمن المهم أن نتصور شكلا من الطى لتبرير عدم إدراكنا لها. وهناك طرق متعددة لذلك، فبعدان فضائيان مثلا يمكن تجميعهما فى كرة أو حلقة أسطوانية. ومع المزيد من الأبعاد تزداد الإمكانيات وتزداد صعوبة التصور.

وقد وجد أن الجاذبية الفائقة تتناسب مع هذه الفكرة، فأبسط صياغة رياضية لها تضمنت أحد عشرة بعدا. بمعنى أن التناظرات العديدة فى الأبعاد الأربعة اختصرت جميعها لتناظر طبيعى وحيد وبسيط فى رياضيات الأبعاد الأحد عشر. وعلى ذلك يستطيع المرء أن يصل إلى تناظر ذى أحد عشر بعدا إذا بدأ من النسبية العامة ووصفها للقوى كانحناء فى الزمكان (الزمن والمكان)، أو بدأ من النظرية الكمية وتصويرها بمفهوم الجسيمات الوسيطة.

إن مكمن الصعوبة فى أية محاولة لتوحيد قوى الطبيعة مازال هو شبح اللانهائيات الذى يهدد بتدمير القوة التنبئية لأية نظرية. وترجع

محاولات معاملة الإلكترون ككرة نقطية هندسية إلى بداية القرن العشرين، إلا أن هذه الأفكار لم تقبل لعدم اتساقها مع النسبية. أما وجه الجدية فى الأفكار الحديثة فهى أن الجسيمات مدت فى الفضاء فى بعد واحد فقط. فهى ليست نقاطا هندسية، ولا تكون من المادة، بل هى أوتارا ذات قطر متناه في الصغر. وينظر لهذه الأوتار على أنها اللبنات الأساسية للكون وتتشابه مع الجسيمات فى قدراتها على الحركة ولكنها تحوز درجة من حرية أوسع وبإمكانها أن تتلوى. ومنذ وضع هذه النظرية فى السبعينات واجهت صعوبات بالغة فقد بينت الحسابات أن تلك الأوتار تتحرك أسرع من الضوء وهو ما تحرمه النظرية النسبية. ولذلك بدت هذه النظرية محكوما عليها بالفشل، أما ما حفظ على النظرية بقاؤها فكان احتوائها على التناظر الفائق. ثم برزت صعوبة أخرى فالصياغة النظرية لهذه الأوتار بدا أنها تحتوى على جسم ليس له محل فى الأسرة المعروفة من الجسيمات ذى برم قيمته اثنان وكتلته صفرية ومن ثم فله سرعة الضوء. ولم يكن هذا الجسم معروفا فى العمليات النووية. هذا الجسم غير المتوقع معروف جيدا تحت اسم «جرافيتون»، وسريعا تتطورت نظرية الأوتار إلى نظرية جاذبية، وحين مزجت بأفكار التناظر الفائق اقترحت فكرة جديدة وهى «الأوتار الفائقة». وأصبح واضحا على الفور أن الأوتار الفائقة لها خواص تعد بمحو كل اللانهائيات التى صاحبت نظريات الجسيمات التقليدية. فعند مقادير الطاقة الدنيا تتجول الأوتار كما لو أنها جسيمات عادية، وتتقمص كافة الخصائص التى وصفتها النظريات التقليدية لعقود

خلت. ومع ارتفاع قيم الطاقة بما يسمح بظهور شأن للقوة الجاذبية، تبدأ الأوتار فى التمعج، وبالتالى تغير من السلوك عند الطاقات العالية بصورة جذرية وبطريقة تمحو أى تواجد للانهايات.

وفى إحدى صياغات النظرية تتكون الأوتار من عشرة أبعاد وفى صياغة أخرى تطلب الأمر ستة وعشرين بعدا. وتضمنت نظرية الأبعاد العشرة البرم بدون مشاكل، كما هو الوضع فى نظرية كالوزا - كلاين حيث كبست الأبعاد الإضافية إلى حجم غاية فى الضآلة. ورغم أن هذه الأبعاد الإضافية غير قابلة للرؤية مباشرة، إلا أنه من المغرى أن يفكر المرء أن كان بإمكانه الإحساس بأثرها بصورة أو بأخرى. ولذلك يربط علماء فيزياء الكم بين المسافة والطاقة. فلكى تسير غور المسافة لجزء من بليون بليون جزء من قطر نواة الذرة، نحتاج إلى طاقة أعلى من طاقة النواة بنفس النسبة. وليس من مكان يتصور أن يتواجد فى طاقة بهذا المستوى سوى فى الانفجار الأعظم عند نقطة بداية الكون. ومن الاحتمالات المثيرة أن تكون كافة أبعاد الفضاء في البداية علي قدم المساواة وأن قاطنى الكون البدائى من جسيمات أولية قد عايشت تلك الأبعاد المتعددة. وحدث التطور بعد ذلك، ثلاثة من تلك الأبعاد ابتلعت سريعا خلال التضخم لتكوين الكون الحالى، بينما توارت الأبعاد الأخرى عن الأنظار تعبر عن وجودها ليس كفضاء ولكن كخواص كامنة فى الجسيمات والقوى. وتظل الجاذبية إذن القوة الوحيدة المصاحبة لهندسة الفضاء والزمن كما تتصور الآن تماما، ولكن كل هذه القوى والجسيمات ذات أصل هندسى.

ومـا زال الوقـت مبكـرا لمعرفـة مـا إذا كـانت نظريـة الأوتـار الفائقـة بمقدورها أن تعيد صياغـة الفيزيـاء كمـا نعرفـها الآن. وفـى نفـس الوقـت تتلاشـى اللانـهائيات التـى تعيـق نظريـات التوحيـد الأخـرى. وتتضمــن نظريات التوحيد الكبرى اندماج القوى المختلفة فى هوية واحدة. كما أنها تتضمن توحيد الصور المختلفة مـن المـادة فـى هويـة واحـدة. والجسيمات المعتادة تقع فى مجموعتين، الإلكترونات والكواركات. والتمييز الجوهـرى بينهما هو أن الكواركات فقط هى التى تسـتجيب للقـوة النوويـة الشـديدة المحمولة بواسطة الجلونات. بينما تحمـل القـوة الكهروضعيفـة النوعـين. ولكـن القـوة الموحـدة العظمـى تفشـل بحكـم طبيعتـها فـى التميـيز بـين الكواركات واللبتونات، حيث أن ذلك يتطلب خواص من كلتا القوتين.

وتفترض الحسابات أن القوة الموحدة العظمى محمولـة بواسطة جسيم وسيط أعطى اسما كوديا « X » يملك كتلة هائلة يقـدر بجـز مـن مليـون جزء من الجرام، وهى هائلة لأنهـــا أثقـل مــن البروتون بمليـون بليـون ($١٠^{١٥}$) مرة. وبفضل مبـدأ عـدم اليقـين فـى النظريـة الكميـة، فـإن هـذا الجسم لا يظل إلا لفترة وجيزة جدا. فهذا الجسم الشبحى يمكنه الظـهور الفجائى، حتى بداخل البروتون، ولكنه لا يظل إلا لفـترة $١٠^{-٣٥}$ ثانيـة تقريبا. ولـذا لا ينتقـل إلا لمسـافة $١٠^{-٢٥}$ مـن السـنتيمتر، وإلى جـزء مـن تريليون جزء من قطر البروتون قبل أن يعيـد الطاقـة التـى أقترضـها مـن الفراغ التقديرى. ولما كان البروتون يحتوى على ثلاثة كواركات، فإنه من غير المتصور أن يتلاقى أى منها مع الآخر فى تلك الفترة الوجيزة، إلا أن الاحتمال غاية فى الضآلة بأن يقترب كواركان لتلك المسافة الضئيلة. وإذا

حدث ذلك الاحتمال فإنه يمكن تبادل جسيم « X » بينهما وهى عملية ذات أثر خطر عظيم. فالكواركان المتفاعلان معا سيتحولان إلى كواركين ضديدين بالإضافة إلى بوزيترون. وحين يتم هذا التحول داخل البروتون، فإن البوزيترون يلفظ بينما يتحول الكوارك الثالث مع الكواركين الضديدين إلى جسيم يسمى بيون. وبعد جزء من ثانية يتحول البيون ذاته إلى البروتون وينبعث إلكترون. ولقاء الإلكترون بالبوزيترون يعنى أن المادة بأسرها غير مستقرة ولن تدوم إلى الأبد. فنظريات التوحيد العظمى كما تقدم آلية ظهور المادة تقدم أيضا آلية فنائها.

وعلى الرغم من عدم ملاحظة انحلال البروتون بصورة مباشرة فإن أغلب الفيزيائيين يعتقدون أن قوى الطبيعة لها بالفعل أصل مشترك وقد تركزت كل هذه المجهودات فى العشرة سنوات الماضية فى اتجاه التوحيد. ويتم حاليا بناء أضخم معجل للتصادم الهيدرونى فى مركز أبحاث الطاقات العالية بمدينة سيرن بالقرب من جينيف بسويسرا ويتوقع الخبراء أن ينتهى هذا العمل فى ديسمبر عام ٢٠٠٥م. ومن المنتظر أن يساهم هذا المعجل فى دراسة عمليات الاضمحلال البروتوني.ويقترح العلماء أنه يوما ما سوف نتعلم كيف ننفتح على الأبعاد الأخرى للكون وليكن البعد الخامس وذلك بالسفر خلاله ثم طوية ثانية.

وقد يعطينا هذا البعد إمكانية السفر بسرعة أكبر من سرعة الضوء المعروفة فى الأبعاد الزمكانية الأربعة التقليدية. فمن خلال الأبعاد الإضافية يمكن للمرء أن يعيد حركة الدوران بين الفراغ التقليدى. عندئذ، سيمكن تحويل الوزن الكتلى للفرد أو سفينة فضاء محملة بالمسافرين إلى

الإفناء الكتلي المكافئ وهـذا يحـدث عنـد الحركـة بسـرعة الضـوء. وعنـد انتهاء الرحلة تتحول الأجسام إلى وضعها الطبيعـي. بـالطبع هـذا التصـور يبقى من ملكوت الخيال العلمي إلا أن علماء الفيزياء لديهم الكثير والمثـير نحو اكتشاف البعد الخامس أو السادس أو حتى البعـد السـابع. والشـيء المهم في كل ذلك هـو إننـا بـالفعل وصلنـا إلى حافـة البدايـة نحـو وضـع الأسس الحقيقية لنظرية كل شيء. ومازال الإنسان بالعقل والذكاء يحـاول اكتشاف أعاجيب الكون.

فيزياء ما وراء المستقبل : الحقيقة والخيال

خلال القرن العشرين ، حقق الإنسان بعض من أحلامه التكنولوجية الجديرة بالاهتمام . ففى العقود القليلة الماضية استطاع تطوير الفيزياء الحديثة وفهم ميكانيكا الأجسام ما دون الذرة وأمكن تفجير الطاقات الكامنة داخل نوى الذرات وتصنيع المفاعلات النووية وتوليد الطاقة الكهربية وصناعة البصريات الدقيقة وتشييد الأقمار الصناعية وتطوير نظم الإرسال التليفزيونى ليغطى جميع أنحاء الأرض وابتكر أجهزة الليزر وأشعتها المميزة التى تستخدم فى شتى المجالات المدنية والعسكرية وكذلك تطوير تكنولوجيا المواد وصناعة الحاسبات الشخصية والألياف البصرية التى أدت إلى ثورة المعلومات ، كل ذلك عمل على تغير نمط الحياة العصرية للإنسان .

وفى الوقت الحالى ، يقال أننا أصبحنا وسط تحول فى نمط التفكير العلمى الذى لا يمثل سوى جزء من الحقيقة ، خاصة بعد أن أدرك كثيرون أن مفاهيم غريبة تحدث من حولنا متحدية لإدراكنا البشرى مثل فكرة وجود الثقوب السوداء وتمدد الكون وخطوط الكم الشبحية ونظريات الفوضى والحاسبات الذكية . فكلما اقتربنا من نهاية القرن العشرين زاد تحرر العلم من أغلال فكرية ظلت تكبله فى القرون الثلاثة الماضية . هذه الأغلال أطلق

عليها العلماء (الميكانيكية) . وطبقا لهذا النمط الفكرى تصور العلماء الكون كآلة هائلة منضبطة فى أجزائها تدور بلا انقطاع أو هدف . وبالطبع جذور هذا النمط الفكرى تمتد إلى القدماء الإغريق، إلا أن جذوره الحديثة تعود إلى العالم الإنجليزى (إسحاق نيوتن) الذى صاغ قوانين الميكانيكا الشهيرة ، وفتح الباب أمام الادعاء بأن كافة النظم الفيزيائية يمكن النظر إليها كجزء من النظام الميكانيكي . والجدير بالذكر أننا دخلنا القرن العشرين بهذا النمط الفكرى . إلا أن الحركة تجاه ما بعد المادية كنمط فكرى مناسب للقرن الحادى والعشرين القادم يتم على نطاق واسع خاصة فى علم الكونيات وكيمياء الأنظمة ذاتية التنظيم ومفهوم الفوضى وميكانيكا الكم وفيزياء الجسيمات الأولية والمواد الجديدة ونظم المعلومات وكذلك المنطقة المشتركة بين البيولوجيا والفيزياء .

وجرت العادة على تعريف المادة بأنها : كل ما يشغل فراغ ، ويمكن إدراكه مباشرة بالحواس أو بواسطة القياس . ولإدراك المادة سواء بالحواس أو القياس فإنه يلزم أداء حركة لإتمام الحس أو إجراء القياس . والحركة هى التعبير المباشر عن تواجد الزمن . لذلك يمكننا القول بأن (الفراغ – الزمن) هما الإطار الحاوى للمادة وحركتها . إن فكرة الجسيم هى أبسط فكرة تقليدية لدراسة ديناميكا حركة المادة .

ومن هنا لابد من تعريف الفراغ والزمن . الفراغ هو الامتداد اللامحدود للاشيء . إن امتداد المادة أى ما تشغله من حيز فى

الفراغ يعطى لنا مفهوم الفراغ . ولا يمكن اعتبار مادة دون فراغ يحتويها ، فهل يمكن اعتبار فراغ دون مادة فيه أم إنه اللاشىء أو العدم ؟ أحيانًا يوصف الفراغ بأنه نسيج متصل إن نعت الفراغ بكلمة نسيج أو متصل يعطى له صفة قد لا يمتلكها .

إن مفهوم الزمن هو صدى الحركة ، والصعوبة تكمن فى التعريف به وإدراك مكنونه وماهيته . إن استمرار الآنية حقيقة (الآنية هى الفترة الزمنية بين قراءة الساعة (الآن) والقراءة التى تليها عندما تؤول هذه الفترة بين القراءتين إلى فترة متناهية فى الصغر) ، فهل الحركة تجد حريتها فى رحاب اتساع استمرارية وجود تلك الآنية فتعطى لنا مفهوم تواجد الزمن كما أعطت لنا المادة وامتدادها مفهوم الفراغ ؟ لا يمكن اعتبار حركة دون زمن يحتويها ، فهل يمكن اعتبار زمن دون حركة فيه ؟ أم أنه اللاشىء . إن تعبير الآنية يعكس مفهوم تواجد الزمن ويلغى صفة الاتجاهية فيهن لأن التواجد لا يلزمه بالحتم الاتجاه . ومن ثم لا يلزمه صفة المرور ويصبح انعكاس مرور الزمن ليس محل فى الطبيعة وليس لدينا شواهد عليه ، بل قد يكون منطقنا لا يقبله . إن التواجد المستمر حقيقة مؤكدة وإن كان صدى التعبير المألوف الدارج : مرور الزمن يجد قبولا ويسهل من خلاله تصور الزمن وترتيب تتابع الحوادث فيه .

هل يمكننا القول أن الفراغ والزمن هما انعكاس وصدى المادة وحركتها ومن ثم القول أن (الفراغ - الزمن) و (المادة وحركتها) هما وجهان لحقيقة واحدة .

أما مبدأ (ثبات سرعة الضوء) وما تسببه من الحيرة والارتباك وخطأ التوجيه ! فإنه إذا كان الضوء لونًا واحدًا فقط ، فإن ثبات سرعة الضوء بين مجموعات الرصد يلزم له سحر ! أما إذا كان للضوء ألوان مختلفة كما هو فى الواقع فإن ثبات سرعته على حساب لونه يجعل الموقف يفقد إثارته حيث هناك حل فى إطار ما يسمى نسبية جاليليو للربط بين ثبات سرعة الضوء ولونه . ومن ثم يكون الانتقال من المنطقة المرئية إلى المنطقة غير المرئية للضوء . ويعمم الموقف أكثر لدراسة اختلاف الطاقة ومستوياتها تعميما لاختلاف الضوء ومن هنا لابد أن نتحدث عن مبدأ (ثبات الطاقة) .

لقد كان هدف الإنسان ماثلا فى رؤوس فلاسفته وعلمائه فى كل عصر هو تتبع الأسباب واختزال عناصر ولبنات هذا الكون وصولا إلى وحدانية ناموس طبيعى مسيطر ، فكان عنصر الإثارة الذى قدمته فروض (النسبية الخاصة) فى تقنين مبدأ (تكافؤ الكتلة بالطاقة) فهاهى المادة تكافئ طاقاتها وكلاهما تعبير عن القصور الذى هو بدوره تجسيد لإيجابية إطار (الفراغ - الزمن) ونرى أن مبدأ تكافؤ الكتلة بالطاقة يمتد لينسحب على مبدأ تكافؤ الفراغ بالزمن ، ليشكلا كونا ذا أربعة أبعاد ومن هذا المنطلق وجدت النسبية الخاصة قبولا باعتبارها خطوة إيجابية فى طريق تتابع الأسباب وصولا إلى وحدانية الناموس الطبيعى .

عند دراسة الكهرباء والمغناطيسية على سبيل المثال فإننا نبدأ بتعريف ما يسمى بخطوط القوى الكهربية وخطوط القوى

المغناطيسية : فيقال عنها أنها خطوط وهمية وأن الصفة السائدة عن الكهرباء والمغناطيسية أنها لا تحس ولا ترى . وبعد أن استقرت تلك التعريفات بدأ الحديث عن خاصية النفاذية والسماحية للإثير ليصبح الأمر أكثر تجريدا . وظل الوضع إلى أن جاء العالم الاسكتلندى (ماكسويل) الذى وضع معادلات المجال الكهرومغناطيسى لاحتواء ظاهرتى الكهرباء والمغناطيسية فى إطار واحد . ولقد أمكن التحقق العملى لهذه القوانين وتبين أن انتشار الكهرباء والمغناطيسية يكون على هيئة موجات . وأن الإثير هو حاملها وأن سرعة انتشار تلك الموجات تتحدد بخواص هذا الوسط الحامل نفاذيته وسماحيته . إن الضوء عبارة عن انتشار لهذه الموجات وجاءت النظرية النسبية الخاصة وتخلصت من فكرة الإثير لكنها للحيرة جعلت مدخلها خواص وقوانين المجال الكهرومغناطيسى .

لقد وصف العالم الفيزيائى (جوزيف فورد) المنطق الميكانيكى المادى بأنه أحد الأساطير القاعدية : فالعلم الكلاسيكى ، وبالطبع الأسطورة ليست تمثيلا حرفيا للحقيقة . فهل لنا أن نتصور ما حدث من تقدم علمى على مدى القرون الثلاثة الماضية كان على أساس خاطئ لحقيقة الطبيعة ؟ بالطبع لا . إنه ليس انعكاس للتصور . وتصوير الحقيقة له وجاهته طبقا للظروف بالضبط كما أن الأسطورة تحمل بعضا من التصورات المزعومة التى لها فائدتها فى ظروف ما . ولذلك لعب المنطق الميكانيكى دورا بالغ النجاح ولدى العلماء القناعة لإعطائه صفة الحقيقة القاطعة .

وخلال القرن العشرين عرف العلماء مدى حدودية هذا النمط الفكرى وأدركوا أنه يوجد الكثير خلاف التروس والعجلات كمكونات لهذا العالم ولابد أن تستكشف هذه المتغيرات الفكرية المثيرة والمتحدية مثل موت المادة وطبيعة الحقيقة العلمية وما وراء المنطق وكذلك مفهوم الفوضى وتتحرر المادة وتصور ما لا يمكن رؤيته وكذلك تمدد الكون وموته ومعنى الزمن والوعى وأصلب مادة والمادة المضادة والأشلاء الكونية وأعاجيب فيزياء الكم وما وراء المستقبل .

ويتأمل الإنسان الكون من حوله يحاول أن يعرف معنى للحياة ، ولذلك نجده يعزى ما يحدث فى دنيا الكائنات الحية إلى الطبيعة ككل . وفكرة كون المادة عنصرا من الحياة بدلا من كونها شيئا أصم تدافعه القوى العمياء يرجع إلى شىء كامن فى تكويننا . على سبيل المثال نرى فى قصص الخيال العلمى كيف يتقبل الأطفال قصصا تشخص فيها الجوامد مثل السيارات والقطارات والجبال والسحب ككائنات حية ذات شخصيات ومشاعر . وكذلك نرى فى بعض القصص القديمة ما ذهب إليه أرسطو بأن الكون بأسره يماثل كائنا حيا ويتجه نحو هدف كونى معين . هذا المذهب يعرف (بالغائية) Teleology . ومع تطور العلم الحديث استبدل هذا بمفهوم الساعة الكونية .

وليس من موضوع يتعارض مع هذا النمط من التفكير أكثر من سر الحياة . فمن وجهة النظر الآلية الصرفة ، فإن الكائنات الحية ليس إلا آلات وأن كانت آلات مذهلة التعقيد . كما نظر

لتطور الحياة ذاتها بنفس المنطق كصورة من صور الآلية . والجدير بالذكر أن يقبل العلماء البيولوجيين ذلك ، وأنه ما دبت الحياة فى أى كائن حتى يصبح التغيير الجينى العشوائى والانتخاب الطبيعى كفيلين وحدهما بالوصول به إلى كافة الصور الذى صار عليه . أما فيما يختص بأصل الحياة فالمشكلة أعقد ومن المفروض أن احتمال العمليات الفيزيائية الدقيقة التى أدت إلى ظهور أول كائن حى ضئيل للغاية أنها حقا محاطة بالأسرار . ومن هذا المنظور تكون الحياة مقصورة على الأرض حيث من غير المحتمل أن تكون الحياة قد تكررت فى أماكن أخرى .

وعلى النقيض من هذه الفلسفة ، تذهب الآراء الحديثة إلى الاعتراف بالقدرة الخلاقة والمتطورة لأغلب العمليات الفيزيائية . فالحدود الفاصلة بين ما هو حى وما هو غير حى لا يمكن أن تكون قاطعة . وأصل الحياة ليس إلا خطوة فى طريق تطور المادة نحو التعقيد والإغراق فى التنظيم .

ولو كان للطاقة والمادة خاصية التنظيم الذاتى ، فإن الاحتمال يكون قائما على الدوام لتكرار ظاهرة الحياة مرات ومرات طالما توافرت الظروف الملائمة . وفى هذه الحالة يمكننا تصور حياة فى الكواكب الأخرى وقد يكون منها صور عاقلة .

ومن المعروف أن تطور علوم وتكنولوجيا الفضاء مكن الإنسان من وضع أول خطة منهجية بدائية للبحث عن الحياة خارج الأرض . والجدير بالذكر ما بثته وكالات الأنباء العالمية مؤخرا أن العلماء قد

نجحوا فى الكشف عن مجموعة شمسية غير المجموعة الشمسية التى توجد بها الأرض على بعد ٤٤ سنة ضوئية منها . وقد عثروا على ثلاثة كواكب تدور حول النجم المسمى (ابسيلون أندروميد) ظروف بعضها المناخية قريبة من ظروف كوكب الأرض . مما يشير إلى احتمال وجود شكل من أشكال الحياة عليها فى أماكن أخرى من الكون .

وببساطة يمكن التعرف على الحياة حين تلتقى بها على الأرض ، فالناس وباقى الحيوانات والنباتات والفطريات والميكروبات هى كائنات حية بلا جدال . إن الخصائص المتعارف عليها للحياة هى القدرة على التكاثر والاستجابة للمؤثرات الخارجية والنمو . والمشكلة أن كثيرا من النظم غير الحية تشترك مع النظم الحية فى بعض الخصائص على سبيل المثال النيران تتكاثر والبلورات تنمو وتتكاثر والفقاقيع تتراجع حين تقترب منها مستجيبة للمؤثرات الخارجية .

لقد تجاوز العلماء مفهوم الكيمياء الغريبة فى تفسير أصل الحياة اقترحوا فكرة وجود حياة فى مكان ما مؤسسة ليس على الكيمياء بأسرها بل على عملية من عمليات الفيزياء المعقدة . والمثال الواضح هو ما قدمه العالم (فريد هويل) فى قصته للخيال العلمى (السحابة السوداء) ، فقد تصور فى هذه القصة سحابة ضخمة رقيقة من غاز ينبعث من نجم وتمثل كائنا مفكرا هادفا وتتحرك بين النجوم وتتغذى على الطاقات المتاحة . وفى السنوات

الماضية أسس (هويل) نظرية مفصلة مبنية على هذه الفكرة ومؤداها أن الحبيبات المجهرية التى تكون المادة فى مثل تلك السحب هى فى الحقيقة بكتيريا متحوصلة داخل أغلفة واقية . وقد ذهب العالم السويدى (سفانت أرثنيوس) إلى أن الحياة قد تكون منتشرة خلال المجرة على شكل كائنات مجهرية محمولة على ذرات غبارية وتتحرك بدفع أشعة الضوء . وبذلك فإن أعداد هائلة من هذه الكائنات المجهرية مختلفة الأنواع تغزو الفضاء ومستعدة لاكتساح أى جسم مناسب ككوكب أو مذنب . وهذا قد يفسر كيف بدأت الحياة على الأرض بهذه السرعة بعد تكوينها وما يتضمنه ذلك من أن كواكب أخرى قد تكون قد غزيت بالحياة بمثل هذه السرعة مثل كوكب المريخ .

ورغم أن اكتشاف أصغر ميكروب فضائى قد يغير تماما من نظرة البشر للكون ، فإن العجب الحقيقى يحيط بنا بإمكانية وجود أشكال أخرى للحياة العاقلة ومجتمعات غريبة متقدمة تكنولوجيا . وقد سار كتاب الخيال العلمى طويلا وراء هذه الشاطحات وسايرهم كثير من العلماء . فقد بلغ بهم الحماس للاتصال بالمخلوقات الفضائية . وبعض الفلكيين اتخذ بعض الخطوات الفعلية من أجل استقبال الإشارات الكونية لهذه المخلوقات . وقد بينت النتائج من الإشارات المستقبلية من النظم النجمية القريبة عدم وجود ما يمكن اعتباره إشارة لحضارة عاقلة . ويتطلب تحقيق قدر معقول من النجاح إلى مجهودات أكثر طموحا وشمولية .

كل ذلك دفع العالم الفيزيائي (جون هويلر) في دراسته للبحث عن الروابط بين المعلومات وفيزياء الكم إلى الاقتناع بأن (العالم لا يمكن أن يكون آلة هائلة يحكمها قانون فيزيائي مفروض سلفا) ، بل الأكثر دقة هو أن نفكر في الكون الفيزيائي كنظام مهول من نظم معالجة المعلومات لم تحدد مخرجاته بعد . وعمليات العلم ما هي إلا عمليات استجواب الطبيعة . فكل تجربة قياس وكل ملاحظة يستخلص منها رد من الطبيعة على هيئة وحدات من المعلومات . وطبقا لهذه الآراء يمكننا القول بأن الحياة الذكية سوف تنتشر من كوكب ما (ربما الأرض) وتتسع في سيطرتها ببطء ولكن بثقة ليس فقط على النظام الشمسي أو المجرة بل على الكون بأسره .

إن صورة العالم من منظور العلم الحديث باتت معه الحقيقة أغرب من الخيال ، فلم يعد الزمن كما ألفناه ولا المكان الذى عاهدناه وانهارت الحواجز الوهمية بين التناقضات . ولابد أن يخلق الفكر الإنساني من البديهيات والمسلمات تجعله ينظر للعالم بعين جديدة حتى يكون مؤهلا للتعامل مع المستقبل ومفاجآته حتى لو كان من وحي الخيال .

الفصل الثانى

الجديد فى علوم المواد

- الآفاق العلمية للبلـورات السائلة
- المـواد الرخـوة
- الآفاق العلمية للكربون الجزيئى

الآفاق العلمية والتكنولوجية للبلورات السائلة

نعرف الآن ، أن المادة على الرغم من كونها تبدو متجانسة ظاهريا إلا أنها تتألف من تراكيب دقيقة لا يمكن مشاهدتها بصورة مباشرة ، حيث أنها تتكون من ذرات وجزيئات .

والجدير بالذكر ، أن ذرات المادة تستقر في حالة اتزان داخلها تحت تأثير قوى بينية كبيرة بعضها جاذب والآخر طارد . وتتوقف هذه القوى وشدتها على نوع المادة المعينة . والقوى الجاذبة في المادة تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي :

(أ) **قوة كولومية** : تعتمد على التجاذب الكهربائي بين الشحنات المختلفة الإشارة ، كما يحدث في حالة البلورات الأيونية مثل كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) .

(ب) **قوى فان درفال** : وتحدث نتيجة دوران الإلكترونات في مداراتها حول نواة الذرة . ويتسبب عن ذلك ما يسمى بثنائي القطب الكهربائي ، وهذا يتجاذبها مع بعضها في الذرات المتجاورة ، تحدث ما يطلق عليه بقوى فان درفال . وهي غالبا قوى ضعيفة كما هو الحال في الشمع ، وذلك بسبب انخفاض نقطة انصهاره .

(جـ) قـوى التبـادل : وتنشـأ عندمـا يحـدث اتحـاد كيميـائى ينتقـل فيـه الإلكـترون مـن الـذرة إلى ذرة مجـاورة . هـذا الانتقـال يتسبب فى تلاصق الذرتين بقوة كبيرة .

أما القوى الطاردة فى المادة فتنتج بسبب التنافر بين الشحنات السالبة (الإلكترونات) المحيطة بكل ذرة التى يصبح تأثيرها كبيرا جدا ، عندما تقترب الذرات من بعضها بدرجة كبيرة تحت تأثير القوى الجاذبة سالفة الذكر .

ومـن أهـم الـدروس التـى يتعلمـها المـرء أثنـاء مراحـل التعليـم الأولى ، هـو أن المـادة تتواجـد فـى ثلاثـة حـالات مختلفـة هـى : الحـالات الصلبـة والسـائلة والغازيـة . وهـذا ليـس حقيقـى كليـة ، حيث وجد أن المادة قـد تتواجـد فـى أطوار بينيـة أخرى تجعلها بين الحالة الصلبة والسـائلة وتسـمى فيـها المـادة (بـالبلورات السـائلة) (Liquid Crystals) . وحاليا ، ترتبـط الأفكـار عـن المـواد المختلفـة فـى حالتـها البلوريـة السـائلة عندمـا نسـتعمل السـاعات الرقميـة أو شاشـات الكمبيوتـر أو الترمومـترات الرقميـة المسـتخدمة فـى قيـاس درجـات الحـرارة . إلا أن هـذه المـواد أصبحـت الآن أكـثر شـيوعا ، فـهى تشـمل معظـم النظـم البيولوجيـة متضمنـة حتـى أنفسـنا ، فـنرى أن خلايـا الأغشـية (Cell Membrane) مـا هـى إلا تأثـير للمـواد فـى حالتـها البلوريـة السـائلة التـى لهـا خـواص ميكانيكيـة وكهربائيـة غـير عاديـة .

وحاليا ، تتعدى تطبيقات مواد البلورات السائلة كافة المجالات المدنية والعسكرية ، وتهتم الدول المتقدمة بتطوير مجال البحوث لهذه المواد التى يتوقع الخبراء أن تكون العهد الجديد للتكنولوجيا فى القرن الحادى والعشرين .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، فيما يلى سوف نلقى الضوء على الآفاق العلمية والتكنولوجية ، وكذلك الخصائص الفيزيائية للبلورات السائلة .

وقبل أن نتناول قصة اكتشاف المواد وهى فى حالاتها البلورية السائلة ، دعنا نتحدث أولا بشىء من التفصيل عن أحوال المادة . فعادة وكما ذكرنا سلفا تتواجد المادة فى أشكال ثلاثة هى الحالة الصلبة والحالة السائلة والحالة الغازية . وتتوقف حالة المادة على كيفية ارتباط جزيئاتها ببعضها وعلى مقدار البينية بين هذه الجزيئات .

١ - الحالة الصلبة للأجسام :

وفيها تكون الجزيئات قريبة من بعضها وتكون قوى التجاذب بين الجزيئات كبيرة جدا . وهذه القوى هى التى تحفظ للجسم الصلب شكله . ويتحرك كل جزىء حركة تذبذبية حول موضع توازنه وتزداد سعتها الحركية بازدياد درجة الحرارة . وعندما تصل درجة الحرارة لنقطة الانصهار تكون الذبذبات من العنف بمكان حتى أنها تتغلب على قوى التجاذب . فيتحطم الشكل

الصلب للجسم متحولا إلى سائل . وتمثل الحرارة الكامنة للانصهار الطاقة الحرارية اللازمة لتحطيم الشكل الصلب للجسم .

٢ ـ الحالة السائلة للمادة :

فى هذه الحالة تتحرك الجزئيات بحرية أكبر من الحالة الصلبة ، وإن كانت قوة التجاذب بينها لا تزال من القوة بحيث تجمعها جميعا فى حجم ثابت . وتغادر السوائل عند سطحه بعض الجزيئات ذات الطاقة الكبيرة ويعرف ذلك بالبخر .

٣ ـ الحالة الغازية للمادة :

فى هذه الحالة ، لا تشغل جزيئات الغاز أماكن ثابتة ، فهى حرة الحركة فى أى مكان . ولذلك ، فإننا نجد الغاز يشغل دائما حجم الإناء الموضوع فيه . ونتيجة لبعد الجزيئات عن بعضها يسهل ضغطه إلى حالة السوائل والأجسام الصلبة . والآن ، دعنا نستعرض بعض من خواص المادة وهى فى الحالة الصلبة .

تتميز الأجسام الصلبة بالمرونة ، فإذا أثرنا بقوة على جسم ما، ونتج عنها تغير فى أبعاده أو فى شكله يقال أن الجسم تام المرونة إذا عاد الجسم إلى سابق شكله وأبعاده تماما بعد إزالة القوة . وتعود خاصية المرونة فى الأجسام إلى القوة البينية الكبيرة بين الذرات المكون لها .

وتنقسم الأجسام الصلبة إلى نوعين هما :

(أ) مواد صلبة بلورية Crystalline : وهي التي تترتب ذراتها بانتظام على شكل خلايا تتكرر في الاتجاهات المختلفة لتكون الجسم .

(ب) مواد صلبة غير بلورية (أمورفية) Amorphous : مثل الزجاج الذي يعتبر في معظم الأحوال كأنه سائل فائق التبريد .

وفيما يلي سوف نلقي الضوء على أنواع التبلور في الجوامد ، والتي حددت بأربع أنواع هي :

١ - البلورات الأيونية : مثل كلوريد الصوديوم .

٢ - البلورات الجزيئية : ويكون الترابط بها بقوى فان درفال .

٣ - البلورات التساهمية : في هذه البلورات تكون الكثافة الكهربائية بين الذرات المتجاورة كبيرة ، كما هو واضح في جزيئات الكربون وارتباطها في بلورات الماس والجرافيت .

٤ - البلورات الفلزية : وتكون قوى التجاذب بين الأيونات والسحابة الإلكترونية هي القوى الأساسية للترابط بين ذرات الفلز، الذي يمكن تصوره على أنه رصة يحيط بها سحابة من الإلكترونات تعطي لها خواص مميزة مثل التوصيل الكهربائي والحراري الجيد وكذلك لمعة السطح الخارجي .

وهنـاك تركيبـات بلوريـة عديـدة تـترب فيـها الـذرات بعـدد لا نـهائى مـن النقـط الفراغيـة ، بحيـث تكـون لكـل نقطـة نفـس الجـيران مـن الـذرات المحيطـة بـها . وبذلـك تتكـون شـبكة فراغيـة التى تتميز بعـدد التناسق وهـو عـدد أقـرب جـيران .

والجدير بـالذكر ، أنـه عندمـا يبـدأ مصـهور مـا فـى التجمـد ، تثبـت درجـة حرارتـه حتـى يتـم تحويلـه مـن الطـور السـائل إلى الطـور الصلـب مـع خـروج الحـرارة الكامنـة أثنـاء عمليـة التحـول . وتظـهر تلقائيـا وفـى أمـاكن مختلفـة مـن المصـهور نويـات بلوريـة ، تـأخذ فـى النمـو علـى شـكل دندريـت كلمـا ازداد التحـول إلى الطـور الصلـب . ويكـون ذلـك علـى حسـاب السـائل المحيـط . وتسـتمر عمليـة النمـو حتـى يتـم التحـول إلى الطـور الصلـب كـاملا . تسـمى هـذه العمليـة (بالإنمـاء البلـورى) . والدندريـت يـأخذ شـكل أفـرع طويلـة يقـف نموهـا إذا مـا تلامسـت مـع دندريـت آخـر تختلـف فيـه اتجاهـات المسـتويات الذريـة . وبنهايـة التجمـد تكـون أسـطح التلامـس بـين هـذه الدندرينـات حـدودا حبيبيـة Grain Boundaries فـى مـادة متعـددة التبلـور . ويعـرف الحـد الحبيبـى بأنـه سـطح يحتـوى علـى انخلاعـات Dislocations.

وهناك عدة طرق للإنمـاء البلـورى نذكـر منـها مـا يلـى :

- الإنمـاء البلـورى مـن المحـاليل المائيـة .
- الإنمـاء البلـورى مـن المحـاليل الصلبـة .
- الإنمـاء البلـورى عـن طريـق الضغـط والحـرارة .

- طريقة التنمية من المصهور .

- طريقة الصهر النطاقى .

وعادة يمكن الكشف عن التركيب البلورى للمادة بواسطة التداخل للأشعة السينية الكهرومغناطيسية .

وكما هو معروف ، تتميز المواد الصلبة بعامل توصيلها الكهربائى وتنقسم إلى ثلاثة أنواع هى :

(أ) مواد جيدة التوصيل الكهربائى وهى المواد المعدنية مثل النحاس .

(ب) مواد شبه الموصلات مثل كبريتيد الرصاص .

(جـ) مواد رديئة التوصيل أو عازلة كهربائيا مثل الأبونيت .

ويعتمد التوصيل الكهربائى للأجسام الصلبة على وجود حاملات للشحنة تكون حرة ، يمكن لها أن تتحرك تحت تأثير مجال كهربائى خارجى .

كما تتميز المواد الصلبة بالخواص المغناطيسية التى ترتبط بالحركة المدارية والمغزلية للإلكترونات فى ذراتها . وتقاس الخواص المغناطيسية بالقابلية المغناطيسية "Magnetic Susceptibility" لوحدة الحجوم من المادة . وتنقسم المواد الصلبة إلى ثلاثة أنواع هى :

(أ) مواد ديامغناطيسية: تكون قابلية مغناطيسيتها سالبة، أى أنها تتنافر مع الأجزاء القوية من المجال المغناطيسى .

(ب) مواد بارا مغناطيسية : وهى تنجذب للمناطق القوية فى المجال المغناطيسى ، وقابليتها موجبة .

(جـ) مواد فيرومغناطيسية : وهى المواد التى لهسا قابلية مغناطيسية كبيرة جدا . مثل الحديد والكوبالت والنيكل .

أما بالنسبة للمواد العازلة فتتكون من نويات موجبة التكهرب يحيط بها شحنات سالبة ، بحيث تنطبق مراكز الشحنة الموجبة والسالبة فى كل جزء منها . وعندما تؤثر على هذه المواد بمجال كهربى يحدث لها استقطاب كهربائى ينشأ عنه ثنائيات فى أجزاء المادة المختلفة . وتتأثر عملية الاستقطاب بعامل التهيج الحرارى ، ولذلك فهى تعتمد على درجة الحرارة .

والاستقطابية الاستاتيكية تنقسم إلى ثلاثة أنواع هى : استقطابية إلكترونية وأيونية ومتجهة .

وتتميز الحوازل عادة بالخواص الآتية :

أولا : الخاصية الفيروكهربية "Ferroelectric effect" :

المادة الفيروكهربية هى مادة لها استقطاب ذاتى ويكون لها عزم ثنائى القطب حتى فى غياب المجال الكهربى الخارجى .

ولا توجد ظاهرة الفيروكهربية في المواد التي لا ينطبق فيها مركزي تماثل الشحنات السالبة والموجبة على بعض ، كما هو الحال في البلورات الأيونية . أي أن وجود تماثل في التركيب البلوري شرط ضروري للحصول على التأثير الفيروكهربي في البلورة .

ثانيا : الخاصية الكهروضغطية "Piezoelectric effect" :

يلاحظ ، عندما نؤثر على بلورة ما بإجهاد ميكانيكي تزاح ذراتها من أماكنها . فإذا كان للبلورة مركز تماثل شبيكي ، تكون الإزاحات متماثلة حول مراكز التماثل ، وبالتالي فإن توزيع الشحنات في البلورة يظل دون تغيير يذكر ويظل عزم ثنائي القطب الكهربي دون تغيير . هذا النوع من البلورات لا تظهر فيه الخاصية الكهروضغطية . أما إذا اعتبرنا بلورات ذات تركيب غير متماثل تترب الأيونات على شكل أزواج تكون ثنائيات قطب ، وعندما نؤثر على هذه الأيونات بإجهاد ميكانيكي يحدث تشويه يسبب الإزاحة النسبية للأيونات .

ثالثا : الخاصية الكهروحرارية "Ferroelectric effect" :

عند تسخين بلورة ما ، تزاح الذرات من أماكنها ويسبب ذلك إزاحة الأيونات وبدرجات نسبية تعتمد على تماثل التركيب البلوري .

وفيما يلى نتناول بعض من الخواص الفيزيائية للسوائل .

أولا : خواص السوائل الساكنة :

(أ) ضغط السائل :

يؤثر ضغط السائل دائما فى اتجاه عمودى على السطح ويتوقف ذلك على ارتفاع السائل وكثافته وعجلة الجاذبية الأرضية .

(ب) قاعدة باسكال :

وتنص على (إذا وقع جزء من سائل متزن فى حيز محدد تحت تأثير ضغط ما ، فإن الضغط ينتقل غير منقوصا إلى جميع أجزاء السائل) .

(جـ) دفع السوائل للأجسام المغمورة وقاعدة أرشميدس :

إذا غمر جسم فى سائل فإنه يقع تحت تأثير دفع من أسفل إلى أعلى بسبب السائل وهذا الدفع يسبب نقص فى وزن الجسم ظاهريا . ويؤثر هذا الدفع على الجسم سواء كان مغمورا كليا أو جزئيا . وقد وجد أن هذا الدفع مساويا لوزن السائل الذى يزيحه الجزء المغمور من الجسم . أى أن الدفع يساوى وزن السائل المزاح وهذه القاعدة تسمى (قاعدة أرشميدس) .

(د) اتزان الأجسام الطافية :

عندما يطفو جسم فوق سائل يكون متزنا تحت تأثير قوتين هما :

١ - ثقل الجسم .

٢ - دفع السائل للجسم إلى أعلى ويكون الجسم فى حالة أتزان مستقر إذا كان مركز الطفو أعلى وضعا من مركز ثقل الجسم . إما إذا حدث العكس، فإن الاتزان يكون غير مستقر ، وذلك بسبب تكون ازدواج من قوتى الثقل والدفع مما يؤدى إلى دوران الجسم ويجعل عاليه واطيه . ويجب مراعاة ذلك عند بناء السفن وتحميلها .

(هـ) التوتر السطحى :

تنشأ ظاهرة التوتر السطحي عن قوى التماسك وقوى الالتصاق بين الجزيئات عند سطوح السوائل وهي خاصية لا وجود لها فى داخل السوائل . ويعرف التوتر السطحي بالقوة المؤثرة على وحدة الأطوال من أى خط من خطوط سطح السائل .

(و) الخاصية الشعرية :

إذا غمرنا أنبوبة رأسيا فى سائل نلاحظ ارتفاع السائل داخل الأنبوبة . تسمى هذه الظاهرة بالخاصية الشعرية . ومرجعها وجود توتر سطحى للسائل .

ثانيا : خواص السوائل المتحركة :

١ - **خاصية الانتشار** : ويقصد بالانتشار انتقال ذرات أو جزيئات المادة فى داخلها من مكان إلى مكان آخر . ويعود الفضل لاكتشاف هذه الظاهرة إلى الطبيعة الجزيئية .

٢ - لزوجة السوائل : لوحظ عند سكب كمية من زيت أو جليسرين وأخرى من ماء على مستوى أفقى نجد اختلافا فى قابلية كل منهما على الانسياب . فبينما نرى الماء يستجيب بسهولة لفعل القوة التى تعمل على تحريكه ، تجد أن الجليسرين بطىء فى التدفق . والخاصية التى تميز السائل من حيث استجابته للحركة تسمى (اللزوجة) . وهذه الخاصية تنشأ عن وجود ما يشبه الاحتكاك بين طبقات السائل بعضها وبعض . وكلما ازدادت قيمة الاحتكاك كلما زادت لزوجة السائل . ويمكننا تعريف اللزوجة بأنها المانعة التى تبديها طبقات السائل للحركة .

والآن ، ما هى قصة اكتشاف المواد البلورية السائلة ؟

تعود قصة اكتشاف المواد البلورية السائلة إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، خاصة بعد تطور أجهزة التكبير المجهرية "Optical Microscopes" ، حيث كان الباحثين فى ذلك الوقت يستعملون هذه الأجهزة فى البحوث العلمية المتعلقة بدراسة خواص المواد المختلفة وتركيبها الدقيق .

ففى عام ١٨٥٣ ، اكتشف العالم الألمانى (رودلف فيرشو) مادة الميلين "Myelin" التى تغلف الأعصاب . ويعتبر (رودلف فيرشو) أول عالم لاحظ تكون المادة فى طورها البلورى السائلى خلال المجهر البصرى . ولكنه لم يكن فى حينه على يقين أن هذه المادة (الميلين) فى حالتها البلورية السائلة .

وفى عام ١٨٨٨م ، استطاع العالم الألمانى (أوتو ليهمان) المتخصص فى دراسة درجات انصهار المواد من تعريف المادة وهى فى حالتها البلورية السائلة ، خاصة أنه كان على دراية تامة بحالات التبلور فى المادة باستعمال المجهر البسيط. والجدير بالذكر ، أنه خلال هذا الأثناء كان العالم النمساوى (فردريك رينتزين) يحضر بعض المركبات العضوية التى تسمى (بنزوات كوليستريل) ، ولاحظ خصائص غريبة تميز هذه المركبات خاصة بالقرب من درجة انصهارها . إلا أنه كان يعلم فى ذلك الوقت أن هذه المواد النقية قد تتغير من كونها فى الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة عند درجة حرارة خاصة ومميزة . وبطريقة غير مألوفة شاهد (فردريك) أن لهذه المركبات نقطتين للانصهار باختلاف باقى المواد المعروفة . أحدهما عند درجة حرارة ١٤٥,٥° م وتتكون عندها سحب من المركب فى طورها السائلى والأخرى عند درجة حرارة ١٧٨,٥° م وعندها تصبح المادة فى حالة سائلة تمامًا . وعند التبريد تعود المادة لوضعها الطبيعى . وتعاون العالمان فردريك رينتزير وأوتو ليهمان لكشف الغموض فى خواص هذه المواد . وفيما بعد ، توصل أوتو ليهمان أن سبب السحابة السائلية عند درجة الحرارة ١٤٥,٥° م هو تكون طور جديد للمادة والذى سمى بالطور البينى "Mesophase" . واتضح بعد ذلك أن المادة فى هذا الطور البينى يمكنها استقطاب الضوء بعكس السائل العادى الذى يظهر بلون أسود عند مشاهدته خلال مستقطب بصرى . أما المادة فى طورها البينى فتضاء عند مشاهدتها خلال المستقطب البصرى وتظهر بألوان زاهية .

ولكى نتفهم هذه المعانى ، نحن نعلم أن المصادر الضوئية المختلفة مثل الشمس أو المصابيح الكهربائية التقليدية ، فإنها تنتج خليط من الموجات الكهرومغناطيسية التى تتذبذب فى كل الاتجاهات ، فإذا تذبذبت هذه الموجات الضوئية فى مستوى واحد يقال أن الضوء مستقطب . ويمكن للمرء اختيار مستوى محدد للاستقطاب من الحزمة الضوئية ، ويتم ذلك باعتراض الحزمة الضوئية بواسطة ما يسمى بالمستقطب البصرى (مثل قطعة البلوريد التى لا تسمح بمرور جزء من الشعاع الشمسى من الوصول إلى العين) . وفى حالة مرور الضوء المستقطب خلال مستقطب ضوئى آخر يسمى (المحلل الضوئى) فى وضع عمودى على المستقطب الأول ، فلا يمر الضوء ولا يتغير الوضع إلا إذا وضعت مادة شفافة بين المحلل والمستقطب البصريين .

والجدير بالذكر ، أن العالم (أوتو ليهمان) كان على دراية مقدمًا أن المواد الصلبة فى حالتها البلورية تستطيع تغيير مستوى دوران الاستقطاب للضوء ، بحيث تجعل الضوء ينفذ كاملاً خلال المحلل الضوئى (المستقطب الثانى) ، خاصة أن الضوء يتكون من مجال كهرومغناطيسى متذبذب . وعندما تنتقل هذه الموجات عبر المادة البلورية فإنها تجعل إلكترونات المادة تتذبذب ذهابًا وإيابًا . ولكن هذه الاستجابة غير لحظية وقد تبطىء من سرعة انتشار الموجات الضوئية خلال المادة . هذه الظاهرة تسمى (الانكسار الضوئى) . وفى بعض المواد التى تعتمد خصائصها الفيزيائية والكيمائية على ترتيب ذراتها وجزيئاتها ، يكون تأثير التداعى الإلكترونى مختلف باختلاف اتجاهات الاستقطاب الضوئى .

والجدير بالذكر ، أن لسرعة الضوء قيمتين يعتمدان على درجة الاستقطاب الضوئى بالنسبة للبلورة . هذا يؤدى إلى ما يسمى (بالانعكاس الثنائى) التى نشاهدها فى بلورات الكالسيت . وبالطبع التغيير فى معامل الانكسار للبلورات يتأثر أيضا بدوران مستوى الاستقطاب الضوئى مما يجعل الضوء يعبر خلال المحلل الضوئى . والنتيجة هى الحصول على هدب الانكسار الثنائى "Birefringence" بألوان زاهية .

ومن المعروف أن البلورات لها تركيب جزيئى محدد بها كما ذكرنا سلفًا ، يعتمد على تكرار ترتيب الذرات أو الجزيئات ، وهذا عكس ذرات السوائل المختلفة التى ليس لها أى ترتيب . وبالتالى تكون هذه الذرات حرة فى حركتها العشوائية . وللسوائل معامل انكسار واحد ، وهذا يجعلها تظهر سوداء اللون (عاتمة) خلال مشاهدتها من المحلل الضوئى .

ولذلك فقد اندهش كل من فردريك وأوتو ليهمان عندما شاهدوا الهدب الملونة تظهر من المحلل الضوئى عند استعمال مادة بنزوات الكوليستريل السائلة وهى فى طورها البينى . ومنذ ذلك الوقت ، بذلت الجهود المضنية لمعرفة الخصائص الفيزيائية والكيميائية لهذه المواد البلورى السائلة .

والآن ، دعنا نتسائل : كيف برزت أهمية المواد البلورية السائلة ؟

فى عام ١٩٢٤ م ، برزت أهمية المواد البلورية السائلة عندما نجح العالم الألمانى (دانيال فورلاندر) فى تحديد الشكل الجزيئى لمكونات المواد وهى فى حالتها البلورى السائلة . فقد اكتشف (دانيال) أن هذه

الجزيئات تأخذ أشكال تشبه القضيب بدلاً من كونـها كرويـة ، كمـا هـو الحال فى المواد البلورية ، التى تتماسك جزيئاتها معًا فـى مكـان محـدد وتترتب بطريقة خاصة يكون لكل جزىء وضـع خـاص . أمـا الجزيئـات على شكل قضيب بالإضافة أن لها وضع خاص يكـون لهـم جميعًـا نفـس الاتجاه "Orientational order" .

ومـن المعـروف أن البلـورات العاديـة تنصـهر عندمـا تتغلـب الطاقـة الحرارية المؤثرة علـى قـوة الـترابط الجزيئيـة ، وبالتـالى ينكسـر الـترتيب البلورى ويتهدم الـترتيب الجزيئـى المكـانى . عندئـذ تتحـرك الجزيئـات بحرية وبطريقة عشوائية . أما فى حالة الجزيئات القضيبية فقـد تحـدث بها أشياء أخرى . على سبيل المثال ، عند درجة حرارة معينة قد يكـون مقدار الطاقة الحرارية غـير كـافٍ لتغـير القـوى الجزيئيـة المسئولة علـى الترتيب الاتجاهى .

هذا بالطبع ما شهده العالم فردريـك رينـتزير فـى تجربتـه السـابقة ، عندما وجد أن انصهار بلوراته تظهر من خلال سحابة سائلية ، فى هـذه الحالة تكون الجزيئات مخططة لأعلى فـى اتجـاه مـوازى تقريبًـا بعضـها لبعض ولكنها موزعة عشوائيًا فى الفضاء .

والترتيب الاتجاهى فى المادة يمتد ليغطى ملايين الجزيئـات ، وعلـى ذلك فإن توحيد الاتجاه يسمى (الموجـة) . والجديـر بـالذكر ، أن غيـاب الترتيب المكانى للجزيئات يغير من بعض الخواص الفيزيائية مثـل تغيـير قيمة معامل انكسار المادة ، الذى يعتمد فى هذه الحالة على الاتجاه عند

لحظة القياس بالنسبة للموجه . هذا الطور البينى يجعل المادة مرئية عند النظر إليها عبر المحلل الضوئي .

والملاحظ أنه عند زيادة التسخين ، فإن هذا الطور قد يصل إلى درجة تهدم الترتيب الاتجاهي للجزيئات ، فى هذه الحالة تصبح البلورات السائلة مجرد سائل عادى . ولذلك تسمى درجة الحرارة الظاهرية بأنها درجة الحرارة التى تناظر الانتقال من السحابة السائلة إلى السائل الظاهرى .

وعند التبريد ، يحدث عملية عكسية ، حيث ترتب الجزيئات القضيبية فى ترتيب التركيب المائع "Ordered fluid structure" . هذا الترتيب المبسط للبلورات السائلة يسمى الطور النيماتي . وتعتبر مادة بنزوات الكوليستريل نوع خاص من الطور النيماتي الالنطباقي "Chiral nematic phase" .

والانطباقية هنا تعنى أن الجزيئات القضيبية تماثل اليد بدلاً من الشكل المسمارى . ففى حالة الطور النيماتي تستطيع جزيئات المادة من دوران الجزيئات القريبة منها بهدوء . هذه الخاصية تجعل موجة الجزئيات ذاته يلف بطريقة حلزونية . ودورة الدوران الحلزونية الكاملة غالبًا ما تكون بطول الطول الموجى للضوء المرئى . وهذا يعنى أن الطول الموجى المنعكس بواسطة هذا الطور النيماتي يعتمد على عدد الدوران فى الطول المحدد . هذا ما يشابه عدد الخطوط فى المحزوز المستخدم فى عملية الحيود الضوئى التى بواسطتها يمكن تحديد الطول الموجى المنعكس من المحزوز .

وعادة تسمى الأطوار النيماتية (بأطوار الكوليستريل) نظرا لأن هذه الخاصية تم مشاهدتها أول الأمر فى هذه المادة . وحاليا ، يتم إنتاج هذه المواد فى أطوارها الكوليستريلية على مستوى تجارى ، حيث أن انعكاساتها المنتخبة للضوء تكون مرتفعة وتتغير مع تغير درجة الحرارة . ولذلك تستخدم هذه المواد من البلورات السائلة فى صناعة الترمومترات وكذلك فى تغيير ألوان الأجسام الحرارية .

وهناك أنواع أخرى من مواد البلورات السائلة أكثر تعقيدا فى أطوارها . على سبيل المثال ، هناك بعض المواد بتسخين بلوراتها ، فإن ترتيب جزيئاتها المكانى قد لا يتهدم تماما ، بل تتشكل فى طبقات جزيئية ، بحيث تتفاعل الطبقات بعضها مع بعض . مما يجعل هذه الجزيئات تتحرك عشوائيا خلال كل طبقة . هذه الأنواع التى تحفظ الترتيب المكانى للجزيئات تسمى البلورات السائلة السيمكتية "Semctic Liquid Crystals" ، وكلمة (سيمكتيك) مشتقة من اللغة اليونانية القديمة وتعنى محلول الصابون ، وهذا يشرح حقيقة المادة الإنزلاقية .

وفى الحقيقة ، تتواجد أنواع عديدة من البلورات السائلة التى تتضمن طرق مختلفة من الترتيب الجزيئى فى حالة وسط بين الترتيب التام فى الحالة البلورية وعدم الترتيب فى الحالة السائلية . وتمثل هذه التراكيب الجزيئية المعقدة نوع من (العمارة الجزيئية) .

والآن ، وبعد هذه السنين من الجهود المضنية فى مجال البحث والتطوير ، نحن على أعتاب فهم أهمية هذه الأنواع من التأسيس الجزيئى فى الطبيعة . على سبيل المثال ، جزىء الـ د .ن .أ "DNA"

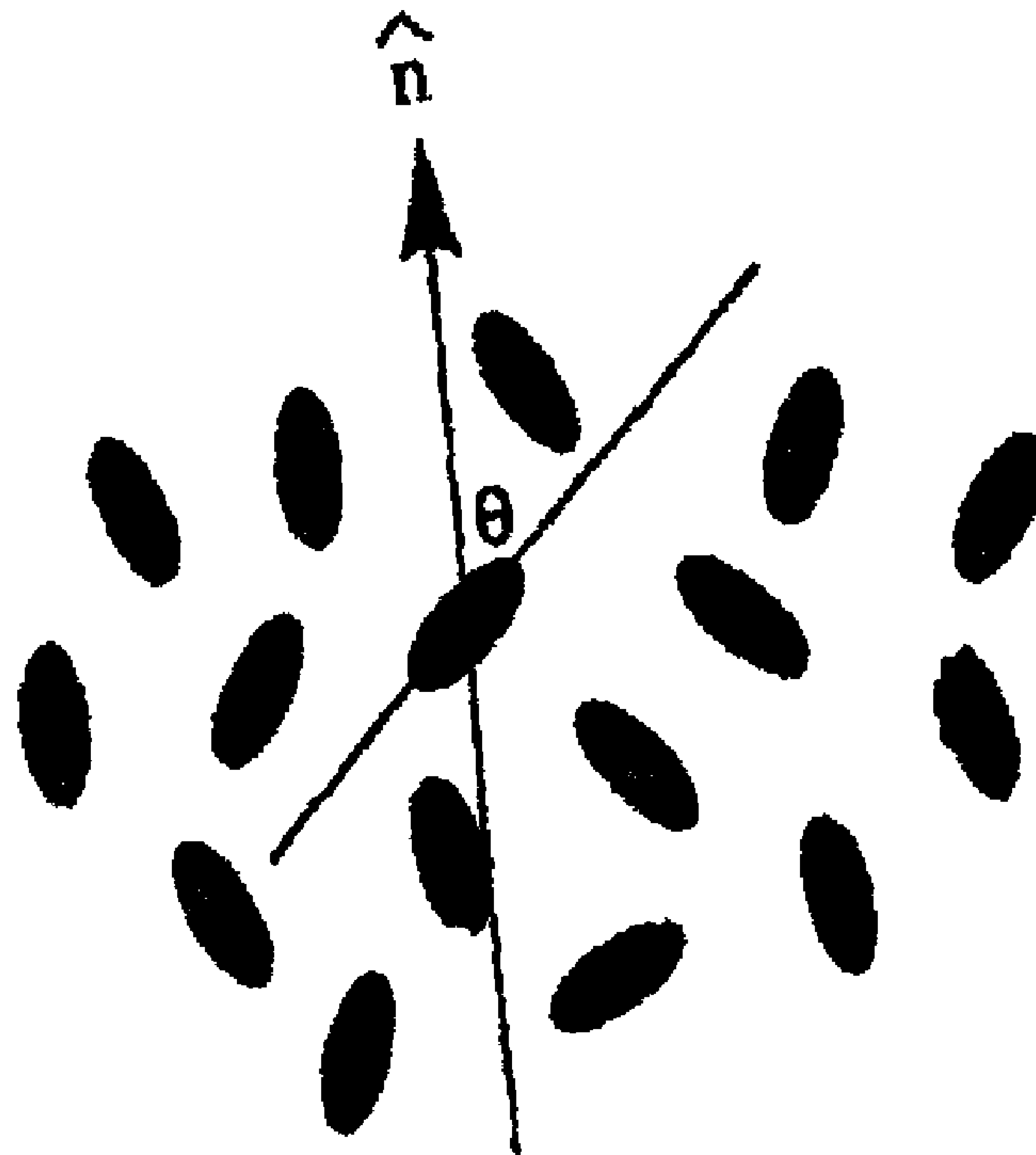
الحامل للشفرة الوراثية للكائنات الحية يمثل الطور النيماتى . والطريقة السهلة المتبعة للتعرف على هذه التراكيب الجزيئية هو دراسة نماذج هدب التداخل تحت مجهر بصرى مستقطب للضوء .

والمواد البلورية السائلة لها العديد من الخصائص المفيدة . على سبيل المثال ، بعض من هذه المواد تتأثر بتطبيق المجالين الكهربائى والمغناطيسى . فى هذه الحالة تعيد المادة اتجاهها الجزيئى بحيث يكون موازيا أو عموديا على اتجاه المجال الخارجى المؤثر . وبالتالى يتغير اتجاه الموجة . وهذا يعنى أن تغيير معامل الانكسار يؤدى إلى تغيرات فى الخواص البصرية للبلورات السائلة ، ولذلك تستخدم هذه المواد فى إنتاج أجهزة العرض المرئية التى تستهلك طاقة أقل بالمقارنة باستخدام الشاشات التى تعتمد على أنابيب الشعاع الكاثودى المعروفة .

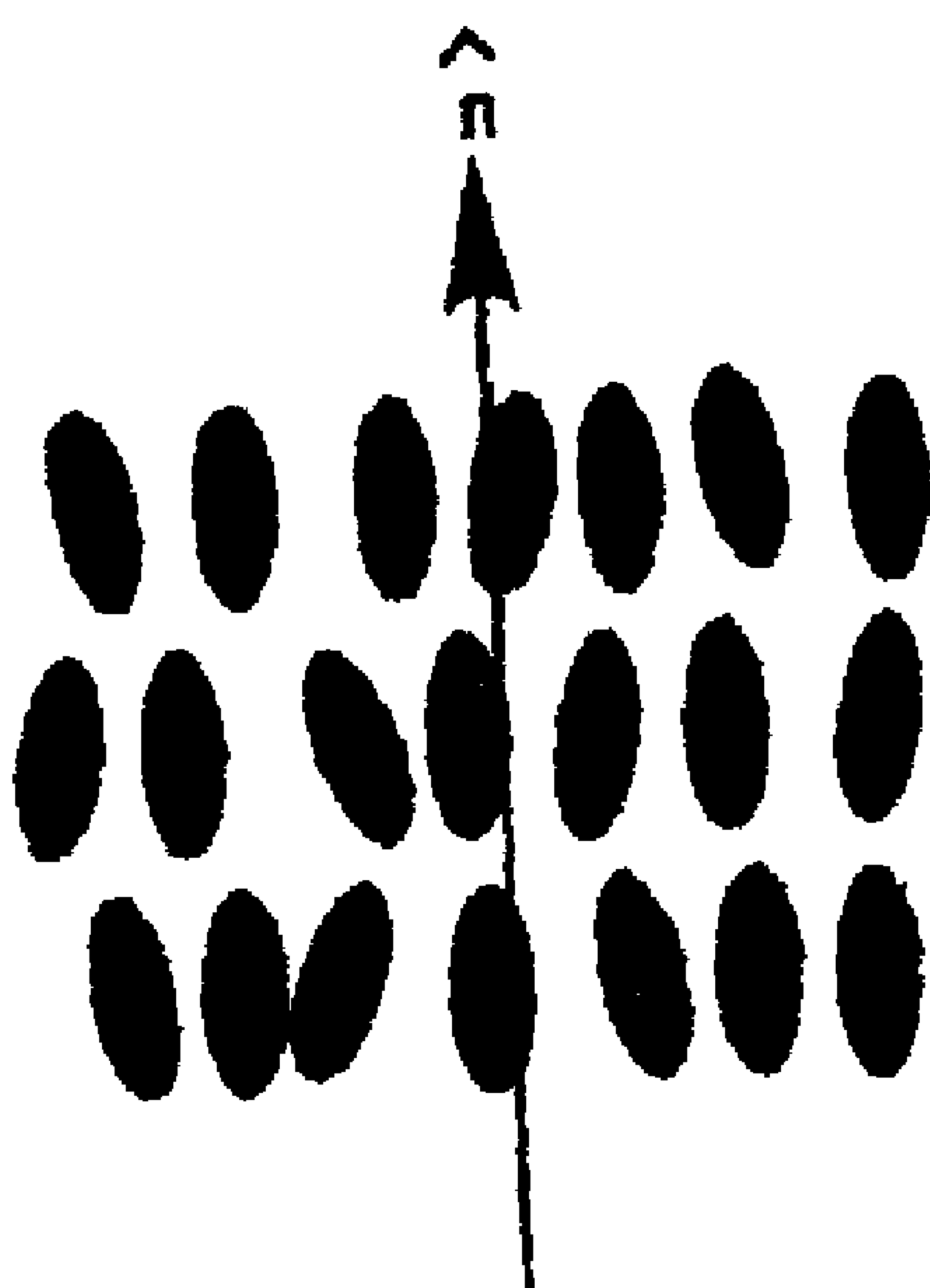
وفى الوقت الحالى ، تم اكتشاف مواد بلورية سائلة فى طورها السيمكتى فيروكهربية "Ferroelectric Smectic Liquid Crystals" . وتستخدم هذه المواد الآن فى صناعة التليفزيونات فائقة الدقة "High Definition Television (HDTV)" .

والآن ، تعتبر الدول المتقدمة تكنولوجيا البلورات السائلة الاستراتيجية مثل التكنولوجيا النووية وتكنولوجيا الليزر من الأسرار العسكرية بها ، خاصة أن هذه المواد تستخدم فى أجهزة الرصد الضوئى وتوليد الضوء المميز والمضمنات البصرية وفى مجال المعلومات وفى الهندسة الوراثية وأجهزة الكمبيوتر فائقة الذاكرة .. وخلافه .

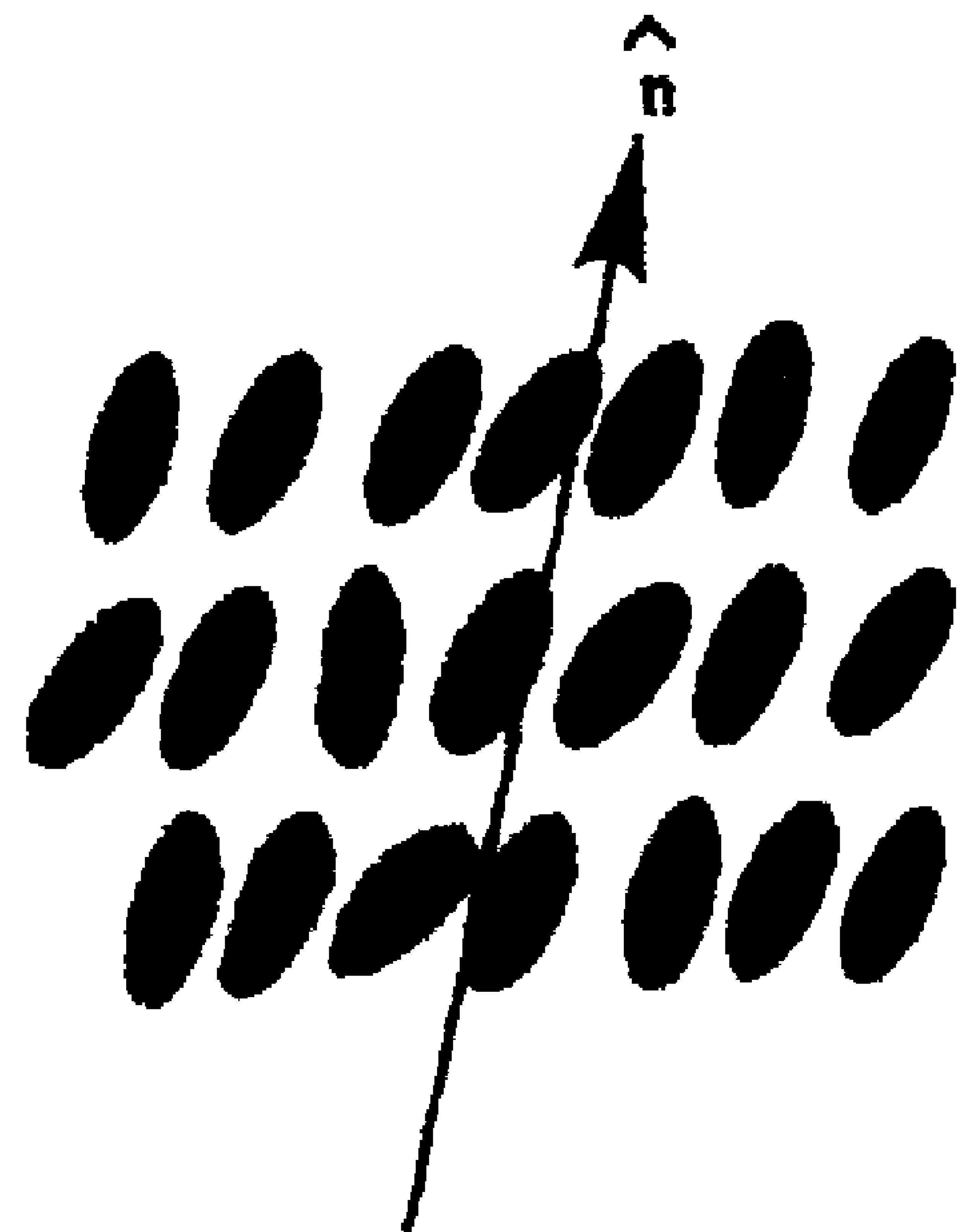
من أجل ذلك ، لابد من تكثيف الجهود وضرورة التنسيق بين العلماء العاملين فى هذا المجال لتعظيم الاستفادة من هذه المواد الاستراتيجية . وكذلك نناشد المسئولين ومخططى نقل التكنولوجيا وصناع القرار بضرورة ، تأسيس كيان علمى لتدعيم القدرات المصرية العلمية والفنية التى تؤهلنا الدخول إلى آفاق العهد الجديد لتكنولوجيا البلورات السائلة .



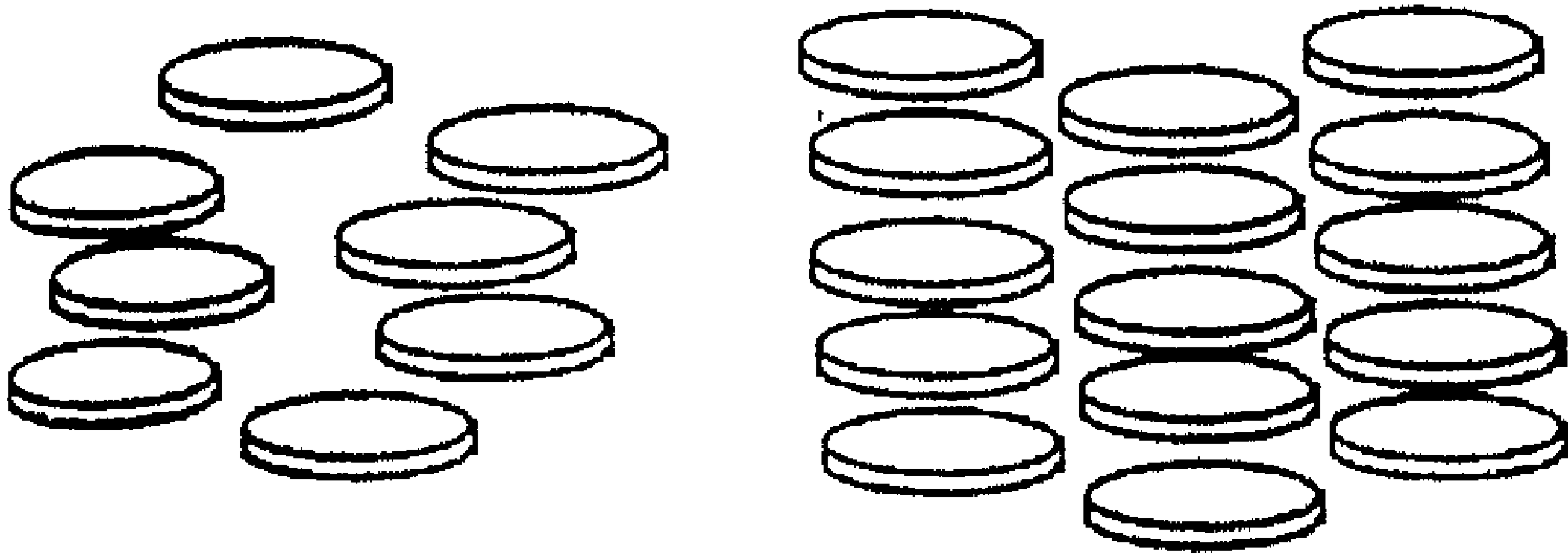
توزيع جزيئى فى الطور النيماتى للبلورات السائلة



توزيع جزيئى فى الطور السمكتى (A)

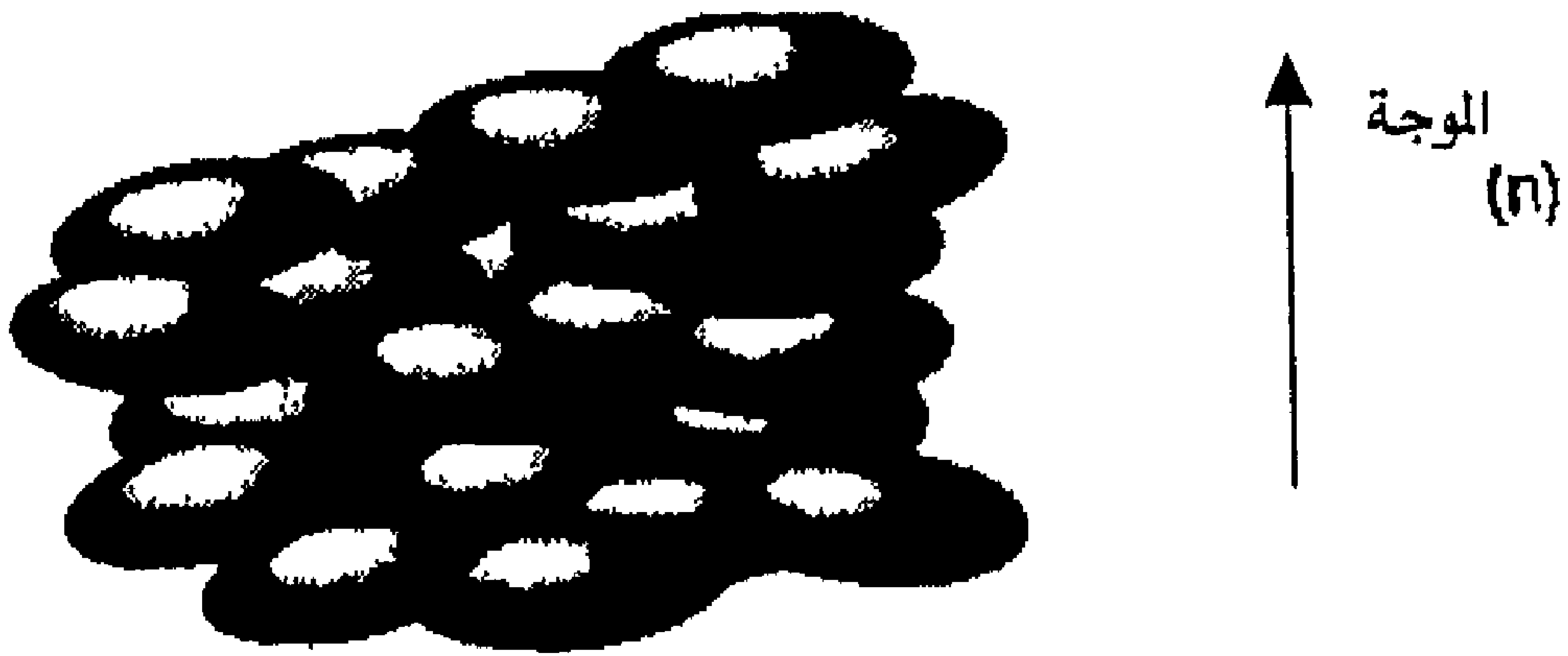


توزيع جزيئى فى الطور السمكتى (C)

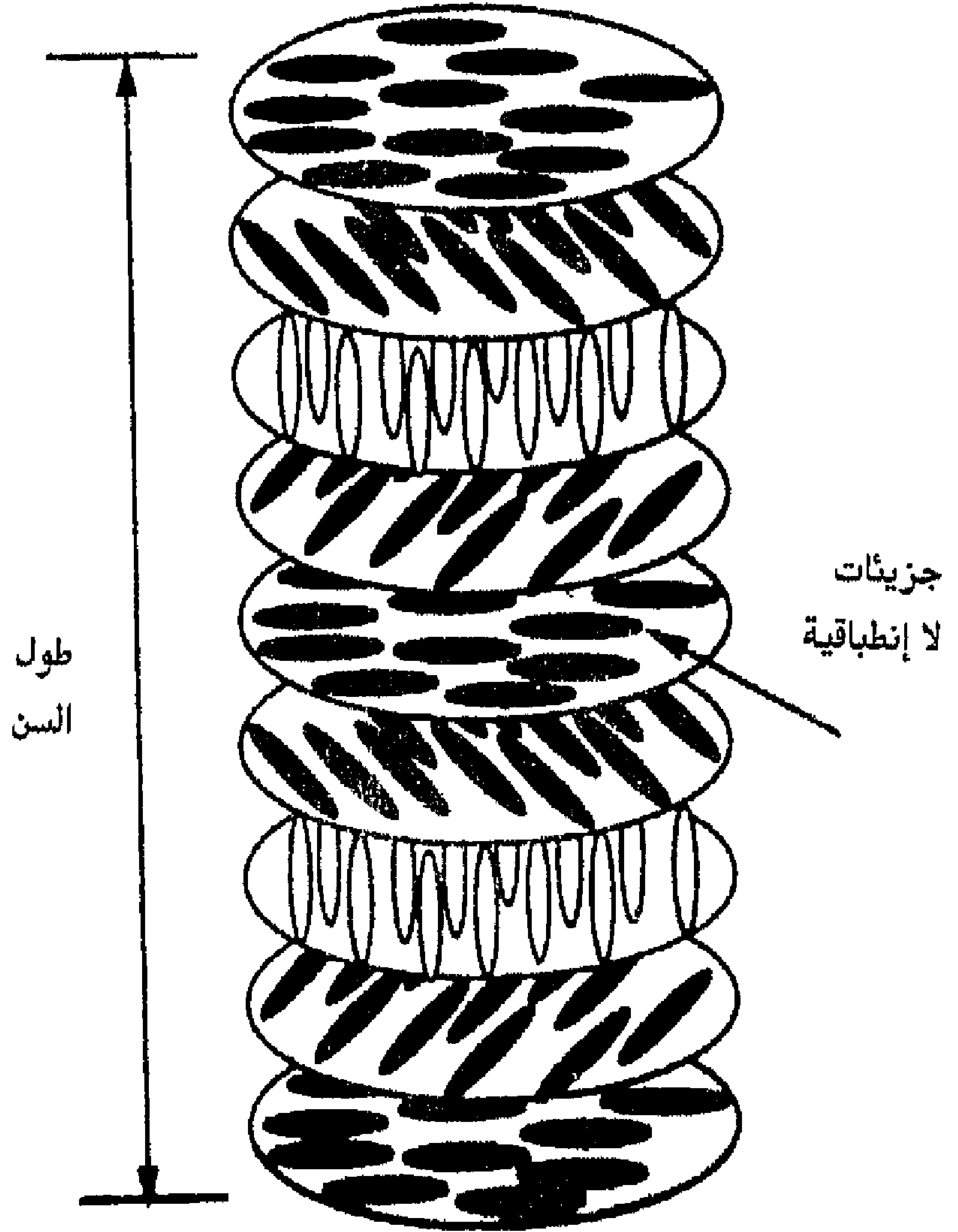


(أ) توزيع جزيئى فى أعمدة للطور النيماتى

(ب) طور نيماتى قرصى



(جـ) توزيع جزيئى قرصى فى الطور النيماتى



طبقات جزيئية فى الطور النيماتى توضح التماثل اللا إنطباقى فى البلورات السائلة

المواد الرخوة

فى عام ١٩٩٦ م ، صدر كتاب علمى بعنوان (المواد الرخوة) "Fragile Matter" تأليف العالمان الفرنسيان بيير ج. دى جين و ج. بادوز. ولد العالم دى جين فى باريس وكان مولعا بدراسة الفيزياء ، حيث حصل على درجة الدكتوراه فلسفة فى الفيزياء عام ١٩٥٧م . وفى بداية حياته العملية اشتغل فى مركز الطاقة الذرية فى مدينة سكلى بفرنسا . وكانت أبحاثه الأولى تتعلق بمجالى التشتت النيترونى والمغناطيسى . وفى عام ١٩٦٨م اتجه إلى تشكيل مجموعة عمل بحثية اهتمت بدراسة الخصائص الفيزيائية والكيمائية للبلورات السائلة . كما اهتم بدراسة خواص البلمرات ودينامية البلل وفيزياء المواد اللاصقة . وفى عام ١٩٩١ ، حصل (دى جين) على جائزة نوبل فى الفيزياء . واشتهرت أبحاثه فى مجال المواد الرخوة . وبعد حصوله على جائزة نوبل ، قامت أندية العلوم والمدارس والاتحادات الطلابية فى مختلف المدن والأقاليم الفرنسية بدعوته لإعطاء بعض المحاضرات وإلقاء الضوء على دور العلم والعلماء فى العالم الحديث . وبعد رحلة طويلة طاف فيها جميع المدن والأقاليم الفرنسية ، قرر (دى جين) إخراج هذا الكتاب بعنوان (المادة الهشة) التى يعالج فيها موضوع المادة الرخوة كعلم صعب واكتشافات مثيرة . وفكرة هذا الكتاب كانت تدور فى خاطره وتسجل المناقشات الحية والأسئلة التلقائية التى تلتها .

والجدير بالذكر أن العالم ج . بادوز الذى درس الفيزياء وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٥٧م ، استمر العمل كباحث فى المعهد القومى للعلوم بمدينة أورساى الفرنسية . وفى عام ١٩٧٢م ، عين مديرًا للمدارس العلمية . وتركزت أبحاثه على التفاعل الضوئى مع المواد الكثيفة ، واهتم كثيرًا بظاهرة الاستقطاب الضوئى .

وبعد حصول العالم (دى جين) على جائزة نوبل ، صاحبه صديقه (بادون) فى زياراته الميدانية إلى المدن والأقاليم الفرنسية ولقاءاته العلمية والثقافية مع طلاب المدارس . واشترك (بادون) مع (دى جين) فى جمع وترتيب الأسئلة والمناقشات التى دارت على مدار عام كامل ، مما أدى إلى إخراج هذا الكتاب .

ويحتوى الكتاب بكل ما تعنيه الكتابة فى مجال تبسيط العلوم ونقل المعرفة على ثلاث أجزاء رئيسية هى : فيزياء المواد الرخوة والبحث العلمى وقضايا التعليم فى النظام الفرنسى .

الجزء الأول ينقسم إلى ثمانى فصول ويعالج قصة اكتشاف المواد الرخوة وشرح التفاصيل العلمية عن أنواعها وسلوكها . وينقسم الجزء الثانى إلى أربعة فصول تتعلق بمهنة البحث العلمى والاكتشافات العلمية والعلم الإيجابى، وكذلك تأثير البيئة والمناخ العلميين . أما الجزء الثالث والأخير فينقسم إلى أربعة فصول يناقش فيها المؤلف قضايا التعليم فى النظام الفرنسى ويسجل رؤيته الشخصية فى أسس التربية من أجل العبور بفرنسا إلى آفاق العالم الواقعى .

وخلال العقود الماضية تعلمنا كيف نتعامل مع مواد مثل البلورات السائلة والجيلاتينات والرغويات والبلمرات وجزيئاتها المعقدة . هذه المواد تسمى (المواد الرخوة) أو (المواد الهشة) في اللغة الفرنسية . هذه المواد ليس لها تركيب اعتيادى يتبع فيه حالات المادة الصلبة والسائلية والغازية . بل هى مواد تركيبها لا يكون صلدًا وتماثلها بلورى فى الحالة الصلبة ، وليس لها تركيب خاص وتتميز بعدم الانتظام مثل الموائع أو الغازات . هذه المواد لها خواص رائعة غير اعتيادية بعضها تتغير لزوجته والبعض الآخر تتشكل طبقاته الجزيئية من بعدين مثل السوائل . بعضها يكون مستقطبا للضوء وجزيئاتها تأخذ نفس الاتجاه بانسجام تام . بعضها يصنع من الرغويات والفقاعات والشموع واللدائن وأشياء أخرى كثيرة مما نستعمله فى حياتنا اليومية .

فى بداية الكتاب يتحدث (دى جين) عن انطباعاته الشخصية عند لقائه بالشباب من طلاب المدارس ومحاولاته الإجابة على أسئلتهم التى كانت حماسية دائما والتى كانت تبدأ عادة بالأسئلة الفنية عن خصائص المطاط وطبيعة الملصقات .. وغير ذلك . ثم تأتى نظرة أوسع شمولية وتتضمن الأسئلة الآتية :

- ما هو المسار الذى يسلكه المرء لاعتناق مهنة البحث العلمى ؟
- هل يتميز العالم الباحث بصفات فريدة ؟
- هل لابد أن يتفوق المرء فى علم الرياضيات ؟
- ما هو حال التعليم فى مدارسنا الفرنسية فى العصر الحديث ؟

وبالتدريج أخذت الأسئلة أبعادا أخرى أكثر عمومية نذكر منها :

- لماذا نتعلم العلوم ؟ وما هى الأفكار الممكنة ؟
- ما هو عالمنا ؟ ومن أين أتينا ؟ وإلى أين نذهب ؟
- هل هناك حياة أخرى فى الكون ؟

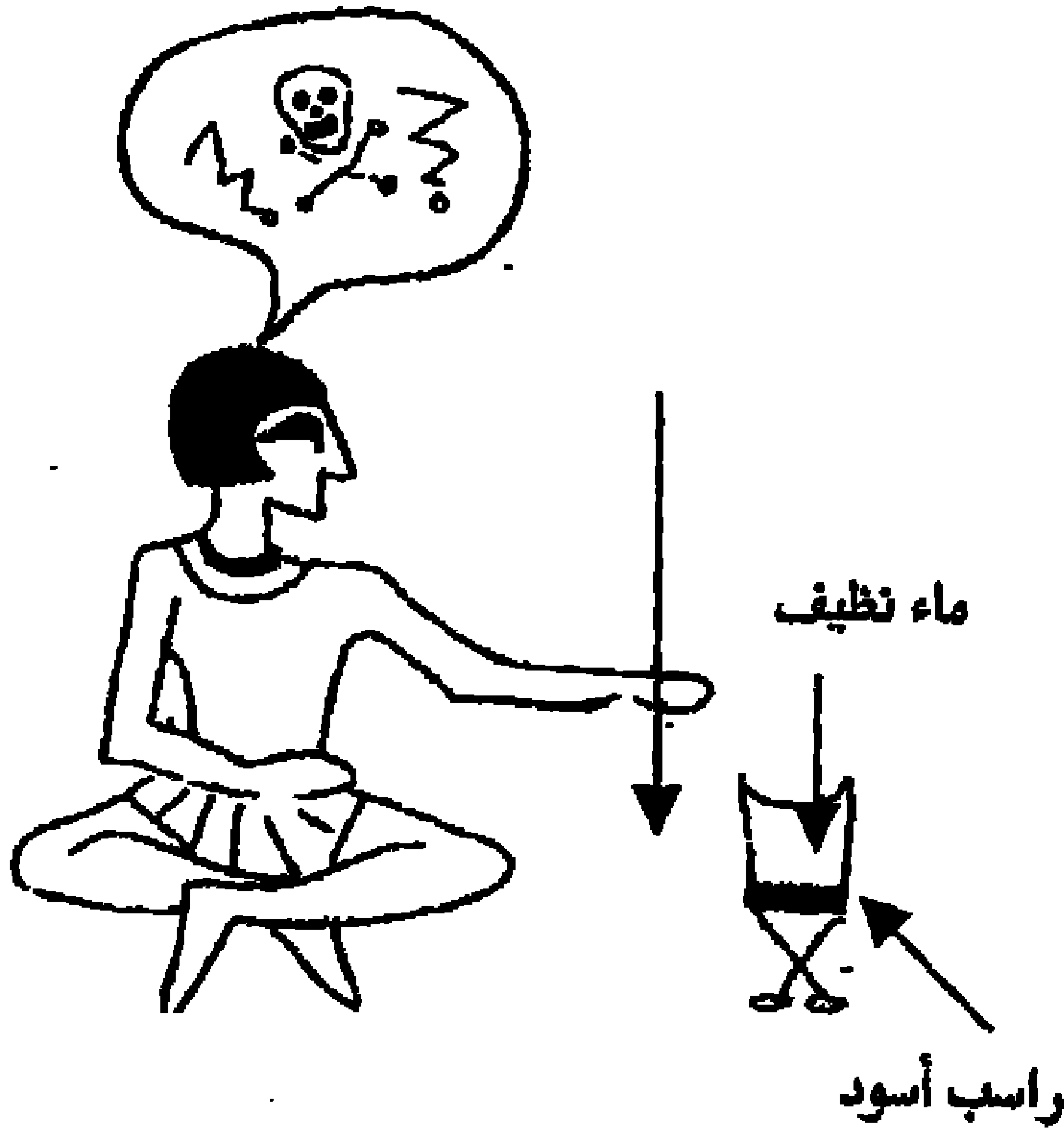
وقد وجد (دى جين) أنه من التحدى أن تواجـه هـذه التساؤلات وأن يجد المرء إجابة مناسبة . ووجد متعة فى معالجة تلك الأسئلة أمام هـذا الحشد الطلابى بحثا عن الحقيقة .

فى الجزء الأول استعرض (دى جين) قصة اكتشاف المطاط الطبيعى منذ اكتشاف الهنود الحمر ببلاد الأمازون لعصائر شجرة الهيفيا وطلاء أرجلهم بها لصنع أحذيتهم . وكيف استطاع العالم الأمريكى (جوديير) فى عام ١٨٣٩م من تفسير تكون المطاط الطبيعى ، بعد تفاعل هذا السائل مع الأكسجين المتواجد فى الهواء . وقد استبدل (جوديير) عنصر الأكسجين بعنصر الكبريت الذى أعطى نتائج مذهلة فى استقرار الخصائص المطاطية . وقد شبه (دى جين) السلوك الكيميائى لجزيئات البلمر المطاطية بالأسباجتى فى الحساء (الأسباجتى المسلوقة) ، حيث أن جزيئات البلمر الطويلة تكون على هيئة جسيمات مرنة . هـذه الفكرة طرحها العالم الألمانى (ريتشارد كوهين) (١٩٠٠ - ١٩٦٧م) وتمكن بذلك من شرح مرونة المطاط العجيبة .

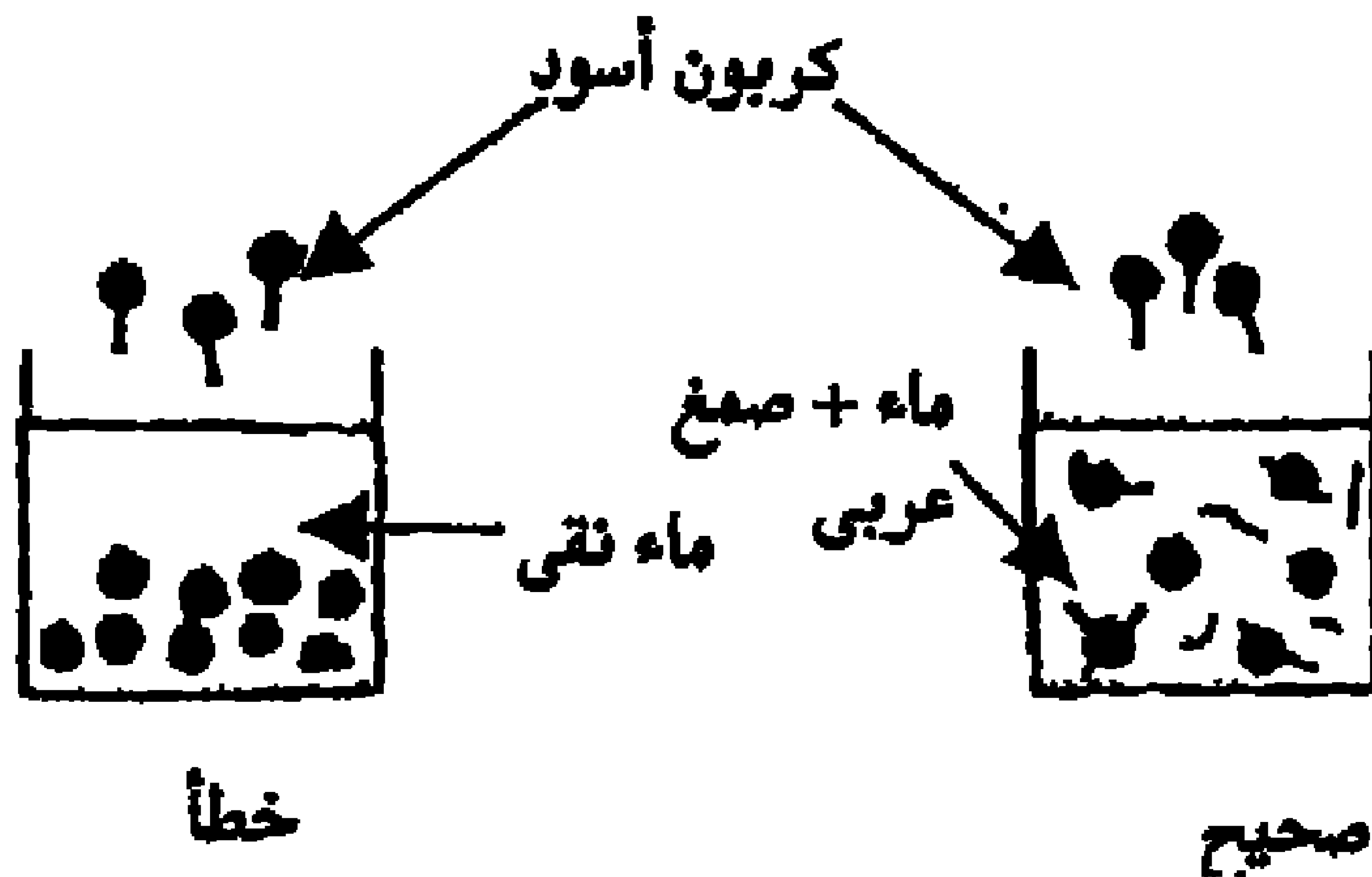
ويعتبر بداية القرن العشرين عصر المبدعين الذين اكتشفوا ميكانيكا الكم التى تصف سلوك الإلكترونات فى الذرات والجزيئات . وبذلك استفاد كوهين من ذلك ووضع قواعد عظيمة لوصف تركيب هـذه الجزيئات ارتبطت باسمه حتى الآن . وقد أوضح (دى جين) كيف أنـه كان متأثرا بفلسفة العالم (كوهين) خاصة بالنسبة إلى إمكانية تغيير مجال الاهتمام

البحثى . وقد استخدم (دى جين) المقولة (أن الحجر المتدحرج لا يجمع الحشائش) ، بالرغم أن هذه الحكمة صحيحة في كل الثقافات لكنها لم تدعم قرار (كوهين) عندما ترك مجال أبحاثه فى الفيزياء الذرية وعمل فى مجال بحوث البلمرات والجزيئات الماكروسكوبية . فكل فرد يزاول مهنة البحث العلمى يعتبر حالة فردية . ومن أجل ذلك طرح (دى جين) بعض الأمثلة من حياته الخاصة . فقد كان فى الفترة من ١٩٦١م إلى ١٩٦٥م شغوفا بدراسة مواد التوصيل الفائق . هذه المعادن كما وصفها عجيبة حقيقة ! فعند كل درجة حرارة منخفضة تحمل تيارا كهربائيا دون أن تفقد أية طاقة . الرصاص والفضة والزئبق تصنف بين هذه المواد . عرفت هذه الظاهرة منذ عام ١٩١١م . وفى عام ١٩٦١ اشتغل (دى جين) فى هذا المجال وكما أعلن بدأ بالمواد السهلة فى التحضير مثل سبيكة قصدير الرصاص . ومع اكتساب الخبرات عمل على أشكال أخرى مثل سبيكة قصدير النيوبيوم . هذه السبيكة هشة نسبيا ومن الصعب سحبها على هيئة أسلاك . وكانت تسبب مشاكل عديدة فى مجال التعدين . وكان التحدى متعلقا بالتحكم بالمجال المغناطيسى المتولد بالمادة بسبب اضطراب فى مرور التيار الكهربائي. بالطبع هذا النوع من التعدين الحساس يتطلب معدات ثقيلة باهظة التكاليف مثل جهاز الميكروسكوب الإلكترونى . فى هذه الحالة يكون أمام المرء اختياران ، إما أن يصبح خبيرا فى التعدين ، وهذا يتطلب مصادر تموين تكفى لبناء المعامل الملائمة أو أن ينشغل (بالعلم الخفيف) بحثا عن نتيجة مميزة . وقد اختار (دى جين) الطريق الأخير.

وتناول (دى جين) موضوع المتعلقات وبدأها بموضوع الكتابة عند قدماء المصريين واللدائن العربية والحبر الصينى ، وبين أن القدماء كانوا فى الكهوف يستعملون السوائل الملونة . والتقنية البسيطة الواضحة هى تذويب بعض المساحيق الملونة فى الماء مثل الكربون الأسود أو الفحم النباتى والأكاسيد البنية والصفراء والحمراء .. إلى آخره . وباستخدام العصى الخشب أو قطع من الجذع أو ريش الطيور وأخيرا القلم المعدنى مع فرشاة الشعر ، يمكن ترسيب الحبر أو الطلاء على شريحة إسفنجية مثل الخشب أو ورق البردى أو الحجر أو الورق . وتعتبر السوائل مفيدة لهذا الغرض ، حيث أنها تبلل وتشبع الشريحة وتسحب منها الحبوب الدقيقة الملونة التى تجف وتصبح صلبة . والصورة التى خطها قدماء المصريين كانوا يستخدمون فيها الحبر الأسود ، وتحضيره باختصار يتم عن طريق استعمال شمعة وترسيب الكربون الناتج على هيئة جسيمات دقيقة تسمى الكربون الأسود ، ثم يوضع هذا الكربون فى الماء ويخضخض بقوة ، ينتج عن ذلك الحبر الأسود . وبين (دى جين) كيف وجد الكاتب المصرى القديم أن هذا الحبر الأسود يصبح عديم اللون والفائدة بعد فترة وجيزة مع تراسيب سوداء فى القاع . وكان عليه أن يعيد العمل مرة أخرى . وفى الألفية الثانية استطاع الكاتب العبقرى من استعمال اللدائن (الصمغ) العربية ووضعها فى المحلول الكربونى الذى لم يترسب فى القاع . ولم يعرف أحد سبب ذلك ولكن كانت النتيجة إنتاج الحبر الأسود المستقر على الأقل لمدة عام كامل .



الطبيعة لا تبتسم دائما : صناعة الحبر عند قدماء المصريين . وعدم وجود عوالق يؤدى إلى فقد التجانس وترسيب الكربون فى قاع الإناء بعد وقت قصير



صناعة الحبر الصينى المستقر بعد إضافة الصمغ العربى كعوالق .. وما زال يستخدم حتى الآن

والفكرة ببساطة تتعلق بتدخل الصمغ العربى فى منع عملية التلبد . فعندما تتصادم ذرات الكربون تتجمع وتكون حبيبات كبيرة تسقط إلى القاع بفعل الجاذبية . أما إضافة الصمغ العربى الذى يتواجد فى شجرة الأكاسيا يحتوى على جزيئات سكر طويلة من حامض بوليهيالورنيك . هذه الجزيئات سرعان ما تتحلل فى الماء وتلتصق بسهولة على حبيبات الكربون وشيئا فشيئا ترتبط الحبيبات بعدد كبير من جزيئات السكر وتخلق ما يشبه غابة من الشعر مثل أكاليل الزهور على سطح الحبيبة ، وعندما تتقارب هذه الأكاليل من الحبيبات تنجذب بعضها لبعض بفعل تأثير الهدرجة ، فإن ترابطهما مع جزيئات الماء يكون أقوى من قوة جذب فان ديرفال وفى النهاية تنشأ قوة تنافر تمنع تقارب حبيبات الكربون . وهكذا نرى كيف تصبح حبيبات الكربون معزولة وتصبح المتعلقات الكربونية أو ما يماثلها مستقرة .

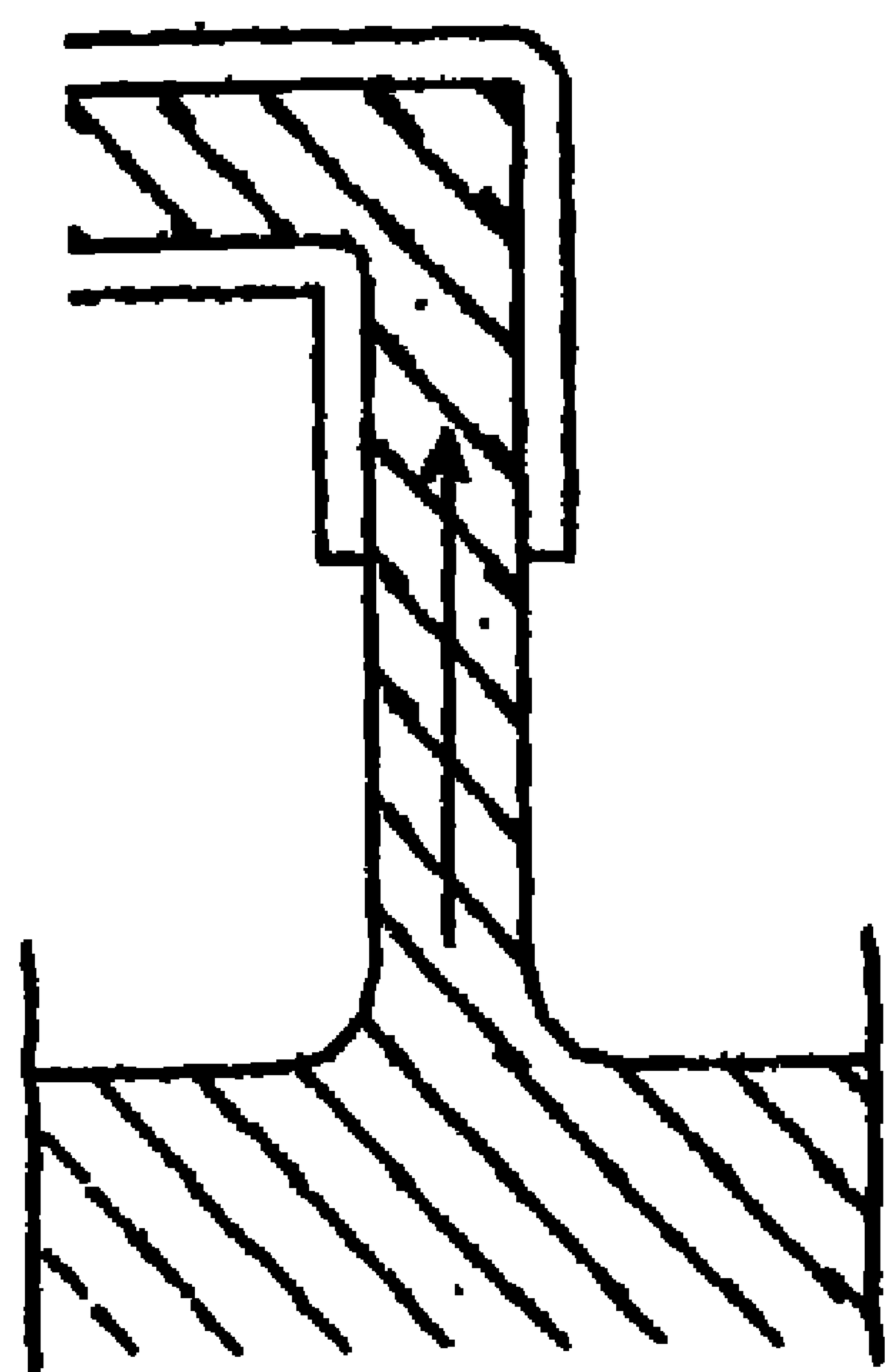
وأستعرض دى جين تأثير المضيفات من جزيئات البلمر فى استقرار الغرويات وبين كيف تلعب دورا مهما فى حياتنا ، حيث أنها تدخل فى كثير من المنتجات الغذائية كالكريم والمسلى الصناعى والمايونيز وكذلك صناعة الزيوت وأدوات التجميل . فمع إضافة قليل من البلمر تتحول المادة إلى ما يسمى بالمواد الرخوة .

وفى الفصل الخامس من الجزء الأول تناول (دى جين) موضوع هام متعلق بمواد البلورات السائلة . فكما تعلمنا فى مراحل التعليم أن المادة تتواجد فى ثلاث حالات مختلفة هى الصلبة والسائلة والغازية . وتكون الذرات فى الحالة الصلبة قريبة جدا من بعضها وتشكل فى شبيكة صلبة

وغالبا تكون الجزيئات لا متناحية (أى متباينة الخواص فى النواحى والاتجاهات) . أما فى الحالة السائلة ، فتتشكل المادة بشكل الإناء ، كما أنها تتغير فى الشكل بالتأثير عليها بقوة ضعيفة . والجزيئات لا متناحية غير ثابتة . وتتأثر حركتها بالحرارة . هذه السوائل تكون فوضوية التوزيع . وفى الحالة الغازية تكون المادة مثل الموائع فوضوية التوزيع وجزيئاتها متباعدة . وعادة تكون كثافة الغازات أصغر من كثافة السوائل . والقوى الجزيئية ضعيفة جدا والقوة المهمة تنتج عن تصادم الجزيئات وهى قوة فان ديرفال .

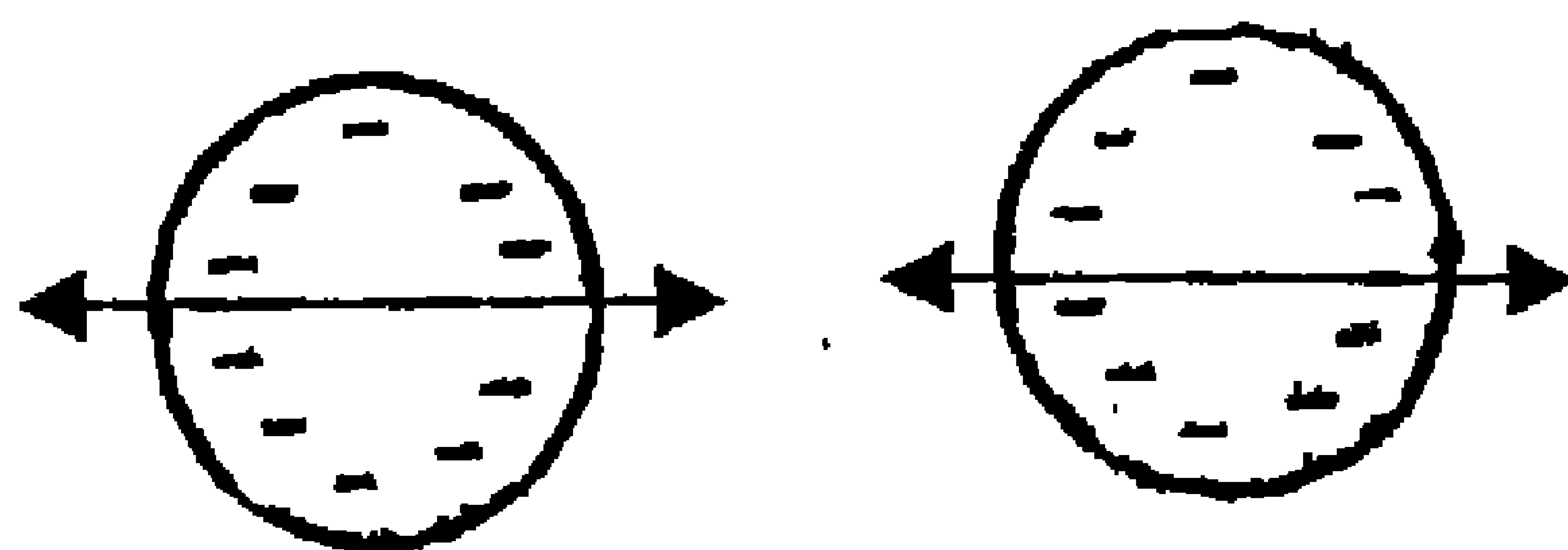
هذا التصور عن حالات المادة بسيط ، ويوجد عدد كبير من الحالات الانتقالية البينية ، تكون فيها المادة بين الحالة السائلة والحالة الصلبة ، على سبيل المثال البلورات السائلة التى اكتشفت منذ قرن من الزمان ، أصبحت منذ عشرين عاما من الموضوعات الهامة وتستخدم الآن فى تطبيقات تكنولوجية عديدة نذكر منها البطاريات متناهية الصغر وشاشات العرض لأجهزة الكمبيوتر . واستعرض (دى جين) الخصائص الكهربائية والبصرية المميزة لمواد البلورات السائلة .

وتعرض الكتاب لموضوع تكنولوجيا البلل ، فمن المعروف أن خصائص الأسطح تلعب دورا عمليا هاما ، وتتضمن العديد من المشاكل الفيزيائية مثل مشاكل التشحيم . فقطرة من الزيت تمنع الباب من الصرصرة أو تسمح لموتور ما بالدوران بسرعات عالية عند درجات حرارة مرتفعة
وهناك نوعان من البلل هما : البلل الجزئى والبلل الكلى . ويعود الفضل إلى دراسة علم البلل إلى كل من العالم الإنجليزى توماس يانج



مـاء + بولوكس (١٠٠ ميليجرام / لتر)

سيفون لا أنيوبى



تنافـر كهروستاتيك

تجاذب فان ديرفال

القوى الجزيئية

(١٧٧٣ - ١٨٢٩م) والعالم الفرنسي بيير سيمون دى لابلاس (١٧٤٩ -١٨٢٧م) . وقد اهتم (دى جين) منذ سنوات بدراسة ظاهرة البلل خاصة عمليات الديناميية وانتشار السوائل بالإضافة إلى التشكيل النهائى للقطرة . وكذلك إجراء بعض البحوث العكسية على ظاهرة عدم البلل . وفى الفصل السابع استعرض (دى جين) موضوع (الفقاعات والرغويات) . وكما قال أن فقاعة الصابون تمثل أطوار الحياة ، فهى تولد وتنمو وتتطور وتشيخ ثم أخيرا تختفى . وظاهرة تكون الفقاعات ترتبط بمعامل التوتر السطحى . وقد أوضح (دى جين) أنه لا توجد حياة بدون المادة الرخوة ، فكل تركيب بيولوجى تحتوى جزيئاته على الشفرة الوراثية والبروتين والأغشية قد تأسست على هذا المفهوم . والفيزياء يمكنها طرح إطار عام ، أما البيولوجيا لها طرق خاصة للمشاهدة والاكتشاف . المادة الحية تعتمد على المبادئ وأسس المادة الرخوة بدقة متناهية والتى غالبا ما تكون وراء ملكوت علماء الفيزياء . وفى الوقت الحالى يشهد علم المواد الرخوة تقدما كبيرا سوف نستفيد منه مستقبلا . وما يهمنا توضيحه هنا هو مساهمة هذا العلم على المستوى الثقافى . فعلم المواد الرخوة يبنى على التجربة والإتقان . على سبيل المثال دعنا نستفيد من حالة البلورات السائلة ومدى التحدى فى التحول الجزيئى الذى يجعل من تطبيقاتها العهد الجديد للتكنولوجيا .

وفى الجزء الثانى من الكتاب ، تناول (دى جين) موضوع البحث العلمى ابتداء من مهنة الباحث وعملية الاكتشاف والعلم الإيجابى . وتبين أن الصورة الشعبية للعلماء فى الغرب غير دقيقة ، حيث يعتبرهم

العامة من الأنبياء . هذه صورة مغلوطة . وأعلن (دى جين) أن مسئولية العلماء الأولى أن يضعوا المعلومات إلى صانع القرار بدون تأخير خاصة عندما يروا أى تطبيق يعالج قضية ما . أما اتخاذ القرار لتطوير التكنولوجيا لا يعود للعلماء ، بل يعود إلى الحكومة والتكنوقراطيين أو الخبراء . وفى النظم الديمقراطية تقع المسئولية فى الاختيار على المواطنين وممثليهم المنتخبين ودور العلماء هو التحذير بأن بعض القرارات يجب أن تتخذ . وأعطى (دى جين) مثل واقعى عندما اكتشف بعض العلماء إمكانية حدوث إنشطار نووى فى عنصر اليورانيوم وتوليد طاقة نووية هائلة ، وكيف استفادت الولايات المتحدة الأمريكية فى صنع أول قنبلة ذرية فى التاريخ والتى فجرتها على مدينتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين وحسمت نتائج الحرب العالمية الثانية .

وفى الفصل الرابع من الجزء الثانى استعرض الكتاب قضايا البيئة والجهل الذى يرتبطان بقضايا العالم المعاصرة من زيادة السكان وعلم البيئة الذى يتأثر بعوامل التلوث وارتفاع درجة حرارة الأرض . واستطرد الحديث عن مشاكل الطاقة والاتجاه إلى توليد الطاقة النووية باستعمال تكنولوجيا المفاعلات النووية .

الآفاق العلمية والتكنولوجية للكربون الجزيئى

اهتم العلماء على مر العصور باكتشاف وتصنيف العناصر المختلفة التى عرفها على كوكب الأرض، والتى وصل عددها حتى الآن مائة وثلاثة عنصرًا. ومازالت الجهود تبذل من أجل اكتشاف المزيد من العناصر للتعرف على خصائصها الفيزيائية والكيميائية الجديدة للاستفادة منها فى التغلب على المشاكل التكنولوجية التى تواجهنا وابتكار مواد جديدة.

والجدير بالذكر، أن عنصر الذهب هو أول عنصر تم فصله من مكوناته الطبيعية فى صورة نقية، واستخدم فى صناعة الحلى. كما يستخدم أيضًا فى بعض التطبيقات المدنية والعسكرية. واكتشف قدماء المصريين عنصر النحاس واستخدموه فى تبطين السفن لمقاومة الأكسدة. ومن المعروف أن عنصر النحاس له تطبيقات تكنولوجية متعددة خاصة أنه عنصر جيد التوصيل للحرارة والكهرباء. ومن المعروف لدينا أن العناصر تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى:

(أ) عناصر فلزية (ب) عناصر لا فلزية (ج) عناصر شبه فلزية

وترتب هذه العناصر طبقًا للتوزيع الإلكترونى بها فى جداول دورية كما هو معمول به فى الجدول الدورى لمنדليف الذى يمثل خواص هذه العناصر أحسن تمثيل.

والكربون هو أحد تلك العناصر الذى يصنف ضمن العناصر اللافلزية. وتتكون نواة ذرة الكربون من اثنى عشر من النيكلونات (ستة بروتونات كل منها مشحون بشحنة موجبة مقدارها ١,٦ × ١٠ $^{-١٩}$ كولوم، وستة نيوترونات متعادلة كهربائيًا) ويحوم حول النواة عدد ستة إلكترونات فى مدارات أساسية وثانوية خاصة. ويلعب عنصر الكربون دورًا هامًا فى حياة الكائنات الحية التى تحصل على حاجتها منه بطريقة مباشرة وغير مباشرة عن طريق غاز ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الجو. على سبيل المثال، تستفيد النباتات من الطاقة الشمسية عن طريق الكلوروفيل الذى يمتص غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يتحد بدوره مع الماء الموجود به لإنتاج السكر، هذه العملية تسمى «التمثيل البنائى الضوئى»، وتتحول السكريات إلى نشا وسليولوز. أما الإنسان والحيوان فيحصلان على الكربون عن طريق استهلاك السكريات والنشا المتوفر فى النباتات أو عن طريق أكل اللحوم.

والجدير بالذكر، أن جميع الكائنات الحية تحصل على الطاقة اللازمة للنمو والتحرك من احتراق مركبات الكربون فى أجسامها مع أكسجين الهواء الجوى، وهكذا هناك دورة يأخذ فيها ثانى أكسيد الكربون من الجو بواسطة النباتات لإتمام عملية التشييد الضوئى، ثم يعود إلى الهواء مرة ثانية بعمليات التنفس للكائنات الحية. ومن المعروف أن الكربون الذى تمتصه النباتات أو يستخدمه الحيوان لا يعود كلية للجو عن طريق التنفس، بل يختزن فى أخشاب النباتات وفى الأصداف الحيوانية التى تفرز بواسطة الحيوانات الأولية.

ويتميز عنصر الكربون بتكوينه لسلاسل جزيئية كربونية أو حلقات لها ثبات واستقرار كبير نتيجة لقوة الروابط بين ذرات الكربون. ولذلك، يتواجد الكربون بصور متعددة أهمها الماس والجرافيت. ويعتبر الماس أكثر كثافة من الجرافيت، ويمكن تحويل الجرافيت إلى ماس باستعمال الضغط العالى ورفع درجة الحرارة لزيادة معدل التحول. ويعتقد أن العمليات الجيولوجية التى حدثت على الأرض على مر العصور قد وفرت مثل تلك الظروف. وفى عام ١٩٥٥م، نجح العلماء فى أول تحضير للماس الصناعى من الجرافيت. وهناك صور أخرى للكربون مثل الفحم والسناج الذى يعتبر بلورات جرافيتية دقيقة.

والجدير بالذكر، أن بلورة الماس تتكون من شبيكة فى الفراغ تترابط بها أربع ذرات من الكربون، ويعتبر ذلك سببًا فى صلابة الماس. أما بلورة الجرافيت فتتكون من شبيكة فى الفراغ تترابط بها ثلاث ذرات من الكربون. ويظهر ترابط الذرات فى صورة حلقات سداسية، كما يكون التركيب على هيئة طبقات.

وخلال العشر سنوات الماضية نجح العلماء فى تصنيع صور كربونية جديدة من أهمها كربون ستين (C_{60})، الذى تتشكل بلورته من ارتباط ستين ذرة كربون على هيئة بالونة كرة القدم.

فيما يلى سنلقى الضوء على قصة اكتشاف المركبات الكربونية الجديدة وخواصها الفيزيائية والكيميائية. يعود الفضل لاكتشاف المركبات الكربونية الجديدة (C_n) التى تتكون من عدد n من الذرات إلى ثلاثة علماء هم البريطانى «كروتو» والأمريكيان «كيرل وسمالى» اللذين حصلوا عام

١٩٩٦م على جائزة نوبل لاكتشافهم هذه المركبات الكربونية الجديدة. والجدير بالذكر، أنه فى عام ١٩٨٥م تم تحضير مركب الكربون ستين لأول مرة وبكميات صغيرة، حيث استعمل الليزر فى وجود غاز خامل لجعل ذرات الكربون فى الحالة البخارية، ثم أمكن تجميع كرات كربونية تحتوى كل منها على ستين ذرة كربون أو أكثر. ففى ذلك الوقت، قام العالمان كروتو وكيرل بزيادة علمية لمعمل العالم «سمالى» بجامعة ريس الأمريكية الذى كان يهتم بتحضير بعض المركبات الكربونية المتجمعة من فصل مكونات المركب الكيميائى كربيد السيليكون $S\ I\ C_2$ مستخدمين أشعة الليزر المنتخبة ذو الطاقة العالية لجعل هذا المركب فى الحالة البخارية. وفى حينه أقترح «كروتو» إمكانية تحضير مركبات كربونية أكثر تعقيدا، باستبدال مركب كربيد السيليكون بالجرافيت الذى قد يؤدى إلى الحصول على مركبات كربونية لها نفس السلوك الكيميائى الحادث فى النجم الكربونى الأحمر العملاق فى مجرتنا الشمسية.

وفى وقت لاحق، سبتمبر ١٩٨٥م، نجح «كورتو» فى تحضير مركب كربون ستين. وتتلخص التجربة بوضع قرص من الجرافيت فى حاضن مفرغ من الهواء ومملوء بغاز الهليوم وبتسليط حزمة منتخبة من الليزر ذو الطاقة العالية أمكن اقتلاع ذرات الكربون من القرص. وتتجمع الذرات المقتلعة مع بعضها لتشكيل جزئيات كربونية مختلفة من ضمنها جزيئات كربون ستين. وتبدو هذه الطريقة سهلة وبسيطة يمكننا من خلالها إنتاج كميات كبيرة من هذه المركبات الكربونية. والجدير بالذكر، أنه يكفى فى هذه التجربة عمل قوس كهربائى بين قطبين من الجرافيت الموجودين

ضمن حاضن به غاز الهليوم، ثم نقوم بجمع السناج المترسب على جدران المفاعل. ويحتوى هذا السناج علـى جزيئـات كافيـة للكشـف عـن C_n ويتم فصل الجزيئات المشكلة عن بعضها (C_{60}، C_{70}، ......) عـن طريـق الفصل الانتقائى أو بواسطة تقنية الكروموتوجرافيا، الأمر الذى يؤدى فـى النهاية إلى نواتج نقية جـدًا مـن الناحيـة الكيميائيـة. وتستخدم تقنيـات مختلفة لدراسة الخصائص الفيزيائية لهذه المركبات مثل: مطيافية الأشعة الضوئية المرئية والأشعة تحت الحمـراء ومطيافيـة رامـان وكذلـك الأشـعة السينية والرنين النووى المغناطيسى.

وبعد ذلك تمكـن العلمـاء الثلاثـة مـن دراسـة الشـكل البلـورى لمركـب الكربون ستين الذى أتضح أنـه علـى شـكل بالونـة كـرة القـدم، وأن هـذا الشكل له اثنين وثلاثون وجهًا، اثنا عشر منها خماسـية الشـكل والبـاقى منها سداسى الشكل، ولهـذا أطلقـوا علـى هـذا المركـب اسـم «الفولريـن» تمجيدًا لذكرى العالم المعمارى الأمريكى "Buckminster Fuller``` الذى صمم عام ١٩٥٠م شكل معمارى على هيئة أوجه خماسية وسداسـية. وقـد اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية هـذا التصميـم الجميـل فـى معرضـها بمونتريال – كندا عام ١٩٦٧.

أوضحت البحوث التى تلت هـذا العمـل أن المركـب الصنـاعى كربـون ستين ليس هو المركب الوحيد، بل توجد العديد المركبات الكربونية التـى تصل عدد ذراتها إلى مائتين وأربعون ذرة كربونية. هذه الجزيئـات عبـارة عن تجمع لجزيئات أصغر منها تتشكل على هيئة أقفاص Cages. ويمكن تحديـد هـذه المركبـات مـن دراسـة أطيافـها الجزيئيـة. خاصـة أطيـاف

الامتصاص للأشعة الضوئية المرئية التى تشاهد فى المجال الواقع بين النجوم والتى ترصد للتحقق من صحة الفروض الموضوعة لمعرفة وفرة هذه الجزيئات فى الكون. ويمكن تقدير كتلة كل نوع من هذه المركبات باستخدام جهاز مطياف الكتلة. والجدير بالذكر، أن جميع هذه المركبات تتكون من ذرات الكربون الطبيعى $^{12}C_6$ الذى وصفناه سلفاً، مع وجود نسبة ضئيلة من نظير الكربون $^{13}C_6$ التى لا تتعدى ١٪.

وللفولرينات تطبيقات تكنولوجية عديدة، ففى المجال الطبى وجد أن مشتقات هذه الفولرينات الذائبة فى الماء ترتبط بالجزء الفعال فى أنزيم فيروس نقص المناعة المعروف باسم (Enzyme HTV-I Protease) ويعمل على تثبيط هذا الأنزيم.

ويختلف هذا المشتق الكربونى عن الدواء المضاد للإيدز والمسمى AZT بأنه فعالا فى حالات الإصابة الحادة وفى حالات الإصابة المزمنة. أما عقار AZT فيكون فعالا فى الحالات الحادة فقط. والمعروف أن الأنزيمات هى نوع من أنواع البروتينات تساعد على إتمام التفاعلات الجينية داخل الجسم.

ويهتم العلماء الفيزيائيون بهذه الجزيئات خاصة من الناحية الإلكترونية والمغناطيسية، حيث تبدو الخواص المغناطيسية مختلفة فى هذه الجزيئات الكربونية وتعتمد على عدد ذرات الكربون المشكلة لها. على سبيل المثال، تزداد القابلية المغناطيسية التى تمثل تجاوب المادة لتأثير المجال المغناطيسى المطبق على مركب الكربون سبعين عنها للكربون ستين بنسبة ٢ : ١.

ومن أهم التطبيقات التكنولوجية لمركبات الفولرينات إمكانية استخدام أملاحها القلوية كموصلات فائقة التوصيل Superconductors. فقد تمكن العلماء مؤخرًا من تحضير ملح فولريد البوتاسيوم K_3C_{60}. هذا المركب له درجة حرارة انتقالية للتوصيل الفائق حددت ب ١٨ كلفن (درجة حرارة مطلقة). أما الملح فولريد السيزيوم Cs_3C_{60} يكون له درجة حرارة انتقالية عند ٤٠ كلفن وكذلك فولرينات الروبديوم والسيزيوم Cs_2RbC_{60} فيكون له درجة حرارة انتقالية مقدارها ٣٣ كلفن. وهذه الدرجات الحرارية تقترب جميعها من درجة الحرارة التى مقدارها ٧٧ كلفن التى تجعل المواد عندها مناسبة للتطبيقات التى تعتمد على التوصيل الفائق. ومن المعروف أن ظاهرة التوصيل الفائق تحدث عند درجات الحرارة المنخفضة، حيث تكتسب بعض المواد هذه الخاصية وتصبح مقاومتها صفرًا عند درجة حرارة معينة. وبالتالى يمكن أن يسرى التيار الكهربائى بصورة مستمرة داخل حلقة فائقة التوصيل حتى فى غياب مصدر التيار. وتستخدم هذه المواد عادة فى صنع المغانط القوية التى تعتمد عليها التكنولوجيا الطبية فى صناعة أجهزة التصوير الطبى الرنينى وكذلك فى معامل أبحاث الطاقات العالية. ومن أهم المشاكل التى تواجه العلماء هى أن مركبات الفولرين تتأثر أنشطتها فى الهواء، ويفقد معظمها خاصية التوصيل الفائق.

وهناك تطبيقات أخرى عديدة للفولرينات منها عمليات التشحيم والتزييت، حيث تستخدم جزيئات الكربون ستين كمدرجات كروية صغيرة. كما تستعمل هذه المركبات الكربونية كمواد حافزة للتفاعلات الكيميائية الضوئية.

أما المركبات الناتجة عن هدرجة أو فلورة جزىء كربون ستين مثـل: $C_{60}F_{36}, C_{60}H_{36}$ فتعتبر عناصر مواد أولية لأنها تملـك اسـتقرار بينـى أمـام درجـات الحـرارة المرتفعـة تصـل إلى ٥٠٠ – ٦٠٠ درجـــة مئويـــة. وحاليًا، يمكن الحصول على جزيئات من المركبات $C_{60}M^{P+}$، حيـث تمثل P عدد صحيح و M تمثل ذرة معدنية مثل ذرة اللنتان أو البوتاسيوم مغلقة ضمن الشكل الكروى للكربون ستين. وطبقًا لاختيار العنصر المعدنـى M يمكن الحصول على مواد جديدة بخواص معدلة. خاصة أن هذه المـواد ذو استقرار حرارى وخواصها الإلكترونية والمغناطيسية تدخـل فـى مجـال تكنولوجيا البطاريات فائقة الدقة.

والسؤال الهام الذى يطرح نفسه، هل تتواجد هذه المركبات الكربونيـة الاستراتيجية فى الطبيعة؟

حتى الآن لا توجد تأكيدات على تواجد هذه المركبات الكربونيـة فـى الطبيعة بـالرغم مـن اكتشـاف العلمـاء لبعـض طبقـات الجرافيـت بمدينـة كارلين بروسيا تحتوى على بعض الفولرينات، إلا أن هذه النتائج تحتـاج إلى تأكيدات معملية دقيقة. وكما ذكرنا سـلفًا، تتكـون الفولرينـات تحـت ظـروف خاصـة وبكميـــات قليلـــة جـــدًا عنـــد الاحـــتراق غـــير الكـــامل للهيدروكربونات. وحتى لو تكونت الفولرينات فى الطبيعة بأى شكل مـن الأشـكال فـإن التفـاعلات الفوتوكيميائيـة والأكســـيجينية يتســببان فـــى تكسيرها.

مما سبق، نستطيع أن نفهم اهتمام الـدول المتقدمـة وتوفيرهـا للأمـوال اللازمة وتكثيف البحوث فى مجال تصنيع الفولرينات للاستفادة بها فـى

تنمية الأهداف المدنية والعسكرية. ونشهد فى الوقت الحالى سباق محموم بين الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية والدول الأوربية مثل فرنسا وألمانيا وكذلك اليابان والصين من ناحية أخرى بغرض تطوير مجال التصنيع التجارى لهذه المركبات الكربونية.

فهل آن الأوان الآن لتجمع عربى فى مجال تطوير البحوث العلمية المستقبلية وتأسيس المجمع العربى «الأراب – أتوم» (ARAB-ATOM) يكون من أهم أهدافه السيطرة وتسخير إمكانيات الذرة فى المجالات العلمية المستقبلية ومن أهمها تصنيع المركبات الفولرينية. هذا هو المراد للحاق بالآفاق العلمية والتكنولوجية للأمم فى القرن الحادى والعشرين.

الفصل الثالث

آفاق مستقبلية للعلم

- مستقبل المحيطات
- الهيدروجين البديل الأمثل للطاقة فى القرن المقبل
- الهيدروجين حامل الطاقة

مستقبل المحيطات سلمًا وحربًا

خلال السنوات القليلة الماضية ومنذ انتهاء حرب الخليج الثانية وتحرير دولة الكويت عام ١٩٩١م لاحظنا أنشطة حربية مكثفة في مياه وأعماق البحار والمحيطات من قبل جيوش عديدة من الدول العظمى والدول الصغرى على حدٍ سواء. ولعلنا نتذكر ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية عندما أطلقت بعض من صواريخ من طراز كروز الموجهة بأشعة الليزر من إحدى البوارج العسكرية الموجودة في البحر الأحمر ومدى قدرتها الفائقة على إصابة أهدافها في قلب العاصمة بغداد وتدمير مبنى المخابرات العراقية وما نراه الآن من دقة الإصابة للصواريخ بحر – جو لحلف الناتو التى تطلق من البوارج في البحرين المتوسط والأدرياتيكي في جمهورية الصرب والجبل الأسود. وكيف قامت القوات الأمريكية بإطلاق صواريخها من أعماق البحار لتدمير قواعد بعض التجمعات العسكرية في كل من أفغانستان والسودان بعد حادثي تفجير سفاراتي الولايات المتحدة الأمريكية في كل من كينيا وتنزانيا.

إن ما يجعل البحار والمحيطات جذابة إلى حد كبير للاستراتيجيين هو أن السلاح المغمور بالماء لا يمكن كشفه لأول وهلة، وأن أجهزة الكشف الكهرومغناطيسية الشائعة ذات مدى محدودا جدا في البحار. والجهاز الوحيد الذى يستطيع الكشف إلى مدى معين هو «السونار» (جهاز لاكتشاف الأهداف تحت الماء بواسطة الموجات الصوتية)، الذى يكشف

الأشياء المغمورة بواسطة الانعكاس أو ببث موجات صوتية. ولكننا نجد أن الغواصات النووية التى تمتلك أجهزتها مقاومة السونار لدرجة أصبحت معها الحرب المضادة للغواصات كابوسًا للتقنيين المضطرين لاستغلال السونار إلى أقصى حد.

ولكى نجرى تقديرًا لمستقبل الحروب فى أعماق المحيطات، نتناول فيما يلى بعض مظاهر العلوم الأوشيانوغرافيا (علوم المحيطات) ومعرفة تطورها. فليس هناك مجال عسكرى آخر غير المحيطات تؤثر فيه البيئة بمثل هذا التعقيد على شكل العمليات وطبيعتها. والمثل التقليدى الذى يبرهن على هذا هو «التدخل البيولوجى». فتدخل حيوان ما أو نبات ما فى الجو أو فى الأرض على عملية من العمليات العسكرية أمر نادر. أما فى البحر، فإن انعدام مثل هذا التدخل بأجسام تعكس موجات السونار مثلا هو الأمر الغريب.

إن علم المحيطات اليوم يتقدم تقدما كبيرا خاصة أن بعض الخصائص المميزة للمحيطات معروفة وقابلة للتحليل والتوقع. ومازالت بعض الخصائص تحتاج إلى الكشف عنها. وهذا يعتبر تحديا مستقبليا للعسكريين ومصدر اهتمام الخبراء التكنولوجيين. والجدير بالذكر أن كل الاكتشافات فى مجال الصوتيات الأساسية الصالحة للتطبيق فى مجال العمليات (سواء مع الغواصة أو ضدها) هى فى الأساس نتائج ثانوية للبحوث الأوشيانوغرافية قامت بها هيئات غير حكومية لمختبرات الجامعات الكبرى فى بعض الدول. وأن آثار التغيرات الشديدة فى الحرارة على موجات السونار بين طبقات الماء المختلفة وطبقة الانتشار

البيولوجى وقناة نقل الأصوات بالعمق والموجات الداخليــة تحـت السـطح أمثلة كثيرة للبرهان على ذلك.

وقد بدأ الإنسان التعرف على الظهور الصوتى لرواسـب أعمـاق البحـار بصورة أوضح، كمـا أن تغـير الرواسـب جغرافيًـا يلعـب دورًا حاسمًـا فـى تطوير السونار وتطوير استخدامه، بحيث ارتبطت التوقعات العسكرية إلى حد كبير بكشف أكثر الأعماق عمقًا للأحــواض المحيطيـة. وأن تعقيـدات أعماق البحار وطبوغرافيتها العامة ستقدم فــى المسـتقبل مزيـدًا مـن الأمـن للغواصات التى ستعمل فى الأعماق الكـبرى. وقديمًـا كـانت الحـرب فـى أعماق البحار تتضمن تقريبًا إغلاق الطرق البحرية فى وجه قوافل التمويـن المعادية فقط. وكان مفهوم السيطرة البحرية مقتصرا على هذا الطابع فقط، ولم ينظر إلى مسألة السـيطرة علـى الأعمـاق نظـرة جديـة. ولهـذا أسـباب عديـدة نذكـر منـهـا أن النقـل الاســتراتيجى للرجــال والعتــاد بواسـطة الغواصـات يبـدو أمـرا لا يمكـن التفكـير فيـه. وكـان وقتـها المنـع المطلـق والشامل لكل نشاط تحت سطح البحر يبدو مسـتحيلا، سـواء مـن وجهـة النظر التكنولوجية أو من وجهة النظـر السياسـية. وكـان مجمـوع النشـاط البحرى حينئذ تافها وضعيفا.

وخلال الربع الأخير من القرن العشرين بدأت حملة عالميـة لاسـتخدام كل موارد كوكب الأرض بما فيها المــوارد الموجـودة فـى الأجـزاء المغمـورة بالمياه. من هنا يمكننا القول أن الحرب البحريـة العظمـى المقبلـة سـترتبط بالتقدم الذى سـتحققه التكنولوجيـا العسـكرية والمدنيـة المسـتندة إلى علـم المحيطات. وفيما يتعلق بــالتقدم المدنـى، فـإن احتمالاتـه مـا زالـت أقـل

وضوحًا. وقد اتخذت كل دولة من الدول المتقدمة تدابير تكنولوجية خاصة على مستوى جهازها التنفيذى ومجلسها النيابى. وتلعب الأمم المتحدة بواسطة «الأونيسكو» والمنظمات الأخرى المتخصصة دورًا نشيطًا جدًا فى محاولات إقامة تعاون دولى فى هذا الميدان. وتنقسم هذه الأنشطة إلى ثلاثة مجموعات هى:

١ – مسائل تطوير الصيد.

٢ – حقوق الصيد فى المياه الإقليمية.

٣ – زيادة توفير البروتينات لحاجات السكان فى الكرة الأرضية بواسطة مصائد العالم كله.

٤ – استخراج الثروات المعدنية للمسطحات القارية وأعماق المحيط.

وهذه النقطة الأخيرة هى التى تستطيع أن تدخل فى المستقبل طابعا جديدا فى التقنية الجديدة.

وخلال حقبتى الستينات والسبعينات من هذا القرن ازدادت الاكتشافات البحرية لتجد فيه مناجم معدنية، تلى ذلك مرحلة وضع أجهزة الاستخراج وتلاها أخيرا مرحلة الاستغلال الفعلى لمناجم الأعماق. بالطبع هذا التطور هو تطور تكنولوجى كبير يمتزج دائما مع التكنولوجيا العسكرية. وفى هذه المرحلة تقوم كثير من الدول باستثمارات هامة لأعماق المحيطات، سواء فى أعماق المحيط أو على كل المستويات الوسيطة الموجودة فوق منشأته، وسيعمل كثير من الناس على كل هذه المستويات. وبالطبع التنبؤ بالمسائل القانونية المنظمة للعمل الدولى تعتبر شبه

مستحيلة. ولذلك سيكون لهذه الاستثمارات الضخمة أهدافًا عسكرية رائعة ومصدرًا دائمًا للاحتكاكات والمزايدات الدولية ومركز اهتمام قوى للاستراتيجيين البحريين.

وفى الوقت الحالى تشيد الدول المتقدمة ما يسمى «بحقول العوامات» التى تلعب دورا هاما من حيث التنبؤات الجوية والتحكم بالأحوال الجوية. وستستفيد المنشآت المدنية الكبرى الأخرى من خزانات الحرارة هذه التى تمثل فوارق الحرارة بين أعماق البحر وسطحه. وتزود هذه المنشآت بالمفاعلات النووية لمضاعفة قوة التشغيل وإمكانية استعمالها فى إنتاج الماء العذب وإزالة ملوحة مياه البحر.

فى الوقت الحالى، تزداد سيطرة الدول العظمى على بحار ومحيطات العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ودولة روسيا والصين والهند، وذلك بنشر مجموعات كبيرة من الغواصات والمدمرات وحاملات الطائرات بما يتعدى ٢٠٠٠٠ (عشرون ألف) سفينة من كل نوع. وقد برهنت الولايات المتحدة الأمريكية حديثا على قدرتها فى إمكانية التدخل السريع فى أى مكان من العالم وفى أى وقت تشاء كوريا – الهند الصينية – لبنان – الخليج العربى – سانت دومينيك – كوبا – قناتى السويس وبناما ومؤخرا فى دول البلقان. كما أن القوات البحرية الأمريكية بالتعاون مع القوة الجوية ساهمت فى خلق قوة ردع نووى مقنعة للخصوم.

ولعلنا نتذكر أن الأسطول البحرى السوفيتى «قبل التفكك» كان يعتبر ثانى قوة بحرية، وكان قادرا على مطاردة الأسطول الأمريكى وإعاقة مناوراته البحرية بصورة جدية خاصة عندما نجح خلال الحرب

الإسرائيلية – العربية عام ١٩٦٧م فى ممارسة نوع من الرقابة الدبلوماسية على هذا الأسطول فى البحر الأبيض المتوسط.

والآن تتطور تكنولوجيا الغواصات النووية فى العديد من الدول مثل روسيا والصين والهند والتى تنافس مثيلاتها الأمريكية. وتتطور الآن وبشكل متسارع تكنولوجيا الأعماق البحرية التى تعتمد على القدرة للغوص إلى الأعماق الكبرى بواسطة الغواصات المطاردة التى يطلق عليها اسم «الصياد القاتل» التى ينبغى أن تكون مستعدة للذهاب إلى أى مكان للبحث عن هدفها. هذه الغواصة قد تكون مسكونة أو غير مسكونة، وقد تستخدم فى الأغراض العسكرية والمدنية. وتحتوى هذه الغواصات على أجهزة كشف واتصالات بالغة الدقة مما يفقد أهمية أجهزة السونار التقليدية. ونظرا لأن الغواصات الجديدة تعمل على مسافة بعيدة جدا من مستوى سطح البحر فلابد إذن من تطوير وسائل الاتصال. ونظرا للعمق الكبير الذى ستغوص فيه تحت سطح البحر لابد من تزويدها بجهاز دفاعى معقد ضد الأسلحة المعادية.

وكما نرى الآن، ستبقى الغواصات الحاملة للصواريخ أخطر سفينة حربية فى البحار وستوفر التكنولوجيا الحديثة أساطيل من هذا النوع وإرسالها إلى كل المحيطات. وستكون صواريخها قادرة على بلوغ أية نقطة فى العالم. وسيزيد هذا الانتشار الأمن بالتوافق مع زيادة عمق العمليات وسيزيد بالتالى من قيمة أسلوب الردع بنسب غير محددة. وبالمقابل لن يمتلك قائد الغواصة البيئة البحرية لنفسه وحده، إذ عليه مستقبلا وفى زمن السلم اقتسام المحيط لا مع السفن التجارية وأساطيل

الصيد المزودة بأدوات مختلفة فحسب، بل اقتسام المحيط أيضا مع المنشآت القائمة فى الأعماق من كل الأنواع. بعضها بلا شك مخافر عسكرية. هذه المنشآت ستشكل مصدرا ممتازا للمعلومات عن أنشطة الغواصات المعادية.

والجدير بالذكر، أن سفينة السطح تعتبر بالنسبة للغواصة هدفا وخطرا فى الوقت ذاته. وتتطلب الحلول المقبلة للمسألة التقليدية المتضمنة المحافظة على حرية الطرق البحرية قبالة هجمات الغواصات تبديلات تكنولوجية هائلة على السطح. وتمثل السرعة المتزايدة للغواصة خطرا أكبر على سفينة السطح وتجعل الغواصة أقل تعرضا. وبوسعنا إذن أن نفكر بأن هذا التطور إذا ما أضيف إليه تقدم الصواريخ سطح – سطح، فإنه من شأنه أن يمنع استخدام سفن النقل العادية للبحر فى زمن الحرب وستغلق الطرق البحرية نهائيا، إلا مع ظهور سفن سريعة جدا كالقارب الطائر أو المركب ذى الفقاعات. أن المراكب المذكورة تستطيع العمل فى البحار العالية بسرعة ١٠٠ عقدة (١٨٥ كم/ساعة) وتتسع ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) برميل تقريبا. وتقلل هذه السرعة الكبيرة جدا بالمقارنة مع سرعة الطوربيد والغواصة خسائر السفن التجارية إذا ما تعرضت لها زوارق الطوربيد. وتجعل استخدام صواريخ سطح – سطح أقل فاعلية. إلا أن تكلفة النقل ستكون أعلى فى زمن السلم بالمقارنة بسعر النقل بالمراكب العادية. وبالطبع هناك كمية كبيرة من البضائع تتطلب شحنها ونقلها سرعة أكبر لتبرير تكلفة أسطول خاص من السفن له أثر سفن السطح.

وفى الوقت الحالى تعتمد قوات الإنزال البرمائية على هذه السفن السريعة التى غيرت من مفهوم الانقضاض تغييرا جذريا. كما أنها

تستخدم لمطاردة الغواصات وتزود بأجهزة اتصال حديثة. ولذلك فإن القرن القادم سوف يشهد اعتماد الجميع على هذه السفن الخاصة في القوات المسلحة والعمليات البحرية، نظرا لوزن التسليح والعتاد الذى يمكنها نقله. وسيكون السلاح المتميز في المستقبل للمطاردة نموذجا جديدا من الطائرة القادرة على التحليق في الجو لعدة أيام دون التزود بالوقود وتستخدم في تأمين الاتصال مع الغواصات والمحافظة على الاتصال لمدة غير محدودة.

وبالنسبة لحاملات الطائرات فيتوقع أن تتطور أيضا بصورة بالغة التعقيد وتزيد من سرعتها. وستكون أقل حاجة لنقل طائرات بأجنحة ثابتة لمطاردة الغواصات المضادة. وبالرغم أن قانص الغواصات ذا أثر السطح والطائرة الأوشيانوغرافية يميلان إلى تقليص دور حاملة الطائرات في هذا المجال إلا أن حاملة الطائرات بالمقابل التى تسير بسرعة ١٠٠ عقدة في الساعة تقدم اختيارا أكبر لطائرات العمليات. ولكن هذا الدور سيتأثر بالتطوير المحتمل لطائرات الهليكوبتر التى تقلع عموديا والتى تعمل بدءًا من قواعد ثابتة، عندئذٍ ترتبط المسألة بالقواعد العسكرية في البلدان الأجنبية. وفي المستقبل قد تلجأ الدول العظمى إلى بناء قواعد عائمة جبارة كحل نهائي موزعة حسب خطة شاملة تتحدى الرياح والتيارات وتؤمن في الأماكن الاستراتيجية حماية مع الوقت أقل تكلفة من القواعد الحالية أو حاملات الطائرات. ومهما يكن هذا المشروع معقدًا إلا أنه قريب من ناحية التصميم مع تكنولوجيا التنقيب عن البترول واستخراجه من أعماق البحار. وهذا بالطبع سيقلل من عوامل الاحتكاك الدولى. إن أهم خاصية للعمليات في الأعماق هى سريتها. ولكى نحافظ

عليها ونعززها لابد من إخضاع القواعد البحرية لتبدلات هامة. وفى الحقيقة لن تقع هذه القواعد على الشواطئ، إذ ينبغى بناؤها على حافة المسطحات القارية أو على منحدر هام وأن ترتبط بالشاطئ بشبكة مواصلات وشبكة نقل كاملتين. إن مثل هذه المنشآت الواقعة فى عرض البحار على العتبة القارية هى التى ستجلب الأمن المطلوب. وستتم عمليات الشؤون الإدارية الطبيعية بما فيها تبديل رجال القاعدة بعيدا عن الشاطئ. وستمون مراكز السيطرة التكنولوجية ومراكز الاتصال والقيادة بصورة فعالة، كما ستختفى الغواصة ذاتها. ويعتمد نظام القيادة والإشراف العسكريين على الاتصال بواسطة الأقمار الصناعية مع عناصر متحركة ومع حقول أدوات الكشف الموزعة عبر المحيط أيضًا. وسيكون هناك إسهام متواصل بالمعلومات عن البيئة المحيطية وعن كل ما تحتويه من سفن ومنشآت على السطح أو فى الأعماق. وبناء على ذلك فإن تعبير الحرب المضادة للغواصات أو تعبير حرب الغواصات ذاته لن يكون لها أى معنى فى القرن القادم. ويؤدى تطور حاملات الطائرات الجديدة وسفن السطح الأخرى وتقدم التكنولوجيا فى التكيف مع البيئة بدءًا من أعماق المحيط إلى سطحه وإلى الجو القريب منه إلى مفهوم جديد للحرب البحرية الشاملة تشتبك فيه كل العناصر فى الوقت ذاته.

وبالرغم من وجود نظام قوى لجمع المعلومات يوجد هناك خلل خطير، فقد تثير الحرب المحدودة فى نظام بالغ التعقيد نشاطًا بحريًا قد يهدد أمن جهاز الردع النووى. فإذا نظرنا إلى التسعينات من القرن العشرين نرى أن التكنولوجيا المدنية فى أعماق البحار تنتشر بسرعة بين كل الدول لتشمل أصغرها، وتنخفض تكلفة هذه العمليات لدرجة يكون

معها عدد كبير من الشركات الصغرى قادرا على الشروع فيها. وبما أن الحدود القومية المحيطية ليست معرفة تماما، فإن الأجهزة الاستراتيجية هى التى قد تتعرض لكثير من المخاطر. ومن الممكن أن تكون النتيجة تبدلا مفاجئا فى سياسة الدول الكبرى. فمن الممكن أن تضم أجزاء هائلة من المحيط إليها وتتبع سياسة الأمر الواقع، وتعزلها لخدمة أغراضها الاستراتيجية الخاصة - نظرا لأن حق المرور الحيادى سيكون محدودا بالسطح. ونجد هنا أثرا جديا للتكنولوجيا ولا نجد كثير من الحلول التبادلية، إلا التخلى التام عن المحيطات كاحتياط استراتيجى. أما فيما يتعلق ببناء القواعد الجوية العائمة الجبارة فستقودنا إلى البحث عن وسائل الحماية التى تؤول إلى منع السفن الأجنبية من عبور مناطق واسعة فى المحيطات بالرغم من حقوق المرور التقليدية.

أن الحرب البحرية المستقبلية ستتطور بصورة أكثر تماسكا من الحروب الأخرى نظرا لأن الحدود القومية المحيطية التى تساعد على احتواء الأنشطة الحربية فى إطار تقليدى لن تلعب فيها أى دور. وقد كان دور المحيطات فى الماضى، خلافا لصيد الأسماك هو دور نظام واسع لنقل الرجال والسلاح وللتجارة ولوسائل منع التجارة. وقد خلق تطور استراتيجية أعماق البحار إمكانية استغلال الأحواض المحيطية، صناعيا وعسكريا هدفا جديدا هو امتلاك المحيطات والسيطرة عليها.

وسيعيد السباق على هذا الامتلاك والتكنولوجيا التى ترافقه الحرب البحرية لأصولها البدائية - أى السيطرة الاقتصادية لأغنى الدول - وستكون تكلفة هذه العملية باهظة جدا حتى لو قارنا هذا بتكلفة برامج

الفضاء المرتفعة فسيعتبر ثمن التطويرات الأولى لتكنولوجيا الأعماق باهظا جدا.

وأخيرا لابد من فتح حوار دولى واسع تحت إشراف منظمة الأمم المتحدة لتنظيم استغلال أعماق البحار بين جميع الدول ولا يغفل حقوق الدول الصغرى فى المستقبل خاصة أن الـ ٧٠٪ من مساحة الكرة الأرضية وهى المحيطات والبحار تحتوى على ثروات هائلة تكفى إذا ما أحسن استغلالها إلى توفير الأمن والسلام والرخاء للجميع استنادا إلى اعتبارات مختلفة تمام الاختلاف عن الاعتبارات التى تنطبق على الـ ٣٠٪ الباقية التى تمثل اليابسة.

ويمكن لبدء هذا الحوار عقد مؤتمر دولى تحت عنوان «الاستخدام الأمثل لأعماق المحيطات وأمن الأرض» يحضره ممثلو الدول وجميع الهيئات العلمية المتخصصة والمنظمات والجمعيات الأهلية يكون من أهم أهدافه وضع دستور أخلاقى لأمن المحيطات وتوزيع الثروات.

الهيدروجين البديل الأمثل للطاقة في القرن المقبل

تعتبر الفترة الحالية أهم فترات التاريخ إثارة . الحياة المعاصرة شهدت تطورات كثيرة مبهرة منها على سبيل المثال ، ثورة الاتصالات وتغير نمط الحياة المنزلية والاعتماد على الأجهزة الإلكترونية الدقيقة في مجال الطب والتشخيص والعلاج ، وأيضا في مجال الميكنة الزراعية وتحديث وسائل جديدة لزيادة الإنتاج الصناعي . وتطلع البشرية دائما إلى المستقبل بغرض البحث عن حياة أفضل للأجيال القادمة وتوفير مصادر للطاقة النظيفة . وفي الوقت الحالي يبذل العلماء الجهود المضنية من أجل إيجاد بدائل للطاقة للحفاظ على استمرار التقدم العلمي والتكنولوجي ، حيث تشير الدراسات إلى أن مصادر الطاقة التقليدية الحالية ، كالبترول والفحم توشك على النفاذ خلال القرن القادم . ومن ثم يعكف العلماء على إجراء تجاربهم على استخدام مصادر جديدة للطاقة واستغلال الطبيعة من قوة الرياح والأمواج وسقوط المياه في الشلالات ، وكذلك الحرارة الكامنة في باطن الأرض واستخلاص الطاقة الشمسية من أغوار الفضاء ، إلا أن هناك العديد من المشاكل التي نواجهها في هذا المجال منها على سبيل المثال التكاليف الباهظة ومخاطر تلوث البيئة .

وهنا سوف نلقي الضوء على الأبعاد المستقبلية لاستخراج الطاقة من النباتات والاعتماد على غاز الهيدروجين كحامل للطاقة النظيفة .

ففى مجال استخدام النبات كمصدر للطاقة يجب العثور على نباتات المواد العضوية عالية الطاقة سهلة الاستخراج ، من هذه النباتات يمكن الحصول على نواتج هيدروكربونية أو زيتية ، وفى بعض النباتات يمكن الحصول على مواد أخرى مثل البروتين والألياف . ومن أساليب معرفة نباتات الطاقة يقوم العلماء والخبراء بما يلى : زراعة النبات وحصده كاملا خلال موسم حمله للثمار ، ثم ترك النبات ليجف حتى يصبح كالهشيم ، ثم استخلاص النبات بمحلول الاسيتون ، ومن ثم فصل المواد المذابة فى الاستيون إلى قسمين بتجزئتها بين مذيب الهكسان والكحول المائى ، وتذوب عادة الزيوت النباتية فى محلول الهكسان أما تلك التى لا تذوب فى محلول الكحول المائى فتحتوى على الفينولات ومتعدد الفينولات التى تنتجها الشجرة ، ثم استخراج الهيدروكربونات التى تحتوى على صمغ ومطاط وكيماويات أخرى ـ وتعد شجرة السماق من أهم أنواع النباتات التى تعتبر مصدرا للطاقة الكيميائية، وهى شجرة خشبية معمرة ولكنها مصدر ممتاز لمتعدد الفينولات بما فى ذلك التأنينات التى تستعمل فى صناعة الجلود أو اللاصق بقليل من المعالجة الكيميائية ، وكذلك كالدائن للاستعمال فى الصناعات الخشبية . والتوسع فى زراعة هذا النبات فى المستقبل ستكون جدواه الاقتصادية أكبر من زراعة القمح أو فول الصويا .

نباتات الطاقة

١ - نبات الفربيون Euphorbia

هذا النوع من النباتات يشمل النوع من جنس الهيفيا التي يستخرج منها المطاط. وفي دراسة أجريت مؤخرا في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية على أحد أنواع الفربيون ، حيث جففت الشجرة حتى أصبحت نسبة الرطوبة فيها ٤٪ ، واستخلصت بعد سحقها بمذيب الهبتان المغلى لمدة ثمانى ساعات . والمادة التى استخلصت أعطت بعد فصلها بالتقطير زيتا ثقيلا بمحتوى حرارى مقداره ٤٢ كيلو جول للغرام . وهذا الزيت يشبه النفط الذى يعطى ٤٤ كيلو جول لكل غرام . ولقد استخلص ٣٠٪ من وزن الشجرة الجاف في محلول المثيل المغلى لمدة ثمانى ساعات ، ووجد أن ٧٧٪ من هذه المادة تذوب فى الماء لتعطى السكريات التى يمكن تخميرها لإنتاج الكحول ، وما تبقى من العملية كلها يمكن حرقه لإنتاج الطاقة الكهربائية .

٢ - الغابة كمصدر للطاقة

منذ قديم الزمان اعتمد الإنسان فى الطهى والتدفئة على الخشب ، وما زال حتى الآن للخشب دور هام فى مجال الطاقة . فنرى على سبيل المثال أن ٩٦٪ من الطاقة المستهلكة فى تنزانيا هى من الخشب وكذلك ٣٠٪ من طاقة شبة القارة الهندية . والجدير بالذكر أن الغابات تغطى

عشر مساحة سطح الأرض ، وأن الخشب يمثل نصف طاقة الكتلة البيولوجية التى تحصل عليها الأرض وكوسيلة للوفاء بالمتطلبات يجب زراعة الغابات بالأشجار سريعة النمو .

ومن المعروف أن أكثر محاصيل الطاقة شيوعا فى العالم العربى هى حطب الوقود . وأن أغلبية أشجار الوقود التى تنمو فى البيئة العربية تتمتع بمواصفات جيدة من ناحية إعطاء إنتاجية معقولة ، إذا ما زرعت بطريقة مكثفة ، وأنها شديدة القدرة على الاحتمال وتقاوم الأمراض الشائعة والحشرات والأجواء المناخية القاسية .

٣ - زيت زهرة عباد الشمس

فى جنوب أفريقيا أجريت تجارب مكثفة على زيت زهرة عباد الشمس . ويتوقع الخبراء استخدامه كبديل للبترول خاصة فى مجال تسيير المركبات . وأكدت التجارب أن معظم الجرارات يمكن إدارتها بهذا الزيت وبدون إدخال أى تعديلات على آلات الجرار . كما أن كمية زيت عباد الشمس المستخدمة لن تزيد كثيرا عن الكمية نفسها من زيت البترول لتسيير الجرار المسافة نفسها ، ومن المتوقع أن تتساوى أسعار زيت عباد الشمس مع أسعار البترول . ولذلك سيجد هذا الزيت طريقا نحو الاستخدام واسع النطاق ، خاصة لو تمكن الخبراء من خفض أسعاره والتوسع فى زراعة نبات عباد الشمس واستنباط أنواع جديدة منه لتساير الإنتاج الاقتصادى لهذا المحصول الحيوى .

٤ - الطحالب

تغطى المحيطات ٧٠٪ من سطح الكرة الأرضية ، وقد بدأ العمل فى التفكير فى المحيطات كمصادر للمواد الأولية وكمصادر للطاقة مع بوادر نضوب الموارد الطبيعية على اليابسة ومع تفاقم أزمة الطاقة . ولعل معدلات نمو بعض الطحالب الضخمة قد دفع بمحاولات جادة لزراعتها فى المحيط . وحاليا ، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة فى ولاية كاليفورنيا مشروعا تجريبيا لزراعة الطحالب البحرية الجبارة على مساحة ربع فدان في المحيط وكانت النتائج مشجعة ، ويأمل الخبراء أن تحل الطحالب المختبرة في المستقبل عن طريق زراعتها فى مساحات كبيرة تبلغ ٤٦٠ ميلا مربعا داخل مياه المحيط إلى إنتاج كميات كبيرة من الغاز الطبيعة تساوى الكمية التى تستهلكها كل الولايات المتحدة الأمريكية مجتمعة .

ويمكن أن تجمع الطحالب وتجفف وتستعمل فى تغذية الطيور والماشية وتستعمل كأسمدة وكنوع من الوقود . كما تستخرج منها بعض العناصر النافعة كاليود والحديد والكالسيوم وغيرها من مواد الطلاء والدواء .

والجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٤٩ م قدر العالم جافرون المحصول السنوى المائى للطحالب من نوع (كلوريللا) فى مساحة فدان واحد حوالى خمسين طنا من الوزن الجاف نصفها من البروتين وتحتوى على ١٠٪ دهونا . وهذا المحصول يزيد عدة أضاعف على أى محصول زراعى جزيل

العطاء ، كما أجرت ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية بعض التجارب على بعض أنواع الطحالب التى تنتج الدهون ، خصوصا بعض الأنواع الخضراء . ووجد أن من بين الطحالب أنواعا مثل كلوريللا وسينودزمس تدر الدهون بوفرة . وهذا يجعل من عملية استزراع الطحالب مشروعا مربحا يستدعي أن يخطط من أجله برامج للاستثمار وترصد له الأموال لشحذ الهمم والالتفات إلى البحار والمحيطات لحل مشكلتى الطاقة والغذاء .

٥ - الهرمونات النباتية

لقد عكس التطور الرائع فى العلوم الطبيعية نفسه على العلوم التطبيقية، وهكذا نرى ازدهار العلوم الزراعية فى ظل تقدم علم الكيمياء . وباستعمال الهرمونات النباتية يمكن أن تجرى عمليات استنباط طبيعى كانت تستغرق عدة سنوات خلال بضع دقائق وتحدث ثورة فى الإنتاجية والأرباح والزراعة . ولعل مستقبل الشجرة كمصدر للطاقة باهر ومشرق بعد أن توصل العلماء إلى ما يشبه المعجزة فى دراسة الهرمونات وأثرها فى النباتات .

إن للسماد والرى والمبيدات الحشرية ومبيدات الحشائش أثر فى النبات ، ولكن للهرمونات أثارا أخرى عجيبة ومكاسب جديدة . فقد تؤدى مجموعة من الهرمونات إلى نمو الجذور ، وقد تؤدى مجموعة أخرى منها إلى نمو الساق ، ومجموعة أخرى تؤدى إلى تساقط الثمار ، ومجموعة خاصة تؤدى إلى مكافحة الحشرات الضارة .

والجدير بالذكر ، أن أول مجموعة من الهرمونات النباتية تم التعرف عليها هى ما يعرف باسم (الأكسجين) الذى ينتج الأوراق وقمم الأغصان . وقد وجد أن هذا الهرمون يشجع أجزاء النباتات المختلفة على النمو والنضج بمعدلات مناسبة ومعاونا على تكوين البراعم ومانعا لتساقط الأوراق بصفة نهائية . كذلك يؤثر الضوء فى نمو النبات من خلال طائفة من الهرمونات تسمى هرمونات (الجبريللينات) . وتؤتى الهرمونات ثمارها الملموسة فى مجالات كثيرة مثل تحسين الثمار وسرعة الاستنباط ووفرة الإنتاج .

٦ - نباتات الطاقة

هناك العديد من نباتات الطاقة التى أعطت نتائج مشجعة نذكر منها الأنواع الآتية : نبات الحور Poplar ، ونبات ايكاليبتص Eucalyptus ، ونبات جار المار Alder ، وشجرة الحور القطنى Cotton wood ، وشجرة الجميز Sycamore . وقد ثبت أن شجرة ايكاليبتص الأسرع نموا ، ويعتمد اختيار الشجرة المطلوبة على عدة عوامل منها المناخ والمنطقة والعوامل البيئية الأخرى .

٧ - الوقود السائل

يتكون الجزء الأكبر من الأشجار سريعة النمو فى الغابات من الهيدركربونات وخاصة السيليلوز . وتعتمد برامج استخدام الكتلة البيولوجية على حرق الكتلة البيولوجية الناتجة ، لإنتاج بخار يستعمل فى تحريك توربينات لإنتاج الطاقة الكهربائية . والجدير بالذكر أن العديد من الدول تعتمد فى تسيير المركبات والسيارات على

الهيدروكربونات السائلة ، إضافة إلى أن العمليات الصناعية الكيميائية في حاجة للهيدروكربونات السائلة كمادة أولية ، لذلك يبحث العالم اليوم عن مصادر جديدة للهيدروكربونات السائلة . ولعل الأشجار تحقق في المستقبل مصدرا بديلا لهذه الهيدروكربونات .

والبديل الأمثل لتحويل الهيدروكربونات من النباتات الخضراء إلى وقود سائل هو استخدام نباتات تقوم بهذا التحويل بطريقة حيوية . ولعل شجرة مطاط (الهيفيا) Hevea هي أحسن أنواع الشجر وتنتج كميات ضخمة من الهيدروكربونات التي يستخدمها الإنسان . ويستخرج المطاط أيضا من شجرة جويلا Guayule . كما تنتج نباتات كثيرة معروفة بذورا زيتية تستعمل عادة للأكل مثل النخيل Plam Trees والقطن وبذر اللفت Rape Seed والقرطم أو العصفور Saffower والذرة الشامية Maize وكذلك الفول السوداني Peanut وغيرها كثير . ويمكن استعمال جميع الزيوت الناتجة كوقود بديل للديزل ، إضافة إلى استعمالها كمادة غذائية .

وهناك أشجار تنتج مواد زيتية في جذورها مباشرة يمكن استعمالها كوقود ديزل مثل أشجار الكبيبة Copaifera التي تنمو في المناطق الاستوائية خاصة في البرازيل . ويستخرج من هذه الأشجار زيوت ذات وزن جزيئي منخفض ، ويتم ذلك بعمل فتحة في جذعها مباشرة ، ويستعمل هذا الزيت مباشرة كبديل لزيت الديزل في مكائن الاحتراق الداخلي .

٨ - إنتاج الايثانول بواسطة التخمر

تعتبر دولة البرازيل أكثر بلدان العالم استخداما لقصب السكر في إنتاج الايثانول (نوع من الكحول الايثيلي) بواسطة التخمر ، ويضاف

الايثانول إلى قطفات البترول وخاصة وقود السيارات (غـازولين) للحصـول علـى غـازوهول gasohol ويشـكل تحويـل الكربوهيـدرات مـن الكتلـة البيولوجية إلى ايثانول ، كوقود سائل مفيد . ومـن المعـروف أن الايثـانول يعتبر مصدرا مفيدا للمواد الأولية الكيمائيـة لبعـض الصناعـات مثـلا يـولى ايثيلـين . ويمثـل سـكر المائدة (السـكروز) عـادة المادة الأساسـية لإنتـاج الايثانول بالتخمر ، كما يستعمل السيليلوز بعد تحويله إلى غلوكوز لنفـس الغرض .

٩ - إنتاج الميثانول من الخشب

يحضر الميثانول (الكحول الميثيلى) بواسطة التقطير الاتلافـى للخشـب والمواد السيليوزية ، ولكـن بكفـاءة إنتاجيـة منخفضـة نسـبيا . ويبـدو أن هدرجة السيليوزن ستعطى مقدارا أكبر من الميثانول ونواتج أخرى مفيدة . وتعتمد هذه العملية على توفير الهيدروجين بصورة اقتصادية ، حيـث أن الهيدروجين نفسه يعتبر وقودا رائعا ومادة أساسية أولية فى الصناعة .

١٠ - هيدرة السيليلوز

بذلت فى الآونة الأخيرة محاولات كثيرة لتحويل السـيليلوز اقتصاديـا إلى غلوكوز ، ويستعمل الغلوكوز بعد تخميره فى إنتاج الايثانول . والجدير بـالذكر ، أن السـيليلوز يتحـول بعـد طحنـه جيـدا بتأثـير الإنزيمـات السـيليلوزية والسـليوبياس إلى غلولكـوز . ويمكـن الحصـول علـى هـذه الإنزيمات من كائنات مختلفة مثل الفطريات Trichoderma .

الهيدروجين حامل الطاقة

فى الآونة الأخيرة برزت أهمية توليد الطاقة من غاز الهيدروجين . ولكى نوضح ذلك دعنا نتناول فيما يلى بعض من الخصائص الفيزيائية والكيمائية لهذا الغاز .

بداية ، نعلم أن غاز الهيدروجين يتكون من ذرات صغيرة تحتوى على بروتون واحد (يحمل شحنة موجبة) فى قلب الذرة ويدور حوله إلكترون واحد (يحمل شحنة سالبة) وفى مدارات مختلفة . وذلك فإن ذرة الهيدروجين متعادلة كهربيا . وقد اكتشف غاز الهيدروجين لأول مرة فى عام ١٧٦٦ وتمت معرفة كيفية احتراقه مع غاز الأكسجين وتكوين جزىء الماء .

ويعتبر غاز الهيدروجين من أكثر العناصر توافرا فى الطبيعة . كما أن النجوم تتكون أساسا من غاز الهيدروجين ويتحدد عمرها من مدى مخزونها من هذا الغاز . فعلى سبيل المثال تتكون النجوم الحديثة من كتلة غازية ١٠٠٪ من الهيدروجين ، وبمرور الزمن يستهلك النجم وقوده الهيدروجينى فى التمدد وتكوين العناصر الثقيلة نتيجة ارتفاع درجة الحرارة والضغط ، مما يؤدى إلى اندماج ذرات الهيدروجين وتكوين عنصر الهيليوم التى تندمج ذراته بالتتابع ، وبذلك تتكون العناصر الثقيلة . أما بالنسبة إلى شمسنا فهى تحتوى على ٩٩٪ من كتلتها الغازية من الهيدروجين . أما مصادر الهيدروجين على الأرض فهى كثيرة وأهمها

ذلك المخزون المائى الهائل فى المحيطات والبحار والأنهار ومياه الأمطار، كذلك يوجد متحدا مع غاز النيتروجين والكبريت فى مركباتهما التى تخرج مع الغازات البركانية . أما الهيدروجين الحر فيتواجد بكميات قليلة فى الطبيعة حيث أن نسبة تواجده فى الهواء لا تتعدى ٠,٠١٪ .

وخلال العقدين السابقين اهتمت الدول المتقدمة بمحاولة استخدام الهيدروجين كحامل للطاقة ورصدت من أجل ذلك مبالغ كبيرة للحصول على نتائج إيجابية فى هذا المجال ، خاصة بعد نجاح الولايات المتحدة الأمريكية فى تفجير القنبلة الهيدروجينية وانبعاث طاقة هائلة تعادل ٢٠٠ مرة قدر الطاقة المنبعثة من تفجير القنبلة الذرية الناتجة من انشطار النوى الثقيلة القابلة للانشطار مثل اليورانيوم والبلوتونيوم .

والجدير بالذكر ، أن من أهم المشاكل البيئية التى نعانى منها الآن والناتجة عن استعمال المشتقات البترولية فى وسائل النقل المختلفة ، هى تلك العوادم المتولدة من عملية الاحتراق ، وهى تحتوى على أكاسيد نيتروجينية تتحلل بمساعدة طاقة الشمس الضوئية، وينتج عنها ذرات أكسجين حرة نشطة تتحد بدورها مع جزيئات الأكسجين الموجود فى الهواء ليتكون الأوزون الضار بالكائنات الحية . هذا بالإضافة إلى تفاعل الأكسجين الذرى مع بعض المركبات الهيدروكربونية ، ويؤدى ذلك إلى تكوين سلسلة من الملوثات الغازية المؤذية . كما تنتج العوادم غازى أول وثانى أكسيد الكربون .

من أجل ذلك تتكاتف الجهود العالمية بغية الحفاظ على البيئة وعلى صحة الإنسان . وتنبه العلماء إلى أهمية استخدام الهيدروجين كمصدر

حامل للطاقة النظيفة . وقد نجحت بالفعل وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) فى استعمال غاز الهيدروجين كوقود فى الصواريخ المستخدمة فـى إطـلاق المركبات الفضائية . كما نجحـت شركة بوينـع الأمريكيـة فـى اسـتعمال الهيدروجين كوقود للطائرات . وتم اختيـار طـائرات البوينـع ٧٤٧ والتـى زودت بحاويات إضافية لتخزين الهيدروجين بها . وكان من أهم النتـائج فى هذه التجارب أن استخدام الهيدروجين يقلل من الكتلة الكلية للطائرة بنسبة ٣٣٪ بالمقارنة باستخدام البنزين ، وزيادة معدل الخلط بالهواء نظرا لزيادة معدل انتشار الهيدروجين ، وارتفاع كفاءة الاشـتعال الذاتـى ، وأن نواتج الاحتراق غير ملوثة للبيئة .

وتتابعت بعد ذلك جهود العديد من الدول المتقدمة من أجـل التوسـع فـى اسـتخدام الهيدروجـين كوقـود لتشـغيل وسـائل النقـل الأخـرى مـن سيارات خاصة وأوتوبيسات وشـاحنات وخلافـه ، وقـد أنتجـت بـالفعل بعض الشركات الألمانيـة الهيدروجـين السـائل وأنشـأت محطـات خاصـة لتخزينه وإمداد وسائل النقل المختلفة به . وقـد اعتمـدت فـى ذلـك علـى طريقة التحليل الكهربى للماء . واستمرارا لهذه الجـهود عقـد مؤتمـر دولى بمدينة شتوتغارت الألمانية عام ١٩٩٦م تحت عنوان (مستقبل الهيدروجين الحامل للطاقة) ، وقد حضر المؤتمر جمع مـن المتخصصين والاقتصاديين وصناع القـرار المـهتمين بـهذه القضيـة . وكـان مـن أهـم التوصيـات التـى تمخض عنها المؤتمر ضرورة التنسيق وتوحيـد الجـهود العالميـة مـن أجـل وضع استراتيجية عالميـة لإنتـاج واسـتعمال الهيدروجـين كمصـدر للطاقـة النظيفة . وتتضمن هذه الاستراتيجية اشتراك كافة الدول فى رصد الأموال

اللازمة لاستمرار البحوث من أجل إنتاج الهيدروجين السائل بتكاليف اقتصادية تكون فى متناول جميع الدول .

وفى هذا الشأن يتوقع خبراء الاقتصاد أن يشهد القرن الحادى والعشرون ثورة تكنولوجية هائلة فى مجال استعمال الهيدروجين السائل ، كبديل للطاقة النووية المستخدمة في توليد الطاقة الكهربية من المفاعلات الذرية التى تؤدى إلى تلوث البيئة .

لذلك ، أناشد كافة المسؤولين وصناع القرار فى العالم العربى بالاهتمام بمستقبل الطاقة النظيفة ومواكبة الاهتمام العالمى فى هذا المجال ، وأقترح تأسيس مؤسسة عربية علمية تكنولوجية تعنى بتطوير هذه الدراسات ، وتكوين الكوادر الفنية والعلمية اللازمة لها للعبور بوطننا العربى إلى آفاق التقدم والازدهار .

الفصل الرابع

قرون استشعار علمية

- الاستشعار ونظم الإنذار
- الليزر شعاع القرن العشرين
- الليزر وسر الحاسة السادسة

الاستشعار ونظم الإنذار

من المعروف أن الاستشعار هو جهاز يستجيب للمؤثرات الفيزيائية مثل الحرارة والضوء والصوت والضغط والمغناطيسية . وكذلك يستجيب للإشارات الناتجة عن الحركات الخاصة للأجسام . ونتائج الاستشعار ترسل على هيئة قياسات وعمليات تحكم . ويستخدم الاستشعار فى شتى الأغراض المدنية والعسكرية ، على سبيل المثال يستخدم الاستشعار فى مجال المسح الجيولوجى لدراسة التضاريس الأرضية واكتشاف الثروات المعدنية والمواد الأولية ومعرفة مخزون المياه الجوفية وتحديد أماكن تواجدها . كما يمكن بواسطة الاستشعار التنبؤ بأماكن الكوارث ودراسة الزلازل الأرضية وحركة الرياح ومعرفة الطقس . والاستشعار يستخدم فى المجال الزراعى والبيئة والمحميات الطبيعية وفى علوم الفضاء والأرصاد الفلكية .

وللاستشعار تطبيقات عديدة فى المجال العسكرى خاصة فى عمليات التجسس وكنظم للإنذار المبكر ضد أى احتمال بحدوث هجوم مباغت على القوات . ويمكن بواسطة الاستشعار تحديد مكان وتوقيت الهجوم بدقة فائقة . ونظم الإنذار ثلاثة أنواع تعمل فى المدى الطويل والمتوسط والقصير. والإنذار فى المدى الطويل يسمى الإنذار السياسى الذى يعتمد على معرفة القدرات الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية وعمل نموذج حسابى يوضع أمام متخذ القرار للتكهن بإمكانية إعلان الحرب من

قبل قوى مناهضة . وفى هذه المرحلة تلجأ الدولة المعتدى عليها بتعزيز طرق الدفاع وإتباع أسلوب التفاوض . وعادة يكون الإنذار السياسى محفوف بالغموض وعاجز عن كشف نوايا الخصم ، وغالبًا ما يؤدى إلى نتائج غير دقيقة للأوضاع السائدة .

أما الاستشعار فى المدى المتوسط ويطلق عليه الإنذار الاستراتيجى فعادة يمتد إلى عدة أسابيع أو عدة أيام قبل التكهن بالهجوم الوشيك . وفى حالة الإنذار قصير المدى والذى يطلق عليه الإنذار التكتيكى فيستغرق بضعة ساعات وأحيانًا بضعة دقائق فى إعلان حالة الحرب .

والجدير بالذكر أن كل من عمليات الإنذار والرصد تعتمد على طريقة الاستشعار . وأجهزة الرصد توضح إمكانيات الجيوش ومواقع القوات وحجمها وأنشطتها وأسلحتها . وأيضًا التغيرات فى القدرات السياسية والاقتصادية . وتحتوى نظم الإنذار على حاسبات آلية معقدة لتحليل النتائج والبيانات التى ترسل إلى مراكز المعلومات الخاصة . هذه النظم مصممة بشبكة اتصالات فائقة للربط بين القدرة على الفعل ورد الفعل المناسب . وبالطبع الاستشعار بواسطة العين المجردة يعتبر ذو أهمية خاصة بالمقارنة بالاستشعار الذى يتم بواسطة التلسكوبات والكاميرات وأجهزة الاستشعار الحرارى والتحسس الضوئى أو بواسطة الرادارات المختلفة أو بالطرق السمعية أو الاهتزازات أو باستخدام الكواشف الكيميائية والنووية .

والجدير بالذكر أن تحليل البيانات فى نظم الإنذار تحتاج إلى برامج حسابية معقدة وتمثل هذه العملية أصعب مراحل الاستشعار وتحتاج إلى تدريب لاكتشاف عمليات الحيل والخداع خاصة أثناء المعارك .

ومن المعروف أن الجيوش تعتمد على فرق الاستطلاع وسلاح الإشارة اللذين يعملان على توفير الحماية لجوانب ومؤخرة الجيوش . وكذلك معرفة مواقع العدو .

وقديمًا كانت الدول تلجأ إلى استخدام الحيوانات ، مثل الكلاب والخيول في عمليات الرصد والإنذار ، ثم تطورت الوسائل وأصبح الاستطلاع يتم بالمراقبة من أعلى الأبراج ، ولذلك شيدت الأسوار العالية حول المدن مثل (سور الصين العظيم) . وفى القرن الثامن عشر استخدم الفرنسيون المنطاد الحربي في أغراض الاستطلاع . وفى عام ١٨٦٣م استخدم الأمريكان نفس الأسلوب أثناء الحرب الأهلية .

أما في مجال الحروب البحرية فانعدمت تقريبًا عمليات ونظم الإنذار، وكانت تعتمد إلى حدٍ كبير على سفن سلاح الحدود . ولم يتسم استخدام وسائل الاستشعار في نظم الإنذار البحرى إلا مع تطور صناعة الغواصات وتكنولوجيا الأعماق .

وفى عام ١٩٠٤ م استخدم اليابانيون لأول مرة كواشف ضوئية أثناء الحرب اليابانية الروسية . وفى عام ١٩١١م استعمل الإيطاليون لأول مرة الطائرات أثناء الحرب الإيطالية التركية ، وأظهرت قدرات فائقة على الرصد والاستطلاع . وفى عام ١٩١٤م تطورت المناظير الحربية والتلسكوبات والتلغراف والتليفونات . ثم تطورت أجهزة الاتصال الراديوية التى أعطت مميزات الرصد الفورى . كما ظهرت وسائل الرصد الهوائى وزاد مدى الرؤية ، خاصة الرؤية الليلية .

وأثناء الحرب العالمية الثانية تم اكتشاف الرادار وهو جهاز استشعار كهرومغناطيسي يستخدم فى رصد وتحديد مكان واكتشاف الأجسام من مسافات مختلفة ويعمل فى مدى ترددى واسع ابتداء من الترددات المنخفضة عند ٣٠ ميجا هرتز إلى الترددات العالية عند ٤٠ جيجا هرتز . هذا النظام الرادارى استبدل بدلاً من نظام التنصت البطيء العتيق الذى كان سائداً فى ذلك الوقت .

وفى عام ١٩٤٥ م ومع تطور التكنولوجيا النووية وصناعة الصواريخ العابرة للقارات أصبح هناك بعدًا جديدًا فى تطوير نظم الاستشعار والرصد والإنذار . وأخذت نظم الإنذار المختلفة أهمية خاصة بالمقارنة بالإنذار السياسى السائد . كما أخذت نظم الإنذار ضد الهجوم النووى أبعادًا جديدة للحفاظ إلى إمكانية الردع النووى الانتقامى . ومن أجل ذلك كانت تجوب الفضاء الطائرات العملاقة حاملة القنابل النووية لتكون فى حالة استعداد على الردع النووى فى أى وقت وأيضًا لتتجنب عمليات تدميرها وهى على الأرض . وكذلك اتخذت كافة الاحتياطات عند الإنذار المبكر بتأمين سلامة المواطنين وإنشاء الملاجئ الآمنة المجهزة .

واليوم نشاهد من الناحية العملية تطور متسارع فى نظم الاستشعار والإنذار المبكر خاصة مع تطور صناعة الطائرات والهليكوبتر والغواصات والأقمار الصناعية والدوائر التليفزيونية والليزرات بأنواعها المختلفة والمغناطيسيات والأدوات السمعية والكواشف الكيميائية والنووية وكواشف الأشعة تحت الحمراء .

ولم يطرأ تغير كبير على المناظير الحربية والتلسكوبات التي تعتمد أساسًا على المدى المرئى للضوء . أما بخصوص أجهزة الرصد الاهتزازية والحركية والجيروسكوبية فقد شهدت تطورًا كبيرًا لتشمل الرصد السطحى للمركبات والآليات والبواخر والطائرات . كما تطورت أجهزة الرصد الليلى التى اعتمدت على انعكاس ضوء القمر أو النجوم من الأهداف واستقبالها على شاشات خاصة . هذه الصور يمكن تكبيرها إلكترونيًا واستقبالها على شاشات تليفزيونية باستخدام أنابيب الشعاع الكاثودى .

كما تستعمل الآن أجهزة تليسكوبية متناهية فى مساعدة القناصة على الرؤية الليلية وتحديد الأهداف بدقة فائقة . وتزود الهليكوبتر بأجهزة تليفزيونية ذو مناسيب منخفضة للضوء وتعمل فى مدى الأشعة فوق البنفسجية أو الأشعة تحت الحمراء التى تستخدم فى الرؤية الليلية .

وبالنسبة للتصوير التقليدى باستعمال المستقبل الهوائى فيحتاج إلى خبرات خاصة ويكون غير دقيق فى أغلب الأحيان . وقد استبدلت هذه الطريقة بأجهزة حديثة تعمد على التصوير الحرارى والتداخل الاهتزازى . ولتغطية مساحات شاسعة تستخدم كاميرات خاصة مرتبطة بماسح إلكترونى لتسجيل الصورة بجودة عالية . وتستخدم هذه الطريقة فى رسم الخرائط .

وأصبح للاستشعار بواسطة كواشف الأشعة تحت الحمراء أهمية خاصة ومنها ما يعمل بالوسائل الأرضية أو بالطائرات أو بالمركبات الفضائية . ويمكنها رصد البقع الساخنة الصادرة من موتورات المركبات أو الماكينات

أو عوادم الصواريخ أو حتى الصادرة من المعسكرات . هذه الكواشف حساسة ويمكنها التمييز بين الأهداف الحقيقية والمزيفة التى تلجأ الجيوش إليها للتمويه أثناء المعارك .

أما الرادارات فتستخدم فى العديد من الأغراض . ومنها صغير الحجم الذى يستخدم فى عمليات الرصد الفائق ومتوسط الحجم يستخدم فى رصد المركبات ومدافع المورتر والدبابات . أما الرادارات كبيرة الحجم فتستخدم فى أغراض البحث والتحكم فى سلاح الدفاع الجوى وتوجيه طائرات المطاردة والصواريخ سطح – جو . ومن المعروف أن الرادارات فى الطائرات تستخدم بغرض الكشف عن الطائرات المغيرة والتحكم فى توجيه الصواريخ جو – جو . كما أنها تستعمل فى الطائرات القاذفة لاكتشاف الأهداف الأرضية الثابتة والمتحركة وتجنب الحواجز والسدود . وتستخدم فى طائرات النقل الجوى للإنذار ضد هجمات طائرات العدو والكشف عنها . وتستخدم القوت البحرية الرادارات للكشف عن المعدات السطحية والبواخر . كما تستخدم الرادارات فى المركبات الفضائية لتحديد نماذج لكافة الأنشطة الأرضية المدنية والعسكرية . ومن المعروف أن أجهزة الرادار ذو الترددات العالية لا تعمل بكفاءة بالقرب من محور الأفق الأرضى حيث أن هذه الموجات تنعكس من طبقة الأيونوسفير .

والجدير بالذكر أن المستقبلات الراديوية يمكنها تحديد رادارات العد ويمكنها التدخل لفك الشفرات الخاصة بها وبالتالى يمكن تضليل العدو وإرسال بيانات غير صحيحة .

وفى العقود الثلاثة الماضية تطورت التكنولوجيا السمعية التى تسمى (السونار) التى تستخدم للكشف عن الغواصات . هذه الأجهزة تعتمد على الموجات الصوتية التى تصدر عنها واستقبال صدى تلك الموجات المنعكسة من جسم الغواصة . ويعمل جهاز السونار على سفن السطح أو الغواصات السطحية أو يدلى بالكابلات من الهليكوبتر ويغمر بالماء . وتعانى أجهزة السونار من عامل الإعاقة خاصة الطاقة الصوتية للماء وكذلك الضوضاء والانعكاسات الصوتية من قاع البحار . ويمكن للسونار أن يستخدم كاستشعارات أرضية لرصد المركبات المتحركة على الطريق كما تستخدم فى رصد التفجيرات النووية .

وقد ابتكرت كواشف اهتزازية تسمى (جيوفون) وتستعمل استشعارات لرصد المركبات . هذه الكواشف تتأثر بالضوضاء الناتج عن حركة الحيوانات .

كما تطورت تكنولوجيا الكواشف المغناطيسية التى تركب فى الطائرات وتستخدم فى رصد الغواصات خاصة تلك التى تصنع من كتل معدنية كبيرة وتسبب توتر فى شدة المجال المغناطيسى الأرضى . ويمكن إخفاء هذه الكواشف تحت الأرض للكشف عن المركبات المارة .

وتعتمد الكواشف النووية على قياس درجة الاهتزازات الناتجة عن التفجير النووى وعلى مسافات بعيدة جدًا تقدر بمئات الكيلومترات . أما الكواشف الكيميائية فيمكنها رصد الأفراد على مسافات قريبة وتعتمد على الإفرازات الآدمية . هذا وقد تطورت أجهزة الاستشعار عن بعد

بغرض الإنذار المبكر خاصة مع تطوير الكواشف متعددة الأغراض التى تغطى مدى طيفى كهرومغناطيسى واسع . كما أن إنتاج أجهزة ليزرية صغيرة الحجم قد ساعد على تطوير الرصد الليلى بكفاءة عالية . هذه النظم أصبحت أكثر فاعلية وتحتوى على مركبات بصرية متطورة خفيفة الوزن ومنخفضة التكاليف . كما تطورت تكنولوجيا التصوير والأفلام الحساسة فائقة الدقة والتى يمكن تحميضها سريعًا بالطرق الحرارية . هذا وقد تم إدخال الرادارات ذو نظام المجاميع الذى يمكنه رصد الأهداف المتحركة والتحكم فى الرصد بواسطة الحاسب الآلى . كما تطورت تكنولوجيا الرادارات المحمولة جوًا ذو الدقة الفائقة .

وهناك العديد من نظم الإنذار المبكر الحديثة التى تستخدم فى سلاح الدفاع الجوى للدول نذكر منها النظام الأمريكى Semi Automatic Ground Environment "SAGE" وكذلك النظام BUIC للتحكم . وفى أوروبا يستعمل نظام Nato Air Defense Ground Environment "NADGE": وهناك العديد من الأنظمة المختلفة التى تستخدم فى البلاد المختلفة . هذه الأنظمة تعتمد على أجهزة الحاسب الآلى المعقدة التى تستخدم فى تحليل البيانات المستقبلة وتعطى تصور واضح حول تقييم موقف الهجوم واتخاذ قرار التصدى له بالصواريخ سطح – جو . وقد طورت الولايات المتحدة الأمريكية نظام جديد يسمى "AWACS" Airborn Warning And Control System الرادارى ويتكون من رادار كبير ونظام كمبيوتر وشاشات عرض ونظام للتحكم ولا يتأثر بالضوضاء ويعمل الذى خلف الأفق الأرضى ويمكن حمله بواسطة الطائرات الكبيرة .

وفى العقدين الماضيين تطورت صناعة الصواريخ البلاستيكية هذا النظام الصاروخى يحتوى على أجهزة إنذار ذاتى ونظام رادارى معقد ويمكن لهذا النظام قياس السرعات لمختلف الأجسام .

وبالنسبة للمراقبة الفضائية فقد تطورت نظم الرادار متعدد الحزم الإشعاعية التى يتحكم فى توجيهها عن بعد .

والماسح الإلكترونى فى هذا النظام يتحرك بسرعة كبيرة بالمقارنة بالهوائى الميكانيكى . ويستطيع هذا النظام متابعة عدة أجسام فى وقت واحد . وقد أمكن ربط الرادارات المستخدمة فى الصواريخ البلاستيكية مع شبكة الرادارات الفضائية مما أكسبها دقة فى التصويب والإصابة .

وبالنسبة للكواشف النووية فقد تم تطوير أجهزة قياس الاهتزازات والتى تسمى Seismometer وتستطيع هذه الأجهزة تسجيل الحركات غير الاعتيادية التى تنتج عن التفجيرات النووية وعلى مسافات بعيدة . ولتقليل تأثير الضوضاء التى تؤثر على دقة القياس تستخدم هذه الأجهزة فى مجموعات لتقوية الإشارات المستقبلة واستبعاد الإشارات غير المرغوب فيها . وفى حالة التفجيرات النووية الضعيفة يختلط الأمر وتعتبر التحليلات مقارنة بالزلزال الأرضى الضعيف .

وعادة تستعمل الكواشف النووية فى الجو أو الفضاء ، كما يستعمل الاستشعار السمعى للكشف عن التفجيرات النووية ويمكن جمع عينات من نواتج المواد المشعة بواسطة الطائرات أو الصواريخ . كما يمكن تسجيل الإضرابات التى تحدث فى طبقة الأيونوسفير . أما التفجير النووى فى

الفضاء فيمكن متابعته بواسطة الأقمار الصناعية . وهناك كواشف لانبعاث الأشعة السينية وأشعة جاما أو الأشعة النيوترونية . وبالطبع تطورت تكنولوجيا طائرات الاستطلاع بدون طيار والتى تزود بمثل هذه الكواشف والقيام بأعمال المراقبة .

وبناء على ما تقدم يمكننا القول أن التقدم فى مجال الاستشعار ونظم الإنذار قد ساهم فى تغيير إستراتيجيات الجيوش ليس بالنسبة لتحسين السلاح بل أيضًا فى معالجة المعلومات واتخاذ القرارات . وأصبح من الواجب تحديد ورقابة تطوير أسلحة المستقبل فى مجال الصواريخ والأقمار الصناعية ومراكب الفضاء المسكونة ليشمل أيضا الرقابة على برامج الفضاء لجميع الدول وأن يشمل تحديدًا واضحا لأهدافه .

الليزر شعاع القرن العشرين

يعود الفضل فى اكتشــاف أشعة الليزر فى النصف الثانى من القـرن العشريــن إلى التطـور المتسارع للفيزيـاء الحديثـة ، واسـتيعاب الأفكـار الأسـاسية عـن طبيعـة الضــوء والموجــات الكهرومغناطيسـية . وتعتـبر الفترة التى اكتشف فيهــا الإلكترون (جسيم متناه الصغـر تسـاوى كتلتـه $٩,١ \times ١٠^{-٣١}$ كيلو جرام وله شحنة سالبة مقدارها $١,٦ \times ١٠^{-١٩}$ كولوم) وكذلك الأشعة الموجية فاتحة عهد جديد للفيزياء الحديثــة . فقـد أعطـى هذان الاكتشافان أدلة مهمة عن التركيب الــذرى . وكـان لنشـوء النظريـة النسبية وميكانيكا الكم أوائل القرن العشــرين الفضل فـى تغيير مفـهومنا حول العالم المتناهى فى الصغر . وقد تبلورت هاتان النظريتان فــى ظـاهرة فيزيائية واحدة وهى الأمواج الضوئية . فقامت النظرية النســبية بمعالجـة انتقال الضوء بينما تكفلت نظرية ميكانيكا الكم بتفسير الانبعاث الضوئـى وامتصاصه . وكان لتطور نظريات الضوء أثر مهم فى اكتشاف الليزر المـيز الذى أطلق عليه العلماء شعاع القرن العشرين .

وفيما يلى سوف نستعرض بإيجاز تاريخ تطور النظريات الضوئية .

- من أقدم النظريات فى تفسير الضوء هى نظرية اللمــس وفيـها يفـترض أن العين ترسل الضــوء فيسـقط علـى الأجسـام ويضيئوهـا ، وبـهذا يمكـن للعين رؤيتها . وقد عمرت هذه النظرية طويلاً إلى أن فندت بعد أن عــرف

الإنسان نظرية الانبعاث ومفادها أن الأجسام المرئية هي التي تشع جسيمات مضيئة وبمجرد سقوط هذا الضوء على المنطقة الحساسة من العين تتم الرؤيا . ثم وضع العالم الإنجليزى (إسحاق نيوتن) فروض نظرية الجسيمات ، حيث اعتقد أن المصدر الضوئى يرسل بجسيمات دقيقة مرنة فى كل الاتجاهات تكون سريعة الانتشار وتسير فى خطوط مستقيمة . وبالفعل استطاع نيوتن من تفسير بعض الظواهر مثل ظاهرة الانعكاس ولكنه أخفق فى تفسير انكسار الضوء وانتشاره بين الأوساط المختلفة . وتمكن العالم (هيجنز) من وضع أسس النظرية الموجية للضوء ، حيث فرض أن الضوء عبارة عن سلسلة من الموجات تكون جبهاتها فى اتجاه عمودى على مسارات أشعة الضوء . كما هو الحال فى موجات الماء عند إلقاء حجرًا فى الماء الهادئ . وبعد ظهور النظرية الكهرومغناطيسية على يد العالم (ماكسويل) فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وفرضه أن الضوء هو موجات كهرومغناطيسية وطاقته موزعة بالتساوى بين المجالين الكهربائى والمغناطيسى المتعامدين مع بعضهما والعموديين على اتجاه انتشار الموجة .

والجدير بالذكر أن النظرية الكهرومغناطيسية قدمت تفسيرات عملية مقنعة عن الانعكاس والانكسار والتداخل والحيود الضوئى . لكنها فشلت فى تفسير ظاهرة الانبعاث الكهروضوئى ، عند تشعع مادة ما بالضوء وينبعث منها إلكترونات .

وفى القرن العشرين خاض العلماء الفيزيائيون وسط هذه التناقضات العالم المجهول للذرة . وشهد هذا القرن ثورة فى العقول والمعامل . فجاءت نظرية الكم للعالم الألمانى (ماكس بلانك) الذى افترض فيها أن

انتقال الطاقة بين الضوء والمادة يجرى بوحدات غير قابلة للتجزئة وأطلق على هذه الوحدات اسم (الفوتون) الذى هو طاقة كهرومغناطيسية نقية . وتتوقف طاقة كل فوتون على تردد الضوء . وفى بادئ الأمر واجهت هذه النظرية اعتراضات كثيرة ، حتى استطاع العالم (ألبرت أينشتين) تأكيد صحة النظرية الكمية عند تطبيق مبادئها على ظاهرة الانبعاث الكهروضوئى . وفى عام ١٩١٣م ، نجح العالم (نيل بوهر) من وضع نموذج الذرة معتمدًا على مبادئ نظرية الكم ومستفيدًا من النموذج الذى وضعه العالم (راذرفورد) عام ١٩١١ م. وافترض بوهر أن الإلكترونات تدور حول النواة (المشحونة بشحنة موجبة) فى مناسيب للطاقة . فيكون منسوب الطاقة الأقرب إلى النواة هو الأوطأ بينما يكون المنسوب الأبعد هو الأعلى طاقة . واستنتج بوهر أن الذرة إذا ما اكتسبت طاقة من مصدر ما فإن إلكترونًا ينتقل من منسوب الطاقة إلى منسوب طاقة أعلى . فى هذه الحالة يقال أن الذرة متهيجة . وبعد فترة وجيزة يسقط الإلكترون المتهيج من المنسوب الأعلى إلى المنسوب الأوطأ وتشع الذرة طاقة على هيئة فوتون تعتمد طاقته على مقدار التغير الحاصل فى الطاقة بين مناسيب الذرة . ويمكن اعتبار نموذج (بوهر) للذرة بأنه ميلاد أشعة الليزر .

كان نموذج (بوهر) للذرة محفزًا للعالم الفرنسى (دى برولى) الذى وضع عام ١٩٢٤ م نظرية الموجات المادية ، انبثق عنها علم ميكانيكا الكم الذى حسم الاعتراضات القائمة بين النظرية الكهرمغناطيسية ونظرية الكم . وفى عام ١٩٢٧ ظهرت النظرية الحديثة التى اعترفت بالسلوك الثنائى لطبيعة الضوء ، أى أن (طاقة الشعاع الضوئى تنتقل على شكل فوتونات وضمن مجال موجى) .

والآن دعنا نستعرض فكرة تصميم أجهزة الميزر والليزر الذى يعتبرهما الخبراء العهد الجديد لتكنولوجيا القرن العشرين :

بعد انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة اتجـهت أنظار العلماء إلى إجراء المزيد من البحوث والدراسات على الموجات الكهرومغناطيسية وخاصة الموجات الميكرومترية الدقيقة ، لأهميتها آنذاك فى مجال الاتصالات والرادارات .

وفى عام ١٩٥٤ م ، نجح العالم الأمريكى (شارلز تاونس) من تضخيم الموجات الدقيقة بواسطة التحريض على انبعاث الأشعة . وقد اختار الترددات الذى يعتمد عليها فى الرادارات . وبذلك حصل على أول شعاع ميزر فى تاريخ البشرية . وكلمة ميزر مشتقة من المصطلح الإنجليزى :

Microwave Amplification by Stimulated Emission of Radiation (MASER).

وتعنى باللغة العربية : (تضخيم الموجات الدقيقة بواسطة التحريض على الانبعاث الإشعاعى) .

وكان الهدف الأساسى من بناء جهاز الميزر هو إمكانية استخدامه كمكبر للموجات الدقيقة ومولد للإشارات عالية الدقة .

وفى عام ١٩٥٧ م نجح العلماء السوفيت (قبل التفكك) «باسوف ويروخوروف وبلومبيرجن» من تصميم أجهزة ميزرية أخرى تعتمد فى تشغيلها على الضخ البصرى . واستخدمت هذه الأجهزة فى علم الفلك الراديوى وفى أجهزة الرادار .

ومنذ ذلك الوقت ، تطلع العلماء إلى تطوير ظاهرة التحريض للحصول على شعاع فى المدى المرئى للضوء وفى المدى الطيفى للأشعة تحت الحمراء غير المرئية .

وفى عام ١٩٦٠ م نجح العالم الأمريكى (ميامان) من تصميم أول جهاز يطلق شعاع ليزر فى العالم . استخدم فى هذا الجهاز بلورة من الياقوت الصلب كوسط فعال تحتوى على نسبة ضئيلة من أكسيد الكروميوم . واستطاع ميامان من ضخ هذه المادة بواسطة مصباح وميضى من غاز الزيتون لتهيج الكروميوم . وبالتالى أمكنه الحصول على شعاع ضوئى لونه أحمر قانى عند الطول الموجى ٦٩٤٠ أنجستروم (واحد أنجستروم يساوى ١٠$^{-١٠}$ من المتر) . وفى نفس العام تمكن العالم (جافان) ومجموعته فى مختبر بل الأمريكى الشهير من تصميم وتشغيل أول ليزر غازى يحتوى على خليط من غازى الهليوم والنيون ، والذى يولد أشعة الليزر فى المدى الطيفى للضوء الأحمر عند الطول الموجى ٦٣٢٨ أنجستروم .

بعد ذلك توالت البحوث وأمكن تصنيع أجهزة ليزرية عديدة تعتمد على مختلف المواد فى حالتها الصلبة والسائلة والغازية . والجدير بالذكر أن كلمة ليزر مشتقة من المصطلح الإنجليزى :

"Light Amplification by Stimulated Emission of Radiation" (LASER).

وتعنى باللغة العربية : (التضخيم الضوئى بواسطة الانبعاث التحريضى للإشعاع) .

ومن المعروف لنا أن مصادر الضوء التقليدية كالشمس والمصابيح الكهربائية، تشع الضوء مشتتًا فى جميع الاتجاهات وبأطوال موجية مختلفة موزعة على حزمة واحدة من الطيف . ويسمى مثل هذا الضوء (بالضوء غير المتوافق) "incoherent" . ولإنتاج حزمة ضوئية ن متوازية يكون ضروريًا وضع المصدر الضوئى فى البعد البؤرى لمرآة عاكسة . وبما أن للمصدر الضوئى حجمًا محددًا غير نقطى بشكل تام ، فإن الحزمة الضوئية الناتجة لا تكون متوازية بشكل كامل وتعانى من تشتت نسبى . وللحصول على حزمة متوازية ورفيعة من الضوء التقليدى لابد من استغلال جزء صغير من طاقة المصدر الضوئى . وكلما كانت الحاجة إلى حزمة ضوئية متوازية من الأشعة كانت الطاقة المستغلة من المصدر الضوئى ضعيفة . ولا يمكن تحسين هذه الحزمة الضوئية إلا على حساب شدة الكثافة الضوئية .

وجاء شعاع الليزر المتوافق فى موجاته ملبيًا لجميع الحالات ، حيث أن حزمة الشعاع ضيقة للغاية وتحمل طاقة ضوئية عالية ويمكن توجهها والتحكم فى مسارها ولمسافات بعيدة . إن شعاع الليزر يتميز عن الضوء التقليدى بصفة التوافق الموجى والاستقامة وشدة الاستضاءة وأحادية اللون أو التردد . هذه المواصفات جعلت لشعاع الليزر مكانة بارزة لمختلف التطبيقات وفى شتى المجالات الطبية والزراعية والصناعية وعلوم الفضاء والاتصالات والطاقة وفى الاستخدامات العسكرية . ولذلك أطلق عليه الخبراء (الحل الذى يبحث عن مشكلة) !

ويمكن التعرف على نوع الليزر من خلال طبيعة المادة الفعالة المستخدمة . وتكون هذه المادة مسئولة عن تحديد الطول الموجى لأشعة الليزر . وبصفة عامة توجد ثلاث أنواع رئيسية من الليزرات هى :

- ليزر الحالة الصلبة - ليزر الحالة السائلة - ليزر الحالة الغازية

والجدير بالذكر أن جميع أجهزة الليزر تتضمن أربع وحدات أساسية هى :

- وحدة وعاء الليزر وتحتوى على المادة الفعالة
- وحدة الطاقة
- وحدة نقل الطاقة
- وحدة التبريد

وهناك اعتبارات خاصة لتصميم أجهزة الليزر يتم على أساسها تحديد مواصفات الوحدات الأساسية بها .

ولذلك يجب تحديد ما يلى :

- المدى الطيفى لليزر
- الطاقة الليزرية المطلوبة
- نظام التشغيل نبضى أم مستمر
- نوع التبريد
- المجال التطبيقى
- حجم الجهاز

ومن المعروف أن بعض أجهزة الليزر يتم تشغيلها بالنظام النبضي والبعض الآخر تعمل بالنظام الموجي المستمر . ويمكن تشغيل البعض أيضًا بالنظامين النبضي والمستمر ، عن طريق إحداث بعض التعديلات في وحدة الطاقة المستخدمة . على سبيل المثال يعمل ليزر الحالة الصلبة عادة بالنظام النبضي وذلك لسببين هما :

١ - يحرر الجهاز طاقة حرارية مرتفعة من الصعب التخلص منها بالتبريد .

٢ - صعوبة الحصول على مصدر للطاقة المستمرة قادر على توفير طاقة ضوئية عالية بصفة مستمرة .

وفي العقدين الماضيين تطورت تقنية ضبط عامل النوعية -Q: Switching" في أجهزة الليزر . ويعتمد مبدأ هذه التقنية على وضع باب غلق بين المادة الفعالة وإحدى المرايا في وحدة وعاء الليزر . فعندما يكون الباب مغلقًا نحصل على درجة عالية من التوزيع العكسي الذى يحدد شرط العتبة (شرط التضخيم الضوئي) . وعند فتح الباب بشكل سريع ومفاجئ ولفترة زمنية قصيرة جدًا ، يتجمع عدد هائل من الفوتونات المتوافقة الناتجة من هبوط الذرات أو الجزيئات إلى مستوى الاستقرار لتشكل نبضة حادة ذات قدرة ضوئية عالية جدًا تصل إلى ملايين من الكيلو واطات .

وهناك ثلاث طرق مستخدمة في تقنية ضبط النوعية وهي .

(أ) استخدام المرآة الدوارة .

(ب) استخدام خلية كير .

(جـ) استخدام الماصة القابلة للإشباع .

فى الطريقة الأولى يمكن تركيب أحد المرايا فى وعاء الليزر على موتور يتحكم فى دورانها بسرعة كبيرة تصل إلى ٥٠٠٠٠ (خمسون ألف) دورة/ثانية. ونظرًا أن المرآتان الموجودتان بين طرفى وعاء الليزر يجب أن يكونا متوازيتان ، حتى يتم تضخيم شعاع الليزر والحصول على شرط الإسكان العكسى . إلا أن عند دوران أحد المرايا ستكون هناك فترة زمنية قصيرة جدًا تكون المرايا عندها متوازية . وخلال هذه الفترة الوجيزة يمكن تحريض الذرات المتهيجة بالمادة الفعالة على الهبوط للمستوى الأرضى . ومن ثم انبعاث نبضة ليزرية حادة وذات قدرة ضوئية عالية . أما الفترات الزمنية التى تكون فيها المرآتان غير متوازيتان ، فيمكن ضخ الذرات بالطاقة لإحداث درجة عالية من الإسكان العكسى . بعد ذلك يتم تحريض الذرات للهبوط حال توازى المرآتان مرة أخرى . وكلما زادت سرعة دوران المرآة يقل زمن النبضة ، لذلك تصبح القدرة الضوئية للنبضة مرتفعة للغاية . وتكون طريقة المرآة الدوارة مناسبة جدًا للاستخدام فى كافة أنواع الليزر وذلك لبساطتها وقلة تكلفتها . ولهذه الطريقة تأثيرات جانبية أهمها التأثير على دقة عمل جهاز الليزر نتيجة الاهتزازات الناجمة عن دوران المرآة .

أما الطريقة الثانية ، فهى تعتمد على ظاهرة – كير التى يمكن شرحها كما يلى :

عند تسليط مجال كهربائي مرتفع الشدة على سطحى بلورة – كير المكونة عادة من مادة النيتروبنزين ، سينشأ مسار بصرى مجتث داخل البلورة . هذا المسار يكون موازيًا لاتجاه المجال الكهربائي المسلط . وتوضع خلية – كير بين إحدى المرايا العاكسة في وعاء الليزر والمادة الفعالة ويوضع بجانبها مستقطب للضوء .

وتتم عملية تسليط المجال الكهربائى بين طرفى الخلية فى نفس الوقت الذى تتم فيه عملية الضخ لإحداث الإسكان العكسى وانبعاث الضوء فى موجات متوافقة . وعند مرور هذا الضوء غير المستقطب سيتحول إلى ضوء مستقطب بشكل مستوى . وعند سقوطه على خلية – كير يتحول إلى ضوء مستقطب بشكل دائرى حال تركه الخلية وباتجاه المرآة العاكسة . وعند انعكاس الضوء المستقطب دائريًا من هذه المرآة وسقوطه مرة ثانية على خلية كير فإنه يتحول إلى ضوء مستقطب بشكل مستوى بعد تركه الخلية ، لكنه يكون منحرفًا عن اتجاه الاستقطاب الأصلى بزاوية مقدارها 90° . ومن المعروف أن المستقطب الضوئى لا يسمح لهذا الضوء بالمرآة خلاله . وهكذا تتم عملية غلق الباب الموجود بين المادة الفعالة والمرآة العاكسة للحصول على درجة عالية من الإسكان العكسي . وبمجرد إلغاء المجال الكهربائى المسلط على الخلية لفترة قصيرة فإن ذلك يؤدى إلى إبطال عملها . وبذلك تسمح للضوء بالمرور خلالها بشكل طبيعي . وخلال هذه الفترة القصيرة جدًا يتم إنتاج نبضة ليزرية حادة جدًا وشديدة الاستضاءة .

والطريقة الثالثة تتضمن إمكانية استعمال خلية زجاجية صغيرة سمكها لا يتعدى ١ سم مملوءة بمحلول صبغة عضوية مثل الكريبتوسيانين المذاب فى سائل الميثانول . وتوضع هذه الخلية بين المادة الفعالة وإحدى المرايا العاكسة . ويراعى أن توضع الخلية بشكل مائل حتى نتجنب الانعكاسات التى تحدث على سطحها . ووجد أن لهذا المحلول القابلية على امتصاص الفوتونات المتوافقة الناتجة عن ضخ المادة الفعالة . وبذلك لا يسمح لهذه الفوتونات بالمرور خلاله بل يمتصها حتى بلوغ حد الإشباع . قبل بلوغ هذه الحالة ، سيكون الإسكان العكسى للذرات قد تحقق بدرجة عالية . وعند حد الإشباع يتحول المحلول بصورة مفاجئة إلى محلول شفاف يسمح للضوء بالمرور من خلاله ولفترة زمنية قصيرة جدًا . وهكذا يتم الحصول على نبضة ليزرية ذات زمن قصير للغاية وبقدرة ضوئية مرتفعة جدًا .

وحاليًا ، يهتم خبراء التكنولوجيا فى الدول المتقدمة بتطوير أجهزة ليزرية مختلفة لتغطى المدى المرئى وجزء كبير من المدى غير المرئى للطيف الكهرومغناطيسى . على سبيل المثال أعلن مؤخرًا العالم الإنجليزى (مايك كى) رئيس الوحدة المركزية لأشعة الليزر فى مختبر رذرفورد البريطانى نجاحه فى تصميم جهاز ليزر ينتج أشعة الليزر فى مدى الأشعة فوق البنفسجية وذلك باستخدام غاز فلوريد الكربتون . وهذا الجهاز يولد الليزر بقدرة ضوئية عالية تصل إلى ١٠ تيرا واط فى نبضة ضوئية واحدة لا تستغرق زمن ٣٠٠ فمتوثانية (واحد فمتوثانية يساوى ١٠^-١٥ ثانية) . هذا النوع من الأشعة يستخدم فى دراسة فيزياء البلازما

وفى مجال معالجة مواد أشباه الموصلات وكذلك فى مجال الانصهار بالقصور الذاتى . هذا بالإضافة إلى تصنيع أجهزة ليزر الإلكترون الحر الذى ينتج أشعة ليزرية فى مدى طبقى واسع وذلك بالتحكم فى شدة المجالات المغناطيسية المسلطة بالتتابع للسيطرة على توجيه المسار الإلكترونى . فإن أشعة الليزر الفريدة سريعًا ما تجد تطبيقات فى جميع فروع المعرفة وتفتح لها آفاقًا جديدة . ومن الصعب التنبؤ بالمستقبل فى هذا المجال . ولكن من المؤكد أن أجهزة الليزر ستشهد تطورًا وتوسعًا كبيرًا مستقبلاً ، وستظهر دائمًا استخدامات جديدة لها .

ومن هنا ، نؤكد دائمًا على ضرورة وضع سياسة عربية لتنمية قدراتنا العلمية والتكنولوجية فى مجال بحوث الليزر وتطبيقاتها (الممكنة) تؤهلنا إلى اللحاق بآفاق الحضارة والتقدم والازدهار .

الليزر وسر الحاسة السادسة

استطاع العلماء معرفة المراكز الحسية والعصبية للحواس الخمس عند الإنسان وهى: النظر والسمع والشم واللمس والتذوق وكذلك آلية عملها من بداية العضو الحساس المتصل مع الوسط الخارجى إلى المراكز المتخصصة في الدماغ. إلا أنه مازال هناك أسرار كثيرة محيطة بما يسمى الحاسة السادسة، فهى تشكل سورا منيعا يصعب اقتحامه، بحيث عجز العلماء والباحثون عن اختراقه ومعرفة ما بداخله. وهناك بالطبع شواهد عديدة تؤكد وجودها لهذا يواصل العلماء البحث عنها لاعتقادهم بأنها صلة الوصل بين الكائن الحي والكون المحيط به.

على سبيل المثال هناك حواس عديدة يشعر بها الإنسان وبدون أعضاء حسية مثل الجوع والعطش والجنس وأخرى كالخوف والحزن والفرح والأمل واليأس والطموح وغيرها ، هذه الحواس ليست بذات عضو ظاهر للعيان. لذلك لا يعتبرها البعض حواس لخلوها من الأعضاء الحسية فعندما يحلم المرء بشخص آخر يتحدث إليه أو حدوث بعض الحوادث المؤلمة. فكل ذلك يتم بالمخ دون أن تعمل أعضاء الجسم الأخرى أى لابد أن توجد قنوات أخرى بالمخ تنتقل خلالها حقائق العالم المادى القريبة والبعيدة عن إدراكنا دون الاعتماد على الحواس الخمس المعروفة.

ففي بعض الأحيان يتحقق حلم شخص ما. أو يرى مشهدا فى أحد الأيام فيشعر بأنه مألوف إليه مع العلم أنه لم يره من قبل. وبعض الناس

يتنبأ بوقوع أحداث هامة وآخرون تلمع فى أذهانهم خواطر سريعة كلمح البصر يتجاوزون بها حاجز الزمان والمكان (الزمكانية) فيرون أشياء تبدو لغيرهم مستحيلة. وأحيانا يجد المرء فى حلمه حلا لمسألة أو معضلة استحال عليه حلها وهو فى حالة اليقظة وكأن إلهاما هبط عليه. وبعض هؤلاء يستشف أفكار الآخرين ويقرأها. والبعض يمارس لعبة البصر المغناطيسى تلقائيا أو اصطناعيا (التنويم المغناطيسى) وبالطبع هناك الطبيب الذى يستخدم طرق الاستهواء وتداعى الأفكار فى معالجة المرضى النفسيين.

من هنا دعنا نتساءل هل الحظ والتفاؤل والتشاؤم وحسن الطالع وسوئه والوسواس هى ظواهر لا معنى لها؟.. ولماذا ينقلب الشخص الهادئ الوديع إلى وحش كأسر ذى قوة جبارة عندما يدافع عن نفسه؟ أو عن كرامته؟ وما هى الحركات الارتكازية التى تنشأ كرد فعل لفعل خطير قد وقع؟ وكيف لبعض الناس أن يدركوا حاجة إنسان آخر قبل أن ينطق بها؟

إن مثل تلك الصفات بالطبع موجودة لدى البعض منا بشكل فطرى ويستخدمونها دون بذل أى جهد وعناء، ويتم ذلك تلقائيا. وأن البعض الآخر يمارس رياضة عقلية لتنمية هذه الصفات. مثل تركيز الفكر وصفاء الذهن والاختلاء لمدة زمنية طويلة والابتعاد عن مواضع الحركة والضجيج، بحيث يكون شعار تلك الرياضات العقلية هو السكون وتركيز الفكر. فظهرت على سبيل المثال رياضة اليوغا. وقد ذكر أن بعض الهنود توصلوا

إلى بعض من هذه الصفات التى لم يقرها العلم المادى. فأحدهم ينام فى غابة ولا يخشى حيواناتها الضارية ولا تؤذيه حتى لو مرت بجواره. ويستطيع آخر أن يزجر نمرا هائجا كما ينهر شخص كلبه. وبعضهم ينام على المسامير الحادة دون أن تخدشه. وهناك العديد من الأمثلة التى لا تعد ولا تحصى يجعلنا نتساءل ما هو السر وراء الحاسة السادسة.

أجزاء المخ

ولمحاولة تفسير الظواهر السابقة دعنا نستعرض الأقسام الرئيسية للدماغ عند الإنسان وهو أحد أكبر أعضائنا والتى نذكرها فى ترتيب تصاعدى ابتداء من أسفل جزء به.

جذع الدماغ، المخيخ، الدماغ البيئى، المخ وفيما يلى سوف تتناول التكوين التشريحى لهذه الأجزاء:

(١) جذع الدماغ: ويتكون من النخاع medulla فى أسفل جزء من الدماغ الذى يعلوه مباشرة الجسر Pons وفوقه الدماغ المتوسط midbrain والنخاع هو امتداد بصلى الشكل للحبل الشوكى ويقع داخل التجويف القحفى فوق الثقب المتسع فى العظم الذى يسمى الثقبة العظمى Foramen magnum، ويتكون النخاع مثل الحبل الشوكى من مادتين إحداهما تسمى المادة الرمادية (السنجابية) والأخرى تسمى المادة البيضاء. إلا أنها تختلف عن الحبل الشوكى من حيث الترتيب، ففى حالة النخاع تمتزج قطع من المادة الرمادية بطريقة معقدة مع المادة البيضاء لتشكل ما يسمى بالتكوين الشبكى reticular formation . أما فى الحبل الشوكى

فإن هاتين المادتين لا تمتزجان، إذ تكون المادة الرمادية اللب (القلب) الداخلى للحبل بينما تحيط به المادة البيضاء.

ويتكون الجسر كالنخاع من المادة البيضاء وقطع متناثرة من المادة الرمادية. وتعمل كافة أجزاء الدماغ كمسارات توصيل فى اتجاهين. فتوصل الألياف الحسية الدفعات من الحبل إلى أعلى نحو الأجزاء وتوصل الألياف الحركية الدفعات من الدماغ إلى أسفل نحو الحبل الشوكي وبالتالى فهى تتحكم فى نبض القلب وعمليات التنفس وتحديد أقطار الأوعية الدموية.

(٢) المخيخ The cerebellum وهو ثانى أكبر جزء من الدماغ، ويتكون سطحه الخارجى من المادة الرمادية أما كتلته الخارجية فتتكون من المادة البيضاء. والوظائف العامة للمخيخ هى إنتاج حركات سلسة منسقة والمحافظة على التوازن والتموضع السوى للجسم.

(٣) الدماغ البيئى The diencephalant وهو يشغل جزءا صغيرا من الدماغ ولكنه يعتبر من الأجزاء الهامة. ويقع بين الدماغ المتوسط من أسفل والمخ من أعلى. ويتألف من جزأين رئيسيين هما الوطاء – hypo- thalamus والمهاد thalamus. ويقع الوطاء تحت المهاد وأجزاؤه الرئيسية هي الغدة النخامية الخلفية – والسويقة التى تتصل بالسطح السفلى للدماغ وكذلك جزأين من عناقيد لأجسام من الخلايا العصبية يسميان جنيب البطينية Paraventricular وفوق البصرية sypraoptic ويقعان فى الجدران الجانبية للبطين الثالث. ويساهم الوطاء فى بقاء

الجسم سليما إذ يتحكم فى العضلات والغدد الموجودة فى جميع أجزاء الجسم. وكذلك يقوم بممارسة تحكم رئيسى لجميع أعضاء الجسم الداخلية.

ويتكون المهاد أساسا من تغصنات وأجسام خلايا العصبونات التى تمتد إلى مناطق حسية متنوعة للقشرة المخية cerebral cortex والمهاد يساعد في إنتاج الأحاسيس. ويربط بين الأحاسيس والانفعالات. ويلعب دورا فى آلية الإثارة أو الإنذار.

(٤) المخ The cerebrum وهو أكبر وأعلى جزء فى الدماغ عند الإنسان ويستقر فى ضمن جمجمة عظمية تشكل له درعا واقيا. ويبلغ وزنه بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ غرام. وإذا نظرت إلى السطح الخارجى للمخ، فإن أول ما ستلاحظه هو مظهره المتسم بكثرة الأحرف والأخاديد. وتسمى الأحرف بالتلفيف أو التلافيف gyri كما تسمى الأخاديد بالشقوق fissures. ويقسم المخ بواسطة أعمق الشقوق إلى نصفين متماثلين، أيمن وأيسر. ويتألف سطح المخ من طبقة رقيقة من المادة الرمادية مكونة تغصنات وخلايا العصبونات وتسمى القشرة المخية. أما داخل المخ فيتألف من المادة البيضاء مكونة حزما من الألياف العصبية (مسالك).

ومع ذلك وجد أن المادة البيضاء بداخلها جزر قليلة من المادة الرمادية تعرف بالعقد القاعدية basal ganglia التى تكون وظيفتها أساسية لأدائنا وتحركاتنا الذاتية. والمخ يحوى حوالى ١٢ بليون من الخلايا العصبية المتخصصة. ولهذا الجزء من الجسم أولوية التكوين وسرعتها، بحيث تتولد داخله عشرون ألف خلية فى كل دقيقة، ويتم ذلك خلال

فترة الحمل. وبعد الولادة ينمو المخ حجما لا عددا وبسرعة تفوق كافة أعضاء الجسم الأخرى. كما إنه أول الأعضاء بداية بالحياة وأولها بداية بالموت. وهو يتكون من مجموعة خلايا غير عادية متصل بعضها ببعض، حيث تعتبر كل خلية عقلا إلكترونيا يصدر عنه أكثر من عشرة آلاف إشارة كهربائية إلى الخلايا المجاورة. كما أنها تستقبل مثل هذا العدد من الإشارات. ويتم نقل تلك الإشارات بشكل نبضات خلال الألياف العصبية التى تبلغ الملايين في كل ثانية من حياة الإنسان الواعية واللاواعية. هذا الترابط والتوافق بين تلك الإشارات والرسائل العصبية الكهربائية فى القشرة المخية تنشأ عنه المشاعر والعواطف وبعدها يصفى المخ وينقى من ذلك الشتات الوارد له ويخزن ما يلزم له لمستقبل الزمان.

فالطريقة العادية لانتقال المعلومات أو الأحاسيس إلى الإنسان أو الحيوان هو أن الأعضاء الحسية تستقبل الطاقة الطبيعية الواردة من الوسط المحيط بها وتترجمها إلى شفرة أو رموز خاصة عن طريق الجهاز العصبى في العضو الحساس. وهذه الشفرة هى عبارة عن نبضات كهربائية أو إلكترونية تنتقل خلال أغشية الخلايا المناسبة فى المخ وتكون النتيجة شعورنا الواعى بذلك الشيء. وهذا هو الطريق الطبيعى لوصول الإدراك للمخ.

الغدة الصنوبرية

والسؤال الذى يطرح نفسه، ما هى الوظائف التى يؤديها المخ؟ وإجابة هذا السؤال تتلخص فى المصطلحات الخمسة الآتية: الوعى والعمليات العقلية والأحاسيس والانتقالات والحركات الإرادية.

ولكن ماذا عن الظواهر سابقة الذكر المتعلقة بالحاسة السادسة والتى يحدث فيها طي للزمكانية (التنبؤ)؟ السر فى ذلك هو وجود العين الثالثة والتى تسمى «الغدة الصنوبرية» Pineal Gland ويتنبأ العلماء بوجودها أعلى الجذع الدماغى فى أعماق الدماغ. وبالرغم من أنه لم يتمكن أحد من الباحثين من تحديد مكانها بدقة ومعرفة آلية عملها، إلا أنه يعتبر حدسا واقتناعا لدى العلماء بأن هذه الغدة قد تكون مركز الحاسة السادسة لدى الإنسان، أى مركزا للأفكار والبصر المغناطيسى والجلاء البصرى ومركز للبث الإشعاعى الموجى واستقباله أيضا.

أما فى الحيوان فهى مركز الغريزة والتوجه والهجرة، وقد تحولت هذه الغدة الصنوبرية إلى عين حقيقية فى بعض الفقاريات فصارت عينا ثالثة لها ترى بها أو تتحسس الأشعة الحمراء الحرارية، فترى بها ظلمات الليل وكأنها نهار. وإن لهذه الغدة تركيبا بنيويا يشبه تركيب العين تماما ويعتقد أنها تشارك بفعالية فى استقبال وإرسال الأشعة غير المرئية والأمواج الكهرومغناطيسية ذات الترددات العالية جدا. فهى بذلك تقدم للمخ معلومات بطريقة ما تمكنه من الإدراك .

الضوء وأشعة الليزر

وقبل أن نسترسل فى هذا الموضوع، دعنا نستعرض بشىء من التفصيل طبيعة الضوء والخصائص المميزة لأشعة الليزر والتى يعتقد أن لها علاقة مباشرة فى كيفية عمل الغدة الصنوبرية وبالتالى تفسير الحاسة السادسة.

كان الضوء ولم يزل أهم الأسرار الطبيعية العظمى المجهولة فـى حياة الإنسان. ومازال الاعتقاد بـأن للضـوء ماهيـة تحجـب خلفـها الكثير من الأسرار الكونية فإذا تمكن الإنسان في يـوم مـا مـن كشـف ماهيـة الضـوء وأدرك كنهه. يمكنه فهم الكون على شموليته، مما يحقـق لـه مزيـدا من التكيف والتـلاؤم مـع الطبيعـة. فمـن المعـروف لدينـا أن أهـم الإنجـازات العلمية للإنسان فى القرن التاسع عشر الميـلادى هـو إدراك حقيقـة تكـون الضوء من أمواج كهرومغناطيسية. ففى عـام ١٨٦٤م وضـع العـالم جيمـس كـلارك ماكسـويل فـرض وجـود الأمـواج الكهرومغناطيسـية وفـق الأسـس النظريـة للتعبير عـن المجـالات الكهربائيـة والمغناطيســية. وقـد وجـد ماكسويل إن السرعة الانتقالية للأمواج الكهرومغناطيسية مساوية لسـرعة الضوء، ولما كان كل منها موجات مستعرضة ذات طبيعة متشـابهة، فقـد استنتج ظاهرة واحدة. ومنذ ذلك الحين توالت البحوث العلمية على كافة جوانب هذا الاستنباط. ويستخلص من بعض جوانب نظرية ماكسويل إن المجال الكهربائي المتغير يكافئ المجال المغناطيسى المتغير.

فمن المعروف أن مجالا مغناطيسيا متغيرا يحدث قوة دافعـة كهربائيـة وهذا ما يسمى «بالحث الكهرومغناطيسي» الذى ينتـج عنـه فـرق الجـهد الذى يمثل تغير المجـال الكـهربائي بـين نقطتـين. لذلـك يكـون المجـال المغناطيسى المتغير مكافئا فى تأثيره للمجال الكهربائى والعكـس صحيـح، حيث أن تأثير المجال الكهربائي المتغير يكافئ المجال المغناطيسي. وكان ماكسويل قد بين فى ذلك الوقت وجود ظاهرة الحـث الكهرومغناطيسـى، ولكن بصورة غير مباشرة وأشار إلى أن الأمواج الكهرومغناطيسية إنمـا هـى

تعبير عن هذين التأثيرين اللذين يحدث أحدهما الآخر. فالمجال المغناطيسي المتغير ينتج مجالا كهربائيا والمجال الكهربائي المتغير ينتج مجالا مغناطيسيا، إذ يتلاءم المجالان المتغيران على امتداد مسارهما مكونان ما يسمى الموجة الكهرومغناطيسية. وهناك ثلاثة مزايا للأمواج الكهرومغناطيسية هي:

١ – أن تغيير المجالين الكهربائي والمغناطيسي يكون متزامنا ماعدا المناطق المتاخمة للشحنات والمناطق القريبة منها. لهذا تحصل قيم عظمى (الذروة) وقيم صفرية لكل من المجالين في المواقع الزمكانية (الزمان والمكان) نفسها على التوالي. وهذا يعني أن الموجتين الكهربائية والمغناطيسية تكونان بنفس الطور الزمني وأن انتشارهما متعامدان في الفراغ (الفضاء).

٢ – يكون اتجاها المجالين متعامدين فيما بينهما ومتعامدين مع اتجاه الانتقال. لذلك أطلقت تسمية الأمواج المستعرضة على كل من الأمواج الضوئية والكهرومغناطيسية في حالتها العامة.

٣ – تعتمد سرعة انتقال الأمواج الكهرومغناطيسية على الخواص الكهربائية والمغناطيسية للوسط ممثلة بقيم السماحية الكهربائية Permittivity والنفاذية المغناطيسية Permeability لذلك الوسط، ولا تعتمد على مقدار سعة التغير في شدة المجال.

إن الضوء المرئي المعروف لا يحتل سوى مدى صغير من الطيف الترددي للموجات الكهرومغناطيسية يقع ما بين 4.3×10^{-14} هرتز للضوء الأحمر و 7.5×10^{-14} للضوء البنفسجي. فالعين البشرية

لا تستجيب إلا للترددات التى تقع ضمن هذه الحدود الترددية للموجات ويتطلب تحسيس الترددات المخية التى تقع خارج هذا المدى إلى أجهزة متخصصة من مختلف الأنواع. والطيف الكهرومغناطيسى يتراوح ما بين الترددات المنخفضة التى تستخدم فى بعض الاتصالات الراديوية إلى الترددات العالية كما هو معروف فى الأشعة السينية وأشعة غاما. وتحوى الموجات الكهرومغناطيسية مدى واسعا من الترددات، فهناك الأشعة الكونية ذات الترددات الفائقة وأشعة غاما التى تتولد من تغير مستويات الطاقة لنواة الذرة وتنبعث تلقائيا من بعض المواد النشطة إشعاعيا، يلى هذه المنطقة حزمة طيفية أخرى تسمى بالأشعة السينية التى تتولد نتيجة انتقال الإلكترونات بين الأغلفة (المدارات) الداخلية للذرة. كذلك هناك الأشعة فوق البنفسجية والأشعة المرئية للضوء التى تنتج من انتقال الإلكترونات ضمن المدارات الخارجية للذرات، وأيضا الأشعة تحت الحمراء والتى تنبعث بسبب اهتزازات الذرات المكونة للجزيئات. يتبع ذلك الأشعة تحت الحمراء فى النطاق الترددى البعيد والأشعة الميكرومترية (الدقيقة) الناتجة عن دوران الجزيئات ومن الانتقالات الإلكترونية بين المستويات الطاقية فى أغلب المواد التى لها الخاصية البارامغناطيسية.

الضوء لغة الكون وسره

والجدير بالذكر أن الفروض الكهرومغناطيسية لماكسويل عجزت عن تفسير ما يسمى ظاهرة الانبعاث الكهروضوئى. فقد كان الاعتقاد إنه إذا سقطت موجة كهرومغناطيسية على هدف معدنى، فإن طاقتها تتراكم

وتتجمع حيث تغدو كافية لاقتلاع الإلكترونـات مـن داخـل هـذا المعـدن. إلا أن ذلك لم يحدث على الإطلاق، لكنه يتم فقط عندمـا تكـون للموجـة الكهرومغناطيسية الموجهة طاقة محـددة تسـاوى طاقـة ارتبـاط الإلكـترون بذرته. مما حدا بالعالمين «بلانك واينشـتاين» عـام ١٩١٦م إلى العـودة إلى فروض ماكسويل السابقة ودمجها معا في نموذج واحد. وبذلك توصـلا إلى الفرضية الفوتونية التي تنـص علـى أن «الضـوء هـو حبيبـات مـن الطاقـة المهتزة كهرومغناطيسيا». أى أن الضوء هو ازدواجية بين جسيمات وأمواج لها صفة التقطيع المادى والاستمرار الموجي. وسمى كل جسيم مهتز بـهذه الطريقة بالفوتون. وقد تبين بعد ذلك أن سـرعة انتشـار هـذا الفوتـون فـى الفراغ تبلغ $3 X 10^{x}$ متر/سم. وبناء علـى ذلـك فبإمكانـه أن يـدور حـول الأرض ثماني مرات في الثانية الواحـدة، وأن يقطـع المسـافة بـين الأرض والقمر ذهابا وإيابـا فـى زمـن قـدره ٢,٥ ثانيـة. علـى سـبيل المثـال ضـوء الشمس يستغرق ثماني دقائق ليصـل إلى الأرض، ويسـتغرق نصـف سـاعة ليخرج من المنظومة الشمسية كلها. وقد وجد أن كثيرا من الأضواء صدرت من بلايين السنين، أى قبل نشوء مجموعتنا الشمسية ذاتها ومـع ذلـك لم تصل إلى أرضنا بعد. وعلى العكس فإن عددا لا يحصى من المجـرات قـد زال من الوجود ومازال ضوؤها يصل إلينا، وسيبقى ذلك ملايـين السـنين. هذا الضوء يحتاج طبقا للحسابات الفلكية إلى مائة ألف عام ليقطع مجرتنا درب التبانة من أقصاها إلى أقصاها. وعلم الفلك غنـى جـدا بتلـك الأمثلـة الضوئية الرائعة. لهذا كان الضوء لغة الكون وسره الأعظم.

وبهذه الفرضية أمكن تفسير طبيعة الضوء ومعرفة كينونته، كما أمكن تفسير الظواهر الضوئية مثل الانتشار الضوئى وانعكاس وانكسار وتداخل وحيود واستقطاب الضوء إلى آخره.

ومن المعروف لدينا أن الذرة التى تتكون منها المواد المختلفة هى مصنع الضوء. فعند تطبيق طاقة خارجية على نظام ذرى، فإن كل ذرة تمتص قدرا صغيرا من الطاقة وتثار بها (تتمدد) والجسيم الذى ينفذ تلك العملية بالذرة هو الإلكترون. إذ تتزايد طاقته نتيجة لعملية الامتصاص، ويقفز من مداره الأصلى بالذرة إلى مدار آخر أبعد عن النواة (قلب الذرة). وبعد فترة وجيزة يعود الإلكترون لمداره الأصلى مشعا الطاقة التى امتصها بشكل فوتونى ضوئى. ومتكرر هذه العملية، مادامت الطاقة الخارجية مطبقة، مما يكسب الأشعة الضوئية صفة الاستمرار الموجى والتقطع الجسيمى، وأن تلك الموجة المحمولة على الفوتون هى موجات كهرومغناطيسية هذا الانبعاث الفوتونى يحدث دون وجود أى مؤثر خارجى. ولذلك يسمى بالانبعاث التلقائى للفوتون.

معنى الليزر

وفى عام ١٩١٧م توقع العالم ألبرت اينشتاين إنه بالإضافة إلى الانبعاث التلقائى السابق للضوء، يوجد نوع آخر من الانبعاث الضوئى وهو الانبعاث المستحث (المحرض) Stimulated Emission . فقد يحدث أن يصطدم فوتون خارجى مار فى المادة بجوار ذرة مثارة فيها، فيسبب ذلك خللا فى توازنها ويجعل الإلكترون يهبط اضطراريا لوضعه الأصلى،

ولا تلبث أن تفقد الذرة فوتونها الـذى أثارهـا أول الأمـر. عندئـذ يحـدث توافق وترابط للفوتون المحرر من الذرة والفوتون الصادم والنتيجـة انطـلاق فوتونين على قدر كبير من التوافق والانسجام Coherent.

هذان الفوتونان بدورهما سوف يصطدمان بذرات أخرى مثارة فى المادة ويجبرانها على التخلى عن فوتوناتها، بحيث تنضم بدورها إلى الفوتونات الصادمة، مما يؤدى إلى غزارة إعدادها وقوة تماسـكها وتضخيم طاقاتـها. مـن هنـا أتـت كلمـة لـيزر Laser المشـتقة مـن الأحـرف الأولى للمصطلـح الإنجليزى: Light Amplification by Stimulated Emission of Radiation وتعنى «تصخيم (تكبير) الضوء بواسـطة الانبعـاث المسـتحث للإشعاع».

وبعيدا عن التفسيرات الفيزيائية لهذا المصطلـح والتـى سـبق الحديـث عنها فى الفصل السابق . فقد تم حاليا اكتشاف مواد عديدة فى حالاتـها الأربع: البلازمية والغازية والسائلية والصلبة التى تعمل فى المـدى المرئـى وغير المرئى للضوء وبطاقـة ضوئيـة تخـدم جميـع التطبيقـات وفـى شـتى المجالات.

تعريف الحاسة السادسة

والآن وبعد سرد قصة الضوء واكتشاف الليزر، دعنا نتوقف قليلا عنـد تعريف الحاسة السادسة وبيان مدى علاقتها بالضوء وهذا الليزر الساحر. فالحاسـة السادسـة هـى الطريقـة التـى تنتقـل بـها المعلومـات البصريـة والسـمعية وغيرهـا للإنسـان فيـدرك معناهـا ويتنبـأ بحدوثـها دون المـرور

بالحواس الخمس وبشكل خارق عما هو مألوف، أى أنها الطريقة التى يتلقى بها الإنسان معلومات عبر قنوات غير مألوفة وبدون استخدام حواسه الخمس المعروفة والمقيدة بظروف المكان والزمان. وأن المخ هو مقر هذه الحاسة السادسة وبالتحديد فى الجسم الصنوبرى، وقد اكتشف أن للأمواج التى يطلقها المخ طاقة فولطية مقدارها ٥ إلى ٥٠ جزءا من المليون من الفولط الواحد.

والجدير بالذكر أن اكتشاف ظاهرة إطلاق المخ للأمواج الكهرومغناطيسية قد تم باستعمال أدق الأجهزة الإلكترونية ويبذل العلماء والباحثون حاليا جهودا مضنية من أجل معرفة رموز الشفرات المخية الموجية لكشف معانيها وتحديد مكان استقرارها فى هذا الكون. كما يتوقع العلماء وجود أمواج أخرى ليس باستطاعة الأجهزة العلمية الحالية ادراكها واكتشافها.

الليزر.. قصة الكائنات الحية

نستخلص من هذا القول أن الأمواج المنبعثة من المخ بهذه الطريقة العشوائية لا يكون لها أى أثر أو مردود فعال ومجد. وقد توصلت جهود العلماء فى العديد من المعامل والمختبرات أن لتلك الأمواج صفة الانسجام والترابط والتوافق. أى أن لفوتونها صفة أشعة الليزر التى سبق ذكرها. على سبيل المثال وجد العالمان الألمانى ألبرت بوب فرتز A . P. Fritz والأميركى ب.س. كالاهان P.S. Callahan أن بعض الخلايا المزروعة بجسم الإنسان تصدر عنها أشعة كهرومغناطيسية فى المدى فوق

البنفسجي وذات فوتونات متوافقة ، أى أنها تبث أشعة بطريقــة محثوثــة (ليزرية) ، وذلك عند انقسام كل خلية إلى خليتين. وأن هذا الجـزء المشـع لتلك الموجات هو الموروثات الجينيــة المحمولـة علـى الكروموزومـات فـى جزىء الـ DNA ، والمسؤولة عن التعليمات الوراثية فـى الخلايـا الحيـة. أى أن تلك الأشعة الليزرية تترأس قصة الكائنات الحية على الأرض. كما اكتشف أن تلك الجينات تكون مرسلة ومستقبلة أيضـا لأشـعة الليـزر فـى المدى غــير المرئـى للأشـعة فـوق البنفسـجية وكأنـها محطـة إذاعـة تبـث وتستقبل الموجات مع الكون المحيط بــها. وهنـا يكمـن سـر قـوة الحاسـة السادسة ومظاهرها المختلفة. وأن سرها يكون فــى انبعـاث الموجـات فـوق البنفسجية الليزرية من العين الثالثة بشكل خاص ومن كل خلايا المخ فى الدماغ بشكل عام.والجدير بالذكر أن العلماء اكتشفوا أن الغـدة الصنوبريـة تفرز مادة الميلاتونين المنومة عند بدء عملها. ويشعر المرء بالاسترخاء والنوم العميق كلهــا ازداد تركيز الميلاتونين بالمـخ. ويستمر تأثير هذه المادة بـين ٦ إلى ٨ ساعات يوميا.

إن هذه الموجات تكون متحدة وشـديدة القـوة وبذلـك تنتشـر لمسـافات بعيدة دون أن تضعف. هذه الظاهرة تظهر بـالتحديد عنـد انقسـام الخليـة الحية ، وعندما تبث الخلية أشعة كهرومغناطيسية تتوافق مع أشعة الوسط الخارجى عنها ، علما بأن جميع الموروثات المسؤولة عن العوامـل الوراثيـة المنقولة من الآباء للأبناء من خلال جزىء الـ D NA هى التى تطلق هذه الأشعة الليزرية ، والموروثات تكون مرسلة ومستقبلة للأشــعة وكأنـها تقـوم بالحوار والتخاطب مع الوسط الخارجى والكون المحيط بها.

من هنا، فإن طريقة الحوار والتخاطب هي المسؤولة عن التغيرات البيولوجية والفيزيولوجية في الخلية الحية. وهذه الأمور هي التي تخضع الخلايا لقوانين صارمة في عمليات الاصطفاء والارتقاء وبقاء الأقوى تكيفا وتلاؤما مع الطبيعة.

ويمكننا القول، إن للأمواج الليزرية الصادرة عن المخ قوة هائلة تقطع المسافات الشاسعة خلال أجزاء قليلة من الثانية الواحدة. على سبيل المثال تستطيع تلك الأمواج أن تقطع مسافة ثلاثمائة مليون متر في الثانية الواحدة. وهي تزداد قوة عند تلاقيها مع موجة أخرى مماثلة لها تماما. فإذا تصادف وتلاقت موجتان مترابطتان صادرتان عن دماغين لشخصين مختلفين وفي اللحظة نفسها، وكان لهما الطول نفسه والطور الموجي، فيحدث بينهما تداخل موجي ينتج عنه تكون هدب التداخل المعروفة. هذه الهدب تكون بشكل أمواج بعضها ذى تركيز موجي كبير وبعضها لا موجات فيه. فالأولى تسمى الهدب المضيئة وتحتوى على كل الأسرار والشفرات وكذلك الأوامر التي تصدرها الخلية الحية. أما الأخرى فتسمى الهدب المظلمة ولا تحتوى على أى شيء.

وكما هو معروف في الفيزياء الموجية، تتم عملية التداخل في كل نقطة من نقاط الموجتين المنتشرتين وعلى امتدادهما. وتكون تلك الأمواج المستقرة على شكل عقد وبطون nodes and antipodes وتمثل البطن في الموجة الهدب المضيئة. أما العقدة فتمثل الهدب المظلمة. والجدير بالذكر أن حجم الهدب المضيئة متناه جدا في الصغر، لأن الطول الموجي قصير

جدا. وأن الزمن لا يحول عليه في هذه الحالة لأنــه لا متنـاه فـى الصغـر أيضا. عندها يتجاوز الفكر حاجزى الزمان والمكان، ويحصل شبه استقرار لتلك الموجة، وبالتالى لا تتبع القوانين السائدة فـى المكـان والزمـان. لهـذا تجرى عمليــة طـى للزمكانيـة. عندئـذ، لا يشـعر المـرء النـائم لا بالزمـان ولا بالمكان. وربما يشعر فى بعض الحــالات بقـدرة تنبؤيـة. وبمـا إن هـذه المعلومـات لا تخضـع لأى مقيـاس زمنـى وغـير محـددة الأبعـاد، فتكـون صورها عشوائية وتأخذ أشكالا غريبة لا تصح فيها إبعادنا ولا زماننــا. أن احتمال حدوث مثل تلـك الأمـواج التداخليـة أمر طبيعـى فـى المـخ، لأن البلايين من تلك الأمواج الليزرية غير المرئية المتجانسة فيما بينها قصيرة الطول الموجى والمرتفعة فى التردد تنطلق فى كل لحظة من خلايا المخ. إن الهدب المضيئة المتكونة بهذه الطريقة هى مركز تجمع وتراكم كل الأسـرار والشفرات والرموز التى تحملـها كـلا الموجتـين، فيحـدث تـوارد الأفكـار والتخاطر والاستهواء وغيرها من مظاهر الحاسة السادسة. فيرى الإنسـان أشـياء لا تدركـها العقـول ولا تراهـا العيـون ويسـمع أصواتـا لا يســمعها الآخرون.

تصنيف الرسائل الموجية

وهكذا يمكن تفسير جميع الظواهر النفسية مثل التخاطر وتوارد الأفكار والإيحـاء والتنويـم المغناطيسـى والفراسـة وكذلـك التنبـؤ بوقــوع حــادث ما. ويمكن تصنيف الرسائل الموجية تلك كما يلى:

١ – رسائل موجية ليزرية صادرة من مخ الإنسان مـع ذاتـه تـؤدى إلى رؤية الاشباح والأحلام والتفاؤل والتشاؤم والحظ.. إلى آخره.

٢ – رسائل موجية ليزرية متبادلة من شخص لآخر وتؤدى إلى الاستهواء والتخاطر وقراءة الأفكار والفراسة والتنويم المغناطيسي.. إلى آخره.

٣ – رسائل موجية ليزرية صادرة من مخ الإنسان إلى الكون الخارجي ينتج عنها الإيحاء والإلهام والتنبؤ.. إلى آخره.

ويتم هذا التخاطب جميعه إذا توافر للموجة الليزرية المخية أن تصدر باللحظة نفسها مع موجة مخية أخرى لشخص آخر. وأن تصدرا بعد تركيز فكرى إرادى أو لا إرادى ،ان تلتقيا معا فى نقطة واحدة فى الفراغ (الفضاء)، عندها يمكن أن تتحقق مظاهر الحاسة السادسة، التى يقول عنها العلماء أنه يمكن تنميتها بالتمرين والرياضة العقلية. ومازالت الأبحاث جارية لكشف المزيد .

العدد القادم

الحب فى عصر العولمة

د. منى حلمى

الفهرس

إشترك في سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٥٦٩٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5906-3

١/٩٩/٧٢

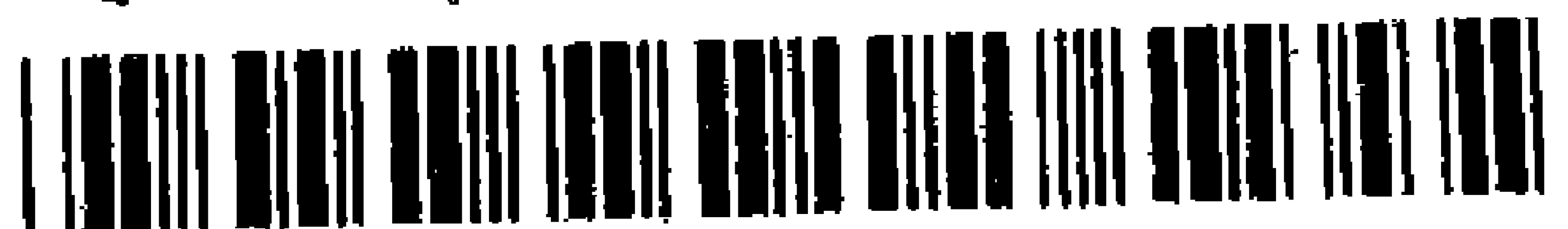
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

حاول الإنسان .. منذ القدم .. فهم الكون المحيط به، فاختلط مفهومه عن الكون بالخيال والخرافة.. حتى جاء العلم.. وقدّم صورة واضحة عن الكون.. نشأته وأبعاده المترامية ومواقع الأجسام بدقة متناهية. وساعد على تفسير الظواهر والمفاهيم الغريبة والمثيرة وكشف لنا الثقوب السوداء وتمدد الكون وخطوط الكم الشبحية ونظريات الفوضى فى الفضاء ووجود الجسيمات الأولية حاملة القوة وكذلك إمكانيات توفير الغذاء وتوفير الطاقة من أعماق البحار والمحيطات واكتشاف المجهول عن طريق قرون استشعار علمية وأمور أعجب وأغرب من الخيال، يتضمنها هذا العدد الهام فى سلسلة اقرأ.



دار المعارف

٤٠٧٠٦٣/٠١

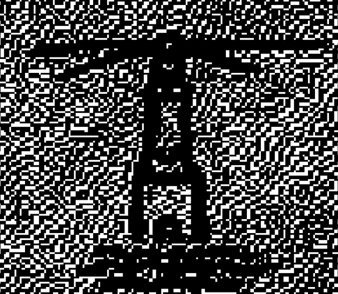


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتورة منى حلمى

الحب فى عصر العولمة



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
صدر عن دار المعارف

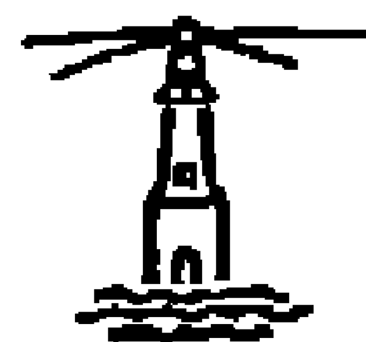
[٦٤٩]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : **منى جامع**

دكتورة منى حلمى

الحب فى عصر العولمة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تقديم

ماذا تعنى الكلمة ؟

سؤال يلازمنى ، منذ أن اختارتنى الحياة لأنتمى إلى ذلك الفعل الممتع ، الموجع فى آن واحد .. «الكتابة» .

أتكون الكلمات مجرد تعبير عن المشاعر ، والأفكار ؟ أهى تجسيد مكثف لجوهر الذات ، وما تحمله من طاقات ، وأسرار ، فى علاقتها بالحياة ؟

نعم ، «الكلمة» تعبير، وكشف للذات، وتفاعل مع الآخر، والطبيعة، والأشياء .

لكننى فى كل مرة أمسك بالقلم ، أحس أن هناك شيئا أبعد من ذلك. كنت أشعر أن التعبير ، والكشف ، والتفاعل لابد لهم من قيمة عليا متجاوزة .

إنها السباحة ضد التيار ، التى تضفى على فعل الكتابة أهميته ، وسحره، وتفرده .

إن الكتابة التى لا تحرض على رفض القوالب المنمطة ، والخروج على الأشكال المتوارثة فى الفكر، والسلوك، تصبح مجرد سلعة رديئة فى سوق الاستهلاك العابر .

والكلمات التى لا تستشرف عالما جديدًا، أكثر صدقا، وعدلا، وحرية، لا تستحق عناء القراءة.

هذا الكتاب بموضوعاته المتنوعة عن الحب ، والمرأة والرجولة ، والفن والدين والفكر ، موجة سابحة ضد التيار ، وتصور جرىء لعالم أكثر إنسانية .

إنه صرخة احتجاج ضد الكثير من المسلمات التى يؤمن بها العقل العربى ، وتعوق انطلاقه وتقدمه رجالا، ونساءً على حد سواء .

فى بعض الأحيان ، تكون الصرخة حادة جدًا ، فى أحيان أخرى تهدأ قليلا . لكنها دائما مصرة على أن تُسمع صوتها . ودائما على ثقة، بأن أصوات الاحتجاج ضرورة لتوازن، وانسجام موسيقى الحياة .

د . منى حلمى

رؤى فكرية عامة

الخوف من الاختلاف

وهل الحياة تستحق أن تعاش ؟

ليس الجواب سهلا كما قد يبدو للبعض .

يتوقف الأمر على من الذى يعيشها .

لا نتصور أن يكون هدف الحياة أن نأكل ونشرب وننتج السلع ونتنزه ونتعامل مع الأجهزة ونتزوج ونتناسل .

هناك هدف أعظم وأسمى تطمح الحياة أن يبحث كل منا عن ذاته المتفردة وأن يكافح من أجل إطلاق مواهبها وقدراتها الخلاقة .

نعم لكل إنسان ذاته المتفردة التى لا تشبهها ذات أخرى . تماما مثل بصمة الإصبع غير قابلة للتكرار ، كل إنسان يولد متفردا ولكن ليس كل إنسان يموت متفردا ، ترى ما الذى يحدث لنا بين الولادة والموت ؟

ترى ما الذى يمسح أو يقتل فينا فطرة التفرد ؟

إنه «الخوف من الاختلاف» .

نخاف أن نفكر ونحس ونغضب ونحلم ونتكلم ونتحرك خارج الخطوط والمدارات المألوفة المرضى عنها .

منذ الصغر فى الأسرة يزرع الأهل (سلطة الأب أو سلطة الأم أو الاثنين معا) بدايات هذا الخوف .. وتتعاون كل ثقافة المجتمع الأكبر ، فى تدعيم ما أرسته سلطة الأسرة فى خلق إناس متشابهى التفكير والإحساس والأحلام .

إن حماية الذات المتفردة الكامنة فينا والمتحفزة للتحقق، مرهون بإعلاء قيمة «التمرد» فى حياتنا.. التمرد على محاولات التنميط والقولبة .

وليس مصادفة أن حرفا واحدا يفصل ما بين كلمة (تمرد) وكلمة (تفرد) .

يكمن جوهر التمرد فى انحياز الإنسان لإرضاء الذات لا إرضاء (الآخر) . هذا ليس معناه التفنن فى خلق صراعات دائمة مع الآخر وليس معناه حب الصدام فى حد ذاته .. ولكن القضية أن يكون الإنسان يقظا . ففى الموقف الذى يتعارض فيه (الآخر) مع إطلاق صوت ذاته الداخلى تكون الأولوية بدون تردد للذات .

«التفرد» أمانة أودعتها الحياة فى نفوس البشر ، وبالتالى فإن التنازل عن حقنا فى «التمرد» والحرص الدائم على إرضاء الآخر لا إرضاء الذات هو خيانة للحياة .

ولكن الحفاظ على أمانة «التفرد» ليس طريقا مفروشا بالزهور إنه طريق ملغم بالأخطار ، فلا شيء يثير حفيظة الناس وغضبهم إلا (ذات) مصرة على اختلافها ، واثقة من تفردها ومن الإصرار والثقة تتولد الشجاعة الضرورية للسباحة ضد التيار .

إن الإضطرابات النفسية ، والميول العدوانية تجاه الآخر أو اتجاه النفس وأفكار وسلوكيات التعصب، كلها تجد جذورها فى عجز الإنسان عن تحقيق ذاته المتفردة والاستعاضة عنها بنسخة مشوهة من ملايين البشر .

والشيء الغريب أن البشر يوجهون الكثير من الوقت والجهد والاهتمام لتنمية أشياء خارجة عنهم ، مثل النجاح والفلوس والشهرة وكسب

الأصدقاء والعلاقات الاجتماعية ، كل ذلك في إطار من استحسان الآخرين ، ورضاهم ومدحهم ، ولكنهم يبخلون بالوقت والجهد والاهتمام للاستماع إلى صوتهم الداخلي وإنماء الذات المتفردة داخل كل منهم .

إن الانشغال بالعالم الخارجي وإهمال العالم الداخلي يضع أسس اغتراب الإنسان عن ذاته الحقيقية .. وطالما اغترب الإنسان عن ذاته فإنه يظل غير سعيد مهما وصل إلى نجاح مادى أو مركز مرموق أو شهرة أو فلوس ومهما أحاط نفسه بالعديد من الصداقات والعلاقات .

لقد اعتبر الفيلسوف (سورين كير كجورد) أبو الفلسفة الوجودية وأكثر الفلاسفة تأكيدا على أهمية الذات ، أن الحقيقة هي الذاتية حيث إن العالم الخارجي (الموضوعي) لا يقدم لنا إلا الشك .. تأتي الحقيقة من ذاتية العلاقة وليس موضوعيتها التى يشترك فيها كل الناس .. معنى ذلك أن (الموضوعية) التى يطالب بها الآخرون ويعطون لها أفضلية عن (الذاتية) ليست إلا غياب تفرد الإنسان .

ولأن الحياة قد أودعت في قلب كل إنسان بصمة متفردة ، فإن كل ذات تحمل داخلها سرا من أسرار الكون ، وربما تحمل الكون كله في شكل بشرى مصغر .

وبالتالى فإن كفاح الإنسان لإعلاء ذاته المتفردة هو بالضرورة إعلاء لكلمة الحياة وانتصار لقوانين الكون الأزلية المرادفة للعدل والخير والحب والجمال .

إن الحياة تتقدم وتزدهر بفضل هؤلاء النساء والرجال الذين أرهفوا السمع إلى صوتهم الداخلي رغما عن صخب التشابه ، ولم يتنازلوا عن تفردهم الذاتى مقابل أية إغراءات خارجية .

الحصار ضد الأقليات المبدعة

عرفنا من فلاسفة الأخلاق القدماء أن الفضيلة وسط بين رذيلتين .

فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور . والكرم وسط بين البخل والتبذير . والحرية وسط بين القهر والانحلال . والنظام وسط بين الفوضى والجمود .

ولأن الإبداع فضيلة ، فهو يخضع للنظرية نفسها . فالإبداع وسط بين رذيلتين (الجنون) ، و(العادية) . ويكون المبدع بالتالى هو الوتر المشدود بين الإنسان فاقد العقل (المجنون) ، والإنسان فاقد التفرد (العادى) .

وإذا نظرنا إلى (الجنون) باعتباره حالة الانفصال الكامل المستمر عن الواقع والناس والعالم الخارجى ، وإلى (العادية) باعتبارها حالة الاتصال الكامل ، يكون الإبداع هو تلك الحركة الخلاقة (الفاصلة) بين قطبى أو رذيلتى الانفصال والاتصال . ويكون المبدع هو ذلك المسافر أبدا على المسافة المتأرجحة والوعرة بين الخارج والداخل بين الآخر والذات ، بين الكلام والصمت ، بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون .

هنا تكمن عبقرية المبدع أو (المبدعة) وأيضا مأساته. يدرك المبدع أن استمرار عبقريته وإبداعه مرهون بالإبقاء على الخيط الرفيع بين الاتصال والانفصال. فالإبداع يشحن ويجدد بالاتصال. لكنه لا يمنح طاقاته وأسراره ورؤاه إلا بالانفصال .

ويحكى لنا التاريخ، عن مواهب وطاقات مبدعة ، تبددت بسبب ارتباك فى جرعتى الاتصال والانفصال ، فإذا زادت جرعة الاتصال بالعالم الخارجى، كان ضياع الوقت، والتعطل، وحصار التفاهات، ومشاغل الدنيا غير الموحية. أو زادت جرعة الانفصال عن العالم الخارجى، فكانت العزلة، والإفلاس، والجدب، وربما الكآبة إلى حد الجنون أو الانتحار.

يتعطش المبدع إلى نوع خاص رفيع من التواصل . ليس أى بشر، ليس أى حوار، ليس أى عمل فنى، وليست أية صحبة قادرة على مخاطبة أصالة الحياة داخله ، وتفجير ما يملكه من عمق وثراء .

وهذه مشكلة اجتماعية تاريخية ، لا دخل للمبدع فيها ، فالتواصل اللازم للمبدع لا توفره إلا المجتمعات المتألقة فكرا وفنا وحيوية . مجتمعات تقدس قيمة الفن ، تحتفى بأهل الإبداع ، وتحرص على إشباع رغباتهم فى الاكتشاف والتجديد وكسر المحظورات وتغيير شكل الحياة .

قد يفضل المبدع العزلة والانفصال ، عن تواصل زائف سطحى – يسحب من طاقاته وينال من إنسانيته وإبداعه .

ويبقى السؤال الذى يواجهه المبدع فى كل زمان ومكان : كيف يتحرك برشاقة بين (الخارج) و(الداخل) بين (الآخر) و(الذات) ، بين كثافة وعنفوان التجربة ، والتأمل الهادئ لإعادة إنتاجها فى الإبداع . كيف يختار زاويته الصغيرة الخاصة من العالم ، ليطل منها على العالم ؟

إنها (القلعة الداخلية) التى تمنح المبدع الاكتفاء والاستغناء ، وثورية الرؤية . كل مبدع بالضرورة هو بطولة صامتة فى عالم لا يخجل من صخب الثرثرة العقيمة . كل مبدع بالضرورة هو زهد نبيل، فى حضارة اعتنقت الشراهة .

يقول أرنولد توينبى ، متابعا حركة التاريخ : إن (الأقلية المبدعة) هى التى تغير شكل الحضارات ، وتدفع بالمجتمعات إلى آفاق غير مسبوقة من التقدم .

لا نبالغ إذا قلنا أن (الأقلية المبدعة) في مجتمعاتنا ، ما زالت محاصرة بالممنوعات والمحظورات والريبة وسوء الفهم ودورها ورسالتها .

ونحن على مشارف قرن جديد من الزمان ، نتساءل : إلى أى مدى تستعد مجتمعاتنا لفتح الطريق أمام (الأقلية المبدعة) ؟

هل لدينا فلسفة مستقبلية .. ما الذى نريده من هذه (الأقلية المبدعة)؟ أنريد لها الجنون ، أو العزلة أو الانتحار ، أو الكآبة ؟ أم نريد لها ما قصدته البشرية ، من وجودها .. إثراء الحياة بالحق والخير والجمال ؟

مجرد سؤال !

القهر ضار جدا بالصحة

وقفت المذيعة التى تتخفى وراء حجاب من المساحيق، والرموش الصناعية، والعدسات اللاصقة الملونة، وصبغة الشعر الصفراء، تعظ الشباب فى برنامج تليفزيونى عن مضار التدخين قائلة: «أيها الشباب.. لا تدمروا أنفسكم بالتدخين، مجتمعكم يحتاج إليكم».

هذه الموعظة التى وجهتها المذيعة إلى شبابنا بالإقلاع عن التدخين يتضامن حولها العديد من الهيئات والجهات، والجمعيات المحلية، والدولية.

وهناك اليوم العالمى للإقلاع عن التدخين، وهناك التحذيرات من التدخين فى الحجرات المغلقة، وأماكن العمل، والتجمعات المزدحمة، والآن هناك حملة لعدم بيع السجائر لمن هم أقل من ١٨ سنة.

كل هذا جميل، ولا يمكن بأى حال من الأحوال، أن ينكر إنسان ما تلك الجهود، أو يعارض الإعلام عن مضار التدخين، أو كيف أنه انقرض أو يكاد ينقرض من الدول المتقدمة، ومازال منتشرا فى الدول النامية، حيث تشكل الدول النامية السوق الأساسية لبيع السجائر.

ولكن القضية ليست بهذه السهولة، إن إقبال الشباب والشابات على التدخين، رغم علمهم بمضارة وما يسببه من أمراض، يدلنا على وجود

خلل ما.. نحن مع ظواهر حياتنا المختلفة ، لا يجب أن نكتفى بالإشارة إلى النتائج والقشور الخارجية ، وتقديم المواعظ الاخلاقية ، والتحذيرات والتعليمات ، لابد من مواجهة الاشياء من جذورها.

الشباب يدخن، لأن هناك من «الدوافع» النفسية ، والاجتماعية ، ما يجعله يقبل على سيجارة تدمر الصحة ، وتقصف العمر.. وسوف تظل عادة التدخين منتشرة بين الشباب، طالما أن هذه الدوافع النفسية ، والاجتماعية باقية دون تغيير.

إن الشاب الذى يشعل سيجارة رغم علمه بمضارها ، إنما يشعل فى الوقت ذاته ، رغبته فى إحراق إحباطاته ، وقهره، والفتاة التى تشعل سيجارة، رغم علمها بمضارها، تشعل الحنين المكبوت للتحقق الإنسانى ، والعاطفى ، والعملى . لا أحد يتكلم عن إحباطات وقهر الشباب والشابات فى بلادنا . شباب تائه ، ضائع ، متجهم، متوتر، شباب لا حاضر له ، ولا مستقبل يعده بالعمل أوالتحقق، أو المشاركة فى صنع أى قرار سياسى، أو اجتماعى، أو ثقافى أودينى.

إنه المنطق نفسه مع قضايا أخرى عديدة فى مجتمعاتنا، أبرزها برامج وإرشادات وحملات تنظيم الأسرة فى الريف، والمدينة.. إنها حملة قومية لن تنجح إلا مع الناس الذين انتفت لديهم دوافع الاحتياج إلى أسرة كبيرة ممتدة بالفعل، إن الفقر وافتقار الضمانات الاجتماعية ، والتأمينات الصحية، خاصة فى الريف، يجعل من الأطفال موردا اقتصاديا فى الحاضر، وسندا اجتماعيا فى المستقبل . ليست مصادفة أن تنظيم الأسرة،

يوجد إما فى البلاد المتقدمة، أو بين قطاعات الأفراد الذين أرتفع مستوى دخولهم، ومعيشتهم، وأصبح لديهم بالتالى طموحات وأحلام، للاستمتاع بالحياة، لا تتوافق مع المسئوليات والقيود التى تفرضها الأسرة كبيرة الحجم.

لو كنا حقا نريد للشباب الإقلاع عن التدخين فعلينا أن نوقف سيل المواعظ والتحذيرات، ونوجه الاهتمام إلى «تمكين» الشباب من تحقيق أحلامهم فى الحاضر، والمستقبل وإعطائهم الفرص الحقيقية لإثبات ذواتهم فى العمل والتفكير، والنقد والإبداع.

وهذا «التمكين» غير ممكن، إلا مع مناخ الحرية، والقضاء على كل أشكال القهر الذى يخيم على شبابنا وشاباتنا.

فالقهر ضار جدا بالصحة، أكثر من ضرر التدخين، إن الشاب المتحقق يخاف على صحته وعلى عمره، وعلى شبابه.. والشابة المتحققة تخاف على صحتها وعلى عمرها، وعلى شبابها.

لكن الشابة المقهورة، أو الشاب المقهور على كل المستويات، ليس لديه «دافع» قوى للحفاظ على نفسه، وعلى حياته، ويصبح من السهل أن يقع فريسة «التدمير الذاتى» الذى يقوم به، تجاه نفسه وجسده.

حين يحس الإنسان بالقهر والإحباط خاصة فى سن الشباب، تنحرف طاقته نحو مسارات انحرافية متعددة.. وفى حالة مثل التدخين، تتحول الطاقة التدميرية نحو «الذات» فالجسد هو أقرب شىء للإنسان وهو الشىء الوحيد الذى يملكه أو يتوهم أنه يملكه فى عالم يجرده من

كل شيء.. وهذا الوهم بملكية الجسد له مصداقية أكبر في حالة الفتاة، أو المرأة. فحقيقة أن جسد المرأة هو وسيلة لإنتاج البشر، فعلى المجتمع - خاصة لو كان مجتمعا ذكوريا متسلطا - أن يخلق من المحظورات والقوانين والمحرمات التي تتحكم في هذا الجسد الذي يخلق البشر، والقوة العاملة، ويحمل مهمة استمرار البشرية، وحفظ المجتمعات من الانقراض، أو الانكماش.

إن العادات «السيئة» المضرة بصحة الإنسان، وجسمه، مثل عادة التدخين، أو العادات الغذائية الخاطئة، والتي تنتج عنها السمنة المفرطة، كلها نتائج طبيعية لشعور الإنسان بدرجات وأشكال مختلفة من القهر، وعدم التحقق الإنساني، والعملي والعاطفي.

إن «الريجيم» القاسي، المستمر، الذي تفرضه النساء والرجال على أنفسهم يخفق على المدى الطويل في تحقيق «الرشاقة» المطلوبة، فـ «الرشاقة» هي أساسا «نمط للحياة» يؤدي إلى السعادة والتحقق المتكامل لكل متطلبات، واحتياجات الشخصية، وليس مجرد «نمط غذاء».

إن الإنسان السعيد المتحقق لا يفرط في الأكل ولا يدخن ولا يقبل على أي شيء ينال من صحته. الجسم السعيد المتحقق يلفظ «النيكوتين». والجسم السعيد المتحقق لا يأخذ من الطعام، إلا احتياجه، والجسم السعيد المتحقق لديه مناعة قوية ضد أخطر الأمراض والفيروسات.. والجسم السعيد المتحقق والنفس السعيدة المتحققة، نتاج مجتمع سعيد، سوي، وصحي.. وهذا ما لا يتحقق في عالمنا المعاصر.

كهنة الثقافة وكهنة الأديان

مثلما نعاني من الإرهاب تحت ستار، «الديـن» توجـد ظاهرة أخرى موازية هي الإرهاب تحت ستار «الثقافـة». مثلمـا هنـاك جماعـات تقـوم بتكفير البعض، والمطالبة بـإهدار دمـه، وتصفيتـه جسـديا باسـم. الديـن. هناك «شلل» تقوم بتكفير البعض فكريا، وإهدار دمـه إعلاميـا، وتصفيتـه أدبيا باسم الثقافة.

مثلما هناك جماعات تدعى امتلاك الحقيقة الدينيـة، نجـد جماعـات تدعى امتلاك الحقيقة الثقافية.

الأولى: تزعم أحتكار تفسير الدين، والحكم على المؤمنين والمؤمنات.

والثانية: تحتكر تفسير الثقافـة والفن والأدب والحكـم علـى المفكريـن والمفكرات.

امتـلأت حياتنـا الثقافيـة بـــ «الكهنـة» أغلبـهم مـن الذكـور، الذيـن يسـترزقون مـن التفقـه فـى تصنيـف الأدبـاء والأديبـات، ونقـد المبدعــين والمبدعات. ولديهم قائمة اغتيـالات معنويـة، لكـل مـن لا يـؤدى طقـوس الطاعة والولاء، ولكل من يتعفف عن تقديم القرابين..

ولديهم أيضا، قائمة اتهامات جاهزة للانقضاض علـى كـل أديـب، أو أديبة، مبدع أو مبدعة، أثبت وجـوده مـن خـارج عباءتـهم، وليـس فـى حاجة إلى رضاهم وبركتهم وشفاعتهم.

والكارثة أن هؤلاء «الكهنة» الذين نصبوا أنفسهم «آلهة» الثقافة والفكر والإبداع والنقد يعرفون الطريق أكثر من غيرهم إلى وسائل الإعلام، وبالتالى هم ينجحون فى اختراق الرأى العام وإفساد الذوق الثقافى..

إن كهنة «الأديان» يحشون أدمغة الناس بما ينسجم مع تفسيراتهم الشخصية للدين، ومصالحهم السياسية الخاصة.. وكهنة «الثقافة» يحشون أدمغة الناس بمن يدعم رؤيتهم الخاصة للثقافة والإبداع..

وكما يقف أصحاب الإرهاب الدينى طبقة عازلة بين الناس والدين الحقيقى، يحجب أصحاب الإرهاب الثقافى عن الناس بجدار سميك معنى الثقافة الحقيقية وجوهر الإبداع الأصيل.

إن كهنة «الثقافة» وكهنة «الأديان» يدعمان بعضهما البعض.. وهما ظاهرتان يفرزهما مناخ واحد وترسخهما منظومة واحدة أو لنقل إنهما وجهان لعملة واحدة، وإن كنا نرى أن كهنة «الثقافة» هم الأكثر خطورة ، فاستمرار الإرهاب الدينى مرهون بسيادة الفكر الواحد، والتعصب لرؤى فكرية محددة تفرض حصارها وسيطرتها، وهذا بالتحديد ما يرسخه كهنة «الثقافة» هم يزرعون بذور «التعصب» الفكرى و«التزمت» الإبداعى، كأسلوب حياة ونمط للتفكير.

حركة الحياة، وإن أصابها بعض التراجع، هى دائما نحو الارتقاء، ولذلك فإن أصحاب المؤسسات «الكهنوتية» وأنصار الفكر «الكهنوتى» فىالدين والثقافة على حد سواء، هم إلى زوال.

حضـــارة الصخب

هناك حكمة تقول: إن الإناء الممتلئ هادئ الصوت، بينما الإناء الفارغ يحدث صوتا عاليا.

مغزى الحكمة، أن هناك علاقة عكسية، بين وجود الشيء، والامتلاء الفعلى به، وبين حدوث الصخب.

تنبع أهمية، وخطورة هذا المعنى، أنه يمتد ليشمل ليس فقط الأشياء، ولكن البشر، والحضارات أيضا.

فالإناء الممتلئ هادئ الصوت.

والإنسان الممتلئ هادئ الصوت..

والحضارات الممتلئة هادئة الصوت..

وحين نتأمل حالنا - خاصة فى الأونة الأخيرة - تصدمنا حقيقة سافرة الوجه، أننا مجتمعات شديدة الصخب..

هناك كمية من «الزعيق» تحاصر حياتنا لا يبررها أى منطق، سوى أننا أصبحنا نعاني بدرجة مرعبة من «الخواء» الفكرى والروحى.

إن «الخواء» يولد عدم الثقة. ويفجر عدم الثقة - بدوره - أشكالا مختلفة من التوتر. ويكون الصخب فى الحوار، وفى السلوك ضرورة نفسية لتفريغ شحنات التوتر، وأيضا للتعويض عما هو غائب، ونفتقد إليه داخلنا، كما أن الصخب - بحكم طبيعته التى تثير التشويش - يمنع

صوت العقل الهادئ من الاشتراك فى المجادلة، وكشف الحجج الواهية أو المفتعلة لأصحاب النبرة الزاعقة، وبالتالى يكون خير ميكانزم دفاع عن وجود هش، مهتز لا يحتمل النقاش المنطقى الجاد.

والملاحظ فى حياتنا، أن هناك مسألتين تأخذان نصيب الأسد من الصخب ألا وهما الفضيلة، والوطنية.

هناك حساسية مرتفعة الصوت تجاه قضية «الأخلاق»، وهناك حساسية مرتفعة الصوت تجاه قضية «سمعة الوطن».

إن المجتمعات القوية أخلاقيا ليست فى حاجة إلى الحديث الصاخب، المتضخم عن الأخلاق، ولا تدعو إلى الفضيلة بالزعيق، والأوطان التى أرست دعائم الانتماء إليها فضمنت حقوق الإنسان لكل مواطن، ومواطنة لا تستخدم تعبيرا مثل، سمعة الوطن، هى تعى أن سمعتها لا مرجع لها إلا ما تحققه على أرضها من عدالة، ومساواة بين جميع أفرادها . إن تعبير «السمعة» هو مصطلح أخلاقى أيضا، ارتبط تاريخيا، بما خلفته المجتمعات الذكورية من سلطة الرقابة، والوصاية على جسد المرأة بشكل خاص. ومحدد، ونظرا لأن قيمة الشرف للرجال فى هذه المجتمعات ارتبط بسلوك النساء فإننا نستطيع تخيل مدى حساسية، التداعيات الأخلاقية التى تثير تعبيرا مثل «سمعة البلد» أو «سمعة الوطن».

إن الخواء، كما أنه لا يستقيم مع الهدوء ، لا يستقيم أيضا مع التواضع، إن السنبلة الممتلئة بالقمح تكون فى وضع انحناء، بينما تأخذ السنبلة الفارغة وضع الوقوف.

الإنسان (أو المجتمع) الممتلئ محصن ضد حماقة الاعتقاد، إنه خير الناس، وخير المجتمعات، ولا يهاب التعايش مع «الآخر» على قدم المساواة..

على العكس فإن الإنسان (أو المجتمع) الخاوى لا يعرف إلا العلاقة العمودية، التى تقوم بين «أعلى» و«أدنى» وبالطبع يكون «الآخر» أيا كان هو «الأدنى» الذى يحتاج إلى التقويم، والتصحيح.

وفى معادلة «الخواء» للتعايش السوى مع «الآخر» فإن أصحابه يلهثون – فى المقابل – لإيجاد أى شىء يمكن أن يتملكهم، ويستقطب طاقاتهم، وغالبا ما يكون هذا الشىء هو التعصب لزعيم سياسى أو نجمة سينمائية أو عصر من العصور التاريخية الماضية، أو لاعب كرة قدم، أو نمط صارم من ملذات العيش. المهم أن هذه كلها وسائل هروب لتفادى المواجهة المباشرة، والحاسمة لحقيقة الخواء الداخلى.

ليس الخواء الفكرى والروحى سمة مجتمعات دون غيرها، ولكنه عنوان عالمنا المعاصر، إن الحروب، وسفك الدماء، وأنظمة استغلال البشر، والعنف ضد الطبيعة، وإيقاع الحياة الصاخب اللاهث، ما هى إلا حضارة عالمية خاوية، مفلسة الفكر، والمعنويات، وإن ملكت ذروة العلم، والتكنولوجيا.

التفلسف ليس حكرا على الفلاسفة

هناك خطأ شائع أن الفلسفة رفاهية، وأن فعل التفلسف هامشى، غير ضرورى، وليس من أساسيات العيش تقوم به أقلية، منعزلة، مستريحة، إنه فعل يجد متعة فى اللعب بالألفاظ وتعقيد ما هو بسيط، وتجريد ما هو مجسد، وإضفاء الغموض على الشيء الواضح، وبالتالى، فإن الأولوية لابد أن توجه إلى المشاكل اليومية الملتصقة بحياة الناس، فإذا ما حلت المشاكل وسمح الوقت، فلنتفلسف.

أن هذا المنطق قدر ما يتهم الفلسفة، والتفلسف، يتهم أيضا الإنسان، وهو منطق يجهل جوهر الفلسفة، ويتغاضى عن حقيقة لا مهرب منها، وهى أن الإنسان حيوان يتفلسف.

نحن نرفض النظرة التى تؤجل التفلسف إلى حين أو تضعه فى جانب، بينما تضع الإنسان والحياة، فى جانب آخر إن التفلسف جزء لا يتجزأ عن الحياة، والفلسفة، كما أرادها الفيلسوف موريس بلوندل، لها صيغة الفعل الإيجابى، ومتشابكة مع السلوك.

نحن نعتقد أن السبب الحقيقى، وراء ما يشعر به الإنسان فى كل مكان، من قلق، أو توتر، أو فقدان البهجة، أو اضطرابات عضوية ونفسية، يكمن فى غياب النفس المتفلسفة.

نحن لا ننكر أنواع السعادة التى قد تمر بالإنسان هناك سعادة فى الحب، والعمل، والصداقة، وتحقيق الهوايات، لكن هذه السعادات، وغيرها، قصيرة العمر، لا ضمان لها، وهى فى أوقات الأزمات الروحية العنيفة، تفشل فى منح الإنسان الصلابة الداخلية المطلوبة.

إنها الفلسفة، وحدها، التى تعطينا مناعة قوية، ضد الأزمات، الفلسفة وحدها، هى القادرة على منحنا مذاقا مختلفا من السعادة. مذاقا تفتقده السعادات الأخرى، مذاقا غريبا، صعبا.

ومن صعوبته تتولد عظمة ما يمنحنا إياه، أكثر من هذا، أن السعادة الآتية من فعل التفلسف هى التى تجعل الإحساس بالسعادات الأخرى، ممكنا، وأكثر عمقا. بالتفلسف يصبح لكل شيء (مهما يبدو ضئيلا) قيمة إيجابية، ومتعة خاصة، بالتفلسف، يستطيع الإنسان انتزاع المعنى من أشياء متواضعة، وعلى هذا نقول: «أيها الإنسان تحيا، وتسعد، قدر ما تتفلسف » التفلسف حق للجميع، كالماء، والهواء، ودفء الشمس، وليس حكرا لأحد أو جماعة.

ترى ماذا نقصد بالفلسفة، وماذا نعنى بـ فعل التفلسف؟.

فى البداية، لابد لنا من التمييز بين الفيلسوف والإنسان الذى يتفلسف، إن الفيلسوف إنسان لا يتفلسف فقط، لكنه جعل من التفلسف مهمته فى الحياة، وشغله الشاغل.

• يحيا الفيلسوف من أجل تلك المخاطرة الروحية الكبرى، نسميها «الفلسفة» ليبدع للبشرية، مذهبا خاصا به أو رؤية ذاتية للتفلسف،

تضاف إلى التراث الفلسفى. إن الفيلسوف هو الإنسان، الذى قرر أن تكون وظيفته، هى فهم، وتفسير الوجود.

إن دعوتنا إلى التفلسف، لا تعنى أن يتحول البشر كلهم إلى فلاسفة، إنها دعوة لأن يمارس كل إنسان فعل التفلسف، كيف يكون هذا؟ وكيف يتفلسف الإنسان غير الفيلسوف؟ كيف نتفلسف نحن البشر غير الفلاسفة؟.

البداية هى الرغبة المستمرة، فى إيجاد تفسير عقلى، لما يحيط بنا من أشياء، وعلاقات وظواهر وقيم. إن جوهر فعل التفلسف، يكمن فى إجهاض كل ما يعوق حركة العقل الناقد المتسائل.

إن لكل تجربة شخصية بعدا فلسفيا، بمعنى أن كل تجربة إنسانية تحوى خصوصية إنسان معين فى زمان، ومكان محددين، لكنها فى الوقت ذاته، تتجاوز ذاتية وخصوصية ذلك الإنسان لتلمس آفاقا إنسانية يواجهها البشر في كل زمان ومكان ونقصد بهذا معنى الحياة ! ومصير الوجود ! ما هية الموت ؟ لماذا المرض، والحزن ؟ ومكان الذات فى الكون الكبير؟.

إنها أبعاد فلسفية نلمسها جميعا، فى أوقات الشدائد، لا نريد أن يكون التفلسف، أى التفكير فى معنى الحياة، استثناء بحكم حادثة موت، أو مرض، أو فشله، نريده كالبوصلة على الطريق ترشد وتهدى وتمنح العزاء.

إن الرغبة المستمرة فى الفهم، تجعلنا ندرك أن التجربة فى حد ذاتها ليست تافهة، أو مهمة، القضية هى كيفية النظر إلى التجربة . القضية هى كيف نتجاوز ما هو جزئى وشخصى، وعابر، وزمانى، إلى ما هو كلى، وعام، وأصيل، ولا زمانى، وهى كيف يلمس الإنسان من خلال ما يخصه، ما يخص كل البشر.

إن الرغبة المستمرة فى الفهم، تحقق تنوعات من المعرفة يبدؤها، ويعمقها، معرفة الإنسان لنفسه وها هو ذا سقراط يلخص جوهر التفلسف بأنه، «إعرف نفسك» . لقد اعتبرت معرفة النفس، أيضا فضيلة، وقيمة أخلاقية كبرى، بل إن هناك من قال: إن معرفة النفس، هى المعرفة الوحيدة القابلة للمعرفة، أو للتحقق والإنسان الجاهل بـ ذاته، لن يعرف شيئا أو أحدا.

تمنحنا معرفة النفس، الثقة، والإرادة، وتحمينا من الإنزلاق فى حماقات البشر، ولقد ارتبطت دائما المعرفة بـ هالة من التحريم والاتهام فالذات العارفة، مصدر خطر للمجتمعات المتسلطة.القائمة على التجهيل، والتضليل، وتجزئة المعرفة . قد يتساءل سائل، هل ندعو الإنسان الفقير المظلوم، المقهور، إلى التفلسف ؟

إذا كان جوهر التفلسف، هو الفهم، فإن الإنسان الفقير، المظلوم، المقهور، يكون أحوج الناس للتفلسف..

بمعنى أن يتساءل عن وضعه الخاص، لماذا أنا فقير؟ لماذا أنا مظلوم؟. ولماذا أنا مقهور؟. وبالتالى يستطيع أن يرتد إلى أصل الأشياء، فيتعمق

التساؤل لماذا الفقر، فى العالم، ولماذا الظلم والقهر؟ إن استمرار الفقر، والظلم، والقهر فى العالم، يرجع إلى أعتبار التفلسف رفاهية، وبالتالى يسكت الفقراء، والمظلومون، والمقهورون، عن التساؤل والفهم، وبالتالى تتعطل قواهم عن التغيير.

إن التفلسف، والتساؤل عن أصل الأشياء عملية مستمرة تنمو مع الممارسة، وهذا ما قصده الفيلسوف كانط، حين قال «نحن نتعلم التفلسف من خلال التفلسف.

الشيء الغريب، أن الإنسان يبذل الجهد ليتعلم كيف يحصل على الثروة، والمناصب، والشهرة، لكنه يصاب بالخمول. إذا كان الفهم والحكمة، هما الهدف، لماذا يضن الإنسان بالجهد، والمثابرة، على الشيء الوحيد، مانح القوة فى الحياة؟..

قد نستطيع العيش فى استغناء عن انجازات العلم، والفنون، ومزايا الفلوس والشهرة، والصداقات والحب، لكننا لا نستطيع العيش، دون التفكير فى غاية حياتنا، والقلق من أجل وجودنا، والتساؤل عن معنى الوجود. يقول «البير كامى» : إن الإنسان ضحية ما يدركه من حقائق فحين يعترف الإنسان بـ حقيقة ما، لا يمكنه الهروب منها، وتصبح أمانة فى عنقه واجبة السداد وبالتالى فإننا لابد أن ندفع ثمن التفلسف ثمن التساؤل عن معنى حياتنا الذى هو - فى نهاية المطاف - معنى الكرامة الإنسانية.

الطبيعة أنثى حاضرة للاغتصاب

لقد أجمعت أحدث الدراسات البيئية على أن ما سببه البشر من انتهاكات للتوازن الطبيعي للبيئة، هو مسار مؤكد نحو تدهور الحياة، بل انهيارها على كوكب الأرض.

وإذا لم يغير البشر من عقلية التعامل مع الطبيعة، والموارد البيئية، فإن الحياة ستصبح مستحيلة للجميع فى المستقبل القريب، الأمر الذى لا يترك للدول سواء المتقدمة صناعيا أو النامية رفاهية الاختيار. إن تغيير العقلية السائدة تجاه الحياة غير ممكن فى ظل المقاييس غير المتكافئة التى تحكم العلاقة بين الدول الصناعية الكبرى والدول النامية الصغرى، وهو أيضا غير ممكن فى ظل عدم توافر العدالة الاجتماعية على مستوى البلد الواحد. وهو ما يعبر عنه فى أدبيات البيئة أن ما هو «عالمى» يوجد فى «المحلى».

ومع ضرورة تغيير النظم الاقتصادية والاجتماعية التى تحكم العالم، وحتمية تغيير العقلية تجاه الطبيعة والبيئة، هناك أهمية كبرى لتغيير العادات الشخصية السلوكية للأفراد، لابد أن تصبح رعاية البيئة والحفاظ عليها جزءا متأصلا فى الوجدان يظهر تلقائيا فى أبسط سلوكيات الإنسان وليس مجرد إيمان نظرى يفتقد المصداقية فى الواقع. وتبدأ هذه السلوكيات من البيت، وتمتد إلى الشارع وأماكن العمل والتجمعات المختلفة، فالتغير هو فى النهاية مجموع الأفعال الفردية المستمرة والموجهة

نحو هدف محدد، وهذا ما نقصده حين نقول بسد الفجوة بين ما هو «عام» و «خاص» أو بين ما هو «سياسى» و «شخصى».

لقد اتفق علماء البيئة على أن الدول الصناعية الكبرى نتيجة لتقدمها الصناعي والتكنولوجى هى التى شاركت ومازالت تشارك بنصيب أكبر فى تلويث البيئة العالمية.

ويقتضى المنطق العادل تبعا لذلك أن تتحمل هذه الدول الثمن الأكبر فى حل مشكلات البيئة، وانتهاك التوازن الطبيعى للحياة ، هذه الدول الصناعية الكبرى مدعوة للتخلى عن قيم السيطرة والتعصب والاستغلال وهوس الاستهلاك. إنها القيم التى تعكس نفسها فى المزيد من «قهر» الطبيعة و «تدمير» الموارد البيئية و«إهدار» حق الأجيال القادمة فى بيئة نظيفة خضراء متوازنة آمنة.

هناك احتياج لأن تتسم القوى الاقتصادية الكبرى متشابكة المصالح بالرشادة والتواضع وأن تؤمن أن موارد البيئة حق لكل الشعوب وكل الأجيال.

حقا لقد وصل عالمنا المعاصر إلى مستويات غير مسبوقة من التقدم العلمى والتكنولوجى، لكن البشرية فى أيامها الأولى كانت أكثر سعادة وأكثر إحساسا بالتناغم والتصالح مع الطبيعة والبيئة.

صحيح أننا الآن نعرف أكثر، نستهلك أكثر، نملك أكثر لكن يبقى المحك الحقيقى هو نوعية الحياة، وأى إطار من القيم تتم فيه هذه المعرفة والاستهلاك والملكية، لقد أصبح الاستهلاك فى حد ذاته غاية نلهث

وراءها لحل مشكلات نفسية عديدة أولها وأهمها الإحساس بالعجز وعدم التحقق والخواء الداخلى.

أصبح العلم واكتشافاته فى انعزال عن أخلاقيات العلم.. والنتيجة هى سيادة حضارة ضد التحضر الحقيقى وضد سعادة الإنسان وضد حقه فى الشعور بالتناغم مع ذاته ومع البيئة المحيطة.

تزداد الضرورة كل يوم لخلق وعى بيئى جديد يتجاوز الحواجز الجغرافية والسياسية من أجل التوصل إلى أخلاق عالمية جديدة تساهم فيها جميع الدول.. أخلاق تستطيع نقل العالم من تسلط النسق «الهرمى» فى التفكير إلى ديمقراطية النسق «الدائرى».

والوعى البيئى فى جوهره هو خلق وتشكيل العقلية ذات الحساسية تجاه قضايا ومشكلات البيئة، وإدراك العلاقة العضوية الجدلية بين الإنسان والبيئة المحيطة من ناحية وبين البناء السياسى والاقتصادى والثقافى وانعكاساته على التعامل مع البيئة من ناحية أخرى. وفقا لهذا الوعى تكون مشكلة الفقر أو الظلم الاجتماعى من ملوثات البيئة وليس فقط المشكلات المادية مثل استنزاف الموارد الطبيعية، فالفقر أو الظلم الاجتماعى ليس أقل خطورة من انتهاك التوازن الطبيعى للحياة من قطع الغابات، أو تلويث المياه، أو الهواء، فالفقر يلوث كرامة الإنسان، والظلم ينتهك إنسانية الإنسان.

ونحن نحتفل باليوم العالمى للبيئة ، لا نتغافل عن حقيقة أنه فى العالم كله ، هناك ارتباط وثيق بين حركات تحرير المرأة وحركات الحفاظ على البيئة.

وهنـاك تيـار يعـرف باسـم التيـار النسـوى الأيكولوجـى والـذى يفسـر انتهاكات البيئة بأنها من إفـراز العلـم الذكـورى ذى النظـرة الاسـتعمارية للأرض والطبيعة والهواء والبحار والطيور والأشجار والنساء.

فالطبيعة أو الموارد الطبيعية ينظر إليها كأنها أنثى حاضرة للاغتصاب وإيقاع العنف والهجوم. إن كلا من الطبيعة والمـرأة هما بمثابـة الحضـارة الذكورية جبهتان على الرجل أن يقهرهما ويخضعهما، ولذلك فإن تحرير الطبيعة وتحرير النساء غير ممكنين بدون التخلص من القيم الذكورية التى لم تنتج طوال تاريخها إلا التدمير والموت والحروب.

إن كل أشكال التفرقة تخدم بعضها البعض ولذلك فإن تغيير مقولة أن الإنسان (الرجل) سيد الطبيعة، مرتبط بتغيير مقولة أن الرجل سيد المرأة، وبتغيير مقولة أن الرجل الأبيض سيد الرجـل الأسـود، وأن دول الشـمال تسود دول الجنوب، وأن الغنى سيد الفقير.

هناك احتياج إلى فلسفة جديدة لا أحد فيها سيد أحد آخر، ولا شعب سيد شعب آخر. نحتاج فكرا أكثر إنسانية قائما على المساواة والعدالة بين كل البشر وبين كل الشعوب.

إن الثورة البيئية التى تتزعمها النساء فى العالم مثلما ترفض اغتصـاب حقوق الطبيعة من أجل حمى الاستهلاك ترفض اغتصـاب حقـوق النسـاء وحقوق الشعوب.

العمل بين الإجبار والاختيار

العمل، حق، واجب، شرف، حياة. هذا ما يتردد دائما على أسماعنا. لكنه أيضا - وهو الأمر الذى تم نسيانه - مصدر للإحساس بالجمال، والبهجة.

إن ارتباط العمل بالحق، والواجب، والشرف، والحياة، ليس كافيا، لكى يحقق غايته المثلى، ألا وهى، تنمية ذات الفرد، وارتقاؤها المتجدد نحو آفاق رحبة، مبدعة، تشبع وجوده الأصيل.

إن الإحساس بالبهجة، والاستمتاع، والجمال، هو الشرط الذى يضمن، ألا يصبح العمل، نشاطا، معاديا لإنسانية الإنسان، مناقضا، لتفتح عوالمه الداخلية.

بدأ «التمتع» بالعمل، يكتسب اهتماما خاصا، متزايدا، من خلال الاهتمام المتصاعد، بتطبيق حقوق الإنسان، والتحرك نحو المزيد من «أنسنة» الظروف الاقتصادية، والاجتماعية، فى ظلها، يعمل، وينتج البشر.

لقد بدأ إدراك جديد مؤداة (عكس ما كان مثارا من قبل)، أن استفادة المجتمع القصوى، من الإنسان، مرهونة، بإطلاق أفضل ما فيه، من طاقات عقلية، وجسدية. وهذا لا يحدث، إلا إذا كان العمل، مصدرا للمتعة، والجمال.

يجد جوهر الإحساس الجمالى، فى العمل، جـذوره، وأيضا شـروطه، فـى تجـاوزه، لقيـم الضـرورات المادية، والاحتياجـات البيولوجيـة. إن الإنسان المدفوع إلى عملـه، بسبب الاحتيـاج إلى لقمـة العيـش، لا نتوقـع منه، أن يحس بالجمال أثناء ساعات العمل، ولا أن يكون مبدعا، خلاقا فى مجاله.

إن الإبداع فى أى نشاط إنسانى، مرهـون أن يكـون وليـد إرادة حـرة عفوية، نابعة من رغبات الإنسان، وميوله، لا رغبـات، وميـول «آخـر». سواء كان هذا «الآخر»، صاحب عمل صغير، أو مؤسسة عملاقة.

الحل، هو أن يصبح الإنسان، فى حالة «تورط عـاطفى»، مع العمـل الذى يقوم به.

إن أعظم، وأجمل إنجازات البشرية (بـالمعنى الإنسـانى)، هـى تلك التى شهدت تدخـل العاطفـة، حتـى فـى مجـال الرياضيـات، التـى قـد يعتبرها البعض جافة، فإن أكـبر علمائـها، توصلـوا إلى نظرياتـهم، ليس بالمنطق وحده، ولكن بسبب الاستغراق الكلى المبـدع. والإنسـان، يصعب عليه، الاستغراق الكلى، دون «تورط عاطفى».

وهكذا الحال، مع حقائق الحيـاة الكـبرى، التـى لا تـهبنا أسـرارها، إلا إذا أحببنا ما نبحثه، ونريد اكتشافه.

إن تراجـع دور «العواطـف» فـى العمـل، امتـداد لـتراجع دورهـا فـى الحياة بشكل عام. إن ما وصل إليه العالم، من تعاسة، وحماقة، وسـفه، ليس إلا نتيجة متوقعة، لفلسفة سائدة، تعلى صوت المنطق، على صوت

العاطفة، وتقدس صوت الماكينات، والأجهزة المبرمجة، على صوت وجدان البشر.

نحن نستخدم كلمة «العواطف» بالمعنى المسطح، الذى تم تشويهه. فهى ليست الانفعالات السريعة الهوجاء، وليست ضعفا فى الشخصية، وليست قصر النظر فى الحكم على الأشياء. لكنها صوت الفطرة السليمة، والحدس المبدع، وحيوية الحواس، وتجسيد إقبال الإنسان على الحياة، فى ذروة انطلاقه، وأصالته.

ليست اليوتوبيا (أو المدينة الفاضلة)، إلا مكانا، يتطابق فيه، عمل الناس، مع لعبهم، أو شغلهم، مع هواياتهم، ولأننا لسنا فى اليوتوبيا، ولكن فى عالم، تحركه علاقات السيطرة، والملكية، وعدم العدالة فإن الإنسان، الذى يقول عن عمله «هذا بالتحديد ما يناسبنى» هو بالضرورة استثناء . إن الفارق الجوهرى بين الفنان، والإنسان غير الفنان، أن الفنان إنسان، يعمل ويتعب، ولكن عمله، هو لعبه. هناك علماء وفلاسفة، لم يروا العبقرية، إلا هذا التطابق، بين «العمل»، و«اللعب». فى هذه الحالة، لا توجد حدود، للإبداع، والاكتشاف، وتحفيز الإرادة، وأيضا للإحساس بالبهجة. إن الجهد الفكرى، أو الجسدى، مع العاطفة، يتضاءل، وقد لا يشعر به الإنسان. بل، وقد يكون مصدرا للشعور بالراحة، والبهجة الروحية.

قد يعتبر البعض، أن الحديث الأهم، والأكثر الحاحا، الآن، مع وجود البطالة، هو العمل، لسد الرمق، وتوفير لقمة العيش. وأن كلامنا، أحلام، ورفاهية لا مكان لها.

هذا منطق واقعى، وله وجاهته. لكنه مردود عليه، أن وجود مشكلات في الواقع، لا يبرر التوقف عند حدودها، وعدم التفكير، فى «ما ينبغى أن يكون» . علينا بالبداية السليمة الطامحة، إلى أبعد نقطة، تمليها علينا الإنسانية، والعدالة. ثم يجىء الواقع ليضع حدوده، وعثراته. أليس مشوار الحضارة الإنسانية، هو محاولات الإنسان، لقهر هذه الحدود، والعثرات؟؟

ثانيا: لابد أن نوسع مفهوم البطالة، فالذى لا يعمل، هو، فى حالة بطالة، لا نقلل من شأنها ولكن الذى يعمل، تحت إجبار الاحتياج، ولا يربطه بعمله، إلا المقابل المادى، هو أيضا فى حالة بطالة، من نوع آخر، لا يقل خطورة، فى معناه، وأبعاده، وعواقبه الاجتماعية، والنفسية . بل إن هناك من يرى أنه خير للإنسان، ألا يعمل، عن القيام بأداء نشاط، يفقده إنسانيته، ويخرب علاقته بذاته وبالحياة. إن رقى ونهوض المجتمعات، هما مجموع رقى، ونهوض أفرادها. ولا رقى، أو نهوض لأفراد، يقضون حياتهم، فى أعمال، مجبرين عليها.

إن تغيير علاقة الإنسان، بالعمل، يتطلب تغييرا فى تصورنا وماهية الإنسان، ومكانته فى الحياة. وهذا يرتبط بتغيير فى أنظمة التعليم، والقيم التى نتبناها، ويرتبط عضويا بتحقيق العدالة الاجتماعية، التى توفر حدًا أدنى، من الأمان الاجتماعى والاحتياجات الأساسية، للناس بحيث يكون العمل (كما هو المفروض) حركة حرة مبدعة، باعثة للبهجة، والمتعة. وليس اضطرارية، باليد اليمنى، تعطى الإنسان أجرا، وباليد اليسرى، تسحب منه، إنسانيته.

مصرع «الأميرة» وتناقضاتنا الأخلاقية

في دهشة، وغضب، تفرجت على الضجة الإعلامية، مسموعة، ومقروءة، ومرئية، حول مصرع من يسمونها «أميرة»، وعشيقها الملياردير..

وصف الحادث بأنه «مروع»، و «مأساوى»، هز ضمير العالم، ووجدان الناس، وأثار الحزن، والتعاطف، من الشعوب، والدول..

ياله من عالم مقلوب. يبيع الأوهام المنبثقة من سطوة المال، والنفوذ، والخواتم الألماظ، والعرش الموروث، لعقول ونفوس أدمنت الوهم، وتأليه قلة صنعتها أنظمة عنصرية..

تحدث كل يوم، مصائب «مروعة»، «مأساوية»، لنساء لهن قيمة فكرية، وإبداعية، وإنسانية، ولا أحد يتذكرهن بـ كلمة. بل يتعرضن للإدانة، والتشوية، والإتهام. والسبب، أنهن لسن زوجات سابقات لملوك، وأمراء، لسن أمهات لأولياء عهد، ولسن نصف متعلمات، أو عشيقات لمليارديرات..

وهناك رجال يفعلون ما هو أرقى، وأجدى، وأهم، من السهر، ولف العالم، مع نساء مطلقات. لكنهم خارج الاهتمام، وعلى هامش الأهمية. والسبب، أنهم لا يمتلكون الفنادق الفاخرة، والمحلات التجارية، والمطاعم المتخصصة فى مأكولات البحر ومنتجعات الصيف..

يحدث كل يوم، أن يموت المرضى الفقراء، بسبب «الطب السياحى»، ولا أحد يعتبر هذا من الحوادث «المروعة»، «المأساوية». ويصرع الإهمال فى مختلف المواقع، ناسا أبرياء، ولا يحظى ذلك، بجزء ضئيل من الهوس الإعلامى، المصاحب لمصرع «أميرة»، وعشيقها..

فى مجتمعاتنا، تنتحر كاتبة مفكرة، وأديبة، مبدعة، وتبقى وسائل الإعلام على حيادها. لا تذكر الخبر، إلا فى ذيول الأخبار الهامشية، المتوارية..

وتظل الحقيقة المخزية، أن وسائل الإعلام تتابع حال «قطط» ممثلة، فرنسية، معتزلة، وفضائح نساء صنعتهن أضواء مزيفة، أكثر من معاناة امرأة، مصرية، عربية، أوصلتها الكتابة للقفز من الطابق العاشر. تبقى الحقيقة المؤسفة، غياب استقلالية الأولويات، لوسائل الإعلام فى مجتمعاتنا، والتى تنبع من خصوصية الفكر، والقيم..

فى مجتمعاتنا، تسجن الفتيات والنساء، داخل أسوار حديدية من تناقض القيم الأخلاقية، وافتعال الفضيلة. يقتل الأخ، أخته التى تكبره، لمجرد شك فى إعجابها برجل، جاءها فى المنام. يذبح الزوج زوجته، لأنها قامت بواجب الضيافة لأخيه، أو ابن خالتها، أثناء غيبته.. تقام الدعاوى فى المحاكم، ضد اختلاط الرجال بالنساء فى أماكن العمل، والمترو، وحمامات السباحة، وطوابير المصالح الحكومية. يتم هذا وغيره، على مرأى ومسمع الجميع، وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين، ولا أحد يصف الأمر، بأنه «مروع»، «مأساوى»..

هذه المجتمعات، المتزمتة تجاه نسائها، تمجد من خلال الإعلام «أميرة»، لا تعرف حياتها العاطفية، أدنى التزمت..

إن حق الحب للمرأة فى مجتمعاتنا، ولن نقول الخيانة، أو تعدد الغراميات، محكوم عليه بالانحلال، والإباحية. وبسببه يهدر دم المرأة، وحياتها. بل إن الانحلال، أو الإباحية، كمفهوم أخلاقى، لا يعنى عند مجتمعاتنا، إلا «امرأة فى حالة حب أو عشق»..

فى مجتمعاتنا، ترتكب المرأة جرما لا يغتفر، فى حق «الشرف»، لو جلست «محتشمة»، فى «مكان عام»، مع زميل، أو قريب من العائلة، تتحدث عن السياسة، أو الفن، أو القهر الموروث..

أما مع امرأة أجنبية، تحمل لقب «أميرة» فإن الجهر بالعشق، و«الخلوة غير الشرعية» والصورة شبه العارية، على اليخوت، هذه أمور «حلال»، يتم تقبلها، وتبريرها، ولم لا؟ أن لقب «أميرة» به سحر. يقلب الحرام، إلى حلال، والمحال إلى ممكن، ويجعل من البشر شبه آلهة..

تنبهر مجتمعاتنا بأخبار عشاق «الأميرة»، ويتسابق الناس لمعرفة، آخر رغباتها العاطفية والجنسية. هى نفسها المجتمعات، التى تبتر بالختان جسد المرأة، خشية أن تشتهى رجلا، غير زوجها « المحلل» و «المقنن»، ولو كان فى الخاطر، أو الحلم..

السلوكيات نفسها التى تجعل من المرأة، فى مجتمعاتنا «منبوذة»، و«منحلة»، و«ساقطة»، نجدها مع «الأميرة»، تصنع منها «ضحية»، و«أسطورة»، و«مثل أعلى»..

ولسنا ندرى، ما المقصود بالضحية ؟ أكانت تصحو وتنام على مذلة الاحتياج إلى لقمة عيش ؟ هل كانت تعيش فى حى تغرقه المجارى الطافحة ، وأكوام القمامة ، وتحاصره ضوضاء تقتل الأعصاب ؟

حقائق يعيشها غالبية الناس فى مجتمعاتنا ، ولا تصلح أن تجعل من الإنسان ضحية . أم تراها كانت ضحية مصادرة رأيها فى كتاب، أو محاصرة حريتها فى التعبير والحركة . أو لعلها تلقت خطابات تهديد بالقتل، وطالب البعض بإهدار دمها .

وما المقصود بوصف تلك الأميرة، بالأسطورة؟ هل كانت عبقرية الذكاء، أنتجت ما فاق الأوائل، فى العلوم، والآداب، والفنون؟ هل توصلت إلى نظريات جديدة، تفسر نشأة الكون، وتركيب الذرة، وكشف أسرار الإبداع؟ هل كان لديها قوى خارقة، تعطيها مناعة، ضد الشيخوخة أو نمو الخلايا الخبيثة، وقدرات خاصة لكشف الغيب؟ أم ترى كان لديها غير ما عند البشر العاديين، سبعة أصابع فى اليد الواحدة؟..

وماذا عن «المثل الأعلى» الذى تجسده؟ هل تركت وصية بأن توزع ممتلكاتها على المساكين، والمحتاجين؟ أم هى رحلة كفاحها المريرة، لتحصيل أعلى درجات التعليم، والمعرفة؟..

لقد اهتز ضمير العالم، بسبب مصرع «الأميرة» وعشيقها الملياردير. غريب ضمير العالم. أحزانه طبقية، عنصرية، مثل مقاييسه، وأنظمته. لم تهزه بشعرة واحدة، المذابح الجماعية للرجال والنساء، والأطفال، فى

الجزائر على أيدى الإرهاب. ولا تتحرك مشاعره المتعاطفة، ضد المجازر التى تشنها السلطات الإسرائيلية، ضد أهل فلسطين، وجنوب لبنان، ويموت الأطفال كل يوم، فى العراق وليبيا، بسبب الحصار الاقتصادى الأمريكى المتعمد، ويبقى ضمير العالم، ساكنا، مرتاحا، ماذا تكون حياة امرأة فلسطينية، أو رجل من الجنوب اللبنانى، أو طفل صغير فى ليبيا، أو العراق أو الآلاف منهم، مقارنة بـ حياة «أميرة»، غارقة فى الرفاهية، كل أزمة حياتها، كيف تواجه العالم بأمر عشاقها الأثرياء؟ أنها عنصرية، إنسانية، وأخلاقية، لعالم مشوه الأولويات، مقلوب القيم، عالم «الفضيلة» فيه، لمن يدفع ثمن «اللا فضيلة»..

نحن لا يهمنا حياة «الأميرة» فى حد ذاتها، ولا يعنينا حياتها الشخصية، ولسنا نبالى لو تم طلاقها، أو زواجها وكان لها عشاق، أم لا. ولسنا أيضا، فى موقف الحكم الأخلاقى عليها كما فعل البعض. الذى يهمنا، هو كيف يفجر حادث مثل هذا، تناقضاتنا الأخلاقية، وإلى أى مدى، يكشف عن مقاييسنا الإعلامية، وأولويات تفكيرنا..

فى عالم تحركه التفرقة بين البشر، من كل شكل، ولون، يتضاءل «داخل» الإنسان. وتستمر المحاولات لقهر حقيقته المتفردة وطاقته على المقاومة. ولا يتم هذا إلا بتضخيم العوامل الخارجية المزيفة المصنوعة، من شهرة، وثراء، وألقاب..

فى هذا العالم يكون من المنطقى جدا، والطبيعى جدا، التعتيم على نساء، ورجال «يشتغلون»، «يفكرون»، «يبدعون»، «يعانون» بشكل حقيقى نابع من «الداخل». والوجه الآخر لهذا التعتيم، أن تقفز أخبار مصرع «أميرة» وعشيقها، إلى دوائر الضوء، والأحاديث الأسطورية..

أخلاق الحرية وأخلاق الكبت

منذ أيام ، قرأت مقالات لأحد الكتاب ، يحذر فيه من تأثير (الدش) على أخلاقنا بشكل عام كمجتمعات إسلامية ، وعلى أخلاق الفتيات بشكل خاص . يقول الكاتب أن (الدش) ، كما هو متاح حاليا ، فى عصر السماوات المفتوحة ، يمكنه أن يلهى الفتيات عن الدراسة ، وعن العقائد الدينية ، وبسبب انشغالهن بالجنس ، مما يعد خطرًا بالغا على الأخلاق .

وعلاجا لهذا ، أوصى الكاتب بضرورة عمل ميثاق شرف دولى ، ينص على احترام تقاليد وأخلاق المجتمعات الإسلامية ، وضرورة وجود (رقابة) على مستويين . المستوى الأول ، رقابة (أسرية) ، والمستوى الثانى رقابة (حكومية) تعمل من خلال أجهزة للتشويش والتحكم . ياله من منطق غريب .

مع كل مشكلة تواجهنا ، لابد أن نفضح كراهيتنا المتأصلة ، وعداءنا التاريخى للحرية . نخاف (الحرية) ، وعلنا نناصبها الخصومة على طول الخط . مع كل مشكلة هناك تحفز مسبق لـ (توريط) الحرية ، واتهامها بأنها المحرض .

أصبح القهر عشقا نزهو به ، ونتيجة التراكم الطويل ، امتزج القهر بدمنا ، واختلط بملامحنا . أصبحنا نتسابق فى تقديم (المديح) ،

و (الغزل)، فى كل ما يخدم منظومة القهر ، مثل (الرقابة) ، (التحكم) ، (الوصاية) .

إن إهمال الدراسة ، أو الانشغال بالجنس ، أو تراجع العقائد الدينية ، سوف يعالج الفتيات عن طريق المزيد من (الرقابة) الأسرية، و(الرقابة) المحلية ، و(الرقابة) الدولية .

إن الرقابة ، والتحكم والوصاية، بكل أشكالها ، ودرجاتها، لا تؤدى فى المدى القصير ، أو الطويل ، إلا إلى الفساد والكذب .

فالرقابة وما شابهها من أجهزة الهيمنة على الفكر، والمشاعر، مجرد (رادار) خارجى ، يسجل المخالفات تمهيدا لإقامة العقوبات .

ولأنها شيء خارجي – ليس نابعا من قناعة داخلية ، فإنها على العكس تضعف من شخصية الإنسان ، وتعلمه الخوف . وبالتالى تفتح الطريق للتهرب ، والكذب ، والإخفاء ، وتلفيق الحجج . إن (الدش) برىء .

إن إنشغال الفتيات بالجنس ، أو تراجع العقائد الدينية ، أو إهمال الدراسة، لها جذور قوية داخل كل واحدة منهن .

إنها نتائج متوقعة للتربية القائمة على الكبت الفكرى، والقهر العاطفى، والتفرقة بين الفتى والفتاة ، وتطبيق نظام تعليمى، صارم لا يشبع ميول وهوايات وقدرات الفتاة . إنها سلبيات الفضيلة، المفتعلة، التى تغرس بالفرض، وقوة القانون، والخوف من العقاب .

إن هذا المناخ (المكبوت) ، و (المراقب) ، يظهر على السطح متماسكًا، متوازنا . لكنه قابل للانفجار في أية لحظة .

(الدش) ، أو غيره ، هو مجرد فرصة تسنح للفتيات أن يعبرن عن الوجه الآخر الذى نرفض رؤيته ، أو حتى الاعتراف به ، وتم تحجيمه بكل مؤسسات المجتمع .

إن الفتاة التى لا يدعمها توازن داخلى، صحى ، وليس بها القدرة على حماية نفسها ، ليست محتاجة إلى(دش)،ولن تنتظر مشاهدة فيلم فاضح، لكى تنحرف .

والمرأة التى تحمل داخلها دوافع الخيانة ، لا تؤجل خيانتها إلى حين ترى فيلما عن خيانة امرأة . تماما مثل الإنسان الذى يريد أن يقتل . هناك أسباب قوية، تدفعه ، للقتل ، ليس من بينها أنه يتابع أفلام هيتشكوك ، أو روايات أجاثا كريستى .

إنه منطق يعامل الإنسان ، على أنه (شىء) ، أو مجرم بالفطرة أو ريشة فى مهب الريح . وهى فلسفة تتعمد تجاهل الدوافع الحقيقية المحركة (لسلوك البشر) . وفى الوقت ذاته ، تسىء النظرة إلى الحرية ، وتساهم فى تشويه سمعتها ، وترسيخ عشق القهر والقيد .

إن التاريخ يدلنا ، على أن مساوئ القهر ، والقمع ، والكبت ، كانت دائما أكثر ، وأشد ضررًا ، من بعض المشاكل المؤقتة التى قد تصاحب (وقد لا) مناخ الحرية .

من ميزات الحرية ، أنها تصحح مسيرتها مع الزمن، وتمنح فرصا متجددة للمعرفة، وبالتالى تخلق على المدى الطويل الشخصية السوية، المتكاملة، القادرة على التمييز ، والمؤهلة لحماية نفسها .

أما مناخ القهر ، فهو عبر الزمن ، لا يفرز إلا شروط إنتاجه ، ويسد كل نافذة للمعرفة والتطور .

إن الفتاة التى تعيش فى مناخ الحرية من الوارد بالطبع أن تجرب الخطأ . نقصد بالخطأ أى سلوك يضر بها ، أو يضر بغيرها . ولكنها فى الوقت ذاته ، لديها الفرصة على عدم الخطأ .

أما الفتاة التى يحاصرها القهر، وأخلاق الكبت المزيفة، فلا تملك إلا أمرين. إما الخطأ ، وإما التمسك بفضيلة كاذبة ، شكلية، لا فضل لها . نقول كاذبة لأنها تمارس بالفرض، ولم تمنح الفتاة حرية الاختيار، وهدفها هو إرضاء الآخرين ، لا تنمية الشخصية وتقويتها .

إن الفضيلة المفروضة بالجبر، هى الخطر الحقيقى على الفضيلة. فما يجعل الفضيلة أمرًا يشرف الإنسان، هو اختياره لها ، رغم أنه قادر على ممارسة الرذيلة .

إن الكاتب ينادى بميثاق شرف دولى يحترم العقائد والتقاليد الإسلامية .

لا توجد مجتمعات مثل مجتمعاتنا ، لديها هذا الخوف المرضى على عقائدها، وتقاليدها، وفتياتها . إن الذى يمكن أن يحمى عقائدنا الدينية ، هو عقائدنا الدينية نفسها ، والذى يحمى تقاليدنا هو تقاليدنا

نفسها ، وكذلك هـن فتياتنـا اللائـى بإمكانـهن حمايـة أنفسـهن . وليس الحل مجرد ميثاق مكتوب على ورق، قادم من الخارج .

إذا اسـتطاعت عقائدنـا وتقاليدنـا أن تخـاطب أفكارنـا ومشـاعرنا وأحلامنا، وصراعاتنا، وتناقضاتنا، بشـكل صحـى، متـوازن، ومتجـدد، تكون قادرة حينئذ على حماية نفسـها ، وكذلـك الأمـر مـع فتياتنـا . إذا استطعن تنمية قدراتهن الداخلية، الذاتية، على مواجهـة العـالم المتغـير، بسلبياته وإيجابياته، يكن حينئذ قادرات على حماية أنفسهن . فى ذلك الوقت، لن تحتاج الفتاة ، إلى (رجل) خارجى يحميـها ، أو مواعـظ فـى الأخلاق.

الألم تجربة جمالية

عانقت سحابات من (الجمال) لكننى لم أمطر ، ولم أنتش بلذة التحليق ، إلا حين امتزجت واحتفيت بلحظة الألم . بل الأكثر ، أننى أدركت أن الإحساس بالألم ، هو شرط الإحساس بالجمال .

لا شىء يؤهلنا لمعرفة – وتذوق الجمال ، مثل (ألم) تنزف له الروح ، وتضطرب معه كيمياء الجسد ، لا شىء يدربنا على التقاط دلالات (الجمال) المتناثرة فى الكون الرحب ، مثل (ألم) ، يعتصر الكيان ، ويأبى إلا أن نشرب حتى الثمالة رشفات المرارة .

أؤمن أن الحياة مأساة لا مفر منها ، والمأساة كما أراها ، هى حتمية الشعور بالألم .

(الألم) هو القماشة المتجددة التى من نسيجها صنعت الحياة . (الألم) هو قدر البشر .

(الألم) هو ذروة تعبير الحياة ، عن أعمق وأخص ، وأرقى مكوناتها .

تكمن مشكلة البشر فى كل زمان ومكان ، فى محاولاتهم المستمرة للهروب من نصيبهم الطبيعى من (الألم) .

فى كل عصر ، نفاجأ بأدوات جديدة ومسكنات مبتكرة، ونصائح غير مسبوقة ، كلها تلقن الإنسان كيفية قهر (الألم) .

يفعل الإنسان هذا ، مدفوعا بقناعة خاطئة ، أن الحياة بدون (ألم) ، حياة أجمل ، وأن (الألم) هو عدو الحياة وبالتالى فإن إعلان الحرب ضده هو أمر واجب ، ومشروع .

إن أكبر خوف فى حياة البشر ، هو الخوف من مواقف الحياة التى قد تنتهى بلحظة (ألم) .

إن الخوف المزمن المتضخم من (الألم) ، هو وراء ما وصلت إليه حياتنا ، من تراجع ، وفتور ولا مبالاة ، وتشابه ، ورتابة ، وقبح .

إن الحياة الخالية من (الألم) ، حياة لا طعم لها ، حياة بدون ألم ، حياة ماسخة ، جوفاء . حياة خالية من (الألم) ، عبء على الحياة . حياة خالية من (الألم) ، لا تستحق أن تعاش .

وإذا كان (الألم) ، هو المادة الخام ، أو النسيج الطبيعى ، اختارته الحياة لتصنع منه مأساتها النبيلة ، فإن تفادى (الألم) يعد خيانة عظمى للحياة .

إن الشخص الذى يقدم على الانتحار ، يقول لنا : (الحياة أكثر مما أطيق ، أو أن الألم يفوق قدراتى على التحمل) .

هذه حالة شخص تنقصه الشجاعة ولكن لا تنقصه الأمانة . لقد رفض الحياة كلها ، ومرة واحدة . هو شخص ضعيف نعم . لكنه ليس بخائن . هو شخص هش نعم ، لكنه ليس بانتهازى .

إنما الخيانة ، والانتهازية ، هى حالة أغلب الناس المستمرين فى العيش ، ويريدون استئصال (الألم) ، الذى هو نسيج الحياة .

هم يريدون الحياة ، لكنهم ينكرون عليها الإفصاح عن حقيقتها . هم يريدون الحياة بشروطهم هم ، لا بشروط الحياة . مثلهم مثل من يريد للطائر التحليق شرط أن يقص له جناحيه .

ولأن هذا محال ، فلا هم فى حالة موت ، ولا هم فى حالة حياة .

إن الرغبة فى استبعاد (الألم) ، تنطوى أيضا على خيانة للذات .

لا شيء مثل (الألم) ، يكشف عن طاقات الإنسان الكامنة ، وقدراته المختبئة ، المفارقة المدهشة إنه كلما عظم (الألم) ، عظم الكشف .

تفادى (الألم) ، إذن هو تفادى معرفة أسرار الذات ، التى لا تمنح كنوزها إلا لإنسان ، يمنح نفسه للحظة (ألم) .

ولكن ما علاقة حديث (الألم) (بالجمال) ؟ نحن نرى أن لحظة (الألم) هى لحظة جمالية بكل المعايير .

إذا كان جوهر الإحساس الجمالى فى درجاته ، وأشكاله المختلفة ، هو لمس الخيط السحرى الواصل بين الذات والكون ، وهى لحظة انسجام كلية ، تفجر فينا عنفوان الدهشة ، والتساؤل ، والحيرة ، والارتباك. إذا كانت هذه مفردات أساسية ، فى الإحساس بالجمال ، فإن لحظة الألم ، هى لحظة جمالية من الطراز الأول ، هى الأخرى ، تنطوى على انفتاح الذات ، على نفسها وعلى الكون .

هنا نتكلم عن (الألم) العظيم الحاد المجتاح دون هوادة ، ومعه تتسورط النفس حتى الذورة . (تجربة الألم) ، تضطر الإنسان إلى إعادة ترتيب الأشياء ، وإلى معاودة تركيب الأسئلة ، والإجابات . هى لحظة تجبرنا

على تأمل الحياة من جديد ، لكشف هويتها ، وغايتها ، وحكمتها . مع (الألم) ، نحن نعيد صياغة معانى الخطأ والصواب ، التحسر ، وخيبة الأمل . هى تجربة تحرك السواكن، وتهز البديهيات المستقرة .

إن إعادة الترتيب ، والتساؤل ، والكشف ، وتحريك السواكن ، كلها قيم جمالية ، لا تخلو منها أى تجربة جمالية حقيقية .

وإذا كانت تجربة (الألم) فيها من (الجمال) ، فإن تجربة (الجمال) فيها من (الألم) . لا أتذكر يوما ، أحسست بالجمال ، بأى شكل من أشكاله اللانهائية، إلا وكان مقرونا بالشعور بـ (الألم) .

نعم .. المنظر الجميل مؤلم ..

والذكريات الجميلة مؤلمة ..

الفن الجميل مؤلم ..

والإنسان الجميل مؤلم ..

واستغرقت وقتا ، لإدراك (الألم) المختبىء ، وراء (الجمال) . هو (الألم) متعدد الأبعاد . الجمال مؤلم ، لأننا ندرك ، أنه مؤقت وأن بقاءه درب من المحال ، والإنسان مفطور على اللهث وراء الخلود .

الجمال مؤلم ، لأننا فى مواجهته لا حول لنا ولا قوة ،. إن لحظة الخضوع الكامل المطلق للجمال ، مؤلمة للإنسان الذى يرى الحرية ، هى غاية الوجود .

قد يستطيع الإنسان مقاومة إغراءات السلطة ، والجاه ، والثروة والشهرة ، ونداء الشهوات ، لكنه أمام (الجمال) ، عاجز ، لا يملك إلا الوقوع فى أسره . والعجز إحساس لابد أن يثير فينا الألم .

(الجمال) مؤلم، لأن حواره معنا، هو حوار الشفرات، والإيحاءات، الرموز، وليس الحوار الصريح ، وبالتالى لا مفر من الشعور بالضآلة ، وعدم الندية .

وهذا بلا شك ، مثير قوى للشعور بالألم .

الجمال مؤلم ، لأنه للحظات معدودة . يطهرنا من مبدأ المقابل السائد فى حياتنا . فالجمال يطلب لذاته ، وليس من أجل غرض ، أو مصلحة .

علمتنى الحياة ، ألا أخاف لحظات (الألم). علمتنى أن أفتح لها الباب، أحسن استضافتها ، أتعطر، وأرتدى لها أجمل أثوابى، أجالسها، وأشرب معها نخب زيارة، لست من الحماقة أو التطفل لأسأل عن أسبابها .

علمتنى الحياة أن أستبشر خيرا ، وأتفاءل ، كلما تورطت فى (الألم) إلى أقصى نقطة ممكنة . أن أتألم ، إذن هناك مكافأة ما قادمة . أنا أتألم، إذن أنا أستحق الجمال المنتظر فى الأفق ، تعلمت أن (الألم) عملية جراحية للنفس ، بعدها تتطهر وتشف ، وتحلق ، فتصبح أكثر قدرة على احتضان (الجمال) المشع من الكون ، الإنسان القادر على التألم العظيم . هو وحده القادر على الإحساس العظيم ، وهو وحده القادر على إعطاء الآخرين ، إضافة حقيقية من المعرفة ، أو الفرح . بل إن الشعور

بالألم ، هو تعبير عن وجع الروح ذات الحساسية المرهفة ، التى توقعت الجمال ، وخاب ظنها .

محظوظ، هو ذلك الإنسان، الذى تنعم عليه الحياة بلحظات ألم، شرط أن يعرف كيفية التعامل معها. إن التعامل مع (الألم)، يحتاج إلى موهبة خاصة فريدة، تستطيع أن تصنع من المعاناة رؤية جمالية تعزف على الوتر المشترك بين الذات والكون .

إن تأمل الإنسان نفسه ، وهو يتفاعل مع (الألم) ينطوى على (متعة)، من الصعب على من تذوقها ، التفريط فيها . من (الألم) العظيم يُعرف البشر . إذا أردنا معرفة إنسان ، فما علينا إلا قراءة بطاقته الشخصية فى (الألم) . من رحم (الألم) ولد كل فن عظيم خالد ، وكل عشق عظيم خالد .

حين نتعلم فن الاحتفاء بـ الألم ..

حين نتعلم كيف نصادق الألم ونحاوره .. حين نتعلم أصول الارتماء فى أحضان (الألم) .

حينئذ فقط ، نبدأ الحياة الحقة ، ونعيش الوجود الأصيل .

عن الدين والحياة

نظرة إلى الطقوس الدينية

إلى متى سنظل نتعامل مع مشاكلنا ، وكوارثنا ، والتى تفاجئنا من حين لآخر ، بـ منطق (الترقيع) ، و(الطبطبة) ، والحقن بالمسكنات ؟

إلى متى سنظل نردد كلمات عزاء مستهلكة لا تجدى ، مثل (حوادث فردية لا تمثل ظاهرة) .. (بدع غريبة مستوردة) .. (قلة منحرفة مختلة العقل والإيمان) .. (مؤامرة صهيونية) .. (خطة مدبرة من أعداء الإسلام)..

ونحن فى مواجهة (عبدة الشيطان) ، ألسنا فى وقت يجبرنا على إعادة النظر فى تصورنا عن الدين ، ومفهومنا عن الإيمان ، والتدين ؟ ألم يحن الوقت، لكى نراجع علاقة الدين بالحياة المعاشة المتجددة ، والتى تقف على أبواب قرن جديد من الزمان ؟

نحن نرى أن (عبدة الشيطان) هو أفراز طبيعى ، متوقع ، لنمط الفكر السائد فى مجتمعاتنا ، وبالتحديد نمط الفكر الدينى .

إن أية قيمة (أو ظاهرة) إيجابية ، أو سلبية ، يتسم بها فرد ما ، أو جماعة ما ، ليست أمرًا عشوائيا، أو نباتا شيطانيا ، يظهر فجأة بالمصادفة. ولكنها فى ارتباط عضوى مباشر ، أو غير مباشر ، بتفكير ، ومشاعر ، وأحلام، وسلوكيات ، وتحيزات ، ذلك الفرد ، أو تلك الجماعة .

على سبيل المثال ، ليس (الأمان) – الذى أصبح أخيرًا كلمة مطاطة متكررة على ألسنة الجميع – الذى يسود مجتمعا ما ، (جينًا) وراثيا يحصل عليه بالفطرة دون جهد . وهو ليس هبة من السماء ، تنزل على البشر . (الأمان) ، هو (المكافأة الحضارية) التى يحصدها المجتمع، أو التى يستحقها الشعب ، بعد نضال طويل ، وجهد متراكم ، لترسيخ حقوق وحريات الإنسان فى العقيدة، والتفكير والعمل ، والنقد الحر والكرامة .

نحن مجتمعات تعانى من التأرجح بين قطبين متنافرين يستحيل التوفيق بينهما . القطب الأول ، هو مجتمع السلف . القطب الثانى ، هو المجتمع الغربى الحديث .

وتكمن المصيبة الأعظم ، أننا لم نأخذ من المجتمعين إلا السلبيات فقط.

من مجتمع السلف ، أخذنا قيم التزمت ، والتعصب ، حجب وعزل المرأة، ارتفاع النبرة الذكورية ، تمجيد الماضى ، نبذ العلم والتفكير العقلانى، سيادة الروح التواكلية والقدرية ، تضخيم النزعة العائلية القبلية، سيادة القيم العمودية التى بين أعلى وأدنى، تقديس الأشخاص، تأليه أزمنة ولت، وعداء الفن .

ومن المجتمع الغربى الحديث، لم نأخذ إلا النزعة الاستهلاكية الشرهة ، تبرج المرأة وامتهان جسدها وإنسانيتها فى الإعلانات والملاهى، تقديس المنفعة الفردية ، إيقاع الحياة اللاهث ، تقديس المال والآلة عن الإنسان، ونقل أعمى لنظريات فى النقد والفكر .

وليس من الصعب ، ملاحظة هذا التأرجح ، فى بيوتنا ، وأماكن العمل ، والشوارع ، فى وسائل الإعلام ، فى المناهج التعليمية ، فى الأعمال الفنية ، فى تحيزاتنا الشخصية ضد الآخرين ، وفى الرؤى الثقافية المطروحة على الساحة الرسمية ، وغير الرسمية .

منذ أيام ، شاهدت بالصدفة برنامجا للمرأة فى التليفزيون . مرت الفقرات عن الطبيخ ، والغسيل ، والرجيم عادية . وحين جاءت فقرة قابلت فيها المذيعة المفتى ، لابداء رأيه فى بعض قضايا الصيام بالنسبة للمرأة ، وجدنا المذيعة بقدرة قادر ، وفى غمضة عين ، قد تحولت من (سافرة) إلى (محجبة) . وحين انتهت الفقرة مع المفتى ، فورًا حدث التحول مرة أخرى ، وعادت المذيعة إلى أصلها من كونها (محجبة) إلى (سافرة) .

لا أدرى ما هو تفسير سلوك هذه المذيعة ؟ أهو اعتراف رسمى أن (التحجب) هو الشكل الأكثر إعلانا عن (التدين) وبالتالى هو الشكل اللائق لمقابلة المفتى؟ وإذا كان هكذا ، فلم لا تتمسك بهذا (التدين) ، طوال فقرات البرنامج ، وطوال أيام السنة ؟

وهل المفتى لا يقابل فى حياته ، إلا النساء المحجبات ؟

هناك أمثلة عديدة تحدث يوميا ، لكن هذا المثال يجسد قمة التناقض، وقمة التأرجح . والذى يجعله أكثر خطورة من غيره ، ومؤثرًا، أنه يطل من ساحة الإعلام الرسمى .

نحن مجتمعات نرقص على السلم ، لسنا كالمجتمعات التى ثارت ضد سلطان وتسلط الكنيسة فى العصور الوسطى ، واختارت بعد كفاح طويل

فصل الدين عن الدولة ، وإقامة المجتمع المدنى. حيث الدين علاقة شخصية يمارسها الفرد كما يشاء بينه وبين ربه، وليس لأحد أن يسأله، أو يحاسبه عنها. مجتمع يأخذ بمبدأ الصواب والخطأ لا الحلال، والحرام .

ولسنا مجتمعات أدخلت الدين بشكل أصيل ، وحقيقى ، متجدد، ومتناغم فى أمور حياتنا المتغيرة التى تزداد تعقيدًا ، وتشابكًا .

المأساة أن الدين عندنا لا هو (منفصل) عن الحياة بالشكل الذى يخدم تقدم الإنسان ، والدين والحياة . ولا هو (متصل) بالحياة بالشكل الذى يفيد الحياة والإنسان ، ويجعل من (الدين) طاقة تنويرية، وشحنة تمرد ضد القهر والظلم والقبح .

هل يُعقل ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين ، أن الصفحات الدينية فى الجرائد ، والبرامج الدينية ، والمسلسلات الدينية ، وخطب الشيوخ فى الجوامع ، ومواعظ الدعاة ، وبعض كتابات (الإسلاميين)، تدور حول غزوات حربية للمسلمين من قديم الزمن ، وعن تمجيد عصور سلاطين وخلفاء فات زمانهم ، وعن اعجازات لا علاقة لها بالحياة المعاشة ؟

هل يُعقل أن المسلسلات الدينية ، هى حكاوى بلغة غير مفهومة ، ورجال بذقون طويلة ، وعمامات ، ولا هم لهم إلا قتل مَنْ يسمونهم (الكفار) ؟

كيف يهدر خطيب الجامع ، الوقت والجهد والإدراك ، عند الشباب ، ليحدثهم بالساعات وعبر ميكروفونات شرسة النبرات ، عن عذاب القبر ، وعورات النساء ، وزهد الدنيا لأنها (فانية وغرورة) ؟

هل يُعقل أن مصر بتاريخها العريق ، وحضارتها المبدعة ، يُثار فيها جدل دينى ، حوله يتشاجر الناس ويفقدون ما بينهم من ود إنسانى ، عن (هل تدخل المرأة القرن الواحد والعشرين مغطاة أم سافرة ؟

هل يُعقل أن يُمنح وقت بلا حدود ، لراقصات من الدرجة العاشرة ، لكى يصبحن هن اللاتى يدلين بآرائهن فى الفكر ، والثقافة، والفن؛ فى حين لا تعطى إلا لحظات معدودة ، لأهل الفكر والإبداع ؟

نلوم الشباب ، ونحن لا نقدم له ، قنوات تبث قيم الثقافة العميقة، وأسس التفكير العقلانى الجاد ، ونخاطب الموروثات السلبية فى عقولهم بأسلوب منطقى ناقد . كيف نغرق الشباب فى حل فوازير مضحكة، والإنشغال بنجوم التمثيل، والكورة، ثم نتوقع منهم، خيرًا لأنفسهم ولمجتمعهم ؟

هناك شباب يعيش فى عناق مع أكوام القمامة ، وطفح المجارى ، والذباب والناموس ، محروم من بديهيات الحياة الكريمة كالماء، ثم يدخل هؤلاء الشباب الجامع ، فيعطيهم الخطيب درسًا فى (التدين) ويأمرهم بالاستغفار عن (ذنوبهم) ، والاستعداد الدائم لملاقاة الله ، لأن الموت لا ضامن له .

أى (ذنوب) ، يمكن أن يقترفها شاب يعيش وسط القمامة والأمـراض؟ عما تستغفر فتاة تعيش فى حجرة مع أسرة عشرة أفراد ؟ يكلمهم خطيـب الجامع عن الموت ، وهم محرومون أصلا من فرصة الحياة. لماذا لا يحدثهم عن الذنب الأكبر الواقعين فيه ، ألا وهو الفقر ، والظلم ؟

لابد أن تؤدى (الصلاة الجماعية) ، إلى (عمل جماعى) ، ويحسن مـن أوضاع الناس ، أليس هذا هو هدف رئيسى للتجمع فى الصلاة ، وأليست أكبر الغايات من بناء الجوامع ، وأماكن العبادة ؟

كيف تواجهنا تحديات اقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، تشـتد كـل يوم وطأتها ، وما زال تفكيرنا فى الدين ، منحصـرًا فـى بنـاء الجوامـع ، ومسابقات مالية فى حفظ القرآن ، وترميم واجهات الآثار الإسلامية ؟

نحن ننظر إلى الدين ، علـى أنـه تركـة مجمـدة مخزنـة فـى صفحـات الكتب ، ومجلدات الفقه ، مسجونة بين طرقات زمـن لا يعيـش متغـيرات الزمن .

إنـه لأمـر مدهـش حقـا ، أن يكـون رد الفعـل لقضيـة شـباب (عبـدة الشيطان) ، القول بأن الحل هو المزيد من الوعظ الدينى ، وتخريج دفعات جديدة من الدعاة ، والشيوخ والوعاظ ، وبنـاء المزيـد مـن الجوامـع ، لسـد الفراغ الدينى ، والخواء الروحى لدى هؤلاء الشباب .

وليس مستغربا أن يصف البعـض ، هـؤلاء الشـباب بـالردة ، والكفـر ، وتخريب المجتمع ، وإفساد نواميـس الكـون ، ثـم يطـالبون بإقامـة الحـد عليهم .

ثم دعونا نناقش الصورة التقليدية لشكل، ومضمون ما نسميه بـ (رجل الدين) .

مثلما تصورنا عن الدين منفصل عن الحياة ، كذلك أيضا صورة (رجل الدين) .

نحن نريد رجل الدين ، إنسانا بسيطا عاديا ، يعيش بين الناس، يعرف مشاكلهم عن قرب ، يأكل مما يأكلون ، ويلبس مثلما يلبسون، ويتكلم لغة بسيطة واضحة قابلة للفهم ، والنقاش .

نريد رجل الدين ، أن يكون نابضا بالحياة ، والدفء ، والمرح ، والابتسام. رجل يهتم بالشعر والموسيقى ، والغناء ، ويقف على أحدث ابداعات العصر من علوم ، وآداب ، وفنون .

ولم لا يكون هناك (امرأة دين) ، لها المؤهلات نفسها مثل (رجل الدين) ؟ إنه تعصب ضد النساء، وخدش جسيم لديمقراطية الأديان، ألا تدخل المرأة - نصف المجتمع - شريكة مع الرجل ، فى تفسير الأديان، وتعميق جوهرها ، ودعم ارتباطه بالواقع المعاش .

نحن كذلك نتساءل ، لم لا يكون المسلسل الدرامى الذى يتناول علاقة جديدة متساوية بين الرجل والمرأة ، أو بين الأستاذ والطلبة والطالبات، أو علاقة عادلة بين الحاكم ، والمحكوم ، هو مسلسلا (دينيا) من الطراز الأول؟

مَنْ قال أن المسلسل الدينى ، هو العيش فى حواديت فات زمانها، تهيم فى ملكوت آخر ، ولا علاقة لها بأحلام ، ومعاناة الملايين من النساء ، والرجال، والأطفال فى بلادنا ؟

نحن منشغلون طوال الوقت ، ومؤرقون أكثر من اللازم ، بتكفير بعضنا البعض، وتصيد الهفوات ، للآخرين تمهيدًا لإتهامهم ، والمزايدة عليهم باسم الدين أو الفضيلة . أصبح لكل واحد فينا الحق ، فى تنصيب نفسه (إلهاً) ، وللأسف يجد مَنْ يمهد له الطريق ، ويدعم دعواه . بداخل كل منا (إرهابى) ، متحفز للهجوم حتى ولو بمجرد نظرة العين .

القضية فى رأينا ، ليست هل هناك ناس قريبون من الدين ، يعملون فى سبيل الله ، وناس بعيدون عن الدين ، وعن الله .

القضية ، هى كيف يتحول الدين إلى دافع وجدانى، يوحد الناس، ويذيب فى ود خلافاتهم الشخصية ، من أجل يقظة جماعية ضد عدوهم الواحد المشترك ألا وهو الظلم ، والفقر ، والقهر ، والمرض .

ليست القضية ، هل الناس تؤدى الطقوس ، والعبادات ، إما طمعا فى الثواب ، أو خوفا من العقاب الإلهى ، أو رغبة فى الاستعراض أمام الناس . ولكن القضية هى كيف تمهد الطقوس ، والعبادات ، إلى خلق شخصية حرة التفكير ، قادرة على النقد المستنير لأمور الحياة ، ومؤهلة للتمييز العقلانى بين الشكل والجوهر ، بين الوسيلة والغاية ، بين الثانوى والأساسي.

التحدى الأكبر ، هو كيف يتحول حب الله داخل كل مواطن ، ومواطنة ، إلى نقد ذاتى مستمر لسلوكياتنا اليومية ، وإلى يقظة فكرية مبدعة ثائرة ، ضد قهر الإنسان ، وتدمير كرامته .

إن الإنجاز الأكبر أمام كل القوى المستنيرة هو تضافرها لتحويل (الدين) ، من انشغال ببناء الجوامع ، إلى انشغال ببناء الإنسان .

نحن نعتقد أن (عبدة الشيطان) ، ليسوا أكثر خطورة من (عبدة المال)، و (عبدة السلطة) و (عبدة التفرقة بين البشر) .

إنه مناخ واحد يفرز عبادات وثنية، تدمر الذات ، وتدمر الآخر .

منذ أن نسينا الله الكامن في القلب ، والفطرة النقية ، واستبدلناه بنداء يزعقون باسمه في الميكروفونات ، أصبح لكل واحد ، شيئا ما ، وثنا ما ، يعبده . ويستوى في ذلك ، عبادة الشيطان ، أو عبادة الثراء، والشهرة ، أوعبادة السلطة، أو عبادة فيلات الساحل الشمالى، أو حمامات سيراميك يعلنون عنها على موسيقى (القالس) ، تصاحبها ميوعة فتيات أصبحن قدوة لجيل بأكمله .

حين يستعيد الله عرشه داخل قلوبنا ، حين يصبح نداء (الله أكبر)، صرخة احتجاج ضد الفقر والظلم ..

حين لا نسأل الإنسان عن ديانته ، ونسأله فقط عن عمله وسلوكه ..

حتى يصبح (التدين) هو المرادف أن يجد كل مواطن غير قادر، وكل مواطنة غير قادرة ، العمل ، والتعليم ، والمسكن ، والدواء ، والثقافة ، والكرامة ..

حين لا يعيش البعض في عشش ، والبعض الآخر في قصور رخامية ..

حين ننظر إلى الإيمان ، باعتباره مزيجا مدهشا بين الله والإنسان في جبهة واحدة ضد الظلم ..

حين نتعلم كيف (نصادق) الله ، وكيف (نحب) الله ، لا أن نخافه ، ونرهبه .

حين تتحول الطقوس ، والعبادات ، إلى فعل لتغيير شكل الحياة ..

حينئذ فقط ، سوف يدهشنا أن ليس هناك إلا دينا واحدًا ، هــو ديـن العدالة بين البشر ، والحياة الكريمة لكل الناس .

خصخصة الإيمان

شهدت مصر فى الآونة الأخيرة تغييرات جذرية فى مسيرتها الاقتصادية، حيث الانتقال بشكل أكبر وأساسى إلى اقتصاد السوق الحرة. استلزم هذا التحول بالضرورة اتخاذ «الخصخصة» مبدأ، باعتبارها الموجة أو «المايسترو» الذى يقود حركة النشاط الاقتصادى وعلى يديه تتجمع وتلتف وتتناغم خيوط وأصوات الفرق العازفة على «النوتة» الاقتصادية الجديدة.

كل يوم تطالعنا الإجراءات والتشريعات والسياسات لزيادة مساحة «الخصخصة»، وتوسيع قاعدة الملكية للأفراد والبنوك والشركات ومرافق البنية التحتية وغيرها من أعمدة النشاط الاقتصادى.

وتتزامن مع هذا المناشدة المتزايدة لتذليل كل العقبات الإدارية والقانونية والمالية والجمركية لتسهيل مد الخصخصة، وتمكين القطاع الخاص من أداء دوره على أكمل وجه.

أدت تلك المتغيرات الجذرية فى حال الاقتصاد المصرى، إلى سيادة مناخ يعطى الأهمية والأولوية والتقدير لعبارات المشروع الفردى والمبادرة الخاصة، والجهد الذاتى، فكر غير تقليدى، وحلول جذرية.

هناك تناقض جوهرى وأساسى بين إقامة الخصخصة فى الاقتصاد، وبين التأميم فى الفكر. فالخصخصة باعتبارها حركة ديناميكية تستنفر

الملكات الخاصة والقدرات المتميزة، والرؤيـة الابداعيـة الفرديـة المتفـردة، تختنق وتموت في منـاخ فكـرى جامد مهيمن، مركز فـى اتجـاه واحـد، ولا يعكس إلا نغمة مسـتهلكة، الإيقـاع والصـوت، تجـهض الاختـلاف، والإبداع فى الفكر والثقافة.

وتمثل العقيدة الدينية، والإيمان بالله، وطريقة النظر إلى دور الدين فى الحياة، أساس تفكـير الفـرد وهـى التـى تشـكل أحلامـه وتحـدد علاقتـه بنفسه، وبالآخرين.

ولذلك فنحن حين نتكلم عن مناخ عام يؤمن بالخصخصة في الاقتصاد لابد أن نتوقع إيمانا مماثلا موازيا للخصخصة فى الفكر والتي تبدأ منطقيا فى أهم ما يصنع فكر الإنسان ألا وهى العقيدة الدينية وعلاقته بربه.

إن الإيمان بالله مشروع خـاص جـدا.. ومشـروع فـردى جـدا والعقيـدة الدينية هى أكثر الأمور غير القابلة للتخطيـط المركـزى والوصايـة المركزيـة والرقابة والتحكم، والمتابعة والتقييم وضبط الأداء وهى الوظائف أو المبادئ التى تخدم نوعا من الجماعة وسيادة الهياكل المتشابهة المنمطة.

إن العقيدة الدينية اختيار حر. ولا معنى لها، ولا فضيلة فيها، إلا إذا كانت مشروعا خاصا وكل فرد كذلك الإيمان بـالله، يكتسـب عظمتـه مـن حقيقة أنه أكثر الأمور خصوصية وفردية.

إن توسيع مساحة الملكيـة الخاصـة للأفـراد فـى الناحيـة الاقتصاديـة يستلزم توسيع مساحة ملكيتهم الخاصة لأفكارهم ومشـاعرهم ورؤاهـم عـن أنفسهم وعن العالم.

إن شكل العقيدة الدينية وملامح الإيمان بالله هما (ولابد أن يكونا كذلك) بالمنطق.«ملكية خاصة» للفرد، باعتبارهما أساس مكونات الفكر والمشاعر، والرؤية أو فى كلمة واحدة «الشخصية».

كما نحن فى أمس الحاجة الآن إلى فكر إبداعى مقتحم وجرىء فى الإنتاج والثقافة والفنون، نحتاج بالمثل إلى فكر إبداعى مقتحم وجرىء يتناول العقيدة الدينية للفرد وعلاقة الإنسان بربه ودورهما فى الحياة، نقيم من فترة لأخرى مهرجانات وملتقيات للفنون تحت أسماء «ليالى الإبداع» أو «المبدعون يتلقون» ، المبدعون يلتقون، وغيرها والتى تتناول الغناء والرقص.

لكن الإنسان السوى الرشيد قبل أن يغنى أو يرقص عليه أن يبدع فى إشكاليات فكرية أساسية يكون الموقف من الدين، والإيمان بالله حجر الزاوية فيها بالضرورة.

لماذا لا تقام ملتقيات منتظمة تخصص للإبداع فى الفكر الدينى والإبداع فى علاقة الإنسان بربه، والإبداع فى مكانة العقيدة الدينية فى الحياة؟!

وعلى هذه الملتقيات أن تعد وتدار بشكل مبدع أيضا فتضم كل الفئات والطوائف والشرائح والمهن والاتجاهات وليس كما قد يتصور أنها تكون قاصرة على من يتكلم باسم الدين.

كما نزهو بما أنجزناه من إصلاح اقتصادى نحتاج بالمثل إلى إصلاح دينى يؤمن أن الفكر الدينى بكل مفرداته العقائدية والإيمانية ملكية خاصة للفرد هو وحده المسئول عنها.

وما علـى المجتمع إلا تذليـل كـل العقبـات التـى تعـوق ذلـك وخلـق الضمانات لأن يمتلك كل فرد إيمانه الخاص وأن يمارس علاقته بربه فـى أعلى درجات وأشكال الخصوصية الممكنة.

وهـذا كـاف لأن يحـول دون وجـود ونمـو أشـكال التطـرف الدينـى والوصاية الدينية.

الإرهاب . . والتأرجح بين التزمت والإباحية

لا شك في أننا نعيش لحظات حرجة من تاريخ مصر.

لحظات تنادى كل قلم مصرى أن يسكب ذروة مصريته على الورق لحظات تستنفر فينا مصريين ومصريات أعز ما نملك وأشرف ما نكون، ألا وهو الرأى الحر الخالص لوجه الله، ولوجه مصر.

وقبل محاولات الفهم والتفسير لما يحدث، علينا في البداية، أن ندين ما تشهده أرض مصر من حوادث عنف وقتل وتخريب، تقوم بها جماعات سياسية إرهابية، ترتدى عباءة الدين تتكلم باسم الله، فتفرض بسفك الدماء أهواءها ومصالحها، تلك المصالح والأهواء، التى يوافقها ويرسخ من أقدامها العودة إلى عصور لطخت جبين البشرية.

عصور ما زالت فى ذاكرتنا حيث كان الدين سوطا، يضرب عقل الإنسان في حركته المبدعة نحو التقدم والحرية.

وكثيرا ما تغنينا أن «حب الوطن» فرض علينا، نحن الآن فى وقت نحتاج فيه أكثر من أى وقت مضى، إلى أن نترجم فريضة حب الوطن إلى تساؤلات جريئة، تطرح التردد والتجزئة جانبا، لنواجه الأمور مواجهة مباشرة متكاملة الأبعاد.

إلى أى مدى، نقول: إن ما يحدث هو مؤامرة دخيلة مصدرة إلى مصر، تحركها قوى خارجية، تهدف إلى ضرب الاقتصاد، وتخريب السياحة

وإشاعة جو من الإرهاب، وقبل أى شىء آخر، عرقلة التجربة الديمقراطية المتصاعدة، والعرقلة تعنى فى المقام الأول، وضع تجربتنا الديمقراطية فى مأزق حضارى، يجعلها تتصور - ولو لفترة مؤقتة - أن توفير الحرية وتوفير الأمن، أمران لا تناغم بينهما، ويدعوها للتشكك فى أساسها الجوهرى (والذى تدعمه خبرات الشعوب) ألا وهو، أن البلد الأكثر ديمقراطية، هو البلد الأكثر أمنا.

وإلى أى مدى نقول: إن ما يحدث هو تراكم أو رد فعل لإحباط بعض الشباب، ووصولهم إلى طريق مسدود، حيث غياب الاحتياجات الأساسية فى حدودها الدنيا، تلك الاحتياجات التى تخلق بدورها الحد الأدنى الضرورى للإحساس بالكرامة الإنسانية.

والحديث عن الكرامة فى الوطن، ليس حديثا مترفا كما قد يظن البعض فكرامة الرجل فى وطنه، وكرامة المرأة فى وطنها، هى التى تصنع الانتماء الفعلى كإحساس، ثم يجسد فى سلوك يظهر الخوف على الوطن، والاستعداد لتحمل ما يمر به من مشاكل أو أزمات ولن نبالغ ونقول إن سعادة الإنسان هى الوجه الآخر لإحساسه بكرامته فى وطنه، ولكننا على الأقل، نستبعد السعادة دون دخول الكرامة كأحد مكوناتها الأساسية.

نحن أبعد ما نكون، عن استبعاد قوى خارجية منظمة تتحرك على نطاق العالم بأسره، شبكة محكمة فاسدة، خيوطها هى إحياء الحروب الطائفية والأهلية لترويج الأسلحة وبلبلة الاستقرار، تدعيم وتمويل

حركات إحياء الديانات ولكن فـي الأمـور القشـرية السـطحية، استخدام جسد المرأة إما لمخاطبة الإباحية، وإما مخاطبة العصور السلفية، تشـجيع بؤر المخدرات، والبغاء ونشـر روح العنـف والعدوانيـة، ولأن هـذه القـوى تملك الأموال والنفوذ وآخر منجزات العلـم والتكنولوجيـا، فإنـها تسـتثمر هذا كله، في إخضاع وإضعاف الهوية القومية الأصيلة لكل جماعـة علـى حدة، من خلال تغلغلها في القنوات الإعلامية والثقافية.

هذه العناصر في علاقات ارتباط وتداخل ولكـن قـد يـبرز عنصر على حساب عنصر آخر حسب طبيعة وظروف البلد المستهدف.

ولأن مصر كانت ولا تزال نقطة مضيئة فـي منطقتـها وبـين جيرانـها، ولأنها ليست استثناء لما يحدث في العالم، فمن الطبيعـي أن تمتـد إليـها خيوط هذه الشبكة.

لكننا مع اعترافنا بشراسة هذه القوى، نرى أن المسئولية الأكبر، إنمـا تقع على البنية الداخلية. فهي التي تخلـق التربـة الخصبـة الملائمـة لأن تجد الشبكة من يتحمـس لهـا، ويمسـك بـأحد خيوطـها (الأكـثر ملاءمـة لظروفه) ومن يصدق ما تروجه من إشاعات وأكاذيب ويستجيب لما تقدمـه من إغراءات، وما تنشره من عنف يناسب الطاقة الغاضبة التـي بداخلـه، والتي لابد لها من منفذ، إما تجاه الداخل وإما تجاه الخارج.

نحن نشبه هذه القوى الخارجيـة بالفيروسـات الكثـيرة المتنوعـة التـي تمـلأ الجـو المحيـط بنـا، وتقـع خـارج أجسـامنا، هـل إذا دخـل أحـــد

الفيروسات الجسم وتمكن منه، أنلوم الهواء أم نلوم جهاز المناعة الداخلى؟

المنطق يقول: إن مسئولية جهاز المناعة داخل الجسم هو المسئول الأول، فالهواء لن يتغير، والفيروسات ستظل منتشرة فيه، تماما، مثل محاولات ضرب الشعوب التى يتحدد ظهورها أو كمونها حسب درجة مناعة الشعب المستهدف.

والدليل على ذلك، أن جماعات التطرف والإرهاب والإفساد، ظهرت وترعرعت فى البلاد وفى المناطق التى يتضح فيها أكثر من غيرها، مظاهر عدم العدالة الاجتماعية، وغياب الحدود الدنيا للحياة الآدمية الكريمة، تماما، مثل أى مرض عضوى حين يبدأ بأضعف الأماكن فى الجسم، ويركز عليها فأقطاب هذه الشبكة الدولية لهم تاريخ طويل من التدريب والخبرة يؤكد لهم أن النجاح يكون مضمونا أكثر، إذا كان العدو من الداخل وهو درس، أحيانا ما تنساه الشعوب. فبعد استقلال المستعمرات عن الدول الاستعمارية بفعل الثورات وحركات التحرير، اختفى العدو الخارجى الظاهرى والملموس فى شكل احتلال مباشر للأرض، ولأن العلاقة بين الدول الكبرى والصغرى لم تتغير فى جوهرها، وبقيت بعد الاستقلال علاقات تسعى إلى السيطرة والاستغلال أكثر منها إلى التعاون والعدالة، فمن المنطقى ظهور عدو أو مجموعة من الأعداء غير ظاهرية، تقوم بأنواع مستترة من الممارسات التى - في جوهرها - نسخ معدلة من الفكر الاستعمارى، نسخ أكثر مرونة، وأكثر قدرة على التخفى، والتأقلم مع الظروف المتغيرة، عالميا وداخل كل بلد على حدة.

إنها إذن البنية الداخلية التى لابد لنا أن نواجهها ونوليها الاهتمام والأولوية، حتى تكون بحق الدرع الواقية لسلامة الوطن، والصخرة الصلبة التى تتحطم عليها هذه المحاولات الخارجية.

فى مواجهة للبنية الداخلية، قيل وكتب الكثير عن الفقر والبطالة وحصار المشكلة الاقتصادية التى يصاحبها ويزيد من خطورتها الانفجار السكانى. نحن لا نتجاهل قيمة الخوض فى مشاكل الاقتصاد، لكننا نعتقد أن الدول جميعها بأشكال ودرجات متفاوتة، ستظل تواجه تحديا مستمرا فيما يخص العلاقة بين البشر والموارد، وفيما يتصل بالتوازن المطلوب بين الاستهلاك والإنتاج.

نحن نفضل مناقشة البنية الداخلية للمجتمع المصرى، من منظور الفكر وليس الاقتصاد، أو من منظور ما سنسميه إشكالية الفكر، أكثر منه إشكالية الاقتصاد، ونقصد بإشكالية الفكر، الفلسفة التى اختارتها مصر لتكون عنوانها فى الحاضر وفى المستقبل. نحن نزعم أن غياب الفلسفة أو عدم استقرارها أو عدم وضوحها أو عدم تغلغلها فى صميم تفكيرنا ومشاعرنا وسلوكنا، لهو من الأسباب الرئيسية التى تصيب مناعة الشعب فى مقتل، وتؤثر فى مدى رخاوة أو صلابة البنية الداخلية، الآن أكثر من أى وقت مضى، لابد أن نتساءل عن هويتنا الفكرية التى تحدد بطاقتنا الحضارية، بها سندخل القرن الواحد والعشرين.

وعلى مستوى العالم، نحن نعيش تناقضا، ونعاصر مفارقة فريدة من نوعها، فلم يحدث قبل هذا العصر أن وصل العالم إلى هذا المستوى من

المعرفة العلمية والاكتشافات والاختراعات فى كل المجالات، ولكنه أيضا لم يحدث قبل هذا العصر، أن وصل إلى هذا المستوى من التعاسة والحماقة والتراجع الأخلاقى.

هناك علاقة عكسية متنامية غير مفسرة وغير مبررة، بين تقدم العالم ماديا، وتأخره إنسانيا، فهو ينتج المزيد من الأساليب المبتكرة، ولكنه يستخدمها لقتل البشر، وتدمير الطبيعة، وكأن الإرهاب بنوعيه سواء ذلك الموجه للناس أو البيئة، هو سمة العصر، وعنوان حضارة نهايات القرن العشرين.

لقد آن الأوان أن تتجمع كل القوى الوطنية العقلانية المستنيرة فى مصر، بكافة اتجاهاتها، وقطاعاتها، وفئاتها ومجالاتها، لترسم لنا عبر حوار ديمقراطى مفتوح، صيغة فكرية واضحة وحاسمة، تأخذ فى الاعتبار أحلام وطموحات الغالبية، صيغة تليق بحضارة هذا الشعب الأصيل، وتلائم خصوصيته التى جعلت من مصر دائما - ورغم ما تعرضت له من أزمات - بلدا رائدا وملهما.

إن التطلع إلى صيغة فكرية نستقر عليها، لا يعنى الجمود والثبات، إن التغير والتعديل والمرونة أمور واردة ومطلوبة. وفى عالم سريع التغير، معقد ومتشابك كعالمنا الراهن، تصبح واردة ومطلوبة أكثر. لكن التغيير يكون من نصيب التفاصيل، والأساليب المستخدمة، والأهداف المرحلية، وليس تغييرا فى المنهج أو الأغراض العامة الكلية، وفى الحقيقة، أن استقرار الفلسفة وثباتها كأساس فكرى للمجتمع، هو الشرط الذى يضمن

التغيير المرن الصحى، به نتفاعل مـع المتغـيرات الجديـدة، دون أن نفقـد «البوصلة» التى توجهنا، ودون أن ترتبك خطانا، أو يتخللنا الشك حـين تصادفنا العراقيل.

نحن على يقين، بأن مصر ثرية بالعقول المبدعة التى يمكنها الاضطلاع بهذا التحدى الفكرى.

أليس هذا اليقين، ما علمته لنا مصر، على مدى عصورها. . .

الإرهاب ومكبرات الصوت

إن التصدى الحازم للإرهاب الذى يقتل الأرواح، ويسفك الدماء، باسم الدين والجهاد فى سبيل الله، هو أمر يقف معه ويؤيده كل الشعب المصرى، على اختلاف اتجاهاته الفكرية، وتباين نظرته لأمور الدين والدنيا.

ونحن نعتقد أن نجاح وفعالية هذا التصدى على المدى الطويل، مرهون بامتداده وتغلغله فى كل نواحى الحياة الفكرية والاجتماعية، والفردية والجماعية. بطبيعة الحال - وبحكم تفرد تكوينها - تبرز أكثر الناحية الأمنية، كتصد لابد أن يؤتى ثماره على المدى القصير، حيث لا مهادنة فى سلامة وأمن الوطن.

إن التصدى للإرهاب يحتاج إلى فلسفة أو نظرية، تحدد معناه، وأبعاده، التى بقليل من التأمل، نجد أنها تشمل بعض الظواهر والممارسات، التى لا يعقبها بالضرورة قتل الأرواح، وسفك الدماء.

لابد أن ننظر إلى الإرهاب، على أنه فى جوهره - كل ممارسة للعنف، واغتصاب حقوق الآخرين، وكل محاولة لفرض سلوكيات بعينها، وذلك تحت أى اسم من الأسماء، خاصة الدين، الذى بطبيعته وبحكم مساره التاريخى، يشكل قضية حساسة لدى قطاعات كبيرة من الناس، وجدير بالذكر، أن هذه الحساسية، تزداد وتصبح أقل عقلانية، ومرونة، وأكثر خشونة وتعصبا فى أوقات الأزمات.

ونحن فى هذا السياق، سنركز على أمر أصبح ظاهرة فى حياتنا الاجتماعية، والذى يمارس باسم الدين، نوعا من العنف، والإرهاب، واغتصاب الحقوق، وفرض السلوكيات، رغم أنه لا يريق نقطة دم واحدة، ولا يطلق القنابل أوالرصاص.

هذه الظاهرة، هى مكبرات الصوت. نحن نتساءل – ومن حقنا أن نتساءل وأن نلقى الجواب – لمن تزعق مكبرات الصوت؟ وكيف باسم الصلاة، أو أداء طقوس الدين، التى تستهدف أن يصبح الناس أكثر إحساسا بالآخرين وأكثر رقة وجمالا، تنتهك مكبرات الصوت، مبادئ الدين التى تضع حرية الإنسان وحقوقه، راية مقدسة ترفرف عاليا؟.

إن الدين، لا يقر بأى حال من الأحوال، انتهاك أحد مساكن الإنسان، بدون استئذان وموافقة صاحبه . لكن مكبرات الصوت، تضرب بهذا المبدأ عرض الحائط، وتنتهك دون استئذان، آذاننا، وأعصابنا، وأوقاتنا، وجدران بيوتنا، فى النهار والليل وأوقات الفجر.

إن مكبرات الصوت لها نفوذ قوى متسلط، يجعلها غير مبالية، بأن تمارس ما حرمه الدين من إزعاج الناس، وتلويث الهواء بالزعيق والشخيط باسم الصلاة. ولا يهمها أن تمارس ما يتناقض شكلا وموضوعا، مع حكمة الصلاة، من توفير مناخ هادئ سمح، يتيح للإنسان التواصل مع ذاته، ومع الآخرين، ومع كل ما فى الكون الكبير، استعدادا للتواصل المتأمل العميق مع الله، ومع كل تجلياته فى الخلق.

إن التصدى للإرهاب الدموى، لابد أن يرتبط بضرورة توعية الناس بجوهر الدين، ومبادئه الحنيفة التى جاءت لإسعاد الإنسان وتحريره،

لا لإتعاسه وقهره. وهذا مرتبط بترشيد الممارسات الخاطئة التى تحدث باسم الدين، وتتخلل حياتنا من أصغر إلى أكبر تفاصيلها.

ليس هناك فى الإسلام، ما يبيح استخدام مكبرات الصوت، لإتمام صلاة المسلمين والمسلمات، ليس فقط، لأن مكبر الصوت، اختراع حديث ظهر بعد الإسلام، بفترة طويلة. ولكن لأن الإسلام - فى جوهره - تحيز كامل وصريح مع حقوق الفرد وحريته.

إن مكبر الصوت، ممارسة خاطئة غير إسلامية، وغير شرعية، وغير دستورية. ممارسة يتوافر لها كل عناصر العنف وإيذاء الغير. وهى ممارسة يعاقب عليها القانون، وجميع مواثيق حقوق الإنسان. وهى تساعد فى تشويه وجه الإسلام الحقيقى، لأنها تعطى الانطباع أن الصلاة ترادف الزعيق والخشونة وإزعاج خلق الله.

من يريد أن يصلى، ومن يريد أن يقرأ التواشيح، ويلقى الخطب والمواعظ، عليه أن يبدأ بالبداية الصحيحة التى يقرها الدين وليس العكس.

وطوال عصور التاريخ، كان الشعب المصرى، يصلى، وكان دوما حريصا على أداء طقوس دينه وفرائضه. والتدين ولكن فى اعتدال وسماحة ورقة، كان وسيظل سمة من سمات الشعب المصرى.

لكننا لم نعرف من قبل، أن مكبر الصوت، أداة لإتمام شعائر ديننا وإسلامنا، لم نعرف من قبل، أن الزعيق، وسيلة لترغيب الناس فى

الصلاة والدين. ولم نعرف من قبل، التدين الذى يشترط تداخل الأصوات المرتفعة.

ولن ندخل الآن - رغم أنها مسألة خطيرة - فى أن بعض خطباء الجوامع، يزعقون فى مكبرات الصوت بآرائهم الشخصية، التى تناقض مسيرتنا الحضارية. فهم يهاجمون النساء السافرات، العاملات، ويحرضون الشباب على عدم الاختلاط بالفتيات لأنهن فتنة ومفسدة، وفى كلامهم، يركزون على تخويف الشباب من عذاب القبر، ونار جهنم، وعلى تحريم كل استمتاع بالحياة، فالحياة فى نظرهم ليست إلا غرورا ومفسدة تساعد على الانحراف (والانحراف فى رأيهم هو فقط اجتماع الرجل بالمرأة). وبالتالى، فإنهم يدعون الشباب إلى عدم الإقبال على الحياة، واقتصارها فقط على أداء العبادات، والتركيز على ما يرتدونه من زى، وعلى طول اللحية.

علينا أمانة كبيرة، فى إزالة التشوهات الكثيرة التى تغلف فهم الإسلام، وممارسة طقوسه، خاصة فى هذه المرحلة.

قد يقول البعض إن قضية مكبرات الصوت، قضية تافهة أو ثانوية، وإن انتشارها أصبح أقل. ونرد على ذلك بأن ظاهرة مكبرات الصوت لا تنحسر، على العكس تتزايد، وإذا كان الأمر، يتعلق بحقوق الإنسان، وحرمة مسكنه وحياته، فليس هناك قضية ثانوية، تافهة، وأخرى رئيسية مهمة.

وإذا كانت هذه قضايا تافهة، لما احتاجت المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وبنود القوانين والدساتير وكذلك مبادئ الأديان، أن تنبه إليها،

وتقر عدم المساس بها. كذلك، فإن أى قضية كبيرة، لا تترجم نفسها، إلا من خلال تفاصيل الحياة، التى يعيشها، الناس ويعانون منها فى الواقع الفعلى المتكرر يوميا.

إن ما تفعله بنا مكبرات الصوت، فى أوقات الصلاة باسم الدين، طلقات رصاص تؤذينا وترهبنا، دون أن تريق دماءنا، أو تقتل أرواحنا. لكنها تريق إنسانيتنا، ومشوارنا الحضارى، وتقتل تصورنا عن معنى حقوقنا وواجباتنا، فى الدين والحياة، على حد سواء.

هل لنا أن نحلم بيوم قريب، تكون فيه مصر، بلدا هادئا؟

ولنتساءل أخيرا ماذا كان سيخسر الإسلام، لو لم يخترع الغرب - غير المسلمين - مكبر الصوت؟.

العجز مع النساء
والتستر تحت عباءة الدين

إنها لحقيقة يؤكدها مسار التاريخ عبر فترات متتالية، أن المجتمعات التى وصلت إلى نوع من التحضر الدينى، هى التى فتحت أبواب الحرية للنساء.

إن الخيط المشترك بين منطق الإرهاب، ومنطق قهر المرأة، هو التكلم باسم الله، والتستر تحت عباءة الدين، لإضفاء صفة القدسية على مزاعمه.

وكلما قل نصيب الأفراد والمجتمعات من الوعى والرقى ورسوخ حقوق الإنسان، كلما ازدادت حساسية التكلم باسم الله، وهيمنة الخطاب الدينى المتشدد، وبالتالى تزداد صفة القدسية والهيمنة.

وغنى عن القول، أن هذه الحساسية تزداد فى وقت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، حيث يمثل الدين واحة الخلاص، والتعويض عن واقع لا يحقق الرضاء والإشباع.

ولكن لماذا إضفاء صفة القدسية؟

إن تكفير الناس، وإصدار الأحكام الدينية ضدهم أمر يمكن تفنيده بالعقل المستنير، والحجة المنطقية، بل إنه فى الأصل حق ليس من اختصاص البشر، ولذلك فهو غير ممكن إلا فى ظل قدسية وهمية تعمل

فى ظل تعصب غير قابل للنقاش. وبالمثل فإن قـهر المـرأة أيضـا أمـر غـير طبيعـى، ومبرراتـه متناقضـة، ويمكـن دحضـها بـالعقل واسـتنارة الرؤيـة وحسن النوايا، ولذلك فهو مضطر لارتداء الثوب الدينـى الفضفـاض الـذى يزعم أن هذا القهر هو رأى الدين، وسنة الكون التى أرادهـا الله لخلقـه، وبالتالى يكون الاعتراض على قـهر المـرأة، هـو نقـص فـى الديـن، وأرض خصبة لاتهامات الكفر والإباحية وإفساد الكون، ليس الإرهاب هو ترويع النـاس بالقنـابل والمتفجـرات، ولكنـه أيضـا وفـى المقــام الأول الوصايــة الدينية، والأخلاقيـة التـى يعلنـها البعـض علينـا، ويتصـورون أن حقـهم النيابة عنا، فى أمور ديننا، ودنيانا.

ولأن النساء هن نصف البشرية الأضعف، والأكثر تهميشا، وبعـدا عـن مواقع التأثير وصنع القرار، ولأن أجســادهن ارتبطـت تاريخيـا بـالرمز إلى شرف الرجال، فإن الوصاية الدينية والأخلاقية التى تحاصرهن بـالضرورة أشد صرامة.

ليسـت مبالغـة إذا قلنـا أن العلاقـة بـالمرأة، تلخـص وتجسـد العلاقـة بالحياة كلها.

ويدلنا التاريخ على أن القاسم المشترك بين كل الرجال، الذين اتسـموا بميول عدوانية، فاشية، دموية، كان العجز فى إقامة علاقة صحيـة مـع المـرأة.. ولأن المجتمـع الذكـورى يـرادف قيمـة الرجولـة بمـدى النجــاح والتحقق العاطفى مع المرأة، فإن الفشل مع النسـاء يعنـى للرجـال شـعورا بالنقص والعار. ويدفعــهم هـذا الفشـل إلى درجـات وأشـكال مختلفـة مـن

التزمت الفكرى، والسلوكيات العدوانية تجاه النفس والآخر، وأيضا التعصب ضد جنس النساء عامة.

إن انفتاح الفكر الدينى، وانفتاح العقلية تجاه النساء، يسيران جنبا إلى جنب.

ولذلك فنحن حين نعارض التزمت الذكورى ضد النساء، لا نضمن فقط عدالة توزيع الحقوق الإنسانية بين الجنسين، ولكننا أيضا نضمن للمجتمع كله، عقلانية سمحة مستنيرة، إنها هذه العقلانية التى تصد أية محاولات للتعصب، والتطرف الدينى والفكرى، والذى تكون النساء بالضرورة أولى ضحاياه.

عن الحب

الحب والديمقراطية

دائما ما يتم تناول قضية الديمقراطية فى علاقتها بالتعددية السياسية، والحريات العامة ، وحقوق الإنسان ، لكننا لا نتطرق إلى قضية الديمقراطية ، فى علاقتها بالحب ، أو العاطفة الخاصة بين الرجل والمرأة . بل إن الكثيرين سوف يندهشون من مجرد تصور رابطة ما ، بين الديمقراطية والحب .

لكن حقيقة الأمر ، أن الحب بين الرجل والمرأة باعتباره أكثر أشكال الحب تكثيفا وتحريكا للمشاعر ، هو التربة الخصبة لغرس بذور الديمقراطية .

بمعنى آخر نقول إن القدرات النفسية التى يفجرها الحب بين الرجل والمرأة هى القدرات نفسها التى تستلزمها الديمقراطية .

إن الحب فى جوهره ، طاقة عاطفية ، خرجت من نطاق الذاتية الضيق المحدود ، للانفتاح على ذات أخرى .

فى الحب ، يتعلم الإنسان الدرس الأول فى الديمقراطية ، ألا وهو كيف يتقبل ويحترم (الآخر) ، الذى هو بالضرورة مختلف عنه . فى الحب ، يفاجأ الإنسان ، أنه أصبح منشغلا بكل ما يجعل (الآخر) المختلف عنه ، ينمو ، ويتطور ، ويتفتح ويتألق ويتحرر . أليس فى هذا أجمل تدريب على الديمقراطية ؟

هل الديمقراطية شيء آخر ، إلا هذا التوجه المنفتح نحو كيان غير ذاتي ؟

الحب لا يعرف ، ولا يعترف بالفروق المصطنعة بين البشر . الحب يذيب جميع الفروق ، ويعبر كل الحواجز ، ويحلق بعيدًا فوق كل الاختلافات الطبقية، والعرقية ، والدينية ، والفكرية ، والعمرية ، والجغرافية ، والعنصرية، فالحب يمكن أن يجمع بين امرأة غنية ورجل فقير ، أو بين امرأة ذات ديانة معينة، ورجل من ديانة مختلفة، والحب يمكن أن يلم شمل الشامي على المغربي ، ويربط بين رجل له بشرة بيضاء، وامرأة ذات بشرة سوداء، وبين رجل فى العقد الثالث من العمر، وامرأة تعدت الخمسين ، أو الستين، أهناك ديمقراطية أكثر، وأرقى من هذه التى يجسدها الحب ؟!

وإذا تأملنا الواقع ، نجد أن الفشل فى علاقات الحب يكمن بالتحديد فى افتقاد هذا (التوجه الديمقراطى) المنفتح تجاه الآخر ، فالرجل قد تكون لديه مشاعر جميلة للمرأة ، لكنه (عاجز) عن (رؤيتها) ككيان مستقل ، لها طموحاتها وشخصيتها المختلفة ، والمرأة قد تكون صادقة فى عواطفها تجاه الرجل ، لكنها هى الأخرى (عاجزة) عن (رؤيته) فى إطار يتضمن له النمو والتطور والتحرر.

فمشكلة الحب ليست غياب المشاعر ، أو العواطف ، ولكنها فى غياب (الإحساس الديمقراطي العاشق) . كثيرون يقعون فى الحب كل يوم . لكنه حب مريض (متسلط) وقصص حب (ديكتاتورية) العاطفة .

إن المجتمعات التى تعادى الحب ، أو المجتمعات التى يكون فيها الحب السوى ظاهرة استثنائية، هى نفسها المجتمعات المتسلطة المتفقدة

للديمقراطية، وهى نفسها المجتمعات التى يغزوها العنف ، والاضطرابات النفسية .

إن الحب بين الرجال والنساء هو (الحزب السياسى) الذى يمكنه تعليم الديمقراطية دون خطب، أو مواعظ، أو شعارات .

وليس المجتمع الديمقراطى إلا تحصيل حاصل لمجتمع نساؤه – ورجاله قادرون على الحب المنفتح تجاه الآخر . هذه هى البداية التى يجهلها ، أو يتجاهلها الكثيرون ، وهى البداية المنطقية . لأن الإنسان العاجز عن تقبل (الآخر) الذى يقيم معه علاقة عاطفية خاصة وحميمة ، سيكون أكثر عجزًا عن تقبل (الآخر) الذى لا تغلف العلاقة معه بالخصوصية ، والعاطفة، والعاطفة، يقول المثل الفرنسى (الحب ابن الحرية) ولذلك فإن الرجل المحب العاشق، أو المرأة المحبة العاشقة، هو المواطن الأكثر تأهيلا للمشاركة فى خلق مجتمع حر.. ففى الحب يكتشف الإنسان أنه يحتاج قدرات عديدة للتعبير عن مشاعر الحب، والإفصاح عن احتياجاته العاطفية، وهذا غير ممكن إلا فى ظل مجتمع حر أو على الأقل مجتمع يتجه نحو الحرية .

إن حرية التعبير عن الحب جزء لا يتجزأ من حريات التعبير العامة فى الرأى، والفكر. فالحب (رأى) خاص جدًا، والحب (فكر) ذو خصوصية عاطفية.

بهذا المعنى يصبح (الحب) قضية سياسية من الدرجة الأولى ، وليس مجرد مشاعر رومانسية محصورة بين رجل وامرأة. وهذا ما يجعل أدباء وشعراء الحب الرومانسى على مر التاريخ ، بالضرورة (سياسيين وثوارا) متمردين على كل أشكال القهر والتفرقة بين البشر.

الحب فى عصر العولمة

أصبح الحديث عن العولمة محورًا للكثير من الندوات، والكتب، والملتقيات الفكرية. هناك مَنْ يتناول العولمة من الناحية الاقتصادية، أو السياسية، أو الثقافية.

لكن ماذا عن علاقة العولمة بـ المشاعر الإنسانية التى تربط بين قطبى الكون.. الرجل والمرأة؛ كيف يمكن أن تؤثر العولمة على عاطفة الحب بين الرجل والمرأة؟ والتساؤل عن أثر العولمة على الحب بين الرجال، والنساء، لا يقل أهمية عن التساؤل عن أثرها فى مجال الاقتصاد، أو السياسة، أو الثقافة. ترجع هذه الأهمية ليس فقط لأن التحقق العاطفى يعكس نفسه فى مجال الإنجاز الاقتصادى أو السياسى، أو الثقافى. ولكن أيضا لأن الحب بين الرجل والمرأة، هو قضية اقتصادية وسياسية وثقافية من الدرجة الأولى. فالحب لا يولد فى فراغ، وإنما فى مناخ سياسى واقتصادى وثقافى محدد، له أولوياته، وأحكامه، وقيمه. وبالتالى فإن الحب يأخذ معناه، وتتشكل أبعاده، وآفاقه، وفقا للمناخ السياسى، والاقتصادى، والثقافى السائد.

كيف يكتسب الحب معناه، وتتشكل أبعاده، وآفاقه فى عصرنا الحالى.. عصر العولمة؟.

تشير العولمة إلى تحول العالم بسبب ثورة الاتصالات والتكنولوجيا والمعلومات، إلى قرية واحدة. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وتفكك

الكتلة الاشتراكية، وأخذ هذه البلاد لنمط الحرية الاقتصادية، واقتصاد السوق، أصبح يهيمن على هذه القرية العالمية الصغيرة، التوجه الرأسمالى، ليس فقط كتوجه للنمو الاقتصادى. ولكن أيضا كنمط للحياة، ومنهج للتفكير. وبما إن انهيار الكتلة الاشتراكية، قد أعطى الولايات المتحدة الأمريكية قوة أكثر، ومصداقية أكبر، فى فرض نمطها الرأسمالى، وتغلغله لبقية دول العالم، فإن الحديث عن العولمة، يرادف إلى حد كبير الحديث عن «الأمركة». أى ان أمريكا قد أصبحت رئيسة مجلس إدارة العالم، والمتحدثة الرسمية باسمه اقتصاديا، وسياسيا، وفكريا وهذا مادفع شعوب العالم للأحساس بالتهديد، والخطر على هويتها الفكرية، وخصوصيتها الثقافية، أمام الطوفان الأمريكى للعالم.

والسؤال الذى يهمنا عن أثر العولمة على الحب، هو تساؤل، هل البناء الاجتماعى الحديث لحضارة السوق (أساس العولمة) يمكنه أن يخلق الشخصية القادرة على الحب، سواء للرجل، أو للمرأة؟..

تعنى حضارة السوق، أن الحرية المكفولة من خلال مناخ المنافسة المفتوحة، للطلب والعرض، هى التى تحدد قيمة الشىء، أو السلعة. فالسلعة مهما كانت ذات منفعة، تظل عديمة القيمة، ما لم يُترجم الاحتياج إليها فى شكل قوة شرائية فى السوق، أى فى شكل «استهلاك».

ويمتد هذا المبدأ الاقتصادى الاستهلاكى، إلى سائر العلاقات الاجتماعية، بل إلى قيمة الإنسان نفسه.

فالإنسان يصبح مثل السلعة، مهما تتوافر له من منفعة، وطاقات، وإمكانيات، كلها عديمة القيمة، ما لم يكن هناك «طلب» على هذا الإنسان، يمكن أن يتم مقايضته واستهلاكه في سوق الشخصية . وإذا تكلمنا عن الحب، أو العاطفة بين الرجل والمرأة، فإنها تصبح في هذا المناخ الاستهلاكي «سلعة للاستهلاك» هي الأخرى، أو تصبح المرادف للحصول على «صفقة تجارية» عادلة فالمؤهلات الإنسانية، والمكونات الشخصية لكل من الرجل، والمرأة، لها «مواصفات»، و«شهادات جودة»، تماما كما للسلع من مقاييس ومواصفات فنية، وبذلك يخدم «الحب» بين الرجل والمرأة، الروح العامة السائدة، من تحول كل شيء إلى سلعة لها ثمن، وتشبع مجموعة من الاحتياجات المتبادلة.

تغذى حضارة السوق في الرجل، كيف يكون «جذابا» للمرأة، وتغذى في المرأة، كيف تكون «جذابة» للرجل. بدون هذه «الجاذبية» تستحيل عملية «الاستهلاك» سواء للسلع، أو العواطف. تتدخل حضارة السوق في تحديد صفات الجاذبية للرجال، والنساء، وفقا لاحتياجاتها، ولتطورها التاريخي. وبهذا التدخل، هي تحول الرجال، والنساء، إلى قطيع كبير ينطبق عليه ما ينطبق على السلع، وقابلين لتلقي الأوامر دون عنف، أو دون إحساس بأنهم ليسوا أحرارًا. أي أنها تحولهم إلى آلات متوائمة مع الآلة الأكبر، آلة السوق والمقايضة، والاستهلاك.

وبما إن الإنسان يصبح في عصر العولمة، وحضارة السوق «آلة»، والآلة لا يمكنها أن تحب، فإن الحب في عصر العولمة غير ممكن. فالحب يفترض إنسانا حرا رجلا كان أو امرأة. والعولمة هي في جوهرها سلب

لإنسانية الإنســان وحريتــه، اللــهم إلا حريــة الاســتهلاك، وحريــة الأداء الكفء، مثل كفاءة الآلات.

حين نقاوم عصر العولمة، وزمن «أمركة» الحياة، في الاقتصــاد والفكـر والسلوك، لا نقاوم فقط هيمنة وغزو نمط واحد للحيــاة علــى كـل البشـر، ولكننا أيضا نقاوم حضارة «ميكنة» الإنسان، و«تسويق» عواطفه وعلاقاتــه الإنسانية، تلك الحضارة التى تسلب من الإنسان أعــز مـا يكـون، قدرتـه على الحب الناضج السوى.

عن معنى الرجولة

الرجل المستنير مَن هو؟

حين تطالب المرأة بحقوق وحريات النساء، وبالغاء كافة أشكال التفرقة بينهن، وبين الرجال، يبدو الأمر عاديا، ومتوقعا. فهى تدافع عن بنات جنسها، وتمارس، ما يؤكد صدق النظرية - تدعمها حركة التاريخ - والقائلة بأن كل فئة مقهورة، عليها أن تتبنى قضيتها، وتحرر نفسها.

فكما فى الموت، لا أحد يمكنه أن يكون بديلا عن أحد، كذلك فى معركة الحرية الإنسانية، لا أحد يمكنه أن ينوب عن أحد، وهنا تكمن عظمة الحرية، فهى لا تذهب، إلا لمن - فى كبرياء - يدفع ثمنها، ويخوض - دون وجل - معتركها الصعب.

أما حين يطالب الرجل، بحقوق، وحريات النساء، وبالغاء كافة أشكال التفرقة بينهن، وبين الرجال، ويمارس هذا الموقف فى جميع تصرفاته، فالأمر، ليس عاديا، وليس متوقعا، أكثر من ذلك، قد يعتبره البعض، موقفا، ضد «الرجولة».

هذا الرجل، الذى يخذل المعتاد، والمتوقع، هو رجل «مستنير» سوى النفس، والعقل، والوجدان.

إن ندرة الرجل المستنير، لا شك، أنها تساعد فى ترسيخ دونية، وتبعية المرأة، والمؤسف، أن عددًا لا بأس به، من النساء، يكرسن هذا

الوضع، باستسلامهن، وطاعتهن، واستعذابهن، سلطة الرجال، بسبب عدم الوعى، أو الوعى الزائف.

نحن لا نبالغ، إذا قلنا أن، دور الرجل المستنير، فى مجتمعاتنا، بشكل خاص، قد يكون أشد تأثيرًا، من دور المرأة المستنيرة، وذلك لأسباب ثلاثة رئيسية، وإن كانت كلها، راجعة، إلى أصل واحد، ألا وهو سيادة الرجل.

أولها: أن الفكر الذكورى، معتاد على احترام منطق الرجل، والإصغاء إليه، بجدية أكثر من احترامه، واصغائه لمنطق المرأة. حتى لو كان، يضرب فى الجذور التى أقامت هذا الفكر، وأرست دعائمه.

وثانيهما: ونظرا، لأن الحريات المسموحة للرجل فى النقد، والتعبير، والحركة، أكبر، فإن فكرة المستنير، يجد - بالتالى منافذ أوسع، وقنوات أرحب، للتداول واثبات الحجة، عن تلك المتاحة للمرأة المستنيرة.

ثالثا: ولأن العلاقة السائدة بين الجنسين، تأخذ فيها المرأة مكان التابع، لفكر، ورأى، ومنطق، ومصالح الرجل، فإن وجود، رجل مستنير، معناه، تبعية المرأة، لفكر، ورأى، ومنطق، ومصالح العقل المستنير.

نحن بالطبع، لا نؤيد تبعية المرأة، سواء فى حالة الرجل المستنير، أو غير المستنير، لكننا، نشير إلى أهمية، وخطورة، استنارة الرجل، فى مجتمعات، تمثل فيها، طاعة النساء للرجال، المرتكز الأساسى، وعنوان الفضيلة الكبرى بالنسبة للنساء.

إن استنارة الرجل، تبدأ، بأن يعى، أن دفاعه عن حقوق وحريات المرأة، هو دفاع عن حقوقه، وحرياته هو أيضا، هو يدرك، أن فى العلاقة غير المتكافئة، يفقد كلا من «الأعلى» و«الأدنى» حريته، وإنسانيته.

وهو يستطيع أن يفضح الزيف، والتضليل، فى كلمات مثل، الجنس الأقوى - أو الأعلى - والجنس الأضعف - أو الأدنى، فالأقوى، أو الأعلى، لا يستبيح، ولا يبرر، الظلم الواقع على الطرف الآخر، تحت أى مسمى مضلل مثل الطبيعة، أو العرف، أو التقاليد الموروثة .

الرجل المستنير، يفكر فى الحرية، دون تجزئة، ودون ازدواجية المقاييس. حرية الوطن، لديه، حرية كل البشر. هو لا يضع سلم أولويات، فلا يقول أن حرية الأرض، أهم من حرية الناس. أو أن نحرر هذه الفئة أولا، ثم يأتى تحرير الفئات الأخرى، فى مرحلة لاحقة. هو لا يفصل بين أن يحتل عدو خارجى، أرض الوطن، وبين أن يقع الناس، تحت احتلال العادات، والأفكار البالية، الرجل المستنير، يرى - وهذه حقيقة - أن الانتصار على عدو خارجى، أسهل من الانتصار على التقاليد المتعصبة الموروثة، بل إنه، يرى، صعوبة اقتحام عدو خارجى، طالما أن الجبهة الداخلية صلبة. والصلابة، لها طريق واحد، هو سيادة المساواة، والعدالة، بين كل الناس دون تمييز.

الرجل المستنير، بالتالى، لا يملك إلا أن يندهش، حين يذكر أصحاب دعوات الحرية، كلمات، مثل «العدالة الاجتماعية» قاصدين بها، مجال الصراع بين الفقراء الذكور، والأغنياء الذكور. أما جبهة التضامن، الجامعة بين الفقراء الذكور، مع الأغنياء الذكور، ضد فقراء النساء، وأغنياء

النساء، مستبعدة تماما. ويندهش أيضا، حين يتكلم الجميع، عن «الديمقراطية» فى المجتمع، ولا أحد، يتكلم عن «الديمقراطية» بين الجنسين، فى البيت، فى الأسرة التى تعتبر نواة المجتمع الأولى إذا سلمت، سلم المجتمع الكبير بأسره.

الرجل المستنير، فى محاولة دائمة لفهم، لماذا لا يرضى الرجال، باستكانة أوطانهم، ويرضون باستكانة نسائهم، ولماذا فى نضالهم عبر التاريخ، يهبون لكسر سلطة الحكام وهم أنفسهم يمارسون، ويبررون سلطاتهم على النساء؟ ولماذا، تمنح كلمة «لا» الشرف، والزهو، للرجل الذى يقولها، فى مواجهة، حاكم ظالم، بينما هى سبب، للتأنيب واللوم، والاتهام، إذا قالتها امرأة، فى مواجهة رجل ظالم؟؟.

الرجل المستنير، يرى أن التحدى الحقيقى، ليس فى الوقوف ضد الفروق الطبقية، (التى يتحدث عنها الجميع حتى فى أشد المجتمعات طبقية). لكنه فى الربط العضوى الدائم، بين التحيز الطبقى ضد الفقراء، والتحيز الذكورى ضد النساء. التحدى الحقيقى، هو الدخول بعمق، فيما لا يزال يعتبر من المحظورات الفكرية ولا يزال، غير مفهوم، ومثيرًا لحفظية كثيرين، ألا وهو، كسر سلطة الرجال على جميع المستويات، وفى كافة نواحى الحياة.

إن مقياس التقدم الحقيقى، عند الرجل المستنير، ليس فى انتشار الأجهزة، والتقنيات العلمية المعقدة، وليس فى إدارة حياة البشر، بالأزرار. إن التقدم الحقيقى، لهو فى الفكر، الذى يشغل الأجهزة، وفى العقلية، التى تحرك الأزرار.

ليس الرجل المتقدم، هو من يستطيع اخضاع «أحدث» المكتشافات، ولكنه الرجل، الذى يستطيع إخضاع «أقدم» نزعات التملك، والعنصرية، والسيطرة على الأرض، والنفوذ، والناس، ليس الرجل المتقدم، هو من يستطيع، التعامل، مع جهاز كمبيوتر، ولكنه الرجل، الذى يستطيع التعامل، مع امرأة ند له، أو أكثر تفوقا منه، دون حساسية، أو عقد، أو شعور، أن «رجولته» قد خدشت.

الرجل المستنير، هو بالضرورة، متمرد على مفاهيم الرجولة، التى ترى أن الرجل، رجل، بقدر ما يتميز عن المرأة، وبقدر، ما يكون وصيا، ورقيبا على أخلاقها، وسلوكها، ومسار حياتها. هو يرفض، أن يكون إحكام القبضة على النساء، هو المرجع الأكبر والوحيد، لمعنى «الرجولة». فى حين، أن رجولته، لا تحرك ساكنا، فى مواجهة، الظلم الاجتماعى، أو التفسيرات الخاطئة للدين، أو انتهاك الفن، أو اغتصاب البيئة.

الرجل المستنير، يرى الرجولة، عونا للمرأة على التفتح، والتفوق، والانطلاق. هو رجل، ليس بقدر ما يخلق من ممنوعات، ومحظورات، ولكن بقدر ما يفتح من النوافذ المغلقة، هو رجل، بقدر ما يستطيع تحمل امرأة، لا تتبعه، ولا تطيعه.

الرجل المستنير، يدرك، أن علاقته بامرأة خاضعة، مسلوبة الفكر والإرادة، أمر لا يشرفه، ولا يميزه. لكن ما يميزه، وما يشرفه، هو علاقته بامرأة حرة، تستطيع أن تضيف إليه، بفكرها الواعى، وشخصيتها المستقلة. امرأة تحافظ على إنسانيته، بالوقوف ضده، إذا حاول فرض سيطرته. المرأة الحرة، ليست إذن ضد مصلحة الرجل، كما يظن البعض. المرأة الحرة، شرط لارتقاء، وتوازن الرجل، وشرط، لارتقاء وتوازن الحياة.

الرجولة ليست قرصا !

ما أروعه من عالم نعيش فيه.

لا أزمة تستعصي عليه، ولا مشكلة تهزمه..

نصحو كل صباح، فتفاجئنا حلول سحرية اخترعها العالم ونحن نيام، ولابد أن نحس بالامتنان، ونقدم فروض الطاعة والولاء، العالم يتيح لنا الراحة، والنوم، بينما هو ساهر على مشكلاتنا، وأزماتنا، لا يغفل له جفن أو عين

أصبحنا أكثر من أى وقت مضى، نعيش فى عالم يزدهر، ويربح من بيع بضاعة فاسدة، هى، الزيف والكذب، والأوهام.

عالم يقتل البشر، يحتل الأرض، يمتص الخيرات، باسم «الشرعية الدولية» أو «تأمين الحدود»، أو «الجهاد».. عالم يلغى خصوصية الشعوب، يمسح هوية الأفراد، باسم «العولمة» أو «الكونية».

عالم يقسمنا، يفرقنا، يبث فينا بذور العداء، والكراهية، تحت مسميات عقائدية، أو جغرافية أو طبقية أو جنسية، أو عرقية.

ليس مستغربا إذن، أن يقتحم هذا العالم بيوتنا ، يتسلل إلى فراش نومنا، يتجسس على أجسادنا، يراقب أخص اللحظات، وأكثرها حميمية.هكذا نصحو من نومنا هذه الأيام، لنجد الحل السحرى لما يسمونه العجز الجنسى عند الرجال.

قرص واحد، يزف البشرى للرجال لحل مشاكلهم النفسية والجنسية مع النساء..

أن يمتد الزيف إلى إحساس الجسد، وانتشاء الروح، فهذا جزء ضرورى من المؤامرة، التى تستهدف خلق إنسان بلا إنسانية، رجل يفتعل الرجولة، بقرص يبتلعه، كما يبتلع الزحام، والضجة، والقلق، وامرأة تستغنى عن التوافق العاطفى بمفعول كيميائى صنعه قرص.

رجل لا ينظر إلى المرأة، أكثر من فنجان قهوة فورية، أو وجبة «يخطفها ويجرى» وامرأة لا تريد من الرجل إلا كفاءة ميكانيكية.

ياله من منطق مخادع، مضلل.

كيف تصل الحماقة برجل، فيعتقد أن أزمة المشاعر، والتواصل، متعددة الألوان بينه وبين المرأة، يمكن اختصارها إلى حبة زرقاء، أو خضراء؟.

وكيف تصل السذاجة بامرأة، فتصدق أن ما فشلت فيه كإنسانة وأنثى، فى علاقة لا لون لها، سينجح فيه قرص ملون؟.

إن التوافق النفسى، العاطفى بين الرجل والمرأة، شبكة معقدة تتداخل فيها الظروف الشخصية والعوامل الاجتماعية التى تتفاعل، وتتجدد، مع مرور الزمن وتغير العلاقة ذاتها، وتغير طرفيها..

إن الرجل الذى يعجز عن الانتصاب الجسدى، هو فى الأساس عاجز عن الانتصاب العاطفى، هكذا الحال مع النمط السوى من الرجال.

إن الرجل السوى، هو الذى استطاع عبور الهوة بين عاطفته، وجسده، وعقله، وأصبح يتصرف بكيان واحد متسق الأجزاء، رجل تحرر من إلحاح الغرائز البدائية، ذات التوتر الحيوانى المؤقت، رجل لا يرى الجنس تنفيسا عن القهر، أو العنف الكامن ولا يتخذه استعراضا وفحولة عضلية، تثيرها صور النساء العاريات، والنكات البذيئة مع رجال مكبوتى الكرامة والأحلام.

الرجل السوى يرى الجنس، أكمل تعبير عن التناغم بينه وبين امرأة، يشتهيها بالعقل، والعاطفة، والجسد. امرأة لا تقل عنه حرية، وإنسانية وسواء.

ويدخل مع هذا التناغم بينه وبين المرأة، تناغم على مستوى آخر، بينه وبين الكون.

إن «الاشتهاء»، وعى مركب، ورغبة متكاملة، وهو مختلط بالحياة، يؤثر فيها، ويتأثر بها، وحين يأخذ التعبير بالجسد شكلا مكملا له، يكون للأسوياء من الرجال، والنساء، ثمرة طبيعية للاشتهاء النفسى، والعقلى..

من هذا المنطلق، يكون عجز الرجل السوى عن الانتصاب «العضوى» دلالة على الصدق، والصحة، والتكامل، إن جسده رفض التورط فيما يعتبره مجرد استجابة بدنية، جزئية، خالية من الشرط الإنسانى، ألا وهو التورط العاطفى، أو ما نسميه مجازا رغبة «الروح».

لست من أنصار الفصل التعسفى بين ما يسمى «الروح»، وما يسمى «الجسد» إن «الروح» والجسد، شيء واحد، أو لنقل إنهما فى عناق أو امتزاج، يصعب معه التجزئة..

لكننا نعيش فى عالم يفرض علينا الفصل بين الجسد، والروح، وتتعاون كل الأجهزة والمؤسسات والقيم الموروثة، فى خلق الإنسان المجزأ، المنقسم على ذاته، المتناقض فى رغباته ومشاعره، وأخلاقه، والمتخبط فى معاييره وأحكامه..

إن هذا العالم القائم على التفرقة بين الجنسين وبين البشر، وبين الدول.. عالم قلة تمتلك المال، والسلطة، والنفوذ، والمعرفة، مقابل أغلبية لا تملك شيئا، عالم تسيره علاقات بين طرف أعلى وطرف أدنى... عالم الإنسان المتصارع مع أجزائه، هو بالضرورة عالم بائس. عدوانى السلوك، عالم فى تناقض جوهرى، وعداء أصيل مع العدالة، والمساواة، والحرية.

بدون عدالة، بدون مساواة، بدون حرية، يستحيل الحب الحقيقى الإنسانى، وتستحيل كنتيجة منطقية السعادة الجنسية.

هناك «صفقات» عاطفية، هناك «تبادل» منفعى لأدوار ، واحتياجات محددة، ومبرمجة سلفا، وهناك «نجاح» جنسى بين أجساد مغتربة، هذه الأجساد المغتربة، لا تجد هويتها أو رضاها إلا فى لذة وهمية، مؤقتة، مغتربة هى الأخرى بالضرورة، والمفارقة المحزنة، إنها كلها حققت هذا النجاح (صفة الآلات)، كلما ازدادت اغترابا..

إن «أقراص» علاج العجز الجنسى عند الرجال، أو نصائح الزواج السعيد، او كتب التكنيك الجنسى « المثالى»، وغيرها من قبيل هذه الأمور أوهام، تساعد العالم على حل الأزمات التى صنعها وخلقها..

إنها أوهام تبيع للناس إمكانية مستحيلة، أن يحدث الحب الحقيقى فى عالم ضد الحب، وأن تحدث السعادة الجنسية فى عالم لا يهمه سعادة البشر، بل أن سعادة البشر تهدد بنيانه، وتعتبرها خطرا على وجوده..

وفى الوقت نفسه، تعمل هذه الأوهام، على ترسيخ مفاهيم «تشيؤ» الإنسان.

قد يأتى «النجاح» أو «الإشباع» باتباع إرشادات مكتوبة، وقد تهدأ التوترات العضلية بابتلاع أقراص ملونة . لكن «السعادة»، لا تأتى إلا نتيجة للحب الحقيقى، وامتدادًا «طبيعيًا» لعلاقة متوافقة منسجمة، فى عالم متوافق، منسجم.

وفى عالمنا المعاصر، حيث السوق الكبير لتسويق السلع والبشر، والأحاسيس، فإن الحب الحقيقى هو استثناء، ويكون الرجل السوى استثناء وكذلك المرأة السوية..

الرجل الحر يحتاج امرأة حرة

ترى من أيـن تبدأ حرية الرجل؟ متى يكون للرجال حقوق على مجتمعاتهم؟ وما هى «توليفة» هذه الحقوق والحريات؟ وهل هى ثابتة، أم متغيرة لتسع امتداد عمر الرجال؟.

لا نعتقد أن أحدًا يمكنه المجادلة، حين نقول إن أول الحقوق وأولى الحريات، تبدأ مع الطفولة، التى تشهد بدايات وعى الطفل الولد بالعالم الخارجى، منذ لحظة انفصاله عن رحم الأم، أو كما يسميها علماء النفس «صدمة الميلاد». فى هذه المرحلة، تتحدد الملامح الأساسية لرجل المستقبل.

تتشكل فى الطفولة، نظرة الولد إلى معنى وحدود السلطة، أو إلى «عالم الكبار». يجسده فى البيت الأب والأم. وفى المدرسة يجسده الناظر والمدرس. وهى مسألة هامة. حيث أن العلاقة بـ «الكبار»، تمس – فى جوهرها – مساحة الحرية الممارسة، والتشكل اللا واعى لمعنى «الأنا»، و«الآخر».

يبدأ حق الطفل الولد في أن يفلت من سلطة الكبار الذين يملكون الغذاء والحماية والفلوس والقرار. بينما هو ضعيف لا حول له ولا قوة. هذا سيعفى الولد من الكذب والالتواء، لينال ما يريده دون عقاب.

من حـق الولـد فـى طفولتـه أن يلعـب، ويتسـاءل، ويكتشـف هوايتـه المحببة ويمارسها.. من حقه أن يتخيل دون خوف.. مـن حقـه أن ينقـد الكبار.. من حقه ألا نسخر من محدودية إدراكه. من حـق الطفـل الولـد، أن يختلط بالأطفال البنات، دون أن يشعر بالذنب أو الخطيئة.

فإذا ما كبر هذا الولد، ودخل مرحلة المراهقة، اتسـعت دائـرة حقوقـه وحرياته التى لابد أن يكفلـها لـه المجتمـع الصغير والكبـير. فـهو علـى أعتاب الرجولة، وتقلقه تساؤلات حول استقلاله وتفـرده، توتـره العلاقـة بالجنس الآخر. و«عالم الكبـار» أصبـح الآن الحيـاة العريضـة التـى يريـد وضع بصمته عليها.

لابد أن نضمن له حرية الخطأ والتجربة وكل مساحة حركة يثبت من خلالها أنه «موجود» و«مؤثر» سواء بالرأى أو الفعل، أو حتـى بـالصمت وعدم الفعل إذا كان هذا اختياره. وفى مرحلة الجامعة ثم الوظيفة، حقـه أن يتكفل المجتمع بتوفير التعليم الذى يلائم اتجاهاتـه وقدراتـه. وكذلـك بتوفير العمل الذى يحقق ذاته فيه، كإنسان مبدع، مفكر، يستطيع إثـراء حياته الخاصة، وحياة مجتمعه.

ثم يريد هذا الرجل أن يتوج دائرة الحقوق والحريات التى ضمنـها لـه المجتمع منذ الطفولة. يريد الرجل أن يكمل «نصف دينه». يتلفت رجلنا حوله، يبحث عن المرأة التى يمكـن معـها أن يخفـق القلـب، ويمكـن أن تكون مسئولية الأسرة متعة وإضافة وليست شرًا لابد منه.

يبحث رجلنا بين النساء، ترى من تعجبه وتثير فضوله؟.

الرجل حقا فى مشكلة، وبحثه لن يكون سهلاً.

لقد كفل له المجتمع منذ «صدمة الميلاد» وحتى «تحقيق الذات»، مسيرة حقوق وحريات قائمة على حرية اللعب، والنقد والفعل والسؤال. وليس هناك أى سبب يدعونا لافتراض، أن هذا الرجل حين يفكر فى المرأة، لن يبحث عن واحدة تربت على الحقوق والحريات نفسها.

إذا كان رجلنا سويا نفسيًا - ولابد أن يكون لأن الصحة النفسية هى نتاج طبيعى للحرية - فإنه لن يرضى ولن يقنع، أو كما يقال لن «تملى عينه»، إلا امرأة لها مقومات شخصيته، هذا هو المنطق البسيط، ومع بساطته لا يحدث. فالمجتمع نفسه الذى حرص على خلق الرجل الحر المتمتع بكافة حقوقه، نسى أن يضمنها للنصف الآخر. وبالتالى نكون أمام هذه الصورة السائدة والغالبة:

هو: تربى على الحرية.

هى: تربت على القهر.

هو: تربى على نقد الكبار.

هى: تربت على حاضر ونعم.

هو: تربى على الاختلاط مع البنات.

هى: تربت على أن الرجال ذئاب وشياطين.. ولكن المفارقة أنها تربت أن تخضع لهم، أو أن الرجل هو «الحل» الأمثل لحياتها.

هو: تربى على أهمية التفكير والعقل.

هى: تربت على أهمية تجميل الوجه والجسد.

هو: تربى على خوض التجارب.

هى: تربت على التراجع والانسحاب..

هو: تربى على أنه سبب للفخر..

هى: تربت على أنها «عورة»..

هو: تربى على أنها جزء من عالمه..

هى: تربت على أنه كل عالمها..

هذه الصورة، لا تعمل فقط ضد سعادة الرجل واستمتاعه بالحياة، وتعوق دون الصحة النفسية، لكنها أيضا، تسحب منه مزايا الحريات، ومعنى الحقوق التى كفلها له المجتمع منذ طفولته، ورعاها حتى أصبح رجلا مكتملاً.

فهو يريد امراة مسئولة عن نفسها، كما هو مسئول عن نفسه، يريد من تستطيع أن تشاركه متعة الشمس والهواء فى التأمل وممارسة الرياضة. يريد من تستطيع أن تعترض إذا أخطأ، ومن إذا ضعف، تستطيع إذكاء إرادته، يريد من تناقشه بالعقل والحجة فى أمورها، وأمور مجتمعها وأمور العالم. يريد امرأة مثله، لعبت وتخيلت ومارست هوايتها حينما كانت طفلة، فتستطيع الآن تذوق الفن معه، يريد امرأة بينه وبينها لغة مشتركة، بدون كل هذا تصبح المرأة عبئًا نفسيًا وماديًا على الرجل.

الوضع الطبيعي والمنطقي والسوى نفسيًا، أن يطالب هذا الرجل (الذى تابعنا مسيرته) المجتمع بالبقية، التى تكون مسك ختام حقوقه وحرياته، ألا وهى حقه فى امرأة حرة، كجزء عضوى من حقوق «المواطنة».

عن المــرأة

الجميع يفضلونها خاضعة

رجل تفوح منه رائحة العرق، أو رجل تفوح منه أرقى العطور.. رجل عالى المقام، أو رجل صعلوك.. رجل على باب الله، أو رجل مشهور.. رجل يحب رابطات العنق المستوردة، أو رجل «اسبور».. رجل وسيم ورشيق، أو رجل خاصمته الوسامة والرشاقة.. رجل إلى كل الأجواء يسافر، أو رجل كامن فى عقر داره.. رجل يعشق الكونشرتو والسيمفونية، أو رجل يعشق الموسيقى العربية، رجل يقرأ الكتب، أو رجل يقرأ صفحة الوفيات.. رجل موهوب، أو رجل معدوم الموهبة.. رجل يحب السجائر، أو رجل ضد التدخين.. رجل متخم بالخبرات، أو رجل نحيل التجربة.

عيون زرقاء، أو سوداء، أو عيون بلون العسل.

رجل بداية القرن العشرين، أو رجل نهايات القرن العشرين.. يتعدد الرجال، والقلب واحد.. كل الرجال، رجل واحد.. الجميع يفضلونها خاضعة.

الرجل المحب والمرأة الحرة أمران لا يجتمعان.

وكلما زاد نصيب المرأة من الحرية كلما أسرعت خطوات الرجل فى الهروب منها، وكأنها «فيروس» خطير.

إن العجز الحقيقى للرجل ليس فى نقصان القدرة الجنسية، ولكن فى عدم القدرة على حب امرأة حرة التفكير، والإرادة والمصير، وفى العجز عن إقامة علاقة مع امرأة ند له، أو تفوقه.

إنه عجز لا تنفع معه أقراص كتلك التى تعالج العجز الجنسى.

إنه عجز تتوارثه الأجيال المتعاقبة من الرجال، حتى اكتسب سمة «الجينات» وأصبح مرادفا لمعنى «الرجولة» فالرجل الحق هو الذى يرى المرأة الحرة «زائدة» وجودية من الواجب استئصالها و «الرجولة» الكاملة هى النفور من النساء الأحرار، والتنديد بهن، ومحاصرتهن بالشكوك والاتهامات.

قد يحدث فى بعض الأحيان أن تتحرك مشاعر الرجل لامرأة لا تخضع له فى الفلوس أو الرأى، لكنه حين يقرر أن يكمل نصف دينه يذهب إلى امرأة له عليها الكلمة العليا سواء فى الفلوس أو الرأى، ويستحسن بالطبع خضوعها فى الاثنين.

لا يستطيع الرجل أن يتصور كيف يكمل نصف دينه مع امرأة غير قابلة للطاعة، أو كيف يواجه على الملأ مجتمع الرجال بامرأة ضد مجتمع الرجال.

إن تعريف الزواج للرجل هو كيف يعثر على امرأة «مريحة» لا تثير تساؤلات أو مشاكل، امرأة مغمضة العينين، ومغمضة الكرامة، ومغمضة الوعى، ومغمضة الجسد.

أما المرأة الحرة التى تعول نفسها، وتعول كرامتها، فهى «وجع دماغ» يزيد الحياة تعقيدا وصخبا، لا داعى لهما.

وإذا ألحت مشاعر الرجل وطالبت بالمرأة الحرة، فإنه يساومها إما هو أو حريتها، ويشترط عليها، إما أن تكون له أو أن تكون لحريتها.

قد يغفر الرجل للمرأة الخيانة، والذهاب إلى رجل آخر (الطامة الكبرى فى عرف الأخلاق الذكورية)، لكنه لا يغفر لها الذهاب إلى مخدع «الحرية» فالحرية هى «العشيق» الذى لا يحتمله الرجال، وهى الخطيئة غير القابلة للغفران.

إذا اختارت المرأة أن تمد يدها وتقطف تلك الثمرة المحرمة التى اسمها «الحرية» فما عليها إلا أن تدفع راضية الثمن، وتعيش فى استغناء عن الرجل المحب.

يعود جزء كبير من بقاء وضع المرأة دون تغير كيفى، أو ما نشهده من انتكاسات متكررة، إلى تراجع من يسمين أنفسهن نساء أحرارا، أو المحسوبات على ذمة الحرية، عن دفع ثمن الحرية عند أول فرصة يظهر فيها الرجل فإنهن يقبلن دخول المزاد والمساومة وينتهى بهن الأمر إلى الخضوع لشروطه فى الحب أو فى الزواج.

والغريب أنهن يزددن إصرارا على أنهن حرات ورائدات على درب التحرر، ولا يتوقفن عن إسداء النصائح لغيرهن من النساء.

والأكثر غرابة أنهن يبدأن فى معاداة النساء الصامدات والهجوم على أفكارهن وتصرفاتهن ووصفهن بالتطرف أو الشذوذ أو الفهم الخاطئ للحرية ومعطيات الواقع.

وبذلك تتشكل «جبهة تضامن» من الرجال مع مدعيات الحرية من النساء، ضد كل امرأة لا تتنازل عن حريتها مقابل «رجل».

المرأة الحرة والرجل المحب نار وماء لا سبيل إلى التقائهما.

استثناء هي المرأة التي تدفع في كبرياء وشموخ ضريبة الحرية، وتتحمل البقاء نارا متأججة.

استثناء هي المرأة التي تكمل نصف دينها مع الحرية وتظل منتجة عاملة مبدعة متألقة ومتفلسفة.

إنها لبطولة صامتة أن تسبح المرأة المكتفية بحريتها ضد التيار دون أن تتشكك في قواها على المقاومة والوصول شامخة إلى شاطئ التفرد.

ماذا يفيد المرأة لو كسبت حب العالم وخسرت نفسها؟

ماذا ينفع المرأة لو ربحت «رجلا» يموت وخسرت الحرية، أبدا لها الدوام والخلود؟

الحرية هى الفضيلة

ينقسم الناس بشأن قضية المرأة إلى تيارين. التيار الأول يتهم أصحاب القضية من النساء والرجال بأنهم لا يقيمون اعتبارا للعادات والتقاليد والأخلاق، والأديان. التيار الثانى، بدوره يأخذ موقف الدفاع عن أفكاره، ونواياه الحسنة التى تهدف إلى تحرير النساء دون المساس بالعادات والتقاليد والأخلاق والأديان.

المثير للدهشة أن هذا النقاش، لا يثار عند الحديث عن تحرير فئات، أو قطاعات أخرى غير النساء، أو عند الحديث عن تحرير الشعوب والأوطان بصفة عامة.

قد يثير تحرير الوطن، جدلا سياسيا، أو اقتصاديا، أو ثقافيا، لكنه لا يثير الجدل الأخلاقى الذى يقترن فقط بشكل جوهرى، بقضية تحرير المرأة.

نحن لا ندرى سبب هذه الحساسية المفرطة تجاه العادات والتقاليد، وهذا القلق المتضخم، والخوف الشديد المزمن على الأخلاق والأديان، حين يقترن حديث الحرية بالنساء؟

نتساءل، لماذا لا يرى البعض حرية المرأة، إلا مرادفة للانحلال، والإباحية، وإثارة الفوضى؟

لماذا قدر على المرأة، أن تكون الكائن الوحيد، الذى تـرادف حقوقـه، وحرياته، معنى مخالفة الشرائع والتحالف مع الشيطان؟

إن التخوفات الأخلاقية المثارة، لابد أن تجعلنا نتسـاءل، مـا العلاقـة بين طموح المرأة إلى الحرية والمساواة، وضياع الأخـلاق؟ مـا علاقـة تصـور عالم جديد يضمن للنساء الكرامة والعدل، بمخالفة الشرائع؟

جاءت كل الشرائع، لكى تساعد الإنسان على المزيد من الحق والخـير والجمال. والناس تؤمن بالشرائع، وتتحمس للدفـاع عنـها، لأنـها تحقـق لهم الحرية والسعادة.

إن ذروة الفضيلة، أو قمة الأخلاق أو التدين، يكون هى بلوغ الإنسـان لحرياته، ورفضه الدائم لكل أشكال القهر والظلم.

وكذلك، فإن العادات والتقاليد ليست سجنا للإنسـان الـذى صنعـها، وهى ليست كلمة نهائية فى قاموس الحياة دائمـة التغير. لابـد أن يظـل الباب مفتوحا دائما لخلق عـادات وتقـاليد جديـدة، أقـدر علـى مخاطبـة طاقات الإنسان، واحتياجاته المتجددة.

إن أصحاب الجمود والتزمت يروجون دائمـا، أن العـادات والتقـاليد، هى بمثابة القوانين الطبيعية، التى لا تقبل النقاش، أو التغيير.

والحياة دائما تكذب هـذا المنطـق، فـهى تـأتى علـى مـدى عصورهـا، وتقاليد تعكس ظروف واحتياجات كل عصر.

إن الارتباط العضوى دائم التكرار، بين تحرير المرأة، من جهة والخوف على الأخلاق والدين والعادات، والتقاليد من جهة أخرى، يعنى عدة أمور:

أولاً : هو يعنى أن المرأة فى نظر البعض، ليست إلا الكائن القاصر، العاجز عن تمييز السلوك القويم. وأنها الكائن المدنس الذى تحركه غرائزه دون ضابط. وأنها كائن عابث، إذا ترك لحال سبيله، فسوف ينشر الفسق، والشرور، والفتن. وبالتالى هى كائن خطر، لأنها تلهى الرجال عن ممارسة الفضيلة.

أحقا المرأة بهذه القوة، والرجال بهذا الضعف؟

وثانيًا : يعنى أن السياق الرئيسى الذى تتحرك فيه، أخلاقنا وتقاليدنا، هو فقط أو بشكل أساسى، السياق الغرائزى.

وثالثا : هو موقف يدل على عدم الفهم الكافى لقضية المرأة. حيث يرجع جزء كبير من عوائق التمرد، إلى بعض العادات والتقاليد والأخلاق المتوارثة، وإلى التفسيرات الرجعية للأديان.

نتساءل، ألا تسبب الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية غير الإنسانية، غير العادلة، التى يعانى منها عدد كبير من النساء فى المدن والريف، خدشا للعادات والتقاليد؟

أليس الفقر والحرمان اللذان يحاصران غالبية النساء، أمرا مخالفا للشرائع؟ ولماذا لا تتورط الأخلاق، والفضيلة، حين يكون نصف المجتمع من النساء، مكبلا بتراث من الاضطهاد، والتشكك، والقهر؟

إن الانحلال، والاستهتار، وضياع الأخلاق، سواء تكلمنا عن النساء أو عن الرجال، كلها نتائج مناخ الظلم، والتسلط، وغياب العدل والحرية. هي إفراز طبيعي لمناخ قاهر من القيم، وليست كما يعتقد البعض من نتاج مناخ الحرية.

إن المرأة الحرة، هي الأكثر قدرة على الفعل المسئول، الذى ينهض بها، وبمجتمعها. وكذلك الرجل الحر، هو الأكثر قدرة على التحكم فى غرائزه الهوجاء التى تؤذيه، وتضر بغيره.

لا خوف على الأخلاق والفضيلة، من الحرية. وإنما الخوف، كل الخوف، من الوصايا الأخلاقية التى تستخدم لخنق أنفاس الحرية، وإرهاب أصحاب قضايا التحرر والتغيير.

إن منطق الهجوم على الحريات (خاصة حريات النساء) بدعوى الحفاظ على الأخلاق، هو منطق ضد الأخلاق نفسها، وضد حركة الحياة.

نتذكر فى هذا السياق، أنه حدث فى القرن التاسع عشر، أن قام أحد الناشرين المتشدقين بالفضيلة، بطبع مؤلفات كل من موليير ولافونتين وراسين، فى طبعة خاصة بالعائلات الفاضلات. لكن المحاولة باءت بالفشل. والسبب، أن الأفكار التى تعمد الناشر حذفها حتى لا تفسد أخلاق الناس، كانت موجودة سلفا فى نفوس هؤلاء الناس.

المقصود من هذا المثل الواقعى أن الذى يتصور فساد الأخلاق لأن النساء يتحررن، إنما تكمن المشكلة فى داخله هو، وليس فى التحرر، وليس فى

النساء. وعليه أن يحل مشكلته بعيدا عن تقدم الحياة، وعن طموح النساء للعدل والمساواة والحرية.

إذا كنا نريد عالما جديدا أخلاقيا، فعلينا تحرير الأخلاق نفسها من السجن الضيق غير الأخلاقى الذى حصرناها فيه. وعلينا إعادة تعريف مفاهيم الفضيلة، والحرية، وتغيير النظرة إلى المرأة الحرة، أو التى تنادى بالتحرر.

ففى النهاية، نحن نتطلع إلى بناء إنسان حر، امرأة أو رجلا، لا إلى عبادة عمياء للقيود تحت اسم الحفاظ على الأخلاق، والفضيلة والتقاليد.

وبما أن ليس هناك قضية مثل قضية تحرير المرأة، التى تمس المشكلة الأخلاقية فى جذورها، وتكشف عن تناقضاتها، وأقنعتها، فإنه يقع على عاتق النساء الواعيات، مسئولية كبيرة فى صنع هذا العالم الجديد الذى نتمناه.

المرأة غير المتزوجة والجنون

قرأت عن دراسة مصرية حديثة، عن العلاقة بين النساء والجنون. خلصت الدراسة إلى أن النساء غير المتزوجات أكثر عرضة للمرض العقلى. وفسرت ذلك على أنه نتيجة الشعور بعدم الاستقرار، والوحدة، والغيرة، وافتقاد الدفء العاطفى.

إنه لشىء مؤسف أن تكون البحوث أو الدراسات «العلمية» ضد «العلم»، وضد «المعرفة»، ومع «التجهيل» و «تضليل الحقائق».

وشىء مؤسف، أن يتم تفسير نتائج البحوث والدراسات التى تأخذ صفة «العلم»، فى ظل الإطار الثقافى التقليدى، وبشكل سطحى، ضيق الأفق، يفتقد الرؤية الناقدة المبدعة.

وتكون النتيجة النهائية بعد كم كبير من البحوث والدراسات، أننا لم نتحرك إلى الأمام خطوة واحدة، وأن القيم المزدوجة التى تفرق بين البشر، تزداد رسوخًا. والكارثة أنها تزداد رسوخًا تحت رداء «العلم» و«المعرفة» و«الحقيقة».

تقول الدراسة إن المرأة غير المتزوجة أكثر عرضة للجنون من المرأة المتزوجة وجاء «التفسير» لأن المرأة غير المتزوجة تفتقد الاستقرار والدفء الأسرى، وتشعر بالوحدة، وتغار من النساء المتزوجات.

نحن لا نتشكك فى نتائج الدراسة، لكننا نشير إلى الطريقة التى تفسر النتائج.

إن عدم الزواج «قد» يؤدى إلى عدم الاستقرار، أو فقدان دفء الأسرة، أو الشعور بالوحدة.. لكن توقف التفسير عند هذا الحلم يعد قصورًا علميًا وإنسانيًا وفكريًا لا نقبله.

يكمن جوهر القصور فى إغفال، وتجاهل «مسئولية» المجتمع فيما تشعر به المرأة غير المتزوجة من أحاسيس «سلبية» تضر بصحتها النفسية والعقلية.

فى ثقافتنا العربية، هناك «رفض»، و «نبذ» و «استنكار»، و«اتهام» للمرأة غير المتزوجة.

لقد تأسست مجتمعاتنا العربية، فكريا بشكل يجعلها عاجزة عن «استيعاب» و «فهم» المرأة خارج مؤسسة الزواج. هذا الشكل الفكرى هو ما نسميه النمط الذكورى، أو الثقافة الأبوية. وتتضافر جميع قوى المجتمع فى جبهة محكمة لا يمكن اختراقها، لترسيخ، وإعادة إنتاج الثقافة الأبوية «الطاردة» للمرأة الوحيدة. أو المرأة التى تعيش، وتواصل التنفس، والحركة، وإثبات أنها على قيد الحياة دون «ضل راجل».

منذ الميلاد، تربى المرأة على أن الطموح الأعلى، والوجود الأهم، والسمعة الفاضلة، وغاية الحياة، هى فى دور «الزوجة» أى العيش فى كنف رجل يعولها ويحميها ويسترها.

ويتضاءل أمام دور «الزوجة» أدوارها الأخرى في التعليم والعمل والإبداع. بل إن المجتمع يجبرها بحكم الثقافة الأبوية، على أن تتخلى عن التعليم والعمل والإبداع، إذا تعارضت مع دور «الزوجة».

أما الرجل، فيربى منذ الميلاد، على أن دوره كـ «زوج» هامشى، ثانوى مقارنة بأدواره فى إنتاج العمل والفكر والفلسفة، والإبداع.

إذا لم يتزوج الرجل، قد يفقد دفء الأسرة، لكنه لا يفقد دفء المجتمع. لكن المرأة غير المتزوجة تفقد الاثنين دفء الأسرة، ودفء المجتمع.

فى ظل هذا الحصار الشرس، وازدواجية القيم، تحتاج المرأة غير المتزوجة، إلى قوة خارقة، وإلى أسلحة استثنائية حتى لا يصيبها اضطراب عقلى أو نفسي.

كما أن القضية ليست الزواج أو عدمه.. القضية هى أى نوع من الزواج، ما غايته، وما هى دوافعه.. هناك نساء كثيرات متزوجات. ومحرومات من «الدفء» و «الاستقرار» ويشعرن بـ «البرودة» و«الوحدة»، وهن وسط أزواجهن .

وهل الزواج بالنسبة للمرأة يمنح أى «استقرار» والحقوق المطلقة معطاة للرجل وحده فى الطلاق والزواج بدون قيود أو مساءلة أو مسئولية؟

بالإضافة إلى ذلك، لابد من إعادة صياغة معان كثيرة نستخدمها. فالدفء ليس مرادفا لوجود رجل.. و «الاستقرار» لَيس مرادفا لوجود بيت.. يحدد وظائف المرأة فى طاعة الزوج وخدمته.. و «الوحدة» ليست

مرادفا لحالة إنسان يواجه الكون بقدراته الذاتية ويحقق طموحاته السابحة ضد التيار.

هناك دراسات كثيرة فى مجال الطب النفسى، أثبتت أن المرأة المتزوجة أكثر شعورًا بالاكتئاب، والملل وعدم التحقق، من المرأة غير المتزوجة.. هناك ظاهرة معروفة فى الطب النفسى اسمها «اكتئاب الزوجات» أو اكتئاب ربات البيوت. ويرجع هذا الاكتئاب إلى شعور المرأة المتزوجة بالقهر أمام سلطة زوجها، وإلى إحساسها بعدم التحقق، وإلى خيبة الأمل، والفتور العاطفي والجنسي.

المشكلة إذن ليست فى الزواج أو عدمه. ولكن فى الإطار الثقافى والاجتماعى والأخلاقى الذى في ظله تعيش النساء.

المشكلة هى القيم والمفاهيم التى تشكل المجتمع الذى تعيش فيه المرأة المتزوجة، أو غير المتزوجة.

القضية هى أن تتغير تلك القيم والمفاهيم الأبوية التى تعتبر الزواج للمرأة «مصيرًا محتمًا» مثل الموت لا فكاك منه، وأنه «أفضل مصير» يمكن تصوره للنساء. وفى الوقت نفسه، تتغير النظرة الأخلاقية والاجتماعية لـ «عدم زواج» المرأة، فلا يكون مرادفًا للشذوذ، أو الوحدة، أو الاضطراب العقلى، أو عدم التحقق النفسى والإنسانى.

«الزواج» (وبالتالى عدم الزواج)، جزء واحد من أجزاء الحياة، وليس كل الحياة.. ولذلك لا يجب أن نتوقف عنده بشكل مبالغ فيه، ونعتبر وجوده هو «الحياة».

الختان النفسى والاجتماعى

فى حديثنا عن الختان الذى يمارس ضد الإناث ، ننطلق من موقف الرفض لقطع ، أو تشويه ، جزء مهم ، أو حتى غير مهم من جسم الإنسان .

إن الختان الجسدى ، أو البدنى ، الذى يتعرض له جنس النساء ، جريمة وحشية ، لابد أن يتم استئصالها من مجتمعاتنا ، ولابد من تضافر كل أجهزة المجتمع الإعلامية ، والتنفيذية ، والتشريعية ، فى حملة قومية ضد هذه العادة الهمجية ، التى تنتشر تحت اسم الفضيلة وحماية أخلاق المرأة .

لكننا نرى أن الختان الجسدى أو البدنى للمرأة ، أليس إلا جزءا ، أو حلقة من دائرة أكبر، ألا وهى ، الختان النفسى والاجتماعى .

فى كل المجتمعات ، وعلى مدى عصور متعاقبة ، وقعت النساء بدرجات وأشكال متباينة – وما زالت تقع ضحايا فلسفة عامة، تستهدف قتل قدراتهن ، وبتر حركتهن ، باسم الطبيعة أو الأنوثة، أو الدين، أو التقاليد ، أو الفضيلة، أو صالح الأسرة .

إن قطع ، أو تشويه جسد المرأة ، ما هو إلا الانعكاس الطبيعى، لقطع طموحها الفكرة ، والإبداعى ، وتشويه وجودها وقيمتها الإنسانية .

ما الفرق بين بتر جزء من الجسم ، وبتر إمكانات التحقيق الذاتى الحر ، تحت اسم موروثات جامدة ، نخاف المساس بها.

إن الفتاة التى حالفها الحظ لظروف ما ، وفلتت من الختان البدنى ، ما زالت تعيش فى حصار متكامل من القيم ، وعادات التربية ومفاهيم الأخلاق المزدوجة التى تحد من انطلاقها ، وتفرض عليها أدوارا محددة، مناخ يعامل المرأة معاملة (المتهم) ، المشكوك دائما فى (دوافعه) و(سلوكياته) و (أخلاقه) ، و (قدراته) ، والواجب عليه الدفاع المستمر عن براءته ، مناخ يمارس دون وجه حق سلطات الرقيب الوصى ، على حياة المرأة .

هذا المناخ ، يشكل الختان النفسى والاجتماعى ، الذى يصيب المرأة منذ رحلة الميلاد ، وحتى الموت ، إنه ختان غير مرئى ، وهو أكثر تعقيدا ، من الختان البدنى ، أو الجسدى .

نحن نتساءل عن حال فتاة (مكتملة) الأعضاء ، وتعيش فى مجتمع يعتبرها (ناقصة) العقل ، والقدرات والأهلية والولاية ، والفضيلة ؟ وتحتاج دائما إلى (رجل) ليحمى لها أخلاقها ، ويبعد عنها سوء الفهم وسوء السمعة ؟

نتساءل عن حال زوجة منحها (القانون) ، حق الاحتفاظ بأعضائها دون قطع ، وفى الأوراق الرسمية ، يمنعها (القانون) من السفر دون أخذ (إذن) الزوج ؟

أليس إذن الزوج ختان أيضا للمرأة ؟

ونتساءل هل يمكن للنساء أن يعيشن مع الأزواج حقهن الطبيعى فى الإشباع الجنسى ، وهن محرومات من الإشباع الأرقى ، والأهم ، والأكثر ديمومة ألا وهو إشباع وجودهن الإنسانى الحر المتكامل ؟

وأليس تناقضا ، حين نتكلم عن ضمان الإشباع الجسدى للمرأة ، فى مناخ يتهمها بالاستهتار ، والإباحية ، حين تبادر بالتعبير التلقائى عن أبسط مشاعرها ؟ .

إن النتيجة الطبيعية للختان النفسى والاجتماعى ، هو المرأة الخائفة ، من كل شىء حولها تخاف التحرر ، والاستقلال ، والاختلاف ، الانطلاق ، والإحساس بالإشباع ، حتى لو لم تتعرض للختان البدنى .

إن الختان أساسا ، موقف نفسى ، واجتماعى ، متحيز ضد المرأة ، وبالتالى يكون قطع ، أو بتر ، أو تشويه جزء من جسمها : ليس إلا التعبير المادى ، أو الترجمة الجسدية ، لما هو مستقر أصلا فى نفوسنا ، ضد النساء.

إن الختان النفسى والاجتماعى ، لا تستأصله قرارات فوقية مفاجئة. إن القضاء عليه ، مرهون بتغيير جذرى فى نظرتنا إلى المرأة ولهذا ، فنحن نريد رؤية شاملة ، متكاملة ، لمفهوم (الختان) ، نريد تضافر كل أجهزة المجتمع ومؤسساته الإعلامية من أجل اقتحام جذور الختان ، والربط الدائم بين تشويه الجسم ، وتشويه النفس ، بين قطع أحد أعضاء الجسم ، وقطع الإنسانية والحلم ، إنه مشوار وعر ، وطويل ، لكن المهم أن نبدأ والآن .

نساء متحررات يمسحن حذاء الزوج

هناك (سوء تفاهم) تاريخى بيننا ، وبين (الحرية) . نحن نعتبر (الحرية) شيئا خارجيا ، يمكن أن يهبط فجأة من السماء ، ليحدث بمعزل عن إرادة البشر أصحاب قضية التحرر . نتصور أن (الحرية) يمكن أن تطرق الأبواب ، وتدخل للإقامة ، دون استئذان ، أو ترحيب ، من أهل البيت ، نتوهم أن المرأة في بلادنا ، يمكن أن تتحرر ، لمجرد أن هناك جدلا دائرا على الورق وفى الحجرات المغلقة ، مكيفة الهواء ، بين مجموعات من النساء - هن أنفسهن - فى حاجة إلى التحرر الحقيقى ، وما زلن واقعات فى الأسر ، ولكن بشكل حديث ، عصرى ، يلائم تعقد ، وغموض ، نهايات القرن العشرين .

إن حريات النساء ، مثل حريات أية فئة ، أو طبقة ، أو شريحة ، لا تتحقق بالكلام ، والقرارات ، والتوصيات الرسمية .

يمكن أن يصدر قرار رسمي بعلاوة إضافية للموظفين ، أو بترحيل أجانب ثبتت إصابتهم بالإيدز ، أو بتغيير سفير ، أو وزير ، أو بمد حالة الطوارئ فى البلاد .

لكن أن يصدر قرار رسمي ، أو غير رسمى ، بأن تتحرر النساء، أو أن يكون للمرأة كرامة ، وصوت مؤثر ، داخل الأسرة ، وخارجها ، فهذا تبسيط لقضية معقدة ، متشابكة الأبعاد ، لها جذورها التاريخية ، ولا تزال ترسخها الأفكار ، والممارسات .

نقول هذا ، انطلاقـا مـن حقيقـة ، أثبتتـها حركـة التـاريخ القديـم ، والحديث على حد سواء ، ألا وهى ، أن لا أحد يحرر أحدًا . كل إنسان مسئول عن حريته، أو عن قيوده . كل مجموعة من البشـر، مسئولة عـن تحررهـا، أو عـن قـهرها، لا أحـد يسـتطيع إخضاعنـا ، إلا بإرادتنـا، وموافقتنا .

إن غالبية النساء ، ينسجمن ، ويتكيفن ، مـع واقـع ، وموروثـات ، ضد إنسانيتهن . وحين يصبحـن زوجـات ، وأمـهات ، فإنـهن تلقائيا، يقمن بدور الملقن الأول للمفاهيم نفسها ، التى تعاملهن معاملة دونية . هن يكرسن التفرقة بين الولد ، والبنـت ، ويـأخذن سـلطة الأب، أو الـزوج، بديهيـة مسـلما بـها، لا تنـاقش، ولا تمـس ، ولا هـى موضـع تذمـر، أو استياء، وإن وصلت إلى درجة التعنت ، والاستعباد . إنـهن يؤمـن إيمانـا راسخا، بأن (الطاعة العمياء) ، هى أكبر فضائل المرأة ، وهى أيضا، أهم دلائل ، ومظاهر (الأنوثة) .

إن غالبية النساء (حتى فى حالة تعلمـهن ، واشـتغالهن) ، يسـتعذبن انهن (ملزمات) مـن الرجـال ، وانـهن لسـن (مجـبرات) علـى الإعالـة ، والإنفاق . وإذا حدث وأنفقن ، فـهذا مـن بـاب التفضـل، والتكـرم علـى الرجل . ولكن (فتح البيت) هـو مهمـة ملقـاة علـى الذكـور الراغبـين فـى إكمال نصف دينهم ، بل إنها – في الأساس – من محددات الذكورة .

إن غالبيـة النسـاء ، تسـعدهن فكـرة (قوامـة) الرجـل علـى المـرأة ، ويعجبهن كثيرا أنهن (مثيرات) للفتنـة ، ويشـعرن بـالزهو لتـاريخ طويـل

أبى إلا أن يخفى ملامحهن ، إما خلف حجاب القماش ، أو حجاب مساحيق التجميل .

وهناك عدد لا بأس به من النساء ، اللائى يتشدقن بالحرية . والمساواة، مطالبات المرأة بالتمرد على وضعها الأدنى فى الأسرة، ثم يذهبن إلى بيوتهن، يمسحن حذاء الزوج .

وهناك نساء تخصصن فى القانون ، ويشتغلن بالمحاماة دفاعا عن حقوق الغير، لكنهن فى الزواج يرفضن أخذ العصمة، بل أنهن لا يحترمن الرجل الذى يقبل هذا الأمر .

وكثيرا ما نرى نساء عضوات فى جمعيات تحارب العنف الممارس ضد المرأة، لكنهن لا يقاومن الأب ، أو الأخ ، أو الزوج إذا اعتدى عليهن بالضرب، أو الزعيق ، أو السباب .

وكثيرا ما تواجهنا نساء غاضبات من استكانة المرأة ، وفى انفعال بالغ، يعبرن عن ضرورة تغيير هذا العالم الذكورى ، وعن حتمية إصلاح الكون. يفعلن هذا، وهن (مكبلات) بالكعوب العالية ، و(مقيدات) بالحلقان ، والأساور، والشخاليل .

لا أدرى ، كيف يمكن لامرأة (أسيرة) الكعب العالى ، أن تحرك النساء ، وتحرر الناس ؟ كيف يمكن لامرأة تهتز فى خطوتها ، أن تعدل الكون ؟ كيف يمكن لامرأة أن تغير العالم ، وتقتحم الحواجز ، بأظافر طويلة ملونة ، وشعر مصبوغ ، وبشرة ناعمة معتنى بها ؟

ليس الشكل جزءًا من المضمون ، ولكنه المضمون الفاضح نفسه ، والمجرد من الأقنعة. إن أشكال ، وملامح ، وثياب هؤلاء النساء اللائى يتكلمن عن الحرية، والتغيير، لا تعكس إلا قناعات هشة ، متراخية، ترقص على السلالم، وإن أجدن حديث الثورة ، والغضب .

ليست الحرية (ديكورا) نزين به كلامنا ، وليست الحرية (مودة) للتجمع ، واكتساب شهرة ، أو سببا وجيها لعقد لقاءات، تبدد روتين، وملل الحياة ، الحرية وعى، وجهد ، وشغل، وعرق، وتحمل مسئولية . الحرية حركة داخلية ذات كبرياء ، وهى استغناء عن الرضا، والاعتراف، والمديح ، والحماية المادية، والنفسية . وهى أيضا الشجاعة على دفع ثمن هذا الاستغناء .

إن انطفاء شهوة التحرر لدى غالبية النساء، هو المسئول الأساسى، عن دونية المرأة، وتخاذل إحساسها بالكرامة، وعن استجابتها الطيعة المستمرة لأحد دورين، إما أنها جسد يُعرى – أو جسد يُغطى. أو فى أحسن الظروف، جسد محايد، الغرض منه، هو اليقظة الكاملة، المسخرة عُرفا، وشرعا، وقانونا، لإرواء احتياجات الرجل الجنسية، وتلبية مطالبه المعاشية، وحمل الأجنة التى من شأنها أن تمد حس الزوج فى الدنيا الفانية.

إن شهوة التحرر، لا تحتاج إلى وعى معقد ، أو منطق متفلسف. نحن نسمع عن جداتنا الريفيات ، اللائى لم يعرفن القراءة ، أو الكتابة، ولم يحضرن مؤتمرات دولية عن حقوق المرأة ، والإنسان ، لكنهن –

ويا للمفارقة المحزنة - كن أكثر إدراكا بمعنى الكرامة ، وحظين باحترام من أزواجهن ، يثير الدهشة .

نحن فى حاجة إلى التساؤل ، لماذا لم يؤد التعليم، والعمل، والشهادات الجامعية العليا والتحدث بلغات أجنبية ، وشغل المناصب، وعضوية الهيئات الاجتماعية ، والثقافية ، إلى أن تغير المرأة نظرتها إلى إنسانيتها ، وكرامتها ؟ لماذا التأرجح بين عصر (الحريم)، وعصر (اللاحريم) ؟ . والنتيجة ، هى عصر (الحريم) المودرن ، عصر الحجاب المزركش ، المستورد، وعصر السباحة بمايوهات شرعية ، وعصر الاستقلال الاقتصادى، دون مسئولية الإنفاق .

إن (الحريم) المودرن ، يتكلمن - بالطبع - عن حقوق المرأة (هذا هو الجانب المودرن) ، لكنهن يؤكدن بشدة على أن هذه الحقوق ، ليست من أجل المرأة كإنسانة ، ولكن من أجل الأسرة ، والزوج ، والأطفال (هذا هو جانب الحريم)، هن لا يتصورن أنفسهن - طال الأجل أو قصر - إلا زوجات، وأمهات، مستورات فى بيت (العدل) المسجل باسم الزوج .

لا يخطر على بال (الحريم) المودرن ، أن إنسانيتهن فى حد ذاتها ، كافية، لأن يحصلن على حقوقهن ، وحرياتهن ، التى تبدو دون زواج ، وأمومة ، أمورا تثير الشك والريبة . وكأنهن يتساءلن ، ترى ماذا ستفعل المرأة، بالحرية، وهى خارج الزواج ، والأمومة ؟

إن (الحريم) المودرن ، يعتبرن أن الإنجاب ، هو الوظيفة الأساسية، التى تشرف المرأة ، وتحدد تميزها ، وليس تعليمها ، أو شغلها . إن

امتلاك المرأة (رحما) ، لا يعنى ، ولا يبرر أن الإنجاب ، هو وظيفتها الأساسية ، إن علاقة الإنسان بالحياة ، لا يجب أن تحددها أعضاؤه .

إن الذى يشرف ، ويميز المرأة ، (إو الإنسان عامة) هو الفعل المتفرد الإبداعى، النابع من عقل ناقد ، ورؤية مغايرة للسائد ، وليس الفعل الذى يشترك فيه ، مع كائنات أخرى ، بسبب طبيعة لا فضل له فيها . المعروف أن الحيوانات ، هى الأخرى تلد ولديها غريزة قوية للأمومة .

كما أن تعبير (وظيفة) غير لائق. ليست الحياة، أو الكون، مصنعا يشتغل فيه البشر، إذا أرادت المرأة الزواج ، والإنجاب ، فهذه رغبات شخصية ـ تكون ثمرة لقاء عاطفى مع رجل تحبه ، وتريد مشاركته الحياة، وليست وظائف مفروضة. أن (الحريم) المودرن ، ينظرن إلى الزواج والإنجاب ، على أنهما مصير حتمى ، وليسا مجرد اختيار ، وبدونهما لا تتكامل ، ولا تتوازن المرأة .

وهناك نوع من (الحريم) المودرن ، يعتبر الرجل هو مقياس التحرر . فإذا كان (حريم) زمان ، وجدن فى الرجل ، المثل الأعلى داخل البيت. فإن (حريم) اليوم ، يجدن فى الرجل ، المثل الأعلى فى الحياة .

هن يتناولن قضية حقوق وحريات النساء ، على أنها قضية المساواة بالرجال . مع أن المسألة ، أكبر ، وأهم .

نحن لا ننكر وجود القيم المتوارثة التى تُعلى من شأن الذكورة . ولكن هذا ليس معناه، أن تقصر النساء ، نظرتهن إلى التحرر، بالرجوع إلى

الرجل. إن النظام التسلطى، القائم على التفرقة ، يفسد الرجل، مثلما يفسد المرأة. فالرجل أيضا ضحية ، ولكنه ضحية لها بعض الميزات النسبية ، إنها بالتحديد الميزات نفسها، التى شوهت نفسية الرجل، ونظرته إلى نفسه ، وإلى المرأة . وبالتالى، فالرجل، لا يصلح أن يكون (مرجعا) للحرية ، أو مثلا أعلى نتطلع إليه .

إن النساء اللائى يعتبرن الرجل ، مقياسا للتحرر ، (ناقصات) الطموح . المقياس لابد أن يكون الحق الإنسانى ، وآفاق الحرية اللامحدودة .

وهناك نساء ، يتعاملن مع المرأة ، على أنها مجرد (ترس) ، فى آلة كبيرة اسمها (المجتمع) . ويكون الاهتمام بالمرأة ، وسيلة للحفاظ على (سير الآلة وزيادة كفاءتها فى الإنتاج ، والتشغيل .

إنه أيضا منطق (الحريم) المودرن ، الذى يعجز دائما عن رؤية (ذات) المرأة، ككيان مستقل . الاختلاف، إن هناك نوعا من (الحريم) يرى فناء ذات المرأة، فى الرجل (الأسرة الصغيرة)، ونوع آخر يرى فناء ذات المرأة فى المجتمع (الأسرة الكبيرة) .

هناك عجز مزمن فى القدرة على رؤية المرأة مكتفية بنفسها ، كاملة الأهلية، والإنسانية بدون أسرة ، صغيرة ، أو كبيرة .

إن أجمل ، وأعظم ما فى الحرية ، أنها لا تذهب إلا لمن يستحقها وشرط استحقاق النساء للحرية، هو أن يشتهين مذاقها المحرم فى كل فعل حياتى معاش، يصطدم بالضرورة بالتقاليد الموروثة ، وأن يخلعن مرة واحدة، وإلى الأبد، رداء (الحريم) .

شرف البنت فى عقلها !

لا أعتقد أن هناك مجتمعات مثل مجتمعاتنا، مؤرقة فى نهارها، وليلها، بالجدل حول (شرف البنت) و (شرف المرأة)، و (عذرية الفتاة)، ومنشغلة على مر عصورها وأزمنتها بـ (مراقبة) ماذا تفعل المرأة بـ(النصف الأسفل) من جسدها، وإصدار الأحكام الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية عليه .

نظرة سريعة إلى حال مجتمعاتنا، وتفزعنا الحقيقة . الكل يتسابق ليدلى بدلوه فى قضية شرف البنت . الكل متحفز لقول كلمته عن شرف المرأة. فالتقاعس عن ذلك، يعتبر من باب الخيانة التى لا تغتفر ، فشرف البنت، أو شرف المرأة، فى عرف المجتمع الذكورى ، هو شرف الأسرة، وبما أن الأسرة هى نواة المجتمع الأولى ، يكون «شرف» المرأة هو شرف المجتمع الذكورى بالضرورة ، الكل (طواعية) مدفوعًا بنوازع الوطنية، وحماية الأخلاق، وشرف البلاد، يدخل فى (المزايدات) حول جسد المرأة. الكل يقول كلمته فى جسد المرأة، وشرف المرأة، وأخلاق المرأة، وعذرية المرأة، والتى تعكس ثقافته، ومصالحه، ومزاجه، وفكرته عن الشرف والأخلاق، والجسد، إلا المرأة نفسها .

تظل المرأة مختبئة وراء أنواع من (الأحجبة) سواء من القماش ، أو من القيم ، صنعت تاريخيًا ، لكى تتلقى فى ابتسامة ، رأى الذكور فى

جسدها وحكم الذكور فى أخلاقها ، ووصاية الذكور عن شرفها، وعذريتها .

قدر للمرأة ، أن تحمل لعنة الجسد الملتصق بها ، تعانى ما يحيطه من قيم الأنوثة المزيفة ، وما يسببه من أوجاع شهرية ، وتغيرات هرمونية ، ومضاعفات الحمل والولادة ، وعبء تنظيم النسل، وأضرار العنف الجسدى، وابتذال العرى لترويج السلع . كل ذلك دون أن يكون لها حق ملكية هذا الجسد ، أو شرعية التحدث باسمه ، أو الدفاع عنه، أو حتى مجرد الغضب مما تبثه أنظمة التسلط الذكورية .

تجددت مؤخرًا على مسامعنا مسألة (العذرية) و (اغتصاب) الفتيات، أفزعتنى وأدهشتنى الآراء التى قيلت عن كيفية (إعادة العذرية) للفتاة المغتصبة .

إن (إعادة العذرية) بالخياطة ، وعمل الغرز ، ليس فقط جريمة (طبية) ولكنه فى المقام الأول، جريمة (أخلاقية) و (إنسانية) فى حق الفتاة المُغتصبة .

ألا يكفى أن الفتاة قد تعرضت لاعتداء جنسى ، قد يصيبها بعقد جنسية ونفسية لا حل لها ؟

إن الاغتصاب اعتداء من فرد عليها ، واعتداء قد أجبرت عليه . لكن (إعادة العذرية) بالخياطة والغرز والترقيع ، اعتداء جماعى من المجتمع بأسره ، مدفوعة إليه باختيارها ، وعلى ملء سمع وبصر الجميع .

والكارثة الكبرى ، أنه (اعتداء) يتم تحت اسم الشـرف ، والأخـلاق، والفضيلة .

الكارثـة الكـبرى ، أن الفتـاة المغتصبـة مـن (ذكـر) فـالت الشـــرف ، متسيب الأخلاق ، معدوم الفضيلة ، هى الضحية، المجنى عليها ولكنها هى المطالبة من قبـل المجتمـع ، بـأن تدفـع ثمـن عـدم الشرف، وعـدم الأخلاق، وعدم الفضيلة للجانى عليها . يطالبها المجتمع وهى الضحية، بأن تضع جسدها المغتصب على مائدة الشرف المزيفة ، وتخضعه لعمليات القص واللزق والترقيع غير الأخلاقية .

أما الذكر القـائم بالاغتصـاب، فـهو حـر تمامـا، وجسـده فـى مـأمن، ومحاكمتـه متهاونـة ، رقيقـــة ، متفهمـــة للنـــوازع الكامنـــة، والدوافـــع الغريزية ، والكبت المتراكم .

إن شرف البنت ، أو شرف المرأة ، ليس (غرزة) يتم ترقيعـها أو عـدم ترقيعها .

إن شرف البنت ، أو شرف المرأة ، ليس النصف الأسـفل للجسـد. إن الشرف، حتى يكون حقًا (شرفا) أو فضيلة ، أو أخلاقًا ، لابـد أن تطبـق معاييره على جميع البشر ، دون تفرقة ، بين رجل وامــرأة ، بـين غنــى وفقير ، بين أبيض وأسـود ، بـين صـاحب ديانـة أو فكـر آخـر، شـرف الإنسان لابد أن يكون واحدًا ، ولابد أن يكون مرتبطًا بالنصف الأعلى من الجسد ، أى بالعقل والتفكير.

إن شرف الإنسان رجلا أو امرأة ، هو قدرته على الاستقلال الاقتصادى والاستقلال النفسي . هو القدرة على مواجهة العالم بما نؤمن به، ونفعله، وليس إخفائه تحت اسم (الخوف من التقاليد) أو (إعادة العذرية) أو (ديكور الأخلاق) .

الشرف ، هو القدرة على السباحة ضد التيار ، ودفع ثمن اختلافنا .

إن شرف المرأة ، هو فى عقلها ، وشخصيتها وفلسفتها لتغيير ذاتها من كيان تابع مقهور، إلى كيان حر مستقل. شرف المرأة، هو رؤيتها النقدية لمجتمعها لتغييره إلى الأشجع ، والأعدل، والأجمل، والأصدق .

إن مفهوم مجتمعاتنا عن (الشرف) مخجل ، ومضحك ، ومحزن فى آن واحد .

كيف للإنسان العربى (الرجل العربى والمرأة العربية) أن يواجه مشكلاته الحاضرة وتحدياته المستقبلية ، وهو مقتنع أن الأخلاق والفضيلة، فى أسفل أجساد النساء ؟

كيف للرجل العربى أن يثق فى وطنه ، ويشعر بالانتماء إلى مجتمعه ، والوطن والمجتمع يطالبان الفتاة المغتصبة (من رجل آخر) بأن تخفى الأمر بـ (الترقيع) ؟

ما هذا المجتمع الذى يتعاطى الكذب ، والإخفاء ، باسم الصدق والشرف ؟ وما هذا المجتمع الذى يختصر المرأة إلى (غرزة) ؟

هل ينتهى عصر القطط المغمضة ؟

الحديث عن الأسرة المصرية، حديث ذو شجون يلمس حاضرنا ومستقبلنا. وهو حديث طال الاشتياق إليه، فأشياؤنا الجميلة فى وضح النهار وأمام أعيننا، تنهار. و (مصر التى فى خاطرى) والتى نغرقها فى أناشيد التعظيم والتقديس، ترقد على ضفاف النيل، وبنا تستغيث . لكنها كلل العظماء تستغيث فى استيحاء. تعرف عبث الصراخ فى حضارة الضوضاء . تترفع عن مد يدها طلبا للمعونة. يا للعجب كيف اليد التى أعطت تستحى ممن يأخذ ؟ تكتفى بإرسال إشارات واللبيب بالإشارة يفهم. والفهم لا يحدث إلا بالسؤال عن أصل الأشياء .

لا فهم لما يحدث داخل بيوتنا المغلقة ، والمسماة بالخلية الأولى دون أن نفهم كيف تتكون تلك الخلية ؟ ولماذا تتكون ؟ بمعنى آخر، نحن نتساءل عن الدوافع التى تدفع المرأة لأن تتزوج وتكوّن أسرة ؟ وإلى أى مدى يتدخل المجتمع ليشكل تلك الدوافع ؟ وهل هناك دوافع معلنة، وأخرى غير معلنة ؟ وكيف تسير العلاقة بين المعلن وغير المعلن ؟ وبعد فترة من الزواج ، هل تتغير الدوافع؟ وحين تتغير ، ألا يحق لنا أن نتوقع تغيرًا ما فى بنية الأسرة والعلاقات القائمة بين أطرافها ؟

الرجال لماذا يتزوجون ؟

هذا رجل يعتذر عن فوضى بيته وعدم نظافته وضياع جواربه وعدم وجود أكل .. بقوله (معلهش أصل أنا عازب وأنتو بقى عارفين حياة

العزاب) وهذه نصيحة من أب (يا بني أمك مش قادرة علينا زى الأول كمل نص دينك عشان تلاقى لقمتك وهدمتك وتريحنا كلنا) .

رجل آخر محظوظ عنده فلوس وأملاك ويتحسر لأنه وحيد . يتزوج ليضمن ذهاب الإرث لابن يحمل اسمه ومن صلبه . رجل آخر عنده بعد نظر. يفكر ماذا يفعل حين يتقدم به العمر، ولا قدر الله يمرض؟ من سيقدم له الدواء؟ ومن سيؤنسه بعد رحيل أصدقاء العمر ؟ فيتزوج ويضمن الصحبة .

أما الرجل الطموح ، فيتزوج ليتحرر من أعباء المنزل أو الأعمال التحتية . ليتفرغ هو للبنية الفوقية فيفكر ويبدع ويكتب ويشتهر . آخرون يتزوجون مدفوعين فقط بالجاذبية الجنسية . ويتزوج آخرون لقتل ملل الحياة .

وهناك بالطبع رجال يتزوجون وهم يرددون أهمية حفظ النوع من الانقراض فى كل الأحوال .

آخرون يتزوجون هروبا من حب قديم ، أو هروبا من نظرة المجتمع التى تضع المتزوجين فى مرتبة أعلى .

وهناك رجال يأخذون من الزواج وسيلة للعلاج النفسى فهم ينفسون عن رغبات التسلط أو السادية المترسبة منذ الطفولة .

أعرف رجلاً تزوج ليستطيع الغضب بسهولة دون أن يحسبها.. وعنده حق، فالغضب مع الزوجة لا خطر منه. أما الغضب مع الأصدقاء أو الغرباء أو رؤساء العمل، فيهدد ويزعج .

النساء لماذا يتزوجن ؟

رغم وجود تداخل فى بعض الدوافع السابقة بين الرجل والمرأة ، فـإن هناك دوافع تنفرد بها النساء . فالمرأة تتزوج لتجد مـن يطعمـها ويشـرّبها ويلبسها ويسكنها ويسترها . باختصار الإنفـاق والحمايـة بنسب متفاوتـة وفقا لكل امرأة. وقد تكون الحماية من أهلـها، أو مـن المجتمـع . فـالمرأة غير المتزوجة ، يقولون (فاتها القطار) - غير معـترف بـها ، وهـى تثـير الريبة والاتهام ، وهى غير مرغوب فيها . وقبل كل هذا، تعتبر (صيـدة) من قبل الرجال المتزوجين وغير المتزوجين على السواء .

والدوافع لابد لها من مواصفات مناسبة . نمط الرجـل لابـد أن يشـبع دوافع المرأة . ونمط المرأة لابد أن يشبع دوافع الرجـل . ولا شـىء أنسـب للزوج من القدرة المادية (الرجل مـا يعيبـوش إلا جيبـه) ولا شـىء أنسـب للزوجة من الطاعة . نمط (القطة المغمضـة) وهكـذا تقـام ليلـة العمـر وسـط الأغانى والزغاريد ، ويأتى المـأذون والحبايب يباركون زواج الـــ(فلـوس) بـ (الطاعة) .

وبعد فترة مـن الـزواج ، تظـهر التناقضـات ومعـها النكـات السـاخرة المتخصصة فى تصوير سلوك ومشـاعر الأزواج والزوجـات. فـالرجل تـزوج المطيعـة، الخادمـة، المريحـة . لكنـه يـهرب منـها إلى أخـرى لا تخدمـه ولا تطيعه ولا تريحه . لقد عقد قرانه على (قطة مغمضة) ثم يقع فى هيام واحدة (مفتحة) . أراد للأسرة امـرأة له عليهـا سلطة . ويريد لقلبـه امـرأة لا يملـك عليـها سـلطة . عندنـا ظـاهرة (تســرب الأزواج) مـن العمليــة الزواجية .تمامـا مثـل ظـاهرة (تسـرب التلاميـذ) مـن العمليـة التعليميـة،

استقرار الملابس والغذاء شيء ، وحركة مشاعره شيء آخر، ويبدو أن عقل الرجال، قد ثبت بشكل أنهم لا يتصورون الاستقرار ولا يتوقعون الحنان والعطاء، إلا إذا كان مرادفا للخضوع . ورغم أن العرف والقانون يعطيان الرجل اليد العليا على الزوجة ، فهو حر قبل الزواج وحر بعد الزواج . فإننا نفاجأ بأمر قد يبدو متناقضًا لأول وهلة. فالزوج يعمل حساب زوجته ويخاف منها. وهناك الكثير من النكات التى تصور هذا. والتناقض لا محل له. فلابد أن يخاف، فرغم خضوعها فإن الزوج، لا يريد الدخول فى أى مشكلة تعكر استقراره الذى يتيح له الحرية بعد الزواج .

نحن نردد طول الوقت أن الدولة التى لا تملك طعامها ، لا تملك قرارها ، ولا تملك بالتالى حريتها . وهذا المبدأ صحيح أيضًا مع البشر، لكننا لسبب ما ننسى أن المرآة تنتمى إلى البشر . إن المرأة التى لا تملك طعامها ، لا تملك حريتها . والمرأة غير الحرة ، لا تسعد إلا الرجال المرضى فاقدى الثقة فى أنفسهم . المرأة غير الحرة ، لا تخلق إلا أجيالا خاضعة .

فالقطط المغمضة لا تلد إلا قططًا مغمضة . ليست فقط مغمضة ، ولكنها أيضا تعيسة . لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

حرية وسعادة واستقامة الأسرة لا تتم بمعزل عن حرية وسعادة واستقامة العناصر المكونة لها .. أى الرجل والمرأة . ولا حرية ولا سعادة ولا استقامة ، بدون التطهر والتحرر من الدوافع المريضة . وبعد تغيير النظرة لكل من المرأة والرجل ، يصبح الحب الإنسانى الحقيقى، هو

الدافع الأول والأخير للزواج وتكوين أسرة . نسمع من الرجل قبل الزواج أنه (يكوِّن) نفسه ، بالفلوس لكننا نريد أن (يكوِّن) الرجل نفسه و(تكوِّن) المرأة نفسها ، إنسانيًا ونفسيًا وأيضًا ماديا .

نريد أن يبحث الرجل فى الزواج عن تكامل كيانه ، وليس عن جواربه ، وأن تبحث المرأة فيه عن تكامل كيانها لا عن وجبة .قبل الزواج . لابد أن يكون الرجل عائلا لنفسه ، وحرًا وسعيدًا ، بحياته كما هى . قبل الزواج ، لابد أن تكون المرأة عائلة لنفسها وحرة وسعيدة بحياتها كما هى . ثم يحدث اللقاء بالزواج . لا يوجد أجمل من التقاء رجل وامرأة بهذا التكوين .

هذا هو اللقاء الوحيد الذى يحدث فيه الأخذ والعطاء . دون أن يخسر أى طرف حريته أو سعادته .

وهذا هو الضمان الوحيد لخلق أسرة مستقيمة الخلق ، سعيدة وذات كرامة .

عن الفن والأدب

زمن الغناء الجميل!

مارس.. شهر بدايات الربيع، وتفتح الزهور، والقلوب، وصرخة احتجاج الأرض ضد صومعة الشتاء.

مارس.. شهر لا مثيل له طوال العام. فى مارس نحتفل بميلاد اثنين من عمالقة موسيقانا العربية..

عبد الوهاب ١٣ مارس، وسيد درويش ١٧ مارس.

ليس صدفة أن يكون ميلاد سيد درويش، وعبد الوهاب، فى مارس. لقد أحدث كل من سيد درويش، وعبد الوهاب «هزة» فنية غير مسبوقة فى موسيقانا. تماما مثلما فى مارس تهتز الأرض، وتتحول، وتتبدل ملامحها لتمنحنا موسم الورد، والدفء، وعنفوان الحياة.

«سيد درويش».. الفتى الاسكندرانى الفقير، غنى الموهبة، لم يعش إلا ٣١ عاما، واستطاع أن يصنع ثورة فى الموسيقى العربية. تتمثل هذه الثورة فى تخليص موسيقانا من تأثرها بالروح التركية، وخلق موسيقى مصرية نابعة من الحس المصرى، والهموم المصرية، والأحلام المصرية. كذلك ينسب الفضل إلى سيد درويش، فى نقل الموسيقى العربية من مرحلة التطريب الصرف إلى مرحلة التعبير. ويعتبر سيد درويش البداية الحقيقية للتحديث فى الموسيقى العربية.. غنى الشيخ سيد للشعب المصرى كله، بكافة قطاعاته، وطوائفه، وفئاته. ولا ننسى ريادته فى

الغناء للمرأة المصرية، يحثها على النهوض، والتقدم، وترك الخضوع والسلبية.

«عبد الوهاب» قامة فنية شامخة، حمل مهمة التجديد والتنويع فى الموسيقى العربية لعدة أجيال متعاقبة، أثرى عبد الوهاب موسيقانا العربية، ليس فقط كمطرب له صوت متفرد، ولكن أيضا من خلال ألحانه التى قدم بها مختلف الألوان الموسيقية «الموشح، الدور، الطقطوقة، المونولوج، القصيدة المسرحية الغنائية، الموال والأغنية الخفيفة».

أضفى عبد الوهاب، على موسيقاه المصرية الأصيلة، بعض الجمل الموسيقية الشهيرة، من موسيقى عالمية. من الأمثلة الكلاسيكية، فى تاريخنا الموسيقى أغنية «أحب عيشة الحرية»، التى أخذ عبد الوهاب مقدمتها بالكامل وبشكل حرفى، من افتتاحية السيمفونية الخامسة لـ «بيتهوفن».. القضية هى كيف بعد اقتباس جملة لحنية مشهورة عالميا، أن يشيد بناء موسيقى أصيل تتضح فيه الموهبة والقيمة الفنية؟ وإذا لم يقر البعض هذا الاقتباس، فما عليهم فى الحقيقة إلا استبعاد كل من صنعوا ذاكرة الشعوب الموسيقية. فمن المعروف أن كل كبار الموسيقيين فى العالم، قد مارسوا هذا الاقتباس المشروع فى تاريخ الموسيقى.

كان عبد الوهاب، شديد الإخلاص لمن سبقوه على درب الموسيقى العربية، وخاصة سيد درويش ونذكر هنا مقولته الشهيرة «أنا درويشى حتى العظم».

فى مارس من كل عام نحتفل بميلاد سيد درويش، وعبد الوهاب. شيء جميل أن يظل هناك خيط من التواصل والوفاء بيننا وبين من صنعوا هويتنا الموسيقية.

لكننا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الاحتفال، نغمة «نشاز» وسط «الواقع الغنائى» الذى وصلنا إليه.

إن «حالتنا الغنائية» لم تعد مؤهلة لموسيقى عبد الوهاب، وغير متوافقة مع ألحان سيد درويش.

لقد سادت الساحة الغنائية مجموعة من الأصوات التى تفعل بنا أى شيء إلا الغناء. أصوات متشابهة القبح، تترنح على أنغام مستهلكة خالية من الموسيقى، مزعجة الإيقاعات، تثير التوتر، والدوشة، وتصيب الأذن والروح بالتلوث والاستياء.

عدد لا حصر له من الأغنيات يحاصرنا، لكنها أغنيات خاصمت الغناء، ومغنون يفتقدون الموهبة، والحضور والشخصية.

لست أدرى، هل أصبح الغناء فى بلد سيد. درويش وعبد الوهاب، مهنة من لا مهنة له؟ هل أصبح الغناء فى بلد سيد درويش، وعبد الوهاب مرادفا للتصفيق فى الموالد وتسالى الأفراح؟ كيف أصبح الغناء مرهونا فقط بالفلوس التى تستطيع «تعبئة شريط» وتسخير التكنولوجيا الحديثة دون اعتبار لأى حد أدنى من الموهبة، أو القيمة الفنية؟

لقد اكتسبت تلك الأصوات، عديمة الصوت والموهبة والقيمة الفنية، الانتشار والشهرة واعتلت فى جرأة الساحة الغنائية. وبكل أسف، تجد

التشجيع، والترحيب مادامت أنها تملك أسلحة العصر النافذة.. الفلوس أو الواسطة أو الاثنتين معا.

ومما يزيد الأسف، أننا نجد أصواتا مصرية كانت تستحق أن تنال من التقدير والشهرة ما يجعلها جزءا «حقيقيا» من معالم الغناء في مجتمعنا.

أحد هذه الأصوات عادل عثمان، الذى استمعت إليه مؤخرا فى حفلاته التى يحييها أسبوعيا فى نادى الجزيرة.

إنه صوت آت من زمن الغناء الجميل الذى افتقدناه. صوت يجمع ما بين القوة والحساسية.. له حضور غنائى يأسر الانتباه متعدد الدرجات، يفاجئنا بقفزات وتنويعات صوتية نكاد معها «نرى» النغمات وليس فقط نسمعها.

استمعت إليه فى أغنياته الخاصة به، وكذلك فى أغنيات أم كلثوم، وفيروز، ومحمد فوزى، وكارم محمود، وعبد الحليم حافظ وسعد عبد الوهاب. يسمعنا الألحان القديمة بإحساس جديد، يخلقه هو بشخصيته وفلسفته عن الغناء، وأدائه المتعدد الأصوات ومثلما يجيد ويبدع فى أداء الأغنيات الشرقية.. يجيد ويبدع فى الأغنيات الغربية بالثلاث لغات، الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية.

إنه ينتقل بسلاسة، وتمكن من أم كلثوم إلى «فرانك سيناترا» ومن فيروز إلى «شارل أزنافور» ومن محمد فوزى إلى «توم جونز» ومن عبد الحليم حافظ إلى «انريكو ماسياس» ومن كارم محمود إلى «أنجل برت».

لقد خلق في نادى الجزيرة جمهورا يأتيه كل أسبوع، وحقق شعبية في مكان تتنوع فيه الأذواق، وتتعدد الأمزجة بشكل كبير.

ويبقى السؤال: كيف لموهبة مثل صوت عادل عثمان ألا تحتل ما تستحقه من التقدير والشهرة؟.. في حين تحاصرنا في كل مكان ليلاً ونهارًا أصوات بلا موهبة تفسد ذوقنا الموسيقى، وتحاصر حياتنا الغنائية، وترتكب جريمة ثقافية في حقنا وفي حق الأجيال القادمة؟

إن أكبر احتفال بسيد درويش، وعبد الوهاب يكون أساسا في مقاومة المحاولات التي تخرب هويتنا الموسيقية، متسترة وراء الغناء، وفي إعادة غربلة الخريطة الغنائية وإعادة صياغة المقاييس الفنية وراء الشهرة، فالفن الأصيل هو العنوان الحقيقي لرقى الشعوب، والمناعة القوية ضد أية انتكاسة حضارية، والأغنية بالتحديد بحكم طبيعتها وشكلها أكثر الفنون تعبيرًا عن حال مجتمعها، وأكثر الفنون تأثيرا (سلبا أو إيجابا) في وجدان الناس.

لقد عبر أحد الفلاسفة عن هذا المعنى قائلا: «لست أبالى بمن يحكم بلادى، مادمت أنا الذى أضع أغانيها».

الفن طريق إلى الديمقراطية

تكتسب الديمقراطية أهميتها القصوى في مسار تاريخ الشعوب، من كونها القضية الأكثر تجسيدا للعدالة بين البشر، وترسيخا لقيمة الحرية في الممارسة العملية.

أما الفن بجميع أشكاله فهو تصور جمالى وعوالم أخرى.

إن الفن يوجد لنا مجموعة من الرؤى، لا تختص فقط بالحاضر والمستقبل، ولكن أيضا بالماضى.

وإذا كانت ملكة التخيل، موجودة عند كل البشر، لكنها أكثر حضورًا، وإلحاحًا عند أهل الفن، والتخيل، هو الذى يجعل الفنان (أو الفنانة) بطبيعته ضد كل الثوابت، والبديهات، الفن هو التساؤل الدائم المتجاوز كل إجابة.. والفن يضع قوانينه الخاصة، ويوجد طرق تذوقه، والنظر إليه.

يتضح من هذه المفردات المميزة للفن، أنه يفترض منذ البداية، حدًا أدنى مرتفعا من ضمان حريات التعبير، والترحيب بكل أنواع الاختلاف، وعدم الخوف من التساؤل، وهى كلها من سمات مجتمعات الحرية، والديمقراطية.

نحن نتعلم من «الفن» كيف نسعد بالقصص، والروايات، وكيف نستمتع باللوحات، والموسيقى، الصادرة من عقل وعاطفة «آخر»، أعظم ما يميزه هو تمرده علينا نحن المتلقون له. أليس هذا تدريبًا جميلاً على الديمقراطية؟

إن أرض الفنون، مفتوحة الحدود لكل الناس، ولا تشترط تأشيرات للدخول، أو إجادة لمؤهلات معينة، اللهم إلا التحرر من كل التحيزات المسبقة، والرغبة في الانفتاح على عوالم مغايرة. هذا الترحيب المتاح للجميع، أليس هو المساواة بين البشر، في أعلى معانيها؟ لكننا بين الحين والآخر، نشهد نقاشا عقيما عن العلاقة بين حرية الفنان، وحرية المجتمع، حيث يقول البعض أن للفنان حريته، بشرط ألا يمس حرية المجتمع. البعض يرى حرية الفنان محمودة، طالما أنها لا تصدم المألوف والسائد في المجتمع، مثل هذه الأقاويل، تسيء فهم الفنان، والحرية. فليست «الحرية»، كتلة مادية ثابتة. إذا أخذ منها الفنان، سينقص نصيب المجتمع منها.

إن المجتمع حر، قدر ما يضمن، ويرسخ حريات الأفراد، خاصة حريات أهل الفن، وهذه إحدى المفارقات الجميلة لعطاء الحرية. كما أن «الحرية» متغيرة. وبالمثل ما نسميه «المألوف» و «السائد». فإذا اتفقنا على أن الحياة في حركة نمو مستمرة، وكذلك البشر. فإن الحرية تنمو بالضرورة هي الأخرى. والمجتمع الذي يريد البقاء، والازدهار لابد أن يساير هذا النمو، وأن يعيد باستمرار مفهومه للحرية، ورؤيته لما هو مألوف، وسائد. إن أي تقدم حققته الإنسانية، يمكن تعريفه بأنه الغربلة المستمرة للمألوف، وإعادة صياغة للسائد.

إن التخوف الشديد الذي يظهره البعض، من حرية الفنان على المجتمع لا محل له . إن الفنان مشغول أكثر من غيره، ببناء عالم أكثر جمالا وشجاعة وعدلا، ولذلك فإن إبداعه لا يقلب الأشياء ولكن يعدلها،

وهو لا يخرب ولا يفسد، لكنه يعمر، ويبنى وهذا يستلزم بالضرورة البدء في هدم الظلم والقبح، لإقامة العدل والجمال.

إن معاداة الفن، أو محاولة تقليص مداه وآفاقه، هي في الوقت نفسه، معاداة للديمقراطية، فالمجتمع الذى يتشكك فى الفن، ودور الفنان، هو فى اللحظة نفسها، يجهض نهضته المادية، والروحية على حد سواء. من هذا المنطلق، لا تكون «الحرية»، حقا من حقوق الفنان، يضمنه المجتمع ويدعمه، لكنها أيضا «واجب» على الفنان، لتحقيق رسالته نحو ذاته، ونحو مجتمعه والإنسانية.

إن كل قصة، أو قصيدة، أو قطعة موسيقى، أو لوحة، إنما هى درجة على سلم الحرية، يصعدها أهل الفن، ويشدون معهم الآخرين فى حوار جمالى، وتفاعل فكرى، بين طرفين، تمنحهما الحياة أغنى مكنوناتها.

فى المجتمعات التسلطية بجميع أشكالها، ودرجاتها، حيث القهر هو النغمة السائدة، يتعثر هذا الحوار الجمالى، والتفاعل الفكرى . ويخاف أغلب الأفراد، من الحرية. إن الإنسان، أو المجتمع، الخائف من الحرية، يتقبل أى تشخيص أو تبرير لحالته. لكنه لا يتحمل أن يوصف بالخوف من الحرية ، لأن ذلك يعنى الخوف من الحياة ذاتها، بكل ما تحمله من إمكانات النمو، والانفتاح، والمعرفة، والسعادة.

ولكن وكما قال «سارتر» فى بداية روايته «الغثيان»: «المصيبة أننا أحرار».. أى أن الحرية، هى قدرنا مهما حاولنا الهروب منها. والفن الحقيقى، خطوات مضيئة نحو هذا القدر. وعلى المجتمعات الطامحة للديمقراطية، والتحرر، أن تتعاون مع الفن فى رسالته السامية، اللامحدودة الآفاق.

إلى نزار .. الثائر ضد العشق فى العتمة

ماذا أكتب عنك يا نزار بعد الرحيل ؟

تستحى الكلمات أن تمنحنى مذاق المعانى، وعنفوان الإيحاء، أرحلت حقا عن دنيا الناس؟

وكيف لا ترحل؟ ودنيانا مغرورة، حمقاء، لا تعرف قدر مثلك من العظماء، ولا تتسع رغم رحابتها لشاعر يقلب موازين الأشياء، ويثور على كل قافية ومنطق ومعتاد؟

بعدك يا نزار، يبحث الشعر عن مسكن مريح، ممتع، رحب الطرقات، دافئ الجدران، يستقبل كل عابر سبيل ضل النغم والطريق، بابتسامة عاشق مشتاق.

بعدك يا نزار، تيتمت قلوب تخفق بالحب، والفرح، ومعاندة التيار.

أنت لم تكن واحدا من الشعراء، وإنما أنت الشعر، فى أحلى تجلياته، وأجمل شطحاته، وأعقل جنونه.

الفنان هو فى الأساس، فصيلة نادرة من البشر، وفن الكتابة على وجه الخصوص، يستلزم إنسانا أكثر ندرة، وكان «نزار» هو التجسيد المكتمل لفن خلق الكلمات.

كل ما في «نزار» طفولته، أسـرته، مزاجـه، طباعـه، أحلامـه، لـون عينيه، قامته، قوامه، نبرة صوته، كلها أشياء تـألفت، وتـأنقت لتصنـع «الشاعر» كما ينبغي أن يكون، حتى تاريخ ميـلاده في ٢١ مـارس، هـو التاريخ المثالي لمولد رجل مسكون بجنون الشعر، ثائر علـى الأشياء حتـى على نفسه، عصي التوصيـف، لا يعرف الثبـات، جـامح كـالبحر. فـي ٢١ مارس يبدأ برج «الحمل» البرج الذي يشهد تحـولات الأرض، وثـورة الطبيعة على أسر الشتاء.

البرج الذي قال عنه «نزار» أنه برج الذين قرروا أن يسـرقوا النـار مـن السماء.

ينتمي نزار إلى برج «الحمل»، البرج الوحيد بين الأبراج يجمع ما بين النار والهواء، وهل الشعر شيء آخر، إلا الإحتراق بالنار، والسـفر الدائم على متن الهواء؟

لكن نزار لم يسرق النار من السماء، لأن السماء كما قال لم تكن تهمه، وإنما كانت نار الأرض هي غايته، لقد سرق ركودنـا الفكـري وتناقضاتنـا الأخلاقية، وألقى بهما في وجوهنا، كاشفا الزيف، عاصيـا أوامـر الموتـى التي تحكم الأحياء، والتقاليد الخرساء التي تعـوق شـدو الحيـاة متجـدد النغمات والإيقاع.

يعري «نزار» الكذب، والنفاق في العواطف بين الرجل والمرأة وبـالقدر نفسه، وبالحدة نفسها، يعـري الكـذب والنفـاق في الحيـاة الاجتماعيـة والسياسية.

على مدى نصف قرن من الزمان جاهد «نزار» أن يعيش الرجل العربى حياة واحدة، في علاقته بالمرأة. كتب «نزار» معاديا «الشيزوفرانيا الذكورية» «الفرق بينى وبين بقية العشاق، أنهم يحبون فى العتمة، وضمن جدران غرف النوم المغلقة، أما أنا – فلسوء حظى – أننى رسمت عشقى على الورق، وألصقته على كل الجدران.

هذه هى مأساة الفنان، أنه لا يستطيع أن يتصرف فى الحياة بشكل وعلى الورق بشكل آخر، إنه ملزم كشاعر بأن ينقل سريره إلى الشارع، ويضع عواطفه تحت تصرف جميع المواطنين وفى خدمتهم كالتماثيل والأرصفة والحدائق العامة، ولأننى لا أستطيع ممارسة العشق فى العتمة، ولا أستطيع أن اخبىء حبيبتى فى سرداب من الحجر، أصبحت قصائدى وثائق اتهام موقعة بإمضائى.. إن شاعر الحب فى بلادنا يقاتل فوق أرض وعرة، وفى مناخ عدائى ردئ ».

وبالقدر نفسه، جاهد «نزار» أن تتخلى المرأة العربية عن منطق الجوارى، والحريم، وأن تطالب بحقها فى التعبير عن عواطفها، ورغباتها، وآرائها الحرة، دون الخوف من شيوخ القبيلة، أو تقاليد الذكور مزدوجة المقاييس.

يكتب «نزار»:

أنا هارب من كل إرهاب يمارسه

جدودك أو جدودى

أنا هارب من عصر تكفين النساء

وفى سياق آخر يكتب محرضا المرأة على الثورة:

لا أنت من صنف العبيد ولا أنا أهتم فى بيع العبيد
إنى أحبك جدولا وحمامة
ونبوءة تأتى من الزمن البعيد
وأنا أحبك فى احتجاج الغاضبين
وفرحة الأحرار فى كسر الحديد

وعلى مدى نصف قرن من الزمان، يدخل «نزار» المعارك الضارية من أجل أن يكتسب «الكاتب» شرفه وكرامته.

ولا شئ يمنح «الكاتب» شرفه إلا عدم انتمائه إلى مقاعد الموالين، والمصفقين. وليست كرامة «الكاتب» إلا أنه حالة معارضة دائما. الكاتب الحق عند «نزار» هو من «يشعل الحرائق فى وجدان الناس» وهو الذى يزهو بكل حجر يقذف به، ويعتبره وسام استحقاق للشرف، والشعر، بل للحياة ذاتها.

ولأن «نزار» يؤمن بأن الشعر «طهارة من الداخل والخارج» فقد أحب من هاجمه، كما أحب من أيده، وكان دائما يؤكد أن الشتيمة تعلمه أكثر من المديح، ولم يفكر يوما فى رد الشتيمة لصاحبها، لأنه يعتقد أن «الشتيمة تعاقب نفسها».

يقول نزار: كلما سمعت شاعرا يشتم شاعرا غمرنى الأسى وتساءلت: ترى ألا تتسع الأرض كلها لركض حصانين؟ أنا لا أتصور أن شاعرا يمكن أن يأخذ من سواه شيئا.

فالدروب كثيرة، وميدان السبق مفتوح لكل الخيول المتسابقة، ولن تربح فى النهاية سوى المواهبة».

أين نحن من هذه الرحابة فى الفكر، وهذا الاتساع في الأفق والإحساس؟

في كتابه النثر «قصتى مع الشعر» والذى لا يقل شاعرية عن شعره، يحكى لنا «نزار» عن «نزار» الطفل، والمراهق، والرجل المحب العاشق، والإنسان الغاضب الوطنى الثائر.

يأخذنا فى رحلة ممتعة إلى أسرار قلبه، وعقله، وهواجسه، وأحزانه، وأفراحه. الجميل في هذه الرحلة، أنها قدر ما تكشف أسرار «نزار» ونواحي ضعفه، وقوته تكشف لنا في الوقت ذاته، عن أسرارنا نحن، ونواحي ضعفنا، وقوتنا. كتب «نزار» في مقدمة هذا الكتاب: «سيكون هذا الكتاب نوعا من السيرة الذاتية، والسيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة، في تاريخ أدبنا الأديب العربى لا يحب السفر فى داخل نفسه، ولا يحب استعمال المرايا، حديث النفس للنفس فى بلادنا مكروه، نحن لا نفهم المونولوج الداخلى، ونعتبره نوعا من الغرور والنرجسية، الشاعر العربى يبقي صامتا بانتظار حفلة تأبينه، فحفلات التأبين هى المناسبة الذهبية التى يجلس فيها النقاد علي قبر الشاعر كى يلعبوا الورق، وأنا طبعا لن أسمح لأحد بأن يلعب الورق على قبرى، لأنى أريد أن اشترك فى اللعبة».

ماذا أكتب عنك يا «نزار» بعد عام من الرحيل؟ لا شيء إلا أن أقول، هنيئا للموت بك.

مى زيادة . .
نداء الكتابة لا نداء الرجل

منذ أن تعرفت عليها، أدركت مدى التشابه بينى وبينها، لعنة الكتابة، مصادقة الوحدة، العشق المحال، والنهاية سرير فى مستشفى للأمراض العقلية.

إنها النهاية الطبيعية المنطقية لامرأة تعيش فى مجتمع صنعه الرجال، وتعشق الكلمة أكثر من أى رجل، إنها النهاية الطبيعية المنطقية لامرأة كان قلمها هو رجلها المثالى به تأتنس ومعه تنتشى، وتحلق فوق قيود الزمان والمكان إنها الأديبة شامخة الكلمة، متفردة التناقضات، عصية القلب، مى زيادة، التى مرت منذ أيام قليلة ذكرى ميلادها. تسقط دائما مى من ذاكرتنا، رغم أنها زهرة برية من زهرات الأدب العربى، وزهو النساء العربيات.

تسقط دائما مى من ذاكرتنا سواء فى تاريخ مولدها، أو تاريخ رحيلها.

وأين تذهب مى زيادة فى عالم تشغله أخبار عاشقات رؤساء الدول وأخبار طلاق راقصة درجة عاشرة وأخبار السعال لممثلة ناشئة، والصور العارية لسقط المتاع من الفنانات والمطربات وأعياد الميلاد، وأفراح أولاد الناس المهمين، وبنات الذوات؟ أين تذهب مى زيادة فى عالمنا هذا؟ وهى التى عاشت وماتت دون فضيحة واحدة مع حاكم أو رئيس أو لاعب كرة

ولم تتزوج وتطلق عشرات المرات جذبا للشهرة، ولم نعثر لها على صورة واحدة وهى تقف ملوية الجسد، أو مكشوفة الصدر، أو وهى تطعم كلبا من كلابها التى تقوم بتربيتها فى وقت الفراغ.. أو وهى تتفسح مع صديق نفطى الثروة على أحد اليخوت.

أين تذهب مى زيادة وقد كان شغلها الشاغل هو بناء صرح من الكلمات، وليس بناء فندق سياحى، أو شاليه فى الساحل الشمالى أو سوبر ماركت متعدد الطوابق؟ أو بناء قائمة من العشاق المهرولين؟

من يتذكر مى زيادة؟ امرأة أرادت أن تغير العالم بالشعر والأدب، تغيير العالم؟ وشعر وأدب؟ كلام لا معقول فى عالم أصبحت فيه كلمة «التغيير» كلمة مشبوهة سيئة السمعة وموضة قديمة.

لأن تكون مى زيادة امرأة مفكرة وشاعرة وأديبة وثائرة فهذا فى حد ذاته أمر لا يفهمه الرجال، وإذا فهموه لا يستحسنونه ويفضلون عليه أخبارا وحوادث ومواقف تاريخية تتماشى مع الفكر الرجولى السائد المستقر ، وإذا أضيف إلى هذا أن مى زيادة لم تكن فى حماية رجل له نفوذ رسمى سواء بالمعرفة أو الزواج، فإن التاريخ الرسمى يلفظها أو لنقل أنه لا ينصفها ولا يسلط الضوء الكافى على إنجازاتها وكتاباتها.

والشىء الجدير بالتوقف أيضا أن ذاكرة التاريخ لا تهوى «الكاتبات» و«الأديبات» و«المفكرات» وتعشق بدلا منهن الممثلات والراقصات، والمطربات، نحن هنا لا نقلل من فن التمثيل أو الرقص أو الطرب . فكل

فن له احترامه وإبداعه، لكننا نشير إلى الخلل، وإلى عدم التوازن فى توزيع الاهتمام والتقدير.

لقد انتحرت الكاتبة والأديبة المصرية أروى صالح ألقت بنفسها من الطابق العاشر يأسا من الحياة، ومن مصير الكتابة وأمزجة النقاد، وتجار دور النشر وذكورية الرجال، ولم يلق الخبر أى اهتمام يذكر. لو أن راقصة أو ممثلة سينمائية هى التى قتلت نفسها.. لاهتزت الدنيا، أما فصيلة النساء اللاتى قدر عليهن الكتابة، والفكر فلسن من أولويات اهتمام العالم، وتجىء أخبارهن وذكر أعمالهن (إن حدث ذلك) فى ذيل أخبار الممثلات والراقصات وذلك سواء فى حياتهن أو فى مماتهن، هناك عداء مستتر بين المجتمع الذكورى والمرأة الكاتبة الأديبة.

قد يعترف المجتمع الذكورى بالمرأة فى عالم الكتابة، لكنه اعتراف للمرأة التى تكتب عن كيفية المحافظة على الرموش ونعومة البشرة وراحة الزوج ولمعان الاثاث وانطفاء الكرامة.

أما المرأة التى تكتب عن الظلم الاجتماعى والتفرقة بين البشر وضرورة إعادة صياغة العالم بالعدل والخير والحرية وتجعل قلمها مرادفا للمعارك، والسباحة ضد التيار، وفضح التناقضات الاجتماعية، والأخلاقية التى نتوارثها مثلما نتوارث لون العيون أو قصر القامة، فهى فى عرف المجتمع الذكورى «امرأة شاذة» و«قلم متطرف» والنتيجة تكون ضرورة تهميشها، وتشويه صورتها والتعتيم على كتاباتها وأفكارها ومواقفها.

مى زيـادة مـن هـذا النـوع، الشـاذ، فـى عـرف مجتمعـات الذكـورة، والتفرقة . فلماذا يتذكرها المجتمع الـذى هاجمتـه فـى كتاباتـها؟ وكيـف يحتفي بذكراها عالم وهبت قلمها لكشف عوراته الفكرية؟

كان لمى صالونها الثقافي والفنى كل ثلاثاء . واستطاعت مى بموهبتها وثقافتها وحيائها الرفيع ، أن تلف حولها في هذا الصالون الأسبوعى ألمع الشخصيات في عصرها سواء في مجال الفن أو العلم.

أدركت مى بحسها الفطرى أنها محبوبة ومرغوبة من ألمع وأشهر وأهم رجال عصرها.

لم يعترها الشك فى صدق عاطفتهم أو فى تقديرهـم لموهبتـها الأدبيـة ، لكنها لمحت بذكائها الجزء الذكورى داخل كل منهم . أدركت مى أنـها لـو استسلمت للحـب ، أو الـزواج فعليـها أن تضحـى برسـالتها الأدبيـة والفكرية ، هم رجال أدباء وشعراء ومفكرون ومتفلسفون ولكن هنـاك جـزءا بداخل كل منهم لو امتلكها بالعاطفة أو بالزواج فسوف يظهر على حقيقته ويعاملها معاملة الذكر الأعلى للأنثى الأدنى.

عاشت مى وماتت وكل نصيبها من الرجـال كلمـات إعجـاب عـابرة، وقصائد غزل ورسائل حب على الورق ونظرات أشواق فى العيون.

كم امرأة أديبة في العالم تكتفى بهذا ، لتهب حياتها وشـبابها لمتعـة الكتابة وسحر عناق القلم؟

كم أديبة فى العالم تفضل نداء الكتابة على نداء رجل ؟ كم أديبة فـى العالم تفضل عناق الصفحة البيضـاء على عنـاق حبيـب؟ كـم أديبـة فـى العالم تغفو مطمئنـة النفس سعيدة الجسد بين أحضان قصـة أو قصيـدة ، لا أحضان رجل عاشق أو زوج؟

كتب أخرى للمؤلفة

١ - أجمل يوم اختلفنا فيه - مجموعة قصص - دار نشر مدبولى - ١٩٨٧

٢ - رجل جديد فى الأفق - مقالات - دار نشر تضامن المرأة العربية - ١٩٨٨

٣ - بدون أوراق - مجموعة قصص - دار نشر مدبولى ١٩٩٠

٤ - هاتف الصباح - خواطر - ١٩٩١

٥ - البحر بيننا - مجموعة قصص - دار نشر سعاد الصباح - ١٩٩٣

٦ - الحب مع مغامر مرتبك - مجموعة قصص - هيئة الكتاب - ١٩٩٩

المحتويات

رؤى فكرية عامة

عن الدين والحياة

عن الحب

عن معنى الرجولة

عن المرأة

عن الفن والأدب

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا

- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

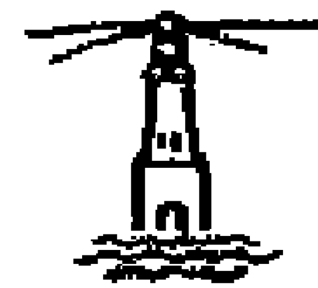
رقم الإيداع	١٩٩٩/١٧٠٢٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5953-5

١/٩٩/٨٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

إن هذا العالم القائم على التفرقة بين الجنسين وبين البشر وبين الدول ، عالم قلة تملك المال والسلطة والنفوذ والمعرفة مقابل أغلبية لا تملك شيئا . عالم تسيره علاقات بين طرف أعلى وطرف أدنى . عالم الإنسان المتصارع مع أجزائه . هو عالم بائس ، عدوانى فى تناقض جوهرى مع العدالة والحرية . وبدون عدالة وبدون حرية يستحيل الحب الحقيقى .

وفى عالمنا المعاصر حيث السوق الكبير لتسويق السلع والبشر والمشاعر فإن الحب الحقيقى استثناء .



دار المعارف

٤٠٧٠٧٢/٠١



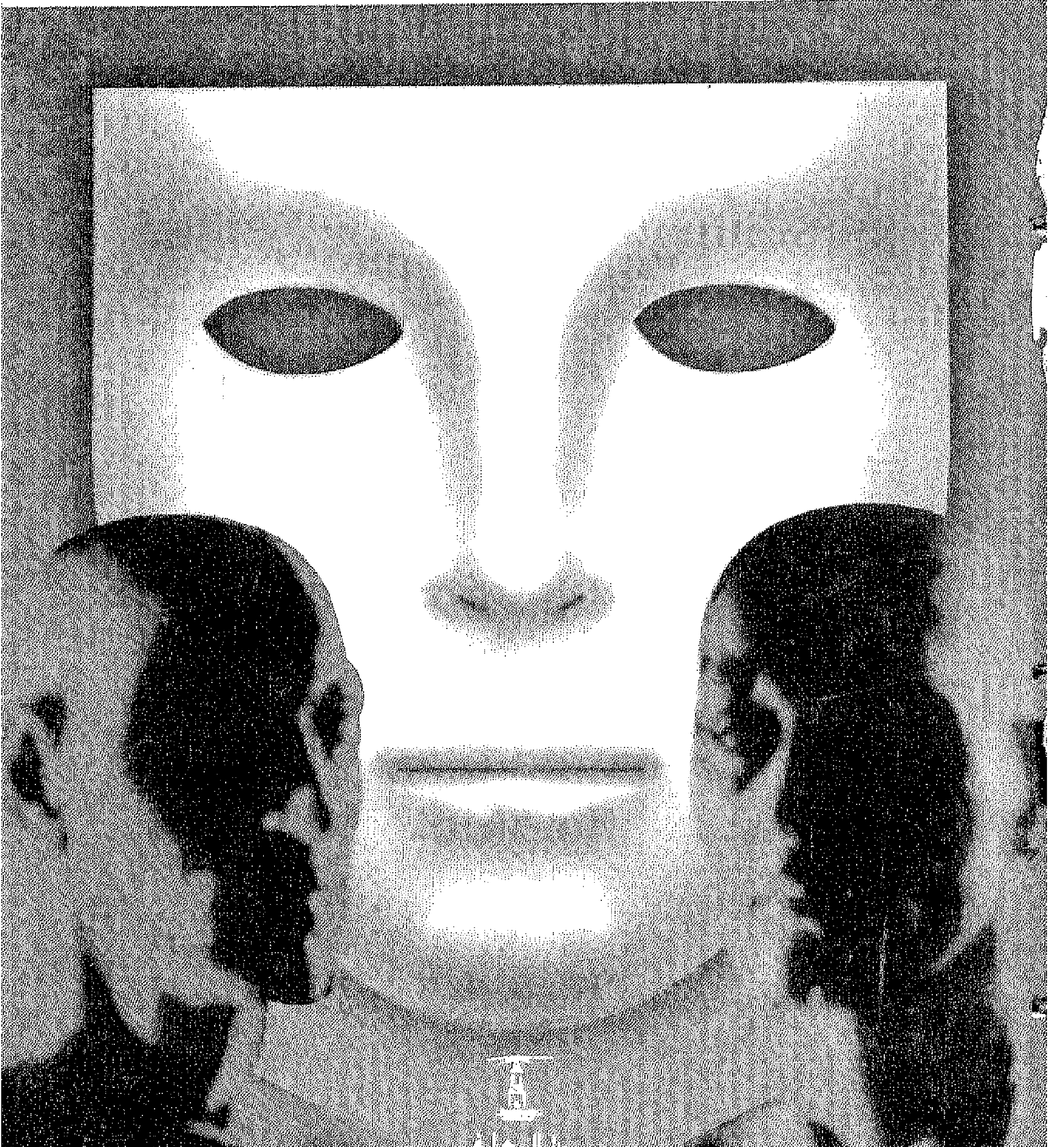
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور ميلاد حنا

المثقف العربي .. والآخر

بين الرفض .. والقبول واللامبالاه



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٥٠]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المثقف العربى .. والآخر

بين الرفض والقبول واللامبالاة

ثلاث رؤى فى كتاب واحد

- د. ميلاد حنا : نظريـة قبـول الآخر
- محمد صادق الحسينى : نقد النظرية
- الصـادق المهـدى : نداء المهتدين



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

مقدمة

يندر أن يغامر كاتب بأن يربط مؤلفه بتواريخ معينة . فالكِتاب – فى الأغلب الأعم – يعيش سنوات – وربما أحقاب – بينما الأيام والأحداث تتوارى سريعا مع تدفق الزمن .

ذلك أننى عقب عودتى من مهرجان القُرين السادس والذى عقده – فى دولة الكويت – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (فى الفترة بين ٣٠ أكتوبر – ١٨ نوفمبر ١٩٩٩) وجدت وسائل الإعلام – صحافة وتليفزيون – محلى وعالمي – تشير إلى احتفال رموز وقيادات العالم بسقوط حائط برلين، وحضر هذا الاحتفال – من بقوا على قيد الحياة – من القيادات الفاعلة التى ساهمت فى سقوط هذا الحائط، وكانت المناسبة هى مرور عشر سنوات على هدمه، وفي مقدمة من حضر الاحتفال فى برلين الرئيس جورج بوش، والذى كان امتدادا للرئيس ريجان والذى بدأ مشروع (غزو الفضاء)، فقام الاتحاد السوفيتى بمشاريع مماثلة جعلته، يلهث اقتصاديا وفنيا إلى أن تفكك، كما حضر الاجتماع الشخصية المحيرة ميخائيل جورباتشوف، والذى كان آخر رئيس للاتحاد السوفيتى والسكرتير العام للحزب الشيوعى لهذا الاتحاد الذى تفكك كقطع الحجارة عندما تتحلل المادة الأسمنتية الرابطة لها ، وكان مقدم جورباتشوف للحكم بشعبية عالمية منقطعة النظير، عندما أطلق

شعاراته بعبارات روسية صارت مشهورة وقتها فـي كـل العـالم ولا زالـت عالقـة فـي وجدانـي وهـي جلاسنوسـت أي الشـفافية والمصارحـة ثـم البروسترويكا وتعني الهدم بهدف إعادة البناء، وتوقع كثيرون أن ما أطلق من شعارات سيكون مقرونًا بسياسات تحقـق هـذه الشعارات، إذ بعمليـة الهدم تتم. ولكن قبل أن يعاد البناء فقـد البنـاء التـوازن وتفكـك الاتحـاد وعـادت إلى كيانـات مستقلة، ومـا تبقـى سُـمى روسـيا الاتحاديـة أو الكومنولث (وتعني الثروة المشتركة) وحتى هذا الكيان أصابه التصدع فصار هذا الحدث البسيط وهو هدم حائط برلين وكأنه أكبر زلـزال سياسـى فـى القرن العشرين.

وأدى كل ذلك إلى عالم مختلف يعج بالصراعـات الداخليـة والحـروب الأهلية بين دول متجاورة في مواقع كثـيرة مـن العـالم وهـو موضـوع هـذا الكتاب.

وفي هذا الاحتفال بذكرى سـقوط حـائط برلـين، كـان ضيـف الشـرف الثالث والأهم هو المستشار كول، صاحب قرار توحيد ألمانيـا الغربيـة مـع الشرقية وجني ثمـار مـا قـام بـه (بخبـث أو ذكـاء) جـورج بـوش، وكـل أجهزته الظـاهرة والخفيـة ومـا قـام بـه بسـذاجة أو سـوء حـظ ميخـائيل جورباتشوف الذى بزغ مثل الشهب البراقة عبر الثمانينات ثم هوى سريعا مثل الشهب عندما تحترق وهي تدخل الغلاف الأرضي.

فسقوط حائط برلـين عـام ١٩٨٩ كـان إذن نقطـة تحـول فـي النصـف الثاني من القرن العشرين، فقد انتهت الحرب الباردة، وبدأ حفل إلبـاس

الولايات المتحدة الأمريكية عبـاءة القطب الأول والرئيســى فـى سياسـات العالم وتبع ذلك ظهور حواريين يحملون لقب المفكرين والمبدعين ينظـرون ويدعون لمفاهيم جديدة تبرر كراهية الآخر بإثارة عـداوات قديمـة وجـروح تاريخية كانت قد اندملت منذ قرون .

ومن عجب أن يكون لبعض منهم تعليقاته على واقعـة سـقوط برلـين . فقال أهمهم فرانسيس فوكوياما المفكر الأمريكى المعروف : «انتهى التاريخ ولم يعـد أمـام الإنسـان ســوى أن يضجـر .. لأن لا أفـق أمامـه . إلا الديمقراطية السياسية والليبرالية الاقتصادية . فكل نظـام آخـر مصـيره الانهيار» .

وقال آخـر : «لقـد سـقط جـدار ، فتوحـدت مدينـة توطئـه لأن يعـاد شطرى ألمانيـا مرة أخـرى بعـد مـا يزيـد علـى ٤٠ عامـا ، ممـا مـهد لأن تلعب ألمانيا دورا أكـبر فـى توحيـد أوروبـا» وكـان لسـقوط حـائط برلـين تداعيات أخرى كثيرة نقلت العالم كله إلى مرحلة جديدة أسموها بالنظـام العالمى الجديد ولكن الجديد فيه أنه مملوء بالآلام والدم من خلال نزعات الكراهية ، حتى تصورنـا أن الحـرب البـاردة كـانت غطـاء وهميـا ، فلمـا انقشع الغطاء ظهرت الثعابين والأفـاعى الكامنـة ومعـها انفتحـت جـروح قديمة تثير معها كراهية الآخـر ، بسـبب اختـلاف العـرق أى السـلالة أو الدين أو المذهب وهى أمـور كنـا واهمـين عندمـا تصورنـا أن الصـراع بـين الشيوعية والرأسمالية قد أخفى أو أنهى الصراعات المختلفة السابقة لها ، فظهرت تواريخ الحـروب الصليبية ، وغزو العرب لأسبانيا ثم اسـتردادها .

وظهر تاريخ التتار والعثمانيين وسقوط القسطنطينية وفينا وكلها تواريخ قديمة سجلتها كتب صفراء لتدنس قلوب بيضاء. !

ثم تصادف في ذات يوم الاحتفال بسقوط حائط برلين ومرور عشر سنوات على هذا الحدث الجلل الذى أدى إلى خلل، أن نشرت صحيفة «الحياة اللندنية» صباح الاثنين ٨ نوفمبر عام ١٩٩٩ خبر زيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثانى - بابا روما - مدينة بتليسى عاصمة جمهورية جورجيا حيث رئيس الجمهورية هو إدوارد شيفر نادزه، وكلاهما من الرؤوس التى خططت - على نار هادئة - شكل النظام العالمى الجديد الذى نعيشه، ومن المفارقات أن قيادات الكنيسة الأرثوزكسية فى جورجيا أصبحت مناهضة للزيارة، فقد نظم بعض كهنة هذه الكنيسة صلاة قبل وصول بابا الفاتيكان للاحتجاج على مشروع القداس الاحتفالى الذى سيقيمه البابا بمشاركة الكاثوليكون إيليا فى أحد ساحات وسط تبليسى وقال الأب الكسندر بولكفازده : «أننا هنا لحماية البلاد من الخطر الكاثوليكية» .

* * *

وإذا كانت هذه هى مقدمة أو استهلال لمقدمة هذا الكتاب والظرف اللحظى لنشره، فإن محتوى الكتاب هو أحد ثمار الندوة الثقافية لمهرجان القرين بالكويت كما ذكر سابقا إذ كان الموضوع الكلى للندوة هو «الثقافة وقضايا الحياة العربية المعاصرة» حيث قسم إلى عدة محاور، كان لكل محور ورقة رئيسية قدمها باحث عربى معروف ثم مع كل ورقة كان تعقيب أو تعليق أو نقد مقدم كتابه من باحث عربى آخر .

في هذا الإطار الكلى ، كُلفت بأن أعد دراسة حول قضية المثقف العربى والآخر: قبول أم رفض أم لا مبالاة؟ وجاء حجم الدراسة أكبرمن المعتاد حيث قسمت الورقة إلى قسمين : الأول يقدم ما يمكن أن يطلق عليه عبارة «نظرة قبول الآخر» وقد أطلقت عليها توصيف أنها مقبولة أى مستساغة ويمكن أن يقتنع بها أى إنسان منصف غير متعصب مسبقا، وهذا هو سر أن قبلها الناس فى إطار عام ١٩٩٩، ولكننى أتمنى أن يزداد اقتناع الناس بها خلال عام ٢٠٠٠ فقد أعلنت اليونسكو أنه سيكون عام الحوار بين الحضارات .

غير أن الواقع المعاش يؤكد أن لكل منا كراهيته لآخر، ليس كأفراد ولكن كجماعات، وهى ظاهرة إنسانية واسعة الانتشار ولذا حاولنا أن نفسر لماذا يكره الناس بعضهم بعضها ثم نستطرد لنشرح أن لكل مجموعة بشرية «خصوصيتها الثقافية»، ويتم تشكيل وجدانها الجماعى من خلال آليات هى (الأسمنت) الثقافى وهو توجه إيجابى لا بأس به، ولكن الأزمة تبدأ عندما تبث (الكراهية) كجزء من استثارة الجماعة لزيادة تماسكها الداخلى وهنا مكمن الخطر وبداية لتداعيات قد توصل إلى حرب أهلية كما كان فى لبنان وكما لا زال قائما فى السودان .

أما الجزء الثانى من الورقة فهو فحص قضية (الآخر) بالنسبة للمثقف العربى، وهى تصنيفات كثيرة، توصلنا لأنه من الممكن بل من الواجب أن يكون له قبول فى حالات، كما يبرز الواقع أن هناك آخر يكون مرفوض، كما أن هناك آخر لا علاقة به ومن ثم حالة (اللامبالاة) . غير أن كل هذه الحالات أى الرفض والقبول واللامبالاة فى حالة حركة مستمرة وتتغير بتغير الظروف السياسية والمجتمعية والإقليمية والعالمية .

ثم يجيء ما هو أهم من الورقة المقدمة منى، هو تعقيب الأستاذ محمد صادق الحسيني، ولم أرَه - وحتى لم أر تعقيبه - إلا عندما ذهبت بالفعل إلى الكويت، ثم حضرت جلسات الندوة ، وإذ بى أسعد أولا بقراءة التعليق الذى كتبه عندما قرأته في المساء ثم أسعدت بالشخص والإنسان والمفكر عندما رأيته في اليوم التالى، فعرفت أنه من أصل عراقى ومن ثم يتحدث العربية مثلنا تماما وقد ولد فى النجف وارتبط بالفكر الشيعى منذ نشأته ثم جدت ظروف جعلته يهاجر إلى إيران وظل يرتقى فى السلم الإعلامى الثقافى الشيعى كجزء من الثورة الإسلامية، حتى صار من لحمتها المستنيرة كمستشار لشئون الإعلام لوزير الثقافة الإيرانى وهو فى ذات الوقت أى وزير الثقافة الذى حل مكان الرئيس خاتمى هو الناطق الرسمى باسم حكومة الرئيس محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومن ثم فإن لتعقيبه نكهة ومذاقا خاصا بل وأهمية فكرية، لأنه نقد موضوعى من رجل ومثقف له رؤية ومدعم بكل النصوص والتراث الذى يؤيد وينقد نظرية قبول الآخر.

فى هذا الإطار وجدت من المناسب أن أضيف إلى مجمل الكتاب دراسة كان قد قدمها لى الأخ والصديق السيد/ الصادق المهدى وهو شخصية ثقافية وفكرية مرموقة، ليس لأنه كان رئيس وزراء السودان المنتخب عام ١٩٨٦، وليس لأنه رئيس حزب الأمة السودانى، ولكن لأنه يحمل لقب (صاحب العهد مع أنصار الله) وأنصار الله هم رجال حزب الأنصار أى المهدية ، ومن ثم فإن لرؤيته اعتبارا خاصا لذوى الرؤى فى الفكر والثقافة الإسلامية . وسيكون لنشر هذا النداء فى الظروف الحالية التى تمر بها السودان أهمية خاصة، لأنها تعنى انتقال الفكر المسيطر من توجه أصولى

للآخر إلى توجه آخر قابل للآخر ومن ثم فقد يكون بداية رائعة لنداء سحرى لحل مشاكل السودان المعقدة، وقد ينقذها من التفكك والانقسام أو التقسيم فى لحظة أخيرة حاسمة ..!

* * *

نشر المفكر الأمريكى صموئيل هانتجتون رؤيته أو نظريته التى تتنبأ أن الحقبة الحالية والمعاصرة والقادمة هى مرحلة (صدام الحضارات) ففى صفحة ٣٤٣ من الترجمة العربية جاء ما نصه : «فى عام ١٩٩١ كان بارن بوران يرى عدة أسباب لنشوب حرب مجتمعية باردة بين الغرب والإسلام تقف فيها أوروبا على خط المواجهة . هذا تطور له علاقة بالخصومة التاريخية بين المسيحية والإسلام» .

لقد نشرت النظرية فى أول الأمر فى مجلة فورن أفيرز فى صيف عام ١٩٩٣ ثم صدرت فى شكل مجلد تفصيلى عام ١٩٩٦ وترجم إلى العربية عام ١٩٩٨ بعنوان (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى)، أقول، منذ أن قرأت هذه النظرية - ربما خلال عام ١٩٩٤ - عكفت على كتابة وجهة نظر بديلة نشرت عام ١٩٩٨ فى كتاب باسم (قبول الآخر) وقد وجد الكتاب قبولا واسعا بين المصريين، مما ساعد على دعم التآخى الوطنى الداخلى، لذلك فكرت فى أن أعالج القضية الأكبر وهى الكراهية المتبادلة بين الغرب والإسلام والتى تبدو تجلياتها واضحة فى أحداث متتالية وفي مواقع كثيرة، لذلك رحبت بنشر هذا الكتاب فى سلسلة اقرأ بهذه المنظومة التى تتكون من ثلاث دراسات - كما سبق الإشارة - لعل فى ذلك ما يخدم نزع فتيل الكراهية بين الغرب والإسلام .

أيها القارئ الكريم

إن الكراهية التي توصل الإنسان إلى القتل والإرهاب تبدأ فكرا، ومن هنا كانت أهمية التوجه الثقافي والحوار بين البشر المنتمين إلى ثقافات وحضارات ورؤى مختلفة، لأن أحدا منا - وكما ذكرت في نظرية قبول الآخر - لم يختار لون بشرته أو ديانته أو مذهبه، وها نحن - كتّاب هذه الأوراق والدراسات المختلفة - قد عبرنا عن بعضا من وجه نظرنا، وستكتشف من خلالها أيها القارئ الكريم - أننا - نحن الثلاثة - لسنا متطابقين في وجهات النظر، ولكننا قابلين لبعضنا البعض، ومن ثم نتحاور ونعرض رؤيتنا أمامكم صريحة شفافة.

لك الحق في أن تختلف مع أي منا أو معنا كلنا ولكن الحوار هو السبيل إلى معرفة الآخر، وفهمه، لعلنا بكل ذلك نقلل من معاناة البشر في الحروب الأهلية، فيحيا جيل قادم قابل للآخر بالفطرة، فيكون هذا الجيل القادم بالفعل هو بداية لغد أكثر إشراقا وهو الشعار الذى أكتب تحته كل مقالاتي وكتبي.

وعلى الله قصد السبيل

ميلاد حنا

القاهرة في ١٢ ديسمبر ١٩٩٩



الجــزء الأول

«قبول الآخر»

د . ميلاد حنا

نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وتقوضها الانتماءات الموروثة

- قبول الآخر نظرية منطقية يقبلها الإنسان المنصف
- الانتماءات الموروثة والمكتسبة هى سبب تقويض النظرية
- الخصوصيات الثقافية .. مقهورة وغالبا مكبوتة
- تشكيل الوجدان .. قرار سياسى فى حاجة إلى تخطيط
- من ثقافة «التلقين» إلى ثقافة «الحوار»
- المثقف العربى أنواع وأشكال ومجموعات

«قبول الآخر»

نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وتقوضها الانتماءات الموروثة

١ - «قبول الآخـر» نظريـة بديهيـة منطقيـة يقبلـها الإنسـان المنصف

يولد الإنسان – أى إنسان – دون رغبة من ذاته أو تخطيط بما سيؤول إليه حاله كما أنه لا يتنبأ بمسار حياته أو رحيله، وعلى سبيل المثال:

■ يولد المرء أسمر أو أبيض أو أسود، أى يكون لون بشرته معبرا عن سلالته أو عرقه مما يعنى ضمنيا أن الانتماء «الإثنى» ليس للإنسان فضل فيه، ورغم هذه البديهية فإن الصراع بين الأعراق والسلالات قضية تعيشها البشرية منذ آلاف السنين، بدأت بعصور «الرق» إلى عصر الفاشية الأوروبى فى الثلاثينيات من القرن العشرين وصولا إلى عصر «التطهير العرقى» فى نهاية القرن.

■ قد يولد الطفل ذكرًا أو أنثى، وخلال رحلة الحياة تكتشف المرأة أنها الجنس «الأضعف»، فتتجمع فى حركات «تحرير النساء» لأن الرجل قد اكتسب حقوقًا بسبب ما تصوره قوته البدنية والعقلية، وتناضل المرأة منذ أحقاب لكى تحصل على حقوق متساوية مع احتفاظها بميزات

الإعفاء من الأعمال الشاقة بما فيها عدم المشاركة في الجندية ومن ثم الحروب.

■ قد يولد المرء في وطن يعطيه مميزات، ويصبح - على سبيل المثال - حاملاً لجواز سفر يفتح له الأبواب الموصدة لمعظم دول العالم، وقد يولد آخر في معسكر لاجئين، فلا يحصل على جواز سفر أصلاً، ويمنح «تصريح مرور» من الأمم المتحدة، لذلك يشعر الأول أن من حقه التعالى على الآخرين، ويكافح الثانى ليحصل على أى جنسية.

■ حتى اسم الإنسان - وقد صار جزءًا من ذاته مع الزمن - لم يختره بل وجد اسمه مقرونا به وعليه أن يقبله - قد يكون الاسم خفيفا لطيفا يسهل حفظه. فيكون ممهدا له طريق التعرف على الآخر أو مركبا لا يجد قبولا لدى سامعه. فيلمس امتعاعا مخفيا لمن أسمه لأول مرة.

وهذه مجرد أمثلة قليلة لعشرات من الأمور التى ليس للإنسان فضل فى التمتع بها أو يتحمل القهر بسببها.

إن قبول الإنسان لذاته هو الخطوة الأولى لقبوله للآخرين، والإنسان الرافض لذاته، من الطبيعى أن يفتش عن أسباب تبرر له كراهيته للآخرين دون أن يعى أن الأمر فى حاجة لأن يراجع ذاته ويصحح نفسه من الداخل .

ويطول الشرح لو عددنا التباينات بين البشر فى مجال الفقر أو الذكاء أو الحقبة الزمنية التى يعيشها، أو الدين الذى ينتمى إليه وغيرها كثير وليس له خيار فى حظ أو تعثر في أن ولد هكذا.

ومن هذا المنطق فالأصل أن يكون الإنسان قابلا للآخر ولكن الواقع المعاش هو أن الإنسان يجد نفسه متخذًا لموقف ما، مع أو ضد الآخر، لأسباب يبدو وكأنه مَسوق إليها بواسطة قوى ثقافية أو مفاهيم يصنعها المجتمع المحلى أو الإقليمي أو العالمى، ومن ثم كانت قضية الرفض والقبول فى حاجة إلى تحليل وفهم بالنسبة للإنسان - أى إنسان - وبعدها يمكن أن يعالج الأمر بالنسبة للمثقف بشكل عام ثم المثقف العربى بوجه الخصوص وهو موضوع هذه الورقة.

٢ - الانتماءات الموروثة والمكتسبة هي سبب تقويض النظرية

الإنسان كائن مجتمعى، رافض لأن يعيش فى عزلة بمفرده، وقديما قالوا: «جنة من غير ناس ما تنداس»، فالمرء بذويه، والرجل بعشيرته والمثقف بمريديه، ومن ثم تتكون لدى الإنسان انتماءات متعددة خلال رحلة الحياة، فيكون الانتماء - أول الأمر - للأسرة والقبيلة أو المحافظة ثم الدولة، أى للوطن الذى ولد فيه دون أن يختاره ثم ينتمى إلى دين وربما لمذهب داخل الدين، وكل هذه الانتماءات أمثلة لانتماءات «موروثة»، وهى التى تكون «الأسمنت» أو المواد اللاصقة التى تربط حبيبات منفصلة (وهى البشر) لتكون منها كيانا متماسكا، فيتحول من حبيبات رمل أو حصى أو زلط متفرقة إلى كتلة من الخرسانة المتماسكة وأستأذن القارئ فى هذا التشبيه بحكم عملى فى مجال الهندسة الإنشائية لما يزيد على نصف قرن.

وخلال رحلة الحياة تتكون انتماءات أخرى «مكتسبة»، مثل الانتماء إلى مهنة تؤهل لعضوية نقابة أو جماعة ثم إلى أيديولوجية تؤهله للانتماء

إلى حزب سياسى، وتتمدد الانتمــاءات وتتسـع لتغطـى أنشـطة وهوايـات كالموسيقى والمسرح وما إليها وكذلك الرياضة على أنواعها فيشبع الإنســان ميوله الذهنية أو هواياته مع أقرانه المهتمين بذات اللون من أوجه النشـاط الإنسانى فى مجال الفنون والآداب والسياسة والديـن، ويتمثـل ذلـك فـى تكوين الروابط والجمعيات الأهلية التطوعية والنقابات والأحزاب السياسية وما إليها.

وقد يكون الانتماء إلى طبقة اجتماعية أو اقتصادية فيعطيه ذلك عضوية نادى رجال الأعمال، بتفوقه على «الآخر»، الأقل ثراء.

وهكذا فإن أى مجتمع إنسانى داخل قطر أو دولة أو اتحـاد بـين دول يتكون من مجموعات أصغر، كل منها يلتف حـول انتمـاء معـين: انتمـاء جغرافى، ويسمونه انتماء «جهويا»، فى إقليـم أو ولايـة (شمـالا وجنوبـا كما فى حالة السودان)، أو انتماء عرقى يفرق بين سلالات لها وجود فى إقليم واحد، نتيجة هجرات حديثة أو تاريخية، فتتكـون جماعـات لكـل منها خصوصيتها الثقافية فى اللغة أو العرق (كمـا فـى حالـة البربر فـى شمال أفريقيا أو الأكراد فى تركيا والعراق)، أو على أساس دينى (كما فى حالة الموارنة والشيعة والسنة فى لبنان)، أو على أساس مذهبى (كما فــى حالة الكاثوليك في إيرلندا أو الشيعة في العراق وغيرها كثير).

وفى معظم هذه الحالات التى تعم العالم العربى – كما تعم كــل العـالم بدرجـة أو بـأخرى – يكـون لكـل منـها ظروفـها التاريخيــة التــى أدت أو تـؤدى إلى كراهيـة «الآخـر» ورفضـه، وقـد تكـون الدولـة أو الإقليــم متحضرا، ومر بأحداث تاريخية ولدت «الانصهار» أو التآخى أو المعايشة

وكلها أنواع من قبول «الآخر» أو قبول «الآخرين»، فتعيش فى وئام مؤقت، كما فى حالات الجاليات العربية فى أوروبا وأمريكا اللاتينية فتحصل على الجنسية، ولكن الانصهار التام موضع خلاف يتحسن أو يسوء من جيل إلى آخر وفق المتغيرات الثقافية والسياسية والنضالية.

٣ - الخصوصيات الثقافية مقهورة وغالبا مكبوتة

فى إطار الوطن الواحد، توجد - فى الأغلب الأعم - تجمعات بشرية (قد تسمى «أقليات» عرقية أو دينية أو مذهبية أو ثقافية) تتوافر لها خصوصية ثقافية ممثلة فى لغة أو دين أو تقاليد موروثة، أى ممارسات ثقافية تجعل لهذه الجماعة أو تلك، شيئا من الاختلاف أو التمايز كما ذكرنا سابقا، وقد يتحول «الاختلاف» Difference إلى «خلاف» Contradiction وقد يتزايد الاختلاف فيولد صداما Conflict، ونتيجة لذلك قد يتحول الصدام إلى صراع Struggle.

وعلى النقيض من ذلك، فإنه إذا كان هناك مناخ ديمقراطى ثقافى قابل لوجود اختلاف، فى إطار منافسه شفافة علنية، وفى إطار أصول مرعية بين أيديولوجيات، أى بين أحزاب سياسية، تكون مقرونة عادة بممارسة تداول السلطة بشكل هادئ وسلمى، فإن «الخصوصيات الثقافية» تصبح مصدر «ثراء» مجتمعى، لأن هذا «القبول بالآخر» يولد «أرضية مشتركة» بين قاطنى هذه الدولة فيتولد الإحساس «بالمواطنة» التى تدعمها قواعد دستورية ومناخ ثقافى عام، ومن ثم فإنه فى الدول التى تمارس الديمقراطية لقرون طويلة، ويكون أساس التعامل فيها هو

الفرص المتكافئة فـى الاحتياجات الأساسية للبشـر، لا يشـعر الزائـر بالخصوصيات الثقافية للمجموعات المسماة بالأقليات أو بـالآخر، بـل ويصل الأمر إلى وجود تشريعات تضمن حقوق المواطنين الذين كـانوا «مهمشين» في الماضى. وعلـى سبيل المثال فإن القوانـين فـى الولايـات المتحدة الأمريكية، تلزم الجامعات بضرورة قبول نسبة معينـة مـن السـود والنساء وبعض الأقليات فى معظم ولاياتها.

أما في بعض دول العالم النامى، فإن المرأة وبعض الأقليات تمنـع مـن ممارسة حقوق تبدو مستقرة في دول أخرى أكثر حضارة.

وقد يتوهم البعض أن طرح قضية «الخصوصيات الثقافية» يعيق «الانصـهار الوطنـى»، مـن منطلـق أنـه يكـرس الفرقـة، أى يؤكـد «الاختلاف»، ولكن النظرة المتعمقة تؤكد أن الاعتراف بالخصوصيات الثقافية يسعد ويريح المجتمعات البشرية التى تشعر بالاغتراب كأقلية فى وسط «أكثرية» فتكون «الوحدة من خلال التنوع» ويتقوى المجتمـع لأنـه يوسع «الأرضية المشتركة» ويؤكد الحقوق المتكافئة، لأنـه يكـاد لا يوجـد شعب أو دولة في العالم الآن من عرق وسلالة واحدة وينتمي شعبها كلـه إلى دين ومذهب واحد. وربما كانت السويد، منذ نحو ربع قرن، نموذجـا فريدا للتجانس، ولكن الحروب المحلية في البلقان واللجوء السياسى مـن يوغسلافيا وتركيا قد كونت واقعا جديدا يحاولون معه خلـق تجـانس مـن نوع جديد.

٤ – تشكيل الوجدان قرار سياسي في حاجة إلى تخطيط

يتم تشكيل الوجدان والمفاهيم فى الحقبة الحالية من خلال آليات تتحكم فيها الدول والحكومات فى إطار موروثات سادت فى أحقاب أو قرون سابقة. ولأن ثورة الاتصالات على أنواعها، أمور حديثة على المجتمع الإنسانى، ولا يتعدى انتشارها الواسع الحالى أكثر من القرن العشرين، لذلك عاشت المجتمعات القديمة فى شكل دول أو قبائل أو كيانات معزولة، ولكنها هادئة ومستقرة، لأنها قد كونت داخلها مجمل العادات والقيم والمفاهيم المتفق عليها نتيجة موروثات جماعية بعضها قبلى أو دينى أو عرقى، وربما كان الهدوء الظاهرى نتيجة قهر هادئ مستمر، ولذلك ظهرت صراعات كان بعضها عنيفا، عندما توافرت الاتصالات والاحتكاكات بين مجتمعات أو حضارات كانت تتمتع بقدر أكبر من الهدوء المبنى على الخمول.

وشاهد القرن العشرون كذلك حركات تحرر وطنى لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل، وتكونت عشرات الدول المستقلة حديثا بحدود ونظم مختلفة، إذ حصلت على الاستقلال بعد صراعات أو نضالات طويلة أو قصيرة وتكونت لها حكومات ونظم ليست بالضرورة مبنية على دساتير ديمقراطية عريقة، ولكنها نتيجة توازنات مجتمعية نضجت خلال سنوات الاستقلال كما فى حالة مصر، وبعدها تحاول الدولة الوليدة أن تفرض من خلال سيطرتها على نظم التعليم والإعلام ودور العبادة مفاهيمها ورؤيتها التى تحقق وتكرس النظم الحاكمة وتتفق مع قيم ومفاهيم المجموعات البشرية الأكثر عددا أو نفوذا فى المجتمع.

فى هذا المناخ، تظهر تكتلات بشرية صغيرة داخل هذا الكيان الجديد على أسس عرقية أو دينية مغايرة لانتماء الأكثرية، وتشعر هذه الأقليات بحقها فى الاحتفاظ بخصوصيتها الثقافية لأن المناخ العام للقيم والمفاهيم التى ترضى الأغلبية لا تلبى بالضرورة احتياجاتها الثقافية. وفى بعض الأحيان يتفق على إعطاء هذه المجموعات حق تأكيد وجودها بالمحافظة على خصوصيتها الثقافية، فيتولد مناخ الرضا من خلال قبول «الآخر»، وينمو المجتمع دون صدام، بل تتحول الخصوصيات الثقافية إلى ثراء ينمو مع الزمن ويدعم الديمقراطية لأنها - أى الديمقراطية - فى التحليل النهائى أحد أنماط «قبول الآخر» والحوار أى التنافس من خلال أيديولوجيات مختلفة.

وفى أحيان أخرى - نشاهدها ونعرفها - يتولد مناخ لدى الأكثرية بأن إعطاء الأقليات حقوقا ثقافية «يشرخ» المجتمع ويفكك عرى «الوحدة الوطنية»، فتتجمع الأقلية جغرافيا فى منطقة بذاتها، ومن هنا جاءت عبارة «الجيتو» وتتقوقع الأقلية العرقية أو الدينية، وتلجأ إلى السلبية، محافظة على سلامتها فى الكيان الكبير، وقد يزداد الإحساس بالاغتراب وتتحول السلبية إلى صراع ساخن.

وهكذا يتضح أن قضية تشكيل وصياغة الوجدان والقيم والمفاهيم فى المجتمعات المستقلة حديثا فى حاجة إلى دراسة وتخطيط، ولا ينبغى أن تعالج كقضية محسومة تتوافق مع المزاج العام للنخبة الحاكمة أو بهدف ترضية الأغلبية الفاعلة، خصوصا وأن معظم حكومات الدول النامية مسيطرة على نظم ومناهج التعليم، ومحتكرة لوسائل الإعلام من إذاعة

وتليفزيون وما إليها. ولقد شاهدنا في بعض الدول وفي المراحل الأولى من الاستقلال الوطني وحيث توجد أغلبية من الأمية والتخلف، أن بث الكراهية من خلال وسائل الإعلام يكون هو السبيل الأسهل للمحافظة على الاستقرار السياسي الظاهري للمجتمع. فأحيانا يكون «رفض الآخر» هو الأسمنت المؤقت المصطنع ليزيد التماسك الداخلي، ثم مبررا لتأجيل حدود مساحة الحريات والديمقراطية بسبب وجود عدو وهمي خارجي أو داخلي.

إن الأمان والاستقرار الحقيقي والدائم يكمنان في توفير ثقافة قبول الآخر، لأن الإنسان عدو ما يجهل. وكلما كان المواطن العادى ملما بعادات وتقاليد الآخر، فإن مناخ التآلف والتآخي ينمو شيئا فشيئا، وتنمو الديمقراطية بشكل هادئ وطبيعي.

٥ – من ثقافة «التلقين» إلى ثقافة «الحوار»

وإذا انتقلنا من هذا التعميم الفلسفي والفكرى – وكمقدمة عامة طويلة نسبيا لهذا الجزء من الدراسة – إلى صلب القضية التى تخصنا فى العالم العربى، نجد أننا مازلنا نعيش متأثرين بقرون من التراث مملوءة بثقافة النص والتلقين، فكل المذاهب الدينية – على أنواعها – يقوم على أساس الرجوع إلى نص، ومن ثم فهو ملزم للفكر والتسلسل المنطقى، ونتيجة ذلك فإن مؤسساتنا التعليمية والثقافية – الحكومية والفقهية – تقوم على مبدأ «التلقين». ففى مدارسنا مازلنا نحتفظ بحصة المحفوظات، أى حفظ نصوص من الشعر أو النثر أو غيرها عن ظهر قلب، وغالبا ما يكون ذلك

مقرونا بالشرح وتفسير المعاني، أى بنوع من الاجتهاد وإذا لم يتيسر ذلك فيكتفى بحفظ النص كما هو، وعندما ندعو الطفل إلى قراءة ومراجعة ما حصله من مادة علمية في المدرسة فإننا نسمى هذه العملية بـ «المذاكرة»، أى دعم «الذاكرة» وليس تنشيط عملية التحليل العقلى بآليات منطقية تجعل الذهن قادرا على الإبداع بتنمية الطاقات الخلاقة.

وثقافة «التلقين» لا تقتصر على المدرسة، فهى تبدأ من الأسرة في سنوات عمر الطفل الأولى وتمتد إلى أجهزة الإعلام والصحافة، وكلها أو في مجموعها تكون مناخا ثقافيا لن يتغير من تلقاء ذاته؛ يمكن أن يخطط لتغييره إذا جاء قرار سياسى علوى يوفر آليات الحوار، وعلى سبيل المثال، تعمم «المناظرات» المدرسية ليعى الطالب أن لمعظم قضايا الحياة أكثر من وجهة نظر، وأن المشاكل المعاصرة لم يعد حلها مقصورا على حل أو قرار واحد.

وتدريجيا يصبح الحوار متعة لاكتشاف أن الأمور التى كان مقطوعا بها، أو محسومة في مقولة أو مثل شعبى متوارث في رأى متفق عليه، قد صارت متعددة الأوجه، فتتسع المدارك العقلية، وتتدافع الرغبة في القراءة والاستزادة من المعرفة، وإذ بالأدوات والمفاتيح التى يوفرها التقدم العقلى العلمى من كمبيوتر وإنترنت وغيرها، تقدم المعرفة والمعلومات فيسود التنوير ومعه قبول «الرأى الآخر» ومن ثم الإنسان الآخر، وهذه العملية «Process» تأخذ وقتا ومسارا طويلا متعرجا ينمو مع الأيام ومعها يختفى جيل قديم، كانت رؤيته أحادية قاطعة، ويتقدم الصفوف جيل

أحدث لديه أدوات المعرفة ويعيش عصر المعلوماتية، وغالبا ما يكون هذا الأمر مزيجا من معلومات علمية فيزيائية بحتة أو تطبيقية في مجالات الهندسة والطب والزراعة، تتناغم مع علوم الإنسانيات في مجال الفلسفة والتاريخ والحضارات والاجتماع وما إليها.

٦ - المثقف العربي أنواع وأشكال ومجموعات

لسنا أمام مثقف عربي واحد، فهناك أنماط من المثقف العربي، تتغير وفق كل من الموقع الجغرافي والفكرى الأيديولوجي في الأماكن والدول والأقطار المختلفة، فالمثقف العربي في مصر غيره في السعودية، غيره في المغرب العربي، غيره في بلاد الشام، وأتصور أن التباين والأرضيات المشتركة لهذه الثقافات ستكون بين ثنايا هذه الندوة في مجملها لأنها تناقش كل من :

(أ) إشكالية البنية الثقافية العربية

(ب) القومي والقطري في الثقافة العربية المعاصرة

أما فيما يتعلق بالتوجه الفكرى أو الأيديولوجي، فالمشاهد أن الأحقاب الماضية - ومنذ الناصرية - قد أفرخت تيارات فكرية متباينة عمت العالم العربي عموما، وربما كانت «حالة مصر» معبرة عن التغيرات التي سادت أجواء المثقف العربي.

خلال الحرب العالمية الثانية، انبهر بعض المثقفين المصريين بأيديولويجة «الماركسية - اللينينية» واستبشروا بها خيرا للخروج من نفق

التخلف، وفى الجانب المقابل كانت حركة الإخوان المسلمين - منذ عام ١٩٢٨ - داعية لنهضة وصحوة تعيد «الخلافة الإسلامية» كسبيل للرد على الاستعمار والحضارة الغربية. ومن ظهور شخصية عبد الناصر تبلورت أفكار حزب البعث العربى فى تيار «الناصرية» التى التفت حولها الجماهير العربية كأيديولوجية - أو حوله (ممثلا فى شخص عبد الناصر) وتحولت إلى فكر «القومية العربية» وتصورنا فى النصف الأول من الستينيات أن فى هذا الفكر سوف يجمع الشعوب العربية فى أيديولوجية تناسب ثقافتنا وتناطح أعداءنا ولا تتعارض مع العصر.

أدرك الغرب ذلك - وفى طريقه لأن يحسم معركته فى الحرب الباردة - خطط لأن يخوض معركة عسكرية - وبالتنسيق والتحريض من دولة إسرائيل - فكانت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ضربة قاصمة لأيديولوجية «القومية العربية» وبعدها لم تعد كافية لإبهار وإجماع المثقف العربى، فكان الإفراز الطبيعى للأصولية الدينية والتى نمت من وقتها - وحتى الآن - ثم زاد نفوذها عبر التسعينيات ردا على الضياع الذى ساد مناطق كثيرة مع زيادة نفوذ «أيديولوجية» العولمة الغربية. ومن هنا كانت أهمية عرض ورقة نداء المهتدين الذى قدم فيها السيد الصادق المهدى باعتباره «حامل العهد لأنصار الله (المهتدين) » رؤية فى توافق الفكر الدينى مع قضايا العصر وهى المكون الثالث الأهم من هذا الكتاب .

إن التنوع ثراء للتيارات الفكرية، ولكن الإشكالية والمرض يكمنان فى «التخندق الثقافى» - إن جاز التعبير - لكل فريق أو تيار أو جماعة فى مواجهة أى تيار أو فريق «آخر» ويبدو ذلك بين الحين والآخر فى حالة

«التشنج» التـي تتكـرر فـي نـدوات المثقفين العرب حيث يعم الصياح (وأحيانًا الصراخ) وتبادل الاتـهامات، فيختفـي حـوار «العقـلاء». وربمـا كانت هذه الأمور هي «أحد» الأسباب لطرح واختيار محاور النقاش لهـذه الندوة المهمة. فكل ذلك يعكس أن ثقافة وفكر «قبول الآخر» لم يتعمقا في وجدان وممارسات ونقاش حتى كبار المثقفين والمفكرين.

قالت الأمثال من قديم: «أنا وأخي على ابن عمـي.. وأنـا وابـن عمـي على الغريب»، ولذا فإن الإحساس بالآخر يختلـف مـن موقـع إلى آخـر، وتتغير درجات القرب أو البعد عن الآخر، حسب الجغرافيـا، أى المكـان أو المستوى الثقافي والحضـارى فبالنسـبة للمواطـن الكويتـي «الآخـر» قـد يكون كل من يقطن الكويت، ولكن لا يحمل الجـذور الكويتيـة القبليـة أو من هو خارج دولـة الكويـت حتـى إن كـان مـن دول الخليـج، وبالنسـبة لمواطنـي دول الخليـج «الآخـر» هـو مـن يسـكن خـارج مجموعـة مجلـس التعاون الخليجي، وبالنسبة لمن يسكن الوطـن العربـي «الآخـر» هـو غـير العربي.. كذلك فإن التيارات الفكرية قد تكون متقاربة أو متكافئة، فالتيار الناصرى كان أقرب في مرحلة الستينات إلى التيار الماركسي من التيـارين الليبرالى أو الإسلامي على أنواعهما، التيارات الإسلامية تشـعر بالتقـارب فـي مواجهـة التيـارات الليبراليـة والناصريـة والماركسية، ولذلـك أطلقـوا عليها – في مجملها – عبارة «العلمانيين»، ثم حاولوا أن يفسروها بأنـهم الخارجون على الأديان، أى الملحدون. وكان نشر هذا المفـهوم، يرمـي إلى تعميق رفض الآخر توطئة إلى نفيه. ومن هنا ننتقل إلى الجزء الثاني لنقـدم المثقف العربي والآخرون.

* * *

الجزء الثانى

المثقف العربى .. والآخرون

١ - آخرون داخل كل وطن على حدة :

- حالة لبنان
- حالة السودان

٢ - « آخـرون » داخـل أقطـار العـالم العربـى ، ومـا هـم بـ«آخرين» :

- الأقليات المسيحية فى الوطن العربى
- البربر فى دول شمال أفريقيا العربية
- الأكراد بالمشرق العربى
- اليهودى والإسرائيلى

٣ - « آخرون » على مستوى الأقطار العربية الأخرى

٤ - « الآخـــر » خارج العالمين العربى والإسلامى :

- الآخر فى الحضارات الغربية
- الآخـر فى الشرق الأقصى
- حضارات لها علاقات خاملة مع العالم العربى

٥ - الخلاصة

٦ - كلمة الختام

المثقف العربى . . . والآخرون

تمهيد

من غير الممكن إعطاء وصفة «سحرية» للمثقف العربى - أو حتى لغير العربى - يستخدمها فى علاقته مع «الآخر»، فنحن نعيش فى مرحلة «مفصلية» قلقة من تاريخ العالم، ومنذ تفكك الاتحاد السوفييتى، وزيادة نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية كقطب رئيسى فى العالم، ومنذ أن دخلت عالم الثقافة عبارات: العولمة، وآليات السوق، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وثورة المعلومات وغيرها، والعالم العربى يعيش كل هذه المتغيرات الهائلة، فضلا عن آثار حروب الخليج وتداعياتها، ومرحلة المخاض والتعثر حول «التسوية النهائية» المتوقعة للصراع العربى - الإسرائيلى، ومحاولة كل طرف الحصول على مكاسب تعطيه موقعا متميزا وإمكانية التفوق والسيادة على المنطقة أكثر من الطرف الآخر، نقول فى إطار كل هذا سيجد المثقف العربى أنواعا مختلفة من «الآخرين»، ربما يكون لكل منها ملامح مختلفة تضئ الطريق، أقسمها إلى مجموعات أربع على النحو التالى:

أولا: « آخرون » داخل كل وطن على حدة:

لكل قطر عربى خصوصيته السياسية والثقافية والمجتمعية، وينعكس ذلك على مناخ قبول أو رفض الآخر، ويصعب فى مثل هذه الورقة أن

نقدم دراسة أو رؤية لكل قطر عربى، فهذا أمر حساس، ولا يسمح به المناخ العام للوطن العربى حاليًا، وأكتفى بتصنيف الوطن العربى، بالنسبة للقضية التى نحن بصددها، إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالى:

(أ) نظم أحادية التوجه: حيث تسيطر الدولة أو الحزب أو المؤسسات القابضة على الأمور الثقافية والفكرية، وهذه الدول معروفة بشكل عام بين المثقفين، لا داعى لتسميتها فهذا أمر لا يتفق مع الممارسات الثقافية العربية، وأتعاطف شخصيا مع المثقفين فليس أمام المثقفين المقيمين بشكل دائم فى هذه الأقطار إلا قبول «الآخر» الذى تقبله الدولة، ورفض الآخر الذى ترفضه الدولة، وإلا فلا سبيل سوى الهجرة خارج القطر وأحيانا خارج الوطن العربى كله وأعرف نماذج كثيرة لمثقفين عرب - من هذا النوع - يعيشون فى أوروبا هربا من قهر أوطانهم الرافضة لآخرين وبعض منهم موجودون فى هذه الندوة.

(ب) نظم لديها هامش معقول من الحرية الفكرية: وهنا يكون توافر قناعة المثقفين بقبول المثقف الآخر أمرًا له أهميته، لأن ذلك سوف يسهم فى توسيع مسطح الديمقراطية الحالى شيئًا فشيئًا، وخلق مناخ ثقافى يفتتح حوارًا صحيًا، غالبا ما يؤدى إلى دعم التماسك والوفاق الوطنى، فيكون «الاستقرار على أسس أكثر رسوخًا» من خلال «مؤسسات» تنمو وتتقوى مع الوقت، ويكون المثقفون قد أدوا دورهم التاريخى فى مسيرة التقدم.

(جـ) دول ومجتمعات قد دمرت وقاست من جـراء «رفـض ونفـى الآخر»: ويوجد بالعالم العربى دول عدة بهذا الوضع، أكتفى بنموذجـين صارخين جديرين بالطرح والمناقشة فى مثل هذه الندوات الفكريـة الحـرة وهما:

□ حالة لبنـان :

منذ الاستقلال عام ١٩٤٦، عاشت لبنان وضعًا مجتمعيًا غـير متكـرر، يحمل داخله تناقضات عدة منها انبهار قطاعات من المجتمع بالحضـارة الغربية، وحماس قطاع آخر للانتماء العربى، وقطاعات عدة تشعر بالأمان في الانتماء الدينى، فجاءت الصياغة السياسية والثقافيـة غـير ممكنـة إلا من خلال نظام حكم مبنـى علـى توزيـع السلطة بـين الطوائـف المعتمـدة رسميًا، مع هامش واسع من الحريات العامة والشخصية والاقتصادية.

وكان أن تفجرت الحرب الأهلية من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٢، ولم يكن من سبيل إلا العودة إلى النظـام الطـائفى مـرة أخـرى، مـع توازنـات جديدة ولدتها الحرب، وأراه وضعًا قلقًا، لأنه تـوازن غـير مسـتقر (ليـس بسبب توازنات القوى الداخلية)وإنما بموازين سياسية وعسكرية حساسـة ودقيقة لدول مجاورة فى المشرق العربى وستتغير فى المستقبل القريب.

واقترح على مثقفيها – وهم من خيرة مثقفى العالم العربـى – تـبنّى ونشر ثقافة وفكر قبول «الآخر» بما فى ذلك «البديهيات الإنسانية» التـى جاءت فى الجزء الأول من هذه الورقـة. فالتغيير فـى لبنـان سيكون مـن خلال المثقفين أكثر منه عن طريق السياسـيين أو العسـكريين، فـإذا اتفـق

المثقفون تدريجيا على صياغة «الأرضية المشتركة» فستختفي تدريجيا الطائفية وتحل محلها مفاهيم المواطنة.

□ حالة السودان المعرض للتفكك :

أكتب هذه الأسطر في أواخر يوليو عام ١٩٩٩، في وقت متزامن مع كتابة مقالتين بجريدة «الأهرام» حول «المسألة السودانية»، واحتمالات «تدويلها» من خلال خطة أمريكية ظهرت معالمها بصدور قرار من الكونجرس الأمريكي في ١٥ يونيو عام ١٩٩٩. ولذا فإنني غير متيقن مما ستؤول إليه الأمور وقت انعقاد هذه الندوة العربية. فالسودان ليس لديه أزمة «آخر» واحدة وإنما «آخرون» عدة(*)، بسبب أن به نحو ٥٠٠ (خمسمائة) تكوين عرقي أو أثني كما لديه نحو ٥٠ (خمسين) لغة موثقة، ولذا صارت «المسألة السودانية» من أعقد المشاكل في العالم بسبب تأخر عرض ذهنية «قبول الآخر» والتي كان من الممكن أن تبدأ مع الاستقلال عام ١٩٥٦ والأمل المعقود - إن كان هناك بقية من أمل - على المثقفين السودانيين لصياغة «الهوية السودانية» والأرضية المشتركة في هذه الغابة من الانتماءات والدماء.

فالمثقفون أقدر من السياسيين على صياغة الأفكار حول التنوع الثقافي ومشروع الدولة الوطنية ثم معضلات الهوية في مجتمع متعدد الثقافات،

(*) عقب أن كتبت مقال بـ «الأهرام» عن السودان في ٧ ديسمبر ١٩٩٩ جاء الانقلاب وإعلان الأحكام العرفية يوم ١٢ ديسمبر لتؤكد أن الصراعات المجتمعية على أشدها، ومن هنا صار طرح ورقة «نداء المهتدين» للزعيم الصادق المهدى، واجبا فكريا ملحا، فأزمة السودان فكرية ثقافية حضارية، لو عمها فكر «قبول الآخر» لكانت على بداية الطريق إلى السلام والمعايشة مع الآخر في «كدفدرالية».

وإيجاد صياغة للمعايشة بين العروبية والأفريقانية وغيرها، ولعل مشاركة المثقفين العرب في هذه الندوة تمثل إضافة تخرج السودان من التدويل أو التفكك.

ثانيا : « آخرون » داخل أوطان العالم العربى وما هم بـ«آخرين» :

يمر العالم العربى بمرحلة انتقالية دقيقة تحدد ملامح مستقبل الواقع العربى فى الألفية الميلادية الثالثة. فالغالبية العظمى من العالم العربى تنتمى إلى الهوية «العربية الإسلامية» والتى تعتبر الرافد الرئيسى والغالب على الثقافة العربية. لكن ذلك لا يخفى أن هناك عشرات من الانتماءات الأخرى - ليست بالضرورة موضع اهتمام الأغلبية – على الرغم من أن هذه «الأقليات» موضع دراسة واهتمام من دول وثقافات غربية تؤدى أحيانا إلى مآزق سياسية وثقافية.

وعلى سبيل المثال، أكتفى بطرح مشاكل لنماذج «الآخر» فى العالم العربى وهم ليسوا بـ «آخرين» :

(أ) الأقليات المسيحية فى الوطن العربى

ساهمت الأقليات المسيحية فى لبنان وسوريا والعراق ومصر فى صياغة الثقافة العربية الإسلامية بدرجات متفاوتة عبر الألفية الميلادية الثانية، بما فيها المساهمة فى حركة الترجمة العربية الواسعة فى القرون الأولى للإسلام عندما تم نقل الحضارات الإغريقية والبابلية والفرعونية والمسيحية السابقة على الإسلام إلى العربية وكانت أحد أسباب النهضة الثقافية فى تلك الحقبة ومنها نقل الغرب وهو معترف بذلك.

ومع ازدياد نفوذ وسيطرة الثقافة العربية الإسلامية على معظم الأقطار العربية فى الأحقاب القليلة الماضية وبما يطلق عليه عبارة «الصحوة الإسلامية »، تولدت حالة من القلق لدى هذه الأقليات المسيحية على تباينها واختلاف مسمياتها من الأقباط والموارنة والسريان والروم على اختلاف مذاهبهم (الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية). ومن ثم فإن قضاياها وقلقها - لمنع سلبيتها أو هجرتها إلى الغرب - من الأمور الواجبة الطرح على المستوى الثقافى، والواقع أن الوصول إلى تقنين المساواة من خلال «المواطنة» أمر ممكن بسبب أن ثقافة «قبول الآخر» موجودة ومتوافرة تاريخيا، ولكنها فى حاجة إلى تطوير ودفع إيجابى، ليتحول القبول إلى اكتشاف الأرضية المشتركة مع المحافظة على خصوصيتها الثقافية، فالثراء هو فى التنوع وقد أشرنا إلى ذلك تفصيلا فى الجزء الأول.

(ب) البربر فى دول شمال أفريقيا العربية

تعانى الدول العربية فى شمال أفريقيا - خاصة الجزائر والمغرب - من وجود لغتين وثقافتين (وربما سلالتين) هما العروبة من جانب والبربر بلغته وثقافته الأمازيغية من جانب آخر. وربما يعود الصراع الدموى الذى يجرى داخل الجزائر من سنوات - ضمن عوامل أخرى - إلى الصدام أو الصراع بين هاتين الثقافتين، ومن ثم فمشكلة البربر فى حاجة إلى طرح ثقافى، فهو «آخر» ينبغى أن يكون له «قبول» فحوار وصولا إلى المواطنة، حيث أثبتت الممارسة العملية أن الاعتماد على القهر العسكرى

وحده لم يولد إلا مزيدا من الدماء ومن ثم فالطرح الثقافى وقبول الآخر هو الطريق الأصعب الطويل ولكنه المضمون.

(جـ) الأكراد في المشرق العربي

استطاع عبد الله أوجلان الزعيم الكردى المعروف، من خلال نضاله، أن يفرض على العالم حقيقة أن للأكراد هوية وأرضا وثقافة، فهم كشعب يقطنون موقعا متوسطا بين دول قديمة وراسخة هى: تركيا وسوريا والعراق وإيران، أى دولتين عربيتين ودولتين إسلاميتين، إحداهما تدعى أن دستورها علماني ولكن واقعها «ثقافة إسلامية» على الرغم من أنها لا تتكلم العربية، والأخرى دفعتها ظروف فصارت «جمهورية إسلامية» وهى أيضا لا تتكلم العربية. وسيقوم الأستاذ/ محمد صادق الحسينى بالتعقيب على هذه الورقة (وهو ينتمى إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية) ومن ثم فإن لرأيه ورؤيته فى هذه الندوة ما يضئ الطريق فى قضية «الآخر» عموما، الكردى خصوصا فهناك الأرضية المشتركة الإسلامية حتى وإن اختلفت اللغة والثقافة. وربما يكون من الإنصاف - فى مثل هذه الندوات الفكرية - أن يطرح أمر المساهمة فى قبول الأكراد كجماعة من حقها تكوين كيان مستقل، أو نشر ثقافة «قبول الآخر» فى هذه الدول المتجاورة حيث الأكراد «أقلية» مقبولة، وصولا إلى المواطنة.

(د) اليهودى أو الإسرائيلى

عاش اليهود فى الوطن العربى - فى الحقبة الحديثة نسبيا - فى أوضاع متتالية كانت أولاها - من الناحية التاريخية - عندما كان

«اليهودى الآخر» مقبولا فى معظم الأقطار العربيـة الإسـلامية، وبـالذات فى اليمن والمغرب ومصر والعراق، وكانوا مساهمين كوطنيين فى كل ألوان الثقافة العربية وكان لبعض منهم شأن وخطوة فى تلك الـدول بـالذات إلى أن تم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨، وإنشاء دولـة إسـرائيل، فـهاجر إليـها تدريجيا معظم اليهود العرب.

وبعد إنشاء إسرائيل تغير الوضع كثيرا وصار هناك تضيق لأنواع ثلاثـة رئيسية من الإسرائيلى اليـهودى إذ يوجـد داخـل إسـرائيل «آخـر» فـى أشكال كثيرة، حيث الأشكناز والسفر ديم، وحيث مذاهـب وفـرق دينيـة وعرقية متباينة ليس هذا مكان عرضها، وأتصور أننا فى حاجـة إلى إلقـاء الضوء على التركيبة الثقافية والمجتمعية لإسرائيل، لأن هذه الدراسـة قـد تلقى الضوء على أسلوب التعامل مع «الآخر» فى إسرائيل. وعلى سـبيل المثال، لو كان إسرائيلى متمسكا بديانته، وهى الأساس لذهنيته وبوصلتـه فى الحياة، فإن التعامل مع هذا «الآخر» يكون صعبا، لأن فلسفته مبنية على نصوص دينية فى مقدمتها أنه يهودى، ومن ثم يتولد لديه إحسـاس بالتعالى على العرب مسلمين ومسيحيين بسبب أن «اليهود هم شـعب الله المختار». وبالتالى يتولد لدى المثقف العربى على الجانب الآخـر إحسـاس مقابل بأهمية انتمائه الدينى كفعل أو رد فعل، فيردد النصـوص المقابلـة، «إن الدين عند الله الإسلام» وأننا «خير أمة أخرجت للنـاس» وغيرهـا. ولذا فإن هذه الذهنيات بين اليهودى والمسلم والمبنيـة علـى أسـاس دينـى تبدأ بالرفض الذى قد يقود إلى النفى، فلا تطبيع بل قطيعة قد تعيد مناخ الحروب فـى وقـت لاحـق إذا كـانت الظـروف المحليـة والعالميـة مواتيـة وقتـها. وهذه هى الحالة الثانية والتى تؤدى إلى الرفض المتبادل.

وهناك نوع آخر للمقيم فى إسرائيل وهو «العلمانى» غير المتدين وصولا إلى «الملحد» الذى ينكر كل الأديان أصلا، ولكن لديه إحساسا بعلو ثقافة اليهودى على أساس «عنصرى»، وهى ذهنية «الصهيونية» فيتولد لدى العربى فى المقابل إحساس بأهمية الحضارة العربية فى بناء رقائق الحضارة الإنسانية فى مجملها. وهو أيضا موقف غير صحى لأن كلا منهما رافض للآخر، ولكنه رفض مؤقت لتأثره بالمتغيرات السياسية السريعة فى المنطقة، ويعيشان حالة ذهنية قابلة للتغير لأن منهجهما فى التفكير مبنى على «العقلانية» التى ترى أن الصراع العربى - الإسرائيلى له بعد حضارى، أى تنافس فى الارتقاء، فتكون المناقشة صحية، ولا تقاوم «الحوار» مع الآخر، وبين الحين والآخر قد يحدث غليان فى الموقف السياسى العام فى المنطقة فيقود إلى ذهنية «فاشية» تنتهى بالصراع وصولا إلى الحرب وهو احتمال قائم على المدى البعيد.

وقد يوجد نوع ثالث مثل العرب (المقيمين من قبل ١٩٤٨) الحاصلين على الجنسية الإسرائيلية ومعظمهم ليس «آخر» بالنسبة للمثقف العربى، كما قد يكون هناك إسرائيلى منتميا إلى بعض فرق اليسار، ولا يرى حلا لإسرائيل إلا بالمعايشة مع العرب ومن ثم فلديه «قبول الآخر».

وبين هذه التصنيفات المختلفة يتحدد ويتجدد موقف المثقف العربى فى التعامل مع مواطنى «إسرائيل» وهى قضية خلافية وستظل كذلك لفترة طويلة قادمة متأثرة بالمتغيرات السياسية سريعة الحركة فى السنوات القليلة القادمة.

ثالثا : «آخرون» على مستوى الأقطار العربية الأخرى

يحسن للمثقف العربى أن يتعامل مع أخيه المثقف العربى الذى ينتمى إلى قطر عربى آخر بنظرة متفهمة للخصوصية الثقافية لهذا القطر بهدف اكتشاف الأرضية المشتركة بدلا من «التفتيش» عن نقاط الخلاف فى اتجاه الرفض أو النفى، لأن مستقبل الأمة العربية - طال الأمد أم قصر- هو فى التعاون الاقتصادى والثقافى لأنه الركيزة لأى نوع من «التكتل الاقتصادى» أو الوحدة السياسية. ولنأخذ من النموذج الأوروبى مثالا يدرس كما يمكن أن يحتذى. ولن يستطيع القادة السياسيون بناء جسور التفاهم والتقارب وتجاوز «جروح» الماضى البعيد أو القريب، إلا من خلال تقارب المثقفين، فهم أكثر حرية ومرونة من متخذى القرار - ومن هنا كان تقديم الأفكار الواردة فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

والمشاهد فى معظم لقاءات المثقفين العرب وجود حساسيات مرهفة تؤدى إلى تفجر وحدة النقاش بين المثقفين المنتمين إلى أيديولوجيات مختلفة ، فالكراهية مازالت موجودة وإن كانت مكبوتة بين مجمل التيار الدينى والأصولى(*) من جانب وبين مجمل التيارات الليبرالية واليسارية

(*) وفى هذا الإطار، وعندما قرأت تعقيب الأستاذ محمد صادق الحسينى على هذه الدراسة، والتى تقدم رؤية نقدية إيجابية - من خلفية دينية شيعية - رأيت أن نعمم الفائدة، بأن أنشر أيضا - فى هذا الكتاب - ورقة ورؤية الصادق المهدى، باعتباره فكرا له نبع سنى تراثى فى السودان الشقيق، لعل التفاعل والتباين يولد حوارا أوسع داخل التيار الإسلامى فى مجمله، كمرحلة أولى يتبعها حوار أوسع داخل الوطنى العربى الإسلامى، فننتقل تدريجيا إلى مرحلة «حوار الحضارات».

من جانب آخر. والتصور أنه قد آن الأوان - من خلال مثل هذه النـدوات الفكرية - لأن تتولد أرضية «قبول الآخر». ففى ذلك فائدة وآثـار حميـدة على المناخ الثقافى العربى العام، وسوف ينعكس هذا التوجه على توسـيع الممارسات الديمقراطيـة فـى الأقطار المختلفـة. فـالواقع العربـى فـى هـذه المرحلة لن يتغير بين يوم وليلة، فالتفاعل بين مثقفى كل قطـر فـى إطـار قبول الآخر (كما ذكرنا فى بند أولا فى هذا الجزء الثانى) ثم دعمـه علـى مستوى الأقطار العربية، سيوفر مناخا مختلفا ويفجر طاقات إبداعيـة فـى كافة المجالات الأدبية والثقافية والفنية.

رابعا : «الآخر» خارج العالمين العربى والإسلامى

من غير الممكن، فى مثل هـذه الورقـة محـدودة المسـاحة، أن نتعـرض للموقف خارج الوطن العربى والإسلامى، فهذا يقودنا بالضرورة إلى مؤلـف يناظر مؤلف نظرية صموئيل هانتجتون «صدام الحضارات وإعادة صياغـة العـالم» وفـى مواجهتـه فدراسـات الحضـارات العالميـة الحاليـة معروفـة ومتوافـرة فـى مؤلفـات كثـيرة، وهـى مقسـمة مـن الناحيـة الجغرافيـة إلى الحضـارات المؤثـرة حاليـا فـى ثقافـة العـالم - ولكـل منـها خصوصيتـها وخصائصها - كمـا أنـها مدروسـة مـن الناحيـة التاريخيـة حيـث كـانت الحضارات القديمة فى مصر وبين النهرين والهند والصين وربما المكسـيك. وآثرت - إيجاز شديد - أن أشير إلى ما يمكن أن تكون عليه نظرة المثقف العربى إلى « الآخر » فى الثقافات أو الحضارات الرئيسـية التـى ذكرهـا هانتجتون أو غيره على النحو التالى:

(أ) « الآخر » فى « الحضارات الغربية »

توجد علاقات تاريخية بين العالم العربى وبعض الدول فى أوروبا، فإنجلترا (أو بريطانيا العظمى) كانت محتلة أو مؤثرة - وحتى الآن - فى ممارسات الحكم واللغة والثقافة فى دول عربية كثيرة، ولفرنسا تأثير ملحوظ على دول شمال أفريقيا من تونس ثم الجزائر فالمغرب ثم فى لبنان وربما سوريا، وكانت ليبيا تحت حكم الاستعمار الإيطالى، ويبدو تاثيرها جليا على المعمار وتخطيط المدن فى طرابلس عاصمة الجماهيرية العظمى حتى الآن.

فى العصر الأحدث وعندما زاد نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وسع ظهور البترول كمورد رئيسى رخيص للطاقة زاد نفوذ الثقافة الأمريكية فى معظم دول المنطقة بدرجات متفاوتة.

ومن ثم فليس من سبيل إلا التعامل مع « الآخر » المنتمى إلى الغرب. والملاحظ أن هناك رؤى مختلفة للمثقف العربى بالنسبة « للآخر » فى الغرب، فالبعض منبهر بما وصل إليه الغرب من تقدم علمى وديمقراطية متمثلة فى التداول السلمى للسلطة، وهو أمر مفتقد فى العالم العربى بشكل عام، وهناك مثقف آخر رافض للغرب، ويعتبره غازيا يحاول فرض ثقافته وأسلوب معيشته وعلينا مقاومته ورفضه، وثالث لا يجد سبيلا إلا فتح الحوار وبناء جسور معه وإلا همشنا.

(ب) الآخر فى الشرق الأقصى

يوجد قبول وجدانى لدى المثقف العربى مقرونا بالتقدير والرغبة فى معرفة المزيد عن « الآخر » المنتمى إلى حضارات الشرق الأقصى على

اختلافاتها من البوذية إلى الكنفوشية إلى الشنتو. فاليابان نموذج لدولة تنتمي إلى أقصى الشمال « الشرقى » واستطاعت أن تتجاوز التخلف «الشرقى» بكل صوره وتنافس الغرب فى عقر داره. وهى مثال فريد نحن كعرب فى حاجة لأن نعرف المزيد عن جذوره الثقافية. وغالبا ما تكون اليابان هى المبادرة بمعرفتنا، ويقف اهتمامنا غالبا على الانبهار بإنجازاتها التكنولوجية والاقتصادية دون فحص الجذور الثقافية وهى كنز نحن فى حاجة لفتحه.

ثم هناك الصين أكثر دول العالم تعدادا وكثافة سكانية، وقد تجاوزت الانتماء العقائدى الماركسى تدريجيا ومزجت التراث بالمعاصرة. ويتطلع إليها المثقف العربى بإعجاب ممثلة فى «التنين» الذى يعمل فى صمت وبإصرار لكى يوقف زحف الحضارة الغربية الكاسح. وللصين حضارة لها خصوصيتها الثقافية بسبب أنها رقيقة زمنية واحدة سميكة مستمرة لآلاف السنين بذات التركيبة العرقية واللغة والعقيدة الدينية بخلاف مصر حيث توجد رقائق متتالية من الحضارات الأربع: الفرعونية - اليونانية الرومانية - المسيحية القبطية - الإسلام، فقد تغيرت الديانة واللغة فى مصر - عبر تاريخها الطويل ثلاث مرات، وهو أمر شرحته تفصيلا فى كتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية»، ومن ثم فالصين كحضارة نعتبرها نموذجا لآخر ينبغى أن نفتح معه حوارا وفكرا وثقافة واقتصادا ونبنى جسورا بقدر أكبر مما هو الآن.

وينطبق الشىء ذاته - مع خلافات طبيعية - على علاقاتنا مع باقى دول الشرق الأقصى مثل: الهند - ماليزيا - كوريا - تايوان - إندونيسيا وغيرها.

(ج) حضارات لها علاقات « خاملة » مع العالم العربى

عندما قام عبد الناصر بالمساهمة مع نهرو وتيتو وتشواين لاى بتكوين كتلة « عدم الانحياز» انفتحت مصر والعالم علي حضارات كثيرة. ولكن مع تغيير التوازنات العالمية، ضمرت صلة العالم العربى الثقافية مع كل من أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهو أمر أراه مهما للطرح لأن المثقفين طليعة بناء الجسور مع الحضارات الأخرى، خصوصا أن أفريقيا - ومن خلال السودان - هى امتداد طبيعى لصلات ثقافية. وقد يكون بناء جسور ثقافية بين مجمل العالم العربى وحضارة أفريقيا والسودان عاملا مساعدا فى حل مشاكل الهوية فى السودان، وإيجاد صياغة توفيقية بين العروبية والأفريقانية، ومن وجه نظرى الشخصية، فإن العديد من مشاكل مصر سيكون حلها فى انفتاح أكبر على أفريقيا، فمن المؤكد أن الجسور الثقافية هى التمهيد للتعاون الاقتصادى.

أما دول أمريكا اللاتينية، ففيها جاليات ذات جذور عربية لها نفوذ وحضور وقد لاحظت - بعد حصولى على جائزة سيمون بوليفا، محرر أمريكا الوسطى - أن الدبلوماسيين والمثقفين هناك يشكون من ضعف الصلات الثقافية بين العالم العربى وأمريكا اللاتينية، والمقترح أن تبنى جسور ثقافية من خلال عدد ضخم من المصريين الملمين باللغة الأسبانية وعدد مناظر من الأسبان الملمين باللغة العربية.

الملخص

بين مئات وربما آلاف من المجموعات البشرية المتباينة بين الحضارات وداخل الأديان والأعراق، قد توجد مشاعر إيجابية ممثلة فى «قبول الآخر» وهذه الحالة ليست استاتيكية بل ديناميكية، فالقبول يتحول إلى «حوار»، ومع استمرار الحوار يتحول إلى «فهم» الآخر ثم استحسان بما لديه من اختلاف، وسيجد المرء استمتاعا بمعرفة تفاصيل التباين والتنوع، وبعدها يتحول هذا الثراء إلى «معايشة» فاكتشاف «الأرضية المشتركة» التى تجمع البشر أكثر مما تفرقهم، ومن هنا تتولد مفاهيم «المواطنة» أى الانتماء إلى الوطن ككل وهو أرقى من الانتماء الدينى أو العرقى، وهنا تجئ عبارة «الوحدة الوطنية» أو الوفاق الوطنى تجسيدا للمعايشة والتى غالبا ما تكون مقرونة بالود المتبادل.

أما إذا سادت ثقافة ومفاهيم «رفض الآخر» كما فى حالات كثيرة مثل حالة السودان، من خلال إثارة وطرح خلافات وعداوات تاريخية قد مضت وانتهت، يصير استدعاؤها وتضخيمها لأسباب سياسية أو لدعم نظم شمولية لديها مصلحة فى خلق التماسك الداخلى وفرض نفوذ ايديولوجية الحكم السائدة من خلال كراهية الآخر ورفضه. فإن المجتمع قد يدخل فى عملية Process سلبية تزداد فيها الكراهية ويتحول الرفض " محاولة النفى، أى اجتثاث جذور «الآخر» ومنع حقه فى المعايشة.

وربما كان فى مثال تعامل تركيا مع الأكراد نموذجا لذلك، إذ تجد الحكومات والشعوب التى دخلت فى هذه الحلقة المفرغة مستعدة لإشعال حالة حرب عند أى مناسبة يمكن افتعالها. أما حالة اللامبالاة بالنسبة للآخر فهى مثل حالة خط التعادل الكهربائى أو كثيرا ما يشار إليها بعبارة «دع الفتنة نائمة» وغالبا ما لا تستمر هذه الحالة طويلا، إذ تتحرك إما إلى الطريق الإيجابى فتصل إلى مرحلة «قبول الآخر» وما بعدها، أو تتجه إلى السبيل السلبى فتدخل حالة رفض الآخر، وصولا إلى نفيه ثم الحرب ضده، وهو ما أشرنا إليه سابقا.

وبنظرة مستقبلية متفائلة أتوقع أن تنحسر موجة كراهية ورفض الآخر السائدة حاليا فى مواقع كثيرة ويحل محلها إيجابيا ثقافة وفكر «قبول الآخر»، ثم تتسع قبولها كـ«أيديولوجية» أكثر رقيا. إذ سيكتشف الإنسان أن فى الاختلاف والتباين والتنوع جمالا وثراء، فيتحول الصراع الثقافى إلى تباين وتنوع وكأنه لوحة من «الموزاييك» تحمل ألوان الثقافة والمعرفة وكذلك الخصوصيات الثقافية المختلفة، فيصير الوطن أو المنطقة فى شكل حضارة «الموزاييك» ذات الألوان المختلفة والتى تقدم لوحة جميلة بين المثقفين أولا، ثم بين البشر كافة فى داخل الوطن أو المنطقة أو حتى تعم مع الزمن الطويل كل أنحاء العالم.

واستطرادا لآلية التفاؤل الإيجابية، سنجد أن هذه اللوحة من «الموزاييك» الحضارى ليست ثابتة وجامدة أى استاتيكية، بل هى فى حالة حركة مستمرة لاختلاط الألوان والتفاعل الايجابى بين الحضارات والخصوصيات الثقافية. ومع الوقت والحوار تتولد أنماط جديدة من الفكر

والثقافة وهى التى أشير إليها بعبارة «التلقيح الثقافى» بين المفاهيم والقيم والعادات وأنماط السلوك، وصولا إلى التفاعل الثقافى بين الأيديولوجيات والأديان. فتخف حدة الصراعات ويزداد ثراء الحوارات ويدخل العالم طورا جديدا من التعايش واحترام الحضارات المختلفة والأديان المتباينة وهى عملية ديناميكية قد تأخذ زمنا ليس بالقصير، ولكن المهم هو الوقوف على عتبة التوجه الإيجابى من خلال «قبول الآخر» ، فهو نقطة البداية فى الاستنارة وتغيير مناخ الكراهية والرفض، وهو أمر موجود حاليا فى دول وأقطار مختلفة، ليس فى شكل صراع الحضارات حسب نظرية هانتجتون وإنما داخل كل حضارة بل وداخل كل دين وعرق ومذهب.

كلمة ختام

لقد آثرت أن يضم دفتى هذا الكتاب الدراسات والتعقيبات التى يقدمها مفكران لكل منهما خصوصيته الثقافية فالأستاذ محمد صادق الحسينى يمثل فكر شيعى مستنير، أما الأخ والصديق السيد/ الصادق المهدى، فإنه صاحب اجتهادات كثيرة نتيجة تجاربه فى الانفتاح على كل ألوان الحضارات والتى استوعبها ومزجها بما حصله من التراث الإسلامي باعتباره صاحب العهد لأنصار الله أى لأنصار الحركة المهدية السودانية.

المراجع .

1. Samuel P. Huntington, The Clash of Civilization and The Remaking of World Order, 1996, Simon & Schuster, New York, N. Y.10020

الترجمة العربية : صموئيل هنتجتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى

ترجمة : طلعت الشايب ، الناشر سطور ، ١٩٩٨

2. Our Creative Diversity, Report of World Commission on Culture & Development. UNSCO. 1996.

الترجمة العربية : التنوع البشرى الخلاق، تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية ، صادر من المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦.

٣ – د . سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل والأعراق عام ١٩٩٤ – مركز ابن خلدون – القاهرة.

٤ – د . ميلاد حنا ، قبول الآخر ، الطبعة الثانية، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩ – الطبعة الثالثة – دار إعلامية – القاهرة.

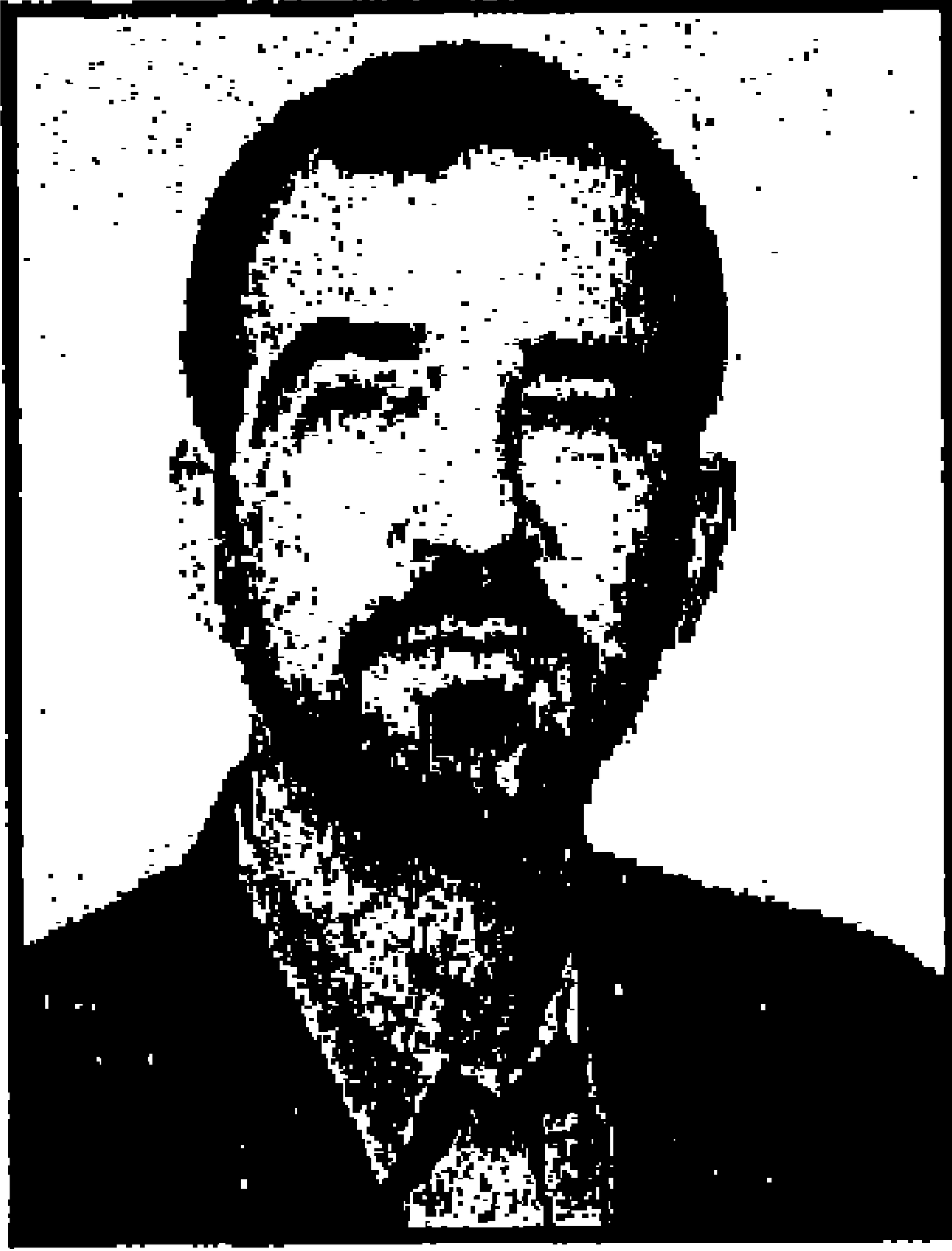
٥ – د . ميلاد حنا ، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٨.

5. Francis Fukuyama, The end of History, The National Interest Summer 1989.

7. Edward W. Saïd, Orientalism, Pantheon Books, 1978.

8. Max Weber, The Sociology of Religion, Trans. Beacon Press, Boston 1968.

9. Oswald Spenger, World History is the History of Large Cultures, New York, 1926.



رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر

الكاتب الشيعى
محمد صادق الحسينى
المستشار الإعلامى لوزير الثقافة الإيرانى

رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر
للكاتب الإسلامى الشيعى
محمد صادق الحسينى
فى تعقيبه على ورقه د. ميلاد حنا

لقد قرأت بعناية دراسة أخينا الدكتور ميلاد حنا من مصر الشقيقة الكبرى حول موضوعه «المثقف العربى - وقبول الآخر»، فاستفدت منها كثيرًا وتعلمت الجديد من عناصر تشكيل المعرفة الإنسانية، وإذا أؤكد فى تعقيبى على أننى أتفق مع جوهر ما ذهب إليه من أن قبول الآخر نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وأشاطره الرأى فى كثير مما ذهب إليه من عرض إنسانى للرأى والرأى الآخر وقراءة للتنوع الطبيعى للخلق والإنشاء فى إطار من الوحدة، إلا أننى أود التشديد أيضًا على أننى اختلف فى بعض ما ذهب إليه من الاستنتاجات أو ما شخصه من مصاديق مع ضرورة التأكيد مجددًا على أن ذلك لا يفسد لاتفاقنا المبدئى فى الرؤية الشاملة لموضوعه «الآخر».

قضية الاختلاف سنة كونية والتنوع أمر محمود

أجمع العرب على أن الاختلاف والمخالفة فى اللغة تعنى أن ينهج كل شخص طريقا مغايرا للآخر فى حاله أو فى قوله والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين. وتتسع مقولة الخلاف

والاختلاف لتشمل أحيانا المنازعة والجدل والجدال والمجادلة وما إلى ذلك، لكن الاختلاف يبقى سنة كونية لا مناص منها وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى مناسبات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

﴿إنكم لفى قول مختلف﴾ (الذاريات/٨).

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ (مريم/٣٧).

﴿إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (يونس/٩٣).

﴿ولا يزالون مختلفين﴾ (هود/١١٨).

وعلى هذا يمكن القول بأن الخلاف والاختلاف يراد بها مطلق المغايرة فى القول أو الرأى أو الحالة أو الهيئة أو الموقف.

لا شك أن كلاً منا يعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل ذلك عادة ما يفضى إلى تعدد فى الآراء والأحكام والمواقف. وكل ذلك يدل دلالة لا لبس فيها على أن إعمار الكون والأرض وما عليها لم يكن ليتم، كما هو حاصل، لو أن البشر خلقوا سواسية فى كل شىء.

قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود/١١٨ – ١١٩).

وهكذا نجد أن الاختلاف سنة طبيعية وإذا ما التزم الناس بآدابه كان ظاهرة إيجابية، والمشكلة تبدأ عندما يتحول النزاع إلى جدل وشقاق

فتذهب ريح الجماعات والأقوام وتفشل وتشيع الحروب وينتشر الخراب في ديارهم.

القبول بالآخر شرط لاحترام الذات

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (١٣/٤٩) سورة الحجرات.

فالإسلام هنا يعترف بالآخر وبقوله وبشروط متساوية في الخلق والنشأة دون أن يحدد هوية الآخر أو نمط تفكيره أو انتماءه ويحدد سلفا بأن معيار التقويم والخطأ أو الصواب والحساب والكتاب والثواب والعقاب كلها أمور تتلخص في التقوى، وبمعنى آخر بنتائج سلوكيات ذلك الإنسان أيا كانت أصوله وجذوره أو انتماءاته وارتباطاته.

وصدق رسول الله محمد الأمين إذ قال: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (منهاج الصالحين — عز الدين بليق) كما صدق ابن عمه أمير المؤمنين والخليفة الرابع للمسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يشدد على مالك الأشتر عامله على مصر في خطاب العهد الشهير إذ يقول: «ثم اعلم يا مالك.. فإنهم (الناس) صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» (نهج البلاغة) أليس هو من قبيل الإقرار بحقوق متساوية للجميع من ذكر وأنثى ومن جماعات الرأي والرأي الآخر ومن الأقليات العرقية والدينية أمام الحاكم وأمام القانون؟!

أليس هو ذلك التشريع الأزلى الذى يرفع الفروق والتمييز بين الطبقات والجماعات من رعايا الدولة الواحدة، بل من الإنسانية جمعاء أثناء تمتعهم بحرياتهم المشروعة بما يتواءم والحديث المأثور الشريف: «كلكم لآدم وآدم من تراب» وكلنا يعرف كم هو آدم مكرم ومعزز ومقدر عند الله سبحانه وتعالى ومفضل حتى على الملائكة أجمعين.

ثقافة الحوار ليست ترفا فكريا:

لقد آليت على نفسى ألا ابدأ إلا بالرأى القرآنى والإسلامى حول موضوعة القبول بالآخر حتى أرفع بداية بعض الشوائب أو الشبهات التى قد تلحق بالإسلام بسبب بعض سوء الفهم الذى قد ينشأ فيما لو قرىء أو تمت قراءة الدكتور ميلاد حنا خطأ أو بعين واحدة.

أقول ذلك ونحن نعيش على عتبة الألفية الثالثة للميلاد حيث بات الحوار ضرورة عالمية مادام الواحد منا جادا فى سعيه نحو رفعة الإنسان في البيت والمدرسة والعمل والقرية والمدينة والوطن والعالم أجمع، ولما كان العالم يتجه كله نحو التكامل في كل المجالات وبات من المستحيل لجماعة أو دولة بمفردها تحمل أعباء التطورات العلمية المذهلة وانفتاح الحدود فى ظل ثورة الإعلام والاتصالات والمعلومات، ورغم وجود دوافع أنانية للسيطرة والهيمنة واستغلال ظاهرة العولمة إلا أن الحاجة للتكامل تجعل ظاهرة الحوار حاجة ضرورية لابد منها.

من جهة أخرى فإن شبح الحروب المتعددة التى لا تزال تلقى بظلالها على العالم وبعد مضى قرن خلفت وراءها آلاما ومأسى إنسانية لا تحصى

استغل فيه كل شيء حتى الدين فى بعض الحالات أسوأ استغلال، فإن الواجب يستدعى الواحد منا للدفاع عن فكرة الحوار ومقولة التعايش مع الآخر بكل ما يملك من عقلانية وعاطفة ليس فقط إيمانا بمبدأ الحوار كسنة كونية بل ومن أجل رفع الظلم الواقع بحق المبادئ والقيم الإنسانية وفى مقدمتها القيم الدينية الرفيعة والسامية التى تم ويتم تشويهها على أكثر من يد، وفى أكثر من مكان وعلى أكثر من منبر.

بعد هذه المقدمة الضرورية أتقدم ببعض ملاحظاتى على دراسة الدكتور ميلاد حنا أرجو أن تمثل إضافة إلى ما أفادنا به واستمتعنا بمعرفته وأن يتسع صدره لقبولها فى إطار ثقافة الحوار وقبول الآخر.

ملاحظات على الرأى الآخر للدكتور ميلاد حنا

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾ (سبأ/٢٤، ٢٥).

إن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وهو على كل شيء قدير، الذى بإمكانه أن يفعل ما يشاء ويحيى ويميت من يشاء ومتى يشاء، أبى على نفسه إلا أن يترك باب احتمالات المستقبل مفتوحا برغم علمه بالغيب، ولم يرد حسم الموقف لصالح أحد فى باب الحوار والاختيار والانتخاب، والمراد فى مجمل ما ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر، وهو ما يتبين أيضا بصورة أكثر وضوحا فى حواره المفتوح مع إبليس والذى كان بإمكانه

أن يشطبه من الذكر الحكيم ليقول كن فيكون، المراد أن يمنحنا نبـذة من ثقافة الحوار التي يجب أن تسود.

الله الذى «كل يوم هـو فـى شأن»، الله خـالق الأضـداد المتعايشـة، خالق النور والظلام، خالق الليـل والنـهار، خـالق الخـير والشـر، خـالق الوجود والعدم، هو الأول والآخر لا يريد أن يحسم سلفا في أي حوار بين البشر لمن ستكون الغلبة، ومن هو صاحب الحق وكلمة القصـل والخطـاب عندما ترك الأمر مفتوحا للسجالات بين أبناء البشرية، لتقرر هي بنفسـها مصيرها وخياراتها ولتكتشف بنفسها الخيط الأبيض من الخيط الأسـود بجهدها ومساعيها.

نعم هناك ثوابت هي جزء لا يتجزأ من السنن الكونية وقوانـين الخلـق والنشأة الربانية أو الإلهية. لكن الكثير مما يهمنا والذى يقع علـى عاتقنـا نحن بني الإنسان يدرج في خانـة المتغيرات، ومـن أهـم تلـك المتغـيرات بنظرى إدارة شؤوننا الداخلية نحن بني البشر، وفي طليعتها علاقـة كـل منا بالآخر، ابتداء من النظرة الفلسفية وصولا إلى الأداء اليومـي فـي إدارة شؤون البلاد والعباد. نحن الذين نصنع السلام والوئام والتعايش، كما أننا نحن الذين نصنع الأحقاد والتمييز والحروب بكل أشكالها.

نحن الذين نمارس قانون الغاب على أنفسنا عندما لا نحترم إنسـانيتنا التي فضلنا الله بها على الحيوان والنبات والجماد. كما أننا نحـن الذيـن بإمكاننا أن نصنع الحياة النموذجية المثلى التي يرتفع فيها الإنسـان - مطلق الإنسان - إلى درجة خليفة الله في أرضه، فنحـترم حقـوق أخينـا الإنسان الآخر حتى في أقسى لحظات العقاب والمجازاة.

أقول هذا فى محاولة لإضافة بعض الأفكار الأولية إلى دراسة أخى الدكتور ميلاد حنا فى محاولة لإثارة الأسئلة ولفت الانتباه إلى القراءة الأخرى لما ورد فى أطروحاته:

١ – إن الطرق للوصول إلى الله برأيي بعدد أنفاس الخلائق، وتاليا فإن الطرق للوصول إلى حقيقة الشيء وكنهه، ومن ضمنه ما ذهب إليه الدكتور ميلاد حنا، لابد أن تكون متعددة.

٢ – إن المشكلة برأيى فى غياب نظرية قبول الآخر لا تكمن فى نواقص أو معوقات مقولات الوطنية أو القومية أو الأصولية الدينية أو التخندق الثقافى، أو ما شابه من التخندقات التى هى بنظرى من الأمور الطبيعية لدى الإنسان، وإنما نجدها تظهر عندما نصر على القراءة الأحادية لهذه المقولات. وبالتالى لابد لنا من إشاعة وجود قراءات متعددة ومختلفة لكل مقولة. وإنما يتميز الإنسان وبنو آدم عن سائر الموجودات فى قدرتهم على الإبداع. ومن لا يحترم إبداعه الإنسانى هو الذى لا يقر بإبداع الآخرين ونظرياتهم التكميلية وآرائهم المتنوعة.

٣ – إن التطور البشرى وصل إلى درجة معينة من الكمال تفرض علينا جميعا التزام المواثيق والعهود الخاصة بحرية الفكر والتعبير، واعتبارها موضوعات دستورية وقانونية تحكم سلوكياتنا نحن المثقفين أولا، تماما كما تحكم قوانين كل بلد مواطنى ذلك البلد.

٤ – الإقرار بضرورة قبول بعض الثوابت الكونية التى باتت ملكا للبشرية بالمطلق، والتى تعتبر جزءا من الغريزة الإنسانية وميلها للتسليم للفطرة الكونية فيما تبقى المتغيرات حقا سياسيا من حقوق تقرير المصير،

كما قال رسول الله محمد الأمين (ص) «أنتم أدرى بإدارة شؤون دنياكم». كما جاء في مضمون الحديث الشريف.

٥ – وهنا لابد من التأكيد على ضرورة احترام الخصوصيات الفردية والجماعية الثقافية والدينية والحضارية باعتبارها حافزا على شحذ الهمم الإبداعية ورفعة للبحث العلمي وتوقد الفكر البشري.

٦ – للتخلص من مساوئ «التخندق»، الذى يعترض عليه الدكتور ميلاد حنا، يمكن تعميم ثقافة المستويات المختلفة للتعامل مع الآخر منعا للتمييز ووصولا إلى فكرة المواطنة العالمية أو الكونية إذا ما جاز التعبير. فنقول إن ما يجمع البشر فى المستوى الأول هو الجوهر الإيمانى، إذ يتساوى الجميع هنا فى كنه تعلقهم بالكمال المطلق وهو الله تعالى، فيما يختلفون فى مستويات التشريع المختلفة حسب التطور الزمانى والمكانى فى المستوى الثانى، ومن ثم يختلفون أكثر فى مستوى العلاقات القائمة بين الحاكم والمحكوم فى المستوى الثالث حسب كل بلد أو موقع من مواقع الانتشار البشرى.

وهنا لابد من إشاعة قراءات متصالحة بين الدين والعلم والعقل من جهة، وكذلك بين الحاكم والمحكوم، أو السلطة والرأى العام من جهة أخرى، بما يؤسس لمصالحات تاريخية محلية وعالمية تصلح إطارا لحوار شامل بين الثقافات والحضارات.

٧ – إن المشكلة الخاصة بالنص الدينى – بنظرى – لا تكمن فى النص الدينى نفسه وكونه يعرض على أنه مقدس، فهذا حق من حقوق المتدينين قاطبة، بل هو حق من حقوق العقائديين إلى أى أيديولوجية انتموا.

والمشكلة تبدأ عندما لا يقر المتدينون والعقائديون بوجود فهم أو قراءة مختلفة للنص بين آحاد بني البشر، والتي تختلف أيضا من زمان لآخر، ومن مكان لآخر وظروف مختلفة من التطور البشري. وتصبح المشكلة أصعب وأعصى على الفهم والاستيعاب عندما تصبح القراءة البشرية المتواضعة للنص، قراءة مقدسة!

وعند هذه النقطة أود الوقوف قليلا لأورد بعض الملاحظات الخاصة:

(أ) لدينا قاعدة شرعية معروفة تقول: «ما حكم به الشرع حكم به العقل وما حكم به العقل حكم به الشرع»، لا بأس هنا من تعميمها في التعامل مع مقولات قراءة النصوص تسهيلا لعملية المصالحات التي ذكرت أعلاه.

(ب) تفيد التجربة الإيرانية التشريعية خلال العشرين سنة الماضية بأن القاعدة العملية القادرة على الجمع بين المحافظة على «طهارة النص وقدسيته» وفتح باب المناورة والاجتهاد أمام واضع القوانين هي أن تكون القوانين الموضوعة «لا تتعارض مع النص الشرعي»، وليس بالضرورة أن تكون «متطابقة» معه.

٨ - فيما يخص المجتمعات أو الدول الأحادية التوجه ينبغي علينا تشجيع دوائر المثقفين فيها باللجوء إلى السؤال وتعميم نظرية المساءلة والمساجلة الهادئة والحوارية وطرح مقولة «إن مجتمعا لا يسأل هو مجتمع ميت»، وإن توسيع المدارك العقلية لا يتم إلا عبر السؤال.

٩ - إن نموذج لبنان بوجه خاص، وهو بنظري لوحة جمالية رائعة من لوحات الإبداع الإلهي والتعايش البديع بين الثقافات والديانات

والحضارات أكثر ما يصلح فيه مفهوم المواطنة العالمية الذى يقوم على أساس الجوهر الإيمانى الواحد للأديان والمعتقدات، والذى ينبغى لنا أن نرعاه كمثقفين، ليبلور نظاما تشريعيا إنسانيا فريدا ومتميزا يصلح كنموذج قابل للتأمل وربما التعميم فيما لو تم التعامل مع تلك اللوحة البديعة للقدر بدرجة عالية من التخصيص والخصخصة فى الإدارة، وسن القوانين «الفيدرالية» أو «المناطقية»، أو ما يمكن أن ينجزه اللبنانيون أنفسهم من آليات جديدة فى مجال الأداء الإنسانى المتقدم بما يخدم إعادة صياغة لبنان على يد مثقفيه.

١٠ – ليست عندنا، برأيى، مشكلة فى العالمين العربى والإسلامى اسمها الأقليات الدينية وخصوصا مع المسيحيين. عندما يسود العقل وتحكم النظرة الثقافية العقلانية، فالمسيحيون العرب على ما أظن مسلمون يذهبون إلى الكنيسة، أى أن الرافد الأساسى لما يحملونه من ثقافة هو رافد الحضارة الإسلامية التى صنعت تراث وحضارة المنطقة كلها. المهم كيف نتعامل مع خصوصيات أهل هذه الديانة بما لا يستفز مشاعرهم وأحاسيسهم وقراءاتهم المختلفة والمتنوعة عن الحضارة وعن تراث ودين هذه الأمة وهذه البلاد.

١١ – أما فيما يتعلق بالأقليات العرقية فالمشكلة تبدو معقدة وتركيبية بعض الشىء، غير أن جوهرها أيضا يظل فى السياق نفسه، وهى برأيى ليست مشكلة أوطان وحدود بقدر ما هى مشكلة ثقافية وحضارية وأحيانا سياسية مقيتة. بمعنى أن القمع أو الاضطهاد الذى يتم فى بعض المواقع يتم على أساس احتقار الإنسان لأخيه الإنسان، لكونه واقعا فى الأطراف ولا يمتلك إمكانات، أو لكونه لا يمتلك إمكانات غنية تفيد المركز، أو

العكس أحيانا، لأنه يختزن ثروات يريد نهبها المهيمنون على المركز مما يجعل الأمر مختلفا بين موقع وآخر حسب تلك الظروف.

فالأكراد مثلا ليسوا أبناء ثقافة الآخر، ومشكلتهم لا تكمن دوما لكونهم ينتمون إلى العرق الكردى. ففى تركيا مثلا كانوا يحاربون لكونهم شكلو «عالة» على المركز لفترة، ولضعف إمكانات منطقتهم وصعوبتها، وفى العراق، لأنهم يختزنون ثروات هائلة ظل أصحاب المركز يطمعون فيه ويريدون الاستئثار بها وحدهم، وفى إيران ظلوا بعيدا عن المساهمة فى صناعة القرار، لأنهم «مثقفون من الدرجة الأولى» من الناحية المدنية والحضارية. وهو ما كان يقلق أرباب المركز ويمنعهم من ممارسة هيمنتهم على القرار القومى والوطنى. وهكذا تتحول النظرة إليهم اليوم فى البلدان الثلاثة المذكورة نتيجة للتحولات العالمية أو الإقليمية أو الداخلية، بما يساهم فى توازن المعادلة من خلال إشراكهم ولم يعد بالإمكان الاستمرار فى إهمالهم.

١٢ - فيما يخص موضوع الآخر فى الكيان الصهيونى الإسرائيلى:

(أ) لابد من التفريق بين اليهودى والصهيونى دينا وثقافة وانتماء حضاريا.

(ب) لابد من التفريق بين اليهودى المتدين فى المنطقة المحيطة بالكيان الإسرائيلى وبين المثقف الإسرائيلى، أو المواطن المساهم فى مساندة ورعاية وحماية الكيان الغاصب للأرض الفلسطينية العربية.

(جـ) المشكلة مع «الآخر» اليهودى الإسرائيلى صهيونيا كان أم غير صهيونى هو فى كونه مازال يمثل المغتصب. وبالتالى لا يجوز هنا إضعاف

ثقافة الممانعة أمام اليهودى التوسعى العدوانى المهيمن تحت عنوان «قبول الآخر»، واستمرارا، لابد من ترسيخ هذه الممانعة دفاعا عن الحق الفلسطيني والعربى، لأن حقوقنا في غير ذلك تضيع إلى الأبد. فالتطبيع يجب أن يظل محرما على المثقفين فى المطلق مادام الكيان الغاصب قائما، حتى لو طبعت كل الدول العربية والإسلامية والعالم أجمع. ولابد من اكتشاف آلية لإفهام «المثقف» اليهودى فى إسرائيل بأنه يمارس اغتصابا لحقوق الآخر مادام يرضى ببقائه فوق الأرض الفلسطينية مساندا ومرسخا استمرار الكيان الإسرائيلي.

(د) المشكلة ليست في عقيدة المتدين اليهودى بأنه ينتمى إلى شعب الله المختار، أو فى المسلم الذى يعتقد بأنه خير أمة أخرجت للناس كما أشار الدكتور ميلاد حنا: فهذا أمر طبيعى وقابل للتحمل فى إطار الخصوصيات الثقافية، والحضارية، والدينية ما لم يتحول إلى نظرية استعمارية، أو إملائية، أو استعلائية، أو توسعية عنصرية. فمن حق أى كان - بل ربما كان هذا الحق جزءا من إغناء الحوار وثرائه - أن يتعصب لأهله، وقومه، وعشيرته، ومذهبه، ودينه بشرط ألا يكون على حساب الآخر.

المحصلة: لابد من فصل نظرية «قبول الآخر» عن السياسة والسياسيين واعتبارها مسألة ثقافية فكرية حضارية، يتم التعامل معها بعيدا عن الشأن السياسى القائم على المصالح المؤقتة والطارئة. ولابد أيضا من تعميم ثقافة تحمل الآخر، والتعايش معه، والدفاع عن حقه فى التعبير عن نفسه مادام يلتزم بقانون التعايش والحوار. كما ينبغى إفهام الحكومات أيا كانت في الوطن العربى والإسلامي أو خارجه بأن رسالة

المثقف ليست المدح والثناء والتمجيد والتطبيل والتزمير للحاكم ولأرباب السيف وأصحاب السلطة أبدا. إن رسالة المثقف الحقيقى تكمن فى توسيع المدارك العقلية والعاطفية للبشرية جمعاء، وإيجاد التوازن والتعادل بين القلب والعقل والتنبيه لاحتياجات البشر الطامع نحو الكمال على كل المستويات. ولابد للحاكم، أى حاكم، أن يدرك بأنه طارئ ومؤقت مهما طال أمد حكمه، ذلك لأن الدار والوطن والدولة والقطر والبلاد ستظل لأهلها، من أبناء الرأى العام، أصحاب الحق الحقيقيين فى الحكم، وفى مقدمتهم المثقفون، وأن الحاكم إنما يحكم باسمهم لفترة بصورة اعتبارية، ولا أصالة إلا لأهل الدار، وخير من يمثل أهل الدار، ويعبر عن مشاعرهم وإحساسهم واحتياجاتهم، هم المثقفون، أو هكذا ينبغى أن يكونوا، وأن من واجب الحكام أن يرجعوا إلى المثقفين لفهم أوضاع البلاد، وعندها نقول نعم الحكام، ونعم المثقفين، وأوضاع أهل الدار، لأن المثقفين سيضطرون فى غير ذلك إلى مراجعة الحكام، وعند ذلك فبئس المثقفين وبئس الحكام.

وملاحظة أخيرة للحكام قد تفيدهم فى حيوية حكمهم وإدامته لبعض الوقت لمصلحة الأمة، وهى أن فن أى حكومة وعظمتها ونجاحها لا يكمن فى قدرتها على قمع أو إسكات الرأى الآخر بالقوة والسيف، بل فى قدرتها على معايشة واستيعاب وتحمل الآخر باقتدار.

وأخيرا وليس آخرا فى هذا السياق أيضا، ولكن على المستوى العالمى، فإن المطلوب منا كمثقفين عرب مسلمين ألا ننبهر بالآخر أو نستسلم له أو نذوب فيه، كما لا ينبغى أن نرفضه أو نقاطعه أو ننفيه من ذاكرتنا وتعاملنا، بل هو أمر بين أمرين، أن نعترف ونقر بحقه فى الوجود

والتعبير عن ذاته كما هو لا كما نشتهيه، وأن نقتبس منه ما يفيد، على أن نتمسك بجذورنا وأصالتنا، أى نمزج بفعالية وحيوية بين التراث والأصالة، بين الجذور والفروع والأغصان، والتى هى بالمناسبة من نتاج البشرية كلها، وملك لها، بعيدا عن كل أنواع الاختيارية، أو السلالية، أو العنصرية، وذلك فى حوار مفتوح ودائم بين الثقافات والحضارات.

ولا بأس فى الخاتمة من هذا التعقيب الذى أطلته عليكم. وبعد المعذرة من جميع المستمعين وشكرهم على صبرهم رغبت أن أنهيه بهذه الأبيات العربية التى تدعو إلى التعرف على الآخر والاستئناس به منذ القدم حيث يقول الشاعر:

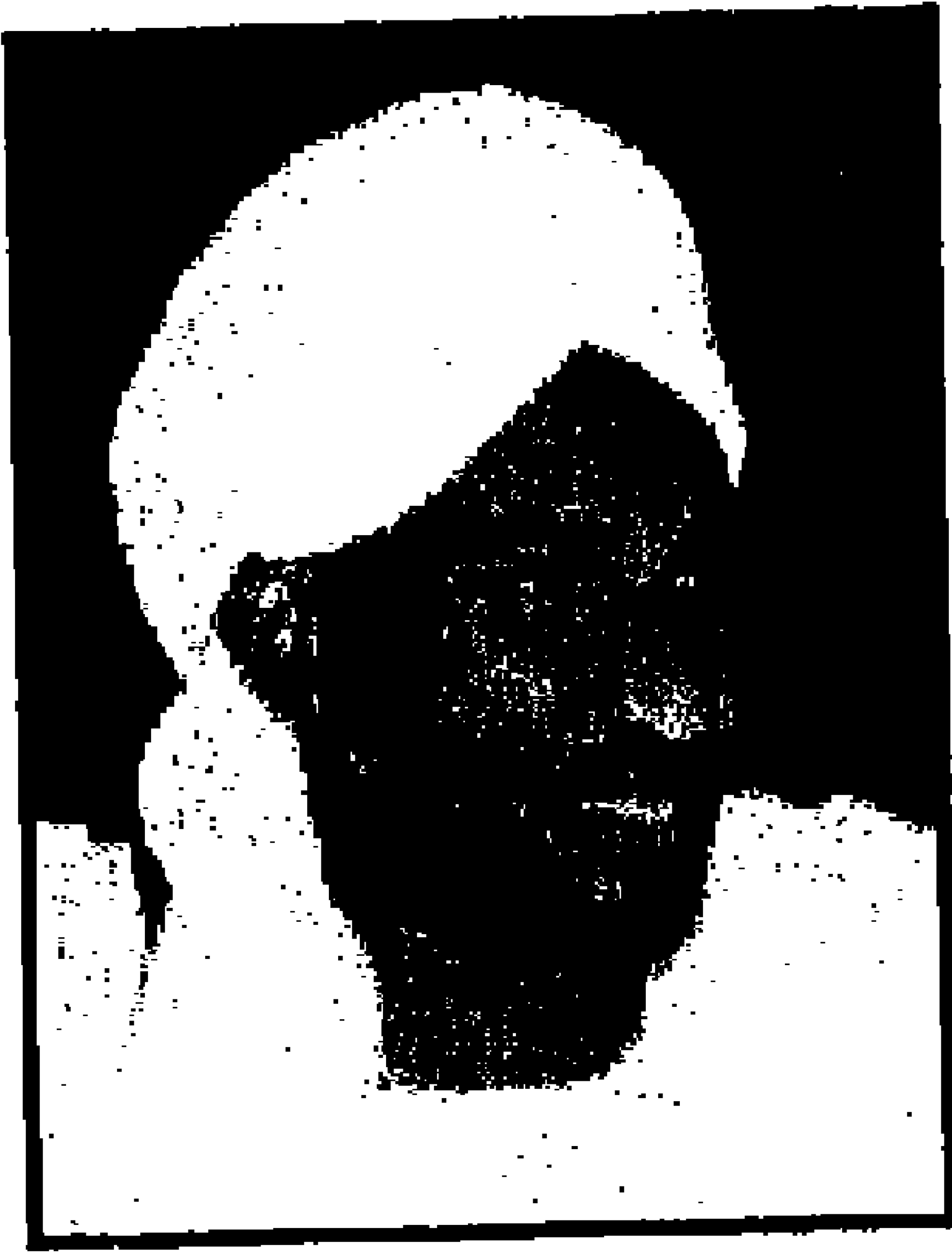
تغرب عن الأوطان فى طلب العلا
وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
فتفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد.

أو كما قال الشاعر الكبير أبو تمام:

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجة به فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة
لدى الناس أن ليست عليهم بسرمد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *



نــداء المهتديــن

لصاحب العهد لأنصار الله

الصادق المهدى

- رئيس وزراء السودان المنتخب عام ١٩٨٦
- زعيم حزب الأمة السودانى
- كتـب هذا النــداء إلى المـهتدين (أى أتبـاع دعـاة المهديــة) باعتباره: «صاحب العهد لأنصار الله».

تقديم نداء المهتدين فى هذا الكتاب:

فى أول أيام عيد الأضحى المبارك والذى توافق مع يوم السبت ٢٧ مارس عام ١٩٩٩ اصطحبت صديقى المهدى توفيق بيومى - الأمين العام لأسرة وادى النيل - وهى جمعيه أهليه تشكلت بمصر عام ١٩٩٦، وتضم نخبة من صفوة رجالات مصر والسودان، لكى يسترجوا دعوة قديمة عايشوها هى «وحده وادى النيل»، أقول، ذهبًا معا لزيارة كل من مولانا السيد محمد عثمان المرغنى - زعيم طائفة الخاتمة، ورئيس الحزب الاتحادى الديمقراطى بقصره بشارع الخرطوم بحى مصر الجديدة وبعدها توجهنا سويا لتقديم التهانى بالعيد للسيد/ الصادق المهدى، والذى يعيش فى شقة بسيطة عادية داخل عمارة سكنية جديدة فى أطراف مدينة نصر، فالمؤكد أنه يدرك أن مكانة داخله، ولذا فإن لقاءتنا حول قضايا ثقافية تمتد لوقت طويل لأنها - فى معظمها - حول الفكر العربى والعالمى وصولا إلى الثقافة الدينية على أنواعها وعندما تقاربنا - بعد أن اتخذ من القاهرة مقرا له بعد هروبه من بطش حكومة «الإنقاذ» فى حينها منذ عدة سنوات، ولكن السياسة تتغير مع الزمن فتتغير العلاقات الإنسانية بالتالى وكنت أمزح معه؛ بأنه رجل فكر يتجاوز أى منصب سياسى، على الرغم من أنه شغل بالفعل أعلى منصب منتخب فى السودان وهو رئيس وزارة السودان بعد أن خاض عام ١٩٨٦ - بنجاح مؤكد - معركة الانتخابات باعتباره زعيم ورئيس حزب الأمة السودانى.

وخلال الحوار، تطرق الحديث عن كتاب صموئيل هانتجتون والذى يتنبأ فيه بأن الحقبة الحالية والقادمة محكومة بمجتمع الصدام بين الحضارات وفى مقدمتها احتدام الصراع بين الغرب والإسلام.

وكان أن قدمت له في هذا اللقاء مؤلفي «قبول الآخر» وشرحت كيف أننا في «الشرق» لنا تراثنا في تفهم «الآخر» والمعايشة معه، وتحاورنا أيضا حول فكرة كتابي الأقدم (١٩٨٩) «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» وكيف أن التركيبة الإنسانية الثقافية للمصري متأثرة بتاريخ مصر ورقائق حضاراته الأربعة وهي: الفرعونية - اليونانية الرومانية - المسيحية القبطية - الإسلام (وهذه الرقيقة الخالية بها عدة رقائق داخلة)، كما هي (أي الهوية المصرية) متأثرة بالجغرافيا أي بالموقع، ومن ثم فإن المصري عربي ثقافة ووجودا لأن مصر قلب العالم العربي، ثم هي مطلة على البحر المتوسط وفي نهاية المطاف فإن العامود السابع هو انتماء مصر إلى أفريقيا.

ثم تطرق الحديث إلى الإسلام ومدى ملاءمة بعض مفاهيمه التراثية إلى العصر، وأثر كل ذلك على الصراع الدموي الذي يدور في السودان، فكان أن قام الصادق المهدي، وأحضر لي هذه الدراسة التي كتبها باعتباره «صاحب العهد لأنصار الله» وقد أعطاها عنوان «نداء المهتدين» وقد فهمت منه أن له دراسة أخرى بعنوان «نداء المؤمنين» وتفتح حوارا مع المسيحية فلم أعجب أن كان بيانه في جيبوتي مع الفريق عمر البشير في ١٩٩٩/١١/٢٥ بعنوان «نداء الوطن» فهو يهوى أن تكون كتاباته جملة نداءات فكرية.

وعندما عكفت على قراءة هذا النداء، وجدت فيها ما كنت أبغيه، فلا يستطيع - إلا مكابر - أن يزايد على الصادق المهدي في أنه مسلم متعمق في دراسة الفقه والسنة والتراث، وفوق ذلك لديه حنكة في دنيا

السياسة بما فيها من كر وفر وهرب، اكسبه ربط التراث بالفكر العالمى عبر النصف الثانى من القرن العشرين فعاصر استقلال السودان عام ١٩٥٦ ثم انتخابات وانقلابات وحروب أهلية بين الشمال والجنوب وكان أنواع الصراعات بسبب اختلاف العرق والدين والجهة (أى الموقع الجغرافى) ومن ثم جاء ندائه إلى أتباعه المهتدين تحمل رؤية جديدة تناسب العصر.

وربما كان الجزء الذى بهدفى هو ذاك الخاص بـ «الحقائق الجديدة» أى تلك المفاهيم «المعاصرة» التى نشأت حتى صارت جزءا من ثقافة القرن العشرين وربطها بالتراث ومن ثم فهو مجدد مجتهد (له أجران) وهذه الحقائق السبعة هى: الوطنية – القومية – العولمة – الوحدة الإسلامية – التعددية الاجتهادية – الحركة فى الشريعة التحول السياسى، وسيتعرف عليها القارئ من خلال الورقة ذاتها.

وهكذا أعجبتنى دراسة ونهج الصادق المهدى، وما أن حانت الفرحة لأن أنشر كتابى عن «المثقف والآخر»حتى وجدتها تضمنه مفاهيم «قبول الآخر» فكان «نداء المهتدين» إضافة فكرية طيبة، زادت الكتاب ثراءً وانفتاحا.

ولأن السودان يمر حاليا بمرحلة تاريخية مفصلية، ولأن الصادق المهدى أصبح أحد رموز التغيير لأنه حامل لفكر «قبول الآخر» المدعم بأسانيد ومرجعيات ذات جذور تراثية، لذلك صار منشغلا بالحاضر المتحرك لكى يصيغ «سودانا جديدا»، يضع فيه الأفكار والنداءات موضع لتنفيذ، ومن ثم لم أستطع أن أحصل على الموافقة المباشرة لنشر هذا

النداء ضمن هذا الكتاب فهو كثير الترحال من جيبوتي إلى كامبالا إلى طرابلس إلى جينيف ليجرى حوارات فكرية في الكواليس تصاغ في توجهات سياسية لها مردودها مع الواقع فيكون الانصهار الوطني وهو ما يحتاج له السودان بشدة اتصلت بأحد معاونيه المقربين منه وهو الصديق د.إبراهيم الأمين - الطبيب والمناضل والمفكر والوزير السابق في حكومة الصادق المهدى عام ١٩٨٦ فكان أن سعد ورحب بأن تكون ورقة «نداء المهتدين» متاحة للقارئ المصرى من خلال مجلة «اقرأ» والتي أصبحت من أكثر الدوريات انتشارا لتقديم كل ما هو جديد وكل ما يثير الحوار ويثريه.

ميلاد حنا

١٤ / ١٢ / ١٩٩٩

نداء المهتدين

لصاحب العهد لأنصار الله

الصادق المهدى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.
قال تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[1].

منذ أن أشرق نور الرسالة الإسلامية سطرت سيرة الإسلام صلاحا ونجاحا وفلاحا لم يعهد تاريخ البشرية لها مثيلا. لقد أسس الإسلام دينا عالميا مازال يتمدد فى كل أجزاء العالم، وأسس المسلمون حضارة استصبحت عطاء حضارات الإنسان السابقة وأتت بنسيج وسطى فريد. واستطاعوا أن يؤسسوا كيانات سياسية هيمنت على الربع المعمور من العالم لمدة ألف عام.

ولكن منذ ثلاثة قرون استطاعت الحضارة الغربية أن تستصحب عطاء الحضارات السابقة لا سيما الحضارة الإسلامية، وأن تبدع الحضارة الحديثة التى تفوقت على كافة الحضارات الأخرى وهيمنت عليها. إن الذى أهل الحضارة الغربية الحديثة لذلك التفوق أمران:

---

(١) سورة النحل : [١٢٥] .

الأول : هو أن الحضارة الحاملة للمشعل قبلها: أى الحضارة الإسلامية، قيدها الجمود الفكرى والثقافى، وأضعفها التفرق المذهبى، وأقعدها التخلف الاقتصادى والاجتماعى، وحبسها الاستبداد السياسى فتآكلت وتراجعت حتى صارت كالمستعدة للغزو الأجنبى والاستسلام له.

والثانى : القدرات الذاتية للحضارة الغربية بلغت شأوا عظيما نتيجة لثلاثة عوامل:

(١) الحرية الفكرية وحرية البحث العلمى والتكنولوجى.

(٢) تأسيس نظام سياسى يقيم الحكم على رضا المحكومين ويعرض الحكام لمحاسبتهم عبر مؤسسات مقننة ويحقق أمرين هامين هما:

(أ) التداول السلمى للسلطة عبر مؤسسات دستورية.

(ب) تقنين الوظيفة العسكرية وإخضاعها للشرعية الدستورية.

(٣) تأسيس نظام اقتصادى حقق جدوى استثمارية وإنتاجية عالية عن طريق الاستغلال الفعال لتطور العلم والتكنولوجيا وآلية السوق الحر.

هذه العوامل مكنت الحضارة الغربية الحديثة أن تقيم نظما سياسية مستقرة ومتطورة، وان تقيم نظما اقتصادية منتجة ومحققة لأعلى درجة من التبادل التجارى الداخلى والخارجى وأن تبنى قوات مسلحة محصورة فى أداء وظيفتها العسكرية عالية الكفاءة القتالية والتنظيمية. واستطاعت الحضارة الغربية الحديثة أن تكتسب قوة سياسية واقتصادية وعسكرية مكنتها من فرض هيمنتها على سائر أنحاء العالم.

أثناء القرون الثلاثة الماضية وضعت الحضارة الغربية الحديثة المهيمنة الحضارات والبلدان الأخرى أمام واحد من ثلاثة خيارات:

(أ) رفض الحضارة الغربية ومقاومتها وبناء الحياة على أساس مستقل عنها.

(ب) الامتثال للحضارة الغربية باعتبارها تمثل مستقبل الإنسان المحتوم وبناء الحياة على أساس التشبه بها.

(جـ) اتخاذ موقف وسط يحافظ على الهوية الثقافية والحضارية ويقبل التحديث ويفرق بين المقومات الذاتية للحضارة الغربية وبين الحداثة.

لقد أخذ بالخيار الأول دعوات وحركات وثورات عديدة فى العالم الإسلامى هدفها بناء الحاضر على بعث الماضى واستلهام إنجازاته ومقاومة ورفض الحضارة الغربية بحذافيرها. هذه المواقف حققت فى كثير من البلدان بطولات ونجاحا مؤقتا ولكنها فى النهاية تهاوت أمام القوة الاقتصادية والآلة العسكرية الغربية.

كانت الدعوة المهدية فى السودان أنجح مواقف التصدى للهيمنة الغربية فى القرن التاسع عشر الميلادى. وكان تصديها وبطولاتها مضرب الأمثال فى الشجاعة والإقدام، ولكن الكيان السياسى الذى أقامته الدعوة المهدية بعد صموده لأكثر من عقد من الزمان تصدع أمام الآلة العسكرية الحديثة.

أما الخيار النقيض، الثانى، فقد أخذ به آخرون لاسيما فى آسيا الوسطى وفى الجزائر الفرنسية وفى تركيا الكمالية. هذه المحاولات مع ما توافر لها من أسباب التمكين تراجعت أمام دعوات التأصيل الدينى والحضارى والثقافى.

واقع الحال الآن هو أن البلدان التى تمت فيها محاولات البعث الماضوى المحض تشهد انفتاحا عصريًا. والبلدان التى تمت فيها محاولات انخراط فى الحضارة الغربية تشهد بعثا تأصيليا. هذا معناه أن النهج الأفضل والأجدى هو التزام التأصيل دون انكفاء والتحديث دون تبعية.

إن علاقة الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية معقدة لأسباب أهمها:

١ - الحضارة الإسلامية تكمن فيها تيارات مشدودة إلى نجاحها القديم لدرجة تظن أن استنساخ ما حدث تاريخيا ممكن. هؤلاء يسقطون نجاح الماضي على الحاضر فيشلون حركته. هؤلاء يعتقدون أن التعامل المشروع مع الأديان الأخرى والحضارات الأخرى هو ذلك التعامل الذى يقاس على سابقه فى الماضى ولا مشروعية لأية معاملات تقوم على أنماط مختلفة.

٢ - الحضارة الغربية الحديثة تعاملت مع الحضارة الإسلامية بدرجة عالية من الذعر لأنها الحضارة الوحيدة التى كادت تمتصها بسبب تفوقها الفكرى والتكنولوجى والثقافى عليها. كما كانت الحضارة الوحيدة التى هددت الحضارة الغربية في وجودها اكثر من مرة. لذلك صار التخوف من الإسلام والمسلمين شيئا عاديا فى كثير من النفوس الغربية.

٣ - الحضارة الغربية الحديثة تعاملت مع الحضارات الأخرى بدرجة كبيرة من التعالى وافتراض الدونية. وكان تعاملها مع المسلمين ظالما مهينا

غدارا لم يراعوا فيهم إلاها ولا ذمة. لذلك صار بغض الغرب وأهله قريبا من نفوس كثير من المسلمين.

٤ – إن إصرار الغرب على التعامل مع الحضارات الأخرى بالتعالى ومع المسلمين بالظلم يغذى مشاعر الكراهية والتنافر فى الطرفين ويوقد تيارات التشدد والمواجهة فيهما مما يسوق العالم إلى فترة صدام ظلامية. آتية حتما ما لم تهزم الحضارة الغربية نزعات التعالى والظلم فيها، وتنتهج – وهى فى موقف القوة والهيمنة الحالية – نهجا ذا خمس شعب:

● الاعتراف بأن الحضارة الغربية الحديثة حضارة مركبة ساهمت فى تكوينها كل حضارات الإنسان السابقة لاسيما الحضارة الإسلامية.

● الاعتراف بأن الحضارات الإنسانية والثقافات الأخرى لها دورها فى بناء حاضر ومستقبل الإنسانية، ولا يجوز التعامل معها ككائنات منقرضة أو فى طريقها للانقراض الوشيك.

● التسليم بأن منجزات الحضارة الغربية الحديثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية الصالحة لاستصحاب البشر لها فى كافة البلدان، سيتم استصحابها برؤية ذاتية بالإكراه، والرؤية الذاتية هذه تشتمل على أقلمة ثقافية واجتماعية تحددها الشعوب المعنية باختيارها.

● إن الغرب قد كان سببا أساسيا فى تكوين عدد من بؤر النزاع الساخنة، ومهما كانت مسئولية الأطراف المحلية عن استمرار تلك البؤر

الملتهبة فإن اعتراف الغرب بدوره في تكوينها واستعداده للقيام بدور تكفيرى فى علاجها أمر هام وعتبة نحو علاقات دولية سليمة وسوية.
أهم تلك البؤر هي:

(أ) قضية الحق الفلسطيني المغصوب وقيام دولة إسرائيل على حسابه.

(ب) قضية كشمير وأهلها كشعب متطلع لتقرير مصيره.

(جـ) مسألة جنوب السودان وما كان من أمر سياسة الاستعمار لتطوير الجنوب على أساس مناقض لما فى الشمال ثم عكس تلك السياسة فى فترة زمانية لم تكف لتكريس الاتجاه الجديد.

● إن للغرب الاستعمارى مسئولية فى تخلف البلدان التى وقعت تحت نير الاستعمار. صحيح أن للقيادات الوطنية التى حكمت هذه البلدان بعد استقلالها مسئولية فى الإبقاء على التخلف. لكن يتبقى أن نعترف أن النظام العالمى السياسى والاستراتيجى الذى قام بعد الحرب العالمية الثانية كان نظاما بالنسبة لدول الجنوب - والعالم الإسلامى جزء منه - غير متكافئ.

والآن إن تحرير العلاقات الاقتصادية والتجارية بين عالم الجنوب أى جنوب الكرة الأرضية المتخلف، وعالم الشمال المتقدم، وحصول عالم الشمال على أهم أسباب الرقى والتقدم سوف يؤدى إلى اتساع فجوة التنمية بين نصفى الكرة الأرضية بل إن هذا الوضع غير المتكافئ - بالإضافة إلى تقصير كثير من قيادات عالم الجنوب - سوف يؤدى إلى

تهميش الجزء الأكبر من عالم الجنوب. هذا التهميش سوف يؤدى حتما إلى التظلم، والغبن، والاحتجاج.

ينبغى أن يهتم عالم الشمال كقيادة فعلية للأسرة الدولية اهتماما خاصا بالتنمية فى عالم الجنوب لأسباب كثيرة أهمها:

(أ) أسباب سياسية. فالاحتجاج والتظلم لا يمكن حصره فى عالم الجنوب بل سوف يتعداه إلى الشمال عبر عدد من وسائل الاحتجاج نسميها أسلحة الدمار الشامل، ونذكر منها تكوين مصادر مستمرة لحركات الإرهاب الذى يمكن أن يسمى نفسه أسماء عديدة ولكنه فى النهاية احتجاج سياسى يتخذ العنف أسلوبا.

(ب) القنبلة السكانية التى يمكن أن تنفجر فى عالم الجنوب وتكون لها آثار سلبية فى كافة أنحاء العالم.

(جـ) القنبلة الأيكولوجية. إن تصرف أى جماعة أو دولة فى العالم بطريقة غير مسئولة نحو البيئة والطبيعة سيكون له آثاره السلبية العامة.

(د) قنبلة المخدرات. ضبط التعامل مع المخدرات إنتاجا وتوزيعا أمر مهم ولا يمكن تحقيقه إلا على أساس دولى حازم.

(هـ) القنبلة الصحية. إن العالم يشكل بيئة صحية واحدة، وإن علاج الأوبئة والوقاية من المخاطر الصحية يتطلبان مشروعا صحيا عالميا.

(و) الهجرة غير القانونية . هذه الظاهرة سوف تستمر وتتصاعد ما لم تعالج أسبابها الأساسية. وعالم الشمال لا يستطيع أن يتعامل معها

كظاهرة أمنية فحسب وإن حاول ذلك فلا يحقق نجاحا جزئيا إلا على حساب إلغاء الحريات العامة في مجتمعاته ! !.

.. ذلك النهج الغربى المطلوب يشكل لنا بيئة خارجية صالحة. ولكن الأهم منها أن نقف نحن المسلمين وقفة صدق مع الذات نحاسب أنفسنا ونحسب خطانا لأن تجديد دورنا الفعال فى الحياة يبدأ بصحوة ذاتية.

يجب أن نعترف أننا استقبلنا وحيا هو الأوثق لأن الكتب الأخرى لم تدون على نحو ما حدث للقرآن الكريم. كذلك كان **نبينا هو الأكثر تاريخية بالقياس للرسل الآخرين الذين محت الأيام أكثر تفاصيل سيرتهم للسنّة اللهم إلا ما دون منها فى القرآن الكريم.**

هذه الحقائق الناصعة حبسنا بها أنفسنا فى الماضى دون مبرر دينى صحيح. الملزم لنا بموجب عقيدتنا هو القطعى ورودا والقطعى دلالة من النصوص الإسلامية. لكننا ألزمنا أنفسنا بتفاسير للقرآن، وبدونات للسنّة، وباستنباطات فى الفقه، وبروايات للسيرة جعلناها ملزمة لحاضرنا ومستقبلنا فألبسنا الفكر والثقافة والحياة قميص حديد ماضويا. إن فى شريعة الإسلام ما هو ثابت ومتحرك. وإن من مقاصدها التوفيق بين حقائق الوحي والعقل. ولكن إلزام أنفسنا بتلك التفاسير والاستنباطات والروايات يلحق اجتهادات عقول الأقدمين بحقائق الوحى، ويلحق المتحرك من أحكام الشريعة بالثابت وهذا معناه إلغاء دور العقل وإلغاء هامش حركة الخلف. إن فى هذا تضييقا لواسع وتبديدا لمقاصد الشريعة.

الإسلام رسالة خاتمة خاطبت الإنسانية فى مرحلة نضجها، وكلفتها بالاجتهاد فى كل ما ليس قطعى الورود وقطعى الدلالة، إن على أمة

الرسالة الإسلامية واجبا نجاحها فى أدائه يؤهلها لقوله تعالى: : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..** ﴾ الآية (١١٠ — آل عمران). وإخفاقها فى أدائه هو السبب المباشر لما تعانى منه اليوم من انحطاط إنها معاناة سوف تستمر ما بقيت أسبابها، ولا يخرجنا منها إلا جهدنا واجتهادنا ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ الآية (١٣ — الرعد) .

إننا ونحن نستقبل القرن الميلادى الجديد نشاهد بوضوح:

١ – الإسلام الديانة، الذى فصلته حقائق الوحى وأحكامه ثابتة، لا ينفك يعمق فى النفوس وفى التربية. ولا ينفك يتسع انتشارا بصورة جعلته حتى يومنا هذا الدين الأوسع انتشارا فى كل قارات العالم.

٢ – الإسلام الحضارة – أى ديوان الحوار بين المسلمين والحضارات الأخرى والمجتمع والتاريخ – كون حضارة عالمية متفردة يزيد تقديرها يوما بعد يوم.

٣ – لكن مع أن الإسلام كأساس للنظام الاجتماعى مشتمل على أرفع المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأكثرها تفوقا على أفضل ما أفضى إليه التقدم الإنسانى فى المجال الاجتماعى.. مع ذلك كله، فإن المسلمين اليوم يعيشون واقعا اجتماعيا سيئا. الشعوب الإسلامية هى الأكثر ضحية للجمود الفكرى والثقافى فى العالم، وبالتالى هى الأكثر تخلفا اقتصاديا وسوء توزيع للثروة والدخل. وهى الأكثر تعرضا للهيمنة الأخيبية. والسبب واضح: دور العقل فى التفسير والاستنباط وتحليل

الروايات، ودوره فى التعامل مع الجوانب المتحركة من الشريعة دور هام في مجال المعاملات. أى فى المجال الاجتماعى، إنه دور يقع التكليف به على الأمة وتعطيله يدل على تقصير الأمة فى القيام بواجبها ويؤدى إلى ما أدى إليه من واقع اجتماعى كريه.

« يا أهل القبلة تعالوا إلى كلمة سواء بيننا »

أولا : إننا كتابنا واحد معلوم ومحفوظ النص، ورسولنا واحد معلوم السيرة والهوية. هذه من نعم الله علينا. كتاب الله وسنة رسول الله بين أيدينا. علينا أن نؤمن تماما بأن ما نلتزم به هو القطعى ورودا والقطعى دلالة من الكتاب والسنة. أما الظنى ورودا والظنى دلالة وما ليس فيه نص أصلا فأمور اجتهادية غير ملزمة لنا.

ثانيا : التعامل مع الآخر المذهبى الإسلامى يجب أن يقوم على الإيمان المشترك بالقطعيات والاعتراف المتبادل بالاجتهادات على أساس أن التقليد فى الاجتهادات غير ملزم وأن القاعدة السنية من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فاخطأ فله أجر واحد.

ثالثا : هنالك عوامل مستجدة اختلف المسلمون حول كيفية التعامل معها :

- أهل السنة قالوا بالتعامل مع المستجدات على أساس القياس والإجماع.
- الشيعة قالوا بمعرفة خاصة للأئمة ولمراجع التقليد فى غيابهم. هؤلاء يفتون فى أمر المستجدات.

● الصوفية قالوا بأن الصالحين ملهمون مكشوف لهم الحجاب مما يتيح لهم معرفة خاصة للتعامل مع كل الأمور وعلى الآخرين اتباعهم.

لقد جادل المسلمون كثيرا حول تلك الأساليب، فمن قائل أن القياس غير صحيح، لأنه لا تكون حالة مثل حالة أبدا، وقائل أن الإجماع فى أمر من الأمور غير القطعية لم يقع أبدأ، وقائل أن الأئمة المعنيين لم يوجدوا أصلا، وأن القول بالكشف مختلف عليه، وغيرها من مقالات الإسلاميين، إن عصرنا الحالى يمتاز بإلغاء المكان عن طريق المواصلات، وإلغاء الزمان عن طرق الاتصالات مما يتيح لنا وسائل أفضل فى التعامل مع هذه القضايا. الأسلوب الأمثل هو تحديد هيئة أو هيئات فنية ذات معرفة وتخصص فى كل المجالات ذات دور استشارى. واتخاذ هيئة أو هيئات تشريعية ذات تفويض شعبى للتداول بشأن المستجدات واتخاذ قرار بشأنها.

رابعا : ينبغى أن نحدد أساسا واضحا للتعامل مع الآخر الملى فى أوطاننا. إنهم وجدوا معنا فى هذه الأوطان واستمروا فيها باختيارهم، وإن هذا الموقف أكسبهم موقف أهل العهد – عهد المواطنة – وإن نحن سحبنا منهم هذا الحق فإنهم فى نطاق القانون الدولى المعاصر سوف يسعون إلى حق تقرير المصير. إن عهد المواطنة يقتضى الاتفاق على حد أدنى من الحقوق لكل المجموعات الوطنية، وإلا دفعناهم دفعا نحو العمل لتقرير المصير ومن ثم التمزق الحتمى. علينا إذن أن نقر عهد المواطنة وحق المواطنة كأساس للكيان الوطنى، **فالوطن لكل سكانه بموجب عهد**

المواطنة، ولكن هذا لا يتعارض مع الحقوق الدينية والثقافية للمجموعات الوطنية المختلفة ما دامت لا تطالب بوضع ينتقص من حقوق المجموعات الأخرى.

إن الشريعة الإسلامية واجبة التطبيق للمسلم، وعلينا أن نضع ميثاقا واضحا يوفق بين حق المسلمين فى تطبيق الشريعة الإسلامية، وحقوق المواطنة للآخرين. وعلينا أن نعلن بوضوح التزامنا الأساسى بأن التعامل بيننا وبين أهل الملل الأخرى يقوم على مبدأين أساسيين هما: ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ الآية (٢٥٦ — البقرة) ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ الآية (١٢٥ — النحل).

خامسا : النظام الدولى الحالى يقوم على أساس العهد الذى يقوم عليه نظام الأمم المتحدة. إنه نظام بالنسبة للمسلمين يعتمد على مرجعية إسلامية أساسية هى: ﴿ وأفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا... ﴾ الآية (٣٤ — الإسراء). ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ..﴾ الآية (٨ — الممتحنة).

إن النظام الدولى المعاصر لم ينشأ من فراغ. لقد كانت بداياته مستمدة من مفاهيم المعاهدة والائتمان، ومعاملة الأسرى، والعلاقات بين الكيانات السياسية الدولية التى خطها المسلمون استنباطا من مبادئ وأحكام الإسلام، وتسربت إلى أوروبا عبر الأندلس وصقلية وجنوب

إيطاليا، وقديما قال بلاسكو ايباريز فى كتابه «تحت ظلال الكاتدرائية»: «إن إحياء أسبانيا لم يأت من الشمال بل من وسط مع العرب الفاتحين».

نعم .. إن النظام الدولى الحالى أقيم فى غياب كثير من البلدان الإسلامية.

نعم .. إن فيه نقصا يفتقر إلى تصحيح وتصويب لتكتمل عدالته. وهذا ما ينبغى أن نسعى إليه ونحققه.

سادسا : هنالك منجزات حققها الغرب لا تتعارض مع أصول مبادئنا الإسلامية، ولكن الفضل فى تحقيقها وتكوين مؤسسات لاستدامتها يرجع للحضارة الغربية فى المقام الأول. تلك المنجزات ينبغى أن نستصحبها دون أدنى حرج، وأن نحدد مرابطها فى مقاصد الشريعة الإسلامية:

(أ) الحرية الفكرية وحرية البحث العلمى والتكنولوجى.

(ب) النظام السياسى الذى يقوم على رضا المحكومين ومساءلة الحكام وتحقق التداول السلمى للسلطة والخضوع العسكرى للشرعية الدستورية.

(جـ) النظام الاقتصادى الذى يقوم على آلية السوق الحر لاسيما فى مجال الاستثمار والإنتاج والتبادل التجارى.

(د) الالتزام بحقوق الإنسان على أساس أن الله كرمه وأوجب له حقوقا مقدسة. إن حقوق الإنسان التى جاء بها الإسلام تتكامل ولا تتناقض مع حقوق الإنسان العالمية على نحو ما أوضحنا بالتفصيل.

وحقوق الإنسان فى الإسلام تمتاز على غيرها لأنها تستمد من جذور روحية وخلقية وتستوجب جزاءا أخرويا.

(هـ) لقد دار فى مسألة المرأة جدل كبير. المرأة هى الوالدة والزوجة والأخت والبنت للرجل، والنساء فى مفهوم الإسلام شقائق الرجال. والنصوص الإسلامية واضحة فى مساواتها إنسانيا وإيمانيا.

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ﴾ الآية (١٣ — الحجرات).

﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض.. ﴾ الآية (١٩٥ — آل عمران).

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. ﴾ الآية (٧١ — التوبة).

هذه المساواة بين الرجل والمرأة حددها أمران: **الأول:** فطرى وهو أن للرجل والمرأة فى أمر التوالد والأسرة وظيفتين مختلفتين متكاملتين. هنالك أحكام تتعلق بهذا الاختلاف لا مفر منها بل هى واجب تقتضيه الفطرة. المهم ألا يكون هذا مدخلا للتفاضل بل للتكامل. **الأمر الثانى:** أحكام واستنباطات لحقت بالمرأة بسبب ظروف فكرية وثقافية واجتماعية مقدرة فى زمانها ولكنها الآن تجاوزتها الظروف.

إن حقوق المرأة فى الإسلام كانت طفرة تحريرية فى ظروفها. أما الآن فإن حقوق المرأة العالمية قد بلغت مرحلة متطورة. التحدى الذى يواجهنا هو هل تستطيع المرأة أن تكون مسلمة وحديثة فى آن؟ الجواب: نعم.

سابعا : الجهاد هو ذروة سنام الإسلام. والجهاد هو رهبانية أمة محمد ﷺ والجهاد ماض إلى قيام الساعة. إن مادة جهد هى أساس الصلاح والفلاح والنجاح فى كل مجالات الحياة. ولا يفلح الإنسان فى أية حالة إذا لم يبذل الجهد: لابد لنيل الشهد من إبر النحل. الجهاد فى هداية الإسلام هو بذل الجهد كله للالتزام بأمر الله. إنه يبدأ دائما بإلزام النفس على الفضيلة، وهذا هو الجهاد الأكبر لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ثم يتجاوز الإنسان نفسه إلى أسرته وإلى مجتمعه وعليه بذل الجهد كله وبكل الوسائل للالتزام بهدى الله، هذا الالتزام يصير التزاما قتاليا فى حالة فتنة الناس عن دينهم أى إكراههم على الخروج من دينهم. وفى حالة الدفاع عن النفس. أى دفاعا عن العقيدة ودفاعا عن الحياة ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ الآية (٣٩ – الحج).

إن اتحاد الفهم بين كافة أهل القبلة حول هذه النقاط السبع واجب إسلامى.

الحقائق الجديدة

هنالك سبع حقائق جديدة في عالم لم يسبق للفكر الإسلامى أن حدد موقفا بشأنها. إنها حقائق ينبغى أن نحدد نحوها مواقف واضحة هى:

أولا: الوطنية:

الوطنية والدولة القومية المترتبة عليها شكل سياسى جديد اتخذته الكيانات الأوروبية منذ صلح وستيفاليا فى ١٦٤٨ م وصارت الوحدة المعتمدة فى العلاقات الدولية.

لقد عرف الإسلام رابطة الأسرة. ورابطة القبيلة. ورابطة الإقليم أو الجهة.. لكن الوطنية تقوم على أساس ثقافة معينة، وتاريخ، وتجارب تكوّن شعبا مرتبطا بأرض معينة. المواطنة هى الرابطة التى تجمع بين شرائح هذا الوطن. إنه تطوير لرابطة الأسرة والعشيرة، يربط بين المجموعات الوطنية والدولة، وله فاعلية فى تنظيم مصالح المواطنين من حيث توافر أسباب المعيشة والأمن.

إن الرابطة الوطنية يمكن أن تكون مفيدة فى سبيل تحقيق التنمية وكفالة سبل المعيشة والأمن، ومع أنها تقوم على مفهوم متشدد على السيادة الوطنية، فإن التعامل مع السيادة بصورة مرنة لتقبل الانتماء إلى كيانات أوسع ممكن ما دام ذلك يتم برضا المواطنين. **لذلك يجب ألا ننظر إلى الانتماء الوطنى بريبة وألا نضعه فى مقابل الولاء للأمة الأكبر، بل نعتبر الانتماء الوطنى صالحا فى حدوده المختارة قابلا للتوسع الاختيارى.**

ثانيا: القومية:

إن فى الأمة الإسلامية عدة قوميات. والإسلام لم ينف الانتماء القومى بل استصحبه بصورة جعلت العرب يحققون بالإسلام أمجد أيامهم، كذلك حققت القوميات الأخرى الطورانية، والفارسية، والهندية بالإسلام أمجد أيامها وأفضل عطائها.

إن علينا أن نعترف بالانتماء القومى لا سيما على أساس ثقافى ولغوى وسلالى لا يتعارض مع الانتماء الأوسع للأمة إلا إذا كانت فيه عصبية. العصبية هى الشعور الذى يمقته الإسلام لا القومية.

ثالثا : العولمة :

هناك عوامل جديدة فى عالم اليوم هى :

١ - تكنولوجيا المواصلات نفت المسافات وتكونولوجيا الاتصالات كمشت الزمان فصارت أطراف العالم متداخلة وصار كوكب الأرض أقرب إلى حاضرة واحدة .

٢ - المصلحة البيئوية (الأيكولوجية) لكوكب الأرض واحدة مما يوجب التعامل معها كوحدة طبيعية واحدة .

٣ - هناك فضاءات تملكها الإنسانية ملكا مشتركا : الفضاء والبحار والمحيطات والأجزاء غير المأهولة من الكوكب .

٤ - أثناء التسعينيات انعقدت مؤتمرات قمة قاربت بين وجهات النظر حول كثير من القضايا الهامة : السكان - المرأة - النواحى الاجتماعية .. وهلم جرا .

٥ - هناك العديد من الأديان العالمية كالمسيحية والإسلام والبوذية والأديان التي كونت حضارات كالمسيحية والإسلام والهندوسية، والحضارات المتعددة الأديان كالصينية واليابانية والثقافات الإنسانية الكثيرة. لقد انطلقت حوارات جادة بين أطراف هذه الانتماءات وهي حوارات تصب في خانة تبين القيم المشتركة بينها والتنوع والتعدد فيها. إن هذه الحوارات تتجه لتكوين تصور موحد للتعايش والتسامح الديني والحوار بين الحضارات تجنبا للصدام والخصام.

٦ - التطور الاقتصادى والتجارى وحركة انتقال الأيدى العاملة والاستثمارات والحركة المالية العالمية تتجه لخلق سوق عالمى واحد.

هذه العوامل الستة هى التى تقف وراء العولمة كظاهرة مرتبطة بتطور الوعى الإنسانى والتاريخ الإنسانى. لكن العولمة تتم فى عالم فيه توزيع غير عادل للسلطة والثروة والقوة العسكرية. لذلك فإن القوة المهيمنة عالميا إنما تلون العولمة بلونها وتحاول إخضاعها لمصالحها الذاتية.

إن علينا أن نقبل العولمة كتطور حتمى لتاريخ الإنسان، وأن نتخذ ما نستطيع من إجراءات علي كافة الأصعدة لكيلا تتحول العولمة إلى امتثال للهيمنة الدولية. هذه معادلة صعبة ولكن الانكفاء دون العولمة تخلف والامتثال للهيمنة تبعية، وعلينا أن نحقق الانفتاح نحو العلومة ونتجنب التبعية.

رابعا : الوحدة الإسلامية :

التطورات العالمية نحو العولمة تزيد من الوعى بالذات الحضارى وبالمصالح الوطنية الإقليمية لذلك نشطت مع العولمة تيارات التكوينات القومية والإقليمية لتحقيق أقصى درجات الانتفاع بالواقع العالمى الجديد وحماية المصالح الخاصة والحماية من الهيمنة .

ماذا عن الوحدة الإسلامية ؟

الوحدة المتجسدة فى دولة واحدة لم تعد ممكنة فى المستقبل المنظور، إنها اختفت من الواقع الإسلامى منذ نهاية العهد الأموى فى عام ١٥٠هـ **إن مفهوم القيادة العليا الواحدة كما كان متاحا للخليفة لم يعد واردا لأن ضوابط العدالة صارت تقتضى أن يكون رئيس الدولة مختصا بالسلطة التنفيذية، ضمن إطار يحدد مؤسسات السلطة التشريعية والقضائية،** وآليات تبسط للشورى والمشاركة على نطاق واسع عبر مؤسسات المجتمع المدنى والصحافة وآليات البحث العلمى والاجتهاد الفكرى والتطور الثقافى، وهى آليات لها دورها ووزنها ووظيفتها القانونية . **حتى فى إطار دولة قطرية واحدة لم تعد توجد مؤسسة قيادة شاملة مطلقة إلا فى الدولة الاستبدادية .**

إن وجود دولة مختلفة محكومة بنظم دستورية لا يمنع التعامل مع مفهوم السيادة الوطنية بمرونة وتحقيق وحدة فى مجالات عديدة :

١ - فى المجال الروحى والعبادى إذ يمكن للمسلمين الاتفاق على ما يجمع بينهم والتعايش فيما يفرق بينهم على أن يقيموا تنظيما موحدا يقرر بشأن المسائل العقيدية والعبادية ويتخذ تكوينا جماعيا شوريا .

٢ – تكوين محكمة استئناف عليا ذات صلاحيات متفق عليها للحكم في قضايا معينة .

٣ – برنامج موحد للتعليم الديني وتعاون في كافة المجالات التعليمية. برنامج يحقق التعاون في مجالات معينة ويفسح مجال التنوع .

٤ – تعاون ثقافي وإعلامي.

٥ – تنسيق تنموي وتجاري في المجال الاقتصادي والتجاري .

٦ – تحديد آليات للحوار الداخلي بين المسلمين وأخرى للحوار مع غيرهم .

إن الإبقاء على تعدد الدول لا يتنافى مع تحقيق درجة عالية من التوحد في المجالات الدينية، والثقافية، والاقتصادية، والحضارية لبلوغ درجة من الوحدة الإسلامية وترك المجال مفتوحا للتطوير .

خامسا : التعددية الاجتهادية :

هناك نظرة سلبية جدا لدينا نحو التعددية في المسائل الاجتهادية. ينبغي أن تكون نظرتنا لكل أنواع التعددية المذهبية والفكرية الإسلامية إيجابية لأنها إحدى نتائج الحرية اللازمة . على أن نلتزم في هذا الصدد بأمرين هما :

الأول : التسليم بالقطعي ورودا والقطعي دلالة من نصوص الإسلام .

الثاني : تجنب التعصب لاجتهادنا الخاص . والتعامل معه بقاعدة اجتهادنا صواب يحتمل الخطأ ، واجتهادكم خطأ يحتمل الصواب. هذه

النظرية المرنة للتعامل المذهبى مع التراث المنقول ومع العطاء الإنسانى ومع الاجتهاد الآخر هو المطلوب لإخراج أنفسنا من الانكفاء ومن التعصب الذميم .

التعددية فيما عدا وحدانية الذات الإلهية جزء لا يتجزأ من نظام الكون، وينبغى التخلص من النظر إلى فرقة واحدة ناجية فمن كفر مسلما فقد باء بالكفر أحدهما، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وليس من طلب الباطل فأصابه كمن طلب الحق فأخطأه .

إن الإنسان هو محور رسالة الإسلام لإسعاده فى الدنيا والآخرة . وكل هداية للإنسان ينبغى أن تراعى عوامل الزمان والمكان. الشريعة الإسلامية تفوقت على الملل والنحل الأخرى لاعترافها بالإنسان كإنسان وتكريمها للإنسان كإنسان، ومراعاتها لظروف المكان والزمان .. إن إهدار هذه المعانى إهدار لمقاصد الشريعة . **وللإنسان عشرة مطالب أساسية تفتقر إلى إشباع متوازن هى: المطالب الروحية - الخلقية - العاطفية - المعرفية - المادية - الاجتماعية - البيئية - الجمالية - الرياضية - والترفيهية .**

إن الإسلام دين الفطرة - فطرة الله التى فطر الناس عليها - مستبين لتلك المطالب ولضرورة إشباعها إشباعا موزونا على المسلمين السعى لتحقيقه اجتهاديا فى ظروف الزمان والمكان المختلفة .

سادسا : الحركة فى الشريعة :

الإسلام عقيدة وشريعة . الشريعة الإسلامية فيها عبادات ثابتة ومفصلة ومعاملات مرنة . منذ عهد الخوارج **هناك من جعل أمر السلطة السياسية – الإمرة – كالعبادات – وهذا عين الخطأ الذى وقع فيه الخوارج** ومن خلفهم بعد ذلك . علينا أن ندرك بوضوح :

(أ) أن العبادات مفصلة وثابتة لكن المعاملات معممة ومتحركة .

(ب) الثابت من أحكام الشريعة لا تؤثر فيه عوامل الزمان والمكان . أما المعاملات – أى المتحرك من مقاصد الشريعة فإن الثبات يفسده ويؤدى إلى عكس مقاصده .

(جـ) الأمة باجتهادها المستمر مكلفة بتطوير فقه المعاملات على أساس لكل وقت ومقام ولكل زمان وأوان رجال .

فى ظروف معينة ، وأمام زحف التتار على ديار المسلمين اجتهد بعض الفقهاء ورأوا أن حماية بياض الإسلام توجب تقديس المسئولية السياسية ، وعلى نفس النمط اجتهد الشيخ أبو الأعلى المودودى وصاغ مفهوم الحاكمية لله على نحو تشابه لمقولة الإمرة لله .

إن الذين رأوا باجتهاد معاصر أن يعطوا الإمرة أو القيادة السياسية قدسية تناهز قدسية العقائد والعبادات مهدوا للتطرف الإسلامى المعاصر الذى جعل أصحابه السياسى هو موقف الأمة كل الأمة ونفى رأى الآخرين باعتباره كفرا وخروجا عن ملة الإسلام. **هذا الاعتقاد هو الذى مهد للتيارات الاحتجاجية المتطرفة المعاصرة .**

نعم إن المسلمين فى محنة ويواجهون اضطهادا عظيما وإذلالا على يد الهيمنة الدولية وإسرائيل . إن أصحاب هذا الاتجاه اعتبروا أنفسهم مبعوثى العناية الإلهية؛ واستحلوا لأنفسهم العمل لاستلام السلطة بالقوة والانفراد بها واستحلوا لأنفسهم استخدام أساليب العنف العشوائى الذى يزهق الأرواح البريئة ويدمر الأملاك فى سبيل تحقيق أهدافهم .

الإمرة لا تكون فى شريعة الإسلام إلا عن طريق: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ الآية (٣٨ – الشورى). والعمل من أجل الأهداف مهما عظمت لا يكون إلا بموجب : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ .. الآية (١٢٥ – النحل) . والقتال فى الإسلام له ضوابطه وهى : الدفاع عن النفس وعن حرية الدعوة. **إن ربط الإسلام بالسلطة السياسية المستبدة، وربط العمل الإسلامى بأساليب العنف العشوائى جلب للإسلام ضررا كبيرا وأعطى أعداءه حجة قوية للنيل من ديباجته الوضاءة .**

إن علينا معشر أهل القبلة أن نرفض أية عملية استيلاء على السلطة بالقوة القائمة . وأن نرفض أية دولة تقوم على أساس بوليسى يقهر الناس . وأن نرفض أية صلة بين الدعوة للإسلام والعنف العشوائى . وأن نعتبر الاستيلاء على السلطة باسم الإسلام ترهيبا بعيدا عن مقاصد الشريعة، كما نعتبر أية دولة بوليسية قاهرة خارجة على مقاصد الشريعة .

لقد صار نهج الذين ربطوا الإسلام بالاستبداد الغاشم وهم فى السلطة، والذين انتهجوا العنف العشوائى كأسلوب لمعارضة النظم الشرعية، وإن

كانت ظنية، سيئة على الإسلام، ووسيلة للإساءة إليه ، ومخلب قط للتدخل الأجنبى، لذلك وجب علينا أن نتبرأ منهم ونذين نهجهم.. هذا طبعا لا ينطبق على الذين يتخذون العنف أسلوبا لمقاومة الاحتلال الأجنبى، فهم إنما يردون على العدوان بمثله : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ الآية : (١٩٣ – البقرة).

إن أسلوب الدعوة المشروع هو بالتى هى أحسن ، والتغيير المشروع هو بالتعبئة الشعبية وبالعمل المدنى الخدمى وبالترجيح الديمقراطى لأن أساليب العنف ضد النظم المؤسسة بشرعية ذات قبول واسع يؤدى لنتائج عكسية، **لاسيما العنف العشوائى والانقلابات العسكرية التى ما بنت قصرا إلا هدمت مصرا وما ادعت عمل إصلاح إلا أتت أضعاف أضعافه من الإخفاق.**

سابعا : التحول السياسى :

إن الضغط الإصلاحي المنظم – على كل الأصعدة – من شأنه أن يحقق إصلاحا ديمقراطيا، وأن تدرج فى النظم القائمة، ودلائل هذا الإصلاح ظاهرة للعيان وكل من سار على الدرب وصل. **إن الخريطة الإسلامية على المستوى الشعبى مكونة من :**

١ – هيئات ومنظمات وتكوينات تقليدية لها دورها الدينى والثقافى والاجتماعي الإسلامي ولها سندها الشعبى العريض وإن كانت على درجة عالية من الضمور فى حركة تغيير المجتمع .

٢ – جماعات احتجاجية مندفعة انتهجت العنف العشوائى وصار لها درجة من التأييد فى مجتمعاتنا ذات الإحساس القوى بالظلم نتيجة الاضطهاد والهيمنة الأجنبية وتكوينها البشرى الذى يغلب عليه الشباب العاطل من العمل . هذه الجماعات جعلت دورها السياسى مقدسا وأسقطت على نفسها دور الأمة وقدست قيادتها وكفرت المجتمع الواسع .

٣ – مفكرين إسلاميين على درجة عالية من الوعى والاستنارة والالتزام الإسلامى والإحاطة بالفكر الإنسانى والتجارب الإنسانية المعاصرة ولديها مقدرة عالية على استصحاب النافع من فكر وأساليب العصر. لكن هؤلاء مع وضوح رؤيتهم لا يجدون سند الهيئات التقليدية الشعبى العريض ولا تأييد الشرائح المتحمسة الشعبية المندفعة فى تأييد حركات الاحتجاج .

٤ – أنصار الله ينتمون إلى دعوة المهدية فى السودان . إن مدارس المهدية فى الإسلام عشر مدارس : ثلاث شيعية هى الاثنى عشرية ، والشيعية ، والزيدية . وأربع سنية هى : صاحب آخر الزمان ، وإمام القرن ، ومدرسة فخر الدين الرازى القائلة بالشاهد لله بالحق ، ومدرسة ابن كثير القائلة باثنى عشر مهديين. ومدرستين صوفيتين : مدرسة ابن عربى والمدرسة القائلة بخاتم أقطاب الزمان ، ومدرسة فلسفية قائلة برئيس المدينة الفاضلة . المهدية فى السودان سنية ومقولتها تجعل المهدية وظيفية وهى وظيفة إحياء الكتاب والسنة بصورة ذات خصوصية تجيز لها تعليق المذاهب وإبطال التفرق بين المسلمين عودة للكتاب والسنة .

هذا موقفها النظرى. لكن موقفها من الخريطة الإسلامية الشعبية هو أنها جمعت ما تفرق بين التكوينات الإسلامية فهى ذات موروث شعبى تقليدى عريض، وهى ذات طلائع فدائية متحمسة، وهى ذات كوادر فكرية مثقفة لذلك يرجى أن يكون لها عطاء إسلام فى داخل السودان وفيما يتجاوز السودان داعية لنهج إسلامى ملتزم ومستنير بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة .

إننا فى هيئة شئون الأنصار المنبر التنظيمى لهذه الدعوة نخاطب أهل القبلة أن حى على الفلاح تلبية لنداء الإسلام نداء المهتدين راجين أن يتخذ كافة أهل القبلة على نحو ما اقترحنا .

وفقنا الله لمرضاته . آمين .

﴿قل هذا سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾

الصادق المهدى

صاحب العهد مع أنصار الله

الفهرس

رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٧١١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5961-6

١/٩٩/١٠٧

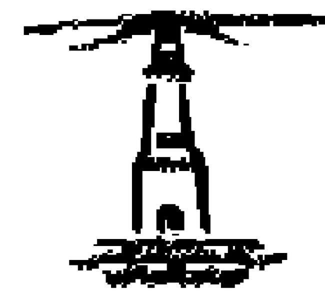
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

قرش جنيه
٢,٠٠

لماذا يكره الناس بعضهم البعض ؟
وكيف يمكن أن يتحول الصراع بين الحضارات إلى حوار بين الحضارات ؟
الإجابة يطرحها هذا الكتاب، وتتلخص في كلمات بسيطة « لابد من قبول الآخر». بمعنى.. « قبول الرأى الآخر».

ولأول مرة تكسر « اقرأ » الشكل النمطى للكتاب.. فنحن الآن أمام قضية فى كتاب أو ثلاث رؤى مختلفة لقضية واحدة أبطالها ثلاثة فرسان، فالقضية يطرحها دكتور/ ميلاد حنا ويحاوره فيها المفكر العربى الصادق المهدى رئيس وزراء السودان السابق، والمثقف الإيرانى محمد صادق الحسينى.

كتاب غير مسبوق شكلا وموضوعا .. يطرح قضية بالغة الأهمية والخطورة.



دار المعارف

٤٠٧٠٨١/٠١

